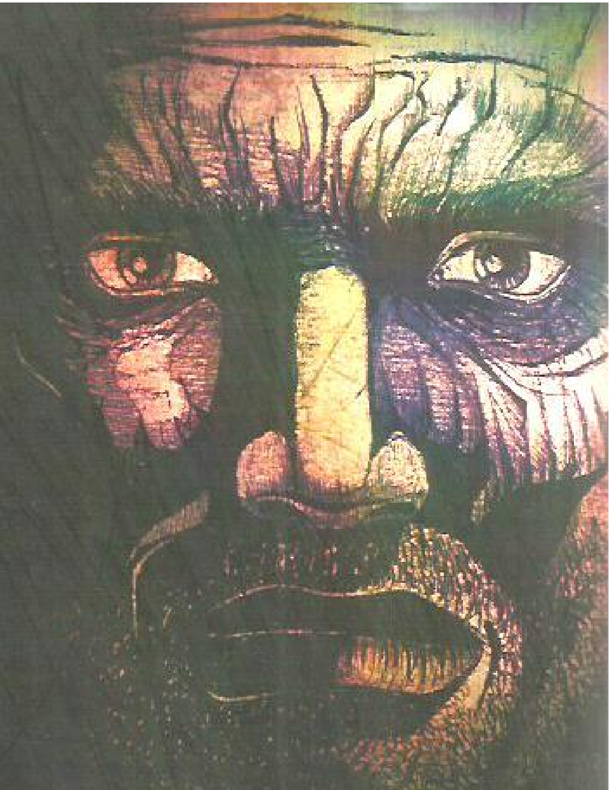

الطبعة ٢

أحمد صلاح سابق

النمرود

رواية

كيان للنشر والتوزيع

النمروذ

أحمد صلاح سابق

الطبعة الأولى ٢٠١٣
الطبعة الثانية ٢٠١٣

اسم الكتاب: النُّمروذ

تأليف: أحمد صلاح سابق

مراجعة لغوية: أحمد يحيى، ضحى صلاح

رقم الإيداع: 2012/20909

الترقيم الدولي: 978-977-6376-30-4

***

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُّ اقتباس أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

داركيان للنشر والتوزيع – ٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو أم المصريين – الهرم
محمول: ٠٠٥٢٤٨٧٩٤ . ١٨٧٢٢٩ – أرضي: ٢٣٥٦٨٨٦٧٨
www.kayanpublishing.com – info@kayanpublishing.com

النُّمروذ

احمد صلاح سابق

رواية

فجمع النُّمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم بابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلَّطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظامًا بادية، ودخلت واحدةٌ منها في منخري الملك فمكثت في منخريه أربعمائة سنة، عذَّبه الله بها فكان يُضْرَب رأسه بالمرازب في هذه المدَّة كلها حتى أهلكه الله بها.

تفسير ابن كثير

فهرس الفصول

دِفَاعًا عَن النَفْس ٦

خُسُوفٌ كُلِّيٌّ ٣٤

رِمَالٌ ورِجَال ٧٣

الصَّرَاصِير ١١٩

ضَرْبَةٌ بِالمِرْزَبَّة وَلا عَشَرَة بِالشَاكُوش ٢١٤

اشْتِبَاكٌ مُتَقَارِبُ المَدَى ٣٠٢

المُكَعَّب ٣٦٣

شَارِبُ الدَّم لا يَرْتَوِي ٤٧٤

الفصل الأول:

دِفَاعًا عَن النَّفْس

"كل يومٍ قضيته طليقًا، هو يوم غلبتهم فيه.

كل وجبةٍ طيبة أكلتها، هي وجبة لم ينتزعها مني أحد.

كل نَفَسٍ استخلصته من الهواء، هو نصر سلبته من الدنيا."

تعرَّضتْ أمس معظم محافظات الجمهورية، خاصةً في الشمال والشرق، لسقوط أمطارٍ غزيرة ورعدية، وصاحب ذلك انخفاضٌ شديدٌ في درجات الحرارة، وزادت سرعة الرياح إلى حد العاصفة على مدينتي الإسماعيلية والعريش، وقُطعت الكهرباء عن أحياء سكنية في محافظتي البحيرة والدقهلية. وفي القاهرة، واستمرارًا لحالة عدم الاستقرار في الجو، هطلت الأمطار الغزيرة لساعاتٍ متصلة، وتحوَّلت تجمعات المياه في المواقع المنخفضة ومنازل الجسور وداخل الأنفاق إلى بركٍ من المياه، وحدث ارتباك شديد في حركة المرور. وقد أكَّدت الهيئة العامة للأرصاد الجوية أنها حذَّرت المواطنين من حالة عدم الاستقرار التي تشهدها البلاد، وذلك بسبب تأثرها بمنخفضٍ جوي، وأكَّدت أيضًا أنه من المنتظر تحرُّك المنخفض جهة الشرق، بعده يحدث ارتفاع طفيف وتدريجي في درجات الحرارة. ثم انقطع التيار الكهربي عن القاهرة والجيزة والقليوبية والضواحي، وأُسدِل على العاصمة ظلامٌ دامس، وتحوَّلت العاصفة والأمطار إلى كارثةٍ كبرى عطَّلت حياة خمسة عشر مليون مواطن. أصاب الشلل مرافق العاصمة كافة، وانقطع ضخ الماء عن آلاف المنشآت السكنية، وتوقف العمل في ثمانية وعشرين مستشفى من ضمنها مستشفيات قصر العيني، وتعطلت المصانع والبنوك، وأصيب قطاع النقل والمواصلات بأضرارٍ كبيرة. أما على الطرقات، فقد توقفت الحياة تمامًا، وانطفأت أعمدة الإنارة والإشارات الضوئية في الشوارع، ومُنيت حركة المرور بالشلل التام، وقامت قوات الدفاع المدني بإجلاء ما يقرب من عشرين ألف راكب من المحطات المظلمة لمترو الأنفاق، بينما لم يتمكن مائتا ألف شخص من الوصول لأعمالهم، وفسدت أطنان من المواد الغذائية في ثلاجات المطاعم والمتاجر الكبرى والمصانع، وقُدرت الخسائر المبدئية بمائتي مليون جنيه.

* * *

إنه بعد منتصف الليل من يوم السبت، في شارع السلام المتفرع من ميدان الرماية بالهرم. على فيلا راقية من طابقين، هطلت الأمطار بكثافة، فتحوَّلت حديقة الفيلا إلى بحيرةٍ فائرة. غلبت على غرفة النوم بالطابق الأول ظلمة لم يُبدِّدها سوى ضوء صادر من كشَّاف للطوارئ. افترشت الأرضية جثثٌ أربع. الأولى لرجلٍ التف حول عنقه حزام جلدي سميك، والثانية لرجل تحطَّم رأسه بضربات قوية من جسمٍ حاد وثقيل، والثالثة

لرجلٍ تلقى طعنات نافذة بالعنق والصدر. الجثة الرابعة للمدعو صُبْحِي نُعْمَان، وكنيته «أشْمُوط». ولأن الخير درجات بعضها فوق بعض، والشر دَرَكَات بعضها دون بعض، تبوَّأ هذا الرجل من الدنيا دركًا، هو الأحط بلا منازع. جلس قرب الفراش برأس مُتَكَّسَة ساكنة، وقد تلقَّى وحده عشرين طعنة مَزَّقت صدره وبقرت بطنه.

الفراش كان منقوعًا بالدمِ، عليه رقدت شابة جامعة لصفات الحسن، بشرتها ناعمة بيضاء يبرق بهاؤها على الرَّغْمِ من صقيع الموت. انتهت حياتها بتسع طعنات اخترقت القلب والرئتين والكبد، فأحدثت نزيفًا داخليًّا مميتًا.

وعلى طرف الفراش جلس هو، ولم يصدر منه ما يدل على الحياة إلا أنفاس ضعيفة. هو شاب برونزي البشرة، طويلٌ نحيل، في أواخر العقد الثاني من العمر. بدنه مُنسَّق مدمك العضلات، خاض رحلةً شاقةً إلى مبلغه من التكامل واعتدال التركيب. شعره قصير كثيف، ووجهه جميل بارز العظم، وعيناه مستديرتان كحيلتان، لهما سعة ونجابة. نبع منه العرق غزيرًا على الرَّغْمِ من برودة الطقس بالخارج، لأن الحر في الغرفة اشتد مع ركود الهواء.

انكشط وجهه في أكثر من موضع، وغارت الجروح في رأسه. أحَسَّ أن كل ما يحيطه مُفبرك مُرتبك. هذه الأحداث لم تنمُ منطقيًّا، بل تقدَّمت بالتراكم. اقتحام الفيلا والصراخ. الانفلات من المهاجمين الأربعة والجري للمطبخ. زوجته معهم وحدها في الغرفة. الساطور الذي أخذه من المطبخ.

من تلك اللحظة فَصَاعِدًا جرت الأحداث بقسوةٍ وشدَّة، فكانت عرضًا للثبات والإصرار والتعلُّق بالحياة ضد القوى المهلكة. تذكَّر كيف جرى بأقصى سرعة عائدًا إلى زوجته، وتذكَّر كيف امتد الصراخ بالداخل قبيحًا متداخلًا، وتذكَّر لما رآهم عندما اقتحم الغرفة. تكاثر عليها الأربعة رجال، فهجم على أول من رآه منهم، وأخذه غدرًا من خلفه بضربة عاتية بالساطور شقَّت مؤخرة رأسه. عندئذٍ انفض الرجال عن الفراش، فانكشفت زوجته وكانت ما تزال حيَّة، ورأى أشْمُوط جاثمًا عليها وذَكَره الضخم يتدلَّى من سُوسَتَة سرواله. ضرب أشْمُوط الشابَّة بسكينٍ مارد في أنحاء جسدها، فانتفضت وبذلت الروح في شدَّة، بينما يَشْخَبُ منها الدم.

عند ذاك استبد بالشاب سعارٌ مجنون، وانقض مطوحًا بالساطور يمنةً ويسرةً، فتمكَّن من جندلة ثلاثة، وقطَّع في الرابع بلا رحمة. ثم لم يتبق إلا أشْمُوط. قبض هذا العملاق القبيح على سكينه الضخم وما زال دم ضحيته منطبعًا عليه. كانت لحظة نفسية قاهرة، دارفيها كلٌ منهما حول خصمه، وهو يلهث ويزوم بعمقٍ وعسر، ثم اشتبكا في تعاركٍ وحشي سَعَى كلٌ منهما فيه لإحداث إصابة مهلكة في خصمه، بالنصل والناب واللطم والدفع. تخبَّط الرجلان المتصارعان في جنبات الغرفة مثيرين فيها الفوضى والتحطيم، وتصاعدت منهما الدَمْدَمَة والعِيَاط. وفور أن لاحت للشاب ثغرةٌ من جسد أشْمُوط، حتى دفع سلاحه بقوَّةٍ ليخترق بطن غريمه وينفذ إلى أمعائه. لحظتها صرخ أشْمُوط بغلظةٍ وشدَّةٍ وألمٍ هائلٍ، وحاول إخراج الساطور من جسده، لكن الشاب تمسَّك بمقبض سلاحه وشقَّ به بطن العملاق في اندفاعة عنيفة. ثم إن سعار الدم أصابه فأعمل في أشْمُوط الطعن والتقطيع.

وها هو الآن، جالس وحده في ساحة المعركة وقد غلبه ذهولٌ شاهق. أخذ هاتفه، وطلب رقمًا. ولم يكن له إلا الانتظار. هل يريد البكاء، أو الصراخ؟ هل يشعر على الأقل بفداحة المصاب، وفظاعة الكارثة التي حلت به اليوم؟ لا، إنه لا يشعر بشيءٍ على الإطلاق. كل ما فعله أن جعل وجهه بين كفيه، ويَبس بلا حركة، حتى مضى نصفُ ساعة، وأزَّ هاتفه المحمول بذبذبة متسارعة. هنا نهض وخرج من الغرفة، ومضى في طريقه حتى باب الفيلا، وتجاوزه بتمهُّل إلى الخارج. لا تزال الأمطار تهطل دون انقطاع، حتى أنه تَبَلَّلَ تمامًا فور خروجه، فغسله الماء غسلًا مما علق به من الدم.

لاحت سيارةٌ تقترب بأنوار خفيفة بالكاد تكشف موطئ القدم أمامها. انفتح الباب الخلفي، وهبط رجلٌ مستديرٌ كالكرة، حَثَّ خُطاهُ بنشاط نحو الشاب. ما أن بلغه حتى تبادلا بضع كلمات، على أثرها بدت على القادم دلالات الفزع. وضع رأسه بين كفيه، وجعل يتساءل بصوت متقطِّع ذاهل: "قتلوها؟! قتلوا أسْمَاء؟!"، ثم قال غير مصدِّق: "أنا نبِّهتك! لكنك شخص غير مسؤول!"، ثم إن انفعالاته جاوزت الحد إذ يكشِّر عن أنيابه ويقول بهياج: "أنا قلت لك إنك وأهل بيتك في خطر! والليلة دي بالذات!"، وصرخ: "أنا مش فاهم، كنت منتظر إيه؟!" وجعل يتساءل مُلتاعًا: "العمل إيه دلوقت؟!"

لم يبد على الشاب أدنى تأثر، فزاغ بصر الرجل ريبة، وجعل يتفكَّر في حل لهذا التطوُّر

الخطير. نكَّس رأسه مفكرًا بعمق، ومحاولاً تهدئة أعصابه. ثم اعتدل في وقوفه، وبدت عليه جديَّة خطيرة، وقال للشاب بحميَّة: "إحنا دلوقت نحتاج للهدوء والثبات.. الموقف خطير، وهم سبقونا بخطوة." تعلَّق بصر الشاب بالفراغ والأمطار، وبان أثر البرد على بشرته فازرقَّ وارتعش.

"ركِّز معايا يا حسين، الموقف لا يحتمل التهاون.. الناس دي مش حتكتفي باللي حصل.. التعديل في الخطة ضروري، وتحركك دلوقت، مسألة حياة أو موت.. أمامنا هامش حرية ثلاث ساعات للحركة.. أنا جهِّزت كل شيء." قالها الرجل السمين، ثم هرول في الماء كمن يصارع فيضانًا، وعينا الشاب تتابعانه بنظرةٍ مُجوَّفة. بعد مشقَّة وصل الرجل السمين إلى سيارته، ثم عاد وفي يده حقيبة، وقال لاهثًا: "حتخلع هدومك هنا، وتلبس الهدوم دي. وأخذه من منكبيه بقسوة، وقال بغلظة والرذاذ يندفع من فيه: "دي فرصتك الوحيدة.. كلهم النهارده، وبضربة واحدة.. دم مراتك مش حيبرد إلا وهم في جهنم."

لم يتردَّد الشاب أو يفكر، بل خلع سرواله المبلَّل بحركة آلية، وأخذ يرتدي ما في الحقيبة من ملابس، بينما يُلقنه السمين ما ينبغي عليه أن يفعل حرفًا حرفًا. ناوله هاتفًا محمولًا صغيرًا، وحدَّد معه موعد ومكان اللقاء، وشدَّد عليه في تقصيِّ السرعة والصمت، وقال أيضًا: "أنا مش حأقدر آجي معاك في أي نقطة من العملية، ولا حتى النونو.. كل خطوة لازم تتمها بنفسك.. الظروف ممتازة: الكهرباء مقطوعة، والشوارع خالية تمامًا.. عامل المفاجأة نقطة في صالحك، وسلاحك عارف حتجيبه منين.. تمام؟"

وقبض على ذقنه كمن يجذب اهتمام صبي صغير، وعطف رأسه جهة سيارة جيب رباعية الدفع تقف تحت المطر، وقال: "عربية جراند شيروكي تخلَّص بها مصلحتك.. رخصتها مزوَّرة، بلوحة أرقام مِتكَهِّنَة، يعني الوصول لأصلها مستحيل." أحكم الشاب إقفال زر سروال الجينز الداكن، وحشر قدميه في حذاء رياضي، ثم ارتدى صديرية مضادة للرصاص، وأدخل يديه في قفاز تكتيكي مُصَمَّم لحفظ التحكم عند إطلاق النار. وقال له الرجل مُنذرًا: "ما تسيبش وراك أثر، تِخلَّص مأموريتك قبل أول نور.

ومال عليه، وقال بغلظة: "حياتي وحياتك مرتبطين بحسن تصرفك، وسرعتك.. اعتبر

أن اللحظة دي، هي اللي تم تدريبك علشانها السنين اللي فاتت.. ما تسيبش الموقف يرهبك أو يسيطر عليك.. الحاج الكبير مجرد بني آدم، بيموت زي الناس.

تبادل الرجلان النظر وقد علقا في الزمن، يتنفسان بعمق كأنما يستمد كلٌّ منهما العزيمة من غريمه. ثم ضرب السمين على كتف الشاب، وقال له بحَمِيَّة: "السيدة زينب الأول، وبعدين قصر الفردوس.. على بركة الله.

نظر إليه الشاب بجمود، ثم اندفع مُقتحمًا الحديقة الغارقة في طغيانٍ فائر من الماء، تابعت عينا السمين اللئيمتان الشاب وهو يركب الجيب، وكان في قرارة نفسه سعيدًا بما حدث، ويشكر لنفسه حسن التدبير، ويعلم أن هذا الشاب ما كان ليتحرك لولا صدمة مزلزلة تقلعه عن جذوره.

***

منذ أحد عشر عامًا، شهد السيد رئيس الجمهورية -الرئيس الأعلى لهيئة الشرطة- احتفال وزارة الداخلية بتخريج دفعات جديدة في كلية الشرطة. قدَّم الطلاب عددًا من العروض الرياضية والاستعراضية والتشكيلات المهارية، وجسَّدوا بعض المهام الأمنية التي تعتمد على الدقة في التدريب، والقوَّة في الأداء، والمهارة في استخدام السلاح. صدَّق السيد وزير الداخلية على منح الخريجين درجة الليسانس في القانون والشرطة، ثم قلَّد السيد رئيس الجمهورية الأوائل نوط الامتياز من الدرجة الثانية. وكان من ضمن هؤلاء، السابع على دفعته، شاب جميل الطلعة، برونزي اللون، ملازم أول تحت التدريب حسين حربي.

فور تخرجه عمل في شرطة مكافحة الإرهاب بجهاز أمن الدولة، ثم التحق بالإدارة المركزية لإنقاذ الرهائن بإدارة العمليات الخاصة الملحقة بمباحث أمن الدولة. خاض العديد من المهام القتالية ومداهمة أوكار الإرهابيين وتجار المخدرات في جبال شمال سيناء، ونفَّذ عمليات اقتحام في وديان المغارة والريسان وعينزة، وتولَّى فيما بعد دورًا تنسيقيًّا بين الإدارة العامة لمكافحة المخدرات ومكتب مكافحة المخدرات الأمريكي بالقاهرة.

أُنشِئَت وحدة خاصة، هي قناة اتصال وتنسيق بين الإدارة العامة لمكافحة المخدرات

ومباحث أمن الدولة، تتألَّف من ثلاثين شخصًا: مستشارين وخبراء وباحثين وضباط، وتولَّى رئاسة الوحدة اللواء محروس عسل مساعد أول وزير الداخلية لقطاع الأمن، وتولَّى حسين حربي نيابة الرئاسة بفضل توصية وقحة ومباشرة من شخصية كبيرة جدًّا في وزارة الداخلية، تجاوزت به جمعًا كثيفًا من الضبَّاط الأكفاء أصحاب الرُّتَب الأعلى. أُطلِقَ عليها اسم «الوحدة ٣٠»، نسبةً لعدد أعضائها الأوائل، وهي تضم الآن مائة وعشرين شخصًا من الضباط الأفذاذ وأساتذة الجامعة، وتحظى بإشرافٍ مباشرٍ من السيد وزير الداخلية. مدَّت «الوحدة ٣» الإدارة العامة لمكافحة المخدرات بذخائر من البيانات، تمخَّضت عن عمل مستمر ليل نهار، يستقبل فيه أعضاء الوحدة المعلومات الواردة من كافة الجهات، ويجرون تحليلًا شاملًا لكل معلومة ومصدر، ويطرحونها مُفسَّرة أمام الجهات التنفيذية المختصة.

بقرار من السيِّد وزير الداخلية أُفرِد للوحدة مبنى من ستة طوابق على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، وضُرب حوله إطار أمني مكثف، وأصبح لنائب رئيس الوحدة فيه -وهو حسين حربي- مكتب خاص وسكرتارية وخطوط اتصال مباشرة بعدد من مساعدي السيد وزير الداخلية. يسعى الموظَّفون بين حجرات هذا المبنى ومعداته المتقدمة كسعي النحل بين خلاياه، في درجة من الضغط مضاعفة، وعالم موازٍ من اليقظة الفائقة.

هذا هو المقدم حسين حربي.. في العلن.. لكن ما تحت الجلد أدهى وأمر. إنه يتذكر الآن.. سيِّده، وعرَّابه.. الحاج جوهر الجارحي.. ما زال لحديثه معه في تلك الليلة الغابرة موقعًا في النفس لا يُنسى. هذا الوجه العجوز المترمِّت، وهذه اللحية المنمَّقة الناصعة، وهذه النظرة النافذة. إنه يتحدث إليه بمنتهى الحرص، وإن الشاب ما يزال مراهقًا يطرق أعتاب العشرين. ولو أن الحاج يعالج تحفةً ثمينةً من خزف، لما حرص عليها ووضعها في حبة عينيه كشأنه ساعتها مع الرجل الصغير.

أُبرِم بين الشاب والحاج ميثاقٌ غليظ. وإن الحاج لم يختره هو بالذات لهذا الغرض بغير عِلَّة. إنه، ومنذ الصغر، يُعتبر من قبل المحيطين به غلامًا عدوانيًّا معقدًا، ولقد أوتي على حداثته سعة في المنطق وألمعية، ما تعارض مع تقلُّباته الزئبقية المتوثبة.

اجتمع به الحاج مرارًا، واستمع الغلام منه مأخوذًا. كان يجلس بين يديه كالميت بين يديّ غاسله، يقلبه كيف يشاء، حتى مضت عليهما الأحد عشر عامًا، كان فيها الحاج على عتب التمهيد لإمبراطورية، سيكون لها تأثير فادح على حركة الاتجار بالمخدرات في مصر. وكان الشاب إحدى دعائم بنيانه الجديد، حفر له موقعه، وهيأ له جذوره، ولم يبق إلا غرسه وسقياه.

مع خطوة الشاب الأولى على أسفلت أكاديمية الشرطة، علم أنه ليس إلا عينًا لسيده، خلفيتها نظيفة ومشرفة، وسجلها خالٍ من المعايب، وطريقها مضمون. سنوات مضت بين حركة إنشاء مستمرة للإمبراطورية، وحياة جافة تعلم فيها الشاب كيف يتدبَّر أمره في منظومة لا ترحم، لكل خطأ فيها أو هفوة ثمن، وخارج أسوار الكلية اختبر عالمًا موازيًا خاض فيه حروبًا من ألعاب العقل. ولأنه كان حجر الأساس في سياسة شاملة انتهجها الحاج لجمع المعلومات، فقد شمل إعداده ترتيبات طويلة الأمد. تعلَّم معالجة الوثائق والتصوير والتسجيل، والتسلل وزرع أجهزة التنصت، وتلقى تدريبات مكثفة حول أساليب الاتصالات المستترة والاستنباط والمراقبة، وتقنيات تجاوز الأقفال والخزائن بأساليب سحرية، وعَلِمَ أن العامل الغالب على عمله لن يكون العنف، بل الاستغلال والتلاعب والخداع.

بمرور الأشهر والسنوات، بين حياة خشنة داخل أسوار الكليَّة، وأخرى سريَّة بين الزراعات، أصيب الشاب بفتور تجاه المؤثرات المحيطة، واستعلاء تام على الإحساس بمعاناة الآخرين. لم يعد ثمَّة شيء يستحثه أو يدهشه أو يخيفه. انعزل عن العالم المحيط في كبسولة محكمة، لم يعد يسمع فيها إلا صوت أنفاسه القادمة من بعيد، عبر مواسير طويلة، بتردد عميق وبطئ. ولما جاءت اللحظة التي خرج فيها من الشرنقة على طور كامل البلوغ، علم أن مكانه مُهيًأ. للحاج الكبير نفوذ واسع واتصالات متشعِّبة، هيَّأت للشاب موقعًا ممتازًا من بداية حياته. لم يكن للحاج يَوْمَئِذٍ سجل جنائي مشوه، لأن إمبراطوريته كانت ما تزال في طور النمو، وأعماله ما تزال في طيِّ الكتمان، فما زال يستغل نفوذه وحضوره بين أهل الصفوة وكبار رجال الدولة في تسيير شؤونه كيفما يريد.

وبينما ينمو الكيان الذي أسَّسه الحاج إلى تنظيم إجرامي قوي ومخيف، خطا الشاب -الملازم أول تحت التدريب حسين حربي- أولى خطواته في حياته المهنية. لم يكن عليه أن يفعل شيئًا إلا الكمون في موقعه كجاسوس نائم، يبذل فيه أقصى جهد، ويشق مشواره المهني بمنتهى الشرف والتفاني. وخلال السنوات التالية، وبعد فوزه بوظيفة رفيعة في مباحث أمن الدولة، دأب الشاب على شق أنفاقه في دهاليز وزارة الداخلية، مُجِدًا في البحث عن بيانات سرية للغاية تُطلب منه بصفة منتظمة، بينما ينمو كيان الحاج التنظيمي إلى مشروع عائلي طموحه بلا حدود، يعتمد في حمايته على جماعات مسلحة تستتر بجبال الصعيد وزراعاته. وصار السيد الكبير يخوض في ألعابه الخشنة بحرية، وأسفر عن وجهه ونشاطاته دون خشية، مُحتميًا بشبكة مفصلية من العلاقات والاتصالات والمصالح المتشابكة.

بذل حسين جهودًا مخلصة في تَتَبُّع وتجميع وتحليل كميات من الوثائق دفعت عن التنظيم الإجرامي الناهض -الذي اِصْطُلِحَ على تسميته «العائلة»- أخطارًا شتى، وأتاحت للحاج وأعوانه فرصة الحركة بهامش كبير من الحرية. تضمَّنت الوثائق محاضر تحريات اكتملت بعد سنوات مرهقة من المراقبة الدقيقة والعمل المتصل، ما وضع للعائلة موطئ قدم متقدم على وزارة الداخلية، وتَسَبَّبَت في أضرار بالغة لجهود مكافحة اتجار المخدرات في الدولة لسنوات متصلة. ثم كان ما كان من إنشاء «الوحدة ٣٠»، التي احتل فيها حسين موقعًا حساسًا، يتبع مقعد رئيسها مباشرة. الحق أن الحاج بذل مجهودًا مضنيًا واستنفر كل علاقاته كي يضع الشاب كنائب لرئيس الوحدة، ومع توليه منصبه، صار عمل الشاب أيسر عليه من ذي قبل. كان يأمر ببساطة بإحضار مجموعة من البيانات، فتأتيه مُفَهْرَسَة ومُرَتَّبَة ومُغَلَّفَة في مظاريف أنيقة بواسطة السكرتارية المُلحقة بمكتبه.

ولما خطت الداخلية أولى خطواتها للنيل من العائلة بضربات موجعة، كان التسرب قد بلغ مداه، وصار الثقب أكبر من أن يُرتق؛ ففشلت مخططاتها الواحد تلو الآخر. طالت شهرة الحاج الآفاق بشأن قسوته المُفرِطَة، وأساليبه البربرية في الخلاص من خصومه، فكم من جثثٍ عُثر عليها في مقالب النفايات والترع والمصارف، وكم من روايات

تواترت عن مجازر ارتُكبت في الصعيد راح ضحيتها عشرات، وعن مقابر جماعية تُعَد بصفة شبه شهرية.

كيف تخطَّى الشاب سنواته؟ تزوَّج من بنت عمه، وعاش في فيلا مترفة، وترقى في عمله. كيف كان في باطنه؟ مضى في حياته ينقرها نقر الغراب، ويتلفت فيها التفافة الثعلب إذ يعلم أنه مُطارَد، وخاض حالةً ممتدةً من المناورات الخطيرة والتركيز الشديد وضبط العواطف، متحريًا الحذر في كل أحواله، مراقبًا الناس في سره وعلانيته، محاسبًا نفسه على السقطة واللقطة. أعوام مرَّت عليه في حصر وضغط، فصار يُحدث نفسه كل ليلة: "كل يوم قضيته طليقًا، هو يوم غلبتهم فيه. كل وجبة طيبة أكلتها، هي وجبة لم ينتزعها مني أحد. كل نفس استخلصته من الهواء، هو نصر سلبته من الدنيا."

لكن التسرب كان خطيرًا، وضاقت الداخلية بإخفاقتها اللامبررة والمتكررة في مواجهاتها مع العائلة، حتى صار احتمال تواجد جاسوس ينخر في عصبها يقينًا، فشكلت مباحث أمن الدولة فريق تحقيق بصلاحيات مطلقة لكشف مصدر التسرُّب. وُضعت قائمة سرية من المشتبه فيهم ممن يُمَكِّنهم موقعهم من الاطلاع على وثائق سرية، وجرى بشأنهم تحقيق سري بمعرفة نيابة أمن الدولة العليا. اكتشفوا أن المعلومات المُسرَّبة لا يمكن أن تخرج إلا من عنصر موجود في موقع معين، وهو «الوحدة ٣». وُضِعَ جميع موظفيها تحت المراقبة، وخضعت ملفاتهم جميعًا لبحث مستفيض، وبينما يرتع حسين في موقعه، كانت الشكوك تحوم حوله، وتدابير مكره تأتي سوءًا كلها. البيانات لا يستطيع النظر فيها حصريًا ودون قيود إلا هو ورئيسه. والأدلة على تداوله لوثائق تركِّز بشكل مُحدَّد على عمليات العائلة مؤكدة. نعم كان حريصًا، لكن ليس بما يكفي فيما يبدو. الدأب في اقتفاء آثاره، وأخطاء لابد أنه ارتكبها أوقعته. ثم عرفوه. ورفعوا تقريرًا لرئيسيّ مباحث أمن الدولة والإدارة العامة لمكافحة المخدرات، ومنهما للواء عسل. استشاط اللواء عسل غضبًا وذهولًا من كم الأذى والتخريب الذي أحدثه نائبه، ولم تمض الأيام الثلاثة حتى صدر بحقه أمر اعتقال. وبدأ الكابوس.

ما زال يذكر لحظة القبض عليه كيوم وقعت. كان في طريقه لسيارته، عابرًا فناء مبنى إدارة «الوحدة ٣» إلى موقع سيارته، وقد أنهى عمله قبل الفجر بدقائق.

ثم لاح له ثلاثة ضباط أمن دولة، عرفهم فورًا بسيماهم، وعلم كذلك أنهم مسلحون. أحدقوا به من ثلاث زوايا بأسلوب منهجي، فطلب محاميه، وأمره باقتضاب أن: "احضر فورًا، أنا في مكتبي." ثم تقدَّم منه أحدهم، وخاطبه بخشونة: "عايزينك.

«عايزينك!».. يا لها من كلمة قلبت دُنيَاه رأسًا على عقب، ودمَّرته تدميرًا. أسابيع من التحقيقات القاسية المستمرة، باشرتها نيابة أمن الدولة بإشراف المحامي العام الأول. أدرك حسين أن الوضع خطير. إنه يواجه تهم مخيفة، تبدأ بتسريبه بيانات حساسة لجهات خارجة عن القانون، وعلاقاته المباشرة وغير المباشرة بثماني وثلاثين جريمة قتل واغتيال لتجار مخدرات ومخبرين وضبَّاط شرطة ومواطنين أبرياء، فضلًا عن مجموعة أخرى من التهم، من أهمها استغلاله لموقعه كموظف عمومي للحصول -بدون إذن رسمي- على معلومات عالية الحساسية. كذلك حقَّق جهاز الكسب غير المشروع في واقعة تضخُّم ثروته بما لا يوازي دخله.

تم إيقاف الشاب عن العمل، وقضى أيامًا طوالًا ضيفًا على مائدة التحقيقات، في جلسات تطول لساعات، لم يفارقه فيه محاميه إلا قسرًا وبسبل غير قانونية تعسَّف فيها ضباط أمن الدولة، وتعمَّدوا تعطيله وحجزه بالساعات وإساءة معاملته، وأهدروا حقه في الاطلاع على ملفات القضية. وعلى الرَّغْمِ من هذا، استطاع المحامي إثبات بعض النقاط التي عطَّلت مسار التحقيق: فنسبة كبيرة من المكالمات المُسجَّلة، والتي يعتمد عليها المحققون كدليل دامغ، إما غير واضحة أو غير مفهومة، حتى ليستحيل البت تحقيقًا في هوية المتحدثين. أما الوثائق السرية، فوقوع البصمات عليها أمر طبيعي؛ لأن لحسين -بحكمِ موقعه- حق الاطِّلاع على كل ورقة أو وثيقة سرية في «الوحدة ٣». أما شهادات مرؤوسيه وزملائه، فليست إلا كيديَّة، لا يقوم لها برهان أو قرينة. لكن القضية أكبر من القرائن الملموسة. لقد عقدوا العزم على تدميره بأي سبيل كان.

وتباينت استجابات حسين مع تقدُّم التحقيق في مجراه وإلمامه التدريجي بتبعات الموقف. لو صدر ضده حكم، فسيكون تطبيقًا لعقوبة الوصف الأشد، باعتبار أن أفعاله انتظمتها رابطة واحدة هي المشروع الإجرامي، وسيكون حكمًا نهائيًّا لا يجوز الطعن عليه باعتباره صادر عن محكمة استثنائية. هذا ما صارحه به محاميه بمنتهى

الأمانة.

ساعات مضت من التحقيق وهو رابط الجأش، يقدم إفادات ويدفع بمزاعم تبدو في ظاهرها أمينة وواقعية، لكنَّها في الحقيقة متضاربة وغير منطقية. وضعوه في موقع دفاعي، قضى بسببه كل وقته مقاتلًا، ثم ساءت أحواله عندما حاولوا السيطرة عليه بالإرهاب والإيذاء والإذلال بالقول والعمل: البصق في وجهه، وتهويشه بالصفع والسكع؛ فعانى من أشواط من الهياج مع أدنى إثارة أو استفزاز، وأبدى تصرفات مشاغبة ومضطربة وعنيفة، وامتنع عن الرد عن التساؤلات التي طرحها ممثلو النيابة، وتوعَّدهم وتعدى عليهم باللفظ، وفقد أعصابه أكثر من مرة، ونهض صارخًا: "ماذا تريدون مني؟!"، "سأطلق النار عليكم جميعًا!"، "سوف أقتلكم.. بكل سرور.. وأقتل آباءكم وأمهاتكم العاهرات.

***

كانت السيارة الوحيدة المتوسطة للطريق، بل كانت النور الوحيد في فضاء شاسع من الظلمات. ثابتًا كان الشاب في مقعده، يداه تحكمان القبض على عجلة القيادة، وعيناه موجهتان بتركيز إلى الأمام. مسَّاحتا السيارة تدوران جيئةً وذهابًا على الزجاج الأمامي في معركة يائسة مع المطر.

كيف اجتمعت الأحداث لهذا المآل المظلم؟ لقد استشف من حديث كبار العائلة نبرة مُنذرة لا تريح، وعلم أنهم سيتخلَّصون منه. كان يواجه أكبر امتحان في حياته ولم يكن الكبار واثقين أو مستعدين للمقامرة على قدرته على تجاوز محنته دون أن يجذبهم معه إلى القاع. إنهم يعلمون ضعفه الإنساني وردود أفعاله المتوقعة تجاه الأزمة الماحقة التي حاقت به، ويعلمون أيضًا أنَّه قاب قوسين أو أدنى من التضحية بهم. والحقيقة أن حسين في تلك اللحظات الفاصلة من حياته كان يمر بتحولات عميقة وجذرية زلزلت كيانه وقضت فيه على أشياء كثيرة. أصابته الأزمة بحالة من الضياع التام حاول إخفاءها بغلالة من الخشونة الزائفة والعصبية الشديدة. كان ما يحدث يضغط عليه من كل الجهات، ويشحنه بالبغضاء والتحدي تجاه كل الأطراف.

كانت حقائق الموقف الواضحة تؤكد أنه سينهار لا محالة، وأمام هذا الاحتمال

المخيف كان لابد للعائلة أن تتحرك قبل أن يدلي حسين بكم المعلومات الخطير الذي يعلمه عنها وعن آليات عملها، علاوة على علاقته المباشرة والشخصية بعميد العائلة نفسه وحفيده، ما يجعل موقفهما في غاية الخطورة. إضافة إلى إمكان استخراج حقائق استخبارية حسَّاسة عن دقائق الحياة الشخصية لكل كبير من كبار الجارحية، وأسرهم وأصهارهم. المسألة ليست جنائية الآن، بل هو تحقيق أمام نيابة أمن الدولة العليا طوارئ تكفي اعترافات حسين فيه لتدميرهم تدميرًا.

نعم، خدمته لهم في السنوات السابقة أتت ثمارها أخيرًا. إنهم يعدون العُدَّة لتصفيته والخلاص من المشكلة من أصلها. لن تتركه العائلة يتورَّط في التحقيقات أكثر مما تورط فعلًا، ولن تتركه الداخلية حتى تنكِّل به وبمن خلفه. علم هذا يقينًا مع أول مقابلة بينه وبين حَسَن الجارحي، حفيد الحاج الكبير جوهر الجارحي. أظهر له في المبتدأ شفقة كاذبة ابتغاء الخديعة، لكن حسين ليس عبيطًا! إنه يعلم أسلوبهم مع «البطاقات المحترقة»، ولم يكن في تلك الظروف في وضع يسمح له بقبول أي تهديد، ولا الاستسلام لأي تسوية. هتف فيه مغتاظًا: "أنت بتلف عليَّ وتهلِّت، وأنا طلبي واضح.. أنا أحتاج مساعدتكم." لم يُبد حَسَن استعدادًا للتعاون، فقال له حسين بثورة: "اسمع يا رِيِّس، أنا أقرأ النجمة! لو شميت منكم رائحة غدر، هأفوَّحها.. طبعًا فاهمني." ثم اشتدَّت المجادلة بينهما، وأحَسَّ حسين بخطر الخيانة الوشيكة عندما قال له حَسَن مُكشِّرًا عن أنيابه: "خلاص، نمشي مع بعض ميري يا حضرة الضابط.. طالما جئت تفتح زورك علينا، ما لكش عندنا حاجة.. روح خد حقك من الحكومة"، ودفعه قائلًا بعبارة أشبه بالبصاق: "امشي، غور في داهية."

وتكاملت عناصر المأساة عندما علمت أسْمَاء -زوجة حسين- بالموضوع. لم تستوعب حقيقة أن زوجها -الضابط الكبير مهيب الركن- مُجرَّد عميل مستتر لعائلة من تجَّار المخدرات. نعم، لم تكن أسرتها الصغيرة مثالًا يُحتذى في التماسك الاجتماعي، ولم يكن حسين نفسه مثالًا يُحتذى في فضائل الأخلاق، لكن.. لم تصدق أن مطعمها ومشربها وملبسها من حرام. لم تفهم كيف جرى هذا؟ ولماذا جرى؟ كان الموقف أكبر من قدرتها على الاستيعاب، ولم تكن مستعدة لتصديق فداحة الجريمة التي ارتكبها زوجها على مدى أكثر من عشر سنوات، ولا تخيُّل حجم الدمَّار الذي يحيق بحياتها وحياة من تحب.

ثم ساءت العلاقة بين الزوجين، وانحدرت لسلسلة متصلة من الخلافات العنيفة التي تنتهي دائمًا بنوبة غضب جنونية تصيب حسين، وتدفعه لتحطيم الأثاث ولَكْم الجدران وما إلى ذلك من ردود أفعال تنفيثية تقيه شر الاعتداء على زوجته، واستجابت هي لتلك الأعراض (أو هكذا بدا له) بصدمة نفسية شديدة ظهرت من خلال نوبات بكاء طويلة، وحالة من الرعب والضبابية والعداء لنفسها ولزوجها، والتهيُّج لأبسط الأسباب، والخوف من البقاء وحيدة في أي مكان وكأن شخصًا يتتبعها لاختطافها، وأخيرًا الكوابيس التي تنحصر في جرائم أناس يَقْتُلون أو يُقْتَلون، حتى أصبحت حياتهما جحيمًا لا يُطاق.

وما لم يعلمه حسين أن زوجته بعد أن اكتشفت أبعاد المصيبة، وعلمت بتشابك المشكلة مع حَسَن الجارحي، وفي محاولة يائسة (وغبيَّة) لتدارك الموقف، وعلى الرَّغْمِ من سُمْعة حَسَن الخلقية السيئة وفُحْشه وبذاءته، زيَّنت لها سذاجتها وقلة خبرتها المحاولة، فذهبت إلى حَسَن كي تتوسَّل إليه أن يمد يد المساعدة لزوجها، وألا يتركه يضيع، ولقد أساء الفاجر استقبالها، وتعدَّى عليها بالفعل والقول دون اعتبار لأي شيء، ثم طردها شر طردة. وتركت تلك المأساة الكارثية أثرها عليها حتى آخر لحظة في عمرها.

فتح حسين في النافذة المجاورة له خلخلًا يسيرًا، ففاجأه رذاذ الماء وصفعه الهواء البارد. ثم عاد إلى ذكرياته الأليمة. ظهر بوضوح اضطرابه الوجداني ثنائي القطب في تعامله مع أطراف الأزمة: ضُبَّاط التحقيقات من جهة، وكبار الجارحيَّة من جهة أخرى، فتراوحت مشاعره بين الكآبة الشديدة والابتهاج غير الطبيعي، وظهر ذلك أكثر ما ظهر في ذهابه للحاج جوهر نفسه في منزله بحي السيدة زينب. توسَّل إليه حسين كي لا يتخلَّى عنه وقد كان له عبدًا أمينًا لعقدٍ من الزمن، لكن الحاج لم يستجب (نتيجة إصابته مؤخرًا بخفةٍ في العقل مع قائمة طويلة من أمراض الشَّيْخُوخَة، بها تدهورت وظائف جسمه تدهورًا شديدًا)، فانفجر حسين بثورة عارمة وكاد أن يعتدي على الحاج بالضرب، فتلقى علقة قاسية من حارسه، ولم يكن حسين في حالة تسمح له بالدفاع عن نفسه. وعلم حسين بعد هذه المقابلة أنه وأهل بيته في خطر، وأن أيامه في حساب

الدنيا معدودة.. بهذا أخبره محاميه. أخبره أيضًا أن المعادلة بسيطة الآن: إما هو وإما هم! لكنَّهم أغبياء. أيظنون أنه سيستسلم لمصيره؟ لا وألف لا! إن الفأر إن انزنق في ركنٍ ليس له منه مهرب، يقاتل قتال ضراوة ويأس. لهذا لم يرفض لما ألح عليه محاميه في الحل، وهو حل مؤلم وشرير، بَيْد أنه ليس منه بد. لكنَّهم سبقوه الليلة.

كانت الاتصالات بين كبار الجارحيَّة تتم على قدم وساق، وحَرِص حَسَن الجارحي على استشارة كافة الأطراف، وكان في أمس الحاجة للوصول لحلٍّ مدعوم بتأييد الكبار جميعًا، وكان له ما أراد. واتخذ قرارًا صعبًا بالقضاء على حسين، واختار لتنفيذه أشد رجال العائلة بأسًا وبطشًا، يقودهم «أَشْمُوط» نفسه. وبعد منتصف الليل بقليل فوجئ بهم أمامه.. في غرفة نومه.. حول فراشه! انتهكوا حرمة بيته، وأفرطوا في التنكيل، وهتكوا الأعراض. ليته ما نجا. ليت أمه لم تلده. ليته كان ترابًا.

كان زقاقًا مُنحشرًا بين صفين من مبانٍ بائسة، وكشأن سائر شوارع المدينة في هذه الليلة الشاذة كان هذا الزقاق مقفرًا لا أثر فيه لمخلوق أو بصيص نور، حتى ظهر على مشارفه ضوء الجيب الساطع. انعطفت السيارة بين أكوام القمامة والحُفر، ومضت في طريقها بتمهل بينما تغور إطاراتها في الماء، حتى قصدت بناية بعينها بين البنايات. انفتح بابها ونزل حسين أمام البناية التي أهلكها الدهر، فصارت خرابًا لا تُرجى منه منفعة.

هنا، في هذه البقعة الكئيبة بحي السيدة زينب، يسكن الحاج الكبير جوهر الجارحي منذ أن اعتزل، وتسلَّم العمل من بعده حفيده الأكبر، حَسَن الجارحي. صعد حسين سلم البناية على ضوء كشاف صغير، ولم يكن معه إلا مدية صغيرة، وقبضة معدنية. وقف أمام الباب، وطَرَق! سَمِع خَشْخَشَةَ خطوات متثاقلة، ثم انفتح الباب، فكان على عتبه عملاق من العماليق! هذا هو درويش الورَّاق، مُسجَّل خطر «فئة أ»، وهو أحد كبار الحاشية الملازمة لعائلة الجارحي. اعتزل حياة الإجرام مؤخرًا، ونذر نفسه لخدمة الحاج الكبير.

نظر إليه حسين من أسفل بوجه بليد، ثم أغمد مديته في صدره على حين فُجاءة وهو يندفع به للداخل، واستمر يطعنه في صدره بسرعة وقوَّة، حتى كانت الطعنة الأخيرة، وفيها نزع حسين نصله من لحم الورَّاق كأنما نزع فلذةً من كبده. فارتد العملاق

مصعوقًا، ثم انهدم أرضًا بعنف. وقف حسين لاهثًا في صدر غرفة المعيشة، لا يكاد يرى أبعد من أنفه. عمّت الظلمة كل شيء، إلا من ضوء كشاف طوارئ خافت. وعندما اتخذ أولى خطواته للداخل سمع زمجرة.

وقف الورّاق قويًا صحيحًا كأن لم يصبه شيء. نعم، اكتسى نصفه العلوي بالدم، لكنَّه نفخ صدره بأنفاس متوعدة عميقة، وقلَّص وجهه حتى بلغ غايته من القبح كأنما تقمصَّه شيطان. التفت إليه حسين بكامل جسمه، وفي لحظة هجم الورّاق على خصمه الضئيل، ووجَّه ضربة هائلة لرأسه. قرأ حسين بدن الورّاق وحَلّل حركته، وبرد فعل مثالي تحاشى ضربته الصاعقة، ثم دفع بركبته في صدره بسرعة داهمة. قوَّة ضغط عارمة ضربت صدر الورّاق ودفعته ليعتدل برد فعل عنيف، فلم يمهله حسين؛ بل أطلق قبضته بسرعة خاطفة في وجه خصمه. صدمت القبضتان، البشرية والحديدية، وجه الخصم بتأثير متضاعف ماحق، فانبعج وجه الورّاق إلى الداخل، وارتج مخه فانهدم دفعة واحدة. مستخدمًا ميكانيكا الجسم كركيزة، أحدث حسين تدميرًا تامًا في رأس العملاق بضرباتٍ متتالية وسريعة حتى دكَّ جمجمته دكًا.

نهض حسين عن غريمه، وجحظت عيناه وتعلقتا بضحيَّته عند قدميه، وما انتثر منها على الأرضية من أوحال دموية. ثم رفع رأسه إلى مدخل الدهليز المظلم عندما سمع صرير عجل يُدفع.

ثم ظهر من العتمة عجوزٌ مُهدَّم، أوصاله معوَّجة هزيلة. كان منكمشًا في مقعدٍ متحرك، ويدفع عجلتيه بمشقة. وجهه متآكل أذابه الغم، ورأسه ليس به شعرة، وبدنه على حالٍ منفرةٍ من القذارة. هذا هو الحاج جوهر الجارحي، المدير الأسبق للإدارة العامة لمكافحة المخدرات، ومساعد أول وزير الداخلية الأسبق لقطاع الأمن العام، ومؤسّس عائلة الجارحي وعميدها. بعد مقتل ابنه الوحيد في حادث مريب أصيب بالفالج، واعتزل دنيا الناس في بيته القديم، مقدمًا هوايتيه الأثيرتين على كل ما عداهما: إدمان للمخدرات جدَّ عليه، وجمع السلاح.

أمامه وقف الشاب ذاهلًا.. هذا هو الجارحي الكبير، مفتاح الديوان ورأس المال.. هذا هو الذي يعيش الكل بنسائم بركته، والذي إليه يرجع أمرهم كله.. هذا هو من كان يتيه

زهوًا، ويخوض في شؤون الدنيا بيقين من فُتحت عليه المعارف العظيمة من العلم.

حرّك الحاج حدقتيه وحدّد النظر محاولًا تبيُّن ما يحدث، لكن حسين قرّر في لحظة واحدة أن عمر الحاج قد امتد بما يكفيه! قطع الغرفة عدوًا كالطلقة، وأعْمَلَ الطعن في وجه العجوز وعنقه بلا رحمة دون أن يبالي بالدم الذي يبخ رذاذًا. استغرق القتل دقائق أليمة، تفسّخ خلالها وجه العجوز وتمزّقت رقبته وخُزقت عيناه. فحص حسين الجثة ببلادة، ونزع عن عنقها سلسة ذهبية مُعلّق فيها مفتاح كبير، ثم ألقى بالجثة أرضًا دون اكتراث. خرج، ونزل سلم البناية حتى المدخل، وانعطف عنه إلى دهليزٍ معتم. على ضوء كشافه الصغير، عالج قفل بابٍ مصفح ضخم بالمفتاح، فتحركت تروس قفله الثقيل. دفع حسين الباب بمشقة ودخل.

من شمائل الحاج الكبير نادرة المثال حبه للسلاح وتكلفه المشاق في تَتَبُّعِ قطعه وحيازة نفائسه ومتابعة أخباره، ولأنه إن افتتن بشيءٍ لابد أن يملكه إلى حد الشبَع فالتشبُّع، فقد أنشأ في قبو بيته بالسيدة زينب صالة عرض بَنَى لها حوائط مُبَطَّنة بالخرسانة المسلحة، وأقفل عليها بابًا ثقيلًا مقاومًا للاقتحام والحريق، ونمَّاها ونمَّقها، حتى صارت إلى المتحف أقرب، بترسانة متفرِّدة، كل قطعة فيها هي تحفة في حد ذاتها، سواء من جهة قيمتها التاريخية، أو لكونها تقنية حديثة لم تنتشر لغلائها وقلة بضاعتها.

تقدَّم حسين باحثًا، وفي نهاية الغرفة لاح له ما يريد. ترسانة من الأسلحة الآلية والنصف آلية متراصة على أرففها بنظام حسب الفئة والنوع. ولم يمض عليه ثلث الساعة حتى غادر المكان، وكتفه مثقلة بحقيبة جلدية سوداء فيها ما تيسَّر له حمله من سلاح، ولم يكن بالقليل إذ أخذ للأمر أُهْبَته كمن هو مقبل على حربٍ ضروس.

***

لم يكن طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي بأظلم مما كان في هذه الليلة، عليه انطلقت الجيب بسرعة متهورة، وعدَّاد السرعة يتراوح مرتعشًا بين المائة والسبعين والمائتي كيلومتر في الساعة.

وعلى بُعد أربعة كيلومترات كان قصر الفردوس: مقر عِمَادة العائلة. هو تحفة معمارية مُترفة يتوسَّط جنة فسيحة تغطي خمسين فدانًا. تحت أسقفه الشاهقة اتَّخذت

العائلة ملاعبها في شَبُّورَةٍ من أبخرة الحشيش أودت بهم إلى عوالم من الأرواح والنفوس والعجائب، وإن الحشيش هو الهواية الأولى للحاج الكبير، ولأقاربه أجمعين، لذا اتخذوا من تعاطيه مجالس غُدَّت مؤسسة اجتماعية، فيها تصفو الصحبة، ويأمنون على أنفسهم من تسلط الحاج الكبير وبطشه، لأنه يلين لهم وينزل عن عز المُلك تحت تأثير سلطنة المُخَدِّر.

يعلم حسين أن الحاج جوهر لم يتبوَّأ مكانته من فراغ، بل بتقصي سُبُل الحماية المستميتة لنفسه وأمواله، لهذا لن يكون اقتحام قصره بالأمر الهيِّن، فالدوريات البشرية وكلاب الحراسة المفترسة لا تنقطع في لحظةٍ من ليل أو نهار، وأطقم الحراسة في حالة استنفار دائمة.

أخفى حسين سيارته بعيدًا عن الطريق، وقبع فيها زمنًا يراقب الحركة حول الأسوار. فحص معداته وراجع خطته، ثم انتقى بندقية هجومية خفيفة الوزن طراز «هكلر أند كوخ جي ٣٦»، مُصنَّعة من البوليمرات المقوَّاة والحديد، بخزانة من البلاستيك نصف الشفاف تسع ثلاثين طلقة. انتقى أيضًا مسدَّسًا طراز «سيج ساور» صغير، بخزانة تسع خمس عشرة طلقة، مُصنَّعا من البوليمرات عالية المقاومة. كوَّم ما استطاع من الذخيرة في حقيبة رياضية صغيرة، وتسلل عدوًا كالقط قاصدًا نقطة من السور بعينها هي ثغرة علم عنها منذ زمن. هي غرفة لذبح البهائم في الأعياد والمواسم، لها نافذة صغيرة تنفتح على خارج القصر لتوزيع اللحم، لا يُغلقها إلا قفل ثقيل تعامل معه حسين بحنكة ثم زحف للداخل.

في الظروف العادية ما كان ليخطو خطوةً واحدةً بعد الأسوار إلا ويَتَخَطَّفُه الموت من كل جانب، بطلقات النار وصواعق الكهرباء وأنياب كلاب الحراسة المفترسة. لكنَّها ليلة ليست ككل الليالي، فكما أصاب الشلل كل مرافق العاصمة بسبب الأمطار الغزيرة، أصاب كذلك القصر. طبعًا هناك مولد كهرباء، لكن القصر مجتمع كبير في حد ذاته، وإمداده بطاقة المولدات لساعاتٍ طوال أمر صعب، خاصة في هذه الظروف التي انقطعت فيه إمدادات الوقود نتيجة الإظلام الشامل وتوقف حركة المواصلات، لذلك اقتصر قاطنوه على مرافقه الأساسية من إضاءة بسيطة للطوارئ، وبعض كاميرات المراقبة الرئيسية. وعلى ما في خيارهم من خطورة، فهو الأوسط بين الحلول لضمان

استمرار مرافق القصر الأساسية في العمل لأطول فترة ممكنة مخافة امتداد حالة الشلل العام. أيضًا تولت أطقم الحراسة الخارجية حالة كسل إجبارية آوى بسببها الكل إلى حظائرهم، بشر وكلاب، انتظارًا لتحسن في الجو، فغرق القصر وأهله في صفة من السكون والسلام الشامل لم تتهيَّأ لهم منذ سنين.

ها هو الشاب يعدو بخفة ويمرق بين الأشجار. تجاوز مأوى الخدم إلى إسطبل الخيل، ومنه إلى منطقة الملاعب دون أن يعترض طريقه إنسان أو حيوان. أما عن كيفية الدخول عبر إحدى بوابات القصر الشامخة، فبالمفتاح! وإن لديه نسخة، شأنه في ذلك شأن كل فرد من آل الحاج المقربين.

مُلحق بجناح النوم الرئيس في الطابق العلوي حمام آية في السعة والفخامة، في نهايته مغطس چاكوزي كبير مُمتلئ بالماء الساخن، جلس فيه رجلٌ في منتصف الثلاثينات من العمر. كان عريضًا، لامع السمرة جميل الخلقة، ممتلئ البدن في اعتدال وبأس. هذا هو حَسَن الجارحي، عميد العائلة الجديد، والقائم بأعمال الحاج الكبير. كان في انسجام تام مع نفسه ومع سيجارته، وكانت محشوة حشيشًا، لذلك لم ينتبه لهذا الذي وقف عند باب الحمام، خصوصًا مع الإضاءة الخافتة. ولهذا أيضًا كان فزعه صاعقًا لما فوجئ بصوت مبحوح مخيف يقول: "سبقتوني يا شقيقي.

سقطت السيجارة من يده. حدَّق حَسَن الجارحي في حسين الواقف أمامه بالضبط! وفي اللحظة التالية مباشرة قرَّر حسين أنه أمهل خصمه ما يكفيه، فانقض عليه. حاول حَسَن الاتقاء بأي شيء وهو يشهق مرعوبًا، وجاءت الضربة الأولى من نصل المدية الصغير فشَقَّت صُدْغَه، ثم قبض حسين على شعره بقسوة وقد وشى وجهه المنتفخ بشهوة القتل، ودسَّ وجه غريمه في الماء بغتة، فثار في الچاكوزي ما يشبه الموج والغليان، وتعكَّر صفاء الماء فورًا بالدم.

أخذت المفاجأة حَسَن، ولم يساعده تكوينه على المقاومة، فعلى ضخامته، كان التفاوت في القوَّة بينه وبين خصمه شاسعًا. وقع بدنه في اضطراب مسعور كأنما تتخطَّفه ملائكة العذاب، وضرب بيديه وقدميه الهواء دون جدوى، ثم شهق في الماء رغمًا عنه، ولكون الماء دخل فقد انتفض بسعال مجنون للفظه، وما كان من سعال إلا

تبعه استنشاق لا طوعي يسحب معه الماء أضعافًا، فكان عذابًا غليظًا. مرَّت الدقائق والخصمان في صراعٍ وحشي: حسين يكثِّف طاقاته ويستنفر عضلاته للحفاظ على وضعه المتقدم، ولإبقاء وجه خصمه تحت الماء، وهو في هذا يطعنه بالمدية الصغيرة في لحمه بلا رحمة ولا هوادة، وحَسَن ذهب لآخر مداه في الصراع الغريزي الجنوني للتعلُّق بأهداب حياة لم يعد له فيها نصيب، حتى خارت قواه، فخرجت روحه في مشقة كمثل ما يُنزع الشوك من الوبر.

لمدة ظل حسين على انقباضه ووضعه مع جثة غريمه، ثم تركه فجأة كالمُفيق من غيبوبة، فانزلقت الجثة بنعومة إلى المغطس الذي استحال لبحيرة وردية. كان يلهث بعُسرٍ وعنف، وجسده في حالة استثارة قُصوى، وكفاءته البدنية في حالة استنفار تامة، بينما تغطَّى وجهه بمزيج مائع من العرق والدم والماء.. ثم سيطر عليه شعور غريب وأحَسَّ بتواجد أحد معه في المكان.

ثم التفت.. ولما التفت رآها.. سَحَر، البَغِيُّ الفاجرة، خليلة حَسَن الجارحي وشريكته.. امرأة في صدر العشرينات، وجهها آية في الحلاوة، وسمرتها آية في الجمال واللمعان، وتقاطيع جسمها أخذت حظها من المفاتن والاستواء. ارتدت بلوزة رقيقة وبنطلونًا قصيرًا بوسط مطاطي، ووَقَفَت مسحورة لا تنبس ولا تتحرك، وكذلك وَقَفَ هو مسحورًا ينظر إليها. ثم انتفضت وصرخت برعبٍ هائل، فروَّعته صرختها ومرقت من رأسه كسهم من نار. رفع بندقيته الآلية عن ظهره، وأطلق النار، لكنَّه في حركته هذه فقد ثوانٍ يسيرة لكن ثمينة تمكَّنت فيها الفتاة من القفز وتجاوز باب الحمام. انطلقت الرصاصات بومضات خاطفة لتحطم الرخام وتخرم الحائط في مواضع عدة.

خرج حسين عدوًا للرواق فلم يجدها، وسمع صراخًا وعويلًا آتيين من بعيد، فعلم أن القصر بقاطنيه سينقلب رأسًا على عقب، ورجَّح أن موته سيكون هنا، والآن.. لكنَّه لم يبال. انطلق عدوًا في طريقٍ يعلمه جيدًا متفاديًا مسارات الحرس المتوقعة إذ يُهرَعُونَ إلى غرفة سيدهم. استتر بالظلمة في نواحٍ فسيحة لا يسهل تمييزه منها، ورأى مجموعات من اثنين وثلاثة من الحَرَس يجرون حاملين أسلحتهم، وكان من حسن حظه أن لم ينتبه أحد لتشغيل المولد الاحتياطي بكامل طاقته لإضاءة القصر كله وتشغيل أنظمة التأمين فيه إلى تمامها، وهو تقصير أمني بشع. لم يكن يشغل باله إلا الشابة الهاربة، وعلم يقينًا

أنهم سيخرجونها من القصر كله.

تجاوز بهوًا دائريًا إلى غرفة معيشة، وحال انحرافه فوجئ بخمسة رجال مسلحين بالبنادق الآلية أمامه. كما فوجئ فوجئوا، لكنَّه كان أسرع، فرفع سلاحه وأطلق النار بلا تردد. اخترقت الرصاصات أجسام ثلاثة منهم فأردتهم فورًا قتلى، فيما تفرَّق الآخران محاولان البحث عما يُستَتَر به، لكن الشاب -وكانت قريحته القتالية في أشد حالتها توقدًا- ألقم بندقيته الهجومية بمشط ذخيرة آخر، ورشَّ الرجل الأول بوابل من الرصاص اخترق صدره، وتابع الآخر ببصره وهو يكاد يبلغ مخرجًا جانبيًا، فسدَّد سلاحه بسرعة خاطفة وأطلق النار فأصابه في رأسه وعنقه، فارتد الرجلُ إلى الجدار صارخًا، وسقط عنه بعد أن لطَّخه بالدم.

تلفَّت حسين حوله لاهثًا، ثم انطلق يجري بين الصالونات، ونزل السلم بتردٍ خاطف، وسلك مسلكًا يمر بمنطقة المطبخ والخدمات، حتى وصل لباب خدمة حديدي. عالج رتاجه بتوتر شديد ومرق منه، لكنَّه وعلى لهوجته لم ينس أن يطلق النار على رتاج الباب من الخارج، لإحداث أثر الدخول عنوة. بهذا شدَّد عليه محاميه، مهما تكن الظروف. وبينما تتبادل ساقاه الحركة في رَكْضِه المحموم، أضيئت أنوار القصر من خلفه أخيرًا، وخرج الرجال بكشافاتهم وسلاحهم يتصايحون وقد اكتشفوا مقتل سيِّدهم، لكنَّه كان يمرق وقتها من أجَمَة من الأشجار أخفته عن الأنظار تمامًا، فمن فرط سرعته تدافع الطمي والماء على جانبي نعله الرياضي بطرطشة عنيفة، وكان يقصد نفس ثغرة مدخله، آملًا ألا يبلغها أحد.

***

عادت للأمطار شدتها فانصبت على الطريق صبًّا، حتى فاض الماء من جانبيه بقوَّة، تاركًا طبقة كثيفة مَخَرتها سيارة مرسيدس سوداء بسرعة خطيرة، وجاهد سائقها للحفاظ على اتزانها في هذا الظلمة الشاملة. في الصالون الخلفي جلست الشابة بنفس ثيابها في حالٍ سيئة من البلل والبلبلة والرعب. كانت تنتحب وتُبَدل النظر بين حارسيها اللذين انتشلاها إلى السيارة لتوصيلها إلى موقع آمن كما تنص تعليمات السيِّد الكبير. لم تكن امرأة ضعيفة، لكنَّه الرعب من دافع الغريزة والمفاجأة. وأيَّة مفاجأة! لقد رأت

حسين وهو يكبس على رجلها ولم تصدِّق عينيها. ليس هذا حسين الذي تعرفه! إنه شخص آخر مفترس! ولما يلتفت إليها، يكون منه ما كان؟! يقتلها؟! لم يكن مبعث فزعها في ضياع حَسَن الجارحي: رجلها الوحيد الذي مهّد لها في كنفه كل سُبُل الحياة الرغدة، بل في حسين نفسه!

إنها تعلم أن مأمنها في السويس حيث تتجه، لكنَّها تعلم أن حسين يعلم هذا، وتعلم أنهم لن يوقفوه. لو كانوا له أهلًا لمنعوه من الدخول أصلًا. هؤلاء المتخاذلون الملاعين. لقد جُنَّ حسين حتمًا. ثَمَّة شيء حدث ودفعه عن آخر حافة للعقل إلى هوة ساحقة من الجنون. نعم، يأست من النجاة تمامًا، لكنَّها وقت الجد ستستميت في الدفاع عن حياتها ولو بالأنياب والأظافر. اختلط في داخلها الانزعاج بالعزيمة والعجز، ثم غلبتها العاطفة، فهوت إلى بكاءٍ محمومٍ وشهيق، وأخفت عينيها بين يديها متمنية أن تنخسف بها الأرض الآن.

ثم لمحت ومضة نور. فغرت فيها بذهول، وانقطعت عن البكاء، وانتقل الفزع فورًا إلى حارسيها، فانتبها. خلفهم تقدَّمت الجيب، ومال حسين إلى الأمام بتركيز، وبدت على وجهه أمارات تصميم مخيف. كان يعلم أنها تتجه إلى السويس، حيث ستجد من الأموال والرجال من يواليها ويتولاها بالعناية، حسبما أعد لها الرجل الكبير وأوصى. ويعلم أن كل لحظة تمر عليها في الحياة، هي لحظة تنقص من عمره. هكذا شدَّد عليه محاميه: لا ينجو منهم أحد.

لاحت له الأنوار الخلفية للمرسيدس، فاعتصر بدالة الوقود، وزادت سرعة السيارة إلى حد انتحاري. وبينما تتعلَّق عينا الشابة بالمرآة في ذهول، ويتأهَّب رجلاها لخوض صراع مميت، تجاوزتهم الجيب كومضة نور مثيرة زوبعة من الماء. ثوانٍ مضت اختفت فيها السيارة عن أعينهم، وتركتهم في حالٍ من التربُّص والارتباك. هل يُعقل ألا يكون هو؟ أو أن يكون قد مَرَق منهم ولم يلحظهم؟! أما الشابة فلم يغادرها الرعب ولو للحظة، وعلمت أنه يدبِّر أمرًا. وفي اللحظة التالية علموا لِمَ تجاوزهم.

أوقف حسين سيارته بتهوُّرٍ وانتحارية، فكادت تنقلب به إذ يستعرض بها الطريق. هَبَط وفتح حقيبة سيارته، وأخذ من باطنها مدفعًا آليًّا ثقيلًا من طراز «كلاشنيكوف».

ثم رأوه ورآهم. وقف أمام سيارته، وجعل إبرة سلاحه في موقعها الأوسط الأوتوماتيكي، وباعد بين ساقيه ليثبِّت نفسه في الأسفلت، لاستيعاب رد فعل المدفع العنيف. ولما رآه سائق المرسيدس حاول أن يكبح تقدُّم السيارة، لكن الشاب كبَس على الزناد قبله. انطلقت من السلاح الضخم دفقات النار بمعدَّل منضبط وسريع، فانفجر زجاج المرسيدس الأمامي، ثم انفجرت من الداخل بطانة المقاعد مع الأشلاء والدم، وهنا وجد حسين نفسه في وجه الخطر. انزلقت المرسيدس بسرعة قاتلة نحو سيارته، ثم إنه لم ير شيئًا بعد ذلك؛ لأنه قفز جانبًا، ثم سمع دوى الاصطكاك المروِّع، وأحَسَّ بصدمة الحديد إذ ينسحق في الحديد، وبقُوَّة ثقيلة تدفعه بعيدًا.

إن الماء يسري إلى باطن كفيه. ماءٌ باردٌ يتَخَلَّل ما بين الأصابع ويغلِّف الأظافر. كان منطرحًا على جانب الطريق، مستندًا بكفيه على الأرض، والماء يغمره غمرًا. ثم نهض ورأى ما آل إليه حال السيارتين، ورأى أيضًا سلاحه الآلي مُلقًى غير بعيد، فذهب إليه أول ما ذهب. تحطَّم المدفع والتوت ماسورته، فتركه واقترب بخُطًى حذرة حتى أصبح قريبًا من موقع الأحداث. انشطرت سيارته الجيب لنصفين أصاب كل منهما تخريبٌ شامل. حوَّل بصره إلى السيارة الأخرى ورأى كتلةً رخوةً ملقاةً في عرض الطريق، فاقترب منها بتحفُّز. كانت جثة أحد الحارسين، وقد اعوجَّت وانشق الرأس لقسمين بسبب شظية حديدية. تجاوزه الشاب إلى المرسيدس، ومال بجذعه مُدَققًا في الحطام. انْسَحَقَت السيارة تمامًا، واستقر السائق مكانه وقد انطبق جسده بعضه في بعض فيما يشبه اللحم المفروم. ولم تكن الفتاة بالداخل. وكمن توقع هذا، لبث حسين مكانه مفكرًا، ثم التفت ببطء.. فكانت هناك.. واقفة.

كانت هناك.. في حالةٍ يرثى لها. ذراعها اليمنى متدلية كأنها مكسورة، وملابسها الحريرية مُشَبَّعة بالدم، ووجهها مُسْوَد، نشبت فيه بعض الشظايا الزجاجية الدقيقة كفصوصٍ من الماس. تقدَّمت منه بوجهٍ ذاهلٍ وهي تغمز بساقيها بعرجةٍ واضحة، فلم يُحرِّك ساكنًا.. ها هي ذي أمامه أخيرًا. ليَقْضِ عليها الآن. لكنَّه لم يفعل، ولم يخطر بباله أن يفعل! نظر في عينيها الواسعتين والبصر يزيغ منه، وأحَسَّ بعضلاته تنهار، وأحَسَّ باختناق شديد، فجعل يشهق ويزفر بخوار عجيب وعميق. تدهور مستوى نشاطه بمعدَّل سريع، وبدا له أن الوقوف في حد ذاته عبءٌ أكبر من قدرة جسمه على التحمُّل.

شيءٌ ما تبدَّل في نفسه، كأن طاقة العنف والقتال استُنفِدَت، وعاد إليه عقله.. أو ذهب منه عقله!

أما هي فسقطت على ركبتها في الوحل، ثم انهارت جهودها المعتادة في اصطناع الثبات، وأخذها النشيج كطائرٍ ذبيح، وأخذت تتساءل وتكرِّر بصوتٍ مبحوح: "ليه يا حسين؟!" عَمَّه شعورٌ غريبٌ إلى الغثيان أقرب، فجثا على ركبتيه بين يديها. ثم إنَّها رفعت رأسها إليه بعينين متنمِّرتين، وقالت بعويل وزمجرة: "أنت قتلت أخوك يا حسين!" وتملكتها نوبةٌ من سُعَارٍ، فلطمته على وجهه في لفتة نشاط مفاجئ، وصرخت مرارًا بجنون: "قتلت أخوك!.. قتلت حَسَن أخوك!"، ثم انهارت باكية ورفعت صَوْتَهَا بِالعَوِيل.

كانت اللطمة في تأثيرها عليه كالطعنة، فتحت صدر الشاب عن ضغط انكتم في قلبه طويلًا. نظر إليها مذهولًا وهي تئن وتتأوَّه بلوعة، ثم كأنَّه وقف على الحقيقة المروِّعة هذه اللحظة فقط: لقد ماتت زوجته! قُتلت الليلة أبشع قِتْلَة، وانتَهَك الوحوش عِرْضَهَا وهو ينظر.. والذي أرسلهم عليه، حَسَن الجارحي أخوه! أو ربما جوهر الجارحي نفسه، جَدُّه! قطَّع الألم أعضاءَه وعصف بروحه، فانخرط في بكاءٍ حارٍ ضائع وانقباضات عنيفة لاإرادية أذهَلت الفتاة عمَّا أصابها، فنظرت إليه بغير تصديق. في لحظة انفجر فورانٌ من المشاعر بَخِل به على نفسه آمادًا طويلة، وبَخِل عليه به من حوله؛ فبكى على عُمْرِهِ الذي ذهب هباءً، وعلى زوجةٍ قتلها بتخاذله، وعلى أخٍ أغرقه بلا رحمة، وعلى جَدٍّ عجوزٍ لم يرحم ضعفه.

أما هي فكان منها أغرب تصرف. عمدت إليه زاحفة، وضمَّته إلى صدرها، فعاذ بها كطفلٍ ضالٍ يلوذ بحضن أمه، وأحَسَّت بتنفُّسه العنيف المتقطِّع وتقبُّضه التشنُّجيّ واختلاجات عضلات صدره المتتابعة في ضلوعها. اشتبك الاثنان في عناقٍ مكروب، كتشابك الشوك في الخَيْش. الآن فقط بانت له الساعات القليلة الماضية على حقيقتها، بكل ما فيها من أحداثٍ مُرَكَّبة ومتطرفة.. يا لها من ليلةٍ أمست فيها الحياة رخيصةً قصيرة، وبات فيها الموت خفيفًا زهيدًا!

أبعدها عنه ببطء ونظر في وجهها وطوفان من الأفكار يكتسح عقله. ارتد بدنه إلى حالة إنهاك شاملة بعد نشاط فائق وجهد عضلي ونفسي خارق للمعتاد، وتضاءل كلُّ

شعور في قلبه إلى العدم، فلم يجد في نفسه الرغبة، بل إنَّه لم يفكر أصلًا في إيذائها. لأي شيء يؤذيها؟ هل سيعود الموتى للحياة إن فعل؟ هل ستعود إليه أسْمَاء؟ هل سيعود أخوه وجَدُّه؟ أخوه وجدُّه.. الظالمان المتجبران. أَحَسَّ بعذابٍ واقع وندمٍ قاهر على هذين الاثنين اللذَيْن مَرَدَا على الفُجُور وطغيا حتى جاوزا الحد، فقتلهما قتلًا رحيمًا لم يُشْفِ به غليله أو تهنأ به نفسه. ثارت نفسه مرة أخرى للدم مع طواف صورة أخيه وجَدِّه على ذهنه، وعلم أن عليه مُهِمَّة لا بد أن ينجزها سواءً رغب في هذا أم لم يرغب، وإن مُهِمَّته لا تكتمل إلا بها.

أمعن النظر في وجه الشابة الفتَّان المخدوش في كل موضع، وفي هاتين العينين المرعوبتين.. استل مطواته، وتهيَّجت حواسه استعداداً لاحْتِزاز رقبتها، واشتدَّ شبقه للدم لما رآها تتراجع بركبتها في الطين بيأسٍ ورعب.. توتَّرت قبضته على المدية، وتراوحت نفسه بين رغبة حارقة في شقِّ حلقها وتركها تنزف حتى الموت، وجزع عميق من فرضية موتها.. سؤالٌ واحدٌ الآن سيُقرِّر مصيرها.. قبض على قفاها بخشونة، وجذب وجهها إليه حتى التصق صدغيهما، وهمس في أذنها بصوتٍ جامدٍ مبحوح: "أنت عارفة عملوا إيه في أسْمَاء؟" وشدَّ شعرها من منبته في مؤخرة رأسها، فشهقت بألمٍ شديدٍ، وسمعت صوته يهسُّ في أذنها بشراسة: "عارفة عملوا فيها إيه؟!" ثم اتَّسعت عيناها برعبٍ وهي تسمع تفاصيل القتال والقتل! لم يخبرها بكل شيء.. لم يطاوعه قلبه أن يخبرها بكل شيء.. فقط القتال والقتل.. من الآن فصاعدًا عليه أن يعيش العار.. عارٌ مُزْمِنٌ لن يغسله الدم، فالدم أريق والعار والهوان باقيان.

استقبلت الشابة رواية حسين كسهامٍ سامة اخترقت دفاعاتها النفسية بلا هوادة، فأَحَسَّت بباطنها يتمزَّق تمزيقًا.. ليس رحمةً بأسْمَاء زوجته، حاشاها، فهي أبعد ما تكون عن الرحمة، بل هي أُنموذَجٌ مُجسَّدٌ للقسوة واللامبالاة.. لكن ما حدث الليلة اتَّسم في مُجْمَله بالجِدَّة الفجائية والشذوذ، وهَدَّد وجودها وهدَّم حياتها، فلم يسعفها الوقت للتكيُّف أو حتى الانسحاب. بدا لها الموت قاب قوسين أو أدنى، فأصابتها هجمةُ رعب داهمة تسارعت لها ضربات قلبها وتقبَّضت أمعاؤها، فبكت مُجدَّدًا بحرقة وشدة. كان التغيُّر على وجه حسين واضحًا. اكتسى مُجدَّدًا بالبرودة والقسوة، فتمثَّل الموت أمامها كواقعٍ على وَشْك الحدوث، بعد أن كان يقينًا يستحيل تصوُّره.. حدَّثتها نفسها أنها

لا يمكن أن تموت الآن! إنه من غير المعقول، ولا المقبول، أن تموت الآن! لقد عاشت سنينًا خشنة وكفاحًا مُتجهمًا متصلًا كي تُخرج نفسها من حياة سُخْرَة بائسة لم يكن لها فيها أمل ولا منفذ، والآن وبعد أن تحقَّق لها هذا، تموت؟! تذهب إلى جهنَّم؟! بهذه البساطة؟!.. لم يَبْق أمامها إلا التَّوسُّل إليه، واسترحامه.

همست في أذنه بنبرةٍ متقطِّعةٍ لم يَزُلْ منها أثر البكاء: "سيبني أعيش يا حسين." دعته بحرارة: "ماتقلتنيش، أنا ماليش ذنب في اللي حصل." تضرَّعت إليه وابتهلت: "أبوس إيدك، أبوس رجلك، سيبني أعيش." ووَقَعَت على قدميه تقبِّلهما.. نعم، لثمت حذاءه الرياضي، وأحَسَّت بملمس الألياف التركيبية وطعم الطين المُرّ على شفتيها، ولم تبال. وليس هذا غريبًا عليها. لقد عاشت حياةً قصيرةً مؤذيةً أساسها الذُّل وإرضاء غرائز الأسياد، وعِمَادُها البِغاء والمخادنة، وحَشَاها الخضوعية والمهانة، فانبعثت في الفُجور بغير اكتراث، كأنَّها من سلالةٍ مُنحطة خلقت للاستعباد والقهر.

لهذا أدركت بغريزة بدائية، وبواقع معرفتها الوثيقة لحسين ولأمثاله من «الأسْيَاد»، أن سبيل النجاة الوحيد هو التذلُّل والبكاء. ذَرِفَت عيناها الدَّمعُ سخيًّا ساخنًا، وجمعت في هذا ثنائية الضعف والدهاء النِسَائِيَّة المتناقضة، آملةً أن تأخذه بها الرقَّة والرحمة. وقد كان. نظر حسين إليها وخَلْطَة من المشاعر المتنافرة تغلي منها أمُّ دماغه: الكراهية والقسوة والانتقام والاستعلاء الشاهق، ضد البؤس والرخاوة والتنازل الوضيع. الغِلُّ المهلك والاندفاعُ المضطرب والتهافت على الشَّر، ضد التأني العميق والصبر الطويل والامتناع عن القتل. ثم أطفأ بكاؤها ما تبقَّى في نفسه من شهوة القتل، فكأنما سَرَت دموعُها في عروقه، ونفذت في أنسجته وانسابت بين خلاياه، ودَغْدَغَ خضوعها كيانه وهدَّأ من هيجان نفسه لما إطْمَأنَّ لسلطته المطلقة وقدرته الغاشمة، فنظر إليها من علٍ نظرة السيد إلى عبدٍ شقي، ولسان حاله يقول: "قد أرحمك أيتها الفاجرة!" رأت هذا في عينيه، فنزلت عليها سكينة مباغتة كادت تصيبها بإغماءة!

ثم أخذ يحدِّثها وهي تستمع إلى صوته الجامد بملامح ذابلة ونفس مكلومة: "اسمعي يا سَحَر.. أنا حاسيبك، وأنا متأكد أني هاندم.. اهربي يا سَحَر.. اختفي.. لأني لو شفتك أو سمعت عنك خبر بعد النهارده، حاقتلك."

"خلاص؟" بهذا تساءل ببطء، فضغطت على أعصابها وبذلت جهدًا غير عادي للمتابعة والتركيز، ووافقته بإيماءة يائسة وذليلة، ثم نهضت عن الأرض بمشقَّة، وانبعثت في بدنها آلامٌ لا تُحصى كتمتها بإرادةٍ صلبة. توادعا بنظرات يابسة كأن ما بينهما من شأن البكاء والرحمة لم يكن، ثم تراجع حسين ببطء حتى ابتلعه الظلام رويدًا رويدًا. ثبتت في مكانها تحدِّق في الظلمة، وانقبض قلبها. علمت أن ثَمَّة تغيُّر قاصم يحيق بحياتها، فأخذها بكاءٌ صادقٌ مسترسلٌ ضائع.

أما هو فسار على حافة الطريق، بخطى خاملة. إن كان ثَمَّة تغيُّر قاصم أحاط بها، فالتغيُّر الذي حاق به دمَّر حياته وأهله أجمعين. نعم، هذا هو حسين حربي جوهر الجارحي.. حفيد الحاج الكبير: القتيل جوهر الجارحي.. وأخو القتيل: حَسَن حربي جوهر الجارحي.. هو من كبار الجارحية خالصًا في نسبه، اصطفاه الحاج الكبير كي يكون عينه وجاسوسه في وزارة الداخلية.

شعر مع الصقيع بأنه يُولد من جديد! مخاض مؤلم وخبيث لا شك في هذا، صاحبه نزيف دموي خطير، ونتجت عنه خلقة مشوَّهة. الآن فقط فكَّر في إرثه الدموي، وفي عائلةٍ جامحةٍ عليه أن يواجهها بعد جريمته الشنعاء. فكَّر في النكبة المميتة التي حَلَّت به بمقتل زوجته. لقد استطاع مع التداعي السريع للأحداث أن يقفز فوق المأساة إلى حين، أما الآن وقد انتهى كل شيء، وجد نفسه وجهًا لوجه أمام مستقبل أسود. أوشك قلبه أن ينفطر خوفًا وجزعًا، وأَحَسَّ بوحشةٍ شديدةٍ ويأسٍ مميت. يا للهول! إنه عائد إلى حيث ترقد زوجته جثة هامدة على فراشها.. جسدها النَضِر الجميل، الذي اغتر بشبابه وبهائه فظنَّ أنه لا يتأثر بخصائص المادة وأحوال الزمان، ولا يجري عليه ما يجري على سائر الأبدان من ضعف ومرض وكبر. ستعرض عليه العوارض وتتابع عليه الاستحالات والدواهي من تيبُّسٍ فتعفُّنٍ فتفسُّخ. يا لها من ظلمات دامسة لا منفذ فيها، ويا له من ضنك لا ينقطع، ويا له من عارٍ لا مهرب منه!

أخرج هاتفًا محمولًا، كتب عليه رسالة بمكانه كي يوافيه محاميه فيه. ثم لزم موضعًا مستترًا من الطريق، وفكَّر في أن القاهرة التي يعود إليها، بالنسبة له، ليست هي القاهرة التي غادرها.

الفصل الثاني:

خُسُوفٌ كُلِّيّ

"أنت اللي عملت كده في نفسك.. تحرّكت دون مشورتي، وأنا أصلًا صاحب التدبير..
متوقِّع كبار العائلة يسلموك رقابهم بسهولة بعد موت الحاج الكبير؟"

يقول كبار النَسَّابة إن عائلة الجارحي تنتمي في نسبها لقبيلة قَحْطَان العدنانية، وسواءً كانت تمتد لقَحْطَان أو لغيرها فهذا لا ينفي هوان مكانتها في الصعيد، ذلك أن مسقط رأس الجارحية هو قرية أبجاج الحطب التابعة لمركز مطاى بالمنيا، وهي قرية بائسة قبل عن يومها إنه بلا غد، وعن مستقبلها إنه بلا أمل. يعيش سكانُها جميعًا في فقر مدقع وبؤس شاق، وغياب تام للبِنْيَة التَّحْتِيَّة والمرافق الأساسية.

فرع واحد من عائلة الجارحي استطاع الخروج من مرارة الفقر وذل الاحتياج عندما هاجر منصور الجارحي إلى القاهرة، واستطاع فتح دُكَّان صغير للعطارة في السيِّدة زينب، ثم راجت تجارته بالتدريج حتى تحوَّل الدُّكَّان إلى واحدٍ من أكبر متاجر شارع زين العابدين. رُزِقَ منصور بابنٍ نَابِه على عدة أشقاء، هو جوهر، الذي حقَّق حلم أبيه في الالتحاق بأكاديمية الشرطة، وتخرَّج فيها من الأوائل، وعمل في المباحث الجنائية لسنوات، ثم في الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، وتدرَّج في المناصب الأمنية، حتى تولَّى ملف زراعة وتجارة المخدرات وتهريب الأفارقة لإسرائيل في منطقة القناة وسيناء، ثم تقلَّد منصب رئيس الإدارة العامة لمكافحة المخدرات. نال درجة الماجستير في جامعة عين شمس، ثم درجة الدكتوراه في القانون الجنائي، وإبَّان عمله في الداخلية أصدر عددًا من المؤلفات والأوراق البحثية حول أصول علم الإجرام، وقانون العقوبات، وتجارة المواد المخدرة.

اكتسب اللواء جوهر الجارحي أُبَّهةً خشنةً وهيلمانًا غاشمًا أضفته عليه مناصبه القيادية المتعاقبة في مجتمع احتدم فيه الصراع الطبقي، ومثَّلت الشرطة فيه أداة قمعية ذات سلطات مطلقة، وكان واحدًا من الشخصيات المتميزة في تاريخ وزارة الداخلية المصرية؛ إذ استطاع على طول مشواره المهني تحقيق عددٍ من الإنجازات المهمة، مثل توجيه ضربات قوية لبؤر تجارة المخدرات في مصر، والمشاركة في إعادة تخطيط رقابة المنافذ التي تأتي المخدرات عبرها بالتعاون مع قطاع أمن المنافذ والإدارة العامة للتخطيط والبحوث وقطاع مباحث أمن الدولة، ثم كان له الدور الأكبر في إنشاء أكبر وحدة استخبارية داخلية لمكافحة المخدرات، وهي «الوحدة ٣».

عايش اللواء جوهر الجارحي فترات عصيبة من تاريخ مصر، صارفيها ملف تجارة

المخدرات مستعصيًا في ظل الانشغال الأمني بالسيطرة على الإرهاب وتحقيق الأمن السياسي، واستفحال الفساد في وزارة الداخلية بِشِقَّيْها السياسي والجنائي، ما أدَّى إلى إهدار مخصَّصاتها المالية في بنودٍ تهدف بالدرجة الأولى إلى الإنفاق على أوجه التعفُّن المستشرية فيها، بدلًا من الإنفاق على تطوير أساليب مكافحة الجريمة والبحوث الفنية والقانونية، فلجأت الشرطة لأساليب أخرى لمكافحة الجريمة، تعتمد على إقامة علاقات وثيقة مع المجرمين ومسجلي الخطر كمرشدين أو كشركاء، وتعميم استخدام التعذيب المنهجي في تحقيقات المباحث الجنائية.

أفرخ هذا الوضع عن تضخُّم تنظيمات تجارة المخدرات في ظل تخفيف القبضة الأمنية عن تجارة الحشيش بالذات، ورواج أنواع أخرى من السموم شديدة التأثير كالكوكايين والهيرُوين والأفيون، وبرزت مصر كسوقٍ استهلاكية كبيرة انقضَّت عليها تنظيمات الجريمة المنظَّمة الخارجية في اليونان وتركيا تحت رعاية جهاز الاستخبارات والمهام الخاصة الإسرائيلي، وبعض الشخصيات المصرية البارزة ذات النفوذ القوي في الحكومة والبرلمان، ورأس المال القوي المخترق لكل جيوب السلطة.

في هذا المناخ المشحون قضى اللواء جوهر الجارحي حياةً حافلة بالنجاحات والإخفاقات، واستخدم أساليب وصولية مُمَنْهَجَة، اكتسب بها صداقة جهات متعدِّدة ترتبط بدوائر المال والسلطة وصُنع القرار فوق الأرض، وبأباطرة المخدرات والسلاح تحت الأرض، وحصل بها على ولاء شبكة من الجواسيس والمرشدين تعمل داخل عصابات وعائلات تجارة المخدرات في مصر.

يعلم القريبون من جوهر الجارحي كمَّ الغضب والإحباط اللَّذين ملآ نفسه لعدم اختياره مراتٍ متتالية لمناصب أرفع شأنًا وأجلُّ قدرًا مما زُنِقَ فيه زَنْقَ الدواب، وتعيين من هم دونه كفاءةً وأقل منه منزلةً في مواقع أرادها لنفسه، وطحن نفسه عملًا لأجلها كما تُطحَن الذُّرَة فِي الرَّحَى، بعد وعودٍ برَّاقة خدعه بها رؤساؤه لسنواتٍ بعد سنوات، وآمالٍ طموحة تمثَّلت في خياله كأنها حقائق على وشك الحدوث. يرجع هذا إلى طبيعته المتقلِّبة وشدَّته في خصوماته، والأهم من هذا: توتُّر العلاقة بينه وبين أمين تنظيم الحزب الحاكم، وعدد من قيادات جهاز مباحث أمن الدولة.

وفي سنواته الأخيرة بالخدمة ساءت أخلاقه، وتطوَّر الإحباط في نفسه إلى عدوانٍ وحقد، وتداخل مع مقته الغريزي للتبطُّل وخوفه من التهميش وضياع هيبة السلطة بعد التقاعد، وهو الذي خاض في الدنيا مستسلمًا لغشاوة النفوذ المُهَيْمن، فتكوَّنت داخله طاقة سلبية توجَّهَت لاشعوريًّا إلى كل من حوله. ثم كانت الطَّامَّة الأخيرة، عندما عُيِّن اللِّواء محروس عسل رئيسًا لـ«الوحدة ٣» التي كان لجوهر الجارحي فضل إنشائها واختيار كوادرها. نعم، عرضوا عليه نيابة رئاسة الوحدة، لكن جوهر اعتبر هذا العرض لفتةً وضيعةً وإهانةً لا تُغتفر. ومع ضيقه وتَوَتُّره، وفقدانه التوافق الذاتي، لم يستسلم، بل ساعدته قوَّتُه الذاتية وتكوينه النفسي المتمرِّد على السيطرة على ذهنه، ومراجعة الموقف من كافة زواياه، ثم تكوَّنت في دماغه تفاصيل خطته لما بعد التقاعد.

وكمن يشهق الشهقة الأخيرة قبل الغرغرة، استنفذ جوهر الجارحي علاقاته ونفوذه، واستمات في الطلب وألَحَّ في التَّصَدِّي، حتى وضع حفيده في المنصب الذي عرضوه عليه مسبقًا: نيابة رئاسة «الوحدة ٣٠»، ووافقه رؤساؤه إكرامًا له، وإتقاءً لشرِّه، فكأنها تركةٌ تورَّث. ثم، مسلَّحًا بذخيرة ضخمة من المعلومات والعلاقات، اختار جوهر الجارحي تجارةً طالما حاربها، كمجال يبدأ به نشاطه بعد خروجه من الداخلية. نعم، لم تكن حربه ضد تجارة المخدرات مخلصة في اتجاهها ولا نتائجها، شأنها كشأن أي عضو يتَّصل بجسدٍ أفسده السرطان وفتكت به الأورام الخبيثة. غرق عمل عُمُرِه وحصيله شقائه في مستنقعٍ عكرٍ من الفساد والموائمات والرشاوى والمصالح والمحسوبيات، ولم يقف يومًا ليسأل نفسه: هل ما أفعله يُعتبر حقًّا حربًا على المخدرات، أم مجرَّد تقنين لتجارتها وتنظيم لزراعتها وغربلة لأنواعها؟ عاش حياته في معسكرٍ يحارب تلك التجارة حربًا شكليَّة، أو على أفضل الفروض، حربًا باردة، تُوازن بين العرض والطلب والحاجة، وعلاقة هذا كله بالقرار السياسي. لذا لم يكن صعبًا عليه أن يختار الانضمام للمعسكر المضاد، ضمنيًّا، وعمليًّا. وكانت بدايته أشبه بخاتمة مشوار مضني لتاجر أفنَى عمره في المهنة، منها تقدَّم كالصاروخ دون أي عقبات في الطريق تقريبًا. أنشأ تشكيلًا عصابيًّا نشيطًا استطاع العمل بحرية في تهريب شحنات كبيرة من مخدر الحشيش المغربي عبر الحدود الغربية والسواحل الشمالية للبلاد، وكوَّن تحالفات مع عائلات ثقيلة بالصعيد وعزبة البرج، وكوَّن تحالفات على محاور أخرى مع تجَّار كبار ذوي واجهات اجتماعية

برَّاقة: رجال أعمال وأصحاب مؤسَّسات مصرفية وأعضاء في مجلس الشعب، وتحالفات على محاور ثالثة مع أصحاب نفوذ ورؤساء دوائر حساسة اقتصادية وأمنية وَفَّروا له مظلة اجتماعية وقانونية فسيحة، علاوة على علاقات عمل متينة مع شبكات التهريب الدولية الضخمة العاملة في اليونان وإيطاليا وتركيا وغيرها.

أثبت جوهر موهبةً فذَّة ترقَّت به سريعًا، فاتسعت أعماله وتضاعفت مكاسبه، وكَثُر منافسوه أيضًا، ما جعل إنشاء كِيَان إداري منظَّم مطلبًا ملحًا، يستند إليه في تحالفاته، ويركن إلى بأسه في خصوماته.

استقر اختياره على عائلته الكبيرة بفرعيها الحَضَري والريفي، لإمكان تطوير علاقة عمل تقوم على السيطرة المطلقة، وأسَّس تنظيمًا عائليًّا استبد فيه بالأمر لنفسه، قام على تسلسلٍ هرميّ تدرَّجت فيه المسؤوليات وتوزَّعت الواجبات بشكلٍ دقيق. وضع جوهر لرجاله نظامًا داخليًّا صارمًا اكتسبوا من خلاله خبرة العمل وتعرَّفوا على التجارة من كافة جوانبها، فلم يمضِ العقد الواحد حتى حَذَقَت ثُلَّةٌ منهم مفرداتها، وتحوَّلوا من أنفارٍ بسطاء إلى تجَّار ومستثمرين لهم سطوة في البرَّين البحري والقبلي.

وكما تفعل الضواري إذا ما اجتمعت في قطيع، حدَّد الحاج الكبير لأقاربه تدرُّجًا في المراتب الاجتماعية، وأنشأ هيكلًا تنظيميًا اعتمد على ركائز أساسية تمثِّل ميثاق تعامل بين أفرادها:

أولًا: للعائلة مدلول متَّسق، يبدأ بأدنى الأقارب الذين تجمعهم رابطة الدم، فالأعمام والأخوال وأبنائهم، وهؤلاء واجهة العائلة، منهم رجال الأعمال والمستثمرين وأصحاب التجارات الكبرى، فالأصهار، ثم تتفرَّع شجريًّا إلى أسر متعددة تركِّز تواجدها ونشاطها على أساسٍ جغرافي يخدم مختلف مجالات التجارة والحِرَف.

ثانيًا: لا يتمتَّع بالاستقلالية أي عضو مهما بلغ شأنه، ولا أي من العائلات الفرعية، فالكل تابع للحاج الكبير تبعية غير مشروطة ولا محدَّدة بأجل، وطاعته مطلقة لكل مطلب منهم في أنفسهم وأموالهم وأهلهم، ليس لأنه كبير العشيرة فحسب، بل لأنه الفكرة التي تمد العائلة بالقوَّة وتسبغ عليها الشرعية. هو حالة ذهنية وفلسفة حياة تضمن للعائلة استمراريتها.

ثالثًا: للعائلة هيكل تنظيمي يقوم على التسلسل القيادي، فالحاج الكبير على القمة، هو الآمر الناهي، يُحاسِب ولا يُحاسَب، مالك لا مُنازع له، تصرفه تام وتدبيره مطلق في شؤون عائلته، يقبض بيديه على خيوط القوَّة ومصادر السلطة ومنابع الرزق. العلاقة بينه وبين من تحته قائمة على الهيمنة والإكراه. يأتي من بعده ابنه: حربي جوهر الجارحي، ثم حفيده: حَسَن حربي الجارحي، ومن بعدهما تأتي ست رؤوس كبيرة تتعامل مع الحاج مباشرة، هم المستشارون من أدنى قراباته، إخوانه وأولاد أعمامه وأبناؤهم، ثم ينقسم الجارحيَّة لعائلات فرعية، لكل منها رأس يقود أعدادًا غفيرةً من التجَّار والموزعين والوسطاء والسماسرة والبلطجية.

رابعًا: تلك القواعد بمثابة الدستور، يلتزم به الكبير والصغير، ليس حُبًّا في النظام، بل تحقيقًا لهدف الحفاظ على البنيان التنظيمي. ثم وضع الحاج قائمة مطوَّلة من الأوامر والنواهي يتفاوت فيها الثواب والعقاب، وأخرى من المحرَّمات لا عقاب لها سوى الموت.

استمرت العائلة عشرة أعوام، استفحلت خلالها وتبوَّأ المجد بهم والغنى، وصارت تساندها فئة ضخمة من المنحرفين والمرتشين والطفيليين، وتنوَّعت أعمالها بين تجارة المخدرات والسلاح وغسيل الأموال، وصار اسمها مرادفًا للفساد والإثراء الفاحش، وصارت أخبار الحاج الكبير وعائلته مقترنة بالإرهاب والترويع، وطالت سياساته القمعية التجار المناوئين ورجال الشرطة على السواء، وشملت الحصيلة الدموية عشرات المجرمين والأبرياء، كما أن نقوده أيضًا أغرقت المئات من المتعاونين والفاسدين.

ثم تقاعد الحاج عن العمل بعد الحادث الأليم الذي قُتل فيه ابنه حربي، فتولَّى حفيده حَسَن الجارحي شأن العائلة، فساقهم بيدٍ من حديد سَوْقَ البهائم، على الرَّغْمِ من انحرافاته الشخصية وشططه الخلقي.

ثم كانت النكبة المميتة والمصيبة المُفجعة التي حلت بالعائلة، وأفقدتها رجليها الكبيرين في ليلة واحدة. كانت صدمة مرعبة تبعتها حالة من البلبلة والاضطراب. قضوا جميعًا أيامًا قبيحةً ومظلمةً انفرطت فيها عُرَى العائلة وتفكَّكت أوصالها، وخرجت الضواري وأكلة الجيفة من الجحور، وتكالبوا جميعًا كلٌّ يحاول خطف نصيبه من

القسمة.

مرَّ على حسين حربي الجارحي عامان بعد المذبحة التي راح ضحيتها جدُّه وأخوه وزوجته، ولم تسر به الأمور كما ابتغى. لأسابيع طويلة احتلت المذبحة عناوين الصحف، وأثارت ضجةً سمع بها القاصي والداني، نظرًا لأن القتلى من ضباط الشرطة الحاليين والسابقين والأثرياء. ولقد حامت الشبهات حول حسين من اللحظة الأولى، لكن محاميه قطع على المباحث الجنائية أي جهود لتوريط موكله؛ ذلك أن الجريمة تمَّت في ثلاثة أماكن متباعدة، وليس من المعقول أن يقوم شخصٌ واحد بتنفيذها في هذا المدى الزمني الضيق، كما أن الحِرَفيَّة التي تمت بها تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك أطراف عِدَّة متورِطة في تخطيط رفيع المستوى. علاوة على هذا، استطاع المحامي إثبات تواجد حسين يومها في الأسكندرية للإشراف على تجديد شقَّته بحي لوران، وقضائه الليلة في الشقَّة لتأخُّر الوقت عليه هناك، ونفوره من القيادة ليلًا على الطرق السريعة. أيَّد حُجَّةَ غِيَابه حارسُ العقار، ومجموعةٌ من العُمَّال والبنَّائين العاملين في الشقة، الذين أوضحوا بجلاءٍ كيف أنهم هيَّؤوا غرفة النوم الصغيرة لمبيت الضيف على وجه السرعة، لأن الشقَّة كانت في حالة فوضى، وتمتلئ بالغبار والركام. بدت الأدلة دامغة بشكل سخيف، ما جعل أي محاولة لربط حسين بالحادث -كما قال المحامي- ليست أكثر من قصور في التدليل، وفسادٍ وتعسفٍ في الاستدلال.

لم يبال حسين بكل هذه الضَّجَّة، ولم يهتم مطلقًا بما يفعله محاميه، إذ قضى أيامه الأولى مشتتًا بين نوبات من ندمٍ يأكل كبده وأرقٍ يأكل ليله، ثم دوَّخته الداخلية في قضايا أخرى أهم، تختص بتصفية حساباتهم معه. ضيَّقوا عليه الخناق بالملاحقات المدنية والجنائية وتحقيقات الذمة المالية، ثم أحيل للاحتياط تمهيدًا لتدمير مستقبله. وَجَّهت إليه نيابة أمن الدولة العليا طوارئ اثنى عشر تهمة أحيل بها للحبس الاحتياطي في ليمان طُرَه.

وفي ليمان طُرَه تَبَدَّت فظاعة الكارثة، عندما علم أنَّهم سيضعونه في عنبر الجنائي تنكيلًا به (بدلًا من عنبر الضبَّاط، وهو عنبرٌ مُخَصَّص للضبَّاط المتهمين في قضايا فساد ورشوة يَخِفُّ فيه الطابع التأديبي لباقي العنابر). وجد حسين نفسه في عالم مختلفٍ ومخيف، تحكمه قواعد تمثِّل انتهاكات صارخة لا تمت بصلة لقواعد مصلحة السجون،

ولا تواكب أبسط حقوق الإنسان. عاش أيامًا بهيميَّة وسط تجمُّع من القتلة والمنحرفين يمثِّلون بناءًا اجتماعيًّا يقوم على الهيمنة والتحكُّم من خلال العدوان والاعتداء البدني والقهر الجنسي. كان كابوسًا جاثمًا امتزجت فيه روائح العرق بالدخان بالبراز والبول، علم فيه أن حياته انتهت نهاية مأساوية، وأن قرار حبسه هو في الواقع شهادة وفاته، وأنَّه لم يبق له إلا مكابدة العنت والعذاب حتى يدخل قبره.

ثم حبسوه في زنزانة بعنبر الحبس الانفرادي (أو عنبر التأديب كما يُطلق عليه) بلا إضاءة ولا تهوية، فكانت العتمة فيها شاملة لم يستطع فيها أن يرى أصابعه. وبعد يومين بالضبط انتهى حسين! قضى السجَّانون والمساجين والحبس الانفرادي على ما تبقَّى في نفسه من شخصيته السابقة. انهارت كافة الثوابت الأخلاقية (أو اللاأخلاقية) التي آمن منها، والتي منها اكتسب غطرسة القوَّة في التعامل مع الأغيار؛ ذلك أن تربيته العسكرية المغلقة وعمله في جهاز متضخِّم يعتبر نفسه السلطة العليا والرقيب المطلق فوق كافة مؤسسات الدولة زادت إحساسه المفرط بالثقة والتسلُّط، وحوَّلته إلى شخص ظالم وكريه.

الآن فهم أن كل ما تعلَّمه وكل ما ظنَّه في نفسه كان زَيْفًا. على مدى سنوات تم تطويعه بالضغط البدني والنفسي حتى تحوَّل إلى مُرتَزِق مغسول الدماغ، يخوض في دنيا الناس بتعالٍ وغرور لا مزيد عليهما، ولسان حاله يقول متأفِّفًا، قرفانًا، طهقانًا: "إحنا أسيادكم، ونضربكم بالجزمة!" إن عمله الحسَّاس ونفوذه المتنامي جعلاه يظن أنه فوق المساءلة، وأعلى من القانون، وأقوى من العدالة، بل إن العدالة نفسها لم تطرح نفسها أمامه يومًا كفكرة مُعْتَبَرَة. لكنَّه اكتشف في أيام قلائل أنه مزيَّف.. أنه ليس بشيء.. أنه مُخنَّث خلعوا عليه المرجلة والفتونة حتى صدَّق نفسه، وهو في الأصل عارم عن أبسط مرجلة وأهون فتونة.

عامًا كاملاً قضاه في الحبس، وقضاه محاميه مقاتلًا طوال الوقت، محاولًا رتق الثقوب المتزايدة، فما زال يغلق واحدًا حتى ينفتق عشرة، لكن مساعيه نجحت في النهاية، فلم تثبت على حسين أي تهمة من التهم الاثنى عشر، ما استفزَّ الداخلية، فتعلَّلت بماضيه غير المشرف، وبسوء سلوكه مع رؤسائه وزملائه، وفصلته من الخدمة.

خرج حسين من السجن كأشبه ما يكون بالهيكل العظمي في نحوله وضمور لحمه. لم يكن الخروج في حد ذاته حدثًا سعيدًا، بل مخاضًا عصيبًا طال انتظاره، فكأنه وليدٌ جديدٌ خرج من رحم الحبس قسرًا بدمه وقَيْحِه. حياته في الأيام الأولى كانت مؤلمة وعصيبة، كل حركة فيها مُضْنِية، فالمشي على قدمين كان صدمة، ورؤية النور كانت صدمة، وتنفُّس الهواء الطلق كان صدمة؛ ذلك أنه قضى قرابة العام الكامل أمام حائطٍ مصمتٍ صار جزءًا من إدراكه وعنصرًا ثابتًا في رؤيته للأشياء، وفي ظلامٍ شبه تام صار غشاءًا دائمًا يُغلِّف عينيه، ووسط هواء مُنْتِن صار رائحةً طبيعيةً لكل شيء. أما الآن، وفي دنيا لها سماء صافية وأرض تمتد للأفق البعيد صار الفراغ بالنسبة له اتساع سرمدي مخيف!

ثم إن محاميه تولَّى تجهيزه للعودة لعالم الأحياء لمدة شهرين كاملين، وتعاقد مع عددٍ من الأطباء وخبير تغذية أشرفوا على صحته العامة ونظامه الغذائي، أو بالأصح أشرفوا على عَلْفِه كالبهيمة كي يستعيد صحته. ومع التحسُّن التدريجي أفْرَد له محاميه وقتًا طويلًا لإقناعه بالسعي للاهتمام بتجارة العائلة، وتَبَوُّءِ مكانه الطبيعي كعميدٍ لها، واستثارة شهوة السُلطة في نفسه، وتبسيط المسألة لخطوتين أساسيَّتين: أولًا، إنذار المتنافسين للبعد عن منطقته، وثانيًا، مد قوائمه ونيل ما هو حقه.

كان العدوي، وخلال عام كامل، متفرغًا بشكل شبه تام لقضيَّة حسين من جهة، ولمتابعة ما يجري في العائلة من وقائع التصادم العنيف والتقاتل على التجارة بين كبارها من جهة أخرى، ورأى أنه بتقادُم الوقت ستفلت فرصة السيطرة من بين يدي حسين (ويديه بالتبعية) للأبد، فدَفَعَ حسين للتحرُّك بشيءٍ من اللَّهْوَجَة وفساد التخطيط. لذلك ما أن تورَّط حسين في محاولات الاتصال بالكبار، والتفاوض تمهيدًا لطرح موضوع جلوسه على مقعد عِمادة العائلة، حتى اكتشف أن آماله في السيطرة أوسع من الغبراء، وأن العرين في عمق الصخور وما من سبيل إليه. ثم إن كافة أمور العائلة تعقَّدت، خاصة وقد تركها مُعَلَّقَةً سنةً كاملةً انشغل فيها بقضاياه الخاصة، وقضى منها وقتًا طويلًا قيد الحبس الاحتياطي، ما استنزف طاقته، وأوهن صحته.

كانت للحاج جوهر أساليب عدة يسيطر بها على عائلته. بجانب ترويضهم بالتخويف والبطش، استطاع أن يلعب على أوتار نشأتهم القروية البسيطة، وتعاطيهم التنجيم، وتحكُّم الخرافة والدجل فيهم، فلجأ في واحدة من أسفاره إلى ساحرة تايلندية ذائعة السيط، شاع عنها الاتصال بالجن، فسحرت كبار العائلة. أشاع هذا الخبر بينهم، واتّبع في ذلك كثرة الروايات، واستخدم كالإخباريين وسائل لتحريك الوقائع بالاختلاق والكذب بغرض التشويه.

طبعًا لم يقتنعوا بسهولة، واعتبروا حديثه عن السحر ضربًا من المبالغة، لكن حادثة فريدة غيَّرت نظرتهم للأمر بتمامه، وألجمت الرؤوس المتمردة والطموحة:

نشب بين الحاج ياسين (وهو من كبار تجار الماشية في جنوب الوادي) وبين شقيقه الحاج جوهر خلافٌ عاصف، قرَّر ياسين على إثره الاستقلال بأمواله وأعماله، والتوقُّف عن بذل نصيب الحاج الكبير من التجارة. وفي ليلةٍ سوداء احترقت عزبته في أسيوط وسُوِّيت داره بالأرض، ونفقت البهائم والخيول، أما الرجل نفسه فوُجد بعد ثلاثة أيام في السلخانة المُلحقة بمصنع اللحوم المملوك له على أطراف أسيوط، وقد عُلِّق بالخطاطيف، ومُزِّقت أطرافه، وشاه وجهه والتوى فمه. أما أهل القرية المجاورة لموقع الجريمة، فعانوا من أصداء صراخ مُدَوِّيَة ميَّزوا فيها صوت الحاج ياسين ممزوجًا برنين معدني وقعقعة كحوافر الدواب على أسطح من الصاج الخفيف. بعد تلك الحادثة الفاصلة غلب الرعب كبار العائلة، فكمنوا في جحورهم، ولم يُرفع لهم حس قط بعد كلمة الحاج.

بعد مقتل الحاج الكبير وحفيده تغيَّر كل شيء للنقيض. استغل كبار العائلة انشغال حسين عنهم، فانخلعوا عن قيود تسربلوا بها لعقدين من الزمان، كالغنم إن غاب عنهم كلبهم، واستقل كل كبير منهم بنصيبه من التجارة، ثم ظهرت على السطح خلافات وأحقاد، ثم احتقانات وعداوات، تطوَّرت إلى مؤامرات وصراعات حول أنصبة من تجارةٍ وعقارات وشراكات في مشروعات، حتى صارت العائلة كالنار تأكل بعضها بعضًا. وما زادَ الطينَ بَلَّةً أن الداخلية دَسَّت بينهم يدها الباطشة، فأوضعت خلالهم تبغيهم الفتنة، وحصدت منهم من حصدت، زجًا في السجون، ورميًا بالنار في مداهمات عنيفة على

مواقع تخزين وتكرير، وقع خلالها تبادلٌ لإطلاق الرصاص في معارك ضارية، فأصبح مآل العائلة بعد سنة من الصراعات كهيكل عظمي بالٍ منثور في الشتات لا يضر ولا ينفع.

ووَسَط هؤلاء أفاق حسين واكتشف أن له موقعًا لا بد أن يَتَبَوَّأه. ولقد حاول بكل ما أوتي من عزيمةٍ أن يجمع شتاتهم، بالحكمة والرفق، والتهديد والترهيب، وبقدرٍ من الانتحارية كذلك نظرًا للتغييرات المحورية العنيفة المحيطة بالعائلة، والتي جعلت الدخول بينهم كالولوج في بحرٍ متلاطم الأمواج، يَغُصُّ بقراصنة وصعاليك يتاجرون في السلاح والدم والأعراض.

ثم عَلِم أنَّه يفتقر مقوِّمات القيادة، أو أنَّه فقدها في خِضَم ما تعرَّض له في السجن. أما حداثة سنه وميراث الضغينة بينه وبين أعمامه فتلك نقرة أخرى؛ ذلك أن مشاعر الكراهية الأصيلة التي كنُّوها للحاج الكبير امتدت إلى أولاده من بعده وذريَّته إلى يوم يُبعثون. ثم إن مشاكله مع الداخلية تقاطعت مع مشاكله مع العائلة، فأنحت عليه العائلة باللائمة فيما حاق بهم من نكبات، والتي في ظنهم لم تكن إلا بموجب تسويَّات بينه وبين الداخلية لتدميرهم وتمكينه من التسلِّق عليهم.

وما أفلح حسين في إنجازه هو جمع كلمة العائلة على هدفٍ واحد: القضاء عليه. ليست تصفية جسدية فحسب، بل القضاء على فكرة سطوة الفرد الواحد. لن يفرطوا في الحرية بعد أن ذاقوا حلاوتها. الحرية!! الشعور الممتاز بتملُّك كل منهم ناصية أمره وأمواله.

أول محاولة اغتيال كانت في نهاية العام الأول لمقتل الحاج الكبير، عندما جنحت تجاه سيارته شاحنة عتيقة على الطريق الدائري. تحطَّمت سيارة حسين تمامًا، ولم يُصَبْ هو سوى بخدوش وكدمات بسيطة، وإن عَلِمَ أن الموت عنه ليس ببعيد. لم تختلف المحاولة الثانية كثيرًا، ونجا حسين هذه المرة أيضًا بأعجوبة، وقضى في المستشفى عدة أيام خرج فيها كغير ما دخل. انكسرت داخله أشياءٌ كثيرة، وفكَّر: هل تساوي الدنيا كل هذا؟ وهل يريدون إلا المال والتجارة؟ فليذهبوا بهما إلى الجحيم. لن ينالوا في النهاية سوى حفرة تمتلئ بالدود.

وتبع الإخفاق اكتئابٌ شديد، فانكفأ على ذاته داخل كبسولة سميكة لا يدخلها صوتٌ أو ضوء، ثم حَلَّت المخدرات ضيفًا ثقيلًا. لاحظ في مدار سياحاته العقلية وهلاوسه الذهنية أنَّه نسي ملامح زوجته تمامًا. إذا نَقَّب في ذاكرته وجد شبحًا شاحبًا يعلم في باطنه أنه هي، لكنَّه لا يميّزلها ملامح. رجع إلى نفسه مُخلصًا، وفكَّر في حاله، وعلم أنَّه فقد حياته عندما فَقَد أسْمَاء. ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأظلمت عليه الدنيا من جوانبها، وصار يتساءل: أين من كانت له سَكَنًا ورحمة؟ وما فائدة البقاء بعدها؟ يا لها من حياة حقيرة، ودنيا مُنْتِنَة! كم تهافت وتنافس وتصارع على حطامٍ مُتَعَفِّنٍ ظنَّه نعيمًا كامل الزينة، وكم اشرأبَّت نفسه لحب الملذات، وهوى فؤاده لاجْتَرَاح السَّيِّئَات، ثم أصابته الدواهي في كل حاله وحياته وأهله. فلماذا خُلِق إذاً؟ ولأي شيء وُجِد؟

أكسبته الوحدة بلادة، خاصة بعد أن ضجَّ من محاميه وقطع علاقته به تمامًا، فأصبح يقضي جُل وقته في حجرته القذرة في القصر الكبير، يعيش مع أفكاره الهدَّامة بالنهار، ويعيش مع هَذَيان عقله بالليل، فيضحك حتى يسيل من فمه الزبد، ويبكي حتى يمتخط. ولم يمر الزمن الطويل حتى زهد الزاد بالكلية، وهبط وزنه هبوطًا مطردًا.

ثم قرَّر الخروج من قوقعته، خصوصًا وقد تجاهلته عائلته تمامًا، وانصرفوا عنه لشؤونهم ومشاغلهم بعد أن اطمأنوا لانعدام خطورته. أما خروجه فكان بائس الشأن طلب فيه مواضع الشبهة، إذ استهوته مخالطة الأشرار في علب الليل والحانات القذرة. وفي ليلة سُرقت سيارته ونقوده وملابسه، ثم ضربه بعض الحثالة ضربًا وحشيًّا وتركوه ينزف في شارع مظلم. بعد هذه الحادثة تقوقع على نفسه للمرة الثانية مُلملمًا جراحه، ثم عاد إلى حياة اتسمت بالهدوء النسبي. حتى كانت محاولة الاغتيال الثالثة.

* * *

التقى حسين إيفيلين فارتان في بارٍ راقٍ بالزمالك. هي طويلة، غلامية البدن، ذات منكبين عريضين، وشعْر ذهبي وبشرة بيضاء مُشرَّبة بحمرة، وعينين خضراوين وقحتين. تتصرَّف كالذكور في حديثها وحركاتها، وتتَّسِم في ملبسها بالذوق والخشونة. توطَّدت بينهما صداقةٌ عابرة، توثَّقت عراها على مدى ثلاثة أشهر، فبدأ يلتقيان خارج البار ويتسكَّعان بالساعات. وقرب فجر يوم ما، وكان كلاهما في حالة ثمالة، تسلَّلا لقبو

البار، والتحما في غرام فظ بين صناديق البيرة وزجاجات الكحول، وخرجا منه إلى علاقة متينة طويلة الأمد.

علم حسين أنها وُلِدَت لأبٍ أرمنيٍ مقيم بالإسكندرية يعمل بتجارة القماش، وأمٍ راهبة بكنيسة الأرمن الأرثوذكس بمصر. عندما حَلَّت بأبيها ضائقةٌ مالية، صَفَّى تجارته وعزم على ضم نشاطه لنشاط أخيه في لبنان، ثم قُتِلَ وأمُّها بعد وصوله بيروت بمدة يسيرة في حادث سيارة، وتجزم إيفيلين أن عَمَّها دبَّر الحادث ليستولي على تجارة أبيها؛ لأنه تخلَّى عنها وأنكر أي حق لها لديه، فوجدت نفسها دون نقود أو مسكن أو شهادة محترمة تعمل بها. قضت أيامًا شديدة الصعوبة، حتى التقت زوجها اللبناني، الذي وصفته بأنه "رجل أعمال"، دون أن تفصح عن اسمه أو مجالات عمله.

علم حسين أن زوجها يقضي أغلب وقته بين لبنان ودول أوروبية، وأنه يزورها بين الحين والحين ليطمئن عليها ويباشر بعض أعماله في القاهرة. وعَلِمَ أيضًا أنها تشارك زوجها في نادٍ خاص مطل على النيل، وعندما صاحبها هناك أكثر من مرة لاحظ على المكان أنشطة مريبة، وخص مدير المكان بشكوكه، وإن لم يبال بذلك، فليس له به شأن. أما هي فلم تعلم عن حسين شيئًا، لأنه لَفَّق أحداث حياته جميعًا، وكان لما يكذب يستدعي في مُخَيلته ما يشابه كذبه من الحقيقة في حياته، فيخرج حديثه سلسًا صادقًا.

استمرت العلاقة بينهما عامًا كاملًا، تتخلَّله فترات انقطاع من جانبها، قد تطول لمشاغلها وسفرها لزوجها ومجيئه إليها. كانا يلتقيان في فيلا صغيرة ورثها عن أخيه بالمنصورية، ينتظرها فيها بالأيام على أحر من الجمر، فإذا جاءته تلقَّاها بوجد ولهفة، فتبدأ بتنظيف المكان كأيَّة زوجة متفانية، ثم تطبخ ويأكلان سويًا. كانت الخلافات تنشب بينهما شديدة نظرًا لكونها خشنة صعبة المراس، لكن على ما يتعاور السطح من فوران، فإن المودة والألفة وجدا بينهما سبيلاً. شَغِفَ بها حسين أشد الشغف على ما بها من نقائض، وما دخلت عليه مرة إلا وأهداها شيئًا: مجوهرات أو ملابس أو عطور (وكلها كانت تخص زوجته). كثيرًا ما لحظ على جسمها كدمات تفضح معاملة قاسية تتلقَّاها في مكان ما، فلا يسأل ولا يزده هذا إلا رقة ورغبة.

انشغل حسين بها عن الدنيا، ونسي ما كان من أمره مع العائلة، وتجاهل مطاردات

محاميه، وانغمس في حياته المغلقة الصغيرة.

وذات يوم اتصلت به بعد غياب طال شهرًا، كاد يجن فيه من الضجر والوحدة، فلما سمع صوتها سقط قلبه بين قدميه بهجةً إذ يتفقان على اللقاء في اليوم التالي في منطقة سَقَّارة السياحية. وصلت متأخرة ساعة، وكان وجهها على غير ما اعتاده، شاحبًا كئيبًا. إنه يعلم أنها كئيبة بطبعها، لكن أن تكون نظرتها منكّسة ذليلة؟ هذا ما لم يره فيها من قبل. والأدهى تلك الكدمة التي علت وجهها، فلم يفلح منظارها الداكن في مداراتها، وإن داراها فماذا عن إبهامها المتورم وآثار الخدوش على ساعديها؟ أفزعته حالها، فسألها بغضبة مكبوتة: "الجبان ضربك مرة ثانية؟!" لم تجب، وإن وشت ملامحها بإجهاشٍ بالبكاء. على عكس عادته في تجاهل ما لا تخبره به، ألح في معرفة ما يحدث بالضبط، ومن يفعل بها هذا، وأقسم ليؤدبن هذا الأحمق أيًا من يكون، فكانت تتطلع إليه بحنانٍ غامر كأنها تطالع وجه طفلٍ أحمق، ثم تخفض طرفها كالآثمة. فلما يئس من إسْتِنْطاقها دون جدوى، أخرج لها هديَّتها: ساعة كارتييه ذهبية بإطار مُفصَّص بالماس كان قد اشتراها لزوجته بخمسة وعشرين ألف دولار كهدية عيد ميلاد. تلقتها بأسًى شاكرة، وذكرت له كم أعياها حبه حتى فسدت حياتها (وتلك أول مرة تذكر الحب)، وتمنَّت لو يعود الزمن فلا تلتقي به ولا تعرفه. لم يفهم شيئًا، لكن عزم على تسليتها قدر استطاعته. على غير المعتاد غادرتهما الخشونة، وحل محلها نعومةٌ وملائمة، فتعشيا سويًّا، وحضرا عرضًا مسرحيًا تجريبيًا عجيبًا في مقر الأمير «طاز» استمر ساعة ونصف الساعة، وقَضَيَا بقية السهرة في بار بالزمالك، فشربا حتى الثمالة، وفي فيلا المنصورية كان مآلهما الأخير، حيث زنى بها، ثم رقدا يراودهما الخدر والدفء دون حديث، وتابعا التلفاز ساعة، حتى نهض حسين ليستحم إذ جافاه النوم.

كان واقفًا تحت وابل الماء الساخن في البانيو، عندما انفتح باب الحمام، ورأى إيفيلين واقفة بكامل ملابسها. ثم لمح في يدها اليمني مسدسًا ضخمًا بساقية دوَّارة. تلك كانت اللحظة الأولى، التي لم يتسنَّ له فيها التفكير في أي شيء. فقط ذهول وعدم فهم! وفي اللحظة التالية رفعت سلاحها وأطلقت النار. دخلت الرصاصة من أعلى ذراعه الأيمن لتفصل شريانًا، ومنه للصدر حتى توقَّفت على بعد بوصة واحدة من القلب. أطلقت النار ثانيةً فأخطأت نتيجة رد الفعل، لتدخل الرصاصة ساعده وتكسر عظمة الزند،

ثم أغمضت عينيها وأطلقت أربع طلقات أخرى، وكان الدويُّ يضرب أذنيها كالقنابل، ورد فعل إطلاق الناريكاد ينزعها من مكانها كالريشة. فتحت عينيها على سحبٍ محدودةٍ من الدُّخَّان، وعلى رفيقها مُجَنْدَلًا في البانيو. تلوَّث الحائط خلفه ببقعةٍ فظيعةٍ من الدم، وغطَّى الدم صدره وذراعه. اتسعت عيناه وتسارعت أنفاسه فيما يجاهد لإدخال الهواء لرئتيه، بينما ينهمر الماء ليغرقه ويأخذ من دمه ما يأخذ فيجرفه. أخذت إيفيلين تَشْهَقُ وتَشْهَقُ، كالمُحتَضَر يحَشْرَج ويُغرغر، وغزا وجهها تعبيرٌ وحشيٌ فزع، ثم تهاوت أرضًا، وأخذها بكاءٌ هستيري وعويل. وبينما ترى حسين أمامها يبذل الروح، تحاملت على نفسها ونهضت برخاوة ممسكة سلاحها بأطراف أصابعها. ارتعشت عضلات وجهها، وتحرَّكت جفونُها حركاتٍ لا إراديّة، ثم اهتزَّت الرؤيةُ أمام عينيها، فراحت تتَرَنَّحُ كأنَّها سَكْرَانة.. لم تدر ماذا تفعل الآن.. هل تجلس؟ أم تقف؟ أم..؟ أم ماذا؟.. ثم ارتكبت أكبر خطأ: إنْدَفَعَت مُسْرِعةً للخارج، وفي خِضَم ذهولها ارتطمت بأشياءٍ لم تدركنهها.. مقاعد، ومنضدة، وتعثَّرت في طرف البساط.. كانت تتخبَّط كأنها هي من ضُرِبَت بالنار، بينما ينبض جسدها كله باختلاجات متتابعة وتقبُّضٍ تشنُّجيّ، فكأنها تترك أشلاءًا من نفسها في أثرها.. لم تنس حقيبتها.. لم تنس نظَّارتها ولا مفاتيحها ولا قطعة واحدة من ملابسها الخارجية أو الداخلية.. فقط نسيت أن تُجْهِز عليه!

ما زال حسين على قيد الحياة وإن أصيب بثلاث رصاصات نظيفة. شرع يهدئ نفسه، وينقّي ذهنه إلا من فكرة واحدة: إنه يموت ولا بد من حل. جسّ جراحه بأصابعه، فأحَسَّ بالكسر في الأضلع من الألم الشديد عند التنفس، أما الثقوب فلم تبشِّر بخير. التدمير في الأنسجة شديد، وهناك جرح كبير في ظهره. ازداد معدل إفراز الأدرينالين في جسمه فأَحَسَّ بنشاط طارئ، وسيطرت رغبةٌ واحدةٌ عليه: إنه لا يريد أن يموت الآن. كان خائفًا جدًّا، ينهنه ويشهق، ثم بكى وهو يستدعي ما تعلمه عن جروح طلقات الرصاص. بذل مجهودًا مضنيًا حتى رفع نفسه وسقط خارج البانيو.

زحف تاركًا خلفه أثرًا من الدم حتى وصل لباب الحمام. من حسن حظه أن الحمام مُلحق بغرفة النوم، وإلا لمات في منتصف الطريق. عليه الآن أن ينظف الجروح. استطاع اعتلاء الفراش، وعلى الكومود جانبه وجد عبوة ماء، وعبوة مناديل ورقية. جعل يسكب الماء بقدر، ثم ضَمَّ الثقوب بالأنسجة الطرية النظيفة، واستوى على

الفراش يأخذ أنفاسه بصعوبة. أخذ هاتفه المحمول من على الكومود، وطلب رقمًا. استمع للرنين، وشعر بمذاق الدم في فمه، وأخيرًا رد الطرف الآخر، فقال بصعوبة: "أيوه يا عدوي، أنا حسين.. أنا بأموت في شقة المربوطية.. تعال بسرعة!"

ترك الهاتف يسقط منه، وتدفق الدم من بين شفتيه. الموقف أسوأ مما تخيَّل. الألم متجهم في كل مساحة الصدر. إنه لا يقدر حاليًا على أيسر حركة ولا حتى مس صدره لأن ألم الضلعين المكسورين غير محتمل، ولو طاوع نفسه ما تنفس، ولو لم يتنفس فستتوقَّف الرئتان عن التمدُّد ما يعني انهيارًا كليًّا أو جزئيًّا. ومع كل ثانية تمر لا يتغير الوضع إلا للأسوأ. أحدقت ببصره غمامة حمراء مرعبة، وانخفض ضغط دمه، وعلت الزرقة وجهه، ونَفَرَت عروق رقبته. وهو يعلم أن تلك الأعراض تعني أن إحدى رئتيه على الأقل قد تم اختراقها. ترتَّب على هذا تسرُّب الهواء من جدار الصدر، فتحوَّل الجهاز التنفسي إلى صمام هوائي ذي طريق واحد، يدخل فيه الهواء ولا يخرج. ولا بد أيضًا أن وعاءًا دمويًا قد انقطع في الفراغ الصدري، ما أدَّى إلى نزيفٍ داخلي يملأ الرئة المصابة بالدم باستمرار. إن لم يُغث خلال دقائق فإن الهواء المترسب سيتراكم حتى يدمر الرئة، أو يسبقها القلب فيتوقف بسبب النزيف الداخلي. وبحسبة بسيطة علم أن المسعفين إن وصلوا فلن يصلوا في الوقت المناسب، فإما أن ينتظر مجيء ملائكة العذاب، أو يتصرف بنفسه. لابد من العثور على جسم حاد ورفيع. النزيف يزيد، وهو مستلقٍ على الفراش كالجثة، لا هو بالحي ولا بالميت. فكر أن يستسلم ويكفيه قتالًا ما فعل، لكن الرعب من الموت تسلَّل إلى نفسه، فرفع عينيه وأبصر خزانة الملابس. لابد من وجود إبرة في هذا العملاق الخشبي البعيد، لكن كيف السبيل للوصول إليه؟

عَزَمَ على النهوض ولو مات في الطريق. كانت الكارثة الداهمة في الحركة الأولى والنزول عن الفراش، ثم المعاناة الأبدية في الحبو كالكلب على أربع ليصل للخزانة، وجسمه يجود بكرم على كل ما يمسه بالدم. وصل أخيرًا، فشرع يبحث في الأدراج بعزيمةٍ ماضيةٍ كعزيمة المدمن إذا دهمه العوز، حتى وجد بين طيَّات ملاءة مطوية مجموعة من الإبر ومقصًا وبكرات خيوط من مختلف الألوان، ثم ما يهمه من هذا كله: إبرة تريكو. مسح الإبرة لإزالة التراب، ثم أتت أسوأ نقطة في الموضوع. كان عليه أن يطعن صدره بالإبرة متلافيًا إصابة القلب أو الرئة السليمة، ما يتطلب دقة ورباطة جأش لا تتوافر بالضرورة

في تلك اللحظات العصيبة. لكن ما باليد حيلة؛ لأن فتح منفذ للفراغ الصدري ضرورة حتمية كي يتسرَّب الهواء المتراكم للخارج، فيصل الدم للقلب وتتمدَّد الرئة.

ارتجف حسين وهو يجلس على ركبتيه ويمسك الإبرة بيديه. كان يناوش نفسه ليفعلها، والدقائق تمر، والانهيار آتٍ، لكن الفكرة مرعبة لدرجة أن وجهه تجعَّد ثم أجهش بالبكاء. سدَّد سنَّ الإبرة لصدره، ثم أغمدها في جسده! انتفخ وجهه، وغارت عيناه، وصَرَخ صرخة استغاثة رفيعة ومخيفة، ثم نزع الإبرة عن صدره بحركة لا إرادية عنيفة مُلقيًا إيَّاها بعيدًا، وسقط على جانبه كالحجر. كان الألم غريبًا وشديدًا، ثم كان شعور آخر مناقض بالراحة غمره عند سماعه صوت حفيف خافت للهواء هو يُمتص للخارج مع الدم الساخن الذي تسلل من الثقب الجديد ليغمر جسمه بأفرعٍ متشعبة. حِمْلٌ ثقيل وانزاح عن صدره، وراحة في التنفس لم يكدرها سوى الألم الناتج عن الضلعين المكسورين. أخذ الألم يتلاشى ببطء، مع خدر يغشاه بالتدريج. حتى الخوف من الموت بدأ يغادره. نما إلى سمعه سارينة قادمة من بعيد، ثم لم يشعر بالمسعفين يدخلون الغرفة. وهؤلاء وجدوه منكفئًا على وجه، منكمشًا على نفسه، والدم يغرقه من رأسه لقدمه.

***

وبدأ الإدراك يعاوده في المستشفى مع كل نقطة دم تتدفَّق لعروقه، ثم وُضع على جهاز التنفس الصناعي. حرص الأطباء على إفادته بحتمية وضعه على جهاز التنفس الصناعي، وشرحوا له إجراءاته، وحاولوا تهدئته قدر الإمكان لأنه ما يزال مذهولًا مشلولًا، وبشَّروه بإتمام العملية بسرعة وسلاسة. ثم أدخلوا الأنبوب إلى فمه ومنه إلى حلقه.

صاحب إيلاج الأنبوب انعدام القدرة على الكلام لأنه يمر خلال الأحبال الصوتية، ثم بدأت عملية شفط مستمرة للسوائل والإفرازات. فقد حسين القدرة على إصدار أي صوت، حتى الأنين. فعلم أن الألم مُر، لكن فقد القدرة على التعبير عنه أدهي وأمر. كان يبكي رجاءً في مُسكن، ولم يستجب له الأطباء، فكرههم أشد الكره، ولم يتذكر للموضوع تفاصيل أخرى سوى كونه مخيفًا ومؤلمًا. كم عملية جراحية أجروها، وكم

رصاصة استخرجوها؟ لم يعلم عن هذا شيئًا.

***

- تعتقد ينجو منها يا دكتور؟

- إصاباته مش بسيطة.. إحنا نظفنا الرئتين، وأقفلنا الثقوب، وركبنا مسامير في عظمة الساعد، وحاليًا هو على جهاز التنفس الصناعي.. تنفسه مستقر، وأنا شخصيًا أعتقد أنه حيتعافى تمامًا مع الوقت، طالما القلب سليم.. إحنا مستعينين بالتنفس الصناعي لأنه قفصه الصدري مكسور، مش لقصور في وظيفة الرئة.. طول ما الرئة تعمل بكفاءة ما فيش خطورة بإذن الله.

- أنا مش مطمئن.

- إحنا عالجنا حالات أسوأ منه بمراحل.. المشكلة أنه استمر واعي فترة طويلة، ودا اللي غالبًا تسبَّب في كثرة إصابته.

- كنت تفضل أنه ينهار بسرعة؟

- طبعًا! لما ينهار بسرعة معناه أن دافع القاتل ينتهي، فتقل إصاباته وتزيد فرصته في النجاة.. المشكلة أن الرصاص لا يقتل دائمًا بسرعة، فالمصاب يحاول الدفاع عن نفسه، فيتلقى طلقات أكثر، وإصابات أكثر، ونزيف أكثر.. للسبب دا أقول إنه محظوظ.. معدل النزيف الداخلي كان بطيء.. ثم إنه -والأهم- أحسن التصرف وأنقذ نفسه بالثقب اللي فتحه في صدره.. حركة غريبة، تتطلب عزيمة وشجاعة، ومعرفة جيدة بالإسعافات الأولية.. أظنك قلت إنه ضابط شرطة؟

- سابق.. لكنه -وربنا يعلم- كان متفوق وواسع الإطلاع، والكل يشهد له.

- حالته كانت سيئة، ورئته شبه منهارة، وفراغه الصدري امتلأ بلتر ونصف من الدم، لكن قدرنا نلحقه.. على المدى الطويل كل الجروح تلتئم، والتأثيرات الجانبية حتعتمد على أي عضو بالضبط تضرَّر.

- ربنا هو الشافي.

- ما تقلقش، المسألة وقت فقط.. حضرتك قريب من الدرجة الأولى؟

- لأ، أنا محاميه.

- ما لوش عائلة أوزوجة؟

- حاليًا، لأ.

تناهى هذا الحوار لسمع حسين في رقاده بمقاطع غير مترابطة، وأصوات ينقصها التمييز، ثم تتكرَّر عشوائيًا في مُخَيلَتِه. أحيانًا يكون طرفا الحوار الطبيب والعدوي محاميه، أو الطبيب والحاج جوهر الجارحي. وتارةً يكون الطبيب هو زوجته، وتارةً رجل سمين بنظارة غليظة، أو عجوز متهالك، أو إمام مسجد! أما العدوي فيحل محله وزير الداخلية نفسه، أو أحد لواءات إدارة مكافحة المخدرات. كانت صورة هؤلاء جميعًا في مُخَيلَتِه ضبابية مجهولة الملامح، فـ«عدوي» أحلامه يختلف تمام الاختلاف عن العدوي الواقعي. وعندما عاد إليه وعيه كانت ذاكرته كصفحةٍ بيضاء، وعلى امتداد أسابيع قضاها بأنبوب التنفس في جوفه، بدأت الأحداث تعاوده بالتدريج، كقطع فُسَيْفِسَاء يُضَمُّ بعضها إلى بعضٍ، فتُؤَلِّف أشكالًا هندسيَّةً ذات مغزى.

ثم نزعوا عنه أنبوب التنفس الصناعي، وكانت العملية أشد بؤسًا من إدخاله، وتمت وهو في كامل وعيه، ثم وضعوا على أنفه وفمه قناعًا شفافًا يدخل منه الأوكسجين إلى صدره. كان يضطر لأخذ نفس عميق عشر مرات كل ساعة لتجنب انهيار الرئة، ما يعني ألمًا موجعًا تهون الدنيا لبؤسه. انقضت عليه أيامٌ طوال داوم العدوي فيها على زيارته. وفي يوم دخل عليه، فوجد وجهه متوردًا لأول مرة منذ زمن، فهشَّ له وخَف، وتبسَّم قائلاً بغبطة:

- حمدًا لله على السلامة يا حضرة الضابط!

كعادته، لَحَظَهُ حسين بخواء، ثم ولَّى وجهه صوب السقف، فتابع العدوي بمودة:

أنا مش عايزك تقلق من شيء.. الموضوع اتسوَّى، والمباحث مش حتقدر تأخذ أقوالك دلوقت.

وضحك متزلفًا، وقال ببهجةٍ زائفة:

المهم أنك تقوم بالسلامة، علشان نشوف أشغالنا.. إحنا عايزينك.. الدكاترة طمنوني، وقالوا أنها مسألة وقت وتستعيد صحتك.

- سامعني يا حسين؟

ضَمَّ حسين شفتيه ومدَّهما للأمام بوهن، ولو كان في وسعه الحنق لحنق، لكن الحنق يحتاج لسخونة وطاقة. ولما طالت الجلسة، ولم يبد الشاب نَيَّة للاستجابة، ولو حتى بتحريك عينيه أو هَز رأسه، قال العدوي ناهضًا:

- تأمر بشيء؟!

لم ينظر حسين إليه، فزفر العدوي بشيء من العبوس، وقال في سِره: "يا رب صَبَّرنا"، وقال في علنه ببشاشة:

- شد حيلك.. حامر عليك بالليل.

* * *

بعد أيام تحسنَّت حالة حسين فنقلوه لكرسي متحرك، ثم سمحوا له بالتجوُّل على ساقيه بعد فترةٍ في صحبة ممرضة في حديقة المستشفى، ليتعرَّض للشمس والهواء. لم يرض عن جولاته هذه، لكنهم أخبروه أنها ضرورية لاستعادة اللياقة، وللمساعدة على تمدُّد الرئة. وصارت الأسابيع شهورًا، وهو لا يشعر بأي تحسُّن ملموس. حَذَّره الأطباء من التدخين والكحوليات، فضاق بتكرار النصيحة، حتى صاح في وجه طبيبة شابة كانت تحاول مضاحكته، وجاءت على ذكر الممنوعات بالمرة، فرجاها بحدة أن تتركه وشأنه، أو أن تصبر حتى يخرج من مشفاهم اللعين، فإنه لا يتأتَّى له التدخين أو الشراب في هذا المكان بطبيعة الحال. وصارت تقتله الرغبة في الخروج للعالم، لكن لما طال عليه الأمد دون بادرة أمل، كَفَّ عن الحديث، وصار يتلقَّى الدواء والتعليمات لا سعيدًا ولا تعيسًا. اكتفى بالتجوُّل وحده في حديقة المستشفي، وإعمال دماغه فيما حل به. كان يتذكَّر مزاح إيفيلين وتدليلها له بشديد الأسى، ويتذكَّر بؤسها وطول صمتها، ثم يتساءل بثورة: كيف عشقها، وكيف أوقعت به؟ هل قتلته مضطرة؟ عام كامل تبيت في حضنه

وهي له كارهة؟ أو كاذبة؟! لكم صبر عليها وأهداها دون حساب. واللعينة تأخذ وتأخذ ولا تقول لا. حتى ساعة زوجته، آخر ما تبقى له منها، أخذتها. كان أول ما سأل العدوي بعد أن أفاق: أوجد الساعة؟ وأوصاه أن يذهب بنفسه للبحث عنها، وفعلًا ذهب الرجل، واجتهد في البحث، فلم يجدها. يقول العدوي إنها ربما أغرت أحد المسعفين، أو المخبرين، أو حتى الضباط، لكن لا. الفاجرة أخذتها. أليست هديتها؟! يا للخِسَّة، ويا للخيانة! لكن أليس هذا ديدنه، الخسة والخيانة؟ فليتجرَّع من نفس الكأس. إنه في غمار لذته وانكبابه على غرائزه، لم يصن حتى لزوجته ذكرى، فكأن وجودها انمحى من عقله وقلبه وحياته بالكليَّة.

كان يجلس في غرفته في الظلام، فتراوده الأشباح والهواجس، ويعيد على نفسه الأحداث المؤلمة مرارًا. إنها مصيبةٌ كُبرى، بل دَاهِيَةٌ مُنكَرَة. إنه ليس مرضًا ولا ابتلاءً، بل غدرًا لا مُبَرِّر له. كان في جلساته الطويلة، سواءً في غرفته أو في الهواء الطلق، يُحِسُّ بانغلاق أحشائه على نارٍ موقدة. يأكله الحقد، ويوشك على الاختناق من الغضب، ويريد أن يبكي فلا يستطيع. اعترف لنفسه أن الفاجرة أعدَّت نفسها إعدادًا دقيقًا لاصطياده، وتميَّزت في كل أحوالها بالقدرة على التمثيل وسرعة البديهة. لكن أن تنتظر سنة؟! لماذا؟! تركت هواجسه عليه آثارها، فانطبع وجهه بالكرب والتجهُّم، وتغشته غمامة من الكآبة والعصيان.

ثم كان يومٌ من أواخر عهده بالمستشفى، وقد تحسَّنت صحته كثيرًا، وإن لم يزل زاهدًا في الحديث والتواصل مع غيره. كان جالسًا على أريكةٍ خشبيةٍ في بقعةٍ مورفة الظلال، وكان الجو خريفيًّا منعشًا. على وجهه طفت أمارات القرف كأنه يشم رائحةً فاسدة، ثم لاح له العدوي يبحث عنه غير بعيد. وعندما التقت نظراتهما، تَهَادَى محاميه إليه، ووقف أمامه ملقيًا عليه التحية فلم يرد. جلس جانبه وسأله عن حاله وصحته فلم يجب. اكتنفهما الصمت مدة، ثم ألقى العدوي إليه بما كتمه طويلًا، بنفاد صبرٍ وشيءٍ من الحَنَق:

- ثلاثة أشهر مرَّت يا حسين، وأنت ما بتتكلمش.. بدأت أقلق عليك.

لم يبد على حسين أنه سمع، فقال العدوي حانقًا:

- خلاص، نويت تتشمس هنا طول عمرك؟!

لم يتلق انفعالًا واحدًا من الشاب، فهَزَّ رأسه مستاءًا، وزفر قائلًا بحدة خفيفة:

- أنا عملت اللي عليَّ بالنسبة لك.

ونهض ومضى في طريقه مغادرًا. ثم توَقَّف على بعد خطوتين، وعاد إلى حسين مسرعًا، وقال بغضبٍ مكبوت:

- هي غلطتي إني اعتمدت عليك.. أنت استغلتني أسوأ استغلال، وأنت عارف إني لا يمكن أتحرك من غيرك.. الأولى إني كنت أسيبك تموت في الفيلا النجسة دي.

واستدار بعصبية، ومضى في طريقه مرة أخرى ليغادر، وما كاد يقطع بضعة خطوات، حتى تناهى إليه صوت حسين ناقمًا مبحوحًا: "اتكالبوا عليَّ!" توقَّف العدوي، والتفت إليه، فواصل حسين منتزعًا الكلام من صدره انتزاعًا: "حتى النسوان!" نظر العدوي إلى السماء، وبدت عليه أمارات التفكير العميق، كأنه بصدد تقرير مسألة مصيرية، ثم تنهَّد بتسامحٍ مُتكلفٍ، وعاد فجلس جانبه، وسأله مُداهنًا:

- أكلمك بصراحة؟

لم تكن الصراحة ما يسعد حسين عمومًا، لكن العدوي قال بوضوح:

- أنت اللي عملت كده في نفسك.. تحرَّكت دون مشورتي، وأنا أصلًا صاحب التدبير.. متوقع كبار العائلة يسلموك رقابهم بسهولة بعد موت الحاج الكبير؟.. هربت للسكر والعربدة.. مومس ضحكت عليك، واستنزفتك سنة كاملة، وفي الآخر مستغرب إنها ضربتك بالنار؟ ساعة بستة وعشرين ألف دولار قدامها، ومستغرب ليه تقتلك؟!

سمع حسين كلمته كمن ضُرب رأسه بحجر. نظر إلى العدوي ممتعضًا، وفكر في مدى غباء هذا الرجل، الذي اختزل الموضوع في سرقة ساعة مهما غلى ثمنها. ثم إنه أهداها الساعة على كل حال، فما الداعي للقتل للحصول على شيءٍ أصبح ملكها؟ الموضوع أكبر من ذلك. إنه يتذكَّر الآن ارتباكها وشعورها بالإثم آخر مرة التقيا، حتى أن ارتيابًا غريبًا جال في خاطره: أن تكون قتلت زوجها مثلاً نتيجة اعتدائه الأخير عليها. إنه يجزم الآن أن الموضوع أكبر مما تصوَّر، وأن أبعاده الحقيقية تخفَى عليه. هناك من حَرَّض هذه المرأة عليه، إمَّا من بدء معرفتها به، أو أثناء ذلك.

كان منفصلًا لحظتها عن العدوي، الذي كان مستمرًا في تقريعه بأسلوبٍ أبوي زائدٍ عن اللُّزومِ، فيه كثيرٌ من الصَّنْعَة وَالْحَذْلَقَة، وكان يقول شيئًا ما ساعتها فقاطعه حسين فجأة، وسأله بوجوم:

- معاك سيجارة؟!

هذه المرة سمع العدوي سؤاله كمن ضُرب رأسه بحجر، فتسائل مُنكرًا:

- أنت بتهرَّج؟!

تلقَّى حسين انكاره شاردًا، وعندما نهض العدوي وهو يقول منتقدًا بشدة: "لما تفوق، أنت تعرف تليفوني." جذبه حسين من كُم بدلته الغالية وأجلسه وهو يقول ناقماً:

- أنت مش فاهم الموضوع.. بنت القحبة ضحكت عليَّ!

- مين؟!

- إيفيلين.

زوَى العدوي ما بين عَيْنَيْهِ مُفكرًا، ثم قال بتقزُّز كأنه شعر فجأة بمدى وضاعة موكله:

- أنت السبب، مشيت ورا شهوتك كالكلب، لحد ما دخَّلتها بيتك.

قال حسين متهيجًا:

- الساعة أنا أهديتها لها.. تورِّط نفسها في جناية، علشان حاجة أصلًا ملكها؟!

سأله العدوي مصعوقًا:

- أهديت واحدة مومس، ساعة بستة وعشرين ألف دولار، كانت أصلًا ملك مراتك؟!

اصفر وجه حسين، وعلت وجهه شراسة حيوانية، وقال مُتَنِمرًا كأنما سيفتك به:

- مش دي القضية!

استغرب العدوي من تغيُّر وجه حسين، فقر في مجلسه منتبهًا. تشبَّعت أحرف حسين بالبُغْض الشَّدِيدَ، وصار ينفث من فمه غيظًا وحقدًا، ويفكر ويرد على نفسه. فكَّر العدوي أن الوعي بلحظة السقوط هو مقدمة الصحوة، وأن تلك لا بد هي لحظة الصحوة، تحفزها تفاعلات نفسية فوَّارة.. أو هدَّامة.

احمرّت عينا حسين، وهمس بصوتٍ محموم أن الأوان قد آن لرد الضربات والانتقام من كل من خطَّط وشارك في محاولات اغتياله الثلاث، وأخذ يتمتم حاقداً بأنه سيُعرفهم معنى اللحم القاسي، وأكل الشوك والزَّقُّوم، وتجرُّع الدم الحامض. أقسم ليشعلن فيهم النار الواحد تلو الآخر، ولو دفع في سبيل ذلك ماله ونفسه. حدَّجه العدوي ساكتًا، وقد نضح فلقٌ زائفٌ على وجهه، لكنَّه ومن داخله كان فَرِحًا منشرح الصدر بعد يأسٍ وضيق، وعندما تحدث أخيرًا بدا أن عرى اتفاق جديد تتوثَّق بينهما، إذ يميل كل منهما على الآخر، فما زالا يتكايدان حتى اختفت الشَّمسُ في مغربها.

***

على الرَّغمِ من شكِّه في قصة حسين -فالشاب كما يعلم لا يتمتَّع بالمصداقية ولا الحكم الحصيف على الأمور- أبدى العدوي حماسًا لسببين: أولًا: كي يشجِّعه على تلك الإفاقة المتأخرة، وثانيًا: لتجديد الذريعة لشن حرب على العائلة وإثارة موضوع القيادة من جديد (وهو هدفه الأوحد)، علاوة على أن هواجس حسين راودته بشكوك عميقة بدت له الآن ممكنة، وكاد يجزم أن كبار العائلة هم مَن سلَّطوا عليه المرأة فضربته بالرصاص. لكن لحسين في هذه المسألة له رأي وجيه: إن استخدام إيفيلين لقتله يختلف عما عهده في أعمامه من أساليب خشنة ومباشرة. أدرك حسين في قرارة نفسه أن ما حدث كان لكسره وإذلاله أكثر منه لقتله، وليس في مخيِّلته إلا شخصًا واحدًا يملك الدافع الكافي للقيام بهذا التدبير.

أجرى العدوي تحرياته عن إيفيلين وكانت قد اختفت تمامًا، فلم يبق له إلا خيطًا وحيدًا: النادي الذي تملكه على النيل. يسمى النادي «Sapphire» (أي الصَّفِّير: الياقوت الأزرق). نشاطه الرسمي مطعم ومقهى، ويقدم الخمور أيضًا، وتقصده شريحة واسعة من الشباب للسهر. مدير النادي رجل سيء السمعة، وكنيته سالم الشايع.

كثَّف العدوي اتصالاته واستغل نفوذه الواسع، فتم تدبير كبسة على المكان. في الثانية بعد منتصف الليل هجمت قوَّة من الشرطة على النادي، ثم إنهم، ونظرًا للمقاومة التي لاقوها من أفراد الأمن، اضطروا للاشتباك معهم، ما أدَّى لتحطيم المكان تمامًا، وبالمعاينة عثروا على غرفٍ سرِّية لممارسة الفاحشة وتعاطي المخدرات،

وتم ضبط بعض الزبائن متلبسين. تم التحفُّظ على ما بالمكان من خمورٍ ومنتجاتٍ دخانية ومخدرات ونقود، ورأت قوَّة الشرطة أن إخلاء سبيل بعض الروَّاد أصحاب المكانة الكبيرة من الحكمة بمكان. اقتيد الباقون لقسم الشرطة، وفُتح المحضر، وتم تسجيل جميع ما حُرِّز، وإرساله إلى المعمل الجنائي على وجه السرعة للفحص، وإصدار تقرير في الصباح الباكر يتم تحويله على النيابة.

لا شك أن صدمة سالم الشايع كانت كبيرة عندما واجهه العقيد مأمور القسم (وهو وثيق الصلة به) ومعه الضابط المناوب بالتهم المنسوبة إليه وإلى مالك المكان: الاتِّجار في السجائر المهربة والخمور المغشوشة، والاتِّجار في المخدرات، وتسهيل أنشطة الدعارة والقمار، وتشغيل قاصرات في أعمال منافية للآداب، وحيازة أسلحة دون تراخيص، ورشوة موظفي الحي، ونسخ شرائط موسيقية دون تصريح من هيئة الرقابة على المصنفات الفنية، وحيازة مواد مُشِعَّة (وتلك من أغرب التهم؛ لأنهم اعتبروا فحم الشيشة مادة مُشِعَّة)!

بدا الأمر للشايع مُلفَّقًا بشكل فاضح، فحاول أن يفهم ما يحدث مداهنًا الضابطين، ومتحريًا الأدب، وعندما استنفذ أساليبه السلمية انتفخ وجهه، وصاح غاضبًا: "سيادتك يا باشا، أنا مش فاهم.. إحنا طول عمرنا ماشيين مع بعض بما يرضي الله! إيه اللي جد؟! حد يفهمني." ثم بلغت ثورته مداها عندما أخرج هاتفه المحمول، وقال متوعِّدًا بصوتٍ جهوري: "طالما ما حدِّش عايز يتكلم، أنا حاعرف أتصرَّف إزاي." وبينما يبحث عن الرقم المهم، نهض إليه الضابط المناوب بهمَّة، ولَطَسَه بكفه على وجهه بقوَّة، فاندفع الرجل متقهقرًا مذهولًا، وسقط على ظهره وهو يصرخ، فانهال الضابط عليه بالركل بلا رحمة، حتى صاح فيه العقيد أن كفى. رأى الشايع بعينين داميتين مذهولتين الضابط وهو يدهس هاتفه مِرارًا حتى تركه حطامًا وفتاتًا، وانتهى إليه صوت العقيد وهو يقول بشبه اعتذار: "من فضلك يا شايع ما تعطلش الإجراءات، وإلا أسيِّب عليك المخبرين يخلُّوا وشك مطرح قفاك." هنا آمن الرجل أن الموضوع أكبر منه، وأن الإجراءات ستسير في طريقها الطبيعي حتى يقضي منها المأمور غرضه ويستوفي منها غايته، ولم يفتح فاه بعدها.

أتم الضبَّاط محضرهم، وقضى الجميع ليلتهم في التخشيبة، وفي الصباح تم تحويلهم للنيابة التي تولَّت التحقيق، وتم تشميع النادي لأجل غير محدد. واستدعت النيابة مالكة المكان، السيدة إيفيلين فارتان. مرَّت أسابيع وسارت التحقيقات في طريقها كأن النادي ليس له صاحب. ولم يركن المحامي للثبات أو يستنم للصُدف، بل نشط رجاله للبحث عن إيفيلين ومن يمكن أن يدل عليها وعلى زوجها، ولم تُثمِر كل الجهود إلا عن روايات متضاربة لا تفيد. وأخيرًا وصل شخصٌ يحمل توكيلًا من إيفيلين بالتصرُّف. هذا الشخص هو إيلي مجدلاني، رجل الأعمال اللبناني وزوج إيفيلين. وفي ظرف يومين علم العدوي عنه كل شيء تقريبًا.

وُلد إيلي مجدلاني في قرية صغيرة بالجنوب اللبناني على ضفة نهر الوزاني، وكان أبوه غنيًا لكنَّه أفنى أمواله في مداومة الخمّارات ومصاحبة أهل السوء، ثم وافته المنيّة وهو بعد في الخمسين. وجد إيلي نفسه وحيدًا، وكان شقيًّا منذ حداثته، وكان يقبل على الموبقات بأشد مما يفعل أبوه. كان حلمه الغناء، فتعرف على ممثل مغمور أخذه مغنيًا في فرقته المسرحية، لكنَّه امتهن كرامته وبدنه، فوجد مآله لما هو أحط مما كان فيه، فلجأ لأعمال قذرة في غير دوام العمل في خمَّارات شارع الحمراء ببيروت، وأوكار الدعارة في فلل الشط، وهناك التقى برچيت الهندي، وهي أرملة ثرية عجوز، لحيمة لا تطاق، ارتضته لنفسها عشيقًا، وارتضاها لنفسه معينًا للنقود لا ينضب، فاستطاع أن يهجر فرقته المسرحية، ويقبع في كنفها عاطلًا. ولما ماتت تركت له ما يكفيه عمره. أسَّس إيلي بعد موتها شبكةً صغيرةً في بلدة البترون، وكان عمادها خمس فتيات يُسرِّحهن في الطريق، ثم توسَّع حتى صار يشرف على ثلاثين امرأة وعشرة سماسرة، ثم تضاعف العدد إلى ثمانين فتاة، وابتاع ثلاث شقق في بناية بشارع الحمراء أسفلها بار فاخر، اشتراه أيضًا، وسخَّر ريع تجارته لتأسيس شبكة علاقات تُمكنه من التوسع الآمن. وهو الآن يدير منظومة من المرابع الليلة التي تُتَّخذ شعارًا لأعمال الدعارة وتهريب الخمور وتوزيع المخدرات، ويملك سلسلة من الملاهي الليلية توظف جيشًا من البنات الروسيات والمدوفيات والتشيكيات. اغتني إيلي غنًى فاحشًا، وتوسَّع بأعماله في الإمارات والبحرين ومصر، ويُشاع أنه يملك في القاهرة مشروعات ترفيهية متعددة تُتخذ ستارًا للدعارة،

ويشارك في منتجع ضخم بالساحل الشمالي يضم مراكز تجارية وترفيهية، ويؤسس حاليًا فيلا كبيرة على الساحل في نفس المنتجع.

عندما علم العدوي بمقدمه للنيابة، أبلغ حسين فورًا، الذي تحفَّز وصار يتحين الفرصة للوثوب على ضحيته. وجاءت الفرصة عندما تجهَّز إيلي لمعاينة فيلته بالساحل الشمالي.

***

يمتد منتجع «كاسا ديل مار- Casa Del Mar» بطول كيلومترين بين سيدي عبد الرحمن وخليج رأس الحكمة عند الكيلو ١٧٩ المنتجع مهجور حاليًا، سوى من بضعة عُمَّال وخفراء، وهؤلاء يأوون جميعًا إلى أعشاشهم لا يغادرونها لثلاثة أو أربعة أيام لاشتداد البرد أحيانًا. وفي هذا اليوم بالذات تلبَّدت السماء بغيومٍ ثقيلة، وأنذرت الرياح الشديدة بموجة برودة وفوران للأمواج على الساحل، فخلت القرية من الإنسان، وسكنت الكلاب إلى أوكارها، وتَبَدَّى المكان كأطلال مدينة بائدة.

عبرت سيارة أودي حديثة بوابة المنتجع المهجور، وسلكت الطريق الرئيس حتى وصلت لخط الساحل المتراصَّة عليه فيلات أغلبها قائم كهياكل خرسانية في الرمال بترتيب عسكري منتظم. تقدَّمت السيارة ببطءٍ وراكبها يدير بصره بين صفوف الفيلات بتركيز، حتى رأى واحدة بعينها انتظرت أمامها سيارتان، إحداهما صينية صغيرة، والأخرى فِضيَّة فارهة. توقفت الأودي في موقعٍ غير بعيد يتيح لراكبها مراقبة البوابة والتواري عن العابر. مَرَّت ساعة أو يزيد، حتى غادرت أخيرًا السيارة الصينية وداخلها رجلان (وهما مهندسا ديكور). فتقدَّمت الأودي حتى جاوزت الساحة الأمامية المُبلَّطة بالجرانيت، ووقفت جانب السيارة الفِضيَّة.

هبط من مقعد السائق عملاقٌ بالغ الطول، يرتدي معطفًا يحيط ببِنْيَتِهِ الهائلة، وحذاءًا ضخمًا طويل العنق. ثم هبط حسين من الصالون الخلفي، بوجهه الأسمر الحسن، وجسمه خفيف اللحم. ارتدى سِتْرَةً بنيةً سميكةً، وسروالاً جينز، وحذاءًا جلديًا أنيقًا، وأحاط يديه بقفازٍ جلدي أسود. تقدَّم لمدخل الفيلا يتبعه العملاق، وجاوز الباب المفتوح لبهو الاستقبال الفسيح الخالي من الأثاث، فلاح له رجلٌ يوليه ظهره،

وبطالع أوراقًا هندسيَّة على منضدة بلاستيكية نُصِبَت وسط البهو. لم يشعر الرجل بالوافدين، حتى اضطر حسين للتنحنح، فجَفَلَ والتفت بسرعة. حدَّجه حسين بغرابة. كان قد كوَّن في مخيلته صورةً لكائنٍ شهواني بدينٍ فاحش، متهتِّك في كل حاله، وجزم كذلك أنه فاجر ماجن بالفطرة، شريب للخمر، أقل من رُؤي من الرجال، وأهتكهم لنفسه! لكن من التفت إليه كان شابًا نحيل العود بديع الخلقة أزرق العينين، يرتدي قميصًا حريريًا، وجاكيتًا نبيتيًا قصيرًا، وسروالاً چينز أزرق. بعينيه الجميلتين حدَّج القادمين متوجسًا، فسأله حسين بدهشة:

- أنت إيلي مجدلاني؟!

قطب إيلي متساءلًا، وسأله بحدة:

- قصفتلي ركبي، مين إنت؟

تقدَّم منه حسين وهو يدقِّق فيه النظر، وصُدِمَ أن يخيب خياله لتلك الدرجة. لم يتراجع إيلي، بل واجهه بجرأة، وهو يعيد سؤاله، فاستجاب حسين بالأسلوب الذي يجيده على الوجه الأمثل: انقض عليه ولكمه في بطنه بقوَّة، فتلقي الشاب اللكمة بصدمة مباغتة وعنيفة، وسقط أرضًا وهو يتوجَّع بألم رهيب. أخذ حسين يركله في وجهه وبطنه بوحشية، حتى انطبع دمه على الأرضية، ثم نهض عنه وهو يلهث، بينما تكوَّم إيلي على نفسه وهو يئن مذهولًا. رفعه العملاق ووضعه على المقعد، وقيَّده، ثم كمَّم فمه بشريطٍ لاصق عريض. غزت وجهه الانتفاخات والبقعُ الدموية وتهشَّم أنفه، وانغلقت عينه اليمنى، وتلوَّث عنقه وملبسه بالدم. كان يرتجف ويدير عينيه مرعوبًا في وجه حسين ورفيقه العملاق. ثم قال له حسين بحزم:

- حاسألك أسئلة، وتجاوب بنعم أو لأ.. نعم تهز راسك فوق لتحت، ولأ تهز راسك يمين شمال.

تحت وطأة الصدمة والألم، لم يستطع إيلي إلا أن يومئ إيجابًا، فسأله حسين:

- تعرف أنا مين؟

هَزَّ إيلي رأسه إيجابًا.

- مراتك، إيفيلين فارتان؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- تعرف أنها كانت على علاقة بيَّ، لمدة سنة؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- تعرف أنها تقريبًا قتلتني؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- كنت تعرف أني نجوت منها؟

هَزَّ إيلي رأسه بالنفي.

- أنت أجبرتها على كده؟

أومأ إيلي إيجابًا، فانقبض وجه حسين بغيظٍ مفاجئ، ولكمه مباغتةً في أنفه المحطَّم، وعاد مُراقبًا خصمه ومستمتعًا. أغلق إيلي عينيه بقوَّة، وصار يهتز باكيًا من ألم هصر كيانه وتأرَّج في دماغه، وإن لم يصل منه بسبب التكميم إلا نشيجًا حارًا مكتومًا، ولم يدل على معاناته إلا الدم الذي عاد فأغرق وجهه بعد أن كاد يجف. ثم سأله حسين بهدوء:

- طول السنة، كنت متابع العلاقة بيني وبينها؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- أنت دفعتها عليَّ؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- وهي كانت بتبلغك بتطورات العلاقة أول بأول؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- حد وراك، دفعك للتصرُّف دا؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- قل لي أسماء.

هَزَّ إيلي رأسه مذعورًا، علامة أنه لا يستطيع الكلام بفمه المُكمَّم، فأومأ حسين متفهمًا، وأخرج ورقةً مطويةً وقلمًا حبر. دار حوله، وحرَّر منه اليد اليمني، ووضع القلم في يده، والورقة على فخذه، وقال له مشجعًا:

- اكتب لي الأسماء من فضلك.

كان وضع الكتابة صعبًا جدًا، وإيلي نفسه في حالٍ لا تسمح له بتحريك إصبع، لكنه اجتهد وتكلَّف مشقة الرؤية والتذكُّر واحتمال الألم، وكتب اسمًا واحدًا بخطٍ مرتعشٍ صعب القراءة. نظر حسين فيما كتب، ولم يبد عليه كثير اندهاش، ولم يبد عليه الاقتناع كذلك، فقال بخواء:

- عبد الحكم صابر الجارحي.. أنت متذكر الاسم كويس، ما شاء الله.. فعلًا عبد الحكم من كبار الجارحية، ويهمه جدًا الخلاص مني.. ملعوبة! إيه بقى حدود علاقتك به؟

وأعاد إليه الورقة، فانحنى إيلي يكتب، وهذه المرة كتب طويلاً وبخطٍ صغير لا يكاد يُقرأ. لم يحاول سلك سبيل الالتواء وعدم وضوح، ولا المخادعة أو المداورة، بل انسابت الكتابة من بين أصابعه كأنها فرصة ذهبية. هذا ما بدا منه في الظاهر. ولما انتهى أخذ حسين الورقة والقلم وقرأ. كانت بعض الكلمات إما تُسْتَغْصَى على القراءة، أو غير واضحة المعنى، نظرًا أنه لا يكتب بالعربية الفصحى، لكن حسين أمعن واسْتَذْكَرَها حتى فهم السياق العام. ولم يعجبه ما فهم، فقطب مستاءاً وقال:

- كلامك مش منطقي.. والموضوع كله شكله متلفَّق، دا مش سلو العيلة.

لم يدر إيلي بم يستجب، فصمت مستبشرًا بما هو أسوأ..

أطرق حسين مفكِّرًا فيما يدَّعيه الرجل: عبد الحكم، من كبار رجال العائلة، علاقته وطيدة بإيلي وشبكته، فهو من جهةٍ عميل قديم، ومن جهة أخرى إيلي هو أحد موزعيه الأساسيين؛ نظرًا لتنادم الدعارة بالمخدرات. فالشبكة مستهلك كبير، سواء بالعاملين فيها، أو زبائنها. هل يعني هذا أن يُسلط عبد الحكم زوجة إيلي لتقتل حسين؟! هذا كلام غير معقول؛ لأن عبد الحكم لديه جيش من الرجال، وأن يغتال حسين، فتلك ليست معضلة تستدعي تخطيطًا معقَّدًا. يدَّعي إيلي أن عبد الحكم رجلٌ شَرَّانيّ، وأنه أجبره تحت تهديد القتل. حاول حسين تصوُّر سيناريو الحدث: عبد الحكم يأمر إيلي

أن يبعث إليه بإحدى مومساته، كي يضع حسين تحت المجهر. جاسوسٌ نائم يسيطر عليه، ويقتفي آثاره وينقل أخباره. وهي خدمةٌ سهلة، لكن عبد الحكم الآثم لا يتخيَّر من المومسات إلا زوجة إيلي. لماذا؟! لعله أرادها لنفسه مثلًا فرفضته! ملك الدعارة يبعث زوجته لتضاجع رجلًا آخر. مفارقة رخيصة. هنا ينتفض إيلي غيرةً، ويقول: "إلا زوجتي، إنها امرأةٌ شريفة!"، فيوجه إليه عبد الحكم نظرةً منذرةً، ويخيره بين الطاعة أو الموت، فلا يملك المسكين إلا الامتثال. ومدفوعاً بنفس الرغبة الخبيثة، يجبره عبد الحكم على إجبارزوجته على ارتكاب الجريمة!

أدار حسين الاحتمالات على كافة جوانبها، فبدا له السيناريو مُسفًّا وسخيفًا، تفوح منه رائحة التدليس. إنه يغطي على الفاعل الحقيقي. حسن جدًّا، سيعزقه ضربًا حتى يسمع منه الحقيقة. لكن ليس الآن، فالأولويات تأتي في المقدمة. سأله حسين بتركيز:

- إيفيلين في مصر؟

هَزَّ إيلي رأسه بالنفي.

- تقدر تتصل بها حاليًا؟

أومأ إيلي إيجابًا.

- اسمع تعليماتي، لأن اتباعها مسألة حياة أو موت بالنسبة لك.. أنا حاشيل اللزق من على بقك، وأديك تليفونك، تكلمها، وتطلب منها إنها توافيك هنا في أسرع وقت، بدون إبداء أسباب.. هي تعرف الفيلا دي؟

أومأ إيلي إيجابًا. فسأله حسين بهدوء:

- تقدر تتكلم دلوقت؟

لم يستجب إيلي مباشرةً، بل حاول استجماع لُعَاعَة نفسه. احترم حسين صمته، وأحَسَّ أنه يستعد، فشكر له إخلاصه، لأن الكذب برباطة جأش يحتاج إلى مجهودٍ وتركيز. وبعد مُضِي دقائق أومأ برأسه إيجابًا. أخذ حسين منه هاتفه وبحث في دفتر الذاكرة حتى عثر على اسمها. في تلك اللحظة انقبض قلبه، وأحَسَّ بتوترٍ شديد، وعزم أن يتأكَّد أن الرقم لها، فأجرى الاتصال. استمع للرنين، حتى سمع صوتها ذي النبرة المرتفعة وهي تقول ضاجرة: "آلو فأغلق الخط فورًا، وحدَّق في الهاتف واجمًا. ثم

مال على إيلي وأمسك بطرف الشريط اللاصق المُكمم لفمه، وأزاحه برفق، فكشف عن شفتين منتفختين داميتين. سأله حسين بترقُّب:

- هي فين؟

- في دُبيّ.

بهذا أجابه إيلي مرتعشًا، فناوله حسين الهاتف، ورفع سبابته وقال محذِّرًا:

- لو قلت كلمة زيادة، اعتبر نفسك ميّت!

أومأ إيلي مُمْتَثِلًا، ووضع الهاتف على أذنه، واستمع للرنين، ثم قال مُجاهِدًا كي يخرج صوته طبيعيًّا:

- أيوه إيفي، حبيبتي.. أهلين عَسُولة! أنا في مصر.. أول طائرة تاخديها، وتطيري على هنا.. أنا في فيلا الساحل.. يا ماما، والله ضروري.. تعرفي لما ألقاكي.. مش في الموبايل.

راقبه حسين بعينين حادتين لمع فيهما الحقد، وأشعل اسم «إيفي» في جوانحه النار، وهو نفس الاسم الذي اعتاد تدليلها به. في حين بدت على إيلي أمارات الضيق وانفلات الأعصاب، وهو يقول:

- يا حمارة، اسمعي الكلام!

تصاعد صوتٌ محتدٌ من الجانب الآخر، فشخص ببصره للفضاء، وقال ثائرًا:

- أقول تيجي فورًا.. يااااه! كِبِّي شرك عليَّ، كِبِّي!

تصاعد صراخٌ مكتوم من السمَّاعة مرة أخرى، فصرخ إيلي بجنون:

- أنا ما فيَّ اتعدَّى عليكي، ولا اتخطَّى حدودي.

رماه حسين بنظرة منذرة، فهدَّأ إيلي من نبرته، وزفر قائلًا بصوت متلهف مضطرب:

- طيِّب، طيِّب، حبيبة قلبي، بس اسمعي الكلام.. يا ماما، يا طيُّوبة، يا حلوة! طلب إصغير! إنشاالله ما في شيء، بدي بس تيجي حالًا، انشاالله بكون مريح إلك.. خلاص؟ (واشتد مرة أخرى) يومين وإلا بأعرف شغلي وياك، خلاص؟

ثم تلطَّف متابعًا:

- تكرمي، اسمعي الكلام، أول طائرة.. ناطرك، في فيلا الساحل.. وحدي.. باي.

سَحَب حسين الهاتف من بين أصابعه برفق، وتبسَّم له مشجعًا، وسأله إن كانت ستأتي فعلًا، من واقع معرفته بها، فأومأ له الشاب إيجابًا بقوَّة، ولم يكن موقنًا، إنما هي الأماني.

***

مرَّ اليوم الأول، ولم تقف الأمور بين حسين وإيلي عند هذا الحد. استجوبه لساعات وعلم منه أخبارًا كثيرة. في لبنان أكبر جالية أرمنية، وكان إيلي وسماسرته ينشطون للبحث عن الفتيات الجميلات الفقيرات، وتلك كانت فترة مظلمة في حياة إيفيلين عانت فيها الفقر والتشرُّد، حتى قدَّمتها إحدى صديقاتها لصاحب ملهى ليلي في الأشرفية، فوظفها للعمل كساقية. كانت تقدم نفسها يوميًّا للمنحطين والسكارى، ومع هذا لم تتحسَّن حياتها، لأن رئيسها كان خسيسًا جبانًا، فكانت حصيلة لياليها تذهب إليه. مضى جمالها يضمر، وحفر البؤس على وجهها علاماته، وأصيبت بالسُل. ثم التقاها إيلي، فرَقَّ لها، وتزوجها. أحبها فعلًا، وسمح لها بالبقاء بعيدًا عنه في القاهرة لأنها تكره لبنان. أحبته أيضًا، بيد أنها اكتسبت شرورًا من أثر مخالطة السكارى والقوَّادين. ساحت دون رابط، وغارت في الإدمان والعربدة، حتى نما إليه بعضٌ من سلوكياتها المشينة، فعزم على تأديبها، فكانت المعارك والفضائح. تدهورت الأمور بينهما للإيذاء البدني المتبادل، فكان يضربها وتضربه، ويُلهبُها بحزامه، فلتطمه بحذائها، ولم ينفصلا مع هذا، فتحوَّل حبهما لمرض خبيث، ثم إنه صار يتابعها كالمهووس؛ لأنَّها -كما يقول- أزني من قرد.

مرَّ اليوم الثاني والثالث وحسين يستمع إليه صابرًا، ويحاول استشفاف ما يفيده، فلا يجد إلا قِصَصًا ذات تفريعات مُضللة، فقرَّر -بأريحيَّة- الانتقال لمرحلة الاستِنْطاق بالضغط البدني. ضربه بسلسلة حديدية، وأطفأ سجائره في جسده. يصرخ الشاب، ثم يستمر في الحكي. صارحه إيلي بأنه هو صاحب الاقتراح بإرسال زوجته إليه نكايةً فيها، وإبعادًا للشبهة عن العائلة، وقد وافق عبد الحكم على هذا الاقتراح القبيح فورًا. يومها أشبع إيلي ورجاله إيفيلين ضربًا، وحبسوها أيامًا دون طعام حتى امتثلت لأمره مرغمة، وصارت تتردَّد على الحانة التي يتردَّد عليها حسين، والباقي معروف. لم يقتنع حسين بهذه

القصة، فازداد غمًّا وضراوة. ضربه بشومةٍ غليظة على سائر جسده، وكسَّر أصابعه، فلم يزدد إيلي إلا إصرارًا على قصته.

أخبره إيلي عن النار التي استعرت داخله إذ تتعلَّق إيفيلين بحسين يومًا بعد يوم، حتى إن طباعها تغيَّرت للأفضل. تحدَّث ناقمًا عن العاهرة ناكرة الجميل، وعن ضربه المُبَرِّح لها، حتى فاض به الكيل، فقرَّر الخلاص من حسين نفسه. ولما كان أضعف من أن يقوم بهذا الأمر وحده؛ إذ خشي على نفسه من مغبَّة قتل أحد كبار الجارحيَّة، استأذن عبد الحكم، الذي أذن له فورًا بالتنفيذ. وفي يومٍ خيَّرها إيلي بين حياتها وحياة عشيقها، وأقسم لينكلن بها، ثم ليلحقنَّها بأحد مواخيره، فلم تجد المسكينة بُدًّا من التنفيذ، فكان ما كان.

وفي اليوم الرابع، أخبره إيلي عن آخر ليلة له مع إيفيلين. اعتدى عليها جنسيًّا، ثم أوسعها ضربًا بالحذاء حتى ظنها ماتت. انتهره حسين وأمره أن يصمت، فلم يزده هذا إلا مجونًا وفحشًا في القول، فقذف حسين بأبشع الألفاظ، وبصق في وجهه، ثم اعترته حالة من التشنُّج والهيستيريا. صرخ فيه حسين بأن "اخرس"، لكنه استمر في العَك غير عابئ، وأوغل في البذاءة وشدة القبح، حتى لطمه حسين بالشومة على وجهه في ثورة غضب جنونية، وكالضاري الذي تهيجه رائحة الدم، انهال عليه بضربٍ وحشي مسعور، حتى كسر فكه ومعظم أسنانه، وفقأ إحدى عينيه، وألحق بسائر بدنه إصابات جسيمة. كانت هذه بداية نهاية الشاب. أصيب بشللٍ جزئي، ولم يعد يدل منه على الحياة إلا نفس ضعيف يدخل ويخرج.

وفي اليوم الخامس جاءت رسالة صوتية من إيفيلين تعلن وصولها القاهرة، وأنها في طريقها للساحل الشمالي. استقبل حسين الرسالة وهو جالس على الشاطئ، وكان مخمورًا، وبالداخل رقد إيلي متكوِّمًا على الأرض دون حراك. كان حسين في حالة عميقة من الكآبة دغدغت حواسه، وأهَّلته لمستوى راقٍ من الاسترخاء الذهني، فيما سرى المشروب الكحولي شديد المفعول في دمه فبث فيه شعورًا مؤقتًا بالرغد والخفة. ثم حانت منه التفاتة، فحدَّق في وجه صاحبه الضامر الخلقة، مستغربًا ومتأملًا.

هذا العملاق هو شوبكي سَيد العدوي، ويُكَنَّى بـ«النونو». شابٌ دون الخامسة

والعشرين، له وجه عابس قبيح الخلقة عميق السُمرة، وعينان غائرتان صغيرتان لا حياة فيهما، وجبهة بارزة مجعَّدة، فكان رأسه مُجملًا برأس الغوريلا أشبه. أما جسمه فلا حرج في تِبيان مواطن العجب فيه. هيمن فيه الجانب الوحشي على الجانب الإنسي، بقامته الضخمة وأطرافه العملاقة الباطشة، وعنقه العريض وعاتقيه المتكورين، وصدره الفسيح. أما شعره فشديد الكثافة، يتزاحم على بدنه كله بخشونةٍ وفظاظة.

هو الابن الوحيد لسيد العدوي المحامي. وُلِدَ بتضخُّم في الغدة النخامية، أدى إلى زيادة إفرازاتها من هرمون النمو، فزاد نمو الهيكل العظمي قبل انغلاق المُشَاشَةِ العظمية، وتعملقت بِنيَتُه. في سن الحادية عشرة توفت أمه، فاستأذن العدوي الحاج الكبير في أن يقبل ابنه في العائلة. وفورًا انخرط الغلام في أعمالٍ إجرامية، وأجاد القتال والبلطجة وإطلاق الناروالعب بالسلاح الأبيض. دائمًا كان حسين يتلطَّف معه ويبتاع له الحلوى والعصائر، وتوسَّم فيه البلادة والطاعة والإخلاص، فاستأذن الحاج واستخلصه لنفسه، وصار لا يستغنى عنه هذه الأيام. لم تمر حياة النونو بلا معاناة، فمع قوته الخام، كانت تدهمه أعراضٌ متنوعة، كفرط التَعَرُّق، وسرعة التعب، وارتفاع ضغط الدم، علاوة على نوبات الهياج الطارئة.

***

وصلت إيفيلين، وألقت نظرةً على سيارة إيلي الفِضيَّة قبل أن تنزل من سيارتها. كانت كعادتها أنِيقَةً، حَسَنَة المظهر، غريبة الذوق. ارتدت سترةً جلديةً ثقيلة، ذات لونٍ أحمرٍ طاغٍ، وسروالاً جينز ضيقًا غازل قوامَها الغلامي الرشيق، وحذاءًا مطاطيًا أبيض. اتجهت لباب الفيلا وطرقت مرتين، وانتظرت. طرقت مرةً أخرى بعنف، ثم زفرت حانقة، وجزمت أن الغبي إما نائم أو مخمور. طلبت رقمه، واستمعت إلى تردُّد الرنين الطويل على الجانب الآخر بنفاد صبر. حرص حسين على شحن هاتف إيلي تحسبًا لهذه اللحظة بالذات، وعندما تصاعد رنينه، رفعه إلى أذنه بيدٍ مرتجفة، وأجاب دون وعي: "أيوه؟" سمع صوتها تقول ضاجرة دون أن تدرك تغيُّر نبرة الصوت: "أنا واقفة بالباب." تسارعت نبضات قلبه، وسرى المغص في معدته، وجعل يتلفَّت حوله لا يدري ما يصنع. لقد جاءت في أسوأ وقت بالنسبة له ولها؛ لأنه كان مخمورًا!

تصاعد طرقها العنيف، فرنا إلى الباب بفزعٍ مبهم.. ثم تقدَّم فجأة وفتحه، فالتقيا وجهًا لوجه.. توضَّح كل منهما الآخر، وكأن هذا أول عهدهما بإنسان.. ثم سبق حسين وانقض. قبض على شعرها وجذبها بشدَّة وقسوة، وطوَّح رأسها بحركة دائرية مسعورة اندفعت بها للداخل صارخة، ففقَدَت اتزانها وسقطت قرب زوجها. نهضت وحدَّقت في حسين بذهول، ثم حانت منها نظرة لزوجها. ولو أن السماء رمتها بنارٍ ورعدٍ وعذابٍ مُهلك، لما كان تأثيرها أسوأ عليها مما رأت. نظر إليها إيلي بعينٍ واحدةٍ وعرفها، ونظرت إليه وعرفته، فصرخت برعبٍ لمَّا رأت حالته السيئة، وسعت له على أربع ملتاعة. كان هذا أكثر مما يحتمله حسين، فاستل مسدسه، وأطلق النار. اخترقت الطلقة ركبتها اليمني وهشَّمتها، فاندكت أرضًا دفعة واحدة وهي تصرخ بألم هائل، فهجم عليها حسين، وضربها بمقبض سلاحه على رأسها بعنف. رأى الدماء تتفجَّر من رأسها إذ يتصاعد أثر السائل المُسكِر إلى مخِّه، ويعطِّل التشكيلات الشبكية والأعصاب القحفية والشوكية. أصبح التوافق العضلي عسيرًا، وانقضت عليه الذكريات تحرقه. أحبَّها يومًا كحبِّه لأهله أو أشد حبًّا، فلماذا لم تخبره؟ عليها اللعنة، لقد ألح عليها أن تخبره.. تخبره بماذا؟! أنها ساقطة؟ إنه خطأ إيلي القواد.. بل.. بل هو خطأ عائلته القوادين الكفرة.. أفقدوها كل شيء، الحرية والكرامة والشرف! أنَّت عليه قرحة المعدة من جديد، وكان ألمًا عميقًا مُلحًّا، مع التهاب في المريء، وسخونة، وهذيان ارتعاشي غريب.. شيءٌ ما غليظ ودافئ يتشعَّب لكل عضوٍ في جسده، ويلهب حواسه.

نزل إليها وأمعن النظر في هذا الوجه الجميل المغطَّي بالدم، وسألها بهدوء ظاهر:

- فين الساعة؟

رنت إليه ذاهلة، فمس ذقنها ورفع وجهها إليه برفق، وقال بلهجة بث فيها من التعاطف ما استطاع:

- إيفي، فين الساعة الكارتييه، اللي أخذتيها آخر يوم؟!

تساءلت كالمسحورة:

- الساعة الذهب؟ آسفة.. تصرَّفت.. فيها.

تقلَّص وجهه، ونَضَحَ بالشر والندم وهو يقول:

- إخص عليك يا إيفي! تعرفي قيمة الساعة دي عندي إيه؟

تجعَّد وجهها، وقالت بصوت ممطوط كالعواء:

- أنا.. آسفة.

قال حسين تائهًا:

- آسفة؟! أنا كنت بأحبك، يا غبيَّة! يا غبيَّة! ما قلتيش ليه؟! أعمل أنا إيه دلوقت؟!

وصَرَخَ مكررًا بحُرْقَةٍ هائلة: "يا غبيَّة!"، ثم لطمها على وجهها وهو يصرخ مُجدَّدًا بغضبٍ وجنون، وتحوَّل وجهه إلى صورةٍ مفزعة فكأنَّه كلبٌ مسعور. لم يثْنه دمها المُراق عن التنكيل بها، بل انهال عليها ضربًا ورفسًا، وجرَّها خلفه كالذبيحة دون هدف، ثم أفلتها وأخذ يركلها في وجهها وبطنها بوحشية. شعر بروحه تختنق، فانحنى وجذبها من شعرها بقسوة، فتأوَّهت ضارعة. صرخ فيها ضاغطًا على أسنانه: "قوووومي"، حتى وقفت مترنحة على قدمٍ واحدة. كانت في أسوأ حال إذ تغطى وجهها كله بالدم، وتحطَّم أنفها تمامًا وبعض أسنانها، وتمزَّقت شفتاها تمزيقًا، ثم تداعت أرضًا كبناءٍ متهافتٍ من رمل. كانت تنتفض ببكاءٍ ذليل، لكنَّها لم ترفع عينيها إليه، بل قبعت مكانها كخرقةٍ بالية تنتظر نقمته وعذابه، لا تدري ما يُفعل بها ولا تهتم. ربما لو استعطفته.. ربما.. لكنها تقبَّلت الموت فيما يبدو. وجَّه سلاحه إليها بعسر وهو يزوم ويخور، لكنه لم يطلق النار. نَظَرَ إلَيْها مَلِيًّا.. بتمَهُّل.. وتدقيق.. في هذا الوجه الذي كان جميلًا.. وهذا الجسم الذي كان فتيًّا.. لم يكن يعاني صراعًا داخليًّا بين أن يطلق النار أو لا، بل كان يُحسن التصويب في الواقع، لأن في العملية مَشَقَّة، نظرًا لأنه مخمور. ثم ضغط الزناد، مَرَّة ومَرَّة ومَرَّة. ست رصاصات انطلقن واخترقن صدرها وبطنها، فتسرَّب منها الدم مكونًا بركة صغيرة اتَّسعت بنعومة.

أصابت الطلقات أعضاءًا حيوية عائلة للدم ونفذت للجانب الآخر، ما زاد من معدل النزيف، وآذت إحدى الرصاصات عمودها الفقري إيذاءًا جسيمًا، فأصيب الجهاز العصبي المركزي في مقتل. تحجَّر وجهها، ومالت شفتاها للطرف الأيسر، وتشنَّج جسمها بمعدل منتظم، ثم اتَّسعت عيناها حتى الجحوظ، وسدَّدت مقلتها إلى حسين نظرةً لن ينساها قط.. نظرة عتاب وذهول. ثم كأنها رأت شيئًا مُرعبًا يقترب من بعيد،

خمشت أظفارها في الأرض، كمن يجاهد للتشبث بالمادة الجامدة الخشنة للحياة. رقبها وهي تجرع سكرة الموت قطرة قطرة، وجذوة الحياة تخبو شيئًا فشيئًا في جسدها، وهنا أخذته الرقة فبكى حتى أفرغ شحنته السلبية.

كفكف دمعه، وبحث في جيوبها حتى وجد قَدَّاحتها. لم يخلع قفازيه في أي مرحلة من العمل، ومع هذا مسح المسدس بمنديله بعناية، ودسَّه في يد إيلي، الذي ما استطاع حتى أن يهز ذراعه، وإن استمرت عينه في الدوران دون توقف. تناول حسين وعاءًا بلاستيكيًّا أصفر، وصب محتوياته من الكيروسين على جسد إيلي حتى آخر نقطة. وهنا بدأت أمارات الإدراك تلوح على الشاب. هَمْهَمَ ودَمْدَمَ، ثم ارتعش كأنه يبكي.

أشعل حسين الكيروسين بالقَدَّاحةِ وتراجع بسرعة، فأضرمت النار، وتصارعت ألسنة اللهب مع الصرخات المكتومة. ظلت الكتلة النارية تَتَمَعَّج لدقائق أكلت فيها اللحم وخلصت إلى العظم حتى امتحش، ثم خبت الألسنة على كومة مُتكتِّلة ومُتفحِّمة يفوح منها دخانٌ رمادي، يحمل بين تشكيلاته المتغيِّرة رائحة مرعبة.

رائحة لاذعة امتزجت فيها نكهة الأنسجة العضلية المُحترقة الشبيهة بإنضاج لحم البقر، برائحة الدهن المماثلة لشواء دهن الخنزير، بالرائحة النحاسية الصدئة للدم الغني بالحديد، ورائحة الشعر الكبريتية الخانقة. مزيج شنيع يعلق في الأنف أيامًا، ثقيل غني فكأنه للطعم أقرب منه للرائحة. نعم، شعر حسين بطعم إيلي المثير للغثيان على لسانه. كانت تلك أول مرة يشم فيها رائحة كهذه، وجزم أنها لن تغادر خياشيمه ما دام حيًّا.

***

الفصل الثالث:

رِمَالٌ ورِجَال

"الهيلمان ده ملكنا جماعة، ولولا جبروت الحاج، كان يبقي لكل واحد مننا نصيب فيه، بالعدل.. لكن الشر موروث والظلم يولِّد ظلم.

عبد الحكم صابر الجارحي: اسمٌ صار عنوانًا لتنظيم إجرامي ناشئ، يتكوَّن من عبد الحكم الجارحي، وبدري الجارحي، ومحمود الزيات، وجاد الطماوي، وورداني الجارحي، ومحمد عبد السلام الجارحي، والصغير أبو كريشة. جمعوا لأنفسهم المال والرجال، وانتشلوا أنفسهم تدريجيًا من الانهيار الذي أصاب الجميع، وراجت تجارتهم بمعدَّل معقول. لا يتَّخذون قراراتٍ مصيرية، أو يقدمون على أمرٍ جلل، إلا جماعة كقطعان الذئاب، فازدادوا بالحلف قوَّة. هكذا أخبر العدوي حسين. صارحه أيضًا أنه بإقدامه على تتبُّع قتلته، إنما يلج في نفق مظلم عليه وعلى عائلته أن يختاروا فيه بين نهايتين: الخضوع أو الحرب. ومع الترهيب كان يشجِّعه ويسعى لديه بالأدلة على صحة قصَّة إيلي مجدلاني، ليس عن قناعةٍ بطبيعة الحال، بل لدفعه دفعًا لشن حرب على العائلة، منها يمكنه التفاوض على السيادة مجددًا، وكان العدوي في هذا يراود غرائز الشاب البدائية، واندفاعه البهيمي للمخاطرة والعنف، ويغريه بأحقيته في القيادة. مشكلته الوحيدة كانت في تعلُّق حسين بحياة الضياع المريحة، التي لو تُرك لها، لقنع بها واكتفى بإشفاء غليله في عشيقته وزوجها. أما والعدوي يركب على كتفيه فهيهات. اعتاد المحامي أن يجلس إليه كل يوم تقريبًا، يحدِّثه بصوتٍ خافتٍ عميق، وسمتٍ حازمٍ عقلاني، عن مَغَبَّة السقوط في الهاوية، وحتمية استعادة ما ضاع، وهو في هذا يضخم من إمكانات الشاب، ويحقنه بجرعاتٍ من الثقة بالذات واليقظة. كان حسين يستمع إليه مسحورًا فارغ اللب كالأبله، قد يمانعه ويعارض بكلمات مجوَّفة لتخاذل أصبح مُركَّبًا في سماته. ربما قال "لا" غير مرة، فيبادره محاميه بفحيح ليِّن: "ما تقولش لأ، كلمة لأ قطع نصيب!"، فيصدِّق الشاب خبره جملةً وتفصيلًا، ورويدًا رويدًا يتشكَّل بين أصابعه كالمصهور اللدن.

ولأن الأولويات تأتي في المقدمة، بدأ الحديث أول ما بدأ عن الستة الكبار، وكبيرهم عبد الحكم الجارحي. هذا الرجل سار على سُنَّة عميد العائلة الراحل، ونجح في تكوين تجمُّع إجرامي خطير، وأسَّس نظامًا لانتزاع الأملاك بالقوَّة، فمَلَك ومن معه ما مجموعه سبعمائة فدان من أراضٍ زراعية، تُستَغَل في زراعة المخدرات. يعلم العدوي أن هؤلاء الستة يعتبرون أنفسهم أباطرة العائلة الجُدد، وأنهم في مقدمة من سيرفض المفاوضات حول القيادة الجديدة، لأنهم في صدر المستفيدين من الانهيار الكبير، ثم إن لبعض منهم

صلات وثيقة بأعضاء في مجلس الشعب وأصحاب نفوذ، وإن رفضهم سيكون ضاريًا؛ لأنهم يستندون إلى قوَّةٍ ضاربة تحميهم. لا بديل إذًا عن القضاء عليهم، دون تفاوض أو إنذار. ويُذكر العدوي موكله أن الحاج الكبير لم يكن يتهاون مع من يُظهر طموحًا زائدًا أو متمردًا، ويُذكره أيضًا أن عبد الحكم وأصحابه ما كانوا ليقدرون على شيءٍ من هذا لولا الأرضية الخصبة التي بسطها لهم الحاج، وتركها لهم يرتعون فيها بمشيئته، وإن الحفيد بها أحق، لأنها إرثه بحق النسب.

يعتمد عبد الحكم ومن معه على ميليشيات شبه عسكرية، معظمهم من قطاع الطرق والقتلة ومزارعي المخدرات وتجار السلاح وسارقي الماشية والمطاريد والخفراء. كيف يمكن مواجهة هؤلاء؟ هذا هو السؤال الذي بحث فيه العدوي وحسين، ووضعوا لإجابته بدائل وحلولاً. إن حسين ليس معه إلا النونو، أما العدوي، فنعم له صلات ورجال، لكنَّهم ثُلَّةٌ محدودة من البلطجية واللقطاء ومسجلي الخطر، ولن يمكنهم الصمود أمام نوع لم يألفوه من حرب العصابات. أيامٌ مضت حتى ذهبت السكرة وحلت الفكرة: لا يصلح لهذه المهمة الخطيرة إلا عايش الحمداني.

***

سيناء.. شبه جزيرة أطرافها خلجان وشواطئ أوت بين تكوينات جبلية وعرة، ونطق من الجبال شاهقة الارتفاع، وتلال مقطوعة بالوديان الرملية، وفيالق عميقة، وممرات ضيقة، وبعض الواحات الخضراء. يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة وأربعون ألف نسمة، وهم سلالة مختلطة من العنصر المصري وعناصر أسيوية نزحت قبل آلاف السنين من الجزيرة العربية، وقبائلهم لها أصول لقبائل نجد والحجاز كأمثال بني عقبة وبني سليم وبني هلال. يعملون بالرعي والزراعة وصيد الأسماك على السواحل، وتحكمهم تقاليد ونظم تُعرف بالعرف القبلي، تنظِّم العلاقة بين القبائل والعشائر والأسر والأفراد. يعيش قسمٌ كبير منهم دون مياه شرب أو كهرباء أو بِنْيَة تَحْتِيَّة قرب المنتجعات المترفة، وتبيع نساؤهم المُحصنَات بضائعهم للسياح العراة والمنحرفين وشذاذ الآفاق على الشواطئ.

في هذه الظروف نشأ كيانٌ غريب، ذو طابع اجتماعي مختلف، وهو عشيرة

«الراشديين». وضع نواتها رجلٌ يسمى عايش الحمداني، وأسَّسها من المُشمَّسين: وهم المطرودون خارج مظلَّة القبيلة والمُستباحة دماؤهم والمُنقطع عنهم حق الرقبة. قصدهم كل مصاب وموتور في شعاب شبه جزيرة سيناء، حتى أضحت تجمُّعًا للمطرودين والمتبرَّأ منهم والجواسيس وقطَّاع الطرق ولصوص الإبل. وفي فترة قياسية من الزمن أضحى التجمُّع كيانًا عشائريًّا قويَت شوكته، واشرَأبَّ بعِزٍّ ومَنَعَة في دنيا العشائر.

أرمى عايش الحمداني تنظيمًا يعتمد على العُرف القبلي ويمجِّد فكرة التضامن الأخوي، وتمكَّن بخلفيته العسكرية من السيطرة على التوجهات المتباينة لمجتمع عماده الرئيسي المجرمون، وأسس مجلسًا عرفيًّا لتهذيب أفراد العشيرة، ووضع اللبنة الأولى لمعسكر تدريبي نظمت فيه دورات على مختلف المستويات: تدريبات بدنية شاقة، والتحام قتالي، ورماية، وبعض شيءٍ عن المتفجرات وتدبير أسلحة من البيئة والألغام.

ثم تطوَّر المجلس العرفي إلى ما يشبه هيئة أركان حرب، هدفها تحسين الهيكل التنظيمي للعشيرة، وصيانة وتنمية المخزون التسليحي (والسلاح في سيناء مُتوافر، والتدريب عليه مُيسَّر، تدخله الأعراب عبر دروب سرية من إسرائيل غالبًا، بالإضافة إلى مخلفات الحروب التي شهدتها سيناء). تنوَّعت أعمال العشيرة بين تهريب المخدرات والسلاح والبشر، وسرقة فتائل المفرقعات من مخازن القوات المسلحة وسط سيناء، والتحكُّم في رقعة واسعة من المناطق المزروعة بالحشيش والقنب في فيران وكاترين والطور والقطاعات الساحلية، وساعدت الطبيعة الجبلية الوعرة على صعوبة كشف حصادهم الثمين.

مدَّت العشيرة نفوذها لتسيطر على أغلب الأنشطة المنافية للقانون في شبه جزيرة سيناء، ومثَّلت نقطة اتِّصال بين أطراف داخلية وخارجية تلعب في تهريب السلاح والمخدرات والدعارة والتطرُّف. ومع هذا احتفظت العشيرة بعلاقة طيِّبة مع أغلب شيوخ القبائل، لأسبابٍ عدة، أوَّلها معاناة سكان سيناء من قوات الأمن التي تحاول السيطرة على البدو وإحلال النظام في شبه الجزيرة، مع ترك هامش متواضع من الحركة يتيح لهم حرية التقاضي عبر مجالسهم العرفية شريطة ألا يخل هذا بالأمن. وثانيها نظرة الحكومة للبدو على أنهم عناصر دخيلة وغير متعاونة ومشكوك في انتمائها، على الرَّغمِ من مواقفهم الوطنية في فترات حرجة من تاريخ مصر. وثالثها اتِّباع الداخلية

مبدأ الكيل بمكيالين في تعاملها مع قضايا المخدرات والإرهاب، فهي تنكِّل أول ما تنكِّل بالبدو، فتقتحم المغارات وتفتِّش الخيام وبيوت الشعاب، فرأى مشايخ القبائل في هذا انتهاكًا لحرماتهم، فتعاطفوا في الخفاء مع العشيرة. لذلك فهم مُتَّهمون بتقديم الدعم اللُّوجستي للنشطاء الهاربين عن القانون في صورة رعاية طبية وتغذية وإيواء. وآخرها رَفْض البدو التلقائي الوشاية بأيِّ خارج عن القانون وانقطاع أسبابهم مع أجهزة الأمن في تلك المسألة لما يتوسَّموه فيهم من انعدام الصفة.

كمنت عشيرة الراشديين في منطقة جبل الحلال أعوامًا، وعجزت الداخلية عن -أو تجنَّبت- استئصال شأفتهم بسبب الظروف الصعبة التي تواجه قواتهم من جهة حُسْن التنظيم والكفاءة القتالية، ومن جهة الطبيعة الجبلية القاسية.

ثم حدث تطورٌ بدَّل العشيرة تبدلًا جَذريًّا.

***

قطعت الفورد إكسبلورر رباعية الدفع دروبًا ملتوية بين الصروح الجبلية العتيدة، وبالداخل قاد النونو متبلدًا، وخلفه جلس حسين متراخيًا. استعاد كلمات العدوي وهو يُذكِّره بوصية الحاج لأولاده: "إن ضاقت بكم الدنيا، وانفض عنكم الرجال، فلا ملجأ لكم إلا الشيخ عايش." سلكت السيارة مَدَقَّات وعرة هزَّت راكبيها هزًّا، فنظر حسين عبر النافذة لكتل الصخور النارية الهائلة، وتجمُّعات الحصى والأحجار الصغيرة، والصبَّارات وأشجار الأثل والنباتات الشوكية والنخل الصغير. كانا على بعد خمسة وسبعين كيلومترًا جنوب مدينة العريش، وتجاوزا سلسلة من التلال الجبلية وصل ارتفاعها إلى تسعمائة متر، وهي منطقة جبل الحلال. يقول البدو من أهل المنطقة أن كلمة «الحلال» تعني قطعان الماعز والضأن التي كانت ترعى قديمًا على سفوح هذا الجبل.

العلاقة بين جوهر الجارحي والشيخ عايش الحمداني غائرة، تقوم في ظاهرها على الوُدِّ الخالص والصداقة المتينة، وفي باطنها على التبادل النفعي للمصالح. رأى الحاج جوهر أن إقامة علاقات وثيقة مع بدو سيناء، ولا سِيَّمَا الشيخ عايش، مسألة حتمية، لذا شَدَّ رحاله مع ابنه الوحيد وجماعةٍ من خاصة رجاله إليهم، مُسلحًا بذخيرة معرفية غنية

من أعراف البدو واجتماعياتهم. طاف الحاج بقبائل مُعيَّنة في جولة ميدانية، وأغدق على شيوخها بالعطايا والنفائس والنقد، فأحسنوا وِفادَتَهُ وأكرموه، واستطاع التأثير على بعض المشايخ لدرجة الافتتان، لعلمه العميق بشؤونهم وأهوائهم، ثم انتهى به المطاف إلى مقصد الرحلة: جبل الحلال، وعشيرة الراشديين. قابل الحاج الشيخ عايش منفردًا، وأهداه حقيبةً حَوَت ما يزيد عن المائة ألف دولار، وزوجًا من السيوف العربية المطعَّمة بالجواهر ونقوش الذهب، وتمخَّضت المقابلة عن صداقة متينة ووُدٍّ خالص جمع بينهما لآخر أيام الحاج.

ذكر الحاج لمحاميه ذات مرة أن علاقته بالشيخ لها شِقَّين: الأول عاطفي اشتبك فيه الاثنان بمسؤوليات متشابهة من حيث تسيير شؤون عائلية وعشائرية تحت مظلة تنشئة عسكرية. والثاني وظيفي بمقتضاه يسوِّق الحاج منتجات الراشديين من النباتات المخدرة عبر الدروب الجبلية بواسطة أدلاء العشيرة، حيث يقوم رجال العائلة بمعالجتها وتصنيعها في معامل سرية في الصعيد. ويمدُّه الحاج أيضاً بمددٍ لا ينقطع من المعلومات عن حملات الأجهزة الأمنية للقضاء على زراعة المخدرات بسيناء، والتي تشارك فيها الإدارة العامة لمكافحة المخدرات وقطاع الأمن المركزي. جمعت العلاقة بين الحاج والشيخ في طيَّاتها أوراقًا معروفة، استخدمت فيها الأوصاف الدينية والعائلية والقبلية في السيطرة، فكان منها الانتماء إلى رابطة قومية عائلية، ورابطة دينية عشائرية، ورابطة عسكرية حاكمة، يُعاد إنتاجها وتسويقها في دوائر لا تنتهي.

توقَّفت السيارة في ساحة منبسطة تقع بين تكوينات صخرية قاسية، وهبط راكباها، وحثَّا الخطى في اتجاه صدع جبلي ضيِّق يستحيل المرور فيه بالسيارة. اجتازا الصدع، وشعر حسين باختناق وضيق شديدين، فكأن الحائطين الصخريين المتقابلين الشاهقين يرجفان استعدادًا للانطباق عليه، وما أن جاوزه حتى حلَّ عليه شعورٌ غامرٌ بالسعة والارتياح. وبعد عشرين دقيقة وصلا لوادٍ منبسط تغطَّت أرضيته بالصخور والشجيرات الشوكية الضئيلة. أشار حسين للنونو بالمكوث، وتقدَّم إلى الأمام، وبحث حتى عثر على عودٍ شجري يابس، أمسكه ورفعه، وصاح بأعلى صوت ثلاثًا: "وحياة هذا العود، والرب المعبود، ومن أخضره وأيبسه، ما جئت إلا لخير.

طال السكون إلا من تناوح الرياح في الفراغ الجبلي الضيّق. ومع مرور الدقائق فكّر حسين بارتياب: هل أخطأ في القسم؟ أم لم ينقل إليه العدوي عبارة التعارف بمنطوقها الصحيح؟ بدأ يتراجع متربصًا بخطوات حريصة وبطيئة وصامتة، كأنه يخشى إيقاظ وحشٍ نائم.

ثم خرج من بين الصدوع خمسةُ رجال ملثّمون، ومسلّحون. وقفوا صامتين مُحدّقين في الوافدَين دون حراك، شأنهم كشأن الضاري إذا ما قبع مُستترًا في الحشائش واضعًا عينيه على فريسته. تقدّم حسين باسطًا ذراعيه على جانبي جسمه، فدنى منه أحد المسلحين وفتّشه يدويًا بحرفية، وفتّش آخر النونو بدقّة، وفحص حقيبةً كبيرةً حملها، ثم أشاروا لهما أن يتبعوهم. لمدة نصف ساعة اجتازوا دروبًا معقدة، ورأوا مغاراتٍ وكهوفًا شاسعة، وصدوعًا سحيقة، ومساحاتٍ منبسطة ازدهر فيها مجتمع إنساني كامل. أرسل حسين نظره مستغربًا إذ يرى رجالًا ونساءًا وشبابًا وشيوخًا في هذا التيه الصخري، وقطعانًا من الإبل والضأن، ووديانًا فسيحة أينعت على تربتها مزروعات القنب، وبعض الأدوات والماكينات التي تُستخدم في الري والرش، وتحصينات ومتاريس وأسلحة ثقيلة، بل وهُيأ إليه أنه رأى بطارية صواريخ نُصبت على تبّة شاهقة، ثم رأى أكوامًا مُرصّصة من المتفجرات وصناديق الذخيرة وأنابيب الغاز ينقلها شبابٌ صغيرٌ بحرصٍ إلى وجهات مظلمة داخل شقوق ضيّقة في الصخور. أيضًا لاحظ أن بعض الممرات غُصّت عن أخرها بغاباتٍ من العتاد المدمر والآلاف من فوارغ الطلقات، ورأى في بطن أحد الأودية طائرتين مروحيتين محطمتين تمامًا. ثم رأى في وديانٍ ضيقة عشرات الفتيات يطبخن ويخبزن في أفرانٍ محفورةٍ في الأرض، ويحكن السجاد والملاءات والبراقع، وأطفالًا حفاةً وعراةً يرتعون في كل مكان. ثم مرُّوا على وديان فسيحة أينعت على تربتها مزروعات القنب، بين أعوادها الخضر يعمل المزارعون بهمّة وعزم، دون أن تكدر صفوهم الأسلحة الرشاشة التي أثقلت أكتافهم.

استمر بهم المسير ساعتين تقريبًا دون أن يشعر حسين بالإرهاق لاعتدال الجو من جهة، ولغرابة ما يشاهده من جهةٍ أخرى. فكّر في هذه الحياة التي تموج في مكان وراء دنيا الناس: مجتمعٌ منظمٌ يسعى أفراده بنشاط، كلٌ يؤدي ما عليه دون أوراق أو تعقيدات. كم من زيجاتٍ عُقدت، وصراعاتٍ حُكم فيها، ودماءٍ سفكت لم يعلم بها أحد.

وجزم أنه مجتمعٌ مُحكم الانغلاق، لا يدخله من العالم الخارجي أحدٌ إلا فيما ندر، ودلّ على هذا نظرات الفضول والغرابة التي شيَّعته ورفيقه في كل خطوة، فكأنهما مخلوقين من عالم آخر.

وأخيرًا وصلوا لساحة منبسطة، أشرفت عليها هضبة صخرية اتُّخذت مركزًا بصريًّا دراميًّا، يُصْعَدُ إليها بدرجات سلم منحوتة في الصخر. ارتقى الجميع السلم بمشقَّة، حتى وصلوا إلى قمَّة الهضبة. كان منظرًا غريبًا ذلك الذي رآه حسين والنونو: شجرة ضخمة سميكة الجذع ممتدة الأغصان، تقف وحيدة في مساحة جرداء، وفي قلب الساحة ضُربت خيمة كبيرة مُوشاة الأطراف، مشدودة بأوتار حبلية غليظة لأوتاد راسخة في الأرض، وحولها توزَّع دائريًّا عشرة رجال عتاة ملثمون، تسلَّحوا حتى الأسنان.

تسمَّر حسين مُحدِّقًا في الشجرة والخيمة، واستعاد كلمات الحاج الكبير عن هذا المنظر: "هناك سترى بلاط الشيخ.. وشجرة بَعلِية." ساعة أن سمع حسين الجملة، سأل الحاج بنبرةٍ هامسةٍ خاشعة: "يعني إيه «بعلية»؟!"، فأجابه الحاج بتُؤَدَة: "شجرة وحيدة على قمة الهضبة، ارتوت بالمطر، وتطرح أجود أنواع الزيتون." منذ تلك اللَّحظة فصَاعِدًا، ارتبطت تلك الشجرة في مُخيِّلة حسين -بشكلٍ استهزائي ملحد- بسِدْرَة المُنتَهى، التي عندها جنة المأوى لهذا الشيخ -أو الإله- البدوي. لم يبالِ في نفسه بزندقة التشبيه، ولم يظهر وسط هؤلاء المدجَّجين بالسلاح إلا الحشمة والخشوع الزائفين، الآن وقد رأى المكان رأي العين، لكنه في داخله، لم يكن مكترثًا بالشجرة، ولا بالهضبة، ولا بشيءٍ البَتَّة، إلا المهمة التي هو بصددها.

أعادوا تفتيشه بدقةٍ متناهية، وأخذوا منه حافظته وسجائره وحذاءه، وألبسوه نعلًا خشنًا، فشكر لهم في سره أن تركوا له الجورب. وعندما أشار إليه أحد الرجال، تقدَّم وحده مُترَبِّصًا، وأزاح وشاح الخيمة، وخطا للداخل. كانت الاستهلالة الأولى رائحة بخور الجاوني النفَّاذة، التي أضفت على الخيمة جوًّا تراثيًّا.. ثم رأى العجوز مقرفصًا، متكئًا على طنافس خشنة.

هذا هو عايش أبو المهيزع الحمداني الراشدي.. ترجع أصوله لقبيلة النجاجير العراقية. يقول عن نفسه إنه رجلٌ واسع الاطلاع غزير العلم، عرف للدنيا حقها ولله حقه، ويصفه

الحاج جوهر بأنه: "قُطب الفضلاء وتاج النبلاء، الآخذ من العلوم العقلية والأدبية بحظٍ وافر!" هو ضابطٌ عراقي سابق اتُّهم مع مجموعة من زملائه بالتورُّط في خلية إرهابية. استطاع الفرار من العراق، وامتدَّت رحلته وضابطين من زملائه عامًا كاملًا حتى استطاعوا التسلُّل إلى شبه جزيرة سيناء، حيث أسَّس معهما وعددٍ من أشقياء البدو ومزارعي القنب البذرة الأولى لعشيرة الراشديين، وكتب وثيقة مبايعة مع شيوخ بعض القبائل المجاورة يأمن بها غدرهم، وتدريجيًّا اشتدت شوكتهم، وتوافد عليهم شبابٌ كُثُر يبغون تعلم السلاح وكسب المال.

كان في جلسته على الأرض مهيبًا مستقيم الظهر. قامته أعرابية قصيرة ممشوقه، ووجهه مُتَغَضِّنٌ جافٌ، وعيناه ضيِّقتان، وملامحه يابسةٌ غليظة. أما سمرته فمُلَطَّخة ببقعٍ داكنة، ولحيته ناصعة تملأ ما بين منكبيه. ارتدى ثوبًا طويل الأكمام، وعُقالًا، وتمنطق بزنار صوفي عريض، واستند إلى سلاح سوفييتي عريق. كان في جلسته مُحاطًا بمجال كثيف وكريه عُبِّئ بالتراب، فشعر حسين بخياشيمه تكاد تُسَد. ثم إن هناك رائحة أخرى غريبة مع البخور، خفيفة كشبحٍ باهت، لكن حسين شمَّها مع هذا.

أخذت الهيبة حسين، فوقف مُسَمَّرًا لا يقوى على النطق، بينما نفذت إليه نظرة الشيخ الحادة، من عينين كعيون القطط في الظلمة؛ مصباحين دقيقين في مساحةٍ من السواد. مضت الدقائق وصاحب العريش وضيفه لا يُحركان ساكنًا، فشعر حسين أنه يقف على مساحةٍ جرداء بين الحقيقة والخيال تتداخل فيها المشاهد والصور.

وأخيرًا تحدَّث الشيخ، وقال بصوتٍ خشنٍ مبحوح: "مرحبًا بابن الغالي.. تفضَّل اجلس"، وبسط له عباءته، فتقدَّم حسين متهيِّبًا، وتملَّكه إحساسٌ غريب لدي ملامسته العباءة الكثيفة المبطنة بجلد الغنم. تفحَّصه الشيخ بتطفلٍ غريب، ثم في لحظة واحدة جاءت الفكرة كانفجار مصباحٍ في مخ حسين. عَلِم سر حالة التبلُّد اللا شعوري التي اكتنفته. هذا الرجل يحرق مع البخور هِيرُوِين! وقال للشيخ بصعوبة، وقد شعر بثقل في لسانه كالمشلول: "أنا حسين.. حربي.. جوهر الجارحي."

* * *

بُسط مجلس الضيوف على طرف الهضبة إشرافًا على تلال ممتدَّة مدى البصر.

وحمد حسين ربَّه أنهم خرجوا من خيمة الشيخ، وإلا لظل على سطوله وما تمكَّن من فطنٍ فيه بكلمةٍ مفيدة، وتعجَّب كيف يجلس الشيخ صامدًا في أجواء متلازقة بغماماتٍ مخدرة.

جلس حسين وحيدًا على بساط ناعم جانب الحافة، وغير بعيد جلس النونو على بساطٍ آخر، بينما انشغل عنهم الشيخ باختيار أضحيتين من الضأن لزوم الضيافة. راقب حسين الشيخ الأعرابي القصير باستغراب وهو يقف وسط رجاله الضخام وبضعة أقدام، وتساءل في نفسه: كيف يسيطر هذا القزم على هؤلاء البلطجية المسلحين؟! ألا يطمع منهم أحد في «المشيخة»؟! ورب العزة لو لطمه أحدهم كفاً لأكبَّه ميتًا على الرمال. لابد أن في الأمر غير القوَّة، أو أن الشيخ على نقيض صورته في القِصَر، فكم من قصيرٍ مهلك، وكم من آفة دقَّت واستطار شرُّها.

اعتقل الشيخ من غنمه كبشًا أملحَ كبيرًا وآخر مندي، وتفحَّصهما بنفسه للتيقُّن من البراءة من العيوب والأورام، ثم أتى وجلس إلى ضيفه. تحدَّث الشيخ كثيرًا في كل شيء: العشيرة والعراق، وأصل تسمية الراشديين التي جاءت تيمنًا بموسى الراشدي أحد المجاهدين القدامى ضد الإنجليز. استمع إليه حسين بنصف دماغ، وانشغل عنه بمراقبة الذبح والطبخ. سنَّ الذبَّاح المتمرِّس نصله (وهو الشخص البدين الوحيد الذي رآه حسين في العشيرة) ثم بسمل وكبَّر، وذبح الخروفين ببساطة مُسرًا من الوريد للوريد مع أخذ شيءٍ من الحلقوم. وعلى مدى ثلاث ساعات تحوَّل المكان لخليَّة نحل. فئة من النساء قامت بإعداد الأرز الولائمي المُشبَّع الحليب والمُغطى بالقشدة، فيما قام الرجال بإعداد الذبيحتين للشواء، ودهنهما بمعجون الطماطم والبهار ووضعهما في التنُّور الحار حتى النضج. وعندما ألقت الشمس بظلال الغروب على الجبال، مُدَّت صحائف الطعام.

شمَّر الشيخ عن ساعديه وجلس جثوًا على ركبة واحدة، وقال لحسين مستبشرًا: "هاذي القوزي.. طعام الأعراس، لأن مجيئك اليوم عرس!" أحَسَّ حسين بالإطراء، ثم أقبل على الطعام بشهيَّة، وحال ما انتهوا حلَّت الظلمة. لم يتناول الشيخ إلا لقيمات قليلة، كل لقمة كالكرة يحشرها في فمه بإبهامه، ورفع يده ما أن رفع حسين يده. وقال له حسين وهو يشعل سيجارة:

- ما أكلتش يا شيخنا.

- إن الله عزوجل يكره من يملأ بطنه، لأن البِطْنَة تُذْهِبُ الفطنة. وتوقع في الغفلة، وتضرب حول القلب حجابًا يصد عنه نور المعرفة!

رمقه حسين متعجِّبًا؛ إذ لا يساوي الردُّ السؤال، وتساءل في نفسه: أما يسعك أن تقول: الحمد لله، أو شبعت، أو أنا أكلتي ضعيفة؟!

ثم أردف الشيخ ببشاشة:

- أنت ما عليج حرج.. ضيفي، وشبعي من شبعك.

قال حسين في نفسه: تلك وخزة خسيسة، يا بن الخسيسة، فيها إشارة إلى إكثاري في الأكل بما لا يليق، بينما أنت أيها المسكين لم تأكل سوى اللقيمات. وتساءل حانقًا: طالما لا تريدني أن أكثر في الأكل، فلمَ تمد أمامنا الأرز واللحم؟ ألم يكن من الأيسر أن تكتفي بعثوق تمر؟ أيها العجوز المخرِّف.. أمَّا في جهره، فقد تبسَّم وقال ممتنًا بعربية فُصْحَي:

- أكرم الله أصلك يا شيخنا!

* * *

إن أفراد العشيرة جميعًا يمثلون مجتمعًا عسكريًّا مغلقًا، ولا سبيل لصموده إلا بتجييش أفراده، وتسيير أموره على عقائد حربية صارمة تحفظ تماسكه ونظامه. تتحصَّن أرض العشيرة بحقول مختلطة وعالية الكثافة من الألغام، أما الممرات الجبلية المؤدية لها فمُفخَّخة بالعبوات الناسفة وأنابيب الغاز لمواجهة إجراءات الاقتحام بهدم الممرات عند الضرورة.

من الصغر يخضع صِبْيَة العشيرة لخطَّة تدريب شاقة ومستمرَّة تؤهِّلهم لاقتحام خطوط النار الخطيرة، وتنفيذ مهام اختراق فدائية. تنقسم القوَّة النظامية للعشيرة إلى ثلاثة أفرع رئيسية:

أوَّلها المشاة، ويمثِّل الفرد الواحد منهم في حد ذاته قوَّة ضاربة. يجيدون أساليب القتال بالسلاح الأبيض والناري الدفاعي والهجومي، والالتحامات وجهًا لوجه. يتم تزويد كل منهم بسترة مضادة للرصاص، وبندقية هجومية من طراز «كلاشنيكوف»

بخزانة معدَّلة لحمل ستين طلقة بدلًا من ثلاثين. قبل أي عملية يتعاطون «المُحسِّنات الحسِّية»، وهي أقراص تزيد حدة السمع وتشحذ الحواس.

وثانيها المشاة الميكانيكية، وهم المُختَصُّون بساحات المعارك الواسعة. يتحرَّكون في سيارات شواطئ صغيرة مكشوفة مُخَصَّصَة للأراضي الوعرة، ومجهَّزة بمدافع رشَّاشة، وقاذفات قنابل عيار ٤٠ ميلليمترًا، وقاذفات صواريخ محمولة مضادة للمدرعات.

وثالثها الوحدة الهندسية، وتتألَّف من صفوة رجال العشيرة من أصحاب الخبرات الهندسية، وهؤلاء يُختَصُّون بإزالة العقبات، وصيانة التحصينات، وزراعة الألغام، ولتعطيل معدَّات العدو الثقيلة من سيارت ومدرعات ومروحيات. يعتبرهم الشيخ عايش فئة مهمة، وينعم عليهم بالحظوة والعناية، وتكون الأولوية دومًا في القتال لحمايتهم، فلا يتحركون إلا مع مجموعة قتالية من المشاة المسلحين بقاذفات القنابل والمدافع الرشاشة والأسلحة المضادة للمدرعات، لأن الداخلية تستهدفهم على وجه الخصوص في أي عملية.

لا يعود فضل تنظيم قوات العشيرة إلى الشيخ عايش؛ فالرجل غير مُؤهَّل لتطوير كيان كهذا بمفرده. تقوم لجنة متابعة بتولِّي أمور العشيرة وتنظيم شؤونها المالية العسكرية، وتبحث عن سبل التمويل وتوظيف الدخل وتطوير القوات، لكن هذه اللجنة أيضًا غير مؤهَّلة بالمرَّة، ولا يمكن أن تصل بالعشيرة لما هي عليه الآن. تكثر الأقاويل في هذا الشأن، لكن سر قوَّة العشيرة الحقيقي يكمن في رجلٍ واحدٍ يُسمَّى آفي هوفنانج: خرِّيج الأكاديمية العسكرية الإسرائيلية، وعضو الاستخبارت السابق في «اليامام»: الوحدة الإسرائيلية الأولى لمكافحة الإرهاب (وهي المساوية لقوات «دلتا» الأمريكية)، وصاحب خبرة خمسة وعشرين عامًا خدم خلالها في جيش الدفاع الإسرائيلي، ثم تفرَّغ لمهام تدريب قوات عديدة في العالم، منها قوات «الناتيف» التابعة لوزارة الخارجية الإسرائيلية، وقوات «سوات» الشهيرة. وفي إسرائيل قام بالتدريس في مجالات تطبيق القانون وحماية الأفراد والتكتيكات الدفاعية، وهو إلى الآن مدرِّب غير متفرغ لقوات القناصة التابعة للشرطة الإسرائيلية. معروف أنه يقيم حاليًا في مصر بجواز سفر دبلوماسي، ويقضي جُل وقته في سيناء.

ولأن العشيرة الناشئة كانت تشق طريقها بقوّة ملفتة للنظر، ولأن أنشطتها التخريبية محل ترحيب من جهات عديدة، تم إرسال آفي هوفنانج للإشراف على أنشطتها العسكرية والمالية. لا يُعرف على وجه التحديد كيف تم الاتصال بينه والشيخ، ولا تاريخ العلاقة بينهما، لكن آفي أصبح همزة الوصل بينهم وبين الحكومة الإسرائيلية، التي تتعاون معهم في مجالاتٍ شتى، وتقدِّم لهم الدعم اللوجيستي والاستراتيجي أوقات الأزمات، مقابل تنفيذ عمليات محددة، بجانب نشاط العشيرة الرئيسي.

حقَّقت العشيرة تطورًا نوعيًّا منذ تولاهم آفي، ولم تكن مهمته بالصعوبة التي تصوَّرها، إذ وجد بانتظاره معسكرات تدريبية وشباب على قدرٍ من العلم والمران، فلمْ يقم إلا بالتنقيح والتنظيم على أسس أكاديمية. خلال ست سنوات قام بتدريس مجموعة من الدورات تشمل أساليب الالتحامات المباشرة وجهًا لوجه، ونظرية الاختراق والاقتحام عالي الخطورة، وتدمير المركبات الجوية والحافلات، والتعامل مع المتفجرات، وإطلاق النار التكتيكي والدفاعي، وغيرها من العلوم العسكرية.

قسَّم آفي شباب العشيرة لفرقٍ صغيرة الحجم، واختلق لهم سيناريوهات تدريبية متدرجة الصعوبة، طعَّمها بمواقف تستدعي مهارات للقنص والالتحام وسرعة شحن الطلقات والتعامل مع أعطال السلاح وتجنُّب النيران الصديقة والتعامل مع خسائر الأفراد والتضليل والتحرك خلسة. ثم كان يختار المتميزين فيضرب عليهم معسكرات مغلقة، فيها يتم تدريس موضوعات أكثر تخصصًا، كتكتيكات انتشار فرق القناصة والاستنطاق في أرض القتال والتخابر اللحظي والتشويش والاستخدام الإستراتيجي للإضاءة النهارية والهجوم الأنبوبي واختراق المجاميع وإطلاق النار الانتقائي.

يعلم الشيخ علاقة مدرِّب العشيرة الأول بالموساد، لكنَّه يقول علنًا إن الرجل يتعامل معهم بصفته الشخصية كمقاول حر. يحرص الشيخ على علاقته بآفي ويكلِّلها بالعناية كجوهرة ثمينة؛ لأنه يعلم لأهل الفضل فضلهم، إذ أرسى هذا الرجل للعشيرة هيكلًا تنظيميًّا صارمًا، واستغل علاقاته الواسعة في جذب كوادر كفئة ذات خبرات عسكرية من بلادٍ شتى، وكان له الفضل الأول في تدريب الوحدة الهندسية واستقدام الخبرات اللازمة لها، ويكفي للصديق الإسرائيلي أنه يمد العشيرة بجملة عظيمة ومتنوعة من السلاح والمعدَّات عوضًا عن الاعتماد على الأعراب أو مخلفات الحروب، ويتوسَّط في

صفقات تهريب سلاح ومعدَّات وأغذية ومواد تموينية (ويخرج منها بمبالغ سمسرة هائلة، ويعتمد في تعاملاته على حسابين سريين في سويسرا تحت تصرف الحكومة الإسرائيلية، ويُقال أن ثروته الخاصة تبلغ مائة مليون دولار).

السؤال هنا: كيف يوفق الشيخ عايش، وهو "قُطب الفضلاء وتاج النبلاء" كما وصفه الحاج جوهر بين نزعاته الدينية واستعانته بعميل إسرائيلي؟ يستشهد الشيخ في هذا بهجرة النبي مُحَمَّد ﴿ﷺ﴾ من مَكَّة بهداية عبد لله بن أريقط الليثي، وكان مُشركاً على دين قومه. أي أنه من الجائز شرعًا استئجار المشرك عند فقد المسلمين عند الضرورة. والضرورة تبيح الاستعانة بالمشرك المؤتمن، لأنه لا يستقيم لعاقل أن يستعين بعدوِله، وإن آتي على شِرْكِه مؤتمن، ثم إنه ليس بمشرك، بل من أهل الكتاب والاستعانة به أولى.

استطاعت العشيرة إحاطة وجودها بستارٍ من السرية، عجزت معه أجهزة الأمن عن الإحاطة بمعلومات تفصيلية عنها، كالعدد الإجمالي لأفرادها، ومدى التسليح، ومكامن التحصينات في الأنفاق والكهوف الصخرية. لم يعد هناك بُد من عملية عسكرية كبرى مع غطاء جوي كثيف يدكُّهم من أعلى، لكن وزارة الداخلية أصدرت أولًا ما يسمي بـ«وثيقة المصالحة»، والتي بموجبها مُنِحَت للعشيرة مدة ثلاثة أشهر لإلقاء السلاح والنزول عن الجبال، أو تتم إبادتهم بالقصف الجوي والسلاح الثقيل. وبالمقابل أصدر الشيخ عايش فتواه بأن يتم تتبع وإعدام كل من تسول له نفسه الاستجابة للوثيقة، وبقدر ما أفادت الفتوى العشيرة في استقرارها، بقدر ما تمخَّضت عنها أحداث دامية وتصفيات داخلية. أما الحدث الأكبر فكان فرار القيادي سليمان عوارة من الجبل وإعلانه التوبة، وهو مستشار الشيخ وصديق قديم، وأحد المؤسسين الكبار، واستنطاقه يمثل كارثة مروِّعة. لكنَّه طلب ضمانات أمنية مُبالغٌ فيها، منها رفع تهمة الإرهاب عنه وعن مجموعة من رجاله صدرت ضدهم أحكام غيابية بالإعدام لتورُّطهم في قتل ضباط ومواطنين وسيَّاح، وقوبل طلبه بالرفض، ووُضع في الحبس تحت حراسة مُشدَّدة تمهيدًا لنقله للقاهرة واستجوابه، فأرسل الشيخ عايش مجموعة قتالية ضاربة حررَّت الرجل من محبسه في عملية دموية راح ضحيتها خمسة عشر مجنَّدًا وضابطًا، وما أن عادوا به للجبل، حتى عقد الشيخ المجلس العرفي، وأجريت لسليمان عوارة محاكمة سريعة، في نهايتها جعلوا منه عبرة، وقتلوه أبشع قتلة.

بعد هذه الحادثة مباشرةً أعلن السيِّد وزير الداخلية بدء العمل العسكري، وإلغاء وثيقة المصالحة. انتشرت المدرعات وجنود القوات الخاصة والمروحيات في منطقة جبل الحلال، وبدأوا في عمليات التمشيط. أذن الشيخ للصائم أن يفطر، وعاهدهم على الموت قبل بدء المعركة الطاحنة. اشترك في العملية سلاح الحدود والقوارب الجوية والإدارة العامة لمكافحة المخدرات وقوات الأمن المركزي وإدارة العمليات الخاصة، وقام بقيادتها وكيل الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، ومدير إدارة العمليات، ومدير إدارة مكافحة الزراعات. داهمت القوات المشتركة الدروب الجبلية بجنود القوات الخاصة المُدَجَّجين بالأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية، وصفوف المدرعات والمروحيات المسلحة، وبدأت الاشتباكات. كانت حربًا شعواء استمرت أيامًا أربعة عجزت فيها قوات وزارة الداخلية مع فداحة الخسائر التي كبَّدتها للعشيرة عن تحقيق إنجاز ملموس، بينما نجح البدو في إسقاط مروحيَّتين، وتدمير عدد من المدرعات، حتى تم وقف إطلاق النار أخيرًا دون تقدم لأي من الطرفين. خرجت العشيرة بخسائر قاسية في العتاد والأفراد، ودمار في التحصينات والمعدَّات يحتاج لسنوات من إعادة البناء (لكنهم تجاوزوا الأزمة بسرعة قياسية)، على حين أتبعت الداخلة هجومها بفترة من الهدوء النسبي إلى لقاء قادم، مكتفية بانحسار وقتي لأنشطة العشيرة ريثما تلملم جراحها وتستعيد قوتها.

* * *

تناول الشيخ عايش عودًا يابسًا، وطفق يرسم به أشكالًا هندسية في الرمال. غير بعيد عنه كانت النار تطقطق في الحطب لتضيء ما حولها بعد أن كست ظلمة الليل كل شيء. أراد حسين فتح الموضوع لكن الرهبة بعثت في بطنه مغصًا شديدًا، ثم أراحه الشيخ أخيرًا وقال:

- آنا حزنت، وحق ربي، على الحاج أشد الحزن.. مُصيبة تشيِّب الرضعان! سمعت أنك أنت الخائن.

آه، ضربة في مقتل، وبداية غير مبشرة! قال حسين بحرارة:

- عليَّ الحرام من ديني كذب!

- مو أريد أخفي عليج، ثلاثة من عمامج (أي أعمامك) جوني.. كانوا متل المشفوحين،

اللي يموت على البلع، وإذا شافه تقل عمره ما أكل!

التقط حسين طوق النجاة، وقال بحقد:

- خونة يا شيخ.. كلهم خونة، قتلوا جدي وخوي ومرتي.

- إذا تسمحلي أقول لك: كيف تطيب أيامج (أي أيامك)، وفي رقبتك دم؟

قال حسين راجيًا:

- ما لي إلا الله أشكوله قلة حيلتي!

ثم تقلَّص وجهه، وراح يقص عليه في نقمة وقنوط ما حدث، وخلط الصدق بطوفانٍ هار من الأكاذيب التي بات يصدِّقها كأنها الحق، وضرب على أوتار حسَّاسة مثل الغدر وتفكك القيم العائلية، ثم عن المحبة العميقة التي كنَّها له الحاج، ووصيته، بأنه لا ملجأ في الشدائد إلا للراشديين. أنصت الشيخ، ثم سأله صراحةً عن سبب مجيئه، فأجابه حسين بصوت متهدِّج من شدة اللهفة:

- يا شيخ، أعمامي معاهم الرجال والسلاح.. أنا مش حأقدر أقف لهم وحدي.. رجالك هم الأمل الوحيد.. الحاج أوصاني أني ألجأ لك إن انفض عني الناس.

قال الشيخ إنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فقال حسين في شبه هتاف:

- ونعم بالله، لكن ربنا يجعل في عباده الوسائل.

التزم الشيخ الصمت دقائق مفكرًا، ثم سأله:

- كم يلزمك من الرجال؟

- خ م س ة و ع ش ر ي ن على أقل تقدير.

هكذا أجاب حسين من فوره، فوسَّع الشيخ عينيه، وقال منكرًا:

- ذاق المجعوم في أكل الصيصان! خمسة وعشرين كثير جدًّا! آنا مو شاهد!

لم يفهم حسين الرجل "مو شاهد" ماذا؟ لكنَّه عزم على الدخول في صلب الموضوع مباشرة. استأذن أن يحضروا له الحقيبة التي كانت مع النونو، فوضُعت فورًا بين يديه. فتحها حسين وأدارها للشيخ، الذي حدَّق فيها، ثم صفقها بعنف، وقال بوجهٍ يتَّقد

بالغضب:

- اتقلع عني بهذي، لكأنج جهلتني من أنا.. أمتل رجالي تشتريهم بالمال؟! يا مقرود، ما تتغذّي الشمس الأنوار!

فوجئ حسين بثورته المباغتة، بينما استمر الشيخ مُعنِّفًا:

- بحقك! ذرة رمال بتغطيها!

تراصت في بطن الحقيبة رزم متزاحمة من الدولارات، نظرفيها حسين ثم قال ملاطفًا:

- مش الشراء يا مولانا.. اعتبرها هدية من نفحات الحاج الكبير!

ظل الشيخ ينظر إليه شزرًا، وإن هدأت جذوة الغضب في عينيه، ثم سأل عن قدر المبلغ كارهًا، فقال حسين بارتياح بكونه مائة ألف دولار، فقال الشيخ من فوره:

- خمس مرات مثله، ولك عشرة من خيرة الفتيان!

"يا ابن الكلب يا واطي! خمس مرات مثله؟!" أزعج المبلغ حسين وأدار رأسه. كان يتوقع ثمنًا فادحًا، لكن أليس المائة ألف فادحًا بما يكفي؟ أخذته المفاجأة في البداية، ثم قال مستعطفًا:

- نُص مليون دولار؟ يا شيخ؟ على عشرة؟!

أعاد الشيخ قول المبلغ على سمعه بلهجة قاطعة، فأفاء حسين إلى أمره بعد تفكير وجيز، وقال:

- كلمتك على رقبتي.

وأخرج دفتر الشيكات، وهم بكتابة شيك مصرفي بباقي المبلغ، لكن الشيخ استوقفه قائلًا باستهجان:

- إيش الشيك؟ ما نقبل غير النقد.. (ومال للأمام) بلغوتك، «كاش» cash!

رمقه حسين بدهشة، ثم قال باضطراب:

- على قولك يا شيخ.. المبلغ يصلك في بحر أيام.

ومدَّ يده ليصافحه على هذا!، فصافحه عايش بيدٍ خشنةٍ كورق السنفرة، وشَدَّ على

يده بصلابة آلمته. ثم فتح الحقيبة، ومَدَّ يده فسل ورقة نقد من رزمة وأمعن النظر في دقائقها: أحبارها متبدلة الألوان، وخيط الضمان الفضي، وختم نظام الاحتياط النقدي الفيدرالي، والرقم المسلسل. ثم ألقى بالورقة في الحقيبة دون اكتراث، وأشار لأحد رجاله، فجاء مهرولًا ورفع الحقيبة وبها حملها الغالي، ومن بعدها جاءت القهوة السوداء في أقداح صغيرة، فاستغرقهم صمت خاشع إذ يحسونها. أَحَسَّ حسين بغرابة مذاق القهوة، ثم سرى إليه شعور بالتراخي والراحة، وصفاء الذهن والروح، وصار الفضاء شاسعًا متراميًا، فشعر بالبهجة تغمره. أَحَسَّ أنه مخلوقٌ نورانيٌّ عذبُ المشاعر، وانصرف ذهنه تمامًا إلى التحديق في العتمة، والإنصات لحسيس النار وطقطقة الحطب، وعلم أنه سُطِل! تمتم بصعوبة:

- القهوة دي.. فيها إيه، يا.. شيخ؟

تبسَّم الأعرابي العجوز، وقال بجود:

- بعض نقاط من عصير الأفيون!

الأفيـ .و.. و.. ن، حيَّاك الله، يا ابن الدايخة! أنهى حسين قهوته، ولا إراديًا جمع بأصابعه طبقة البن الكثيفة المترسبة في قعر القدح ليلحسها. استلقى على ظهره، وشخص بعينيه إلى السماء، وشعر بحبات العرق على جبينه، وما أسرع ما بددتها الرياح.

* * *

بات حسين والنونو ليلتين في الجبل، اطَّلَعَ خلالهما حسين على تدريبات شباب العشيرة ومعاشهم، وتخيَّر منهم من شاء، ملتزمًا في الوقت ذاته بتوصيات الشيخ عايش ونصائحه. ثم أوصى الشيخ شبابه ممن أُختِيروا للمهمة بطاعة "سيدهم الجديد"، والذود عنه أو الموت دونه، وأطلع حسين على أسمائهم وأسماء آبائهم، ودلَّه على السُبُل المُثلى لقيادتهم وحَوْزِ احترامهم وطاعتهم. وفي اليوم الثالث ودَّع الشيخ حسين وعانقه، وسأله أن يُطلِعَه على أحواله باستمرار، ورَحَّب بطلب المشورة في أي وقت. وغادر حسين الجبل مع النونو راضيًا مرضيًّا. وخلال أيام سبعة، توافد البدو منفصلين حتى تَمَّ عددُهم عشرة. لم يتحدَّث حسين إلى أحدٍ منهم بأريحيَّة أو تبسُّط، بل كان مهنيًّا معهم لأبعد مدى، مُحافظًا على سَمْتِ القائد الثابت رابط الجأش، الفطن قليل الكلام،

المسؤول عن رجاله والمَعْنِي بشؤونهم في الوقت ذاته. كان قلقًا منهم للغاية، بل شعر أنهم أكبر من قدرته على القيادة، فأجبروه إجبارًا على استدعاء شخصيته المنضبطة القديمة، على الأقل أمامهم، وكم كان في استدعاء تلك الشخصيَّة البائدة وارتدائها على ذاته المُهدَّمة من الصعوبة بمكان!

وفي اليوم العاشر نزل حسين للقبو الذي جُهز على هيئة عنابر للمعيشة ومطبخ كبير، كي يطل على رجال العشيرة مجتمعين لأول مرة. وهناك رآهم. طاف عليهم بوجهٍ متين، وسألهم عن أسمائهم فردًا فردًا، فأجابوه بثباتٍ وشدة مِحَال، فأثنى على كلٍّ منهم بعبارات مقتضبة جيدة السَّبك حسنة الصياغة. لم يلتقط حسين مَنْطُوقَ أسمائهم على وجه التمييز لصعوبتها وغرابة لهجتهم على سمعه، وإن عرف منها مثلًا: «مضعان» و«الشويعر» و«تراش» و«حميد» و«فريجي» وهكذا.

نظر إليهم وعلم أن عائلته مقبلةٌ على أيام هي شر كلها. وجوههم قاسية عسيرة القسمات، عليها تجاعيد غائرة على حداثة أعمارهم، فلم يتجاوز أكبرهم الخامسة والعشرين بحال. جلودهم غشيمة داكنة، ونظراتهم حادة. لهم شوارب كثة ولحى شعثاء، وشعور مرسلة. أبدانهم ناحلة جافة مَتِينة العَضَلاَتِ، وجِبَاههم مُزيَّنة بعلامات غليظة كأظلاف الإبل، فيما دُقَّت الأوشام على أجزاءٍ من الوجوه والأيدي.

لم يرتح حسين إليهم، بل توجَّس منهم خيفة، وفكَّر: كيف يكون حاله لو انقلب هؤلاء عليه؟ جزم أن هؤلاء الجرابيع إنما هم هنا للتجسُّس عليه وعلى العائلة، طبقًا لأجندات خاصة وغامضة. جواسيس لحساب الشيخ أبو منقار هذا، لكن على حسابه هو! عال عال، ها هو طرف جديد يدس أنفه في الكعكة، وبدعوة شخصية من صاحب الكعكة.

***

شهدت السوق المصرية خلال العقدين الأخيرين حضورًا كثيفًا من قبل مستثمري عائلة الجارحي في شتى المجالات. إن التجارة الحرَّة من وجهة نظر الحاج الكبير تدعم مكانة العائلة، وتُحَرِّك عامل المنافسة البنَّاءة بين أفرادها. وفي ظل إدارته الحكيمة استقرت استثمارات العائلة على أرضية جيدة التأسيس، لكن سرعان ما تزلزلت بموته، فضاعت الأموال وأفلست الشركات. بعض الكبار استطاعوا الصمود بمقادير

متباينة، منهم السبعة موضوع الاهتمام، وعلى رأسهم عبد الحكم الجارحي. هؤلاء السبعة المتورطون في محاولة الاغتيال -حسب رواية الفواد إيلي مجدلاني وبمباركة من المحامي- هم طواغيط العائلة الحاليين، يتعذَّر المُضيُّ في خطة السيطرة إلا بالقضاء عليهم، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا الشراذم والجبناء ممن مشت بهم أمورهم على شعبٍ من التلافق والفُرْقَة، وهؤلاء يتيسَّر التفاهم معهم وإخضاعهم.

بسبب طابع حياتهم الخطر والمتوتّر بين ما هو قانوني وخارج عن القانون، يبحث كلّ منهم في نهاية أسبوعه عن متعٍ بسيطة يشحن بها طاقاته لأسبوعٍ جديد. ومتعهم لا تتضمَّن البدائل الترفيهية السويّة، بل تصب في سدِّ مركبات النقص المتصلة أسبابها بأيام البؤس والفقر المدقع. وإنَّهم لا يشعرون بالملذات إلا لو كانت في الحرام، لأن للحرام ملمس شائك وشائق يدغدغ حواسهم، فإذا بهم يتقلَّبون في السُكر والتهالك على المطعم والمشرب والعِهْر والكيف، وهم في هذا يتخفَّفون من أسباب الحيطة، ومن هنا يمكن اصطيادهم.

اعتمدت خطة العدوي على ضرب الرؤوس السبعة بين آمادٍ قريبة للحفاظ على عنصر المفاجأة، وعزم على أن يبدأ بكبيرهم عبد الحكم الجارحي. كان عزمُه مفرط لدرجة اللهفة، فكأن في الأمر خصومة شخصية، ثم كان تشديده على إعدام عبد الحكم فور التمكُّن منه، كي لا تضيع الفرصة. اندهش حسين: لأن الحديث عن القتل بهذه البساطة ليس من شِيَم محاميه، لكن العدوي بادره بقوله: "هذا الرجل ذبحته زوجته ونجا، قط بسبع أرواح!"، وقال: "إن لديه جيشًا من البلطجية، ولو انتبهوا لكم وهو حي، فقل علينا السلام!" وصارحه أيضًا أن الرجل مختلفٌ عمن عداه، والتعرُّض له مغامرة خطيرة. الخلاص منه خطوة على طريق النجاح، والإخفاق تأشيرة لحكم الإعدام. بصراحة، تراوحت ظنون حسين بين التسليم والريبة، وأخذ يسأل نفسه بتربُّص: لماذا يبدو الأمر وكأن فيه مصلحة شخصية للعدوي؟ اكتنفه شعورٌ باطني بأنه مُسيَّر لأمر لا يدري كنهه، لكن العدوي داهية مَكَّار. حَشَى مخَّ موكله بالتفاصيل والتعليمات حتى لم يعد هناك فراغٌ لشيءٍ آخر، فاضطر الشاب لقبول علانيته، وأوكل سريرته لخالقه.

يتَّخذ عبد الحكم الجارحي من أسيوط مُقَامًا، وهو المكان الذي شغله الحاج ياسين شقيق الحاج جوهر الراحل. بعد موت -أو مقتل- الحاج ياسين، رفض الحاج الكبير أن يأخذ أحدٌ مكانه لحزنه عليه، فاكتفى بوضع وكيل له سهل الانقياد، وهو قاعود الجارحي، الذي أطاحت به الداخلية مع أوائل من أطيح به بعد مقتل الحاج الكبير، وتركت أسيوط ملعبًا خاليًا لمن يتوثَّب على الفرصة.

لم يكن لعبد الحكم الجارحي ذِكْرًا إلا في أواخر أيام الحاج الكبير، وشأنه كشأن نظرائه من العائلة، جاهل منحط، لكنَّه أيضًا رجل سوق، وبلطجي، عاش حياةً كلها إجرام وقنص. قلبٌ ميت، ونفسٌ شريرة، وعقلٌ ذكي على غير اتزان، فهل من محددات أكثر ملائمة؟ بدأ نشاطه الخاص بمَنْأى عن العائلة وفي سريةٍ تامة، وكان يعد تركيبة الميكستون فورت بيديه ويوزعها بنفسه، فأحرز شهرة واسعةً لجودة تركيبته، ثم احترف السرقة جانب المخدرات، فكوَّن عصابة تسطو على بيوت الأثرياء في أسيوط، حتى قُبِضَ عليه وحوكم وقضى في السجن ثلاث سنوات. أتم ابنه المشوار وهو بعد في الثامنة عشر من عمره، واعتمد على مدَّخراته الكبيرة في توْسِعة التجارة، وكوَّن من عصابته قاعدة لترويج الميكستون فورت. عندما أتم عبد الحكم مدة العقوبة خرج ليجد تجارة ناشئة بدأت تستقيم على ركائزها، فانطلق منها لآفاقٍ جديدة مع ابنيه. ولم تمر السنتان حتى تضاعفت أمواله وزادت سطوته، وأتى بنسائه السابقات والحاليات وأولادهن، وعملوا جميعًا في التجارة والتوزيع.

توسَّع عبد الحكم في أعماله توسعًا سرطانيًّا، وانهمك في التطرُّف والتفريط، يُوالي ويُعادي على الدنيا، واسْتَمَدَّ النفوذ والسطوة بعلاقاته مع قيادات الحزب الحاكم وموظفي المحليات والجهات التنفيذية والشعبية، والأهم، علاقاته بعددٍ من الضباط الكبار، بعد أن استعانت به قوات الأمن للإرشاد عن مخابئ أفراد مطلوبين في قضايا إرهاب، حتى أشاد به السيد اللواء مدير أمن أسيوط السابق، فاعتبر عبد الحكم نفسه «رجل أمن» و«خادمًا للوطن»! أصبح اسمه ذا شأن في الوجه القبلي، وأصبحت عائلته من كبار عائلات الصعيد التي يُخشي لها جانب، ومع تماديه في أنشطته الإجرامية، استطاع الحفاظ على علاقاتٍ طيبة مع الداخلية، حتى قيل إنه من المعارف المُقرَّبين للسيد العميد مدير إدارة مكافحة المخدرات بالوجه القبلي، وقيل أيضًا إنه يخطط

جديًّا لترشيح نفسه في البرلمان!

وقرب قرية صغيرة ومناطق من المستنقعات رفع البنَّاءون قصرًا هائلًا وسط مساحة شاسعة من الأراضي، وسُمِّي «البيت الأبيض» لبياضه الشاهق وأبهته. إليه انتقل عبد الحكم وزوجاته وأولاده ورجاله وزوجاتهم وأحفاده. فورًا استولى على ما مجموعه ثلاثمائة فدان، منها ما هو ملك الدولة، وأغلبها أخذ عنوة من ملاك وفلاحي القرية المجاورة، وبدأ عليها نشاطًا جديدًا في زراعة القنب والأفيون. أغلق السيّد الجديد ورجاله مستشفى القرية، ونكّسوا أعمدة الإضاءة، وقطعوا أسلاك الهاتف، فأصبحت المنطقة بمنأى عن سيطرة الجهات الرسمية. وصل عدد رجاله لقرب المائة، وهؤلاء عاثوا فسادًا وروَّعوا الخلق، وغالبيتهم مدانون في قضايا قتل عمد وقطع طريق، وصادرة ضدهم أحكام نهائية واجبة التنفيذ، وهم مع هذا يرفلون في سطوة ترفعهم فوق القانون. استطاع بهم عبد الحكم بسط جبروته على العائلات المتحالفة معه، فصاروا من جملة عياله ورجاله، يدفعون له الإتاوات، ويرضون بحمايته صاغرين. أدى هذا على الجانب المقابل إلى تولُّد خصوماتٍ ثأرية بينه وبين عائلات كبرى رفضت الخضوع، راحت ضحيتها عشرات الأنفس الظالمة والبريئة.

ومع الوقت ارتفع السور المحيط بقصره، وشُيّدت أبراج مراقبة حصينة بكشافات ورجال مسلحين، وحُفرت خنادق وأنفاق للهرب. ويقال إن بالقصر مخازن للسلاح تحوي صناديق لا حصر لها من الذخيرة الحية، ومدافع جرينوف مضادة للطائرات، وقنابل يدوية، مع ورشة متكاملة لتطوير وصيانة السلاح، وخزانات سرية بها كميّات هائلة من المشغولات الذهبية تُقدر بعشرات الملايين من الجنيهات. وأصبح الرجال في حالة تأهُّبٍ دائم لتنفيذ خطة مُعدَّة سلفاً للانقضاض على القرية واحتجاز سكانها الأربعمائة رهائن في حال مداهمة القصر. أغلق أهل القرية عليهم أبوابهم أغلب الأيام، وعاشوا في بؤس ورعب وفقر، وانضم الشباب منهم والأشداء إلى عصابة عبد الحكم طواعية أملًا في الرزق أو هربًا من البطش.

لا يغادر الكبير القصر إلا سرًّا، فهو هارب من تنفيذ حكم نهائي بالإعدام شنقًا، في ضوء ما نُسب إليه وخمسة وسبعين متهمًا آخرين بتشكيل عصابة ارتكبت أعمال عنف وشغب، وزراعة مساحات شاسعة من الأراضي بالمواد المخدرة والمحظورة

قانونًا، واستيلائه على أراضي مملوكة للدولة، واختطاف عشرات المواطنين للضغط على قوات الأمن، علاوة على قضايا اغتصاب واختطاف أخرى نُسبت إليه في حق عشر فتيات قاصرات، وصدَّق المفتي على حكم المحكمة تطبيقًا لحد الحرابة. أما عصابته فحُكم على أغلب أفرادها بأحكام نهائية واجبة التنفيذ بالمؤبد والإعدام، وكذلك أولاده الأربعة، واثْنَتَان من زوجاته.

ثم إنه فُتن بالدنيا واعتصر زهرتها حتى التخمة: أكل فأفرط، وشرب فثمل وعربد، وسفك الدمَ فأسرف. ضجَّت به زوجاته، وكرهن إتيانه الفواحش ودخوله عليهن يوميًّا بالعاهرات والغلمان والبنات الصغيرات، فتآمرن عليه لقتله. وفي ليلةٍ سوداء استيقظ فجأة فرأى أكبر زوجاته وفي يدها سكين ملوَّث بالدم، أما حلقه فكان مشقوقًا ودمه مسفوحًا يغرقه. لقد ذبحته المرأة وهو نائم! لكنَّه نهض وراح يتخبط مذعورًا صارخًا، وتولى الذعر امرأته فولَّت فرارًا، ولحقه رجاله فطاروا به للأقرب مستشفى واستطاعوا إنقاذه بأعجوبة. لبث ما لبث طريح الفراش، ثم عاد إلى القصر وبطش بطش الجبارين. عثر رجاله على زوجته الفارَّة، فأمر فعُذِّبت حتى وشت بشركائها في الجريمة، ثم أمر فجُلدت نسوته الأربعة على مشهد من الناس حتى تقطَّعت أجسامهن ظهرًا لبطن، وحُفر لهن قبر واحد، ثم أهيل عليهن التراب وهن أحياء. أدَّت به الحادثة لشلل نصفي، وفقد القدرة على الكلام.

* * *

كان الاستعداد للضربه ودراسة كافة التفاصيل باستفاضة أمرًا حتميًّا قبل الإقدام على أي خطوة. طالت الجلسات بحسين والعدوي وشباب البدو لتحليل مسرح العمليات، وحساب عنصر المفاجأة، ودراسة مُخططات القصر المتاحة، وتقدير عدد الرجال وضراوة المقاومة المحتملة، حتى اكتملت الصورة النهائية للاقتحام. حرص حسين على مصاحبتهم في مهمتهم الأولى لشحذ الهمم في الظاهر، ولأمر ما أسرَّه في نفسه. حاول العدوي إثناءه دون فائدة، وظل يخوفه من المخاطر، ولما لم يجد لديه أذنًا مصغية، سَلَّم أمره لله.

توَّجهوا إلى أسيوط متفرقين، وتوافدوا فرادى على فيلا صغيرة على أطراف المدينة

ورثها حسين عن جَده، ثم وصلت سيارة نصف نقل مُصَنْدَقَة حوت المعدات والسلاح. وفي اليوم الأخير وصلت سيارة دفع رباعي ضخمة، أتى فيها حسين وقادها النونو. وفي العصر اكتمل العدد. استثمروا ساعتين في مراجعة الخطة والتحقق من مخطَّطات القصر الإرشادية، ثم أكلوا جميعًا وتخفَّفوا، وأخلدوا ساعتين للراحة. وفي منتصف الليل أخرج النونو المعدات من السيارة وجعلوا يتجهّزون، ثم توجَّهوا متتابعين إلى طاولة خشبية كبيرة تَرَاصَّ عليها السلاح والذخيرة، فشرع كلٌ منهم يعد سلاحه. تشاركوا جميعًا في زيٍ مُوحَّدٍ أسود، يُشابه زي القوات الخاصة بكامل تجهيزاته القتالية، ولم يخالف تلك الثلة في المظهر إلا النونو، الذي حافظ على نفس ملبسه: معطفه الطويل وسرواله الواسع وحذائه الضخم. ثم تحركوا جميعًا.

***

أرخى الليل سدله على الحقول المترامية إلا من أضواءٍ مهزوزة تلوح عن بعد من القرية، أما حول أسوار «البيت الأبيض» فسطع النور من الكشافات الكبيرة المنصوبة في أبراج المراقبة. وبعيدًا عن القصر، وعلى ضفة المصرف القديم قرب القرية وصلت ثلاث سيارات، وهبط منها نفرٌ من الرجال الملثمين. اندسوا في زراعات القصب، وتقدَّموا صفًا واحدًا، ودخلوا أول مستوى من الحراسة، حيث تتجوَّل بين الحين والحين بعض الدوريات الراجلة وكلاب الحراسة. كانوا تسعةً من البدو، انقسموا بالترتيب لمهام قتالية مُحَدَّدَة: أولهم دليل المقدِّمة، وهو يسير متقدِّمًا عن رفاقه بمسافة معقولة لتأمين عملية الانتشار، بعده تقدَّم صف المقاتلين المسلحين بالبنادق الهجومية والمواد المتفجرة، وفي مؤخرة الصف تقدَّم حسين والنونو، وتبعهم المختص الكيماوي وحامل المعدات، وهو أضخمهم بنية وأشدُّهم قوَّة. انتفخت صدريته وحقيبة ظهره بالمعدات الإضافية التي قد يحتاجها الفريق، مع أدوات الاقتحام الكيماوية وقنابل الغاز.

كانت أزياؤهم بالكامل من أنسجة «نومكس» المضادة للحريق، ورفع كلٌ منهم على بدنه صديرية تكتيكية مضادة للرصاص، وأدخلوا أقدامهم في أحذية قتال غليظة. ربطوا حول أفخاذهم جيوب ذخيرة، ووضعوا على أعينهم مناظير الرؤية الليلية، وكمَّم كلٌ منهم فمه بقناعٍ صغيرٍ مضاد للغازات، وحمل منهم اثنان درعين تكتيكيتين مضادتين للرصاص. تسلَّحوا ببنادق «جاليل مار» الهجومية الآلية متوسطة الحجم،

خفيفة الوزن، بمشط ذخيرة مزدوج يسع سبعين طلقة، وكمية كبيرة من الذخيرة. تميَّز عنهم النونو بحمله مدفع رشاش بلجيكي ثقيل، وطوَّق جسمه بأحزمة من طلقات عالية العيار.

كان أزيز الحشرات مزعجًا ومتصلًا، لكنَّه ساعد على تغطية تقدُّمهم. لاح لهم جدار البيت الأبيض واضحًا من بعيد، ومن حوله تتحرَّك بعض دوريات الحراسة الفردية. ولاح أيضًا كشكٌ مبني بالطوب تكاد المزروعات أن تحجبه عن الأنظار، يطل منه بصيص من نور. هذا الكشك هو نقطة الدخول المأمولة، نظرًا لأن التقدم تحت ضوء الكشافات ضربٌ من الانتحار.

ربض المتقدمون جميعًا كآلةٍ متعددة التروس، ثم زحفوا معتمدين في الحركة على المرفقين والركبتين. أطلَّ أحدهم برأسه من بين الزراعات كالنمس مُمْعِنًا النظر في من بالكشك عبر منظار مُكبر. كانوا أربعة رجال، أحدهم يدندن ويتمشَّى حول الكشك، وآخران يسمران ويدخنان الجوزة، والرابع يَغِطُّ في نوم عميق. أخذ المقاتل البدوي قراره، ونقله همسًا لقائد المجموعة، الذي صدَّق عليه، فأخرج بندقية القنص. كانت صناعة إسرائيلية من طراز «جليل» نصف آلية، بخزانة قابلة للانفصال تحوي عشرين طلقة، وتليسكوب قابل للفك، وكاتم صوت طويل.

تقدَّم القنَّاص بضعة أمتار عن رفاقه زحفًا، ثم ربض في موقعه الجديد. وضع عينه على التليسكوب وطالع الموقف من رؤيةٍ جديدة. هناك هدفٌ واحدٌ متحرك، وثلاثة في حالة ثبات. بالأول عزم أن يبدأ؛ لأن رد فعله أسرع نظرًا أنه في حالة حركة. رصد الحركة واستشعر اتجاه الريح، ورسخ ببدنه وسلاحه، وضبط تصويبه، وأخذ وقته، لأنه يعلم أن خطأً واحدًا أو رصاصةً طائشةً كفيلة بتفجير الموقف. ويعلم أيضًا أنه لابد أن يرديهم في مدى زمني ضيق، كي لا ينتبه أحدهم ويتخذ ساترًا. القتل يجب أن يكون سريعًا صامتًا.

سدَّد صليب التليسكوب أمام الهدف المتحرك متتبعًا خطواته بُنَاءً على سرعة الحركة وزاويتها، منتظرًا أن يغيب عن أنظار أصحابه. تنَّفس بعمقٍ، ثم كتم أنفاسه تمامًا، وقرَّر، وكبس زناد البندقية بسبابته. خرجت الطلقة بسرعتها فوق الصوتية

وبلغت هدفها في لمح البصر، ووَلَجَت قاع الجمجمة فهوى صاحبها دون أن ينبس. وبينما يسقط استخرج القنَّاص مظروف الطلقة وأدخل أخرى وقد بدَّل بؤرته للهدف القادم، وهما الرجلان المتقابلان. هذان الاثنان هما مصدر الخطر الأكبر؛ لأن كلًّا منهما يغطي الآخر بنظره. لابد من أخذهما في طرفة عين. وبينما يضبط أحدهما بوصة الجوزة، سمع صفيرًا حادًا في الهواء، شهق بعده واندفع كأنما تلقَّى لكمةً خفيَّةً، وتكوَّم أرضًا دون حراك. ثم لم يجد الثاني وقتًا للإتيان بأي رد الفعل، إذ أحَسَّ بسيخٍ مُحَمًّى ينفذ من مؤخرة رأسه كالضوء. ثم جاءت آخر طلقة فاخترقت قاع جمجمة الرابع والأخير، لتنقله من نومه إلى الدار الآخرة مباشرةً.

مَرَّت دقيقة والكُشك ليس فيه إلا الأموات، فيما لبث القنَّاص مكانه مُستكشفًا جثث قتلاه. ثم تقدموا بسرعة حتى وصلوا للكشك. كان ضيقًا، تفترش أرضيته طبقةٌ من القش، وفي وسطها موقد صغير وعدة الجوزة، وحولها رقدت جثتان، وفي الركن جثة، وعلى المدخل جثة. أزاح شباب البدو القش وطبقات التراب والطين عن الأرضية، فلاح بابٌ حديديٌ ثقيل. تعامل أحدهم مع قفله المُحْكَم، وتعاون مع آخر فرفعاه بمشقَّة، فبانت أسفله فتحة عميقة بالأرض. نزل الدليل ومعه آخر في الحفرة الأرضية، فوجدا نفسيهما في نفق أنبوبي مظلم منتن الرائحة، ثم نزل باقي الفريق الواحد تلو الآخر عبر سلم بَحَّاري، وأطفئوا الكشافات، وصاروا يهتدون بمناظير الرؤية الليلية فقط.

استمر بهم المسير عشر دقائق، حتى وصلوا لمنتهى النفق. كان أعلاه باب حديدي آخر عالجه أحدهم، ثم تدفَّقوا للخارج بحرصٍ وصمت. بعد تأمين المكان رفعوا مناظيرهم وأشعلوا الكشافات ليروا المكان على طبيعته. كانوا في قبو القصر الفسيح. زحفت على سقفه مواسير التكييف ومدادات الصرف، ورقد على ركنٍ منه مُولِّد كهرباء ضخم، وانتشرت في أرجائه عشر سيارات فخمة، وثلاث سيارات نصف نقل، وأربع حافلات صغيرة (ميكروباص). أخرج المختص الكيماوي معداته وشرع في العمل بهمَّة مع خمسة من زملائه لتجهيز نوعين من المتفجرات. الأول: أعواد من مادة الـ«سي فور»، نشروها عند المداخل ونقاط العبور، وعند لوحة الكهرباء الرئيسة. والثاني: «ضيف الدار» أشد تركيباتهم فتكًا، زرعوها عند قاعدة كل عمود من عمدان القبو، وهي أوعية تمتلئ بالبروبين، تنفجر بواسطة مادة الـ«سي فور». خصُّوا خزان وقود المولد الكهربي

بوعاءين من «ضيف الدار»، ثم قطعوا كافة التوصيلات والأسلاك الممتدة منه، وزوّدوا كافة المتفجرات بفتائل تفجير تعمل عن بعد.

تسلّلوا للخارج صاعدين درجات سلالم مظلمة وقد أعادوا مناظير الرؤية الليلية على أعينهم، ووَصَلوا للبهو الرئيسي. زرعوا المزيد من أعواد الـ«سي فور» عند المداخل ونقاط العبور، وفي أماكن أخرى زرعوا طلقات المورتر الفيسفورية عيار ٨١ ميلليمترًا، ملفوفة بسلك تفجير ونصف عود من الـ«سي فور»، ثم نشروا كوكتيلات المولوتوف. وتوافدوا صاعدين السلم الرئيسي صفًا واحداً ملتصقين بحائطه. في الطابق الأول قاموا بتأمين المداخل والأروقة، حتى وصلوا لمنطقة غرف النوم. جاسوا في جناح غرف النوم كالعفاريت، وباشروا تصفية أهل البيت جميعًا بسكوت وسرعة، حتى أتوا على غرف النوم التسعة كلها. ثم وصلوا لغرفة النوم الرئيسة، وقد تركوا وراءهم أبوابًا مفتوحة تكاد تسيل من أعتابها عُصارة الموت.

تقدَّم حسين والنونو متوشِّحين أسلحتهما، حتى وصلا للباب الكبير. فتحاه ودخلا بصمت. على ارتفاع درجتين كان فراشٌ كبيرٌ يشرف على غرفة النوم الفسيحة، وخلفه ستارٌ موشَّى على هيلمان كأنما يستر إيوانًا سلطانيًا. وكان سيِّد القصر جالسًا على فراشه، ملتحفًا بأغطيته، وقد بانت على وجهه آيات الرعب، وحوله ثلاثة من بالبدو يوجِّهون بنادقهم إليه. هذا هو عبد الحكم الجارحي: رجلٌ متنافر الخلقة، متورِّم الوجه والبدن، شديد السمرة. كانت الغرفة شبه مظلمة إلا من مصباحيّ حائط صغيرين لهما ضوء سهَاري شاحب، فكانت الرؤية مُيَسَّرَة لجميع الأطراف.

جلس حسين على طرف الفراش، ونظر في وجه عبد الحكم بدِقَّة، فرأى ندبة عميقة تطوِّق رقبته، وشمَّ رائحة عرقه النفاذة الكريهة. نظر إليه عبد الحكم وهو يتنفَّس بصعوبة كشأن الفأر إن حُشِرَ في المصيدة، بينما يقول حسين في شبه همس:

- أنا حسين الجارحي.. حأسألك أسئلة، تجاوب عليها بنعم أو لا.. نعم تهزّ رأسك فوق وتحت، ولا تهزّ رأسك يمين شمال.

ولم ينتظر استجابة، بل دخل في صلب الموضوع مباشرةً، وسأله:

- أنت من دبّرت لمحاولة قتلي؟

ارتجفت شفتا عبد الحكم وكأنّه سيبكي، ثم أومأ بان نعم، فتنهّد الشاب آسفا، وسأله:

- تعرف إيلي مجدلاني وإيفيلين فارتان؟

لاحت في عينيّ عبد الحكم لمعة انعدام الفهم، فأعاد حسين عليه السؤال بعنايّة. ضيّق الرجل عينيه محاولًا استيعاب الأسماء، وعصر مخّه لتذكرها، ثم هَزَّ رأسه بأن لا، فقال حسين متحيّرًا:

- بس هو ذكرك بالاسم! (ثم قال يَسْتَحِثُه) حاول تتذكر من فضلك!

هَزَّ عبد الحكم رأسه نفيًا بإصرار. فكّر حسين وهو يحدّق في وجهه مُسْتَشِفًّا انفعالاته: إنه اعترف على نفسه الآن بأنه دبَّر لاغتياله، فهل تفرق إن كان بيد رجاله، أو بيد إيفيلين؟! ثم إن إيلي مجدلاني اعترف أنه أحد موزعي عبد الحكم الأساسيين، فكيف ينساه عبد الحكم؟ تنازعته الاحتمالات، ثم وصل لنتيجة نهائية، ترجمها فورًا لكلمات، فقال للرجل ونُذُر الشر تلوح على وجهه:

- أنت كذّاب!

هَزَّ عبد الحكم رأسه بالنفي، وقد بدت على وجهه دلائل التفجُّع، فضغط حسين على أسنانه وقال متوعِّدًا بشراسة:

- إيلي مجدلاني ذكرك لي بالاسم، وقال لي إنك أنت اللي دفعته عليَّ.. صحيح الكلام ده؟

هَزَّ عبد الحكم رأسه بالنفي، فاحتقن وجه حسين حتى شعر بحرارة في أذنيه وعلى بشرته. ثم استل مسدسه وألصق فوهة كاتم الصوت بكتفه اليسرى، وأقدم على أول خطأ. كتم فم الرجل بيده، وباليد الأخرى أطلق النار، فعبرت الرصاصة اللحم وكسرت عظمة الترقوة. صرخ عبد الحكم من داخله صرخة ولَّدت في مخه أعاصير وصواعق، وتسللت من بين أصابع حسين القابضة على وجهه بقسوة كأنينٍ طويلٍ مُتَفَجع. تحلّق البدو حول الفراش بقلق، وأحسُّوا بتأزُّم الموقف. حاول عبد الحكم التملُّص والتلوّي، وأحكم حسين استمساكه به كاللبؤة إذا ظفرت بفريستها. استنفر حسين عضلاته وكل جسده كي يسيطر على عبد الحكم، حتى إنه ركبه تقريبًا كما يركب المرء دابته، وأعاد

أسئلته عليه بإصرار. أحَسَّ شباب البدو بتأزُّم الموقف وخطورته، ورأوا أن سيدهم الجديد ينجرف إلى هاويةٍ ستوردهم جميعًا الهَلَكَة. ثم إن حسين أقدم على الخطأ الثاني: سَحَبَ مديته المعقوفة المخيفة، ودسَّ طرفها المُدَبَّب أسفل جفن غريمه وهو يتوعَّده بأن يقلع عينه إن لم يتكلم. المشكلة أنه قَرَنَ القول بالعمل دون أن ينتظر إجابة، وبدأ يطعن في البشرة تمهيدًا لنزع الجفن.

هنا استولت على عبد الحكم حالة رعب مريعة، وتدفَّقت الطاقة في عروقه، وعزم على تفادي ما يحدث بأي ثمن مدفوعًا بغريزة بقاء بدائية، فدفع بيده أسفل وسادته، وأدارها إلى رأس حسين وأصابعه تقبض على جسمٍ أسود. في لحظةٍ علم حسين ماهية هذا الشيء، فاستولى عليه الفزع وألقى بنفسه أرضًا، وفي اللحظة الثالثة أطلق عبد الحكم النار من المسدس فطاشت الطلقة، لكن دويها انفجر في الصمت فمزَّقه تمزيقًا. ثم أدار سلاحه وأطلق النار على كل من يراه من الوقوف وهو يضج بالعواء المجنون، فانبطحوا جميعًا، وطاشت الطلقات لتضرب الحوائط والتسريحة وتحطِّم المرآة. ثم تُوِّجت الأحداث بما فعله النونو. لم ينبطح كزملائه، بل إنَّه لما رأى سيِّده في خطر، رفع سلاحه المارد وأطلق النار. كان الضجيج هائلًا متسارعًا، وتدافعت الفوارغ كالسيل، أما الفراش فكأنما يتعرَّض لقصف مُوَّجه، اختلطت فيه الأشلاء ودفعات الدم بشظايا الخشب وحطامه وحشو المرتبة.

وأخيرًا رفع العملاق يده عن الزناد، وتصاعد الدخان من فوهة المدفع بكثافة. نهض الحضور الواحد تلو الآخر محدِّقين جهة الفراش بذهول، أما حسين فكان آخر من نهض، ورمق النونو بعيني الغير مصدِّق، وحانت منه نظرة للفراش وحال صاحبه، فثبت مكانه مصدومًا إزاء المنظر البشع. ثم تراجع القهقري ولم يتوقف إلا وهو بين رجاله، ولم يكن يصدق أنه حي إلى الآن.

ومع هذه الضوضاء، لم يكن هناك إلا تصرفًا واحدًا: الهروب بأقصى سرعة. انسحبوا بنظام، وللعجب لم يعترضهم شخصٌ واحد، ما دفعهم للمبالغة في الحرص، فنزلوا على السلم فرادى، حتى توزَّعوا بالبهو، وعندما اكتمل عددهم بالأسفل بدأ الهجوم من أعلى ومن أسفل. برز من كل ركن ومن خلف كل عمود رجلٌ مسلح، وأضيئت الأنوار، وانطلقت النيران.

تفرّق البدو كلّ لموقع محدد، وانقض منهم اثنان على حسين ورفعوا الترسين المضادين للرصاص وحشروه بينهما لحمايته، وتراجعا لبقعةٍ آمنة. وما أن سطعت الأنوار حتى أرسل أحدهم إشارةً وصلت للشحنة المتفجرة عند لوحة الكهرباء فانفجرت، فهيمن الظلام في اللحظة التالية مباشرةً. وخلال الثواني القليلة التي تجاوز فيها رجال عبد الحكم صدمتهم واستخدموا كشافات الإضاءة ليعاودوا لإطلاق النار، ألقى البدو خمس قنابل دخان. ومع الأبخرة الكثيفة فقد رجال القصر كل ميزة، لكنهم أطلقوا النار من أسلحتهم الآلية دون هوادة.

تقهقر البدو عموديًا على خطوط القتال مُغطّين ما أمامهم بمظلات نارية كثيفة، ثم فجّروا الكمائن المزروعة عند نقاط العبور والمخارج. توالت الانفجارات وتصاعد الصريخ واندفع الدخان والحطام، وطارت بعض الأجساد ممزّقة، وانتشرت بالأعلى مظلة من السوائل المشتعلة مع احتراق كوكتيلات المولوتوف، فصرخ الرجال إذ تمسكهم النار وتضطرم في ثيابهم وجلودهم، وتخبّطوا بجنون واللهب يستنفدهم حتى الموت، وانطلقت طلقات المورتر الفسفورية تَثْقُب وتُدَمِّر. ومع هذا استبسل رجال عبد الحكم، ونجح منهم آخرون في التسلل للطابق الأرضي لتبادل النار بشكل أكثر نديّة مع الدُخَلاء، وتماسكوا مع الرصاص المنهال عليهم من كل جانب، حتى ظنّوا أن الموت محيط بهم لا محالة. أطلق البدو النار بالتنسيق والتبادل من خلف أعمدة البهو، واستغلوا ذخائرهم للحد الأقصى، محقِّقين أكبر قدرٍ من الخسائر البشرية في العدو. أما حسين فحشره مقاتلان من البدو في ركنٍ آمن، وقاما بحمايته بدرعَيْهما المضادين للرصاص. وبين النار والدمار يخرج النونو من مكمنه كوحشٍ أسطوري حاملًا مدفعه الضخم، غير مبالٍ بالمهالك من حوله، فيطلق دفقاتٍ غزيرة من النار تكاد من شدتها تقضُّ الحوائط وتحطِّم الأعمدة وتمزق أبدان الرجال، ثم يعود لمكمنه لإعادة تلقيم سلاحه.

نظّم البدو صفوفهم وشنُّوا حملةً واحدةً للخلاص، فنشروا مظلةً من الطلقات للأعلى وأمطروا الشرفات المطلة على البهو بالقنابل اليدوية فكانت مجزرة وفوضى، ثم ركّزوا نيرانهم على الطابق الأسفل، واستعانوا ببعض القنابل الحارقة ما كان له تأثير نفسي عظيم. ثم انفصل منهم ستة للبحث عن سبل للصعود إلى عدوّهم بالأعلى بحركة التفافية. فوجئ رجال عبد الحكم في الطابق الأول بهجومٍ خاطفٍ بزجاجات المولوتوف

والقنابل اليدوية، بعد أن نجح البدو في الصعود إليهم خلسة، فتتابعت الانفجارات، واندفع الحطام والطوب ساقطًا من أعلى، ثم وُئدت الضجَّة شيئًا فشيئًا حتى كان الصمت.

انقشع الدخان والغبار واتَّضحت الرؤية إلى حدٍ ما. افترشت الأرض والردهات أكثر من ثلاثين جثة: من القتلى من تفحَّم، ومن تمزَّق إِرَبًا، ومن المصابين من رَفَع صَوْتَه بالعَوِيلِ الضارع وقد مَحَشَت النار جلده ولحمه. زحفت برك الدم بعضها على بعض، وسبحت فيها مئات الفوارغ النحاسية الساخنة. تجوَّل البدو بين الأجساد مُجْهِزين بالسكاكين على كل من بقى في صدره نفسٌ يتردد.

وبالخارج سُمِعَت أصواتٌ وجلبة لبقية رجال عبد الحكم وما زالوا كُثُر. لن يصمد البدو لهجومٍ آخرٍ، فلا ساحة القتال معدَّة، ولا ذخائرهم ومعدَّاتهم تحتمل. لابد من الانسحاب.. الآن. انطلقوا جميعًا إلى الطابق التحتي مرة أخرى، متَّبعين إجراءات تأمينية قصوى لتفادي الأكمنة والاستدلال على وجود راصدٍ من العدو.

وخارج القصر انتظمت صفوف الرجال. وَصَلَ عددهم خمسينًا، وقادهم شابٌّ حديث السن هو نَبَوِي، أحد أحفاد عبد الحكم. استطاع النجاة من المذبحة بطريقٍ ما، فأيقظ سائر الرجال في حديقة القصر وخارجها، وأخذ سيارته ليستنفر من يستطيع من المواقع القريبة والبعيدة، حتى عاد بكل من بقي، واستطاعوا فتح عدة ثغرات اقتحموا منها القصر. في ذلك الوقت تقدَّم البدو في النفق الذي دخلوا منه لمدة عشر دقائق أليمة تغطوا فيها بالعرق وضاقت أنفاسهم، وأحَسَّ حسين أنه حُصِر في حفرةٍ من جحيم، حتى وصلوا أخيرًا لنهاية النفق، وعالجوا مخرجه حتى أطل عليهم الخلاء، فكأنه البعث من القبر. أرسل أحدهم إشارة التفجير الأخيرة من هاتفٍ محمول، وصلت لجهة الاستقبال في الطابق التحتي للقصر، ثم انطلقوا يعدون متخفين بالزراعات الكثيفة بمحاذاة المَصرَف، وكانت القرية بادية على الضفة الأخرى وقد أضيئت فيها المشاعل، وخرج أهلها واجتمعوا عند أطرافها ناظرين للبيت الأبيض من بعيد.

كانت المصيبة في القصر تكشف عن وجهها القبيح، والرجال يعاينون القتلى من خدم وأسياد، على الأرضيات وفي الغرفات. رجالٌ ونساءٌ وصبيان وفتيات وأطفال،

ذُبحوا على فُرُشهم بلا رحمة. استولت على الحفيد نَبَوِي حالة ذهول شاملة إذ يقف أمام فراش جَده الذي استحال لتكوين محطَّم اكتسى بلون الدم. كان قد اتجه أول ما اتجه إلى غرفة الكبير، وأثناء مروره وخز قلبه ما يتبدَّى من فُرَجِ الأبواب الأخرى من أنَّات وشهقات خافتة للرجال إذ يعاينون أهل القصر، لكنه رَبَطَ على جأشه بما يتجاوز حداثة سنه، ثم لم يستطع التماسك مع هول المشهد في غرفة جَده، فانهار أرضًا وأخذه العويل واللَّطم. تمزَّق لحم عبد الحكم بتأثير الطلقات المضادة للدروع، وتناثرت أشلاؤه مختلطة بحطام الخشب وبطانة المرتبة. وما أسرع ما تزاحم الرجال في الغرفة، وقد استولى على المشهد كسوةٌ من الرعب والموت، لم يفسدها إلا «ضيوف الدار» بالقبو. تلك هي المتفجرات الفتَّاكة التي زرعها البدو على الأعمدة والأركان، وقد وصلتها الآن إشارةٌ من هاتف محمول بعيد.

هدرت من باطن القصر رجَّةٌ ماردة، اندفعت على إثرها كتلة ضخمة من اللهب في غلالةٍ ثقيلةٍ من الدخان والغبار غلَّفت القصر كله، وتساقطت منها الشظايا والحطام على مساحة واسعة. ولا بد أن من بالداخل قد زُلزلوا في مواقعهم، ولا بد أنهم تدافعوا ودهسوا بعضهم البعض في فرارٍ يائس. دبَّت في أعمدة القصر وجدرانه شقوق كبيرة، فمال وانطبق بعضه على بعض، ثم انكب أرضًا وهو حطام، مكللًا بسحابة من الركام والغبار واللهب.

* * *

وصلت الشرطة أولًا، فضربت نطاقًا أمنيًّا حول المنطقة، وأبعدت حشود الفلاحين التي تحلَّقت حول الحطام غير مُصدِّقة، ولم يمد منهم أحدٌ يدًا لرفع حجر أو انتشال مصاب. ثم وصلت قوات الأمن المركزي بشاحنات نقل جنود ومدرعات، ثم جاءت سيارات الإطفاء والإسعاف. وُضعت الأكمنة الأمنية على المسالك المؤدية للقرية والقصر، وأغلقت الطرقات، وتم تفتيش السيارات. وصلت البلدوزرات والمعدات الثقيلة، وبدأ الجميع العمل في الموقع ورفع الحطام، ونشط رجال الإسعاف لانتشال الجثث. ثم وصلت الصحافة، فحيل بينهم وبين الدخول وتم منع التصوير. ومع انتصاف النهار تحوَّل الموقع إلى ما يشبه الثكنة العسكرية (أو الشُرَطِيَّة بتعبيرٍ أدق)، وغشاه جمعٌ كثيف من البشر، فيما طُرِحَت على أطراف الموقع عشرات الجثث المغبَّرة

بالتراب. وبعيدًا عن الحطام، عثرت الشرطة على مخازن مَخْفِيَّة تحت الأرض، حَوَت أسلحةً ومخدرات، وكميَّات كبيرة من المشغولات الذهبية والنقد، وتم تفتيش منازل القرية، واستُخدمت الكلاب المُدَرَّبة للبحث عن المخدرات والمتفجرات. ألقت الشرطة القبض على عددٍ كبيرٍ من المشتبه فيهم، ثم وصل إلى الموقع مدير أمن أسيوط في كوكبة من مساعديه ورجاله، ومدير إدارة مكافحة المخدرات بالوجه القبلي.

الذي لم يعرفه هؤلاء، أن مرتكبي الجريمة قد غادروا أسيوط فورًا متفرقين، وعبروا المنافذ في عدة سيارات قبل تكثيف الأكمنة وتفتيش السيارات، حتى وصلوا جميعًا آمنين لقصر الفردوس بعد العصر. تركهم حسين يفرغون معداتهم، وصعد لغرفته، وأغلق عليه الباب بالمفتاح، ثم جلس على فراشه وثبت كالتمثال. ظل فترةً طويلةً يرنو للفراغ ساهمًا، ثم نهض أخيرًا للحمام وابتلع قرصين مهدئين، وأخذ حماماً دافئًا. تتابعت على ذهنه بعض مشاهد مما حدث في البيت الأبيض، وشعر بحيادية تامة، كالكويكب يسبح وحيدًا في الفضاء. ثم أوى إلى فراشه بعينين متسعتين ليس فيهما ميل للنعاس. لكن مع طول الرقاد والسكون، زحف إليه الوسن ككيانٍ رخوٍ ماكر فنام.. ثم استيقظ في العاشرة مساءً، وغيَّر ملابسه ونزل. كان الجميع يجلسون في غرفة الطعام في شبه ظلام تام.

مرَّ عليهم دون اهتمام وذهب للمطبخ، فأخرج ما تيَّسر له من طعام، ثم عكف على مأكله صامتًا. استظلَّت الرؤوس بسحاباتٍ داكنةٍ من الكآبة والاحتقان، ولم يُرِد أحدٌ أن يحرر طاقاته المكبونة بفتح موضوع للحديث. وعلى كل حال لم يكن كثرة الكلام من شيم الموجودين. الوحيد المحب للرُغاء -وهو حسين- يأكل طعامه في المطبخ ببطء، كأنه يجرش بأسنانه الثلج. مضى الوقت بطيئًا حتى دقَّت الساعة منتصف الليل، ومع دقاتها قدم العدوي.

تنافرت الشياطين على صفحة وجهه فعكَّرتها. دخل غرفة الطعام، وألقى نظرةً على البدو العشرة، ثم اتجه بهمَّة إلى المطبخ. وحال وصوله رأى حسين جالسًا، وأمامه على الطاولة الرخامية زجاجة بها سائل شفاف. وضع حسين سيجارةً في طرف فمه، وانشغلت يداه بتقشير تفاحة وتقطيعها. كانت حركاته وهو يتناول طعامه بطيئة غامضة، وكان يقطع التفاحة كأنه يحسب مسألة عويصة، أو يعالج شحنة متفجرة.

دخل عليه العدوي مسرعًا، وبادره بهياج سائلًا:

- إيه اللي عملتوه يا أستاذ؟

رنا إليه حسين ببلادة، وتساءل:

- إيه اللي عملناه؟

احمرَّت عينا العدوي، وصاح فيه:

- دي الخطة اللي اتفقنا عليها؟! تتسللوا للقصر في الظلمة، وتخلصوا على الرجل دون شوشرة؟!

قال حسين ببساطة:

- دا اللي حصل تقريبًا.

كاد المحامي يشد شعره غيظًا وهو يقول:

- اللي حصل أنكم أعلنتم الحرب في الصعيد.. (وضحك مستثارًا) الناس افتكرت إن الداخلية هجمت على القصر!

- الظروف تطوَّرت دون قصد منا.

دنى العدوي منه، وهتف في وجهه ثائرًا:

- كذَّاب! أنا عرفت إن الأمور كانت تمام، لحد ما بدأت تستجوب عبد الحكم، وتسأله عن إيلي مجدلاني.

- أنا مش قادر أفهم، ليه الحساسية الزائدة بخصوص موضوع إيلي؟

تابع العدوي بدهشةٍ وإنكار:

- أنا نبهت عليك بخصوص المسألة دي بالذات.

قال حسين بتريُّث:

- طيب هدي أعصابك، لا يطقلك عرق ولا حاجة.

ضرب العدوي كفًا بكف، وقال:

- أنت تصرفت تصرف أحمق، وهددت العملية كلها بالفشل، وعَرَّضت حياتك وحياة

رجالك لخطر غير مبرر، وعملت باغمة، الله أعلم حنقدر نلمها أولاً.

قال حسين باستهانةٍ وتراخ:

- أنت هتعمل من الزبيبة خمَّارة؟! المفروض الداخلية تبعت لنا برقية شكر على العمل العظيم اللي أنجزناه بالنيابة عنها.. إحنا ولله الحمد خلّصناهم من بُعبُع!

- هل تعتقد، يا محترم، أن عبد الحكم رجل هيّن، موته يمر بسهولة؟ الرجل له علاقات في الداخلية، وفي المحافظة، وفي البرلمان، وبعائلات لها شوكتها في الصعيد.

قال حسين بسكينة:

- عمرك شفت حد يضع نفسه في دائرة الشبهات، علشان رجل ميت؟ أنت تعرف أن له عداوات مع الداخلية، وله خصومات مع أغلب عائلات أسيوط، يعني ما فيش مبرِّر للغاغة اللي أنت عاملها!

تعجَّب منه العدوي، وأوجس منه خيفة. إنه يعلم أن السكون المبالغ فيه ليس من شيمه، فسأله بحذر:

- أنت مبرشم؟!

تبسَّم حسين ببرود أعصاب، ونهض، ودفع العدوي أمامه برفق قائلًا:

- خلينا نشوف الخطوة الجاية إيه.

زفر العدوي يائسًا، ثم تقدَّم أمام حسين مُسلمًا أمره لله، لكن فوجئ به يقبض على قفاه بشدة آلمته، وسمع صوته يهسُّ في أذنه قائلًا بنبرة فاترة:

- وشرف أمك يا عدوي، لو علّيت صوتك عليَّ مرة ثانية، حاقطع لك لسانك.. بالمقص!

غلى رأس العدوي بالغضب، فنزع نفسه من قبضة حسين المُحْكَمَة بحركةٍ عنيفةٍ متسرعة، والتفت بقوَّةٍ عازمًا رد اعتباره وقد نزعت نفسه إلى الصدام.. لكن هاتفًا داخليًّا مباغتًا منعه. رأى في عيني حسين الناعستين من تأثير المهدئات الموت، ولم يأمن على نفسه من رد فعله. كبت ثورته، وزفرها حرارةً حارقةً للداخل، ثم خرج إلى غرفة الطعام، وخلفه موكله.

وما أن لاح الرجلان في غرفة الطعام حتى التفتت إليهما الأعين بانتباه. احتل حسين

مكانه على رأس المائدة، وجلس العدوي إلى الرأس المقابلة، وقال بجديَّة وكدر:

- الوقت مش في صفنا.. أمامنا ست رؤوس لا تقل خطورة عن كبيرهم.

* * *

كان لمقتل عبد الحكم أثر مزلزل في نفوس شركائه الستة، وكلما اتضحت أخبار القتلى، والقصر الذي صار حطامًا وهشيمًا، والأموال والأراضي التي صودرت، كلما تراءى لهم عمق البلوى، لكن لم يتسنَّ لهم اتخاذ جوانب الحيطة، والتنسيق فيما بينهم أو ضم قواتهم، لأن خصومهم تتبعوهم في مواطن ضعفهم، فتتابعت عليهم الضربات المهلكة. الأول، ورداني الجارحي، وقُتِل في غُرزة بساحل روض الفرج رميًا بالرصاص، مع ثلاثة من مرافقيه. الثاني، محمود الزيات، وقُتِل في سوهاج مع زمرة من مرافقيه في وكر للأعمال المنافية للآداب رميًا بالرصاص. الثالث، جاد الطماوي، وقُتل في شقة مفروشة بالسلاح الأبيض، مع اثنان من رجاله، وامرأة سيئة السمعة. الرابع، محمد عبد السلام الجارحي، وقتل ليلًا في مَاخُورٍ مع ثلاثة مرافقين رميًا بالرصاص. الخامس، الصغير أبو كريشة، ومات في حريق مروِّع بشَقَّة مشبوهة بالمعمورة.

على مدى عشرة أيام اقتصَّ حسين منهم الواحد تلو الآخر، وقبل الإجهاز عليهم كان يتحرى بدقَّة عن إيلي مجدلاني، فلم يعرفه أيٌّ منهم. ضغط عليهم بدنياً، ولم يجاوبوه إلا بالإنكار. كان الإنكار مُركَّزًا وقويًّا، والانفعالات صادقة وثخينة. كانوا يشهقون ويستعطفون وينكرون. لم يفهم لماذا ينكرون. ما من دافع أو فائدة تُرْجَى من الحفاظ على السر! إن الحيوان لو وقع في الفخ ليضحِّي بذراعٍ أو ساق حتى يفلت ولا يبالي بالألم، فكيف بهؤلاء، والدنيا عندهم غالية؟

سألهم حسين عن إيفيلين وكِشك الشايع، وعن علاقتهم بعبد الحكم. منهم من أنكر محاولته اغتياله أصلًا، ومنهم من اعترف بالأولى، ومنهم من اعترف بالاثنتين، وإن اتفق الخمسة على إنكار المحاولة الثالثة، حتى ركبه الغم، واختلطت في نفسه الهواجس.. ثم توجَّهت شكوكه جميعًا للعدوي. إن لهذا الرجل يدًا فيما يحدث، لكن ماذا؟ الله أعلم. هل يصارحه؟ ماذا لو كان في الموضوع توريطة كبيرة قد تفسد علاقته بمحاميه للأبد، فهل يقدر على هذا؟ إنه لا يستطيع التنفس تقريبًا دونه! لعل العدوي أراد أن يوغر

صدره على عبد الحكم ويشجّعه على الحركة. إن الخلاص من عبد الحكم أمرٌ حتمي.. هذا حق، فلا يمكن الخوض في مسألة السيطرة على العائلة وهذا الجبّارُ العصيُّ على قيد الحياة. وإن العدوي خيرُ من يعلم عن التخاذل المُستجدِّ عليه -أي على حسين- بعد السجن، والذي أصبح مُركَّبًا في خصاله تركيبًا طَبعيًّا، ويعلم أيضًا أنه لا يتحرّك إلا بهوس الانتقام. نعم إنه نوع من التضليل والانتهازية، لكنه في نفس الوقت توظيفٌ جيّدٌ لمشاعره.

دارت رحى الأفكار في رأس حسين فلم يُخمد نارها أي احتمال، لكنه عزم على المضي قدمًا في مخططه على كل الأحوال. ولم يعد إلا واحدًا يشفي به غليله، وليس هناك معنى من أن يتوقف الآن بعد أن بلغ هذه النقطة، لكنَّه عزم على تغيير تكتيكاته شكلًا وموضوعًا.

* * *

السابع والأخير.. البدري منصور الجارحي، يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا. يختلف هذا الرجل عمّن سبقوه، فهو رجلٌ أريحيٌّ، محبوب الطباع كريم الأخلاق، إن كان هناك من يستحق تسلم راية القيادة من بعد الحاج جوهر، فهو أول المرشحين، لتقدم سنه وسداد فكره، ومكانته من الحاج ذاته، لكن نظرًا للظروف الحالية، فهو أقرب إلى شاهبندر التجار: منصبه شرفي أكثر منه تطبيقي. لا يسترسل في الشهوات كشأن إخوانه وأبناء عمومته، ولا ينقطع عن عمل الخير، ويعول عدة عشرات من الأسر الفقيرة في المأكل والكساء والتعليم والعلاج.

في هذه الليلة، ولما رُفع أذان الفجر من جامعٍ قريب بصدى صوتي عظيم، قلق البدري في منامه وتقلَّب، ثم نهض بنصف جسمه بمشقَّة. كان وحده في الغرفة، ذلك أن زوجته تُوُفِّيَت منذ سنيتن عن سِنٍّ تُنَاهِزُ الستِّين. دَعَكَ وجهه، ورأى في نفس اللحظة ظلًا أسود لرجل نحيل جالس أمام فراشه، وآخر هائلًا لعملاقٍ يقف خلفه. اتسعت عيناه ذهولًا، وطار النوم من عينيه، ثم وقع في قلبه رعبٌ ساحق عندما تبيَّن على ضوء الردهة الخافت المتسلِّل من باب الغرفة المفتوح أن النحيل هو حسين الجارحي، فعلم أن النوبة انتهت إليه.. وعلم أنه مقتول.. عبس وجهه، وضاق نَفَسُه، وأَحَسَّ بروحه تهوي إلى أحط

الحضيض، بينما ينمو إليه صوت حسين وهو يسأله بتريُّث:

- إيلي مجدلاني.. تعرفه؟

لم يستوعب الرجل السؤال، بل لم يستوعب حقيقة أن بقاءه في الحياة الدنيا قد لا يتجاوز دقائق بدءًا من الآن. أنشأ الرجل يشهق، ودس يده اليسرى بين ثدييه، وبانت على وجهه دلائل المعاناة والألم، ثم مَدَّ يدًا ترتعش ليضئ المِصْباح بجواره، بينما يكرِّر الشاب سؤاله بصبر. أجابه البدري بهمسٍ متقطِّعٍ مذعور:

- عمري ما سمعت عنه.

سأله حسين عن إيفيلين وسالم الشايع، فتساءل البدري مرتعشًا:

- من الشايع ده؟ صنعته إيه؟!

ضحك حسين بسخرية وتوتُّر، وقال:

- وأنتم تعرفوا غير تجار الأعراض؟ الشايع دا قوَّاد، بُرمجي!

ردَّد البدري برهبة، فكأنه شهق الكلمة ولم ينطقها:

- بُرمجي؟!

رَدَّ عليه حسين من فوره بصراحة:

- أيوه بُرمجي.. مستغرب ليه؟!

- أنا.. ما ليش في النجاسات دي.

انقلبت سحنة حسين بغتة، وقال بشراسة:

- أنتم حاولتم تقتلوني قبل كده.. ثلاث مرات.

- تقصد مين "أنتم"؟! أنا.. ماليش دعوة بحد!

شدَّد عليه حسين بوحشية:

- ثلاثة مرَّات يا بدري، أنت أدرى مني بهم.

قال البدري بفزع من يدفع عنه تهمة مميتة:

- أنا مش أدرى بحاجة.. الله يجحمني في جهنم، إن كنت أعرف حاجة!

تقافزت شياطين الغضب على سحنة حسين. والله العظيم رأى البدري الشياطين على هيئة ظلال سود تتقافز على وجه حسين (هكذا حدَّث نفسه!)، فقال مدافعًا عن نفسه بذعرٍ وضراوة:

- إياك تكون مفكَّر إننا مش عارفين حاجة.. إحنا كنَّا عارفين أنك كنت بتصرف على المخدرات والنسوان مش أقل من ثمانين ألف جنيه كل أسبوع! نقتلك ليه؟! أنت كنت خلاص انتهيت، وإحنا ورانا بلاوي غيرك.

أطرق حسين برأسه غاضبًا، والبدري يردف بقلبٍ منقبض ووجه متجهّم:

- إحنا سمعنا عن البت إيَّاها.. لكن مالناش علاقة بالموضوع.. أنا فكَّرت أنها سرقتك.

وهَزَّ رأسه بيأسٍ ومرارة، وقال:

- أنت قتلتنا بظن السوء.. ستَّة من الكبار، على عَرَق مُومِس؟!.. وبُرمجي؟!

وجَّه حسين إليه نظرةً هائلة، أما من داخله، فكان في غاية الانزعاج. إن محاولتي الاغتيال، الأولى والثانية، مفهومتان ومُبرَّرتان.. أما الثالثة.. وهذا الكلب ينكر الآن علاقته بالمسألة كلها! الموضوع من بدايته نوع من العبث.. لكن لماذا اخترع إيلي تلك القصة وهو مقبل على الموت، ولماذا يدسّ أسماء هؤلاء السبعة من كبار العائلة؟ هل هناك طرف خفي يحاول دفعه للقضاء على عائلته؟ ثم هناك محاميه، واندفاعه لإشعال الحرب بينه وبين أعمامه. حصرته التساؤلات بين فكَّين من حديد، وغمرته بشعورٍ شائك بالقلق والضياع والكراهية، فانفتحت داخله طاقة سلبية تكفيه لتدمير العالم.

نهض وسدَّد سلاحه لرأس البدري. حدَّق العجوز في المسدَّس فزعًا، بينما يقبض حسين على أخمص السلاح بقوَّة، ويمد ساعده على أقصى استطاعة كأنه سيخرج الرصاصة بيده فيدسّها في لحم غريمه. فكَّر حسين لحظتها: هل يُعقل أن يتَّفقوا جميعًا على الكذب، في أشد لحظاتهم صدقًا مع النفس، وهي لحظة دنو الموت؟ لم يكن ينوي حقيقةً إيذاء البدري، بل أبدى غضبًا شديدًا -مقصودًا- وتهديدًا صريحًا -مُتعمَّدًا- لحمله على الخضوع من خلال الهيمنة النفسية.

ولقد نبع من بطن البدري خوفٌ أصيل، هزَّه هزًّا، فاستولى عليه ارتياعٌ قاتل،

وانضامت ثنايا وجهه كأنه يحتشد لحدثٍ جلل، ثم أطلق صرخته المجلجلة: "مِكّي.. يا مِكّي.. مِكّي..!" ظلّ يعوي بالاسم كأنّ فيه نجاته، وما من مجيب؛ لأن رجله وحارسه الأمين مِكّي رقد ميتًا في الممر المؤدّي لغرفة البدري. ولأنه ما من شيء يزيد إلا وهو ينقص، فقد أنهكه الصراخ وبحّ منه صوته، فتطلع إلى غريمه بيأسٍ كامل، وخوف باطني منهك، ثم أخذه البكاء، وجسده يهتز به اهتزازًا كالهلام. ومع بكائه أحَسّ حسين بسيطرة مطلقة على الموقف، فلانت ملامحه، وزفَرَ بحرارة خافضًا سلاحه، ثم عاد إلى مقعده جالسًا بإحباط. اعتدل البدري ونظر إليه بقلب متوثّب. أدار حسين حوارًا صامتًا مع نفسه، ثم رفع رأسه قائلًا فجأة:

- نتكلم في الشغل.

رمقه البدري متربصًا، فأردف حسين بهدوء:

- أنا لي هدف محدد، إني آخذ مكان الحاج الكبير.

غلبت دهشة البدري فزعه وكربه، وأَحَسّ في لحظة أن هذا المنحى الجديد في الحوار قد يكون فيه -مع شيء من الحكمة وحسن التصرف- نجاته. سأله حسين باتزان:

- مستعد نتكلم؟

- عايز إيه بالضبط؟

هكذا تساءل البدري بتوجُّس، وبمشاعر نقمة أهدأ حالًا لكن أرسخ قدمًا، وأشد في سكونها خطرًا. أجابه حسين باستقرار، مُتَخَيِّرًا ألفاظه بعناية:

- أنا عايز مكاني.. أنتم السبب في الموقف المؤسف اللي إحنا فيه حاليًا، لأنكم أنكرتم عليّ حقي الطبيعي في الرئاسة.. تفتكر أنا مبسوط وأنا بأنش فيكم زيّ الدِبّان؟

- أيوه!

- أيوه إيه؟!

تردّد البدري لحظة، ثم اندفع مغتاظًا يقول وما زال من النشيج في صوته أثر:

- أيوه أنت مبسوط، لأنك واد نمرود، بتتكيف بأذيتنا! طول عمرك تكره العائلة، وتحتقر أكابرها، وتعتبر نفسك أفضل منا.. شايفنا صراصير، تدهسنا، وتمسح

الوساخة عن نعل جزمتك في الأسفلت.. مِفَكَّر أنك ابن الأكابر المتعلم، وإحنا الجهلة مُحدثي النعمة.

كانت التروس تدور في مخ حسين وتحلِّل ما يسمع أولًا بأول. لم تكن صورة الصراصير هي الحقيقة في كبدها، بل كما يقول المثل: "زىّ البيض المِمَشش يتدألج على بعضه!" واستمر البدري يقول بضراوة:

- أنت تعلمت، وبقيت ضابط، بفلوس تجارة قامت على أكتافنا.. الهيلمان ده ملكنا جماعة، ولولا جبروت الحاج، كان يبقى لكل واحد مننا نصيب فيه.. لكن الشر موروث والظلم يولّد ظلم، والنتيجة هي اللي أنت شايفه دلوقت.. وأنت برضه غرضك تغيره بالظلم والجبروت.

ضحك حسين متهكمًا، وقال:

- أنت تتكلم عن العدل والتقسيم، في شيء حرام من منبعه! القضية غير متعلقة بتاتًا بالفضيلة! يا معلِّم إحنا تجار مخدرات، يعني المعاملة بالبلطجة هي الأصل.

- أنت ورثت ملايين، تقدر تعيش وتصرف منها لحد أحفاد أحفادك.. عايز إيه أكثر من كده؟!

قال حسين متوعِّدًا:

أنا بأسعى لمكاني الطبيعي، اللي هو ورث عن جدي وأبويا وأخويا، وأنتم عليكم السمع والطاعة.

ردَّ عليه البدري محتدًا، وقد أغاظته كلمة "الورث":

أنت ما تصلحش، وظروفك كلها ضدك، وكل نفر فينا بقت له مصلحته (أي أعماله)، المصلحة دي ما جاتش بالساهل، مش ورث، دي جات بخلع الضرس.

أنا لا أتناقش معاك في المبدأ.. وعلى كل حال، طالما أنكم قسمتموها ما بينكم بالبلطجة، أنا حاستردها بالبلطجة.

انفعل البدري، وقال وكأنه الناصح الأمين، محاولًا استرداد موقع النِدِّية:

- يا ضنايا، ما عادش في كبير.. اللي فاتوا، سواء أخوك أو أبوك، أخذوها في حياة

الحاج وبأمره، يعني الحكم في الآخر للحاج.. وإحنا مش حنأتمنك على أرزاقنا ورقابنا.

وطوَّر لهجته للهجوم، فقال بكلمات متدافعة خشية أن تخونه ثقته:

- إيَّاك تكون مِفكَّر إننا نايمين.. إحنا عارفين إنك قتلت جدَّك وأخوك.. وعارفين برضك أنك مبيِّت على نيَّة مش نظيفة مع الحكومة ضدنا.

عَلِمَ البدري أنه يضغط على حظه أكثر من اللازم، لكنَّه اغترَّ بسكوت حسين، وصبره على التقريع، فأقدم متابعًا وقلبه يرتج بين جوانحه:

- وبعدين أنت تعرف إيه عن ظروفنا دلوقت؟ تجارتنا بارت، والحكومة مِتركِّبة علينا زيّ ملك الموت، ومصالحنا اللي بناكل منها عيش بتجيب ضلفها.. طيِّب تصدَّق بالله؟

- لا إله إلا الله!

كانت تلك بمثابة وقت مستقطع يجسُّ فيها البدري النبض، ويستشعر إن كان قد جاوز الحدود، أم ما زال يجول في مساحة آمنة من الصبر والاحتمال، وعندما جاءت الاستجابة بتوحيد الخالق مشجِّعة، تابع بحرارة:

- أنا لسه قافل فرع شركتي في مدينة السادات، ومسرَّح جرمأ موظفين بيقدُّوا على أكوام لحم.. (وزفر بمرارة) وأنت عايز تعمل فيها كبير! عال، عال! طيِّب يا كبير.. عندك حل للبلاوي دي، يا كبير؟! المصالح اللي رأس مالها ملايين، تقدر تديرها، يا كبير؟! إن كان، (وبسط كفه داعيًا) تفضَّل.. خذ مكانك يا كبير، وشيل.

كان حسين يرمقه وقد جمد تمامًا، فعزم البدري على تزيين خطبته بخاتمة مشفقة ووَدِيعة، تضمن له الشفاعة عند هذا الصبي الأحمق، وتدفع عنه غضبه ونقمته، فقال برفق:

- وإن ما كانش، تفضَّل بالسلامة.. آديلك سنتين شايف أحوالنا بتتدهور من سيء لأسوأ، والمثل يقول: اربط الحمار جانب البئر، وتعلم من شهيقه! إحنا كده متساويين.. هم حاولوا يقتلوك، وأنت قتلت أكترنا.. ربنا يبارك لك في فلوسك، إحنا مستكفيين.

نظر إليه حسين واجمًا، ثم ندت عنه التفاتة متجهِّمة لحظه البدري، وأحَسَّ بخطئه. لقد أخطأ خطأً فادحًا، وتخطَّى حدوده، وشَحَطَ في المساومة. أيقن حسين أن البدري

يستفبيه ويلاعبه، وقلبه الحقد الأسود، فكره هذا الكلب السمين من كل قلبه. لكنّه عالج طاقاته الهدّامة بالحكمة، وأمسك عن الانفجار إخلاصًا لسياسته التي انتخبها من البداية. لهذا قال بوضوح:

- أنا سمعتك وصبرت عليك، لكن لنقطة معينة نقف، ونضع حدود.

- مش فاهم.

هكذا قال البدري بتربُّص، فرفع حسين سلاحه تجاهه، وقال دون مواراة:

- يعني عندك استعداد تسمع وتفهم، أو تموت.. هنا وحالًا.

بادره البدري مسرعًا، وقال:

- اتكلّم يا حسين يا بني.. قل غرضك إيه.

- كده أحبك.. أنا غرضي اجتماع.

- نعم؟!

أشار حسين بسلاحه، وقال بجديَّة مُشدِّدًا على ألفاظه:

- ننظِّم اجتماع على مستوي القمة، يحضره كل الكبار، في المكان والوقت اللي أنا أحددهم.

حدَّق البدري في وجهه مندهشًا، إذ إن هذا آخر ما توقَّع سماعه، واستجاب دون وعي منه تقريبًا قائلًا باستغراب:

- اللهم صل على خاتم المرسلين! اجتماع؟! تفتكر إن الكبار، يقبلوا يجتمعوا معاك، في مكان أنت تحدده؟! (وضرب كفًّا بكف) عايز تجمعهم كلهم تحت ضرسك؟! أنت انخبلت؟

قال حسين غاضبًا:

- انخبلت إيه يا رجل يا خرفان؟! أنا لما أخلَّص عليكم أستفيد إيه؟! حأبقى كبير على نفسي؟!

- أنت رجل لك وزنك في العائلة.. تقدر تكلِّمهم وتقنعهم.

بسط الرجل كفيه، وتلفَّت حوله دهشةً وقال:

- ولا واحد منهم يرضى يقابلك.. أنت بقيت بالنسبة للكل كابوس.

تبسَّم حسين وقال:

- وماله، بعض الهيبة لا تضر.

همَّ البدري بالاعتراض، لكن حسين عاجله ناظرًا في عينيه مباشرة:

- ما هُمَّ إما يرضوا، أو تموتوا.. وصَّل لهم هذا الكلام.. خذهم باللين والشدة، المهم نجتمع، وأنت مُلزَم أمامي بالنتيجة.

التزم البدري صمت العاجزين، ولاحت في عينيه نظرة مكتومة مستغيثة سدَّدها لحسين طريَّة نديَّة، لكنَّه كان كالمستغيث من الرمضاء بالنار، فلقد قال الشاب متوعدًا:

- في حالة قبولك طبعًا.. أو نشوف غيرك.

تنهَّد ولسان حاله يقول: "مُجبَرٌ أخاك لا بطل"، ولسان فمه يقول بنبرة يأس:

- أحاول وربنا يستر.

- خذ وقتك، وأبلغني أول بأول.. أنا اعتبرك من اللحظة دي من رجالي.

أدام البدري النظر في وجهه لائمًا وقد هانت عليه شيبته، ثم سأله بأسف:

- أقول لهم، غرض الاجتماع.. إيه يعني؟ أنت تعرف أن عمرهم ما عملوها، ولا في حياة الحاج.

استراح حسين في جلسته، كأنه سلطان زمانه، وقال متبسِّطًا:

- قل لهم حسين حيبقي مكان الحاج الكبير!

هَزَّ البدري رأسه آيسًا وقد علم يقينًا أن أحلام الفتى جنحت للتخريف، وأنه مهما يكن من أمر فإنه يجد في طلب المستحيل. لاح في عينيه البؤس والقنوط، وأَحَسَّ أنه انحشر في ركنٍ مظلم، ثم قال مُصانعًا:

- ربنا يعمل ما فيه الخير والصالح.

- واعرف يا بدري، إن تهديدي مش من فراغ.. اللي مكنني من عبد الحكم، يمكنني من الباقين.

سَئِمَ البدري تكرار التهديد، لكن هناك نقطة أثارت اهتمامه، فتسأل بخفوت:

- رجال عايش الحمداني.. صح؟

أومأ حسين إيجابًا بزهو، فأطال البدري في وجهه النظر بكراهية، ثم قال من تحت أضراسه:

- الله يرحمك يا حاج جوهر.. كان يقول...

نهض حسين فجأة مقاطعًا إياه بوقاحة:

- حانتظر منك أخبار.. السلام عليكم.

ودار على عقبيه مغادرًا، وتبعه النونو.. لم يمش الهُوَيْنَى دون اكتراث كعادته في المشي.. لكن مشي برزانةٍ، وتَأَنٍّ، وتمهُّل، فعكست كل خطوة يخطوها قوَّته، وسطوته، وسلطانه. ظلّ البدري فترة ينظر في باب الغرفة المفتوح، ويتابع اهتزازات ظليّ حسين والنونو وهي تبتعد رويدًا رويدًا، ثم ولّى وجهه للفراغ ساهمًا.

لقد ورَّطه حسين في معضلةٍ مستحيلة. كيف له أن يقنع أقاربه بأمرٍ كهذا؟ وهل يمكن لهذا الشاب الفاسد أن ينجح في لم الشمل مرةً أخرى؟ إن معه عايش ورجاله، بهم استطاع القضاء على عبد الحكم، بهيلمانه ورجاله. لقد كانوا جميعًا يهابون عبد الحكم، ويقدِّمون له فروض الطاعة والولاء، بل كان قاب قوسين من تسيُّد العائلة، لولا عدم اكتراث من جانبه بشأن جمع هذا الشتات الأعجف. والأدهى أن العدوي في صفِّه أيضًا. أي أن خير موارد العائلة آلت إليه.

ماذا يفعل الآن؟ خياران كلاهما أشق من الآخر. إن تعاون وقف حائط صد أمام ثورة العائلة. لن يرحموه. كاد يرى بعين الخيال «الحُجَّاج» وكل منهم يرميه بنقيصة: الكاذب، المنافق، الخائن، الجبان، الدلدول، إلخ. وإن ألحَّ عليهم فليس أرخص عندهم من الدم. الحقيقة أن اجتثاث الأقارب هواية أثيرة لدى العائلة تعلَّموها من الكبير عليه رحمة الله. بل عليه لعنة الله! ثم الخيار الثاني، أن يرفض التعاون مع حسين، وهو ما يعني الموت الأكيد. ضاقت عليه الغرفة بينما تتراوح نفسه بين هذا القرار وذاك تراوح

الغريق في طبقات الأمواج.

حاول تقدير الفائدة والأذى بعيدًا عن العواطف والحسابات الشخصية. المؤكَّد أن حسين سيساعده. قطعًا سيفعل، لو أنه يعلم مصلحته. لو أنه لوَّح لهم بعصا القوَّة الغليظة، فلن يستطيعوا معه شيئًا. سينتظر رجاله ليشاورهم، وإن وجد لديهم ميلًا واقتناعًا، فسيبدأ فورًا. لن يحتاج الأمر منهم لكثير تفكير، لأنهم لو لم يوافقوا، فسيجدون أنفسهم تحت التراب، وفوقهم حطام الفيلا.. ألم يفعلها حسين مع عبد الحكم؟ هدم قصره فوق رأسه ورجاله وأبنائه.. يا لطيف يا رب!

تفكَّر طويلًا، وللحظة تراءى له موقعه الجديد من بعيد، إن تمكَّن منهم حسين.. نعم إنها أطماع غبية، لكن ألا يحسن به أن يستغل الجائحة؟ وإن حسين سيدنيه منه. وما زال في العائلة خير كثير مما يمكن خطفه والقتال لأجله.

* * *

الفصل الرابع:

الصَرَاصِير

"المتعة نفسها بتنتهي، وبتأخذه بس، علشان تقدر تكمِّل يومك.. أنا كنت مجنونة، كنت بأشخره من مناخيري!"

حدث في حقبٍ غابرة من حياته أنه كان يهتم بما يحدث حوله في الدنيا. كان يهتم مثلًا بأخبار الفن، ويتابع مباريات الدوري بحماسٍ محتقن، بل كان يستغل تواجده أحيانًا في ستاد القاهرة لتأمين أحد الحضور المهمّين ليتوجّه بالحديث الودّي لأحد مهاجمي النادي الأهلي، فيتبادل معه وجهات النظر والسِباب في تشكيلات النادي المقابل ومدربه ولاعبيه وجماهيره.

ثم كانت حياته مع زوجته تشغل اهتمامه الأكبر بعد عمله، وعلى المحبة الراسخة بينهما كره تسلطها وتدخُّلها الدائم في أدق شؤون حياته. كان يري نفسه مظلومًا صابرًا، يحاول إرضاءها دون فائدة، ويتغاضى عن معايبه، كطبعه المتقلِّب ولسانه المنفلت. وموطن الخلاف الأكبر بين الزوجين كان العائلة: كانت تكره أباه، وتراه إنسانًا لزجًا مقيتًا، وتكره أخاه كذلك، لأنه أشبه الناس بأبيه، فضلًا عن أنه سيء السمعة والسلوك، ويصاحب على الدوام حاشيةً منحطةً يفرضها فرضًا على تجمعات العائلة، وأشد ما تكره منه فسقه الظاهر وانكشافه على الناس بالموبقات دون حياء. لكنها أحبَّت الحاج الكبير (ولها أيضًا على سلوكياته مآخذ)؛ لأنه كان يقرّبها ويكرمها، ويكون حاله معها مخالفًا لأحواله مع سائر الناس. أما حسين، فلم يكن يعلم من هو أطهر ولا أجمل منها، ومهما يتفاقم بينهما الخلاف لا تتأثر منزلتها العزيزة في قلبه مقدار ذرة، فهي ملاذه وسكنه، يَتَنَسَّم عَرَقَهَا في الليالي الجميلة، وعَرَقَهَا في الأصباح القانطة. يراها قبل نعاسه تمشِّط شعرها وتدعك يديها بالكريم المرطِّب، وترقد جانبه، وتمسّيه بالخير برقة إن كان بينهما صفاء، أو تسأله بفتور عن ميعاد استيقاظه إن كانت بينهما جفوة، ومهما تسخط عليه لا تهجره قط. تعاوده تلك المشاهد فتجشأ نفسه من الحزن والندم على كل لحظة تعاسة لم يكن لها معنى، ويفكِّر في الأيام الخالية فتبدو لمخيِّلته نعيمًا مقيمًا بدَّده بيديه، ولم يستمتع به ما دام فيه، فيناله يأس قاهر ومقت للدنيا ومن يحيا فيها.

الآن وقد جرى عليه ما جرى من أحداث، يفكِّر أن حياته انحشرت بين خانتين: الأولى تخصُّ البدري وما سيفعله مع إخوانه، والثانية تخص إيلي مجدلاني وإيفيلين فارتان ولِمَ حاولا اغتياله. وقد قرَّر نفي التهمة عن العائلة بخصوص تلك المحاولة لعدم كفاية الأدلة وعدم وجود الدافع، وعزم على تتبُّع الخيط المباشر والوحيد، وهو شبكة الدعارة التي أدارها إيلي. انشغل عنه العدوي بالمسألتين، فساح يتقصَّى الأخبار، وإنه لمّا يغيب

عنه محاميه ينقلب أعمى وأطرش، ويعدم مبررات الحركة.

كيف يمضي يومه وما يفعل فيه؟ لا شيء. يدخِّن ويشرب ويشاهد التلفاز، ثم يمكث في فراشه منقطعًا عن الناس. يثبت كالجُثَّة، وتتلاطم الأفكار في دماغه وتتغيَّر فتأتي عليها أحوال، ثم تتبدَّل فتأتي عليها أحوالٌ مغايرة، فإما أن تضنيه وتُسْلِمَهُ لإحباطٍ مريح مُجهد، أو تمزّقه وتؤلِّب عليه الأوجاع، فيتقلَّب في ظلمةٍ دامسةٍ تكاد تختلف منها أضلاعه. ويظل على تلك الحال محصورًا، لا يستطيع النهوض، ولا يستطيع النوم، ولا يظن في الوجود من هو أشقى منه.

ثم كانت ليلةٌ استلقى فيها على فراشه ناظرًا إلى السقف، حتى رنَّ هاتفه فجأة، فمدَّ يده للسماعة برفعها بخمول. جاءه صوت العدوي، فتولّاه نشاطٌ مفاجئ كمن هو مشرفٌ على الغرق فلمح طوق النجاة، وتبادل معه حديثًا مستفيضًا ختمه العدوي بقوله:

- بالنسبة للحالج بدري، عرفت أنه بدأ يشتغل.. لكن علمي عن خطواته بالتحديد معدوم.. أنت تقدر تعرف.

- إزاي؟

- الأوضة السحرية في البدروم.

تفكَّر حسين للحظة، ثم قال متعجبًا:

- تخيَّل كنت نسيت الموضوع دا تمامًا.. فهمتك، وعندك حق! (وبلهفة تابع) المهم، كلِّمني عن إيلي مجدلاني.

تنهَّد العدوي، وقال بوهنٍ في العزيمة مدروس:

- شبكة إيلي مجدلاني ما زالت محافظة على كيانها على الرَّغْمِ من موت مؤسِّسها.. المؤكد إن إيلي له شركاء كبار، أو أنه مجرَّد غطاء على اللي أكبر منه.. المسألة تحتاج وقت، وأنا ما أحبش أدخل في شيء عن جهل بأبعاده، لأن الفحت وراء الناس دي يمكن يكون فيه خطورة، وإحنا ما نقدرش نحارب في جهتين حاليًا.

التزم حسين الصمت، فخُيِّل للمحامي أن شيئًا من الاقتناع يراوده، لكن حسين قال

ببرود:

- إحنا مش حنعلن حرب، دي مجرَّد تحريات.

- أنا قدرت أصل لبعض المعلومات عن إدارتهم في القاهرة.. كلهم بيشتغلوا في مجال السياحة.. عادل عوض، وسماح عتمان، وباسم ياسين، وجورج غانم.. مؤكد نقدر نعرف منهم أكثر عن الشبكة وأصحابها.. لازم نكوِّن عنهم خلفية وافية، وهنا مربط الفرس.. حنحتاج «الصراصير».

- نعم؟!

أجاب العدوي وقد نفذ صبره:

- الصراصيريا حسين، في الأوضة السحرية.

- أيوه، أيوه، فهمتك!

- الحمد لله أنك فهمتني.. أنا حادس من الصراصير على الأربعة دول بطريقتي.. وأنت عليك أنك تِلْبَد في الأوضة السحرية، تتابع العائلة الكريمة، وتتابع البدري، وتتدخَّل وقت اللزوم.. تقدر؟

كان السؤال منطوقًا بلهجة مستفزة، تشي باعتقاد المحامي في تخاذل موكِّله وكسله، فقال حسين بغيظ مكبوت:

- أقدر، يا متر.

* * *

- السلام عليكم. معاك البدري يا حاج شهاوي.

- سلام ورحمة الله.. إزيّ حالك يا الحاج؟ كل عام وأنت طيِّب.

- وأنت طيِّب.

- ياه! كأنها سنين ما سمعتش صوتك، يا عجوز.. طيِّب تصدَّق بالله؟

- لا إله إلا الله.

- أنا علشان مكالمتك دي، أذبح النهارده عجل، وأوزَّعه على أهل الله.

- الله يكرمك.

- ثلاثة بالله العظيم أذبح عجل، وأوزَّعه على أهل الله!

- الله يبارك فيك.

- هي البركة تيجي من غيرك؟ طول عمرك الخير في قدمك يا حاج بدري.

- أنا قصدتك في موضوع يا شهاوي.

- مقضي بإذن الله.. خير؟

- أنا باكلمك بخصوص اجتماع.

- نعم؟!

- اجتماع يا شهاوي.. كلنا نجتمع.

- نعم؟!

***

كمنت قوَّة الحاج جوهر واستئثاره بالسيطرة المطلقة على مقدَّرات العائلة في أسلوب حياته. إن عمله في الداخلية لعقودٍ متتابعة كان له أكبر الأثر على طريقة إدارته لإمبراطوريته فيما بعد. تحوَّل عمله لأسلوب حياة وغاية في حد ذاته، وأثرت طبيعة الحياة الشُرَطِيَّة على فكره، وراودته برغبات قاهرة في التملُّك والسيطرة ومعرفة أحوال الناس، وبشغفٍ قديم بالتحري والمراقبة. لم يكن شغفه هذا من باب الهواية أو التسلِّي، بل صبٌّ في صميم عمله، فالمراقبة والتحري جزءٌ من حياته اليومية. ولقد بلغ في هذا المجال إبَّان خدمته الطويلة شأنًا رفيعًا. وعندما تقاعد اقتحم عمله الجديد بأساليب قديمة علمها وألف شعابها. لقد غادر الحاج الحياة الشُرَطِيَّة جسدًا، ولم تغادره هي فكرًا، لذا أسَّس بنيانه على ذات الأسس: التجسُّس وكشف خبايا البشر.

***

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. إزيّ حالك يا حاج بدري.

- الحمد لله.. افتكرت صوتي يا مِكاوي، مع إنه مرّزمن.

- زمن طويل يا بدري، لا اتآنسنا بصحبتك، لا أنت ولا حد من الإخوة.

- أنت تعرف الظروف والمشاغل.

- ربنا يزيح عنًّا.. إحنا محتاجين زعقة من نبي، علشان نقيم اللي انهد.

- لو نحط إيدينا في أيدي بعض، كله يشيل كله، والعِدِل يعدل المائل.

- من سمعك؟ بس أنت سيِّد العارفين.. قرايبك واللي بينهم، الواحد منهم مش عايز يطل في خلقة أخيه.

- وهو دا اللي أنا أسعى له يا مِكاوي.

- مسعى إيه، كفى الله الشر؟!

- إحنا لازم نجتمع يا حاج مِكاوي.

- من إحنا، اللي لازم نجتمع؟

- كل الكبار.

- نجتمع؟!

- أيوه يا حاج.. أنت لسه قايل نحط إيدينا في أيدي بعض.

- نجتمع؟!

***

ما أن استعان الحج جوهر بعائلته ليعينونه على أمر تجارته، حتى استصحب فيهم أصل الغدر تأسيسًا على ما علمه من نشأتهم وخصالهم، ووضع لهذا تكتيكين: الأول لترويض طبائعهم الغشيمة واستعصائهم الفطري على الطاعة وميلهم الغريزي للصراع والتشتت، والثاني يختبر فيهم قوَّة الولاء واليقين وأعمال القلوب، وهو مما يُستعصى على الإنسان إدراكه، لأنه مما اختص به رب القلوب. لكن الاقتراب من أعمال القلوب ممكن إن دلت عليها الأعمال. التكتيك الأول كان السِحْر. والتكتيك الثاني بدأه بزيارة للعاصمة البريطانية.

إن فضل الحياة وحيدًا في قصر الفردوس هو استكشافه. على مدى سنتين دأب حسين على التجوُّل داخل الأروقة المظلمة، واكتشف غرفًا غلب عليها الغموض لسببين:

حُسن تدبير الحاج لأموره بالكتمان، وحرصٌ من حسين ذاته على فصل نفسه تمامًا عن القصر وحياة ساكنيه إلا بما تُلْزِمُه ضرورات العمل، فغابت عنه تفاصيل كثيرة عن حياة شاغري القصر وأسرارهم. وأثناء جولاته الاستكشافية في البدروم عثر على ما يُسمى بـ «الغرفة السحرية». غرفةٌ فسيحةٌ حوت معدات تجسُّس متقدمة، ومركز مراقبة وتحكم ممتاز. وكانت دهشته عظيمة لمَّا علم أن هناك كاميرات مراقبة مزروعة في عقر كل بيت من بيوت العائلة، تنقل صورتها لشاشاتٍ متعدّدة في الغرفة السحرية. قضى فيها أول ما قضى نهارًا بليل ينقِّب في أوراق الحاج وأبيه وأخيه، وكانت من ضمنها مخطَّطات وأرقام وكتيِّب للشفرات، وإيصالات شراء وفواتير، ومواقع وجداول وأسماء. واستعاد من ذاكرته كلمات خبيثة طالما ردَّدها الحاج أمامه، وغمزًا ولمزًا مع أبيه وأخيه، عن «الغرفة السحرية» و«الصراصير».

خلال السنوات الأولى لإنشائه تنظيمه الإجرامي، رتَّب الحاج جوهر زيارةً للمملكة المتحدة ودول أوروبية أخرى، بعد أن عكف على دراسة ميدانية حدَّد منها عددًا من المتاجر المتخصِّصة في تجارة معدَّات التجسُّس. استغرقت رحلته شهرين، حطَّ منها على أرض مصر ومعه النواة الأولى لتأسيس غرفته السحرية، استطاع تهريبها عبر منافذ متعدِّدة لتدخل البلاد بأمان. ولسنين متتابعة استمر الرجل ومعه ابنه وحفيده في استيراد أجيال جديدة من معدَّات التجسُّس الأكثر كفاءة ودقَّة، والمسموح ببَيْعِها للعامة في مُختلف دول العالم.

أما مكونات المخزن الملحق بالغرفة السحرية فأشبه بجراب الحاوي: أنظمة إنذار، وأجهزة تعقُّب تعمل بنظام «جي بي إس»، ومناظير وكاميرات رؤية ليلية، ومسجِّلات فيديو دقيقة، وميكروفونات، وكواشف أجهزة تنصُّت. ومن واقع ما طالعه حسين من فواتير، لم تكن المعدَّات مرتفعة الثمن كما خُيِّل إليه. على سبيل المثال: دُرَّة أنظمة التنصُّت الأثيرة لدى الحاج، والذي اسماه «الصراصير»، وهو يتكوَّن من ست عشرة كاميرا، وعددٍ كبيرٍ من أجهزة الاستماع الدقيقة، مع نظام مراقبة متعدِّد الشاشات، لم يكن يتجاوز سعره العشرة آلاف دولار.

وبالتدريج بدأ الحاج يبني شبكته في بيوت أقاربه، فصار الرجال يتسلَّلون أثناء غيبة أهل البيت، فيدسُّون أجهزة التنصُّت وكاميرات المراقبة الدقيقة في كل مكان: في

الحمّامات وغرف النوم وغرف المعيشة والمطابخ، وفي الهواتف وعلى الفُرش وأسفل ألواح الطاولات وأظهر المقاعد وأطر الصور التذكارية وحليات الأفاريز والتحف. وصار الحاج يطّلع على أحوال عائلته في السر والعلن، ويقي نفسه غدراتهم، ويضرب ضربات وقائية وقت اللزوم، حتى حلت خشيته في قلوبهم محل أي مطمح، وصاروا أطوع له من قطيع ماعز لراعيهم.

وعلم حسين أيضًا من محاميه أن الحاج جوهر تورَّط فيما مضى في مشكلة قانونية جسيمة بسبب شحنة أجهزة تجسُّس حديثة تم كشفها في الجمارك، ووُجِّهت إليه تهم تهريب وحيازة أجهزة تنصُّت غير مسموح بتداولها دون ترخيص من الجهات المختصة، والتهرُّب من أداء الرسوم والضرائب الجمركية المستحقَّة عليها، والشروع في الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة لمواطنين وتصويرهم دون علمهم. كادت تستفحل القضية ويفوح قذاها، لولا أن تمكَّن العدوي من إخراج الحاج منها دون إيذاء يُذكر، بفضل حنكته من جانب، وعلاقات الحاج ونفوذه من جانب آخر، فتم التكتيم على القضية، وحُفِظَت المحاضر، وأفلت الحاج من عثرة، لو تمَّت لكانت فصل الختام في مستقبله.

***

ومنذ تلك الليلة، وبناءً على نصيحة العدوي، غادر حسين فراشه، وتوجَّه رأسًا للغرفة السحرية. دفع الباب المصفَّح، وضغط مفاتيح الإضاءة المتراصَّة، فسطعت كشافات الفلورسنت المتعدِّدة بومضات مباغتة متقطِّعة، ونشرت ضوءًا ناصعًا في أرجاء الغرفة. هي غرفةٌ فسيحة ذات مسطَّح مستطيل، على جانبيها امتدَّت طاولتان متقابلتان، يتراص عليهما عددٌ من الشاشات وأجهزة الاستماع ولوحات الأزرار. في صدر الغرفة وقف مكتبٌ كبير عليه خطَّا هاتف، وأمامه حاسب بنكي ضخم من طراز «آي بي إم»، يربو ثمنه على المليوني جنيه. وعلى الحائط المقابل للمدخل تراصت المسجلات الرقمية، وعددٌ من شاشات المراقبة المتجاورة، ولوحة بمكامن أجهزة الإنذار ومكافحة الحريق والأبواق والكاميرات الخاصة بتأمين القصر، مُوَزَّعة على هيئة مصابيح مختلفة الألوان على رسم تخطيطي.

اتجه حسين إلى المكتب وجلس عليه بعد تردُّد مُغالبًا غلالات الأتربة الكثيفة، ومدَّ

يده ليشغِّل الحاسب، وقام للشاشات تباعًا، وبحث عن المخطَّطات والخرائط كي يعلم أي بيت يتابع ولمن. كان في الأمر صعوبة في البداية لعدم تآلفه مع الأجهزة، وارتباكه بين مئات المشاهد وعشرات المواقع المُنْزَرعة فيها أجهزة سمعية وبصرية، كذلك وجد صعوبات في نقل الصور من موقع إلى آخر، ومن بيت من بيوت العائلة إلى آخر، لكن بعد ثلاثة أيام غادره الانزعاج، واستغرقه أمره تمامًا، وحذق التبديل والتوفيق والمتابعة.

أيامٌ عاشها في الغرفة السحرية، يأكل ويشرب وينعس، حتى إنه وضع فيها فراشًا صغيرًا، وسخَّر وقته كاملًا لها. استرق السمع والبصر في كل بيت من بيوت كبار العائلة، واستمع لمكالمات ومفاوضات طويلة، وإسهابات مملة، وعاينهم في كل أحوالهم، وسأل نفسه مرارًا: ما الداعي لوضع أجهزة استماع ومشاهدة في حمَّام؟! ألغرض أمني، أم لمجرَّد اختلاس النظر؟ وهل يمكن للحاج الكبير، بهيلمانه ومقامه، أن يقر أمام الشاشة، يهتك أستاروحرمات عائلته، لمجرد التمتُّع؟

أما فيما يخصُّه، فلم تكن مسألة الاجتماع تحتل لدى أي من كبار العائلة موقع الأولوية، بل تجاهلوا الموضوع في البداية ظنًّا منهم أن البدري يُخرِّف، فلم يحملوا حديثه على معناه، بل فهموه على وجه التهاتروالتكاذب، لكن شيئًا فشيئًا اهتموا بالأمر، فبدأت الصراعات اللفظية، وتُبُودِلَت الاتهامات والإنذارات، واشتدُّوا على البدري كلما اشتدَّ في إلحاحه، لكنَّهم -ولحسن حظه- اعتبروا أنه يتصرف بحسن نيَّة وسذاجة، رغبةً منه في لم الشمل، حتى كانت الكلمة المتداولة على ألسنتهم بهزأ هي: "من فضلك أسكت يا حاج بدري، أنت مش فاهم حاجة!"

ثم صار لديهم فزعٌ عميقٌ عندما فاض الكيل بالبدري فأبلغهم بخطورة الموقف على حقيقته: أخبرهم عن رجال عايش، وعن حقيقة ما أصاب عبد الحكم والخمسة الآخرين. ولم يَدُرْ في خَلَدِ أحدهم أن يكون حسين وراء هذه الجرائم. والآن وقد أعلمهم البدري، جاوبوه بالشك، ثم تغيَّر موقفهم للعدوانية والتشنُّج.

وعلى جانب آخر، اختلس حسين النظر لجوانب خفيت عليه في حياة هذه العائلة، وشاهد دلائل انحراف أخلاقي تعاكس ما يبدو على السطح من تحرِي الفضيلة والسيرة الحسنة. إنهم -ذكورهم وإناثهم- يتعاطون المنكرات، ويقارفون الفواحش، علاوة على

فساد حياة صغار السن بالمال الوفير والبذخ الفاحش. فكّر حسين أن ما يشاهده هو أنموذجٌ حيٌ لـ«الكرخانة»: جاريات وعبيد وراقصات وعربدة، ونقود تبذل بلا حساب. آمن أن البيوت تنطوي على المصائب وإن خفيت، وأدرك، وهو الذي عايش أحط منازل البشر، أن الإنسان يتجرَّد من كسوته البشرية التي يخوض بها دنيا الناس، ويعود لجذوره الحيوانية المتدنية إن أغلق عليه بابه وضمن سترته عن العالم الخارجي. يتحوّل عندئذٍ إلى مخلوقٍ بهيمي يطلق لغرائزه العنان دون ضابط.

في البداية استبشع حسين ما يرى، وراوده حافزٌ ملحٌ أن يطفئ الشاشات ويدع ما هو فيه من تطفل، لكن مع الوقت استمتع بما يرى وشغف به، فصار قتَّاتًا يحترف تسمُّع كلام الناس من حيث لا يعلمون. هكذا انكب على أمره أيامًا، حتى ومض من جانبٍ مظلم في دماغه خاطرٌ غريب. هل فعل الحاج الكبير هذا مع أولاده؟ وهل استرق منه السمع والبصر؟ هل اطّلع على أسرار حياته؟ هل رآه وزوجته؟! هل رأى أسْمَاء؟! يا للهول! لمَ لا؟! أولا يفعل هو نفسه ذلك الآن؟! ألا يتتبع عورات أهله، ومنهم العم وأبناء وبنات العم؟! يا للفاحشة! هل يبحث في أرشيف التسجيلات علّه يعثر على شيء؟! هل يجرؤ على هذا؟ وإن فعل، وإن عثر على شيء؟! فماذا علّه يفعل؟ إن هذا أمر لا يرفعه إلا الدم. لابد أن يقتل. ومن يقتل، وقد ذهب الشيطان الأكبر إلى الجحيم؟! والله لو حدث، ليَعُمَّنَّ هذه العائلة بالقتل، كلهم، نساءهم وأطفالهم، والله لن يذر منهم أحدًا، ولتُلعن الدنيا، وليكن كل شيء وقود جهنم.

كدَّر عليه هذا الخاطر معيشته أيامًا، زاغ فيه إدراكه، وصار يدور حول نفسه تارة، ويبحث في التسجيلات برعبٍ تارة أخرى، خشية أن.... والأدهى من هذا أخوه. إنه يعرف أخيه، وما في نفسه تجاه أسْمَاء. هذا المجرم، ابن المجرم! لعل عدة أيام مضت على أخيه اللعين إذ هو يجلس على نفس المقعد الذي يجلس هو عليه الآن، يستنشق من المخدر ما شاء ويحدِّق فيما يرى مشدوهًا، ويترحَّم على منال بعيد. آه يا دنيا ملعونة، وملعون كل ما فيك!

وكان من حسن الحظ أنه لم يجد من بين التسجيلات ما يمسّه أو زوجته، وإن وجد مقاطع فيديو لأخيه عجيبة، يقشعر منها البدن. ألم به الضيق وأحاطته التعاسة بغشائها الثقيل، وشعر بفؤاده يستعر نارًا. تلاطمته موجاتٌ من الكراهية والقتامة

السوداء، حتى كان يدور حول نفسه فيزوم كالحيوان المفترس، وتفر العبرات من عينيه من شدة الغيظ والندم، فيترحَّم على حبيبته الوحيدة، ويلعن الدنيا ونفسه، ثم ينكفئ على الفراش بعد أن تضنيه الثورة المكبوتة، ويدفن وجهه في الوسادة حتى يكاد يختنق.. يختنق.. يختنق.. ويتخيَّل: لو كان جدُّه أمامه، وأبوه، وأخوه، ليقتلنَّهم ثم يعيدنَّهم، ثم ليقتلنَّهم ثم يعيدنَّهم تارةً أخرى، ثم ليحرقنَّهم، ثم يمزقنَّهم، ثم.. وثم...

وتلوح أمامه صورة مظلمة للحاج الكبير، إذ هو محشور في قبرٍ مُضْطَرِم، تشق صرخاته عنان السماء، مستويًا على سيخٍ حديدي مبروم تأزَّجت من حوله النار، مُتَظِّمة عليه أشلاؤه لتُشوى، وتخرج من ثناياه العقارب والعناكب بكلابات وفكوك من نحاس، تقرض جلده وتنهش لحمه، فينمو اللحم والجلد كما ينمو لحاء الشجر، فتعاود العناكب والعقارب الكرَّة.

***

- اتكلِّمت مع البدري.

- قال إيه؟

- قال إنه مش موافق على الاجتماع، ولولا إنه انضّغط عليه، ما كانش اتكلِّم الموضوع أصلًا.

- وبعدين؟

- قال إنه ما يقدرش يعمل حاجة غير الدعوة لاجتماع، ماذا وإلا حيكون فيه خطورة على حياته.. لكن لو حد منَّا عنده اقتراحات، هو مستعد يسمعها.. أنا بأحاول أعمل اتصالاتي مع الناس، لكن ما حدِّش عايز يسمع أو يفهم، كلُّهم طلبوا مهلة للتفكير.. طلبت منهم التجمُّع وحدنا، نفكَّر في المشكلة سوا.. طبعًا الفكرة مرفوضة.. البدري برضك خائف ومتلجِّم.. هو عارف إن الزنّ في الطلب نتيجته مش حلوة عليه!

- أنا بأحاول أوصل معاهم لحل، لكن ولاد الهِرْمة رافضين حتى سماع الاقتراحات.

- في موقف زي ده، لازم نتَّفق على رد فعل يا شهاوي، وإلا حسين يعتبر ضعفنا وتشتتنا

علامة رضا.

- صحيح يا عاصم بك.. البدري كلمك في الموضوع؟

- لسَّه، لكني متوقع إني أسمع منه قريبًا، لأنه كلِّم كل الأطراف تقريبًا، ولا أعتقد نه يمكن يتجاهلني في موقف حساس زيّ دا.. إلا لو اعتبرني مش محسوب على عائلتكم!

- معاذ الله يا باشا.. نعلك فوق رؤوسهم!

- أنا مندهش من حجم الثقة اللي حسين يتعامل بها.. لأن الورقة اللي بيهدِّدنا بها مردودة، إلا لو كان في عبُّه حاجة مانعرفهاش.

***

- السلام عليكم.

- أيوه؟

- السلام عليكم يا عاصم بك.. معاك الحاج بدري.

- بدري مين؟

- بدري الجارحي.

- جبت النمرة دي منين يا حاج بدري؟

- إحنا عائلة واحدة يا عاصم بك.

- دي مش إجابة، بس مش مهم.. حضرتك عاوز إيه؟

- أنا حادخل في الموضوع دوغري. أنا بأحضِّر لاجتماع كبير للعائلة.

- ليه؟

- ليه إيه؟!

- ليه تحضَّر لاجتماع؟ إيه الغرض منه؟

- يا عاصم بك، الغرض من الاجتماع أن.. في ظروف جدّت.

- ظروف؟!

- مؤكَّد أنك عارف، وسمعت عن اللي حصل لـ ...

- أنت حتكون رأس الاجتماع؟

- رأس؟!

- أقصد رئيسه.. أنت اللي حتحدّد جدول الأعمال؟

- الصراحة لأ.. الاجتماع أصلًا مش فكرتي، وربنا هو المطّلع.

- من هيحدِّد جدول الأعمال؟ لازم أعرف، علشان أستعد.. أنتم مش هيِّنين، أخاف تستفردوا بي وأنا مش مستعد!

- يا بك، أنا شامم رائحة مهزأة في صوتك.

- يا حاج من فضلك خلّصني، التليفون يؤذي دماغي.

- حسين الجارحي.

- من؟!

- يا بك الكلام أخذ وعطاء.. كلمني زي ما أكلمك.

- فكرة الاجمتاع مرفوضة.. الواقع أنا ماليش بكم علاقة أصلًا.

- لو بس تسمحلي أشرح لك الموضوع، لأنه مش هيّن زي ما أنت مفكّر.. حضرتك أكيد سمعت عن الحاج عبد الحكم، واللي حصل له.. وعن الـ..

* * *

- السلام عليكم يا حاج بدري، حسين معاك.. عملت إيه في موضوعنا؟

- شغّال بيديّ وأسناني، وربنا هو المطّلع.

- مش كفاية.. ده مش المجهود اللي انا منتظره منك.

- همّ مش عاطيني فرصة.. ولازم تعذرهم.. الاجتماع ده موضوع جديد عليهم.

- أنت متكاسل، وتتصرّف كما لو كنت مغلوب على أمرك، وبتخوّفهم مني أكثر ما بتحفّزهم على الاجتماع.

- أنت إيه عرّفك أني أتحرك بتكاسل؟ دخلت جوّه ضميري؟!

- السؤال ده كنت تسأله للحاج؟

- الحاج حاجة وأنت حاجة ثانية.

- وكلِّمت عاصم عبد الهادي.

- عرفت منين؟ من أبلغك؟!

- أنا قلت، عزيز، ومرزوق، ومِكاوي، بس!

- قلت لازم يحضروا، وقلت كل الكبار، وأنا فكَّرت أن عاصم معاهم بالتبعية.. أنا مُصِر أعرف من أبلغك أنني كلمت عاصم؟

- اسمع يا بدري.. أنا مش عايز حركات تتم دون استشارتي.. عاصم لأ.

- هو رفض على كل حال.

- آخر مرة تعمل حاجة دون مشورتي.. ابن الحرام ده ما عدتش تكلِّمه مرة ثانية.. مفهوم؟ وتشد حيلك شويَّة في الموضوع.

- يا حسين خليك منصف.. أنت قلت، خذ الوقت اللي تحتاجه.

- مش ليوم الدين.. قدَّامك أسبوعين.. إما تبلغني أنكم مستعدين ومنتظرين تحديد المكان والزمان، وإما أخلص عليكم واحد ورا الثاني.. وهأبدأ بك يا بدري.

- يا حسين، أنت كده حاطط صباعي تحت ضرسك، وتجز.. المدة دي مش...

* * *

جورج غانم: مدير عام فندق «لينكد ليكس».

سماح عتمان: مدير ملهى «وايلر» الليلي، بفندق «ماديسون بلازا».

جلال السايس: مدير ملهى «سافادج جاردن»، ورئيس مجلس إدارة شركة «إمبيريو مانيجمنت».

عادل عوض: مدير ملهى «بارني نوفلز» الليلي، بفندق «نايل بارك».

باسم ياسين: مدير العلاقات العامة بملهى «سافادج جاردن».

بهؤلاء الخمسة عزم حسين على البدء، وحدَّد من قبلها للبدري مهلة أسبوعين، لكنَّه، وفي قرارة نفسه، قرَّر أن يفسح للرجل ولنفسه مساحة زمنية رحبة للتركيز على أمر الخمسة، عُمَّال إيلي مجدلاني. نشط رجال العدوي لدسِّ «الصراصير» في مكاتبهم ومنازلهم وهواتفهم والأماكن المُرجَّح تَرَدُّدِهِم عليها بانتظام، وقبع حسين في الغرفة السحرية، ومع تدفُّق التفاصيل والمعلومات عبر الشاشات وأجهزة الاستماع لم ينكشف غموض الموقف قيد حبة، حتى إنه لم يجد في جلوسه فائدة. بلغت حالته النفسية دركًا من السوء جعلته يحاول الهروب من القصر بأي ثمن، فقرَّر مغادرة مقاعد المتفرجين، والمبادرة بالحركة.. تنقَّل بين الفنادق والمراقص والخمَّارات الصاخبة في جولات مكوكية بين القاهرة والإسكندرية والغردقة وشرم الشيخ، وحَلَّق في عوالم من المجون أحبَّها بقلبه وانخرط فيها ببدنه وأعصابه، فأصبح ليله فيها نهارًا وأمسى نهاره فيها ليلًا.

ثم إنه اندمج في حياته الجديدة وانشغل جزئيًّا عن متابعة أخبار العائلة، وانْحَطَّ إلى معاقرة الخمور ومصاحبة أهل السوء، على الرَّغْمِ من معارضة العدوي الشديدة لسلوكياته الهوجاء في هذه الظروف الخطرة ومفترق الطرق الذي يعبره الرجلان الآن. انْغَطَّ في دنيا ظاهرها لهوٌ وفرقعة، وباطنها ضلالات المدمنين وعربدة الساقطات، وهواؤها جُشَاءَ السكارى وعَرْفُ البغايا ونَتْنُ عرق المومسات، وماؤها أنهارٌ من نبيذ وصَهْبَاء وشرابٌ مقطر. شاهد مجتمعًا غنيًّا فيه أخلاط من الناس يتفاوتون في المدارك والمعارف والخصال، يتفجَّر بفورة الشباب ووفرة العِزَّة والثروة، يرتع فيه فتيانٌ في عمر الزهور، وكهولٌ مترنِّحون بين عجز المتصابين وأمل بطول البقاء. ملعبٌ فسيحٌ يلعب فيه

الكل على طلاقته، بدءًا من تهريب الخمور مرورًا بالسرقة المنظمة والاغتصاب المنهجي، وصولًا لتوزيع المخدرات والأدوية المنشطة والمهدئة.

علم حسين الكثير عن أساليب العمل بين الإدارة (ومن تحتها من الراقصات سيئات السمعة والنادلات محترفات البغاء) والزبائن. استطاع الاجتماع بأربعة من الخمسة المختارين بحجج متباينة. جمعتهم خصالٌ متطابقة من الصلف والفظاظة، وكانوا شديدي الحرص. ليست بينهم علاقات مُحدَّدة السمات (سوى بعض المكالمات التليفونية الغامضة)، فكل منهم يدير شأنه باستقلالية تامة، وأغلب الظن أنهم يتبعون أساليب معقَّدة للتضليل والتنسيق فيما بينهم. لكن حسين توقَّع -ووافقه العدوي- من تحليله العام لإشاراتهم الخفية في محادثاتهم الهاتفية، أن كبيرهم واحد هو جلال السايس، فهو لا يتقيَّد بما يتقيَّدون، ويبدو مالكًا للأمر عنهم في استئثاره بالرأي وقدرته على جمعهم وتفريقهم إن شاء. وهو تكهُّن محض لا يقوم على بيِّنة واضحة، بل على مجرَّد حدس أمني وفطنة.

ثم كانت ليلة فريدة، فيها فاجأ العدوي حسين بملفٍّ سميك مُتخم بالأوراق والصور، وكلها على هيئة نسخ مصوَّرة. علم حسين أن العدوي استطاع بعد عنتٍ ومجهودٍ وتكلفةٍ باهظةٍ (قيَّدها ضمن مصروفات موكِّله بالطبع)، أن يحصل على صورة ضوئية لملف تحريَّات الإدارة العامة لحماية الآداب عن أنشطة شبكة إيلي مجدلاني في مصر. كانت مفاجأة مدهشة لحسين لم تخطر له على بال، جاءته كشربةِ ماءٍ في حرِّ الهَاجِرَة، ولم يبالِ كثيرًا بالرقم المُفزع الذي دفعه العدوي (أو قال إنه دفعه كما فكَّر في اللحظة التالية مباشرةً)، وإن تساءل في نفسه عن مدى الاختراق الذي سَمَح للعدوي بالحصول على صورة ضوئية كاملة من ملف على قدرٍ كبير من الخطورة والسريَّة. جلس الرجلان إلى بعضهما البعض بجديَّة، وعلى المنضدة المتوسطة للغرفة السحرية جعلا يتدارسانه سويًا. كان ملفًّا متكاملاً، لم يترك ثغرةً إلا وغطَّاها، مرَّت عليهما فيه ساعتان استغرقتهما فيهما التفاصيل والحقائق والصور.

لخمس سنوات تابع السيِّد وزير الداخلية القضيَّة، وأشرفت عليها شرطة مكافحة جرائم الآداب، ومباحث أمن الدولة. وُضعت شبكة إيلي مجدلاني تحت متابعة دقيقة، تضمَّنت مُراقبة سمعية ومرئية بإذنٍ من النيابة العامة، ومتابعات مسارات

الأموال، والتحري عن الإداريين والعاملين وأهم الزبائن. لم تكن الشبكة تنظيمًا هينًا، بل مجتمعًا يعيش أسفل المجتمع. تقوم الشبكة بتشغيل عمالة ضخمة، يتحكم فيها تنظيمٌ هرمي يأخذ شكل الشركة من جهة توزيع المسؤوليات والتسلسل القيادي. نواتها مُمَثَّلة في إيلي مجدلاني، مع خاصةٍ من رجاله يعملون بين القاهرة ودبي وبيروت. يحدِّد إطار العمل بالشبكة مواصفات عناصر ممارسة الرذيلة، وأسلوب إدارة المؤسسات المتعدِّدة الأنشطة، التي تغطي على الأنشطة الرئيسة المُجَرَّمة قانونًا. كان هذا هو القسم الأول من الملف، ويمثِّل مقدمةً منهجية. القسم الثاني تناول بالتفصيل هيكل الشبكة: ممارسو البغاء (العِمَالة)، وسماسرة الفاحشة (الإدارة الوسطى)، ومن فوقهم من إداريين (الإدارة العليا). تضم الموارد البشرية للشبكة قاعدة عريضة من البشر والخدمات، تلبي كافة الاحتياجات، وتصعد لآفاق لا سقف لها، فتصل للغرام الشاذ وانتهاك القصَّر.

تتألَّف الفئة الإدارية العليا من مديري المؤسسات الترفيهية والخدمية المُرخَّصة، وهم نخبة متأنِّقة، رُصِد منهم قرب المائة شخص: أطباء ومحامون ورجال أعمال وفنانون. هؤلاء نجحوا في خلق مظلة تكفل الحماية من جهات تطبيق القانون، وتيسِّر عملية غسيل الأموال في استثمارات مشروعة، تمثِّل في حد ذاتها نافذة تسويقية لخدمات الشبكة، ولا يعلوهم إلا الخمسة السابق ذكرهم، القائمين بأعمال مجلس الإدارة.

القسم الأخير من الملف يختص بأماكن العمل: ملاهٍ ليلية، ونوادٍ صحية، وفنادق، وفيلات في قري السياحية، وشقق في مناطق شعبية وراقية ومدن جديدة، إلخ. الشبكة في هيكلها أشبه باتحاد فيدرالي: كل ماخور يحوز قدرًا من الاستقلالية الإدارية، لأن القائمين على المكان أدرى بظروف المناطق التي يعملون فيها من عوامل الجذب والطرد والمخاطر. ويستمر الملف في عرض جوانب وافية عن التخطيط والتنظيم والتوظيف، وتفصيلات دقيقة عن الإداريين الخمسة الكبار، ثم فصل أخير عن إيلي مجدلاني وعلاقاته وتحركاته، وجزء من تحريات غير مكتملة عن مقتله وزوجته.

وأشارت ورقة في الملف بحتمية وجود شريك واحد على الأقل لإيلي مجدلاني؛ لأن الشبكة استمرت في العمل على الوجه الأمثل بعد وفاة مؤسِّسها دون أن ينفرط عقدها. وإن لم تؤكِّد التحريات بعد هذه الفرضية، وهي ضمن نقاط أخرى غامضة

تتصل بتورُّط الشبكة في الاتجار بالمخدرات، سواءً بشكل فردي، أو على مقياس ضخم من حيث اختصاص فئة من القوادين كتجار للتجزئة، وقيام الإداريين الكبار بتسويق المخدرات بشكل منهجي، وعلاقة الشبكة ككل بسوق المخدرات في مصر.

مرَّ الوقت على حسين والعدوي كالريح بين الأوراق والصور وأقداح القهوة والسجائر، حتى استحالت الغرفة لكهفٍ ضبابي خانق. على الرَّغْمِ من عدم حاجتهما الفعلية لتصفُّح الملف بكامله، لكنَّهما محَّصا كل تفصيلة فيه، ليس لشيءٍ إلا حب الاستطلاع. ولم يظن أيّ منهما، في أشد تكهناته جموحًا، أن تبلغ الشبكة في تنوُّع أعمالها وأرباحها هذا الحد. النقطة المهمة والوحيدة التي تحققت منها الاستفادة، هي إثبات صحة توقُّع حسين بكون جلال السايس هو رئيس الخمسة الكبار، وأنه همزة الوصل مع القيادة العليا: الشريك أو الشركاء المجهولين لإيلي مجدلاني. أحَسَّ حسين براحةٍ لتوقف الأمر عند جلال، لأنه يملك ملهى مشهورًا في ضواحي العاصمة، وهو مكان تردَّد عليه حسين كثيرًا في الآونة الأخيرة، ويعرفه جيدًا. أيضًا استقر حسين على فكرة أن السر يكمن في الشركاء المجهولين هؤلاء، وراوده في ضميره اسم قديم حاول تجاهله قدر استطاعته، ولم يقدر.

ثم أراد العدوي أن يُنَحي تلك النقطة لما هو أهم في رأيه.. العائلة. عَرَض تقريرًا مختصرًا عن تحركات البدري وردود أفعال أقرانه، وتقديره الشخصي لاحتمالات استجاباتهم من عدمها. وللأسف لم تبعث المؤشرات على التفاؤل. ما زالوا جميعًا يتَّخذون المسألة هزوًا. الحل الوحيد، في رأيه، هو الضغط على مصالحهم. اعترف أنه -على الرغم من كراهيته الشديدة للعنف- لم يجد سبيلًا آخر لزحزحة هؤلاء الناس عن مواقفهم المترمتة.

وعرض العدوي مخططًا لشن حملات خاطفة تستهدف ضرب مصالح العائلة الحيوية في أوقات متقاربة، لتكبيدهم خسائر موجعة. وافق حسين على طول الخط؛ لأن العنف سبيله المُفَضَّل، ولأن عقله ما يزال مشغولاً بالمسألة الأخرى: لماذا زجَّ إيلي مجدلاني باسم عبد الحكم الجارحي وأتباعه الخمسة؟ لإضرام الحرب بين العائلة وبعضها؟ لماذا؟! هل يستحق الأمر منه الثبات، وهو على شفا الموت؟ مجدَّدًا يبزغ اسم الشريك الغامض، وكأنه الشمَّاعة التي تتعلق بها كل الغوامض. وحال طواف الفكرة الأخيرة في رأسه أمعن النظر في العدوي وهو يتحدَّث. كم بدا له دنيئًا لئيمًا، يُبْطِنُ في نفسه أضعاف ما يظهر.

إنه يعلم أن هذا الخفّاش مصّاص الدماء يلعب من وراء ظهره، ومنذ زمن طويل. ما من شخص يمكن أن يعهده بثقته. الكل خونة. عمومًا، جلال السايس هذا يملك الإجابة على تساؤلاته، وإنه لن يدعه يهنأ بهذه الميزة طويلًا. لا بديل عن استنطاقه. وما أن استقر على قراره حتى نفخ ضاجرًا، مقاطعًا استرسال العدوي. سكت المحامي متطلّعًا إليه بتساؤل، فأشار حسين إليه وقال بسأم:

- اعمل اللي أنت شايفه صح يا عدوي.

حاول العدوي أن يتجاهل نبرة حسين المحبطة، وأخرج ورقة من حقيبته، ودفعها لحسين قائلًا:

- دي قائمة أعددتها للأماكن المستهدفة للعائلة، ومعها ملخّص لترتيب الضربات.

نظر إليها حسين بلا حماس، ثم دفعها إلى المحامي قائلًا: "تمام." فسأله العدوي مركّزًا بصره عليه:

- يعني نجمع الرجال؟

- دلوقت؟!

- لازم، لأنني أنوي البدء من بكره، لو ربنا أذن.

نفخ حسين ثم قال بسأم:

- اعمل اللي تعمله!

أخذ العدوي موافقة حسين بمزيج من الغِبطَة والتَلَهُّف وانصرف، أما حسين فقرَّر القعود الليلة عن السَرْمَحَة بسبب إرهاقٍ شديد أصابه مع السهر المستمر، فأخذ حمامًا ساخنًا، وجهّز فراشه على أفضل ما يكون.

مرَّ نصف الساعة، ثم الساعة والنوم يصارعه، ثم هاجمته الأفكار السوداء والذكريات الأليمة، ثم ذهب فكره إلى زوجته، ولم يزده هذا إلا يقظة وتعاسة. كان الأرق يمزّقه، وهو يعرف أنه لو لم ينم خلال عشر دقائق كحدٍّ أقصى، فلا نوم الليلة. نعم سينعس بين حين وحين، لكن الحصيلة من الراحة صفر.

وفي نهاية الساعتين، بينما يتقلَّب في الفراش، ويشعر بسخونة تلفحه حلَّت محل

الدفء والطمأنينة، انتابته الأحقاد السوداء. غلت وبَقْبَقَت ثم استقرَّت لحزنٍ شامل. لم يحتمل. لا معنى لأن يقضي ليلته كلها على تلك الصورة. لابد أن يخرج من هذه الغرفة المظلمة بأي ثمن. إلى أين؟ سؤال إجابته معروفة.

وهكذا استسلم وأزاح أغطيته ونهض. استحمَّ سريعًا، ثم ارتدى طاقم بذلة أرمانية، ووقف أمام المرآة يعدِّل من هندامه الفخم، ويشدُّ قامته ليضبط توكة الحزام. كان هناك ذلك الإحساس الشائك الطيِّب بالترقُّب، يصاحبه وفي ركن مظلم اضطراب وكآبة.

ساوره شك باطني بأن هذه الليلة لن تمر على خير. هل هو نذير الموت مثلًا؟ لو كان كذلك فحري به أن يراجع نفسه، ويخلع ملابسه، ويندس في فراشه. مستحيل، أبعد أن عقد النيَّة؟ إن الفراش والغرفة والقصر كله تحول في نظره الآن إلى مكان خرب عتيق، تفوح منه رائحة العرق والتراب، وتتراكم فيه الظلمة أستارًا فوق أستار.

ولم تمر أكثر من نصف الساعة حتى انفتحت بوابة القصر الجانبية، وعبرت سيارة بِنْتِلِي كونتينينتال جي تي رمادية لامعة المسار المسفلت.

***

يقع ملهى «سافادج جاردن: Savage Garden® الحديقة المتوحشة»، قرب مدينة الشيخ زايد، وهو مبنى رشيق قائم على مساحة كبيرة بارتفاع ثلاثة طوابق. لا يُغلق أبوابه ليلًا أو نهارًا، فهو صباحًا مقهى ومطعم، ومساءً خمَّارة ومرقص. لا يعرف المترددون عليه له شكلًا معيَّنًا، فهم يأتون بعد غروب الشمس ويرحلون قبل شروقها.

ومع دنو منتصف الليل وصلت السيارة البِنْتِلِي وتوقَّفت في ساحة الانتظار المكتظَّة بعشرات السيارات. نزل منها حسين وانْضَمَّ للزحام أمام بوابة المكان، مُتحمِّلًا ما يتحمَّله سائر الزوَّار من طول الإجراءات الأمنية وصلفها. اجتاز حسين البوابة بعد دفع رسم الدخول، واكتفى بأقل مرتبة للحجز عالمًا أنه سيجد بغيته جلوسًا أو وقوفًا على البار دون أن يُجَشِّم نفسه تكلفة المنضدة، ويعلم أيضًا أنه على كل الأحوال سينفق مبلغًا محترمًا على المشروبات والمُقَبلات. اطمأنَّت نفسه إلى هذا المكان عن الأماكن الأخرى التي دأب على التردُّد عليها خلال الشهرين الماضيين، فألفه وجعل يختلف إليه كلما راوده

الملل، وأنهكته الوحدة.

تجاوز مع الداخلين صالة الاستقبال الرحبة، وهي فراغٌ فخم، مُجَهَّز بطاولة للاستعلام ووحدات صالون جلدية أنيقة. كُسِيَت الأرضية بالرخام، والجدران بألواحٍ من الجرانيت والزجاج، وبعثت الثُرَيَّا المُعلَّقة بنجومها المتلألئة أضواءًا مشرقة بثَّت دفئًا وهدوءًا. وفي قلب صالة الاستقبال نُصب تكوين نحتي عجيب نُقش عليه بأحرف لاتينية غليظة: «Savage Garden®»، ونقُش أدناها بحروفٍ صغير: «الطين هو الحياة، والجبس هو الموت، والرخام هو انبعاث الروح. ثور فالدسن».

وعندما جاوز الداخلون صالة الاستقبال وانفتح لهم باب الدخول الكبير، هبَّت عليهم عاصفة صوتية ومرئية عاتية، كأنهم انتقلوا من سكون الموت إلى صخب المحشر. تولَّاهم الموظفون من عند عتب الباب، وقادوهم كل لمكانه المحدد، مخترقين الزحام والضوضاء. على ارتفاع ثلاثة طوابق امتد فراغ الملهى، توسَّطه فناءٌ مُتَّسع فيه منصة الرقص الدائرية، التي انفصلت عن مناطق الجلوس بأفاريزٍ من الأسلاك الشائكة، وغلب اللون الأسود على كل شيء، وتخلَّلته حُمْرَة قاتمة كحُمْرَةِ الدم غير المؤكسد.

يخدم الملهى ثلاثة بارات متكاملة، واحدٌ لكل طابق، ويتفرَّد الطابق الأرضي ببارٍ أكبر من سابقيه يخدم منصة الرقص والجلوس من حولها، ويتراص عليه جلوسًا ووُقُوفًا عشرات الزبائن، يقف أمامهم الساقون، ومن خلفهم أرففٌ زجاجية تنتظم عليها زجاجات الخمور وماكينات البيرة وعبوات التبغ، وأعلاهم تعريشة خشبية مُعَلَّق عليها عددٌ لا حصر له من الكؤوس الكريستالية. وعلى الطرف البعيد من البار تراصت أصناف اللحم المشوي والمحمَّرات الفرنسية والأسماك والمحار والإستاكوزا وسلاطات البار والمخبوزات المُحَلَّاة والفواكه، احتوتها أطباق مسطَّحة كبيرة تناوبت عليها النادلات لتوصيلها لأصحاب الطلب مع العصائر والنبيذ. وتشغل سائر مساحة المكان في الطابق الأرضي وما يعلوه وحدات جلوس فخمة غُصَّت عن آخرها بالبشر.

احتل حسين مكانه المُفَضَّل في بار الطابق الأرضي، وطلب قدحًا من البيرة، نزل له عملاقًا ذهبيًّا فوَّارًا. اتَّخذ متَّكأه على السطح الرخامي المصقول، والتفت متفرجًا على المكان. القلب النابض للملهى هو منصَّة الرقص الدائرية، التي تزاحم عليها جمهورٌ

كثيف من الشباب والفتيات ممن هجروا الحياء وركبوا الهوى، فراحوا يرقصون كالمخابيل. حركاتهم مشحونة بالهمّة والعزم، ومُعضّدَة بجرعات غنيّة من المنشّطات والمحفِزات العصبية، ومُحاطة بنغمات صاخبة متدفِقة الإيقاع لمدرَّج صوتي طويل اسمه: «Inferno Lucina» كما أعلنت فتيات الدي جيه الرقيعات. بُثّت الموسيقى عبر نظام صوتي هادر، فتجسّمت وأحاطت بالصالة في أبعادها الثلاثة، وهيمنت على كل شيء فيها. أما السقف فتزاحمت عليه أنظمة الإضاءة التي تبث ومضات نابضة وتأثيرات ليزرية انعكست على أبدان الراقصين ببهرجة لونية زاعقة لم تزد الأجواء إلا تهيُّجًا.

وحول المنصة، وفي أماكن الجلوس، كانت الموسيقى هي القاسم المشترك بين الزبائن، الذين إما سمعوها رغمًا عنهم، أو اهتزُّوا مع إيقاعاتها بطرب. تباينت أحوال هؤلاء في التهَتُّك، وتعدَّت المشاهد اللاأخلاقية فيهم القدرة على الإحصاء، وتجرَّأ كثيرون منهم على تدخين السجائر المُلقَّمَة، واستنشاق المساحيق المخدرة، مع ما يصحب ذلك من ثمالةٍ وعربدة، وتجاوز للسلوكيات السويَّة والقوالب الأخلاقية المقبولة، فصدرت عن بعضهم تصرفات فاضحة، وصلت لحد البذاءة في القول والفعل. وعلى انفتاح فراغ الملهى وامتداد فضائه لم يكن مستأنسًا، بل فظًّا مظلمًا، له حضور طاغٍ وكريه، فكأن صخب الدنيا وزخمها انحشرا فيه قسرًا.

أثناء زياراته السابقة للمكان، وبجانب استطلاعه الحاضرين والعاملين، كوَّن حسين صداقةً مع أحد السقاة على البار، وهو شابٌ أسمرٌ نحيلٌ لا تخلو ملامحه من الملاحة، يرتدي كزملائه قميصًا أبيض ناصعًا، على الجيب طُرِّز شعار الملهى، وسروالًا أسود قاتمًا. اسمه جمال، خرِّيج كليَّة التربية الرياضية، ويعمل في مجال السياحة منذ خمس سنوات. لم يكن الشاب يفيده في بداية تعارفهما بشيء، بل كان يتحدَّث بتحفُّظ، ويجيب على قدر السؤال، ولا يتكلم عن أرباب العمل قط، وإن حُصِر في خانة أو "زَنَاْهُ" سؤال، يجنح إلى أحاديث سريالية عائمة، وهو في هذا يضحك ويصب ويقدِّم ويَعِد وينظر ويغمز ويدخل ويخرج، وإذا ما هلَّ عليه زبونٌ يبادره بترحاب ومودَّة وحماسة قائلًا: "باشا!" كل وظائفه يؤديها بكفاءة واقتدار، ولا ينسى نصيب نفسه من التودُّد للعاملات على البار والاجتهاد لنيل الإكراميات. لكن مع تكرار جلوس حسين إليه وتجاذبه أطراف الحديث معه، وسعة يده ولطف معشره آنس إليه أخيرًا، وغادره حرصه فانحلت عقدة

لسانه شيئًا فشيئًا. علم منه حسين معلومات قيّمة ودقيقة عن الإدارة وسير العمل في هذا المكان، وعن حياته وحياة العاملات والمكاسب والمتاعب والمشاكل. أما حديثه عن أنشطة دعارة صريحة فلم يحدث، فاستقى حسين معرفته في هذا الشأن من واقع مشاهداته، ومن أحاديث متفرّقة للزبائن الثقات، وبعض النادلات والسقاة الآخرين.

يباشر الجمهور نوعان من العِمَالة: أفراد الأمن، وأفراد الخدمة. أما أفراد الأمن، فهم زمرةٌ من الرجال المتأنّقين، يرفلون في حُلَلٍ سوداءٍ أنيقة مُطرَّز على ياقتها شعار«سافادج جاردن»، مع بطاقة صغيرة مطبوع عليها اسم الفرد وصورته ووظيفته. يتّفقون جميعًا في السِحْن، فنظراتهم شرسة متفرسة ترهب من تسول له نفسه الإقدام على أي شيء، وشعورهم حليقة، وأبدانهم ضخمة، ومظهرهم العام مخيف. لم يكن وجودهم يُلاحظ بهذه الكثافة قبل عامين، حتى حدثت مشاجرة ضخمة بالسلاح الأبيض وقع لها عدة قتلى منهم رجل أعمال مشهور، فأدركت الإدارة أهمية تأمين المكان. مهام أفراد الأمن تنحصر في حماية الجمهور والممتلكات، ومراقبة أنشطة العاملين والضيوف، وتنظيم حركة الدخول والخروج، والتدخُّل لفض المشاجرات، والسيطرة على السكارى والمتهيّجين، وحماية الساقيات من التحرُّش أو تقديم مفاتحات جنسيَّة منحطّة وغير مرغوبة. وأسوأ ما يواجههم مطلقًا البنات إذا ثملن، فإن عزمن على إتيان فعل فاضح يضج المكان بالثورة والهتاف والتشجيع، وإن عزموا على السيطرة عليهن فلن يتأتّى هذا بالضرب بطبيعة الحال، لأن ضرب الإناث محل نظر، وسيجلب سمعة سيئة للمكان، فيحتاج الموقف لقدرٍ من الحذق لتجاوزه. ومهما يكن من أمرهم وواجباتهم الوظيفية وحسن هندامهم، فهم بلطجية؛ لأن طبيعة العمل تتطلب البلطجة. نوبة الحراسة الأهم هي تلك في فترة الذروة بدءًا من التاسعة مساءً حتى الخامسة صباحًا، وفيها يتقاضي فرد الأمن الواحد أجرًا عاليًا بالساعة، وإن كان ثَمَّة دعارة في المكان، فلا بديل عن تدخل هؤلاء لحفظ النظام وحماية التجارة، ولهم في هذا المجال أجور مخصوصة.

الفئة الثانية من العِمَالة هي الساقيات، وهن لا يعملن فقط في السقاية والتنظيف، بل هن موظفات، وساقيات على البار، وراقصات في الردهات الخاصة، وعاهرات في الداخل والخارج. يتحرَّكن في أرجاء المكان كالنحل الشغَّال، يعددن الموائد للوجبات، ويرفعن الأطباق، ويقدمن الشراب والأطعمة برشاقة، ويجالسن العملاء عند الطلب.

هن دُرَّة الملهى المكنونة، يطفن برشاقة بين الطاولات برداءٍ جلدي قاتم الحمرة، فاضح القِصَر، يكشف مكامن الجمال الحسيّ فيهن بجلاءٍ يخدش الحياء. يحملن صحائف سوداء لامعة بحوافٍ مضيئة، ويمشين متثنِّيات اللين متعمِّدات له في خيَلاء، تتبعهن ريحٌ طيبة أينما حللن ومررن. كلهن حسناوات الخلقة في استواء، يشتركن في طول القامة وخفَّة اللحم وصفاء البشرة. اجتمعت لهن أيضًا المحاسن المعنوية، فهن غانيات حاذقات، يمتزن بالذكاء المتَّقد وخفة الروح ورخاوة الخلق. يتعاملن مع الجمهور المفتوح بدفءٍ ولطف، فيشعر معهن كل زبون بخصوصية مُرْضِية، وتكفيه الابتسامة العذبة أو الاستجابة الحُلوة لمداعبة أو النظرة المشاغبة كي يطلق يده في الإكراميات. وبينما يظهرن حسن الضيافة، يبدأ السحر الرومانسي في العمل، فيطلب الزبائن هذه وتلك للمجالسة، ولا تصح المجالسة دون شراب، ولا يصح الشراب إلا بزجاجة كذا التي لا يقل سعرها عن كذا، فتلوح من بين الزحام البنت المختارة تتهادى رافعة الصفيحة اللامعة بالزجاجة الثمينة، ثم إذا بها تميل فتضعها للزبون.

وما أن تجلس الشابة إلى الزبون حتى يحل على المنضدة سكونٌ حميمٌ، فيتناول طائريُ الغرام العشاء مع نبيذٍ فاخرٍ وسيجارٍ ممتاز، ولا تزال الغانية تتكلَّم حتى يخرج أول ضوء من الفجر. ولكل منهن قصة مشوِّقة مشوبة بالعاطفة والرغبة، فهذه يدللونها بـ"خوخة"، وهذه "نظراتها حرَّاقة، وجسمها يجنن، ودمها خفيف"، وهذه "أحلى من الكريم كراميل!"، وهذه حلمها أن "تغطس في بانيو يمتلئ بالحليب"، وهذه تريد أن "تعاشر رجلاً الآن، وحالاً، ولو من تحت المنضدة!"، وبين هذه وتلك لا ينفض الحديث، ولا تنضب لهن أسلحة. إن راقت البنت للزبون يتم الاتفاق معها على مقابلة حصرية بالصباح، ولابد أن تكون بالصباح إذ لا يُسمح بالتغيُّب عن دوام العمل، وإن أصرَّ الزبون على الليل تستأذن الإدارة وغالبًا يُؤذن لها، لأن نسبة النصف من الأجر تذهب للإدارة، فتتغيَّب عن العمل ليوم أو يومين، تمارس فيهما الدعارة بدوامٍ كامل، وتجني من وراء ذلك رزقًا كثيرًا، وتتبع تعليمات صارمة: فلا تذكر اسمها الحقيقي، ولا تنجرف لعلاقات شخصية، ولا تسيء معاملة الزبون ولا تزعجه ولا تسرقه، ولا تتحدث لأحد من زميلاتها أو معارفها عن أي معلومات يقدِّمها الزبون عن قصدٍ أو دون قصد، سواءً كان في كامل قواه العقلية أو مسطولاً، وأخيرًا لا تخرج مع زبون مرتين، مهما كانت الأسباب.

وبين دوام العمل على البارات والطاولات، ومجالسة الزبائن ومصاحبتهم، تُستدعي الفتيات دوريًا للترفيه عن قِلَّة من الزبائن أصحاب الثِقَل والثِقَة. فتضع ما في يدها وتهرع مسرعة إلى غرفة تغيير الملابس لتهذِب نفسها وتزيل عنها عرق العمل وحرّه، وترتدي ثوبًا مُفَتَّلًا فاضحًا، وتسرع إلى الردهة الخاصة لتبادر الزبون المُضْطَجِع على الأريكة الوثيرة بالتعرِي، وترقص بين يديه ما شاء بقيمة ما دفع. وتفضِّل الفتيات معاشرة الزبائن في الردهات الخاصة عنه بالخارج في الصباح، لتوافر الأمان التام، ولأن النصف ساعة تجازي ما قيمته يوم عمل بالخارج، ويتاح لها قضاء النهار في راحةٍ أيضًا.

ليس للملهى طاقم عمل ثابت، فالبنات يأتين ويذهب طوال الوقت، وأقدم العاملات لا يتجاوز مُكوثُها في المكان سنة، لذا وضعت الإدارة مواصفات خاصة لغربلة المُرشحات، وهن كثرة. تملأ المتقدمة نموذج التوظيف ببياناتها الشخصية، ومقاييسها البدنية، ووصف لشخصيتها وطموحها، وخبراتها السابقة، وحالتها الاجتماعية والدراسية (ولا يقبلون أقل من الثانوية العامة)، وهواياتها، ويرفق مع الطلب فيش جنائي، وثلاث صور بتاريخ أقصاه شهر فائت، بلقطات قريبة للوجه، ولقطات بالحجم الطبيعي للجسم. وإن اجتازت المتقدمة المرحلة الأولى تُعد لها الإدارة كشف هيئة، فتقيِّم حنكتها وحسن تصرفها، وقدرتها على إدارة حديث عقلي رشيق بسلوكيات تعامل معصومة من الخطأ، والحقيقة أن التعنت نادر بخصوص هذه الجزئية، فمع استشعار الاستعداد والموهبة يتم القبول، على أن تكتسب البنت خبراتها خلال تدرُّجها في العمل، ويُبرم عقدٌ لمدة سنة بحد أدنى. وفي المقابل تقدم الإدارة بيئة عمل آمنة، وتأمينًا صحيًا كاملاً، وبدل انتقال محترم، وحوافز مستمرة، وتتكفل بإطعام طاقم العمل يوميًا.

وعلى ما يشمل حياتهن من امتيازات ظاهرية، فإن واقعهن مرهقٌ وكريه. يعملن ستة أيام في الأسبوع، ويعتصرن مواهبهن للحد الأقصى قبل أن تتبدَّد بالتقدم في السن. لابد أن يقبلن كل عرض، ويدَّخرن كل قرش، ويستفدن من كل امتياز أو هدية، ويستهلكن كل نقطة شراب أو لقمة طعام تُقدَّم لهن. هن خائفات من فقد كل شيء، فيتشبثن بأي شيء، بالبراثن والنواجذ. كثيرٌ منهن حمقاوات، جرى المال في أيديهن وأفسدهن، فعكفن على الكحوليات والمخدرات، وأنفقن مدخراتهن على الملابس والكماليات، ويعود هذا غالبًا للأصول المتدنية للشريحة العظمى منهن، فلا يفقن إلا وهن غارقات في الديون،

وينحدرن لأعمالٍ ذات معايير أشد انحطاطًا.

***

امتد الزمن بحسين وهو يحدِّق في الناس والعاملين بنظرات وقحة، وأدار مباريات سمجة من تبادل الحملقة مع غيره ممن يحبون الحملقة، حتى وصل لسمعه من جانبه صوت أنوثي نقي، يقول بيقين:

- أحب الفطار في «Budget Diner» في المعادي.. محل صغير وجميل، بيقدِّم وجبات إفطار ممتازة.. هناك تلاقي أكل نظيف، وهدوء.. الفاكهة طازجة، والمخبوزات ساخنة، وأسعاره معقولة.

التفت حسين ببطء إلى المتحدثة، وكانت شابة جميلة تحادث الساقي جمال، وكانت حواراتهما أمرًا مألوفًا نظرًا لأن مستقرها الدائم عند منطقة هذا الساقي بالذات، وقد رفعت التكليف بينه وبينها، فيناديها «سما» أو«سي» وتناديه «جيمي» أو«جينا». تساءل جمال عن أفضل مكان في رأيها تتناول فيه الغذاء، فقالت مقرِّرة أمرًا بديهيًّا:

- الغذاء في البيت، لا يمكن أثق في مكان يقدِّم لحوم إلا بيتي.

- أفضل مكان to have a drink؟

- «Local Ninety Nine» في الزمالك.. تقدر تسميه منطقتي.. وسيبك من الزبالة اللي بتقدِّموها هنا، أنتم خدمتكم سيئة، وكوكتيلاتكم رديئة.

تبسَّم الشاب الأسمر، وشكرها على صراحتها وهو يعيد ملء ثلاثة أكواب مكتنزة بخليط من عصير الفواكه والجِن، ثم سألها عن أفضل مكان للرقص، فأجابت:

- أنا ما أحبش الزحمة، أنتم هنا بتحاربوا، مش بترقصوا.. بص (والتفتت مشيرة إلى المنصة) الناس دي لو تكاثرت على فيل هائج يقتلوه.. مكاني المفضل «Resurrection»، مجرَّد بدروم في المعادي.. تقدر تلاقي فراغ تتحرك فيه، لكن للأسف الأكل والمشروبات عنده سيِّئة.

نظر حسين إلى جمال مستطلعًا رد فعله أو سؤاله القادم، لكنَّه شُغل عنها بصب الفودكا تونيك لأحد جيرانهم في الجلسة، فالتفت حسين إليها، وسألها ساخرًا:

- أمال بتيجي هنا ليه، إذا كان الزحام حرب، والكوكتيلات رديئة، والأكل زبالة؟!

رمقته دون اكتراث، وعادت لشرابها ترشف منه بأناة، وعندما التفت الساقي إليها، سألها باهتمام:

- moments of clarity؟

- في الستوديو في البيت.. بيطل على جنينة صغيرة، بس جميلةً، ومزروعة بشجرة مانجو، وورد.. لكن أعتقد أن ينقصني قطة أو كلب.. كنت اسميه «Hannah».

أسند حسين وجنته على كفه، وسألها:

- إيه منعك تشتري قطة؟!

أجابت وهي تدير مصاصة الشراب في كوبها، دون أن تنظر إليه:

- الوقت مش مناسب.. حياتي مشغولة، وما أقدرش أوفر الحب أو الفراغ لقطة! الموضوع يحتاج التزام.. القطة يمكن يجئ لها نزيف، أو يحصل لها حمل كاذبا وتحتاج عناية ومتابعة.

سألها جمال مشيرًا لأحد الجالسين بأنه قادم:

- أكثر شيء تكرهيه؟

وتركها فورًا، فانتظرت حتى تحدَّث مع زبونه، وضحك معه ضحكتين، وصبَّ له، ثم عاد وفي عينيه مايزال يلوح التساؤل، فتنهَّدت وقالت:

- أكثر شيء أكرهه، الأسمنت والأسفلت.

- وضّحي من فضلك.

قالها جمال منتبهًا، فأردفت مفسِّرة:

- هنا، الأسمنت والأسفلت في منتهي القبح.. لو تنزل للشارع، بقيت في حالة حرب.. أنت في القاهرة مش بتسوق عربيتك، لكن تحاول الدفاع عن نفسك.. على سبيل المثال النهارده، كنت في شارع البطل أحمد، وكان واقف كالمعتاد.. ليه؟ أتوبيس أجرة جماعي، واقف ينزل ستات عواجيز، شايلين قُفف وشنط، ومعهم أطفال.. طبعًا فيها خمس دقائق، وكلكسات، وشتائم.. سوَّاق عربية نصف نقل نزل يخبط على جانب الأتوبيس

ويزعق: (وأخذت تقلِّده مراعية الغلظة في مخارج الألفاظ) "اطلع يا أسطى، يلعن ميتين أمك!".. سوَّاق الأجرة الظاهر إنه ألدغ، طل برأسه وزعق هو الثاني: "اثتم يا أثطى.. بث أنا معايا نثوان كبيرة." والتبَّاع نزل يسب، والركاب يزعقوا، وتحولت لخناقة وسب دين، واللي يهتف: "ده شيطان، والله العظيم ده شيطان!." الأخرسانق النصف نقل فضل يهلِّل: "آه يا بلد وسخة." والأمين واقف عند الإشارة يتفرَّج، بعد مدة تدخَّل، لكن الظاهر أنه فكَّر يستنى لحد أما أطراف المشكلة يقضوا على بعض، وهو يدخل يسحب رخص.. فهمت قصدي؟

وضحكت فضحك الساقي، وابتسم حسين، فتابعت:

- في نيويورك، على الرَّغمِ من الكثافة السكانية العالية، تقدر تلاقي مساحة، أو فناء لطيف في كل حي.. تقدر تقعد وتقرأ كتاب أو مجرد تستمتع بالهدوء.. بلحظة سكون.. دي الـ quality of life.. صعب جدًا تلاقي مدلول المصطلح ده هنا.

سألها حسين متصنِّعًا الاهتمام:

- أنت رحت نيويورك؟

أجابته بفتور ناظرة إلى الساقي:

- تفتكر أنا هأتكلم عن جهل؟

أدرك حسين أنه لا يمثِّل طرفًا في الحوار. لقد أقحم نفسه على مائدة الغرباء دون دعوة، كدأبه منذ اتخذ تلك الأماكن مزارًا. أحيانًا تصمد محاولاته للمقاومة وتُكَلَّل بالنجاح، وغالبًا ما تطيش، فلا يخرج منها إلا بصورة عن نفسه وأمام محدِّثيه بأنه طفيليٌّ متسلِّق، وجوده الاجتماعي مُكرَّس للسماجة والتملق. ولا يمكن الادعاء بحذقه في التواصل مع البشر، على الرَّغمِ من تعلِّق الناس به إذا ألفوه، فيصير وجوده إذ ذاك ممتعًا لطيفًا، دون تعارض مع شخصيته الكئيبة الرافضة. ومع محاولاته الفاشلة، وجدران الصد التي يجابهها، يهوِّن بنفسه على نفسه بضحكة داخلية هازئة، أو يائسة، أو بائسة، ويكرِّر تساؤلًا مريرًا: "ألا تكف أيها العالة؟!" ومع هذا لا يكف. تغلبه وحدته وتلهُّفه على صنع صداقات سريعة في تلك الأماكن، تملأ صندوق الأسرار بإجابات شافية من جهة، وتملأ حياته المجوَّفة بالحيوية من جهة أخرى. لكن هذه المرة أحَسَّ أنه حاول

بما فيه الكفاية، فانسحب كما ينسحب الثور من سجال للفحولة، دون أن يلاحظ نظرة جارته المتفرِّسة التي حدَّجته بها ما أن التفت عنها، ولا بسمتها الرائقة المشفقة، ولو رأى لحشر أنفه، وحشر أنفه، وحشر أنفه! وعلى كل حال لم يستمر شعوره السيء لأكثر من لحظة، لأنه ما أن حوَّل نظره حتى أبصر ما استأثر باهتمامه ومشاعره جميعًا.

جلال السايس، المدير الإقليمي لـ«سافادچ جاردن» القاهرة، ورئيس مجلس إدارة «إمبيريو مانيجمنت»: شركة للبرمجيات المتخصِّصة في مجال التسويق السياحي. تعتبر شركته بمقرها الرئيسي في القاهرة، وأفرعها ببيروت ودبيّ والدوحة، القلب النابض والإدارة التنفيذية لشبكة إيلي مجدلاني، وهي لا ترتبط بالدعارة بشكلها المهني الفاضح، ولا بمجالات العمل المصاحبة المشبوهة، بل تختص بالتعاملات المالية، وإدارة مؤسسات الشبكة الاستثمارية، ووَضْعِ خطط التسويق، والتوزيع القطري للأنشطة. بحكم منصبه الحساس يلم بكل صغيرة وكبيرة وكل مليم يدخل ويخرج من الشبكة.

أقبل مقتحمًا الحشود مع زُمْرَةٍ من موظفي الإدارة. رآه حسين من قبل عدة مرات، ولم يميِّز له ملامح، بل عرفه من سمته البدنية المتفردة. لم ير كمثله في سمنته أحدًا، فهو مُتورِّم الذراعين والساقين، عظيم العجيزتين، اكتنف اللحم وجهه فأضاع كفاية ملامحه. به فتور في الحركة، فكان ينقل أعضاءه بعسر كأنه طفل لم يمض عليه في السير أيام، حتى يُخيَّل للناظر أنه كتلةٌ وخيمةٌ تزحف مخلِّفة في دُبُرها بقعًا لزجة. كان جسيمًا رخيصًا، بذيئًا كريهًا، عكرًا فظًا. أحاطت ببدنه حُلَّة بيضاء لامعة، وكان مظهرة في حلته باعثًا على العجب والتعارض، إذ كيف يتأتَّى لشخص كهذا أن ينزل لدنيا الناس؟ وبحلة بيضاء؟!

أتبعه حسين طرفه مسحورًا، حتى وصل لركنٍ مرتفع عن مستوى المكان بأربع درجات، مُخصَّص له تحسُّبًا لقدومه في أي وقتٍ من ليلٍ أو نهار، وعليه وحدة صالون فاخرة، خلفها نُصِبَت جدارية باذخة من النحاس الأحمر تبرز عليها صياغة نحتية متقنة لـ«باولو» و«فرانشيسكا» يتلوَّيان في الجحيم، عن لوحة «جوستاف دوري»، ومنقوش عليها بحروفٍ قوطية كبيرة:

Lasciate ogne speranza, voi ch'intrate

Abandon all hope, yes who enter here

ارتقى جلال الدرجات الأربعة بمشقّة مرتجًا من سمنته، ومعه حاشيته، وانتقى الأريكة الوسطى، وحنى جذعه ليجلس ببطء، وعدَّل من جلسته حتى اتخذ وضعه الأمثل في الراحة، مبعدًا ما بين ساقيه. كان جاثمًا على البطانة اللينة فكأنما انشفط إليها، أو انشفطت فيه، حتى تكاتل هو وأريكته في تكوين وعر متَّحد. ونزل له فورًا دورقٌ للثلج تزيّنه زجاجة ويسكي أنيقة، فتحتها له إحدى الساقيات، ومالت له قدر الإمكان كي يلقي نظرة وافية على صدرها وهي تصب له، لكنه أخذ الكأس وصرفها بجفاء. ثم جاءت الوفود متتابعة تعرض عليه شؤون العمل كلّ حسب تخصصه، وأدلى خاصته من أهل الملهى وأفراد الأمن بدلوهم فيما يتعلق بأحوال العاملين والزبائن، ثم جاء مدير الحسابات ومدير العلاقات العامة، وجلسا إليه طويلًا بما معهما من أوراق وحاسب دفتري، وكانا في حضرته يتراوحان بين الحياء والأدب، فيستمع إليهما برهة، ويسكتهما أخرى مرسلًا نظرة مستطلعة لئيمة، يعاين بها تصرُّفًا معيَّنًا من الزبائن أو السُقاة، أو يتابع بها نادلة تقطع المكان ذهابًا وإيابًا كالفراشة، وإن لاحظته إحداهن فلا بديل عن إظهار لين العصب وحسن التثنّي، لأنه إن طلبها فتلك ساعة ابتسم لها فيها الحظ، فمن حسن شمائله سعة ذات اليد عند الرضا.

كان يتصرَّف بسمت المالك المطلق، فيحادث هذا متعجرفًا، ويشير لذاك متكبرًا، وينهر تلك متسلطًا. تكفي النظرة منه لإحداث تأثير رادع مفجع. وعلى ما يسود المكان في الأحوال العادية من نظام ونشاط، فإن تواجد هذا الرجل أضفى حيوية لا تتكرر بغيابه، لأنها حالة روحية تكتنف المكان، فتبث فيه الحماس والحمية وحب العمل وإعلاء قيمة الإتقان. وبين التوبيخ والتقريظ، والنظرات العابسة ودلائل الطاعة والانقياد، يتحلَّق حوله العاملون وأفراد الأمن، كما يتحلَّق النمل حول ملكة المستعمرة كبيرة البطن.

ولقد التفت حسين بجسمه كله تاركًا شرابه، موليًا كافة اهتمامه لهذه الظاهرة الجديدة، ومقارنًا بين صورة الزعامة المطلقة هنا، وتلك التي كانت للحاج الكبير، وكم بدا التشابه جليًّا. ثم بدا له خاطر غريب.. كيف يستطيع هذا الفيل أن يجامع النساء؟! إن سحنته وهيئته تنضحان بروحٍ شهوانية، لكن الجماع على تلك الصورة معضلة عسيرة. كيف تحتمل أي امرأة سويَّة هذه الصورة المنفِّرة القبيحة؟ لابد أن يكون مبررًا

قاهرًا، ذلك الذي يدفع امرأة لمعاشرة هذا الفيل. ولابد أن رجلًا كهذا يجد حتمًا من تتعامل مع إرهاصاته البدنية الصعبة.. أوليس لكل شيء ثمن؟ بفرض أنه طلب أحد هؤلاء النادلات الآن، هل سترفض؟ هل ستقول: "ابتعد أيها الخنزير، أنت سمين جدًّا، وربما تقتلني تحت ثقلك؟" كلا، إنها ستُدَلِّعُهُ، وستسلب ملابسها بين يديه، وستعكف على بنيته الدهنية حتى تشبع رغبته، وستتظاهر بالسعادة والارتواء ما دام معها، حتى يذهب عنها، فتستعيد الصور الأليمة، وتعلم أن مضغ لحم الجيفة أو لعق بطون الصراصير أحب إليها من معاشرة هذا الرجل. وجد حسين نفسه يمقته، وأحَسَّ أنه يُجسِّم كل ما هو قبيح ومبتذل في هذه الدنيا، وتمنَّى لو يغمس هذا الحلّوف في الجحيم غمسةً واحدةً! لا بد أن حسين قد ركَّز عليه النظر بإلحاحٍ وكثافة، لأن الرجل لاحظ، وبدأ يرفع عينيه بين اللحظة والأخرى ليتفرَّس في وجهه وبدنه، على بعد المسافة بينهما، وكثرة المتداخلين في مسار النظر.

* * *

"أولَع يا أستاذ!"

سمع حسين هذه العبارة بصوت جارته، وكانت تتحدَّث بسرورٍ ولطف، فالتفت إليها مندهشًا، ورآها وقد دسَّت بين شفتيها المطليَّتين سيجارة سمراء طويلة العود.. قال دون اكتراث وهو يعمد إشاحة وجهه عنها:

- اطلبي من جينا يولعها لك.

"جينا"، كما سَلف الذكر، هو اسم التدليل الذي يعتاد الكل مناداة جمال الساقي به، وكان حسين يأنف منه في البداية ويراه مُزوَّرًا ومُضَلِّلًا، لكن لما عرف أن للكل هنا كنية أو لقب، ولما بدأ معارفه ينادونه بـ«سحس» و«إتش»، فصار «إتشًا» بين «چينا» و«مَيلو» و«ناني» و«چيني» و«أني» و«ميدو» و«تُم تُم» و«بيسو»، حتى تكيَّف مضطرًا كما تتكيف السحلية مع ضوء الشمس الحارق، وأخذ اسمه الجديد مع سائر الأسماء كبلية مُسلَّم بها. ولقد سمعها تقول منكرة:

- ما تبقاش جلياط! ولع لي السيجارة يا إتش.

تنهَّد وأشعل لها السيجارة. انشغل فكره بهذا الرجل السمين، وكيف عساه أن

يصل إليه. هل يسأله مباشرة عن إيلي مجدلاني؟ لكن النيل منه يبدو مستحيلًا، مع أولائك البغال المحيطين به، وإنه يجلس كالأسد، يحمي أرضه وهو مضطجع على بطنه. الاقتراب منه عمل يحتاج لرباطة جأش، وأعصاب من حديد، وشيء من الحنكة وحسن التصرف.

ثم انتبه إلى جارته وهي تطلب إعادة ملء كوبها بما يُسَمَّي «One The Dark»، وهو كوكتيل من ثلاثة مشروبات شديدة. ولم يمنع نفسه من أن يلقي عليها نظرةً شاملة. كانت تدخن سيجارتها السمراء باستغراقٍ تام، وبدا على عينيها شيءٌ من الذهول، فعلم أنها إما في طريقها للثمالة، أو أنها مُخدَّرة. ولقد انتبهت فنظرت إليه مباشرةً، ثم سألته باسمة عما به، فقال:

- النهارده أنتِ في منتهى الشياكة، على غير العادة.

سألته بابتسامة فاترة:

- دي مجاملة، ولا قلة أدب؟!

هذه هي سَمَا، شابة في أوائل الثلاثينات، غريبة الأطوار، ذات علم وحلم وفكر ونباهة (كما تعتبر نفسها)! حصلت على درجة الليسانس من قسم اللغة الفرنسية في كلية الآداب، ثم حصلت على دبلوم الترجمة الفرنسية. التقاها حسين عدة مرات في معرض تردده على المكان، وتبادل معها ومع صديقاتها الحديث بشكل عارض، ودعاها إلى الشراب عدة مرات. طويلة القامة، ضخمة البدن مع اعتدال، اجتمعت لها آيات الحسن والميوعة، وغلبت عليها دلائل الاستهتار والدلع. ناصعة البياض تميل للامتلاء، شعرها مُمَوَّج وملفوف بمهارة، ووجهها طويلٌ وافي القسمات، بعينين كما قال الشاعر "يشكو الهوى بجفونها." ارتدت فستانًا أسود لامعًا من شيفون الأمبريميه، بحمالتين رفيعتين وفتحة صدر واسعة، كشفت مساحة من بياضٍ نقي كالفضة، ثم انسدل الفستان قطعةً واحدةً حتى غطَّى بالكاد الركبتين. انحدرت ساقاها إلى قدمين ناعمتين في صفاء الحليب، تبدو عليهما مخايل العناية بالذات والرفاهة، سترتهما في حذاءٍ لطيفٍ مُدَبَّب الكعب.

جزم حسين أنها تعمل في الإدارة؛ لأن صلاتها وثيقة بأغلب العاملين والزبائن، فلا

يمر عليها أحدٌ إلا ويحيّها بمودَّةٍ مريبة، وإن طلبت فلها الأولوية، وهي لا تنتظر قط عند المدخل، ولا تدخل من حيث يدخل الجمهور، ووقت الغضب لها سطوة شاملة. ما من شخصٍ ولا مجموعة إلا وتملك حق اقتحام شملهم ومشاركتهم أحاديثهم بخفةٍ ولطف، فلا تمر الساعة حتى كأنّها منهم. وكانت مع هذا تجلس وحيدة أغلب الوقت، تجتذب أطراف الحديث مع الوحيد الذي يبدو فعلًا صديقها وهو جمال الساقي. ولما كان حسين هو الآخر لا يُحادث إلا الساقي، فقد جمعت الظروف ثلاثتهم في الحوار، الذي قد ينحاز إلى نميمة سامة حول كل شخص يمر عليهم، فتتحدَّث عن هذه المُحاسبة المحترمة التي تعمل في شركة سمسرة أجنبية، وتضاجع أحد مرؤوسيها في بيته بمدينة الرحاب، أو عن هذه الممثلة الصاعدة التي نامت مع كل من هب ودب، حتى "طوب الأرض"، أو عن هذا الجربوع العامل في الشهر العقاري، والذي يصل دخله شهريًّا إلى ثلاثين ألف من الجنيهات، يبدِّدهم هنا متجنبًا شبهات الكسب غير المشروع. يتابع حسين أحاديثها بإخلاص؛ لأنها جميلة جدًّا، وغير عادية، ذات طبع متقلِّب: تَارَةً مقبلةً رقيقةً، وتَارَةً مُدبرةً مُنَفِّرَةً. تَارَةً لطيفةً ودودةً، وتَارَةً صلدةً متغطرسةً. كان حسين يلحُّ في محادثتها، ويقبل عليها إن رآها، ويسعد إن خصَّته بحوار، لكنها كثيرًا ما كانت تجهل عليه وتسرف في الاستخفاف به، وقد صارحها مرة أنه يبغضها، ثم تركها ومضى. وسبب آخر ينفِّره منها وهو طولها. إنها أطول منه، وهو ليس قصيرًا، وإن هذا يشعره بعُلُوِّيدها عليه، ودنو منزلته عنها، خاصة إن تحادثا على الوقوف، فيضطرُّ عندئذٍ إلى رفع بصره إليها.

تمتد غرابة أطوارها لمظهرها، فإنها وإن كانت متأنِّقة اليوم، فأحيانًا تأتي وقد وضعت على بدنها التقاليع الغريبة، والألوان المتنافرة، ثم إنها تقرض أظافرها، وتتَلَفَّت طوال الوقت بحركة عصبية بحتة، حتى يظن محدثها أنها ستموت من السأم، وتقبل على السجائر والقهوة بأصنافها طوال الوقت تقريبًا، وتتناول أنواعًا قوية من الكحوليات، وتحتفظ بجهاز استماع رقمي تنعزل به عن العالم الخارجي.

تواعدا، سَمَا وحسين، غير مرة بالنهار في سافادج جاردن، لتناول الإفطار أو الغذاء، وأطلعته على بعض أعمالها الفنية، نظرًا أن الرسم هوايتها، وهي إلى هذا تعمل في تصميم الزخارف مع عدد من معارض الموبيليا وستوديوهات الديكور. أعجب جدًّا بأعمالها: دقَّة الخطوط وحلاوة الأسلوب والعناية بتوزيع الظل والنور، وصارحها

بإعجاب دون مواراة، وبمواطن القصور إن رآها، ولا يدفعها إلا مشفعة بعبارة: "أعتقد، والله أعلم، أن كذا وكذا"، فيشرق وجهها بابتهاجٍ صادق، أو تداريه بخشونة قائلة إنها مجرَّد هواية، وأن ثمَّة آلاف أفضل منها. ثم طلب أن تصحبه للستوديو ليشاهد مجمل أعمالهاوأسلوب العمل والأدوات، لكنها رفضت ببساطة، لأن مرسمها هو جزء من غرفة نومها، وهي لا تستسيغ دعوته لغرفة نومها؛ لأنها متزوجة! وكانت معلومة جديدة. لا ينكر في نفسه أنه انشغل بها وقتًا طويلًا، لكن مع الشد والجذب أصابه الإرهاق والملل، فتوارت لخلفية اهتماماته، وانحصر الحوار بينهما على تحيَّةٍ عابرة، أو تدخل سطحي في الحديث، على سبيل العادة لا أكثر.

***

- بتدخَّن إيه؟

- سجائر.

- أنا شايفة إنها سجائر.. أنت كل شويَّة بتدخن نوع شكل؟

- تفرق؟ ما كله واحد.

- غلط، المفروض تتعود على نوع واحد.. التغيّير بين أنواع كثيرة يؤذي الرئة، ويزيد فرص الإصابة بالسرطان.

- أكاذيب تروِّجها شركات الدخان، علشان تعمل زبون لكل نوع، يتعوَّد عليه ويحبُّه، وفرصته في إنه يبطَّل تقل.

- سمعتها فين دي؟ ما أنت بتغيَّر، وما بطلتش.

- أنا أحب السجائر!

- في حد بيحب السجائر؟ كلنا نفسنا نبطل.

- تقدري تقولي لي، الحياة إيه طعمها، لو أنا متوتّر، وما أقدرش أدخن سيجارة أحرق بها أعصابي؟! أو بعد أكلة ثقيلة، وما أقدرش أحبس مع الشاي؟!

- الحياة طعمها هِبَاب، بالسجائر ومن غيرها.. ما قلتش، إيه النوع اللي تفضله؟

- أي حاجة يا سَمَا.. مهتمة ليه؟

- أنا شفتك بتطلّع السيجارة من جيب الجاكيت الجواني من غير ما تطلّع العلبة، ودائمًا تعمل كده.. كأنك عامل عاملة.

ابتسم حسين بصفاء لأول مرة منذ بدأت المحادثة، وقال مُفسِّرًا:

- عادة مش أكثر.. جدّي لو يشوفني، يسوّد عيشتي.. مع إن ابن القديمة كان يقول: "الدخان من نعم ربنا!"

ضحكت من قلبها، وقالت ساخرة:

- المفروض إنك كبرت على كده.. جدك لسّه ممكن يزعل، لو عرف أنك تدخّن؟

- جدي مات.

- الحمد لله!

ثم تورّد وجهها وقد أدركت ما رمت إليه، فقالت بإحراج:

- آسفة، ما قصدتش.. دائمًا يخرج مني كلام غبي، لأني ناقصة تربية! ربنا يرحمه طبعًا.

ضحك مخُفِّفًا عنها، وقال ببساطة:

- أخذ الشر وراح!

رمقته بحذر، وقالت:

- واضح أنك كنت تحبه جدًّا.

- جدًّا، لكن لسانه كان طويل.. الحق أنه لما سابنا، ساب وراه فراغ كبير.

- البركة فيك تملاه.

- شكرًا!

قالها وهو يتطلّع إليها بشيء من الترقُّب والريبة، وقد استغرب من لطفها المفاجئ. ثم جعل يفكِّر قليلًا، ويراقبها وهي منشغلة بسكب بعض من كوكتيلها المسمَّى «The Dark One» في قارورة معدنية صغيرة، ثم أحكمت إغلاقها. وسألها أخيرًا بتردُّد خفي:

- تسمحي لي آجي جانبك؟

- أفضّل يكون في مساحة للتنفس.

هكذا أجابت دون اكتراث، وهي تقلِّب باقي الخليط في الكوب بشفَّاطة المشروبات. كان يفصل بينها وبينه مقعدٌ خالٍ، وهي عادة اتَّبعتها في هذا المكان. إتاحة فضاء للحركة بإخلاء مقعدين، واحد عن يمينها وآخر عن يسارها، فلا يجلس لصقها إلا من تسمح له بذلك، وإن رأى أحد الزبائن المقعد الخالي وأقبل عليه، يوقفه فرد الأمن المسؤول عن البار، وينبِّهه بصوتٍ غليظ: "محجوز يا باشا!" غيَّظته الإجابة، لكنه اغتصب ابتسامة وقال:

- ما تقلقيش، مش حاسحب الهواء كله.

تلفتَت حولها دون استجابة محددة، فاكتنفه ضيق شديد، وندم إذ حادثها من الأساس، وأخذ يؤنِّب نفسه بلا رحمة وينعتها بالغباء تكرارًا، حتى حلف ثلاثًا أنها لو حدَّثته فسيحرجها. كلا، بل لن يرد عليها. هذه القذرة المجنونة. واستغرب كيف أصبحت أقل إشارة منها تُنشب فيه غضبًا يتعذَّر إطفاؤه إلا بالإغراق في الأوهام. ثم سمعها تسأله باهتمام:

- تخيَّل إحنا تكلمنا سوا كم مرة، وعمري ما سألتك.. متجوِّز؟

أومأ بالإيجاب، وسألته لمَ لا يجلب زوجته، فأجابها بإنكار:

- أجي بها المكان الموبوء ده؟!

قالت ساخرة:

- ما أنت بتجيه.

أجاب دون تردد، وبسحنة عدوانية:

- هي لا تقبل تخطو في أماكن زي دي.. مراتي محجبة وملتزمة.. ثم إنها ماتت!

حدَّقت في وجهه بدهش، وخيِّل إليها أنها لم تسمع، أو سمعت ولم تستوعب، أو استوعبت ولم تهضم إلحاق هذه الجملة بتلك. محجبة وملتزمة، وماتت؟! ثم تساءلت بانزعاج صادق:

- ماتت؟!

- ماتت.

قالها مكررًا، وقد غادرت العدوانية وجهه، وحل محلها كدرٌ عميق حاول إخفاءه. الحقيقة أنه فكَّر في نشره على صفحة وجهه جليًّا، لكن ومضة أضاءت في مخه. إنه لمن المرعب، من المرعب فعلًا، أن يستغل المشاعر النبيلة الوحيدة المنطوية في صدره في هدفٍ خسيس كهذا: إثارة عطف هذه العاهرة. فلتذهب إلى الجحيم، "ألف مرة!" إنه يفضل لو يُقتل ها هنا، أو يُدفن حيًّا، على أن يطوله خزي كهذا. يتاجر بأسْمَاء؟! ينبش في ذكراها، وينقِّب عن أثرها في نفسه، ليعرضه رخيصًا في موئل الفحش هذا، وعلى رأس بنت الهوى هذه؟! كلَّلته الحالة الطارئة من الغضب والعزَّة بغلالة من الصلابة، هزَّته في الصميم، وأفاقته على حقيقة ما يفعل، ولأي منقلب تردِّي. سينصرف الآن، وليحترق جلال، ولتحترق سَمَا، وليحترق إيلي وإيفيلين. فلينصرف الآن.

نعم، كانت فورة من المشاعر السامية، ارتدَّت إلى العدم فور أن قالت له: "تعال جانبي يا حسين." كأنما كشفت بفطرتها ما احتدم في مخه من أفكار، فبثَّت في طلبها قدرًا من الحنان هزَّه من الأعماق، لكن.. طلبها؟! إنه استمرارٌ لمسلسل العبث والسخف والوقاحة. الآن، ستسمح له سيِّدة الصون، صاحبة تاج الوقار، أن ينتقل جانبها، لينعم بصحبتها عن قرب؟ إن هذا هو الهزل بعينه. "إنني أهين نفسي. لماذا أبقى هنا؟!" ثم قال بخشونة:

- أخاف أسحب الهواء كله.

ضحكت بسَمْت الاعتذار، وأشارت إليه مشجِّعة أن يأتي، لكنَّه تجاهلها، وسأل الساقي أن يصبَّ له بعض البُوزبُن (وهو شرابٌ مقطَّرقوي)، مع إعادة ملء قدحه ببيرة دافئة. انشغل جمال بصبِّ البيرة من برميل مضغوط متوخيًّا الحرص في تكوين قمَّة رغويَّة كثيفة، وصبَّ له البُوزبُن في أكواب صغيرة من الكريستال. انشغلت سَمَا عن حسين بشرابها القوي، وأخذت تحادث شابة أجنبية جانبها وتضاحكها، فأصابه بعض الغيظ. أخذ يحسو من البيرة بتمهُّلٍ حتى انقطع الحوار بينها وبين جارتها. ثم سألها بعدم اكتراث، وهو يلحظها من الجانب:

- وأنت، متجوِّزة؟

التفتَت إليه متنهِّدة بصوتٍ مسموع، ثم أومأت إيجابًا باسمة وكأنه الرضا بالبلاء.

فسألها ببلادة:

- وجوزك مات برضه؟!

لم يثرها السؤال كما توقع، بل هزَّت رأسها بالنفي نافخة بقدرٍ من المرح، كأنما تقول: "ذاك أمل بعيد." فقال متهكِّمًا:

- الواضح، أنك تحبيه جدًّا.

- جدًّا، جدًّا!

وتفكَّرت برهة، ثم لاحت على وجهها ابتسامة ماكرة. وقالت ببطء:

- الواقع إنك لما تشوفه، لازم تحبه.. والدليل أنت، ساعة ما رفعتش عينك من عليه.

زَوى ما بين عَيْنَيْهِ مندهشًا، وتساءل بحيرة "من؟"، فأشارت إلى الركن العالي. مدَّ بصره مع إشارتها حتى وصل للهدف. الفيل ذو الحلة البيضاء! وقع القول من نفسه موقع الذهول، حتى إنه قال بدهشةٍ عظيمة:

- جلال السايس؟!

- بالضبط.. أظنك تعرفه.

بدَّل البحلقة بين وجهها وموقع جلال السايس غير مصدِّق.. الآن يبدو كل شيء منطقيًّا. سطوتها في المكان، وتودُّد الكل إليها، وجلوسها أنَّي شاءت. الآن فهم لماذا لم يرها تسدِّد قيمة ما تشربه قط.. إنها زوجة الرجل الكبير! وهو الذي أرهق نفسه تفكيرًا في كيفيَّة الوصول لهذا الرجل. لكن الوضع لم يتغير، إذ كيف يصل إليه الآن؟ من خلالها؟! إنها تدوِّخه، وتتلاعب به كالدمية، وأغلب الظن أنه لن يصل معها لأي شيء. ثم قال ساخرًا:

- إلا أعرفه! وهل يخفي القمر؟!

عاجلته الرد بهزأ قائلة:

- وأي قمر! بدر منوَّر، زي ما أنت شايف.

استغرق في الضحك، وما زال غير مصدِّق، ثم قال:

- تخيَّلي، دي أول مرة أشوفه عن قرب.. وبصراحة، وماتزعليش مني، حاجة تقرف!

تنهّدت بأسى قائلة:

- النصيب يا إتش!

- نصيب دفيان.

ردّت عليه هازئة فورًا:

- يدقّ بلد يا حبيبي.

ثم بادرته بفتور مفاجئ قبل أن يسترسل في حديث عن هذه المسألة:

- سيبنا من «السيرة التخينة» دي.. خلّينا في نفسنا.

تطلع إليها بحيرة، وأدهشه التغيُّر في اللهجة، والتضاد في المعنى، فسألها بتردُّد:

- هوَّ في "نفسنا"؟!

سألته باهتمام:

- مراتك، ماتت صغيرة؟ كنت تحبها؟! تحب نتكلم في الموضوع؟

هَزَّرأسه نافيًا في ضيق، فاعتذرت عن تدخلها غير اللائق. وسألته عن عمله، فسألها مندهشًا:

- ليه الاهتمام المفاجئ؟ إحنا من فترة بنتقابل ونتكلم، وعمرك ما سألت عن حياتي الشخصية.

- دلوقت أنت عرفت أني متجوّزة جلال السايس، وتعرف أني أحب الرسم، وأني أسكن في المعادي.. وسمعت أني أحب أفطر في «Budget Diner»، وأشرب في «Local Ninety Nine»، وأرقص في «Resurrection»، وأحب يبقى عندي قطة أسمها «Han-nah»، يعني تقريبًا عرفت عني كل شيء.. من حقي أعرف عنك شيء في المقابل.

واتكأت على الكاونتر، وسألته باهتمام:

- هه.. بتشتغل إيه؟

- ضابط شرطة!

زَوَت ما بين عَيْنَيْها، وقالت بتقزُّز:

- إخص، دي مش شغلانة ولاد ناس!

- من قال أنِّي ابن ناس؟! الأشكال الضالة في بلدك محتاجة أشكال ضالة من أمثالي علشان يلمُّوهم!

هكذا قال ببساطة، فقالت ضاحكة:

- أنت خطير جدًا.. على كده تقدر تمسك سلاح؟

أجاب بتوكيد:

- طبعًا.

- وإيه سلاحك المفضَّل يا سحس؟!

- بيريتا ٩٢ إف إس، عيار ٩٨

نظرت إليه بدهشة وريبة، وسألته:

- أنت بتتكلم جد؟!

- معايا واحد في العربية، لو تحبي تشوفيه.

أشارت إلى فرد الأمن الواقف غير بعيد، مديرًا عينيه في الجمع، وقد بدت بنيته المتينة وقامته الصلبة دون زيِّه الرسمي، وسألت حسين بلهفة:

- يعني الشحط ده، تقدر تضربه؟

نظر إليه مليًا، ثم قال باسمًا:

- طالما الجاذبية الأرضية في صفي، حاكومه في الأرض خلال دقيقتين.

تفحَّصته من رأسه لقدميه، وضحكت جذلة، ثم قالت:

- واو! أنت جامد جدًّا، مع إنه ما يبانش عليك.

لم يعرف إن كانت جادة فيما قالت، أو تهزأ به، فسألها بحذر:

- أنت بتسأمي عليَّ؟!

ضحكت، وقالت بشيء من الإشفاق:

- لا يا حبيبي، أصدِّقك.. وعلى كل حال، سواء قلت الحقيقة أو هجَّصت، دي حريَّة

شخصية.. خصوصًا مع واحدة متطفِّلة زيّي.

- عمومًا، أنا سبت الخدمة من سنتين تقريبًا.

تساءلت باستغراب:

- ليه كده؟

- قِرِفْت! ولما جدّي مات، ورثت عنه مبلغ محترم يغنيني عُمري.. قلت أقعد في بيتنا أكرملي!

- أحسن يا راجل، بلاش قَرَف!

تنهَّد من قلبه، ثم لم يجد ما يقوله بعد ذلك، في حين بدَّلت هي النظر بين زوجها ومنصَّة الرقص الصاخبة، ولفت انتباهها ما يبدو مشادة كلامية بين شاب وفتاة، وكانت الفتاة مخمورة. وغير بعيد وقف أحد أفراد الأمن يراقبهما كالصقر، متحيِّنًا الفرصة للتدخُّل في أي لحظة. لكن المشادة التزمت القالب السلمي والشتائم البذيئة، وبدت كأنها ستستمر إلى الأبد، فملَّت وحانت منها نظرة تجاه حسين. كان مشغولًا في سيجارته، وفي حديث متقطِّع مع جمال. تفرسَّت في وجهه وهيئته بعناية وتفكُّر. كانت تراه لطيفًا خفيف الظل ليِّن الخصال، وضعيفًا هشًّا في ذات الوقت، ومثيرًا للاهتمام أيضًا، وجالت في نفسها احتمالات لا حصر لها. راقبت حركاته وإشاراته، ولاحظت أن وجهه ليس فيه الاستهانة أو الغلظة التي تراها على وجوه سائر الحاضرين، ولا الكلاحة أو العربدة. بل على العكس، هو رقيقٌ مجامل، حتى وإن أقحم نفسه على مجلسها دون استئذان. وعلمت من سلوكه العام أنه يفتقد الثقة بالنفس ورباطة الجأش. رأت ذلك من ازدراده ريقه، واحمرار أذنيه مع الارتباك، وضحكاته المفتعلة. ثم التفتت عنه لتلقي نظرة على جلال السايس في جلسته. وكم بدا وغدًا كبيرًا، يشيع حوله أبخرةً من الغثيان والسم. وكم بدت عيناه لئيمتين، تتابعان بوقاحة الرائحة والغادية. وفي تلك اللحظة بالذات، مد الخبيث يده ليصفع إحدى الساقيات المارات أمامه على مُؤَخِّرَتِهَا، فضحكت البنت بصخب، وتلمَّظ هو كبزَّاقة عارية. تلفتَّت حولها غير مصدِّقة، وقالت في نفسها بين الانزعاج والضحك: "غير معقول، هذا الشخص غير معقول. إنه مقيت كالقمامة!"

ثم قالت لحسين بصوتٍ عالٍ لتجذب انتباهه:

- بأقول لك يا إتش، أنت كنت بتبص لجلال بتركيزليه؟

أجابها بحذر:

- لفت نظري.. شكله غريب.. قاعد زي ما يكون ملك.

- هو الملك هنا فعلًا.

سألها باهتمام:

- أنا سمعت إن دخله الشهري أكثر من ستين ألف دولار، ده بجد؟

- وووه! أضعاف المبلغ.

- من إدارته للمكان، ولا في مصادر دخل تانية؟

هكذا سألها بتركيز، فرمقته بنظرتها النافذة، ثم قالت بهدوء وهي تميل جهته:

- يا حضرة الضابط، أنت بتسأل وأنت عارف.. طبعًا له أعمال تانية.. الدعارة!

مرق القول منه كالسهم، وكان يتوقَّع أي نوع من اللف والدوران. ولم يدرفي الواقع ما المفروض أن يقوله الآن، وتمنى لو يضحك. أما هي فسألته ببشاشة وثبات:

- مالك يا حضرة الضابط، بلِّمت ليه؟!

سعل بشكلٍ عارض، وسألها مستطلعًا:

- وليه تتجوِّزي الرجل البطال ده؟

رمته بنظرة ثاقبة، وقالت:

- كل واحد، يتجوِّز من وسطه يا أستاذ!

ثم تبسَّمت بشغف مطالعة تأثيرتصريحها على وجهه. وسألها ببطء:

- وحضرتك على كده، بتشتغلي إيه؟

أجابته باستهزاء:

- في الوقت الحالي، ست بيت! لكن قبل كده كنت أشتغل barmaid هنا، زي البنات اللي أنت شايفهم (مشيرة لفراغ الملهي بحركة ناعمة من يدها).. شايلين الصواني،

ويخدموا أولاد الناس دول.

- مالك، بلمت تاني ليه؟

بهذا سألته ضاحكة، فتنهّد وقال بهدوء:

- أنا متعجب من صراحتك.

- صراحتي أمر طبيعي.. أنا وشي مشكوف، ومش حاتكسف من كلمتين يضيعوا في الهواء.. خاصة أن الكلام ما يلزقش، وأنا معرفتي بك سطحية، وما يهمنيش فكرتك عنِّي تكون إيه.

- وجهة نظر.

قالت بحماسة:

- طبعًا! على فكرة، أنا ما أحدش يقدر يغلبني في الكلام.

- شيء بديهي.. المثل يقول: القحبة تلهيك وتدهيك، واللي فيها تجيبه فيك!

اعتراها الجمود لحظة، ثم قالت باستهانة:

- تصدَّق إنك قليل الأدب، وما تستاهلش إني أتكلم معاك!

تلقي سبابها كلطمة، امتصها، ثم سألها فورًا:

- لكن ليه جلال يتزوجك؟

سألته باستنكار:

- يعني إيه ليه يتزوجني؟!

- يعني ده رجل قدامه نسوان من كل صنف، ويقدر يكفي نفسه من غير زواج أو تعقيدات.

سألته بتحدٍّ:

- تسمع عن شيء اسمه الحب؟

أجابها هازئًا بأن لا، فقالت بصفاقة:

- الحمد لله اللي مدّ في عمرك لحد ما تسمع.. جلال حبني، واتجوّزني، وخلّاني أبطل شغل.

- طيِّب أنت ليه اتجوّزتيه؟ حُب برضه؟!

حدَّقت في وجهه بغرابة، ثم ضحكت بمزاجٍ متعكِّر، وقالت متلفِّتة حولها:

- سؤال غبي.. جلال كان الوحيد اللي ممكن يخرجني من الجو القذر اللي كنت عايشة فيه.

اكتنفهما سكوت وجفوة، وعندما بدا له أنها تجمع أشياءها لتنصرف فَزع. ثقلت بطنه وارتبكت، وراودته رغبة جامحة وملحَّة في استبقائها بأي ثمن، فالتفت وخاطبها بلطف قائلًا:

- أنا آسف إن كنت ضايقتك.

تبسَّمت، وقالت بازدراء دون ما تنظر إليه:

- أنت مش بس سليط اللسان، لكنك بيِّنت لي قلة ذوقك في اللحظة اللي فتحت لك قلبي فيها بحسن نية.

قال ناقمًا ويائسًا:

- صدَّقيني، أنا مش قصدي أضايقك.

همَّت بالانصراف، لكن توقفت، وأخذت تقرض أطراف أظافرها بغيظ، ثم التفتت إليه، وقالت فجأة:

- تعرف اتجوِّزته ليه؟

رفع رأسه إليها، وسألها ببلادة:

- ليه؟

- علشان أسافر فرنسا.. فرنسا بلد جميلة جدًّا، عمرك شفتها؟ سافرت برَّه مصر؟

- لا.

جلست مرة أخرى، وقالت بحماس:

- تبقى غلطان، وتبقى ما شفتش في حياتك حاجة نظيفة.. إحنا هنا عايشين في وساخة، لأن الناس نفسها مش نظيفة.. علشان تشوف النظافة لازم تخرج من هنا.

- تقصدي من مصر؟

قالت من صميم قلبها:

- طبعًا.. أنا حاموت وأخرج، لولا مشاغل جلال، الله يحرقه! مجرد التواجد في البلد دي، في حرَّها وزحامها ومواصلاتها.. يخنق روحي!

- فعلًا؟ تسمعي يا حلوة عن بنجلاديش أو السودان أو نيبال؟ أنا مرة شفت برنامج عن بنجلاديش.. الحمد لله، إحنا عندنا مَيَّة وكهرباء وتليفون، وبناكل.. هناك، الحيوانات المفترسة تأكل الناس، يوميًّا.

تجاهلت مداخلته وتابعت:

- لازم البلد تحترق، علشان تنضف من الأنانية والقذارة.

- ما فيش أي انتماء؟

قالت ساخرة:

- أنت عندك من الصنف ده؟!

- طبعًا!

- كذّاب، ولو كنت صادق تبقى الأول من نوعك.. أنا عشت عمري، شفت فيها ناس من كل لون، وما شفتش واحد، واحد بس، عنده انتماء.. كله، إما عايز يسرق ويهرب، أو يسرق ويقعد.

- غالبًا علشان ما تعرفيش غير أشكال وِسْخَة!

- وأنت بقي اللي بروح أمك، تعرف أشكال نظيفة، عندها انتماء؟!

- على الأقل مش انتماء، لكن ارتباط.. أنا هنا مرتبط بأهلي وأعمالي.

تلفَّتت حولها باستياء، وقالت:

- يعني اللي ربطك بها مش الانتماء زي ما قلت، لكن المصلحة.

قال بسام:

- يعني! ممكن!

لم تستجب، بل جعلت أصابعها في فمها تقرضها، وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين. عرف من سحنتها العامة أنها في طريقها للثمالة، رغم تحرّيها البطء في الشراب، ودفع يدها عن التسلي بالمُملحات لأنها تزيد العطش، لكن الواضح أن كوكتيلها نسبته من الكحول عالية. والحقيقة أن الخمر بدأت تَسْطُلُه هو الآخر. ثم إنه سألها بتنهيدة:

- وعلى كده جلال سفَّرك، ولا خِلي بك؟

- طبعًا سفرني.. ده كان أول شرط لي في الجواز.. أنا كنت مستعدة أقتله لو ماطلني.

- واللي كنت تتوقعيه، لقيتيه.

قالت بحرارة:

- وأكثر.. كنت حتجنّ.. أخذت القطار لألمانيا، وزرت سويسرا وإيطاليا وأسبانيا.. كنت مبسوطة، لدرجة أني تمنيت الموت، ولا أرجع مصر ثاني.

- بس رجعتي.

قالها آسفًا، فالتفتت ناظرة للركن العالي، حيث يضطجع زوجها، وقالت ملتمسة من أعماق روحها بغضًا وبلاءً:

- ابن الكلب أجبرني أني أرجع.

وصمتت لتهدأ من حرارتها الطارئة، واستعانت على ذلك بقرض أطراف أظافرها، وظن حسين أنها ستكتفي بهذا أو تتخذ وقتًا مستقطعًا. وما أسرع ما قالت بنبرة مسالمة بها شيء من حماسة:

- تعرف يا إتش؟ طول عمري أحب اللغات.. وكان طموحي أني أقدّم في الخارجية.. أسافر سويسرا، وأعمل دراسات عليا، واترقَّى، ويمكن أصبح وزير مفوض أو سفير.. وأكون سيادة المستشارة «سما يوسف» (وردَّدت اسمها بشيء من التفخيم).. ولما أتقاعد اشتغل محللة سياسية، أو كاتبة، ويمكن ألقي محاضرات في أمريكا، مع أني لا أحب أمريكا! بلاد زحمة، وشعبها هايف!

استولى الحماسُ على بعض الصبية، فتجرّعوا الخمور بشراهة (وكانوا يفضلون الكوكتيلات المُنَكَّهَة ذات المذاق الحلو، وتلك تكتم مذاق الكحول المقرف، ولا تكتم تأثيره)، فتناهوا في الإيقاع والضجيج. وعلى البار الرئيسي جلس حسين وسَمَا في معزل عن كل هذا، وما تزال تحدِّثه عن أحلامها، وما زال ينصت دون مقاطعة، حتى قالت كالمفتونة:

- أحلام كثيرة، أنا بنت ذكية ومجتهدة، أحب القراءة والمذاكرة.. زمان، كنت أذاكر وأصم مدة خمس ساعات قبل الشغل أو بعده، وأحيانًا أطبق الأيام والليالي على بعض، أحضر في الكلية امتحان أو محاضرة، وأرجع على هنا، آكل وأنا نائمة، وأشرب وأنا نائمة، واشتغل ومش عارفة من أخذ إيه، ومن دخل أو خرج.. بس كان فيها جمال، لأن كان عندي طموح.

- وتنوي تقدِّمي فعلًا؟ أقصد في الخارجية.

ضحكت عاليًا، ثم قالت بإحباط:

- أقدم؟! الوقت فات يا حبيبي، أنا فوق الثلاثين.

قال بحميَّة:

- ما فيش حاجة اسمها الوقت فات.. لو تملكي تغيِّري حياتك، لا ترددي، قبل ما الوقت يفوت فعلًا، والندم ساعتها لا يفيد.. (واعتراه بؤسٌ شامل) اسأليني عن الندم.. وخز مسامير، تدخل في جسمك وتتحوَّل لجزء منك، لا تقدري تخلصي منها، ولا تتعوَّدي عليها.

اكتنف الفتور وجهها كأنه لا يشغلها شيء، وقالت بنبرة مغمورة خاوية:

- ما عادش ينفع.. الأحلام كانت وردية أكثر من اللازم.. دلوقت أنا سعيدة بحياتي.. رتمها بطئ وآمن.. حتى جلال، كان حريص أنه يدمِّرني ويدفن طموحي، علشان أفضل دائمًا تحت يده.. (وضحكت بصفاء) أو تحت كرشه!

تبسَّم بكآبة، ثم خفض عينيه، ولم يجد ما يضيفه. أما هي، فالتفتت لجمال فور أن لاحظت أن حسين لم يعد لديه ما يضيفه، وكانت في تلك اللحظة تحتاج أن تتكلَّم، فدخلت مع الساقي في مناظرة حول نسب الكحول في الكوكتيلات، وسلوكيات الناس

المختلفة تجاه السُكْر. التفت حسين إلى المنصَّة يراقب الراقصين، ثم راعه ما شاهد من ثمالة، وتعاطٍ للمخدرات على رؤوس الأشهاد. التفت عنهم وأمارات التفكير العميق بادية على وجهه، وأحَسَّ بضيقٍ وغثيان، وتلفَّت يمنة ويسرة، ثم حَزَم أمره. أخرج من جيب الجاكيت الداخلي عبوَّة مهدئات، ونشر منها بضعة أقراص على السطح الرخامي، وجعل يتطلع إليها بإمعان كأنها أعجوبة. أعاره جاره الأيمن نظرة عابرة، بينما حانت من سَمَا نظرة لما يفعل، فصُدِمَت. تلفتَّت حولها مندهشة، لا تدري أتضحك أم تتجاهل. ثم انتقلت لصق حسين فجأة، حتى جاور ذراعها ذراعه، ومالت تنظر في الأقراص، ومدَّت يدها لتجسَّها. نظر حسين إلى يدها في البداية، وفكر أنه لم يكن قد لحظ كم هي غضَّة ممتلئة رقيقة. الأظافر كأيدي الرُضَّع، ولاحظ أن طرف الأظافر مبرود باتقان نتيجة القرض المستمر. وسأل نفسه، كيف يمكن ليدٍ كهذه ألا تزينها أظافر طويلة ناعمة مطلية بعناية؟ والتفت إليها ليرى وجهها الجميل ويشم عطرها الفوَّاح كأقرب ما يكون، فوقعا في قلبه موقع خزق وألم. ثم سألته بخفوت بين القطوب والابتسام:

- إيه اللي بتهبّبه ده؟!

همَّ بالإجابة مشيرًا للأقراص، فبادرته بشيء من الحدة:

- أنت اتهبلت يا بني؟ وسط الناس؟!

أشار إلى من حوله هازًا كتفيه، علامة أن انظري، المتعاطون كثرة، فقالت منكرة:

- هم يعملوا، أنت لأ، مش على عينك يا تاجر.. لو حصلت مشكلة توقَّع نفسك في شبهة على الفاضي؟ الناس دي سكرانة، ومستبيعة.

ومالت آخذة بقنينتها المعدنية الصغيرة من حقيبتها، ثم نهضت. ولما نهضت انسدل فستانها الناعم فورًا، عاكسًا على صفحته اللامعة طيفًا من الألوان. وجذبته لينهض، فسألها معترضًا أن إلى أين؟ فقالت وهي تلملم معه أقراصه: "تعال بس.

أحاطهما الضجيج، وراحا يشقا الجموع إلى طرف الملهى. قادته سَمَا بثقة من يده كطفل صغير، بمشي متمايل متبختر مدروس الخطوات، وتبعها حسين مفتونًا. وصلا إلى بابٍ يقف عليه أحد أفرد الأمن، مطبوعٌ عليه «Staff Only» حيَّا الرجل الضخم السيدة برأسه، وفتح لها ولمرافقها الباب. وصلا لبابٍ آخر، عليه لوحة فضية تشير

لكونه دورة مياه للنسوة. دفعت الباب بلا تردُّد جاذبة الشاب خلفها، وصفَّقت بيديها بالداخل لتتأكد من خلو المكان من إنسان، ثم عادت للباب فأدارت قفله.

دورة المياه شبه مظلمة كسائر المكان. على جانبٍ كان صفُّ الأحواض ومرآة طولية كبيرة، وعلى جانب آخر كان صفُّ الأبواب المُفضي للمراحيض، وكان على ضيقه النسبي نظيفًا طيِّب الرائحة. وعلى جدارٍ خالٍ عُلقت لوحة مطبوع عليها بطاقم حروف سميكة «NO SMOKING - NO DRUGS». تحيَّر حسين ونبض قلبه توترًا، وجالت في باله تكهنات جامحة، ثم إن سَمَا التفتت إليه، وبسطت كفها قائلة بلهجة آمرة: "فرَّجني الأقراص اللي معاك". حدَّق فيها متربِّصًا، فهزَّت كفَّها مستحثَّة. أخرج العبوة البلاستيكية، ونشر الأقراص على كفها. أدنت الأقراص الزرقاء من وجهها، واستشعرت ملمسها بأصابعها، ثم سألته بثبات: "ecstasy?"، فأومأ إيجابًا باحتراس. كانت أربعة أقراص، وضعت منها اثنين في كف حسين، واستبقت لنفسها اثنين. حلَّت غطاء قنينتها المعدنية، ثم ابتلعت أقراصها الواحد تلو الآخر، ورفعت القنينة تجرع منها بشراهة حتى أتت على نصفها. إنها أصلًا معبَّأة بهذا المشروب الثلاثي الشديد، فجاءت الجرعة الأخيرة كلطمة من كف عملاق. احتقن وجهها بالدم حتى نفر عرق من جبهتها، وانفلت توازنها عن السيطرة، فكادت تسقط، وجعلت تشهق وهي تأخذ بملتقى حاجبيها بإصبعيها بشدَّة، وتغلق عينيها. ثم مدَّت يدها لرفيقها بالقنينة ليأتي عليها!

كان حسين ينظر ذاهلًا. أخذ القنينة من أصابعها، وابتلع قرصيه دفعة واحدة، ثم جرع المشروب حتى آخر نقطة، فكان في جوفه كنشعٍ خَبُثَ طعمه. أحَسَّ باختناق وغليان في رأسه، وبكتلة رخوة جسيمة تجثم على جسمه فتخنقه.. تخنق روحه.. وأعصابه.. وبدنه.. وتهتك رئتيه. أخذ يشهق بحشرجة، وعندما فقد اتِّزانه هوى.

* * *

- أنا لو في إيديَ شيء.. كنت خلَّصتك من جوزك.. بعد كده.. أسفَّرك.

- أنا.. تقبَّلت حياتي.. على كده.

- في رأيي.. إن اللي كنت تعمليه قبل كده.. مايفرقش كتير.. عن اللي بتعمليه دلوقت.

- يعني إيه؟

- يعني قبل كده كانت دعارة.. ودلوقت دعارة.. بس مع رجل واحد.

- أنتَ أهبل يا بني؟! أنا كنت barmaid.. بس.. الدعارة بدأت في المكان هنا من سنين قليلة.. وأنا كنت already مع جلال!

- مالَك؟ شكلك.. فرحان قوي كده ليه؟!

- ماعرفش.. أنا أصلًا بأحبِّك! وانبسطت! إن ما كانش ليكي في الوساخة دي.

- عمومًا.. مش فارقة.. الجواز والدعارة، وجهين لعملة واحدة.. المتجوِّزة بتبيع لحمها بالجملة.. والمومس.. تبيعه بالقطَّاعي.

- أنتِ مختلة عقليًّا! كونِك متزوجة.. وكونِك مشاع.. حاجة واحدة.. في رأيِك؟!

- أنتَ.. اللي قلت!

- أنا.. كنت بأتكلِّم على حالتِك بالخصوص.. على أساس أن جوزِك رجل بطَّال.. وأنِّك بتعاشريه علشان الفلوس.. والحمد لله.. طِلِعتِ إنسانة محترمة.. مالكيش في الوساخة!

أي واحدة متجوِّزة بتعاشر جوزها علشان الفلوس.. الفارق إن المومس تأخذ فلوسها كاش.. لكن المتجوِّزة.. يمكن جوزها يأخذ منها فلوسها.

- يا سلام!

- يا سحس يا حبيبي.. ده مجرد شغل.. تأخذ عليه أجر.. نشاط.. يعتمد على التمييز الجنسي.. الست هي اليد العاملة.. والرجل هو الزبون.. والدفع.. مقابل تحقيق خدمة معيَّنة.. في مدى زمني معيَّن.. لو أي واحدة هنا.. اكتفت أنها تكونbarmaid.. بس.. مش حتعمل فلوس.. هتبقى منبوذة عن زميلاتها.. غير إن في فرصة كويِّسة لصيد الرجالة.. أنا أعرف كذا بنت اتجوِّزت هنا من زبون حبَّها.. نروح بعيد ليه؟! ما أنا قدَّامك أهُه!

- بس.. أنتِ مش قلت أنِّك.. مالكيش فيه؟!

- أنا بأتكلِّم عمومًا على البنات هنا.. ليه بيعملوا كده.. وأنا في بيت جلال.. ما افرِقش عن أي بنت هنا.. أنا فاهْمَاهُم كويِّس لأني كنت منهم! لو تعوِّدت أقول لأ لدا ودا.. مش حاشتغل.. ويمكن أنطرد.. إيه الفائدة؟ أنا جيت أعمل فلوس.. في مجال شغل مشبوه

في الأساس.. أعمله برغبتي أحسن.. وفلوسه ممتازة.. والمحل هنا يأخذ باله من بناته كويّس.. في الأكل والشرب والأجازات والحماية.

- مش فاهم!

- أقصد أقول.. أنها شغلانة.. زيّ أي شغلانة.

- واحترامك لنفسِك؟ واحترام الناس لك؟!

- الفلوس تشتري الاحترام.. أي بنت هنا لو لقت شغل أصلًا.. حتتعرَّض لسفالات وتحرُّشات.. هتوصَّلها لنفس النتيجة تقريبًا.. بس مش بنفس الفلوس.. وبفرض أنهم لقوا شغل محترم هيقبضوا كام؟ ٢٠٠، ٣٠٠، ٨٠٠ جنيه؟!

- يعني.. الموضوع طمع؟!

لا أكثر، ولا أقل.. ما هم بني آدميين.. من حقهم يعيشوا زي ما أحسن ناس في الدنيا عايشين.. ولا النعيم له حسابات مختلفة؟

- أيوه، له حسابات مختلفة.

- يبقى خلاص يا برنس.. إحنا في زمن اللهم نفسي! كل واحد يدوَّر على مصلحته.. بالطريقة المناسبة.

- تقدر تبصِلَها من وجهتين نظر.. واحدة كئيبة.. مليانة تشنُّجات.. وتزييق.. وغَرْغَرَة، والثانية.. ألوانها مِلَغْلَغَة.. وأوقاتها ممتعة.. وعالمها لطيف ومسلي.. والمتعة فيها.. على عينك يا تاجر!

***

جلسا متجاورين على الأرضية الرخامية، وكان ما يزال الباب مُقْفَلاً عليهما، وإن غشت فراغ دورة المياه سُحُبٌ كثيفة من دخان السجائر. كان متهدِّلًا رخوًا في جلسته، وكانت مرتاحة في جلستها. مدَّت إحدى ساقيها، وثنت الأخرى، فانحسر عنهما الثوب إلى ما تحت الوركين، وأنشأت تحكّ أصابع قدميها في الأرضية، وحذاؤها عنها غير بعيد. كانا يسمران بسلامٍ شامل، وإن غامت الرؤية قليلًا، واضطَرَبَت حركات العيون. أمَّا حديثهما

فكان فيه تضارب وتناكف، في صفة من الوئام والتناغم! فإن يعارضها فبتريُّث وبلادة، وإن تجادله فبغبطة ودفء. استرخت سَمَا على الرخام البارد شاخصة إلى السقف، واكتنفت وجهها البدري هالة من شعرها الأحمر الكثيف الملفوف، وهدأ تنفسها تمامًا. كانت تتابع غمامات الدخان المتصاعدة بانسيابية من سيجارة رفيقها ومن منخريه. ثم قالت بصوت خفتت نبراته وتميَّزت أنفاسه:

- الـ ecstasyبتاعتك مضروبة.. لازم تجرب الـice.

- الـ. إيه؟

- الـCrystal meth.. crank.

لم يفهم، ولم يلق لذلك بالًا. فكّر أن ما يحدث هو غزو منطقة، وعمل خطير! إنها مقاتلة ناعمة، ماكرة وانتهازية، تتصيَّده من خلفٍ بدهاء! واجهته مباشرة، وركَّزت عينيها في عينيه، وطوّقت وجهه بين راحتيها. وعلى الرَّغمِ من نفسيهما الكريهين، المُعبَّأين بأسوأ ما يُبَخُّ في الفم من مسبِّبات العطن، فإن الموقف تركَّب وتوافق، فأمالت رأسها، وأدنت وجهها من وجهه، حتى التقى فمُها بفمِه. لم يتسارع بهما النفس، بل سرت راحةٌ غامرةٌ من شفتيهما إلى وجهيهما. ضغطت بلطفٍ على شفتيه، فاختلطت ريقهما في تتابعٍ نابضٍ وتسلسلةٍ ممتدة. وعندما فرغا، وفارقت شفتاها شفتيه، حدَّقت في عينيه مستملحة، وهي تعلم أن هذا ما كان إلا تمهيدًا. الجفاف يمتص منها الحياة، ويزيل عنها البصيرة. إنها تعلم أن للغاب مراتب، وأن هناك قوى متفوّقة، وأخرى وضيعة، وأنها قطةٌ كبيرة، وأنه ضبعٌ دنيء. لكنها تريد هذا الضبع الآن، فهل يخل هذا بميزان القوى؟ طبعًا! لكن الأوقات الشاذة لها مناظرها الشاذة. لذلك سألته بهدوء:

- تعتقد.. أننا منسجمين؟

- أنت أطول مني!

- عند مشاكل بالنسبة للحريم.. الأطول منك؟!

- مؤكد لأ!

- إذًا تعتقد أننا منسجمين؟

- بصراحة.. أنا بأحبك!

ما زالا يرتعان في وديان خصبة من الهدوء والرَّخِيّ، وإن بثت اللثمة فيهما حرارةً فيَّاضةً، وتفاهمًا، وتصوُّرًا متطابقًا لما ستسفر عنه الأحداث، فتركا ملامح الصورة تتلاقى وتُفصِّل حشاياها، لتتضح كيفما اتفق. بلعت ريقها، وسألته بصراحة:

- تحب تشوف الستوديو؟

- الستوديو؟!

- الستوديو.

رنا إليها بذهول، وقد أخذه قولها أخذًا، ثم قال بصعوبة:

- الستوديو.. اللي فيه رسمك؟!

- آهيم.

- إيه.. اللي غيَّر رأيك؟!

- طلبت معايا! تقدر تعتبر أن مجهوداتك المتواصلة.. جابت نتيجة يا إتش!

ثم مالت لتضع قدمها اليمنى في حذائها ذي الكعب العالي، ونهضت وشرعت تمرِّر يديها على الفستان كي تزيل ما علق به من تراب، وما زال حسين ينظر إليها من أسفل مشدوهًا. ثم إنها تقدَّمت صوب الباب، وحلت قفله، وأشارت إليه، فنهض.

* * *

عادا إلى الصخب والزحام عند البار الرئيسي، وكم بدا الباروما حوله في تلك اللحظة -لكليهما- بغيضًا مزعجًا، مُعَبَّئًا بالأدخنة والسموم والرعاع. جلست سَمَا لصق حسين تتحدَّث معه بصوتٍ مرتفعٍ نسبيًا، وقدَّر جمال الساقي أن ثَمَّة موضوع مهم يُتداول بين الرجل الجديد وزبونته الأثيرة، ولا يغيب عن عينيه الثاقبتين ملمحٌ كهذا: الجدية البادية، وإشارات الأيدي والأصابع، وانقطاع الضحكات الهازئة وادعاءات البلادة والغباء، فلم يقترب منهما إلا بقدر ما يؤدي عمله، ولم ينظر إليهما، إلا بيقين أنه غير مُلاحظ. وعلى كل الأحوال، كان حسين وسَمَا في شغلٍ عن الهوس الجاري حولهما. كانا بين شدٍّ وجذبٍ إذ عاود الاثنان شيءٌ من الوعي وحسن تقدير الأمور، لكنه وعي

مُنْتَقِص لا يغني، ولا يصد عن فعل. كانت سَمَا نفسها بين إعراضٍ وإقبال، لكنها ما أن يساورها الرغد المنتظر، حتى تنسى كل شيء. أما حسين فلعن نفسه، ولعن الخمر، ولعن الأقراص المخدرة التي سلبته إدراكه وهو الآن في أمس الحاجة إليه. كان يسأل نفسه: ما هذا الهدوء اللعين؟ كيف يصير في عينيه كل فعل آمنًا خصبًا، وكل احتمال ريانًا عذبًا؟ كيف يتضارب في أعماقه بين قلقٍ وخوفٍ دفينين، ولا يثير هذا القلق قلقه؟! ما هذا التخريف؟! إنه مُكبّل. أقسَم إنه مُكبّل. بل إنه مسكين! أقسَم إنه مسكين.

وكان يسألها في لحظتها بجدية لا تخلو من سكينة وثبات:

- طيب وجوزك؟!

ضحكت بنقاء سريرة، ثم قالت دون اكتراث:

- سيبك منه، هو طالما جاء النهارده، يبقي مش حيمشي قبل الصبح.. قدامه وقت تقفيل الحسابات، واعتماد الميزانية.. ولسه في اجتماع مع الإدارة بعد ما يتعشّى، ولسه حبيجي يقعد ثاني علشات يشرب.

وتابعت بذات اللهجة، وكأنها حكيمًا عجوزًا يعظ:

- نسيبه إحنا وسط الأرقام والدوشة، ونروح مكان أروق من الفَرَح ده.. وعلى أسوأ الفروض، ما تقلقش، أنا أعرف أتعامل معه كويس.. تعتقد أني أنا، مثلًا، أؤذي نفسي؟

تبسم حسين، وقال:

- وأنا اللي مفكَّر أني بُرَم، وعليَّ جرأة وقلة أدب مش على حد؟!

ضحكت ساخرة، وقالت:

- صلح فكرك، وإن كانت تقصد إني قليلة الأدب، أسحب عرضي.

- تسحبيه إزاي؟ أنت مفكَّراني أهبل؟!

وما أن توصَّلا لتسوية، حتى رفعت رأسها للساقي، وصاحت به: "جينا، ورقة وقلم من فضلك." ومن تحت الكاونتر الرخامي أحضر الرجل مطلبها: قلمًا حبر ذهبيًّا، ومفكرة أنيقة منقوشًا على ركنها الأسفل شعار الملهى، مرِّرهما إليها، فتلقتهما شاكرة. أمسكت بالقلم وكتبت عدة سطور بخطٍ جميل، قائلة:

- ده عنواني في المعادي، شقة ٣، الدور الخامس.. ده رقم تليفوني لو تهت.. العمارة ما فيهاش حارس، والمنطقة هادئة تمامًا، والدور الأرضي فيه مطعم بيتزا.. تعرف المدرسة الأمريكية؟

أومأ إيجابًا، فشرحت له باختصار كيف يصل كي لا يدور كثيرًا حول المنطقة، ثم قالت تنبّهه:

- تنتظر ربع ساعة بعد لما أمشي، وتحصّلني.. حتلاقي عربيتي تحت البيت، «كرايسلر» فضي، okay؟

ومرّرت له الورقة على الرخام بطرف أنملتها، فأخذها حسين ودسَّها في جيبه بسرعة، فضحكت قائلة:

- مالك، زي ما نكون بندبّر سطو مسلح؟!

ابتسم حسين مُحْرَجًا، وأخرج الورقة، وفضَّها وقرأها بعناية، ثم رفع عينيه إليها قائلًا:

- خطك جميل جدًّا.

ابتسمت شاكرة، فقال وقد بدا بعضٌ من قلق على وجهه:

- أنت.. متأكدة؟ أنا مش عايز أسبب لك أو لنفسي مشكلة.

- خلاص، إن كنت خائف، نفض الموضوع.

هكذا قالت بجديَّة، وعندما حل على وجهه الجزع أدركتها الرقة، فقرصت خدَّه برفق، وقالت بشيء من مرح:

- أنتِ خوَّافة خالص!

شاع في نفسه مع لمستها حبور وانتشاء، وأرسل على شفتيه بسمة خفيفة أشرق بها وجهه. وكان إذا تبسَّم، تهبُّ على صفحة وجهه نسماتٌ لطيفة تضئ بها قسماته، وتلمع منها عيناه. وما ملكت إلا أن تبتسم له لما رأت تأثير اللمسة، فكأنما داعبت صبيًّا مراهقًا، ثم نهضت وطرحت شالًا حريريًّا عريضًا بشراشيب طويلة من نفس لون الفستان على كتفيها، وقالت للساقي بلهجة آمرة متعالية:

- حساب الباشا عليّ يا جينا.

وافقها جمال بأدب، وحيَّاها مساءً، لكن حسين عاجلها ناهضًا، وقال:

- ما يصحش تدفعي.

أعادته إلى مقعده برفق، ومالت تخاطبه في أذنه همسًا:

- مستنياك، ما تتأخرش.

واختلست نظرة إلى زوجها، ثم قبَّلته بنعومة أسفل شحمة أذنه بالضبط، فتخدَّر تمامًا. تولَّت عنه متحركة في خيلاء، وعبرت في طريقها للانصراف أمام مجلس زوجها، وعمدت الاقتراب قدر المسطاع، لترميه بنظرة مستعلية. وعندما تحقَّقت من وصول النظرة، حثَّت الخطى حتى غابت بين الكتل البشرية، والزوج يتابعها بعينين ضيِّقتين. تابعها حسين، ثم التفت جهة البار، وسأل الساقي شاردًا أن يجلب له قهوة مُركزة.

وضع خدَّيه بين راحتيه، واستعاد الموقف من بدايته. أولًا، إنه يحتاج للتركيز، لأن التطور الجديد لم يَرِد له على خاطر. لا بد أن سَمَا مخمورة أو أنها جُنَّت، فالقرار المُفجِع الذي أخذته قبل دقائق لا يدل إلا على الهذيان. فهل يشط معها حتى النهاية؟ أخرج من جيبه الورقة المطوية وحلَّها. لعل هذه الورقة تكون تأشيرة هلاكه. لو ضاعت منه، هل سيرى هذه المشاكسة العزيزة مجددًا؟ هل يحرقها ويعود أدراجه مؤثرًا السلامة؟ إلى النونو الأسمر الغليظ، والبدو الخشنين القذرين، والقصر المظلم الكئيب. طيِّب وجلال السايس؟ وما شأن جلال السايس بأي شيء؟ أيفعل هذا لأجله؟ إنه يتمنَّى لو لم تخبره سَمَا بأنها زوجة هذا الرجل الفظيع، عِزَّة الجنس البشري! لكان مرتاحًا الآن ممنيًّا نفسه بلقاءٍ صافٍ لذيذ، لا يكدِّر صفوه شيء. لكن لابد من مرارة مع الحلاوة. مرَّت الأفكار في رأسه كما يمرق السهم في الماء، فلا يحدث فيه أثر. أهذا فصام، أم أنه المخدر اللعين؟!

كم كان العدوي بعيد النظر! العدوي؟! فجأة انفلقت ذاكرته عن وجه المحامي إذ يحذره: "إيَّاك والضعف للمغريات. أنت تخالط أناسًا أشرارًا، يبيعون أعراضهم بقروش، وسيبيعونك أنت وأهلك مجَّانًا." عمومًا لا يأخذ أحدٌ أكثر من نصيبه! برز في مخيلته وجه العدوي، مستديرًا غليظًا، ثم كانت سَمَا، ببياضها الرطب وخفَّة روحها. مواجهة قصيرة ومحسومة. لعنك الله يا عدوي! مُيسَّر لك أن تعظ وأنت قرير العين

في بيتك. عمومًا، "إنه ليس ربي الذي خلقني، ولا أبي الذي أنجبني. فليضرب رأسه بالحائط إن أراد. ثم "إنني، وعلى كل الأحوال، لست من أصحاب العزائم الماضية ولا الإرادات العظيمة."

أحَسَّ حسين في لحظة أنه يكاد يرى جلال السايس بعينٍ ثالثة في مؤخرة رأسه وهو ينظر إليه.. وتخيَّله يقول: "ما بال هذا الكائن الطفيلي النحيل، يجلس في مملكتي، ويشرب من خيري، ويتعدَّي على حرماتي؟" فليذهب إلى الجحيم هو الآخر. ورفع رأسه إلى الساقي، وسأله الحساب بهدوء، فقال جمال إن الحساب خالص، فما كان منه إلا أن أخرج حافظته، وعد ورقات من فئة المائة جنيه، ودفعها إليه، فقال الساقي مُحْرَجًا:

- يا حسين باشا، المدام قالت الحساب خالص.. كده ما يصحش.

لملم حسين أشياءه، ونهض قائلًا بتَكَبُّر:

- اعتبره بقشيش، حلال عليك.

وبينما يذهب نما إلى سمعه شكر بارع من الساقي، فأشار له مودعًا، وأخذ طريقه للانصراف. أخذ نفس مسلك سَمَا عابرًا أمام جلال، مُصممًا ألا يتحاشى مجلسه، وسدَّد إليه نظرةً لئيمةً، فتابعه الرجل الجسيم عن كثب. وعلم حسين أن ظنه حالفه الصواب، وأن هذا الرجل على الأرجح يتابعه منذ البداية بعينيه الخاملتين الضيقتين. وفي اللحظات اليسيرة التي تقاطعت فيها عيناهما، تخيَّل حسين أن نظرته -أي جلال- كالمثقاب الكهربي بسلاحه اللولبي الطويل، يدور بلا هوادة ليقتحم عينيه وجمجمته ومخه. إنه يعلم أن الليلة لن تمر على خير. لكنه قال بلسان حاله: "أبشر أيها الخنزير، اليوم أقع بامرأتك."

* * *

في الساعة الثالثة صباحًا، فُتح الباب وبدت الدهشة على وجه صاحبة البيت إذ يقف أمامها الشاب، ولم تكن قد خلعت حتى الشال الحريري. أدخلته سَمَا وهي تقول بترحابٍ واستغراب:

- أهلًا حسين.. أنا لسه داخلة قبلك بخمس دقائق.

- شكلك ما بتعرفيش تسوقي.

- أنا أخذت ربع ساعة علشان ألاقي ركنة.. أنت اللي جاي طاير.

ضحك حسين وقال:

- لو كنت أطول كنت دخلت هنا بالعربية، علشان اختصر السلالم.

ابتسمت سَمَا بين إشراقٍ وعتاب، وقالت:

- فيه أسانسيريا أستاذ.. ثم أنا مش قلت تستني ربع ساعة، وتحصَّلني.

- استنيت.

سألته باهتمام:

- أنت ركنت فين؟

- رميتها صف ثاني.

- كده تسد الشارع، يعني يعجبك الناس ما تعرفش تمر؟

- مش قلت إنها بلد وسخة؟ خلِّي الناس تتحرق!

قالت تعاتبه:

- مش بالطريقة دي، لازم يكون فيه شيء من التحضُّر.

تنهَّد حسين، ودسَّ يديه في جيبي سرواله، وقال:

- احترت فيكي.

تنهَّدت بدورها، ثم قالت بترحاب:

- على كل حال، إنت نوَّرتني.. تفضَّل، البيت بيتك.

وجذبته من يده فعبرا بهو المدخل، وقالت له بإطراء:

- بدلتك تجنن.

- شكرًا!

قالها مغتبطًا، وكان مرتديًا خلطة عجيبة، منفِّرة وجذَّابة وضع عليه طاقم بدلة فخم من «جورجو أرماني»: جاكيتًا أسود ناعمًا، وسروالاً أملس مُطَوَّقًا بحزامٍ جلدي بحليةٍ ذهبية أنيقة، وفانلة نادي «آرسنال» البريطاني لكرة القدم، بلونها الأحمر الفاقع.

أخذت أصابعه بين أصابعها الرقيقة، وقادته عبر غرفة المعيشة إلى رواقٍ داخلي. كانت الشقة فخمة بديعة، هادئة الإضاءة، تمتلئ بالأعمال الفنية والمجسَّمات النحتية الرشيقة. ثم وصلا لغرفة نوم فسيحة. دعته لأخذ راحته في الجلوس، واستأذنته في دقائق، ثم دخلت الحمام الملحق بالغرفة، ولم تمض الدقيقة حتى سُمع صوت تدفق الماء غزيرًا من الدُش.

تجوَّل حسين في غرفة النوم، وقدَّرأنها مفتوحة على فراغين على الأقل. احتل مساحة الوسط منها فراشٌ كبير، وعلى جانبٍ منها انتصبت مكتبةٌ تتراص فيها عشرات المجلَّدات والمجلات، وتلفازٌ كبير. وعلى جانبٍ آخر وقفت منضدة رسم هندسي بيضاء، تعلَّقت بحافتها مسطرة على شكل حرف T، وحولها كانت الفوضى: عشارت الأفرخ وقصاصات الورق السميك والشفاف، وأدوات كتابة ورسم، وأقلام فحم ورصاص متناثرة في كل مكان.

تطلَّع حسين بدهش إلى هذا المهرجان، بينما تخرج هي من الحمام بوجهٍ زال عنه المكياج، فما زاد إلا حسنًا، وبِيجامَة حريرية لطيفة. ثم أشارت للغرفة قائلة بزهو: "الستوديو!" تقدَّم حسين بخطوات حذرة متعثرة، وأخذ يمعن النظر في الأوراق، كأنه يفحص مسرح جريمة، وسرعان ما انضمت إليه سَمَا. لم تمض بهما الدقائق حتى كانا جالسين سويًا على الفراش، وحولهما أوراقٌ كثيرة. وعلى الريتمات الماكرة لأغنية «سيبونيه» لـ«كوني فرانسيس» الصادرة عن مُشغِّل اسطوانات حديث، استحوذت سَمَا على زمام الحديث وتكلَّمت عن ورش الأثاث في مصر، واستخدامات الزخارف في الأثاث والديكور، ثم أفرد هو مساحة كبيرة من حديثه للثناء على أعمالها. انسجم الشابان، ونضحت على وجهيهما أمارات الرغد والاستكانة، وتحرَّكت أفواههما بحديثٍ مُشوِّقٍ سلس، سيطرت هي على مُبادئاته بنبراتها الحلوة المسترسلة، وتحركاتها التلقائية اللطيفة. وما يزال المخدِّر يظللهما بجوانحه، بحالة أشبه بغيبوبة روحانية خفيفة، سمت بهما لآفاق بعيدة. أصبح تعلقه النفسي بها أمرًا لا شك فيه، مصحوبًا بحب الصحبة والتعاطف. وفي هذا بدا لنفسه وكأنه انفصل إلى شخصين: الأول مستسلمٌ باهت، والآخر مُكبَّلٌ مُفكِّرٌ دون توقف، وكلاهما منسجم لا يناوئ أحدهما الآخر. وجعل يُسَاءِل نفسه: لقد تحوَّل إلى «صديق»، وها هو الآن في البرزخ الفاصل بين «الصديق»

و«العشيق»، فهل سيجاوز هذا وذاك إلى «العدو»؟ وكان يسألها في تلك اللحظة، وهو يمعن النظر في «فَرَنْتُون» معقَّد مرسوم بدقَّة على قصاصة من الورق:

- الشغلانة دي، جايبة همها؟

هزَّت كتفيها قائلة:

- أنا بأتسلَّى.

تذكَّر شيئًا بشكل مفاجئ، فسألها باهتمام:

- كنت قلت لي إن الـ ecstasy بتاعتي مضروبة، ولازم أجرب الـ ice.. إيه ده بالضبط؟

اعتصرت ذاكرتها لتتذكَّر ما يقول، ثم أشرق وجهها وأجابته:

- «crystal meth» أو «الثلج».

فقال حسين حائرًا:

- عمري ما سمعت عنه.

- لأنه مش معروف هنا.. نازل من فترة.

- جربتيه؟

- (ضاحكة) أنا عاملة فيه دكتوراه!

- بتجيبه منين؟

- اللي أعرفه إن لينا مُوَرِّد مخصوص بيتعامل مع «سافادج جاردن»، وإحنا نبيعه تجزئة للزبائن.

- عندك فكرة عبارة عن إيه بالضبط؟ يعني، صناعته إزاي؟

- اللي أسمعه إنه بيتطِّبخ في معامل، بنقاوات مختلفة.

- واللي كنت بتجيبيه، نقاوته عالية؟

قالت باسمة ومتعجِّبة من هذا التحقيق «البوليسي»:

- يعني.. غالبًا ما بيكون مغشوش، خلطة مسحوق غسيل وسِبِرْتُو!

سألها مندهشًا:

- بتتكلمي جد؟

قالت ضاحكة:

- بأبالغ طبعًا، لكن أكيد كل زبون على حسب قرشه، وشَأشَأته.. لأني متأكِّدة أن في ناس في المحل، لو فعلًا بعت لها مسحوق غسيل، وقلت لها ده نوع هايل جديد يخلّيك صاحي شهر بحاله، يصدَّق ويشتري.. الأولاد والبنات دول أصلًا بيكونوا سكرانين، ومش شايفين قدّامهم.. وأحيانًا بيكونوا تحت تأثير مخدرات تانية.. أنا أعرف بنت عندنا في المحل، أخدت ecstasy، وكوكايين، وكَتَّرِت من شرب الجن والبيرة، وآخر الليلة وقعت في غيبوبة، وماتت بعد ثلاثة أيام.

- وأنت.. إيه رأيك فيه؟

أخذت تداعب أصابع قدميها، وهي تفكر قليلًا. ثم قالت:

- من أيام ما بدأت أشتغل في المحل، في أي حفلة، كان لازم نضرب حاجة، وزي ما تيجي كنت أجرب.. هيروين، وecstasy، وLSD طبعًا.. شمّيت كوكايين، وأخذت أدوية مهدئة ومنشطة من كل نوع.. لكن الcrank...

وبسطت كفيها علامة الضخامة قائلة:

- تأثيره.. واو.. عملاق.. أولًا، تحس في عروقك بطاقة رهيبة، ما تحتاجش تأكل أو تشرب، تركيزك عالي جدًا.. شعورك إنك خفيف، والأهم، إن أي شيء تكرهه، يتحوَّل لشيء جميل، كل إنسان كريه، يبقى مُحْتَمَل.. حتى لو كان جلال السايس، فاهمني؟

أومأ برأسه إيجابًا، ولاحت في عينيه نظرة استحثاثيَّة نشيطة، فتابعت:

- بصراحة، كان يساعدني أتحمَّل حاجات، لا يمكن كنت أتحمَّلها في الأوقات العادية، ويساعدني على خفض الوزن (ومررت راحتها على بطنها) أنا قابليتي للتخن عالية، وموضوع الوزن عندي هَوَس.. المشكلة إن سَطْلته awesome لازم تأخذ مرَّة، ومرَّة، ومرَّة.. وبعد كده تعاني الأعراض الجانبية.

- اللي هي؟

سألها منتبهًا، فجعلت تعد على أصابعها قائلة بحمية واسترسال:

- المتعة نفسها بتنتهي، وبتأخذه بس علشان تقدر تكمِّل يومك.. أنا كنت مجنونة، كنت بأشخره من مناخيري! وآخُذُه دخان، وتعلَّمت الباراشوت! وبدأت أتغيَّر.. بطَّلت الأكل، وبقيت طول الوقت مكتئبة.. ووَسَاوِس وهلاوس.. أكلِّم ناس مش موجودين، أجرح نفسي من الهرش؛ لأني كنت بأحس بحشرات تزحف تحت جلدي.. (وضحكت بنقاء) غير أني بقيت رسميًّا، مختلة عقليًّا.. كان لازم أقف.

قالت كلمتها الأخيرة بأسفٍ واضح، فسألها حسين بإشفاق عن طريقة التعاطي، فابتسَّمت بحَرَجٍ، وقالت:

- زمان، كنت أستخدم لمبة نور، أحرقها وأخلع الفتيل.. وأحيانًا أستخدم صفيحة صودا مخرومة، بصراحة أنا عمري ما دخنته بطريقة نظيفة!

ابتسم قائلًا:

- أنت كنت متشرِّدة على كده.

ضحكت وقالت:

- وصايعة وحياتك.. لولا جلال سِتِّتني، وخلَّاني أتعاطى المخدرات زي البني آدمين!

***

أصبح الضغط على الأعصاب شديدًا، وانقبضت معدتاهما برهبةٍ وحدسٍ ملتهب كأنهما في انتظار مفاجأة. هو: تمخَّضت عن أفكاره تصوُّرات شبقة وخيالات جامحة. وهي: احتدم النزاع في صميمها، واشْتَدَّتْ بِها الْفَاقَةُ لدرجةٍ خطيرة، فأصبحت توَّاقة لتداخل مضطرب وعنيف. إنها تعلم أن العقل هو القوَّة التي تحقِّق التوازن، ومتى يذهب تحل العربدة، وإنها لمَّا تسوء بها العربدة، تعصف بها طاقة حشانية خشنة، تدفعها لتصرفات هوجاء لا رجعة فيها. وهو: كان حرونًا كالكلب. عَلِم أنه مقبل على منطقةٍ غادرة محفوفة بالخطر. كان يظن أنه محمي ضد هذا النوع من الهجمات العدائية، ويضحك ساخرًا من الغواية. لكن ماذا يفعل تجاه هذه المرأة ذات القدرات الفتَّاكة والقوى الوحشية؟!

وفي لحظة صفا فيها الأثير من الكلام، وبلغ التوافق الكيميائي أصفى حالاته، انفجر

الكبتُ الحسيُ إلى ثورة، ووقع الضاريان في احتكاك. التحما في مباراةٍ حاميةٍ فيها من الجوع أكثر مما فيها من طلب اللذة. سيطرت سَمَا على المشهد بزخمٍ عاتٍ، وحاول حسين اللحاق بها في نَهَمِها. فأصبح تشابكهما عضالًا، وتهالكهما شديدًا. تنازعتهما ثيابهما كالأشواك، فنزعاها كيفما اتفق كانسحال اللحم عن العظم. كانت المشقة في تقصيّ الحميمية وليس في دك الخصم، لكن الإدراك الحسي تضخَّم في ثوانٍ، وتدفَّقت في عروقهما عصارات النشوة، وعصفت بهما الذروة، فإذا بهما مسجيان أرضًا جانب الفراش، وقد تمعَّج كل منهما في الآخر.

تسلَّل عبر خلل من باب الشرفة تيارٌ من الهواء البارد، انساب حول الجسمين، وبعث فيهما قشعريرة لاذعة. تبادلا حوارًا هامسًا مستكينًا، زيَّنت فيه سَمَا كلماتها بابتسامات رحبة مضيئة. كم بدت له جميلة وآثار الإنهاك والرضا تنضح على وجهها، فأحبَّها بصدق في هذه اللحظة. كانت فترة مُضطَرِمة بالتوقُّع، خالية من أي حبكة، متخللة اللحم والأعصاب. وفي اللحظة التي تاق فيها لسيجارة، نهضت سَمَا عن الفراش، وجعلت تدفعه لينهض وهو يمانع، حتى سحبته خلفها إلى الحمام بخطواتٍ متهادية كأنها تطأ على السحاب.

الحمام على صغره وبساطته كان نظيفًا مريحًا، غلب عليه عَرْفٌ عطريٌ ناعم. طفقا يتضامان ويتلاطفان بعناية ولطف، بينما يغمرهما ماء الدُش. داعبته بتمرُّس، وملأ هو عينيه من مفاتنها المِغطَاءَة، وتذوَّق حُرماتها بأناة. ولم تمض بهما بضع دقائق أخرى حتى عاودهما الاشتهاء الحرام، فاشتبكا في مَغمَغَان متقِّد، حتى استعصى عليهما الاحتمال، فانفلت الكبت عن عقاله كالطلقة، وسرت فيهما رعشة وافرة الإثمار، صادمة كتيارٍ كهربي. ولم يدريا بنفسيهما إلا وهما راقدان بلا حراك تقريبًا في قعر البانيو، تخرج منهما الأنفاس ملتهبة.

كابدا حالةً من الإنهاك الشامل المُكلَّل بالرضا والسلام. لم تنتب حسين حالة الوخم الثقيل والصداع كعادته بعد كل فعل مشابه، بل راحة صافية لم يكدر صفوها شيء. أما سَمَا فأرخت ظهرها وعقدت يديها خلف رأسها، وجعلت تتنفس بانتظام وعمق، فيرتفع صدرها وتنسحب بطنها في بُحران ونشوة. وغابت من عينيها النظرة الحيوية الحارة، وحلت محلها الوداعة والاستكانة. وما يزال الدُشُ يرذ بمائه عليهما، حتى مدَّت

يديها وأغلقته بسكينة. ثم تمطَّت بشدة وتثاءبت، وقالت بكسل: "نفسي أنام!" أما هو فتفكَّر برخاوة فيما حدث، وفي الخطوة التالية. الآن وقد استنفد كل منهما غرضه من الآخر.. أيذهب كل منهما لحال سبيله؟ هل يعتبر ما حدث تمهيدًا لبدء علاقة مثلًا.. أم أنها نزوة تعقب ثمالة. إنه يتابعها منذ زمن، ويميل إليها كثيرًا، وإن ما حدث اليوم فاق أشد أحلامه جموحًا.. وماذا عن زوجها؟ جلال السايس.. جلال السايس؟! إنه يرتع الآن في عقر داره، فكيف نسي.

- اللي أخذ عقلك.

سمع سَمَا تقول له هذا مُداعِبَة، وهي تمدُّ ساقيها، وتحكُّ قدميها في بطنه وصدره. رفع إليها عينين شاردتين، وأخذ بقدميها وجعل يضغط على رسغيهما بحركات دائرية ضيِّقة ومريحة كمن يرقِّق العجين ويحدِّده، ثم مضى يشدُّ أصابع قدميها برفق، فسري الخدر والملذة في جسدها. ثم قبَّل مقدمة أصابع قدميها، فدُهشت وابتسمت لذلك، ثم إنه سألها بخفوت:

- تحبي نشوف بعض ثاني؟

رنت إليه صامتة، وبدا لها الموضوع غريبًا. لكنها استعادت مقتطفات من لقاءاتهما وأحاديثهما، واستعرضت تسلسل الأحداث من البداية إلى تلك اللحظة. قلبت الأمر على جوانبه بسرعة، وأدركت أن هذا الإنسان لا يهزل.. نظرت إلى جسده القوي المشدود، ووجهه الجميل، وعينيه البراقتين، وأوصاله الناحلة الطويلة، وأدركت أنه -على طول جفائها معه ومُلاحاتها إياه وإعراضها عنه- لم يتوان عن ملاحقتها وتحمُّلها. وأدركت أيضًا أنها لم تستأ منه قط أو تمل، وإن أظهرت هذا فبحكم العادة وأسلوب تصرفها المتكبِّر الجاف تجاه كافة الناس. نعم، إنها تعلم أنها قد تصل بسماجتها لدرجة اللعنة، حتى يشيع السم من حولها، ولا يجد مجالسوها خيرًا أفضل من أن يفارقوها وغيَّها. أما هو فكلما تراه يترك في نفسها أثرًا لطيفًا خفيفًا، حتى إنها تسأل نفسها إن غاب: "علَّه يكون بخير"، وتسأل نفسها إن أشاح بوجهه عنها: "علَّه يكون غاضبًا مني.

دنت منه، وأخذت بوجهه بين راحتيها، وسألته بشيء من الحنان:

- عايز تحبني يا حسين؟!

لم يعرف بما يجيب، لكنها رأت الإجابة على صفحة وجهه، ثم إنه قال:

- أنا نفسي نتقابل تاني يا سَمَا.

تفكَّرت ثم قالت بصدق:

- طبعًا أحب نتقابل ثاني.. وأحب إنك تحبني، لأني أحس أنك مخلص، وفيك خير.. إيه رأيك نتقابل كل أسبوع مرة.. ونشوف، لو موضوعنا مشي بسلاسة نتقابل مرة واثنين وثلاثة.. موافق؟!

كان هذا تجاوزًا فادحًا لضوابط وضعتها لنفسها فيما يخص علاقتها بالآخرين، لكن المواقف المتطرفة تحتاج لإجراءات متطرفة. وربما يأتي عليها زمنٌ تتذكر فيه هذا الشاب، وتندم إذ ضيَّعته ببساطة. ولقد تورَّد وجهها بهجةً عندما أومأ برأسه إيجابًا، فدفعته برفق ليرخي ظهره على جانب البانيو واعتلته. تعانقا، وجعل يلثم وجهها وعنقها، وأخيرًا قبَّلت جبهته، وقالت وهي تضحك: "كفاية.. قوم." ونهضت عنه، وغادرت البانيو والماء يقطر منها، فتناولت منشفة وجفَّفت نفسها، ثم ألقتها إليه فتلقَّفها. ارتدت روبًا قطنيًا قصيرًا ذا ملمس وبري ناعم، ودسَّت قدميها في خُفٍ مقاوم للماء. جفَّف نفسه جيدًا وتبعها خارج الحمام، وانشغلا بجمع ملابسهما المبعثرة. وبينما يرفع سرواله على خصره، انفتح باب الغرفة بهدوء، وسد عتبته جسمٌ هائل الحجم يغلب عليه البياض. ثم إن صاحب الجسم تبسَّم، وقال: "مساء الخير.

***

"أعتذر إن كنت دخلت دون إنذار!"

أجفأت الخُضرة إلى ترابٍ ورماد، وحيث كان الماء، أصبحت الأرض المحروقة! هذا ما بدا على وجه حسين لحظتها، عندما التفت مصعوقًا. كان الواقف عند الباب هو جلال السايس، محتلًا عتب الباب على اتساعه، ومرتديًا بَذلَتَه البيضاء، وخلفه وقف رجلٌ ضخمٌ ستين البيان، يرتدي بَذلَةً سوداء كاملة. نظر إليه حسين بذهول، ثم إن ذهوله وقع في نفسه محل دهشة، لأنه كان يتوقع حدوث أمر كهذا! بل إنه، وسَمَا، تحريا شيئًا من الحرص في إظهار نواياهما في الملهى. ألم يذهبا سويًا إلى دورة المياه على رؤوس الأشهاد، أمام الرواد وموظفي الأمن، ويغلقا عليهما بابها لنصف ساعة على الأقل؟ ألم

يعبر كلٌّ منهما أمام عينيّ الرجل، وهما في طريقهما للخروج؟ ألم يقل في نفسه: "أبشر أيها الخنزير، اليوم أقع بامرأتك؟" وها هو الخنزير يقف أمامه. أدار عينيه إلى سَمَا، فإذا بها ساكنة كأنَّ شيئًا لم يكن، منشغلة بعقد نطاق ثوبها، وعلى وجهها دلائل الاتِّزان وعدم الاكتراث. ولقد أنهت ما يشغلها، وواجَهَت زوجها قائلة بهدوء: "أنت فعلًا دخلت دون إنذار، وبقلة ذوق.

كان حسين حافيًا، عاري الصدر، لا يستره سوى سروال لم تُعقد له أزرارٌ أو زمام. واجتاحه دفقٌ حسي قوي ينضح بالخطر. إن هذا هو الغرام الذي يستحق الموت من أجله، بَيْدَ أنه لا يريد الموت. لابد من البحث عن مخرج ذكي دون أن يعميه الفزع. إن هذا الرجل ربما تساهل مع وجوده في موئل نشاطه، لكنَّه الآن في عرينه وعقر داره.

امتقع وجه حسين إذ ينظر إلى جلال منتظرًا إجابته ورد فعله على تدخله الذي حدث "دون إنذار" و"بقلَّة ذوق." ولقد قال الرجل بدماثة: "واضح جدًا.. أنا اعتذر!" كان هادئًا جدًّا لكن الشريلوح في عينيه جليًّا، فضلًا عن نظراته المُعبِّرة غاية التعبير، فهو يبدِّل النظر بين حسين وسَمَا باستهجان، ويهزُّ رأسه برتابة كأنما يجاهد لاستيعاب المعطيات. عقدت سَمَا ذراعيها، وقالت بلهجة متراخية: "بعد إيه؟ أنت دخلت فعلًا، والرجل اتخض!"

للحظة بدا الحوار منافيًا للعقل، ثم خطر لحسين خاطر أن تكون على اتفاق معه. أن تكون استدرجته هنا ليرى الرجل شأنه معه بعيدًا عن الأعين. يا للمصيبة! إنه تصوُّرٌ مثالي، والمرأة عاهرة، والرجل قوَّاد. لقد استدرجته العاهرة إلى هنا. لقد علم جلال السايس عنه شيئًا، ودفع زوجته لاستدراجه إلى هنا، إن كانت زوجته.. إن كانت زوجته؟! إنها ليست إلا عاهرة تعمل في الملهى، وما سلوكها معه من البداية إلى النهاية إلا سلوكيات المومسات واللصوص في استدراج ضحاياهم! لكنها.. لكنها زوجة جلال فعلًا، لقد رأى بعض صور الزفاف في غرفة المعيشة. وبناءًا على خِضَم تكهناته نظر إلى سَمَا بفزع. لقد وقع مرَّة أخرى. لكنَّها رمته بنظرة مُطَمْئِنَة وبسمة خفيفة، وأشارت له خُفْيَةً بأن يهدأ، فاختلط كل أمر في رأسه. نظر لجلال، وهمَّ بفتح فيه ليقول شيئًا ما، لكن جلال عاجله، ورفع كفه رافضًا، وقال بقرف: "اعفني من سماع صوتك، ويا ريت تكمل لبس هدومك.

انحنى حسين وأخذ يرتدي ملابسه بسرعة. لم يدر ماذا أصابه. أين بجاحته وشراسته وقلة حيائه؟ لقد نسي كل شيء، وجعل همَّه مغادرة المكان، قبل أن تتطور الفضيحة للأسوأ. كان يرتدي ملابسه بارتباك وشيء من ذعر كبغيٍّ ضُبطت في شقَّة، فلم يستطع الوقوف كالرجال أمام هذا البغل. لم يفكر في الحسرة والندم اللذين سيأكلان قلبه عما قليل إذا ما خرج من الشقة سالمًا، ولم يفكِّر في موقفه أمام سَمَا، التي ملكت عليه جوارحه منذ قليل. بل إن موقف جلال المتبلِّد العجيب أورثه تشوشًا فما عاد يقدر على التفكير السليم. وبينما يحشر قدميه في حذائه، رَمَق جلال زوجته بنظرة ثاقبة لسان حالها يقول: "حسابك معي فيما بعد.

أما هي فتحرَّت الوقوف جانب حسين في حركاته المرتبكة كي لا يظن الشاب بها الوضاعة واللؤم. ثم إنها وضعت يديها على وسطها، وسألته بتحدٍّ:

- على الأقل، المفروض تكون متضايق.

هَزَّ رأسه مستاءً، وقال وعيناه الضيقتان ترمشان:

- أنا فعلًا متضايق.. واللي يضايقني أكتر، إن ذوقك في انحدار مستمر.

وأشار لحسين متابعًا بازدراء:

- شفتي فيه إيه الجربوع ده؟! ده زي فرع شجرة ناشف!

رمقته بنظرة هتكته من أعلاه لأسفله، ولسان حالها يقول ساخرًا: "انظروا من يتكلم!" كان كلاهما قليلًا، بينما تُعبَّد سُبُلُ التواصل بينهما بالنظرات من كل نوع، يتشاحنان عبرها، ويتبادلان التحدِّي وتقاذف الألفاظ، دون أن يفض أحدهما فاه إلا في أضيق الظروف. كانا يتفاهمان بالنظرات بانسجامٍ وسلاسة لطول العشرة، حتى وإن لم تكن على خير. لذلك فهم نظرتها، وابتلعها بعسر، وقال مشيرًا إليها باستهانة:

- يا ريت أنتِ كمان تلبسي حاجة محترمة شويَّة.. أنا جاي تعبان، وأحب أنسى الموقف المؤسف ده.

تجاهلته، ومالت قليلًا لتبصر الرجل المتين الواقف خلفه، وحيَّته بابتسامة غير مريحة قائلة:

- مساء الخير يا شاكر، إزيَّك؟

ركَّز المدعو شاكر نظره بتفحُّص على روبها القصير الذي يُسرِّب بياضها من فتحة الصدر الواسعة وساقيها الطويلتين، وقال باسمًا بسماجة:

- مساء الخير يا مدام.

رَمَقَهُ جلال بنظرة مستنكرة، وقال ينهره بغلظة:

- اكسر عينك يا حيوان.

ثم التفت إلى حسين الذي أنهى ارتداء ملابسه وجمع حاجاته، وسبل طريقه لخارج الغرفة. عَبَرَ الرواق بسرعة وخلفه هرول جلال بمشقة يتبعه رجله، وعندما وصلوا لغرفة المعيشة، ولاح باب الشقة عبر بهو الاستقبال، هتف جلال مخشنًا: "استنَّى هنا يا حيوان."

تسمَّر حسين، وفكَّر، هل يتجاهله ويمضي، أم يبقى وينصت للكلمتين؟ ثم إنه التفت مرتقبًا الشر ناظرًا في وجه الرجل، الذي تقدَّم تجاهه بخطوات بطيئة وصعبة. ثم نظر فيما وراء كتفي جلال، فإذا بسَمَا تخطو جهة البار، حيث استوت على مقعدٍ أنيق مقابل لطاولة البار. أشعلت سيجارة، وجعلت تدخِّن وتراقب الموقف، بينما وقف شاكر بين غرفة المعيشة وبهو الاستقبال، ومن خلفه يبدو منفذ الخروج، أو الهروب، كما رآه حسين لحظتها.

ثم اقترب منه جلال كثيرًا، حتى شمَّ حسين رائح ريقه وهو يقول مُسْتَتْفِهًا:

- أنا شفتك في البار قاعد جانب حرمنا المصون (مشيرًا إليها بإبهامه من دون أن ينظر).. طبعًا كانت صيدة ما كنتش تحلم بها.. إنت تطلع إيه بقى؟

لم يعرف حسين بما يرد، فتدخَّلت سَمَا، وقالت بجفاء والدخان يخرج مع كلماتها:

- سيب الرجل يمشي يا جلال، وتعال كلِّمني أنا.

التفت إليها، وصرخ ينتهرها:

- اخرسي!

تنهَّدت متضجِّرة، بينما التفت هو إلى حسين وقال وبوادر الشر تبدو على وجهه:

- مالك يا حيوان؟ ما تخافش، أنا مش حأذيك، المرة دي بس.. لكن لو...

واستمر يتحدث ووجهه ينضح بالحمرة. حدَّق حسين في وجهه كأن هذا أول عهده بإنسان. استغرقته ملامحه وشَرُدَ في اختلاجات وجهه، ولحظ ما لم يلحظه من قبل بسبب بُعد المسافة. إن وجهه في القرب كبير جدًّا. تام الاستدارة كالبدر، ليس جمالًا بل استدارة هندسية بحتة. عيناه رماديتان ضيِّقتان، وجفناه ثقيلان منتفخان، وأنفه حاد الطرف، أسفله بثرة كبيرة وقبيحة. غابت ذقنه بين تكوينات دهنية كثيفة بطَّنت فكه وعنقه. الواقع أنه صُبَّ من قالبٍ دهني كبير.. كل شيء فيه طري زائد الحمولة، حتى أصابعه. بذل في كلامه رذاذًا كثيرًا ومجهودًا شاقًا امتزج بلهاثٍ وصرير، حتى ظنَّ حسين أنه مصاب بالربو أو داءٍ تنفسي عضال. لم يلتقط من حديثه المتَّصل المغتاظ إلا بعض الفقرات منعدمة الترابط، كأمثال: "يا حيوان أنت"، و"يا زبالة"، و"لو شفتك مرة ثانية، ولو صدفة"، و"انس إنك عرفتها"، و"أنت ما تعرفش من أنا، وأقدر أعمل فيك إيه"، إلخ. ثم تذكَّر سَمَا، وكم أَحَسَّ بالإشفاق والتعاطف على الشابة المسكينة التي تضيع فتوتها وبهاؤها بين تموُّجات الدهن وكتل اللحم. الأدهى أن الأحمق كان يضع مكياجًا، أي نعم، ويدهن شفتيه بطلاءٍ باهت! كم مقته في هذه اللحظة، وكم تمنَّى أن يقتله ويخلِّصها من براثنه وزوائده وعطفاته الممتدة في كل مكان. حقًا، إن الدنيا ظالمة. إنها فرضية غريبة وفاحشة، أن يحصل مثل هذا الإنسان على مثلها، ويجرؤ على مواقعتها. إنها التعاسة بمعناها. كيف يتعايش مع نفسه وهو على هذه الصورة؟ كيف يتقبَّل بشاعته وسمنته؟ وإن فعل، فليتقبلها كبليَّة وفادحة من فوادح الزمن التي لا مرد لها، أو كورمٍ قبيح لا سبيل لمنع نموه.

ومع كل جملة وجَّهها إليه جلال، رَدَّ عليها حسين من الباطن. أخذ يُبَكته، ويوجه إليه عبارات من أمثال: "لابد أن تنتحر، فأنت لا تؤذي نفسك فحسب، لكنك تؤذي أنظار الناس.. فكيف إذن بهذه المُبتلاة المسكينة؟! إنك تقتلها أيها الأحمق، تقتلها!" "كيف ترقد جوارها؟ كيف تمسُّها؟ لقد بيدت الرحمة من قلوب البشر.. أتجامعها؟! عليك اللعنة!" "أنت لا تصلح إلا للمرض، والكبت، والخمول، والأرق، والاختلالات الجنسية، والتفاعلات المَعويَّة." "كيف تجد في نفسك شهوة، وقد كرَّست حياتك للطعام والشراب؟! المفروض، والأصوب، أن تتجنَّب هذا الموضوع مطلقًا." "إنك قبيح. إنك

تجعلني مريضًا. إن تفاصيلك مقزِّزة. إنَّك تصيبني بالغثيان!"

ثم أفاق عندما أخذ جلال بياقة جاكتته، وجذبه إليه بعنف وهو يقول متغيِّظًا:

- لو شفتك مرة ثانية، في البار، أو جانب البيت، أو في المعادي كلها، فعلًا حاذيك.. فهمت؟

أومأ حسين إيجابًا باستسلام، فدفعه جلال باحتقار، وقال متأفِّفًا:

- اطلع بره يا حيوان.

تقدَّم حسين صوب الباب كالمسحور، وسَمَا تتابعه باهتمام، وشيءٍ من إحباط، حتى وصل للباب.. ثم إنه تسمَّر فجأة.. كأن شيئًا ما انفجر في مخِّه.. أو لعلَّه حدسٌ باطني.. أو نداءٌ مباغت من شيطانه.. كيف نسي أنه يقف أمام جلال السايس، أكبر أعضاء شبكة إيلي مجدلاني؟ كيف نسي أن هذا الخرتيت هو المعقود عليه الأمل في الإدلاء بمعلوماتٍ مفيدة؟! كيف تحوَّل في لحظة إلى هذا العالة المُخنَّث؟! أيخاف هذا الفيل العنين، وهذا البَأف الذي يحتمي به؟! ألا تهتز كرامتك أمام المرأة التي كان يفرد أمامها عضلاتك منذ قليل؟ ألا يخجل من نفسه، وهو يفرُّ هكذا، كابْن عِرْسٍ ضال؟! طوفان من الأسئلة الملتهبة عصف برأسه في لحظة.. نفخت شياطينه في روحه من أرواحها، فشعر بتخبُّطه بين أدراكٍ من الحقد والغيظ، حتى تبدَّل من حالٍ إلى حال.. تتابعت في نفسه تفاعلات انفجارية، أدَّت إلى نواتج ونواتج فرعية، أدَّت بدورها إلى تفاعلات كيميائية أخرى زادت من كميَّة الطاقة الحبيسة في أعصابه وعضلاته.. أحَسَّ بارتفاعٍ مهولٍ ومدمِّرٍ في درجة الحرارة والضغط.. ثم التفت إلى جلال ببطء، ونظر إليه بعينين غزتهما الحُمرة!

توضَّحه جلال مندهشًا، ورأى في عينيه لمعانًا زائدًا وعكارة. سَرَت جرأة مباغتة في دم حسين لدرجة الاستعداد لدفع الأمور للتدهور تجاه القبح. إنه الآن مشحون للاشتباك، وقد رتَّب في ذهنه على وجه السرعة مجموعة احتمالات، وقدَّر أنه سيتصرَّف ضمن إمكانات تداعٍ معيَّنة، مع الوضع في الاعتبار أن تأزُّم الموقف سيحتاج قدرًا من العنف. ومن ثم عاد لغرفة المعيشة، وتقدَّم نحو جلال ببطء، وأخذ يزوم بصوتٍ خشنٍ خافتٍ كذئبٍ أغبرٍ مُضْطَرِب.

ارتبك جلال ولم يدر كيف يتصرف. رأى في عينيِّ هذا الشخص الهزيل نظرة جوع

خطيرة، فتولّاه شيءٌ من الخوف، استمر لحظة، ثم انقلب إلى غيظٍ واستنكارٍ عظيم. احتشد فكأنه تورَّم، ثم هتف بصيحة قبيحة: "شاكر!" راقب شاكر الموقف بعينيه اللئيمتين، متابعًا كل حركة وسكنة من الحاضرين، فما أن سمع الصيحة حتى انقض. بدأ بلكمة كانت قوتها الدافعة جسمه بأكمله، تلقَّاها حسين في بطنه، ومع شهقة سَمَا الفزعة أطلق شاكر قبضته الأخرى في وجه حسين، فكادت أن تخلع رأسه عن عنقه، وألقته أرضًا بقوَّةٍ عاتية رجَّته رجًّا. انكمش حسين على نفسه وهو يئن بصوتٍ مرتعشٍ ممطوط. كان الألم رهيبًا، لكنَّه تحامل على نفسه ورفع رأسه إلى ضاربه بعينين مُحمرتين، وأنفٍ دامٍ، وتعبيرٍ بليد. أطلق شاكر لكمته الأخيرة بقوَّة باطشة أصابت رأس حسين وأكبته بقسوةٍ أرضًا.

نزلت سَمَا عن مقعدها مصعوقة، وتملَّكها الرعب والمفاجأة، لكنَّها لم تجرؤ على التدخُّل. نظر شاكر إلى حسين بشيءٍ من الزهو، ثم رفع رأسه إلى رئيسه يطلب المشورة. كان جلال يبدِّل النظر حائرًا بين حسين وسَمَا، ولما رأى دلائل اللوعة تتبدَّى على وجهها تمكَّن منه الغيظ فأشار لشاكر أن يتم عمله.

كان حسين يتقلَّص بعضه على بعض محاولًا النهوض، عندما ركله شاكر في وجهه بقوَّةٍ هائلةٍ أكبَّته على الأرض مرةً أخرى، ثم تداعى عليه باللكم والركل، حتى أن سَمَا تقدَّمت خطوتين صارخة: "كفاية، كفاية." لم يكن شاكر في حالٍ تسمح له بالسمع، وما زال يضرب وقد استفزَّه صمت حسين واستسلامه، فصار يشتد عليه دون رحمة. ثم فوجئ بسَمَا تدرك حسين وتنكب عليه لتحميه، فأصابها بآخر ركلة في جذعها، وتراجع مصعوقًا. صرخت بألمٍ مبرّح، وأخذت بجسم حسين بشدة، وما أن دوَّت صرختها حتى تحرَّك جلال مرعوبًا، وصرخ برجله بأن كفي.

توقَّف شاكر فورًا، وتقهقر خطواتٍ وهو يلهث والعرق يغطي وجهه، والدم يعلق بأصابعه. وبينما تمسَّكت سَمَا بما أدركته من جسم حسين، وأخذت عليه وضعًا جنينيًّا محاولة اتِّقاء ضربات جديدة، اتَّجه جلال إلى رجله، وجذبه من ذراعه العريض صارخًا بغضبةٍ عارمة: "أنت اتجننت يا حيوان؟! اتجننت؟!" اعتذر شاكر لاهثًا، وتعلَّل بأنه لم يرها، وأنها تدخَّلت فجأة فجاءت ضربته رغمًا عنه، والحمد لله أنها لم تسبِّب أذى.

حدّجه جلال بنظرة متوعِّدة، ثم نظر الاثنان في آن واحد بترقُّب للجسدين المتكوِّمين أرضًا. وكانت سَمَا تهمس لحسين في أذنه بصوت خفيض جدًا:

- أنت اتجننت يا حسين؟ بتعمل كده ليه؟! عايز إيه بالضبط؟

وانقبض صدرها عندما رفع إليها وجهًا داميًا، وقال بذات الهمس يسألها:

- البني آدم ده ضربك قبل كده، صح؟

- امشي يا حسين دلوقت.. ما تسمحش للأمور إنها تتطوَّر عن كده.

قال بإصرار وهو لا يكاد يحسن الحديث من الدم الذي يملأ فمه:

- ضربك الكلب قبل كده.

هزَّت رأسها يائسة، وقالت:

- قوم وكفاية كده.. اسمع كلامي، ده جوزي، وأنا أدرى الناس به، ممكن يقتلك هنا ولا يهمه.

وأخذت بذراعه لتساعده على النهوض، وما زالت تهمس:

- أنا اسمي سَمَا يوسف.. أنت معاك تليفوني، وعرفت عنواني.

نهض معها بعسر، هي تردف:

- تمشي دلوقت، وتكلمني الصبح، تِطَمِنِّي عليك.. ما تقلقش عليَّ، أنا أعرف أتعامل معه كويس.. ما تنسانيش.

فوجئت به يبتسم متشفيًا، ويقول:

- أوعدك إنك الليلة دي، حتخلصي منه.

همست فزعة:

- ما تكونش مجنون.. بلاش الكلام الفارغ ده.. توديني، وتودي روحك في داهية، علشان المخلوق ده؟

أخيرًا استطاع إقامة عوده على استقامة، لكن رأسه ثقل، فتهاوى لولا أن لحقته بفزع. وهنا نفذ حلم جلال فقال لرجله متغيِّظًا:

- وصِّل البك بره يا شاكر.

تقدَّم شاكر من فوره، وأزاح سَمَا بغلظة قائلًا: "بعد إذنك يا مدام"، ورفع حسين من مؤخرة رأسه بقوَّة مفاجئة، وسحبه إلى الباب دون مقاومة، حتى خرجا. كان الدم يلوِّث رقبة حسين، وشاكر يحمله كالنعجة من جاكتته، وما أن خرجا من باب الشقَّة، حتى طوَّحه شاكر تجاه السُّلَّم ليرتطم بدرجاته متدحرجًا. تراخي حسين على بسطة السُّلَّم كالميِّت، فيما عدَّل شاكر من هندامه، ومسح العرق عن جبهته وعنقه، ثم أخذ نفسًا عميقًا وعاد أدراجه للشقَّة.

ومن وضع مقلوب وعينين نصف مغلقتين راقبه حسين وهو يغادر، ووَجَدَ نفسه يقارن بين هذا الحيوان المفترس وبين النونو! تملَّكته حالة من البرود واللامبالاة، سمحت له بتخيُّل منازلة بلهاء بينهما: النونو بقوَّته الخام، وشاكر هذا بكيانه العضلي المنتفخ. وإن النونو قادرٌ على أن يفتك بهذا الحيوان، سيفلق رأسه بنطحة من جبهته المتحجرة. كان عدم اكتراث حسين يرجع بالدرجة الأولى لمعرفته الخطوة التالية، فكأنه مراقبٌ خارجيٌّ عليم، يعرف قطعًا أن ما يحدث هو مقدِّمة لأحداثٍ لاحقة سيندم عليها الجميع. ولكن لما عاد إليه إدراكه وهجمت عليه آلام كدماته الحارقة، سأل نفسه وجراحه تَبُثُّ فيه من الغيظ واللهب أضعاف ما تبث من ألم: لماذا يصر على التحرُّك دون النونو؟

وعندما دفع شاكر باب الشقة، رأى سَمَا وجلال متواجِهين، ودلائل التحدِّي تتبدَّي على وجه كلٍ منهما. وكانت سَمَا تسأله بانفعالٍ شديد:

- أنتم ما عندكمش رحمة؟

أجابها جلال كاظمًا غيظه:

- يا مدام لك عين تتكلمي؟! أنا لولا مش عايز دوشة، كنت عرفت أتصرَّف مع الحيوان ده.

ضمَّت كفيها على بطنها، وميَّلت رأسها قائلة بحدَّة:

- طيِّب اتفضَّل، مع السلامة.

تابع جلال كأنه لم يسمعها:

- آدي مجايبك يا مدام.. كنت حتجيبي لي في مصيبة على آخر الليل، لولا إني رجل عقلاني، وبأحسب تصرفاتي.. اتفضّلي حضّري لي حاجة آكلها أنا والحيوان ده (مشيرًا لرجله).. أنا جاي تعبان.

احتقن وجهها غضبًا، وحارت جوابًا، ثم قالت مغتاظة:

- اتفضّل اطلع بره، أنت والكلب بتاعك.

هتف جلال مندهشًا:

- أنت بتطرديني من بيتي؟!

أشارت إليه بسبّابتها، وقالت بحدّة:

دي شقتي أنا.. اطلع بره حالًا، بدل ما أعمل لك فضيحة.

تلفّت حوله مستنكرًا، وقال:

- أنا مش مصدّق.. أنت متضايقة، وبتطرديني، مع أنك كنت في موقف، أي رجل غيري، كان ممكن يتصرّف بطريقة غير كده خالص.. كان المفروض تكوني، أنت والحيوان ده، أموات، فاهمة؟ أموات.

ارتفعت نبرة صوته بمنحنى حاد مع الكلمة الأخيرة، فتنهّد وقال محاولًا استعادة هدوءه:

- يا سَمَا، يا حبيبتي، أنا مقدِّر غضبك! وإن كنت مش لاقي له سبب.. المفروض إني أنا اللي غضبان، لكن ما علينا.. أنا أسامحك على كل حال.

حدّقت في وجهه بعجزٍ وغيظ، ثم قالت حانقة:

- أنت.. علشان مش رجل! لو كنت رجل.. ما كنتش تفتخر أنك تصرّفت بطريقة مغايرة لتصرُّف الرجال!

أشار إليها بكفه محذرًا:

- اسمعي.. أنت تؤذيني بكلامك.

قالت بين الغيظ والهزأ:

- الحمد لله إنك بتحس.. دي معجزة!

- ما تضغطيش عليَّ، ولا تختبري صبري يا حلوة.. أنت تعرفي غضبي كويس.

تقدَّمت منه، وقالت باستفزاز:

- أنت شخص مش طبيعي يا جلال، والله العظيم.. لازم تروح لدكتور.

- اللهم طوِّلك يا روح.

قالها بنفاد صبر، ثم دعاها مهادنًا أن تتركه وحاله، وتذهب لتعد له شيئًا يأكله، وصار حائرًا متملِّقًا بين صنف تعدَّه وآخر. فقالت والاختلاط يُغلي دمها:

- اسمع يا مهرِّج أنت! أنت شكلك سكران، أنت والجحش اللي معاك.. يا ريت تأخذه، وتغور من هنا حالًا.

أغمض عينيه، وبلع ريقه متضررًا، وقال مشيرًا إليها:

- أنت تستفزيني يا مدام.. تستفزيني!

زفرت وقالت ضاغطة على أعصابها، ومشيرة للباب:

- خلاص يا جلال.. لا أستفزك، ولا تستفزني.. تفضَّل مع السلامة.

- أنا طول عمري معاكي مؤدَّب، ومحترم.

ارتفع صوتها واحتدَّت إذ تقول:

- أنت وجودك في حد ذاته، شيء غير مؤدَّب أو محترم.. كونك تشغل حيِّز في حياتي، ده شيء غير محترم، أو مُحتمل.. الحقيقة يا جلال أني زهقت منَّك.

زفر حانقًا، ولوَّح بذراعيه بعنف قائلًا:

- الظاهر إني بصبري عليك، جرَّأتك عليَّ.

وخارج الشقة، جلس حسين على الدَرَج، واضعًا رأسه بين كفيه ليُغالب الألم والصداع. انتهى توًّا من مسح الدم عن فمه، ثم جعل يتحسَّس أنفه كأنه يستعدله، ولم يكن به كسر لحسن حظه، وإن أحَسَّ أن الوَتَرة بين الخُرمين قد انسحقت سحقًا من شدة ألمه. ودسَّ أصابعه في فمه ليتأكَّد من عدم وجود كسور في الأسنان، ثم أخرج

منديلًا ورقيًا وأخذ يمسح كل ما يراه من قطرات الدم المتناثرة على بسطة السلم والدرجات.

نَمَا صوت الزوجين إليه مبهمًا حادًّا، وخشي على سَمَا من بطش هذا الرجل، وتمنَّى لو يتدخَّل. لكن الكتف لا تؤكل هكذا، وليست كل المعارك تؤخذ بالمواجهة. سيصبر، وعزاؤه أن هذه المرأة تبدو على قدرٍ من القوَّة والمِرَاس يؤهلها لتدبُّر أمرها، وأن هذا الرجل يبدو على قدرٍ من الرخاوة والدِياثة تؤهِّله لتجاوز الموقف. دسَّ المنديل الملوَّث بالدم في جيب سترته، واجتهد لينهض مستندًا بيديه على الجدار، ونَزَل بتركيزٍ مراعيًا حفظ اتزانه.

وبالأعلى احتدمت المواجهة بين سَمَا وزوجها، إذ تُكرِّر عليه:

- امشي يا جلال بدل ما أعمل لك فضيحة.

- أنت ما تقدريش تعيشي من غير فضائح.. لكنَّها غلطتي من الأول، أنا اللي لِمِّيتك من الشوارع، وافتكرت إني ممكن أخليك محترمة.. بس أقول إيه في الآخر؟ ما أنت مَرَة وسخة، والمنْيَكة في دمِّك! على الأقل زمان كنت تكسبي منها، دلوقت مجانًا! كل من هب ودب تدخليه بيتي، اللي أنا اشتريته بفلوسي.

حدَّقت في وجهه مذهولة، وكانت أول مرة تسمع منه حديثًا فيه من القوارص ما لا تحتمل فحشه، لكنَّه أكمل دون هوادة ملازمًا التنغيص والإيلام:

- أنا عايزك يا حلوة تفتكري أيام ما كانت الزبائن تدخل عليك والساعة تعد.. ربع ساعة فاتت، خلاص، تقومي زيّ الكلبة، تأخذي عرقك وتدسِّيه في عِبك، وعلى اللي بعده.. افتكري، علشان تقدَّري النعمة وتهمدي.. وإلا، وغلاوتك عندي، الليلة دي، أكون مطلَّقك، وأبعتك تقفي على النواصي.

وتقدَّم منها، وجعل ينقر جبهتها بسبابته بخشونة قائلًا:

- افتكري، هه، افتكري!

تسارع تنفُّسها حتى أحسَّت أنها توشك على الموت، وتولَّتها رغبةٌ قادحة في التنكيل بهذا الوحش. كيف؟! حانت منها نظرة إلى شاكر الذي يراقب الموقف بشغف، فغشيتها ضغينةٌ مهلكة. تَلفَّتت حولها عاجزة، والكلمات تختنق في حلقها، والتساؤل يرتد في

جمجمتها من جانب لآخر ككرة مطاطية. كيف؟ كيف؟! وكبالون انتفخ حتى انفجر، انفجرت هي، وقد اتخذ وجهها تعبيرًا وحشيًّا:

- أنت مش رجل! مش قادر عليَّ، علشان كده بتتفنن في إهانتي.. حاسس إنك شخص حقير وضعيف بالنسبة لي.. أنت أناني ومقرف، كـ. كل مرة تلمسني فيها، بأحس أنك بتغتصب كرامتي وجسمي.. كل لمسة على جلدي زي لطخة القطران، مليانة من نجاستك وأذاك.. أنا باكرهك يا جلال.. أنت بتيجيلي، وتنام معايا، وأنت عارف أني بأخونك.. بتضربني وتشتمني، وتفرَّج كلابك عليَّ (مشيرة بسبابة مرتجفة لرجله) لأنك بتخاف مني!

تجلَّد جلال وصبر حتى أنهت كلمتها، ثم قال بسكينة ظاهرية تكظم دونها فوران ولهب:

- أنا مش حأحاسبك على كلامك.. ومش حأطفح! بكره تهدئي، ونتكلم، ونحل المشاكل دي.. لأن الواضح أنك شايلة مني كثير.

ودفعها في ظهرها برفق تجاه الرواق، قائلًا بصبر:

- يالا يا ماما.. ادخلي!

للحظة مشت مع خطاه الدافعة، ثم بدت شقَّتها في تلك اللحظة جحيمًا لا يُطاق، وفي لحظة عقدت العزم على تصعيد الموقف لأقصي درجة، فأطاحت بيده، وصرخت في وجهه:

- إياك تمسَّني مرة ثانية.. غور في ستين داهية، مش عايزة أشوف وشُّك مرة ثانية.. سافر، مُت، طلِّقني، المهم تغور!

تسمَّر جلال مكانه، وتملَّكه العجزوالذهول، فاستمرت في صياحها:

- أنت دمَّرت حياتي.. استغلتني زي الكلبة.. شوية مع زبائنك، وشوية بفلوسك، وشوية لنفسك! اطلع بره بيتي!

تلفَّت جلال حوله وهو يعضّ على نواجذه، حتى بان انقباض فكيه، ثم إنه نفخ وقال حانقًا: "ما فيش فائدة"، وانقض. قذف ظهر كفه تجاه صدغها، فدوَّت اللطمة ودفعتها للخلف، وضربت ظهرها بحافة طاولة البار. وقبل أن تستوعب ما حدث كان يجثم عليها بوزنه الهائل، حتى أحَسَّت بضغطٍ قاتل بين جسمه وبين الطاولة. غرس أصابعه

في رقبتها ليمنعها من الردّ عليه، وليشفي غليله في الوقت ذاته، ثم قال بصوت كتم الغضب بعض نبراته:

- مرّة واحدة، نفسي تسلّمي دون قلة أدب.. مرّة واحدة، نفسي، خناقة ما تنتهيش أني أمد يدي عليك يا سافلة، يا طرح الشوارع.. قلت لك.. قلت لك ميت مرة، أنا باكره الزعيق، وصراخ النسوان.. فاهمة، فاهمة؟!! أف!

ثم أفلتها بحدة، وتراجع. ومع هجومه انحل طوق الروب عن وسطها، وفي هذا نظر شاكر بعينين وقحتين دون مبالاة بسيّده. ولسوء حظّه لحظه جلال فصرخ فيه أن: "اكسر عينك يا حيوان!" كانت سَمَا تدور حول البار، وتلملم ثوبها حول بدنها، وتعقد طوقه مرةً أخرى. ثم استلت سكينًا كبيرًا من أسفل الطاولة الرخامية، وقالت لزوجها بسكونٍ مخيف، وشعرها منتفشٌ حول وجهها:

- مد إيدك عليّ مرة ثانية يا جلال.

التفت إليها وقال مستهينًا:

- وإلا إيه؟ وريني نفسك.

ولقد استجابت، وأرته نفسها! في لمح البصر انقضّت والسكين في يدها.. لم تكن تنوي حقيقةً إيذاءه، بل إخافته فقط.. لكن كيف يعلم جلال هذا.. والأهم.. كيف يعلم شاكر هذا؟

تراجع جلال صارخًا، وركضت هي نحوه، وركض شاكر نحوها. ولقد أدركها شاكر في لحظة واحدة، وصدمها بكتفه كمقطورة، صدمةً زلزلتها وقذفتها بعنف جهة المكتبة. لتصدم إحدى أضلفها الزجاجية وتهشمها، وتسقط دونها مع الشظايا والحطام. حاولت النهوض رغم حالة الصدمة، دون أن تدري أن السكين طار من يدها. وحال رؤيتها تحاول، تمادى شاكر وأخذ بعنق قنينة نبيذ من على طاولة البار، واندفع نحوها، وبكامل طاقته طوّحها جهة رأسها.

كان جلال متّجهًا صوبها بلوعة، عندما انفجرت قنينة النبيذ كالقنبلة في رأسها، وتناثر السائل الوردي مع شظايا الزجاج، وطالت جلال رشّة مفاجئة على وجهه وملبسه، ثم تهاوت سَمَا أرضًا كبناءٍ يتداعى في لمح البصر. لحظة مرّت، بعدها ألقى شاكر بعنق

القنينة من يده، وتولّاه فزع عجيب. أما جلال فذُهل، وجعل يبدّل النظر بين زوجته ورجله. جلست سَمَا أرضًا، ظهرها مستندًا للمكتبة، ورأسها مُنكّس، وبطانة مجلسها شظايا الزجاج. ولم يدر أحدهما أهذا الذي هي عليه، سكون المصدوم، أم ثبات الموتى.

استمر صدر شاكر العريض ينتفخ ويُفرّغ بوتيره متسارعة. كان خوفه عاتيًا لم يشعر بمثله قبلًا.. ليس لنزوع نفسه إلى الرحمة، ولا لعدم اعتياده إيذاء الناس، لكنّه قتل زوجة رئيسه.. هذه الجلسة وهذا السكون ليسا إلا لقتيل.. فماذا هو فاعل به؟! تنازعته المخاوف، والغضب، وجعل ينظر إليها، ثم إلى سيّده مُتربصًا، والدم يسري حارًّا في عروقه.. لو غدر جلال به، فليس من حلٍّ إلا قتله، ها هنا، الآن. وهو قادر على تلفيق مسرح جريمة يمكن تصديقه، وكل الملابسات مُيَسَّرة. يا للشيطان، ماذا فعل؟!

أما جلال فكان ذهوله شاملًا، خالصًا مما يشوبه، أفقده القدرة على النطق أو الفعل.. شعر بخازوقٍ يُدَقُّ في قلبه بتمهُّل.. وكسمٍّ زعافٍ يسري، سرت إلى عقله أفكارٌ مفزعةٌ ورهيبة.. كيف حدث هذا؟! كيف تدهورت الأمور لذلك الدرك السحيق؟ ماتت؟! بدت له على خير ما عهدها نضارة وحسنًا، وإن تراخى وجهها وتهدَّلت أوصالها، وتخلّت عنها حيوية الحياة.. ماتت؟! حُبُّه الوحيد، ومتنفَّسه اليائس، وعقدته وسبب شقائه، ومصدر ذله.. الأدهى أنه متورّط في المصيبة.. لماذا صعَّدت المشكلة تلك المرة بالذات؟ ما الجديد؟ أيكون السبب هو هذا الشاب الذي طرده؟ ولماذا؟! إنها ليست أول مرة، وهو لم يَقسُ عليها! على العكس، لقد حاول قدر الإمكان كظم غيظه وقنوته وغيرته وجنونه، وكراهيته العمياء.. ماذا عليه أن يفعل أكثر من هذا؟

وحانت منه نظرة إلى رجله، فلم يأنس فيه غير فزع أشد.. ماذا يفعل به الآن؟ بل ماذا يفعل هو به؟ إن له خبرة بهذا الصنف من الرجال، ويعلم ما يفكِّر فيه الآن. إن صمته وثباته دلالة على تدبير يُحاك الآن في رأسه. ولو بدرت منه -أي جلال- بادرة غدر، فلا يستبعد أن يأخذ هذا المُجرم بعنق زجاجة أخرى ليدق رأسه بها. وهكذا ثبت الرجلان، كحيوانين مفترسين يختبر كل منهما عزم الآخر، وينتظر منه المبادرة.

ثم جاءت المبادرة من سَمَا، وعلى غير توقُّع، عندما أنّت بخفوت، وحرّكت رأسها ويديها ببطء، ثم رفعت عينيها وأدارتهما في الفراغ مذهولة. بدت آثار التشوُّش والصدمة

جليَّةً على وجهها وبدنها، وتباطأ معدَّل تنفسها وكأن فيه مشقَّة عظيمة، واعترت أطرافها رعشة لا إرادية، وتسلَّل بعض من الدم عبر أنفها. ربما أرادت أن تتحرّك، لكن لم تستطع، فرقبتها متصلِّبة، وأطرافها كأكياسٍ من رمل. لكنَّها كانت حيَّة، وهذا يكفي، للرجلين أمامها على الأقل.

كان لأنينها هذا وقع السحر عليهما، إذ اعتراهما سكون، وتصاعد من أعماق كل منهما فحيح وبخار كثيف، كمثل ما ينتج عن صبّ ماءٍ مثلجٍ على صفحة معدنٍ ملتهب. لقد انفرجت الأزمة، وليست فيها إلا إصابة بسيطة. بسيطة؟! إنها تبدو على أسوأ حال. لكنَّها حيَّة تتحرّك. إذًا هي بسيطة! ولولا خِفَّة القنينة التي ضُرِبَت بها لانفلق رأسها. انفرجت أسارير شاكر في أريحية، وأخذ ينفخ غير مصدِّق وقد تراخت عضلاته وغمره العرق. أما جلال فكاد يتفتت، ولو طاوع نفسه لبكى لوعةً وراحة، ثم إنه أخذ يلهث وهو ينظر لزوجته، وتصاعدت داخله مشاعر شتى. وأخيرًا لحظ حلته البيضاء وقد غرقت ببقعٍ من النبيذ الوردي، فكأنما جُزِرَت عليها بهيمة، فجعل يتّهته، والحمرة تغزو وجهه. ولما أتم احتشاده انفجر صارخًا مُكسبًا صوته تخانة عجيبة:

- عاجبِك كده؟!! (وكان يوجّه كلامه لزوجته) آدي.. آ.. آدي البدلة توسخت! يا بـ. يا، يا، يا بنت الكلاب، يا سافلة.. أنا.. أنا غلطان، أني لميتك وصرفت عليك.. تيجي بعد كده، وترفعي في وشي سكينة؟! عايزة..؟! عايزة..؟!

وأخذ يتلفَّت واهنًا، رافعًا يديه ومقلصًا أصابعه بتشنُّج. ثم اندفع جهة باب الشقَّة بأقصى سرعة يسمح بها وزنه.

ثبت شاكر في موقعه مبدلًا النظر بين الزوجة التائهة وباب الشقة المفتوح، ثم حَزَمَ أمره، واندفع خلف سيِّده مغلقًا باب الشقة بحرص. أما سَمَا فما زالت تنظر ولا تبصر، ذاهلة عما حولها، ومن منبت شعرها سال مجرى سميك من الدم.

***

سينتظر، ولو لألف سنة سينتظر!

غلبت على الشارع الضيِّق الظلمة، وتراصت على جانبيه السيَّارات تكاد مقدِّماتها ومؤخراتها تتلاصق، وفي منتصفه وقفت السيَّارة البِنْتِلِي، بأنوارٍ مطفئة. على مقعد

القيادة جلس حسين، بوجهٍ مُكْفَهِرّ وأنفاسٍ مكبوتة. قبض على عجلة القيادة بكلتا يديه، وبشدَّة، وأدار راحتيه بخشونة حول الاستدارة الاسطوانية، فاستشعر صريرًا خافتًا صدر عن الاحتكاك. تقلَّصت عضلات رقبته وارتخت بنبضاتٍ منتظمة، وجعل يرمش بتوتُّرٍ ولهفة.

ثم لاح جلال مندفعًا من بوابة البناية، وخلفه حارسه الضخم، ليعبرا الشارع الضيِّق. حرَّك حسين عصا الفوتيس من فوره، وضغط دوَّاسة الوقود، فوثبت السيارة إلى الأمام بغتة، واندفعت بهديرٍ مخيفٍ ودون إضاءة نحو الرجلين في منتصف الشارع. جلال تلقَّى الضربة مباشرةً، فلم يجد فرصة للصراخ، بل اعتلى غطاء المحرك وبَعَجَه، ومنه إلى الزجاج الأمامي فحطَّمه دفعة واحدة، ثم إلى السقف، فمسَّه مسًا وأكمل دورته في الهواء ليسقط على جانبه كزيرٍ فخاري تفتَّت قطعًا على الأسفلت. أما شاكر فنالته السيَّارة بضربةٍ عنيفةٍ في جانبه الأيمن حطَّمت عظمة الحوض، فدار حول نفسه واقفًا ثم هوى دفعة واحدة بصرخة ألمٍ مزعجة. وما أن تجاوزهما حسين حتى ضغط كابحة السيارة بكل قوته، فكاد صدره مع سرعتها وتوقفها المفاجئ أن يطبق على عجلة القيادة لولا أن حجزه حزام الأمان، مع صريرٍ حاد نتيجة احتكاك الإطارات بالأسفلت. ودون رويَّة فتح حقيبة السيارة الخلفية من الداخل، وحلَّ حزام الأمان وترجَّل تاركًا بابه مفتوحًا، وأقبل على شاكر.

مغالبًا آلامه نهض شاكر بعزيمة، ونفرت العروق من وجهه وعنقه الغليظين، ورأى حسين مُقبلًا. حاول إخراج سلاحه من تحت إبطه بمشقَّة، لكنَّه اشتبك لسوء طالعه بمشبك الجراب، وبخطوات واسعة أقرب للعدو بلغه حسين، ممسكًا بين سبابته ووسطاه المضمومتين بمدية معقوفة صغيرة، طوَّح بها بكل قوته تجاه رأس شاكر، فقطع أوردته العنقية بضربة واحدة. اندفع رأس شاكر للخلف بشقٍّ قطعي استعرض في الرقبة، ثم تَقَهْقَرَ خطوتين، ونزل على ركبتيه. حاول سد جرحه بإخلاصٍ واستماتة، لكن الدم تدفَّق بغزارة لا قِبَلَ له بها، وأغرق يديه وعنقه وصدره. ودون إلقاء نظرة، أعرض عنه حسين متوجِّهًا بهمَّة نحو جلال، وكان مَسجَّى أرضًا، يشخص في السماء السوداء بذهول، ويرى أعالي الأشجار من غير فهم ولا تصديق. امتقع وجهه كالأموات، وتحطَّمت بعض عظام جسده، لكنَّه ما يزال حيًّا مستقر النَفَس.

سحبه حسين من ساق سرواله الذي أطلت منه قدمٌ حافية أُلقِيَ حذاؤها غير بعيد، ورفعه بمشقَّةٍ عظيمةٍ كادت تقطع نفسه، وتدبَّر خَشْرَهُ بأعجوبة في حقيبة السيارة الخلفية. أنَّ جلال ووَلْوَلَ بصوتٍ خافت مرتجف، فمال حسين لداخل الحقيبة، وقال بصوتٍ غلبت عليه بحَّة غليظة: "اكتم، بدل ما أحش لغدك." ودون انتظار إجابة صفق غطاء الحقيبة، وعاد إلى سيارته مسرعًا، وانطلق.

* * *

قطعت البِنْتِلِي طريقًا طويلًا مظلمًا ترامت حوله مساحات من الرمال، ولاحت في الأفق عمائر متباينة الارتفاع غلب عليها السواد، وانبلجت من خلفها أضياء الفجر الأولى. أشار عدَّاد السرعة للمائة وعشرين كيلومترًا في الساعة، وقلَّ لهاث حسين شيئًا فشيئًا حتى عاوده الهدوء. أخرج هاتفه المحمول وطلب سَمَا أكثر من مرة ولم يتلق ردًّا. سيطرت على رأسه أفكار عدة. لقد قتل شخصًا منذ قليل، وها هو الثاني يرقد في قاع سيارته ميِّتًا أو مُشْرِفًا على الموت.

انحرفت السيارة وغالت في الرمل مُخلِّفة سحابة ترابية، حتى توقفت في بقعة نائية مُسْتَتِرة عن حرم الطريق. ترك حسين المُحرك دائرًا وترجَّل، وفتح حقيبة السيارة. تطلَّع إلى الجسم الهائل المتكوِّم على نفسه، وسأل نفسه: كيف يُخْرِج هذا المخلوق؟ إن إدخاله أمر، وإخراجه أدهى وأمرّ. استغرقه الأمر عشر دقائق من الكفاح المُتَّصِل، حتى ألقي جلال أسفل السيارة مثيرًا عاصفة من تراب. تكوَّم الجسد الثقيل صامتًا كأنه جثَّة، فنزل حسين إليه وتبيَّن نبضه، وأخذ يلطمه كي يفيق دون جدوى. أخرج من حقيبة السيارة وعاءً بلاستيكيًّا، ألقى ما به من ماء على وجه ضحيته.

انتفض رأس جلال، واتَّسعت عيناه إلى أقصاها، ولم يبد عليه أنه يشعر بالألم. أخذ يلهث كمن يسلم الروح لدقائق طوال، حتى رأى حسين. لم يتبيَّنه في البداية، ومع إطالة النظر انتبه، ففَزِعَ وصرخ:

- أنت..؟! أنت؟!

ونظر لجسمه المتكوِم، وقال هلعًا:

- عملت فيَّ إيه؟! أنا.. مش حاسس بنفسي!

استقر حسين هادئًا صابرًا ليتيح له فرصة الاستيعاب، ولقد أخذ جلال وقتًا طويلًا بين التفات وهمهمة. ثم تشكَّلت الأحداث في ذهنه شيئًا فشيئًا، وصار يستعيد التفاصيل، فأصابه رعبٌ شامل. لكنَّه -وللعجب- تجاوز حالة الصدمة وفقدان التوازن بكفاءة نادرة، وفي ظرف دقائق، وساعده على هذا عدم إحساسه بالألم.. بعد.. ثم تمتم مرتجفًا:

- أنت.. عملت فيَّ إيه؟!

لم يستجب حسين، فتجعَّد وجه جلال الدُهْني كقطعةٍ منقبضةٍ من الإسْفَنج، وتَهتَه بصوت كالعويل المتقطِّع:

- حتضيَّع نفسك.. علشان مومس؟ ضحكت عليك، وحكت لك حكايات! هي دائما تحب الكلام.. ما تبقاش مجنون!

مال حسين عليه، وقال بهدوءٍ مخيف:

- أنت لسه شفت الجنان اللي على أصله؟

قال جلال راجيًا:

- ما تضيَّعش نفسك.. كل شيء يتصلح، أنا حأنساك، و.. ولا كأني عرفتك.. حادثة حصلت، عربية خبطتني وهربت.. شيء يحصل كل يوم.. مش كده؟ هه؟!

سأله حسين باسمًا:

- طيِّب وشاكر؟ مش اسمه شاكر، أعتقد؟! ده أنا ذبحته!

تلك معلومة جديدة لم ترد على جلال، ولم تزده إلا خبالًا، وتفاقمت خشيته لحد قاتل، فقال:

- ولا يهمك، أنا أتكفَّل بالموضوع.. صدَّقني، ولا يمسك شيء.. الأمور لحد كده، ممكن نلمها.. لكن لو أذتني، مش حتفلت.. أنا مش هيِّن.. ووَرَايا ناس.. مش حيسيبوك.

- أنت بتهدِّدني؟

رأى جلال نذير الشؤم، قال مسارعًا مفزوعًا:

- لا وربنا.. أنا أقصد.. أنبهك.

ثم تقلّص وجهه، وقال مستعطفًا:

- كل شيء يتلم.. أنا حتى ما أعرفش اسمك.. ما تخليهاش تضحك عليك.. هه؟ خلاص، أنا أتصرّف.. و.. و...

قاطعه حسين متسائلًا بصوتٍ رخيمٍ ثابت:

- لك تعامل مباشر مع إيلي مجدلاني؟

إ.. إيلي مجدلاني؟! حدّق جلال في وجهه مذهولًا فور أن تبيّن الاسم، وأحَسّ في لحظةٍ أنه تلقّى ضربةً في مقتل. ثم تساءل دائخًا:

- إيلي مجدلاني؟!

- إيه؟! ما تعرفهوش أنت كمان؟

كان السؤال مفزعًا وغير متوقع بالمرة، وبدت لجلال الموافقة أو شبهة الموافقة على معرفة إيلي -وبدافع غريزي بحت لا تفكير فيه- تحمل تأشيرة الهلاك المحقّق، فهَزَّ رأسه نافيًا بعندٍ وقوّة. تنهّد حسين أسفًا إذ ظنّ أن رد فعله هو بوادر عناد وإنكار ومكابرة، فرأى أن يضع النقاط على الحروف قبل بدء أي إجراءات، بمقدمة «بوليسية» مؤثرة. فمال عليه، وقال بصراحة:

- اسمع يا جلال، أنا جئت لك في مهمّة محدّدة.. وعلشان تكون على علم، أنا قتلت إيلي مجدلاني في فيلته في الساحل الشمالي، مع مراته إيفيلين فارتان.. أنا حاحتاج أسألك سؤالين، وأمشي فورًا.

- أنت..؟! كل دا علشان الـ؟

قال حسين بجديّة:

أنا كل اللي بأطلبه معلومات.. تجاوبني بالحسنى، نخلص من موقفنا السخيف ده.. حارميك جانب أقرب مستشفى، تقضي فيها يومين راحة، ويا دار ما دخلك شر.. حتعصى عليّ، حاكسر كل عظمة في جسمك.. أنا أعرف عنكم، أقصد الشبكة، كل شيء تقريبًا، لكن عندي نواقص أحب أتمّها.

ازدرد جلال ريقه، وقال بذهنٍ مُشَوَّش:

- أنت.. من بالضبط؟

- أنا حسين الجارحي.

بهذا أجابه حسين مباشرةً، ودون لَفٍ أو دَوَران. كان يعلم المخاطرة التي تنطوي على كشف شخصيته، والتي تقتضي القضاء على جلال ما أن يستوفي منه غرضه، وهو ما يعني ارتكاب جريمةٍ قتلٍ جديدة وسط ملابسات غير مواتية بالمرّة. ولهذه الملابسات بالذات كشف عن شخصيته دون مُداوَرةٍ أو حِيَل، لعل هذا يعجّل بكشف الحقيقة. وانفجر الاسم في دماغِ جلال كالقنبلة. إنها مصيبة! إن اسم «الجارحي» وحده يكفي لإزالة قسمٍ كبير من الغموض. وفي لحظات صمته ومعاناته التالية وضع تصورًا سريعًا للغوامض التي اكتنفت الشبكة، بدءًا من انتحار إيلي مجدلاني الغير مُبَرَّر -هكذا وصلته الأخبار- بعد قتله لزوجته. أجرى حساباته على قدر ما تسمح به حالته وموقفه الدقيق من حسن التدبير، وأدرك أنه "انزنق" في ركنٍ لا مفر منه، فسأله منهارًا:

- عايز.. تعرف إيه بالضبط؟

- شركاء إيلي مجدلاني.

للمرة الثانية كان المطلب مفزعًا وغير متوقع. ثم وَثَبَتْ نقطة مباغتة إلى رأسه. إن هذا الأحمق -أي حسين- يمكث في عرين الأسد، ولا يعلم عن الأسد شيئًا؟ نعم إنه لا يعلم. وما دام لا يعلم.. فكّر جلال في لحظة، وعزم على مراوغة حسين قدر الإمكان، لعلّه يخرج من موقفه الدقيق هذا دون خسائر. وبناءًا عليه قال بصوتٍ خافتٍ مرتجف:

كل المعلومات عن شركاء إيلي.. مجرّد كلام وإشاعات.

أَحَسَّ حسين أن تلك مقدِّمة تمهيدية لفصلٍ من المراوغة، فبدا على وجهه استياءٌ شديد، لكنّه صمت وصبر صبرًا يندر أن يتَّصف به، وكانت نفسه تتقلّب لهفةً للمعرفة. وكان خائفًا جدًّا في الوقت ذاته من أن تَصْدُق تكهناته. وتابع جلال برجاءٍ ذليل:

- أنا ما عرفتش إن في شريك إلا بعد موت إيلي.. اتقابلت مرَّة واحدة مع وسيط له.. حدَّد لي خطوط العمل للمستقبل.. وطمّنّا على استمرار الشبكة.

أصاخ حسين إليه بتركيز، وتابع جلال بتَهْتَهة متحايلة عند مبادئ العبارات:

- أحيانًا حاجات كانت تحصل في وجود إيلي.. تحيِّرني أنا بالذات.. أنا كنت أقرب واحد له.. وافترض أن هو السبب.. بس أفاجأ به يضرب كف بكف.. ويقول: "شو بدي أعمل؟!." أنا.. لحد دلوقت مش عارف من الشريك.

- إزاي مش عارفه، وبينك وبينه تعاملات مادية؟

- تعاملاتنا المادية كلها.. تتم عن طريق حسابات إيداع، والحسابات بتتغيَّر كل فترة.

- والوسيط؟

- بأقابله كل فترة.. مع كل أزمة أو تعليمات جديدة تستوجب الاجتماع.. حصل أني تقابلت معه مرتين.. وفي كل مرة كان واحد مختلف.. معلوماتي عنه صفر.. كل اللي أعرفه عنه كلمة تعارف.. أتأكد بها من شخصيته.. آخذ منه التعليمات، وأدِّيله تقارير!

فكَّر حسين بعمق للحظات، ثم نفخ بضيق، وقال:

- أنت فاكر إنك بالكلمتين دول، قدرت تُخَرُط عليَّ؟! أنا عايز أسماء وأماكن، أو أرقام تليفون.. أي معلومة تساعدني للوصول للشريك، أو الشركاء.

ولم يجد جلال ما يقوله.

نظر حسين فيما قاله، فوجده فارغًا من أي مضمون أو معلومة مفيدة. لبث مكانه بإرهاقٍ وكدر، وضاقت عيناه فزادتا قسوةً على قسوة، ثم قال باقتضابٍ مخيف: "حاضر!" ونهض.. أخذ من حقيبة السيَّارة الكُرَيْك، وعاد إلى جلال المُسجَّى أرضًا. نظر إليه جلال بذهولٍ إذ يُقبل عليه بخطوات واسعة، ووجه مزموم، وأَحَسَّ بخواءٍ في صدره حتى إنه لم يستطع التراجع عن موقعه، أو اتِّخاذ أي رد فعل وقائي. رفع حسين الكُرَيْك الحديدي الثقيل شادًا قامته، ثم هوى به بمجامع عزائمه على ساق جلال. ضربة هائلة انفجرت في مخ الرجل، متزامنة مع قَضْقَضَة بشعة خرجت معها عظمة الفخذ بسنٍ حاد اخترق اللحم والجلد والأعصاب. لم يصرخ، بل توقَّف عن التنفُّس مع صدمة الألم الغاشمة في لحظة واحدة. حاول الشهيق دون جدوى، فجحظت عيناه، وانفرج شدقاه، ورجفت أوصاله. احتقن وجهه حتى استحال للون الدم، ثم تحرَّر أخيرًا فجذب الهواء إلى صدره بشهقة ماردة، أتبعها بصرخة مُزَلْزِلَة، ثم أُخَرُ مُجَلْجِلَات ومُتَقَطِّعَات.

تركه حسين يصرخ كما يحلو له كي يفرغ شحنة الألم، حتى تحوَّل صراخه إلى عويلٍ

وبكاءٍ حار، ثم هدأ العويل إلى أنَّات خافتة مُرهَقَة، ووَلَّت بداية الألم الأولى الغير محتملة، وحل محلَّها ألمٌ مستقرٌ عميق يمكن التعامل معه إلى حين. نزل إليه حسين وقد دسَّ رأس الكُرَنْك في الرمل، واعتمد عليها في جلسته، وقال بهدوء:

- أنت كنت مش حاسس بجسمك، وأنا رجَّعت لك الإحساس.. المفروض تشكرني.

استغرق جلال في البكاء مرة أخرى، ثم قال متوسِّلًا:

- اعقل من فضلك.. أنا غلطت.. كفاية لحد كده.

قال حسين ببرود من ملك ناصية ضحيته، وأصبح قاهرًا فوقها:

- الشريك اسمه إيه؟

أراح جلال رأسه على الرمل، وحِمْلٌ ثقيلٌ يتراكم في نفسه.. لقد ظنَّ حتى ساعات مضت أنه تسلَّق قمة نجاحه المِهَني، حتى صار يتحرَّك في الدنيا بتكشيرةٍ متجهِّمة تعكس سطوته، وإِيمَاءاتٍ محصورة تدل على نفاد صبره.. تذكَّر كيف قال في نفسه الليلة وهو جالسٌ بين رجاله: أنا السايس.. بلغت الخمسين بصحةٍ مَوْفُورة، وملامحٍ لم يبد عليها كبر السن! شكيمتي قاطعة، ومِرَاسِي عسير، وحدَّة طبعي يعرفها الصغير والكبير.. يقولون إن سر نجاحي الحزم، والالتزام، والعداء ضد التسيُّب! كنت منذ ساعاتٍ وسط رجالي في نعيمٍ مقيم.. والآن، انظر إلى نفسك!

تجعَّد وجهه وأجْهَش باكيًا. أحَسَّ بكيانه ينهار، وبأعضائه تذوب، وبعظامه تتفتَّت، وبالألم يفترسه ويمزِّقه ويكسره. وتذكَّر.. تذكَّر وجبة ما بعد الظهر الثقيلة، التي أتبعها بثلاث كؤوس من نبيذ «إكو دوماني» حصاد ١٩٩٨ الممتاز! ربما كان آخر طعام يأكله في الحياة الدنيا! تذكَّر كيف أحاطت المُنغِّصات بحياته، بسبب جموح زوجته من جهة، والظروف السيئة التي طرأت على سير العمل بعد مقتل إيلي من جهةٍ أخرى. إنه لا يدَّعي أن الشبكة انهارت بعده، لكن المسؤوليات تضخَّمت، وبرزت على السطح مشكلات عويصة. إنه يعلم أيضًا أنها فترة انتقالية شاقة تصاحب دومًا التغيُّرات الجذرية، خاصة مع تعليمات الإدارة الجديدة، والغموض الذي يلتبس كل شيء.

مرَّت عليه الدقائقُ وأفكاره تخبِطُ خَبْطَ عَشْوَاء، اسْتَحْضر خلالها في مُخَيِّلَته كيف بدأت ليلته، وكيف انتهت.. بل كيف بدأت حياته، وكيف هي على وَشْك الانتهاء الآن!

دقائقٌ مريرة كابد فيها الألم والندم، والرعب واليأس، وقال بخفوتٍ في نهايتها:

- أنا ما أعرفش غير معلومات قليلة جدًّا.. عن الشريك الحالي.. بس أعرف شريك إيلي الأصلي.

- وهو؟

- أخوك.

حدَّق حسين في وجهه لحظة، ثم تساءل مُصَحِّحًا:

- أخوك؟!

قال جلال وهو كظيم:

- أخوك أنت.. أنت.. أنت.. أنت!

- أنت بتخرَّف؟!

بهذا تساءل حسين بعدوانية، وقد ظن أنه، أو غريمه، أو كلاهما، قد وقعا في سوء التأويل بالشبهات أو الخداع. نظر جلال حوله مستغيثًا، ثم قال باكيًا:

- أنت حسين الجارحي.. أخوك حَسَن الجارحي.. كان شريك إيلي مجدلاني.. مش أخوك اسمه حَسَن؟ كبير الجارحية.. وشريك إيلي في كل صغيرة وكبيرة.. كنَّا نعرفه زي ما نعرف إيلي تمام.

استشعر حسين نُذُرَ الشر، وعاودته ذكريات سيئة، فقال بتشوُّش:

- أنا أخويا مات.. من ثلاث سنين وأكثر.

أومأ جلال موافقًا، وقال بصوتٍ اختلط فيه الانزعاج بالبكاء:

- الشريك مات فعلًا.. من ثلاث سنين.

حدَّجه حسين باستنكار وانعدام تصديق، فقال جلال مُفسِّرًا بوجهٍ يتقلَّص من الألم:

- أنا كانت علاقتي قويَّة بإيلي.. وكان نفسي أشاركه.. خصوصًا بعد ما حَسَن الجارحي مات.. عرضت عليه الموضوع لكنَّه رفض.. قال لي إن فيه اللي استلم المسؤولية من

بعده.

- استلم إيه؟!

- استلم الشَّراكَة.. ورث نصيب حَسَن.. بقي الشريك الجديد.

- الشريك الحالي؟!

أومأ جلال إيجابًا، فتفكَّر حسين فيما ذهب إليه هذا المجنون بدهش، محاولًا استشفاف صدقه من كذبه، ثم قال بحيرة: "كَمِّل." فقال جلال:

- ما فيش كِمَالة.. حاولت أعرف من الشريك الجديد، بس إيلي رفض يصارحني.. قال إن الأمور اختلفت.. والشريك الجديد يُفضِّل شخصيته تفضل في الظل.

- الشريك ده كلامه مُقدَّس؟! مش إيلي هو مؤسِّس الشبكة، ورأسها الكبيرة؟

- لكن شريكه هو المُموِّل.. حَسَن الجارحي فلوسه كانت كثيرة.. ووِسْخة.. وكان عايز يصرَّفها ويدوَّرها بأي شكل.. والظاهر أن الشخص اللي ورثه.. ورث التجارة الثانية برضه.

- تجارة إيه؟!

أجاب جلال لاهثًا، وكان الحديث يؤلمه أشد الألم، فخرج صوته مكبوتًا مشوَّهًا:

- المخدرات.. أنت فاكر أن الشبكة كان ممكن تتوسَّع بالشكل ده.. من أرباحها ومجهود إيلي وحده؟ صعب.. كان لازم تمويل كبير يتحمَّل أي خسارة في البداية.. إيلي أسَّس نواة شبكة محدودة، أرباحها معقولة.. وبعدين اتَّجه لتوزيع المخدرات في الشبكة.. وما عادش تجَّار التجزئة يسعفوه.. الدعارة والمخدرات زي المفتاح والقفل.. تجَّار التجزئة رفعوه للكبار.. ومن الكبار لحَسَن الجارحي.. لما إيلي حب يوسَّع أعماله، احتاج تمويل.. وراح لحَسَن.. حَسَن بطبيعته.. كان طموح وجرئ.. يحب يدخل أي مجال جديد عليه.. وكان إداري ممتاز.. وشخصية قياديَّة.. رجل أعمال ذكي ونشيط.. قدر خلال سنين قليلة، يحوِّل الشبكة لمؤسَّسة كبيرة في أكثر من بلد بأرباح مناسبة لحجمها.. لدرجة أن إيلي نفسه.. بقى مجرَّد تابع.

- وبعدين؟

- وبعدين حَسَن الجارحي اتقتل.. واستلم بعده الشريك الجديد.

- من هو؟

- ما أعرفهوش.. وما حاولتش أسعى أني أعرفه.. لأن إيلي حذَّرني.. خفت أكون بأحفر في حاجة أكبر مني.. سِكَّة حَسَن الجارحي واللي معه خطيرة، والدم عندهم رخيص.. وإن كان الشريك من طرفه، يكون الأحسن إنّي أَبْعِد.

سأله حسين بباطنٍ يتنازعه الاحتراس واللهفة:

- أكيد.. تعرف عنه شيء.

- عنها، تقصد عنها.

- هي.. مِيت؟

همس حسين متسائلًا بفزع، فقال جلال كالغريق:

- أنا أسمع إنها كانت مرافقة حَسَن الجارحي.. وإنه أنابها عنه في شغله كلُّه.. وإن لها خلفية واسعة في مجال شغلنا.. وإنها سيطرت على الشبكة في حياة حَسَن نفسه.. وإنه كان مُغْرَم بها، لدرجة إنه أخفى شخصيتها عن الكل.. لأنه خايف عليها.

سأله حسين، وقلبه يرتعد:

- تعرف اسمها؟

- أعرف إنها سابت مصر بعد موت حَسَن الجارحي وإنها مستقرَّة دلوقت في أمريكا، وبتشتغل في مجال الاستعراض.. سهل جدًّا أعرفها، بس أنا خفت! سهل جدًّا أعرفلك هي مين.

نطق جملته الأخيرة بتوسُّل، ومطَّ شفتيه تَقَرُّبًا واسْتِشْفَاعًا، لكن حسين كان في شُغلٍ عنه. إن اللبؤات إناث الأسود، وإن الأسود من جنس القطط! أسند حسين رأسه إلى راحتيّ يديهِ وقد كاد الصداع أن يفتك به، وأحَسَّ بضغط دمه يرتفع. لقد صدقت تكهناته. إنها هي. صارت تناوشه الهواجس والذكريات والوجوه التي آمن باستحالة عودتها. نعم، الآن فقط اتَّخذت الأحداث منطقها، وبدى له الطريق المُعبَّد من البداية لاصطياده واضحًا. لم تكن العائلة، بل هي.. لقد تلاعبت به كالدمية.

لاحت في عيني جلال نظرة استنجاد صامتة، قرأ حسين فيها رجاءًا مخلصًا ذليلًا. لكن حسين انخرط في حوارٍ داخلي مُتعمِّق، ختمه بأن نهض عن جلال. ألقى بالكُرَيْك في حقيبة السيَّارة وأحكم إغلاقها، ثم احتل مكانه أمام مقعد القيادة. أخرج مُفَكِّرةً صغيرةً وقلمًا من التابلوه، واعتمد على عجلة القيادة، وعكف على تحرير ما سمعه خشية أن ينساه، مراعيًا الدقَّة والترتيب، في صورة تشبه المحضر. ألقى نظرة أخيرة على جلال، وظل بصره معلقًا به وهو يربط حزام الأمان، ولم تمر الدقيقة حتى تحرَّكت البِنْتِلِي.

وهنا فقط، تراخى جلال، وتداخلت الرؤى والألوان مع البلل والدموع في عينيه، فبالكاد استطاع تمييز السيارة وهي تبتعد. لم يصدِّق أنه نجا، وغمره شعورٌ براحةٍ مجهدة استنفدت ما تبقى من قوَّته، خامرها خوفٌ وتدبُر، إذ يحاول تحريك أطرافه مُفكِّرًا فيما سيفعل الآن. فكَّر في الوعد الذي نطق به حسين بإلقائه عند أقرب مستشفى.. لكن الأنسب ألا يعتبر هذا وعدًا بقدر ما هو عرض، والحمد لله أن انتهت الأمور عند هذا الحد.

لكن السيارة توقَّفت فجأة على بعد عشرة أمتار. وداخلها دفع حسين الفوتيس، والتفت للخلف ليرى جلال متكوِّمًا في الرمال. ثم تحرَّك بالسيَّارة للخلف بسرعة في اتجاهه. رأى الرجل البدين مؤخِّرة البِنْتِلِي تهجم عليه كوحشٍ مفترس، فاتسعت عيناه، وخوي فؤاده. ولم يشعر حسين بعد ذلك إلا برجَّة عنيفة زلزلت السيَّارة كأنما انفجر دونها لغم، فتضاربت فصوص السبحة الجميلة المُعلَّقة في المرآة الأمامية بعنف. لم يسمع الحشرجة التي خرجت من الفم مع الدم والبلغم والأسنان، ولم يسمع صوت تهشُّم العظام وهتكها للأنسجة واللحم. لم يشعر إلا بالسيَّارة تستقر والجسد مسجًّى أمامه غير بعيد وقد غادره الحراك.. متكوِّم موحل ككتلة إسفنجية غُمِسَت في مستنقع.

* * *

«دجلة» من أهدأ مناطق ضاحية المعادي، لها طابع مميَّز يغلب عليه الكساء الأخضر، ويسود طرقاتها أغلب ساعات النهار الهدوء. يقطنها عددٌ كبير من الأجانب والدبلوماسيين وصفوة طبقات المجتمع، فلا ينقصها الأمان بفضل التواجد الأمني الدائم.

في هذا الصباح، بشارع ٢١٠، اكتشف أحد السكان جثَّةً على قارعة الطريق. هُرِعَ إلى الموقع بعض عناصر الشرطة وجنود حرس المنشآت البسطاء، وقام بعضهم بالإبلاغ فورًا، وتطوَّعت فئة أخرى بتغطيتها بأوراق الصحف. تلقَّى مأمور قسم المعادي بلاغًا بوجود جثة ذكر قتيل، وعلى الفور انتقل رئيس مباحث القسم بمصاحبة عددٍ من رجال المباحث الجنائية ومصلحة الطب الشرعي لمسرح الجريمة، وتمت معاينة الموقع ورفع البصمات، وأخذ عينات الدماء، ثم رُفِعت الجثة في ظرف ثلاث ساعات، وتم تنظيف آثارها فورًا.

ظَهَرَ من المعاينة المبدئية أن المجني عليه تلقَّي طعنةً نافذةً مستعرضةً بالرقبة، أدَّت إلى جرحٍ قطعيٍّ عميقٍ بالعنق، نزف منه الدم حتى الوفاة. وظَهَرَ أيضًا أن المجني عليه هو شاكر عبد المنصف، حارس خاص لرجل الأعمال جلال السايس، وأن الحادث وقع أسفل مقر سكن زوجته، وهي السيدة سَمَا يوسف. أما جلال السايس فاختفى، وأما السيدة سَمَا يوسف، فبالسؤال عنها تُبُيِّن أنها أصيبت بعد مشادة بينها وبين زوجها وبحضور القتيل، وأنها نُقلت في الصباح لمستشفى القوات المسلحة بالمعادي.

انتقل رئيس المباحث للمستشفى لسؤال السيِّدة بشأن زوجها. علم أنه تم الاعتداء عليها بقنينة زجاجية في رأسها، ما تسبَّب في كدمة وجروح نتيجة الضربة وشظايا الزجاج. تم تخييط الجرح، وإجراء تصوير بالأشعة السينية وكشف بالرنين المغناطيسي، ولم يكن ثَمَّة إصابات أو نزيف في المخ لحسن الحظ، وهي في حالة مستقرة الآن.

أفادت السيدة سَمَا بواقعة اعتداء زوجها عليها بحضور حارسه الخاص، نتيجة مشادة عنيفة نشبت بينهما، وأشارت أن هذا الأمر يتكرَّر اعتياديًّا، فهو دائم الاعتداء عليها. وبطبيعة الحال لم تدرِ شيئًا بعد تلقِّيها الضربة، سوى أنها أفاقت واستطاعت الاتصال بأختها، فأتت على وجه السرعة وتولَّت نقلها، ولم تفق إلا وهي في المستشفى. أبلغها الرائد بمصرع شاكر عبد المنصف، فكانت دهشتها عظيمة، ثم باختفاء زوجها، فتحوَّلت دهشتها إلى فزع.

وأبلغها أيضًا أن هناك ما يدعوه للاعتقاد بأن زوجها تم خطفه، إذ عثروا على هاتفه، وحافظته، وحذائه الأيسر في نقاط مختلفة من الطريق. وكان صريحًا عندما أبلغها أن

فرصة إنقاذه واهنة، لعدم توافر شهود أو مشتبه فيهم أو أدلة، لكن الإسراع في البحث من شأنه تعظيم الفرصة. واستأذنها في معاينة البيت ورفع البصمات، ومصادرة حاسبه الآلي وأوراقه، والتحري عن المقربين إليه، وكل الاتصالات التي وردت إليه أو صدرت منه خلال ثلاثة أو أربعة أيام قبل الحادث، فأبدت السيدة استعدادًا مريحًا للتعاون.

ولم يكن لتعاونها صدى مع هذا، فزوجها لا يسكن معها، ومتعلقاته الشخصية إما في فيلته بالمهندسين، أو مكتبه بـ«سافادج جاردن». وأما رفع البصمات عن شقَّة المعادي فما من فائدة تُرجى منه، لأن الشقة يغشاها أصنافٌ من البشر من كل لون، سواءً من صديقاتها، أو الحفلات المتكرِّرة التي يحضرها القريب والغريب. وحَمِدَت سَمَا ربَّها في نفسها أن حسين لما أسقطه شاكر في غرفة المعيشة، كان هذا على بساطٍ كثيفٍ داكن اللون، لن تُلاحظ فيه الدماء. وبمعاينة فيلا جلال بالمهندسين وجدوا اسطوانات مضغوطة تحوي تسجيلات لأفلامٍ مُخِلَّة وحفلات خاصة، وصور فاضحة لنساءٍ من مختلف الأعمار، وعثروا أيضًا في أدراجٍ سريَّة على عقود زواج عرفي على بياض، ومجموعة نادرة من العملات الورقية لدول عربية وأجنبية، وكميات من الكوكايين النقي.

وفي الظهر، علمت سَمَا أن جُثَّة جلال السايس عُثِرَ عليها في منطقة نائية قرب محور ٢٦ يوليو بحالةٍ سيئة، وقد نهشتها الكلاب الضالة. لحظتها نظرت في الفراغ طويلًا، وتذكَّرت رنين هاتفها المحمول المتكرِّر الذي أيقظها من غيبوبتها، ودفعها للاتصال بأختها. وعندما راجعت الرقم وجدته لحسين، فأخذها شعور بالذهول والخوف الشديد. ولم تشعر بالحزن قدر حبة. واندهشت أختها إذ رأت على وجهها المجهد الذاهل شبح ابتسامه يتولَّد فيموت في لحظة.

* * *

الفصل الخامس:
ضَرْبَةٌ بِالمِرْزَبَّة وَلا عَشَرَة بِالشَاكُوش

"اللي بتعملوه باطل، كفر، والباطل من الشَّيْطان، يا شَيَاطِين، يا كفرة!"

بدأت أعمال العنف بالأوكار الفرعية، فتم القضاء على خمسة وعشرين رجلًا من تجّار التجزئة المتعاملين مع العائلة، وحَرْق كَمِّيَّات من البانجو والهيرُوِين والأفيون وآلاف الأقراص المؤثِّرة على الحالة النفسية من كودايين وماكستون فورت، فانقطعت سُبُل العائلة مع سوق التجزئة مؤقَّتًا.

على طريق وادي النطرون تم تدمير شاحنة نقل ألبان، احتوت مقطورتها على كَمِّيَّةٍ كبيرةٍ من الهيرُوِين النقي. قُتِل سائق الشاحنة والتَّبَّاع، وثلاثة رجال لبثوا مع الشحنة لحمايتها، ضمنهم باكستاني.

في أحد المنشآت الصناعية المهجورة بحلوان تم تدمير ورشة كبيرة لإعادة تدوير السيارات المسروقة، وحرق خمسة أطنان من البانجو وُجِدت في القبو، وكَمِّيَّات من الأفيون، ومبلغ مليون وسبعمائة ألف جنيه.

أسفل مصبغة جلود بالكونيسة تم تدمير مخزن كبير وورشة لتصنيع وصيانة السلاح، وكَمِّيَّات من البنادق الآلية والذخيرة والمتفجرات، وقُتِل مالك المصبغة وخمسة من عامليه، وهرب ثلاثة.

في إحدى الجزر النيلية بجنوب سوهاج تمّ تدمير عدد من المنشآت العشوائية المبنية من القش والصفيح بما حَوَت من أطنان الحشيش والبانجو وكَمِّيَّات الهيرُوِين عالي النقاوة والأفيون.

في جزيرة الواكل بأسيوط، تم حرق خمسة أفدنة من زراعات القنب الهندي على أرض طرح النهر، إضافة إلى نحو خمسين كيلوجرامًا من بذور الأفيون، تكفي لزراعة مائتي فدان.

على مدى الأسبوعين تتابعت الحملات القمعية مُستَهدِفَةً دعائم تجارة من تبقَّى من كبار العائلة، ولأن المهاجمين مدعومون بمعينٍ لا ينضب من المعلومات مصدرها محامي العائلة السابق المُطَّلِع على أدق شؤون تجارتها، فإن مُجْمَل الضربات جاء في الصميم.

كان حسين هو الرأس المدبِّر لكل عملية، نظرًا لأنه الوحيد المؤهَّل أكاديميًّا وعمليًّا لتخطيط عمليات اقتحام وتدمير ناجحة في حدود الإمكانات المتاحة. كان يعكف مع البدو قبل كل عملية على التخطيط المُسْبَق ودراسة مسرح العمليات، وتحليل سبل

الاقتحام وقواعد الاشتباك، وخيارات التسليح وتوزيع المهام، وتكتيكات الانسحاب. وفي ساعة الصفر، التي تكون عادةً بالليل، يقوم شباب البدو بحصار مسرح العمليات للوقوف على تسليح الخصم وتنظيمه على أرض الواقع، ثم يباشرون إجراءات الاحتواء والتدمير تحت غطاءٍ من القناصة، ثم ينبشون عن النقود والسلاح والمخدرات، فيدمرونها تطبيقًا لاستراتيجية الأرض المحروقة. وفور أن تنتهي العملية، يصدر أحد كبار الجارحية المسؤول عن المنطقة المنكوبة أوامره بإخفاء ملامح الجريمة، ودفن القتلى وتنظيف المكان من كل ما يُدين، على أمل ألا تندس الجهات الرسمية في الأمر. لهذا نجحوا في كبت الصراع في نطاقٍ عائلي يُحقِّق لطرفيّ الصراع المصلحة: فلا هؤلاء يطيقون أن تنكشف أعمالهم المشبوهة على مَلأٍ من الداخلية، ولا أولائك يتحمَّلون تدخُّل طرفٍ غير مرغوب به في الساحة، وكفى بهم عدوًا واحدًا.

فدحت الخسائر وتزايدت بمعدَّلٍ وبائي أصاب أوصال التجارة بالشلل، فكانت نكبةٌ عظيمةٌ، ومن جهته حرص العدوي على تسريب معلومات تُلحق به وبموكله المسؤولية، بل إن حسين أبلغ البدري صراحةً في تبريره لتلك العمليات: "إنها وسيلة ضغط ليس إلا.. وإن الهجمات ستستمر لو لم يجتمع الكبار على مائدة المفاوضات لمناقشة الوضع الجديد."

أثارت العمليات جنون كبار الجارحية، فتبادلوا مكالمات هاتفية محتقنة لبحث سُبُل الحل لهذه المصيبة. وفي كل مرة يُطْرَحُ فيها الموضوع للنقاش، لا ينتهي الحديث إلا بالمرارة وقلة الحيلة واليأس المميت. أما فكرة قبول الاجتماع بحسين، فتلك بدعةٌ مخالفةٌ للأصولِ المُستَقَرَّة، اللهم إلا التجمُّع تحت راية الحاج الكبير نفسه (ولم تكن تلك اجتماعات بالمعنى بالمفهوم، بل أقرب لاستنفارٍ لتلقِّي الأوامر)، فضلًا عن أن اجتماعهم به في مكانٍ واحد، تحت سيطرة أمنية تامة من رجاله، هو ضربٌ من الحماقة السَّمِجَة، لأنهم إن فعلوها فكأنما وضعوا رؤوسهم بين فكيّ تمساحٍ ملتمسين الرحمة. ثم إن بعض «العُقَلاء» منهم اقترحوا سلك طريق اللين مع حسين، ونقلوا رغبتهم تلك للبدري متضمِّنةً إمكان التفاوض على تسويةٍ ما، وكان همُّهم الأول وكشرطٍ مبدئي قبل فتح أي حوار، هو تجميد العمليات المسلحة فورًا.

ووَسَط هذا وهؤلاء يتزايد سخط البدري ونقمته، ويتعاظم إحساسه بأنه إلى البهيمة

الجرباء أقرب، يسعى وحيدًا في سهوب الصحاري. فحسين يقف فوق رأسه، ويحفِّزه دون رحمة لإقناع الأوغاد بتقبُّل الاجتماع. وإنه -وهو من يرابط في وجه المدفع- أول الرافضين للاجتماع، فالعائلة ماتت، والميت لا يُبعث إلا يوم الحساب. ولقد أعفى حسين نفسه من المسؤولية، وعَلَّق الجرس في رقبته هو، فأي لعنة تلك، وأي نحس؟ تبًّا لها من مسؤولية! إنها لم تشفع له عند من كلَّفه بها في الأساس، فالأذى يطول مصالحه كما يطول إخوانه، ولم ترحمه من عداوة إخوانه أيضًا، بصفته خائنًا ووَاشِيًا قذرًا.

على هذا انقضت أيامٌ على آخر مداهمة. لم يتَّخذ كبار العائلة من الإجراءات إلا تقصيّ سُبُل الحيطة في السكن والتنقُّل، وتكتُّم أخبارهم، وتشديد الحراسة على ما تبقَّى من مخازنهم ومعاقلهم. ثم استثمروا جهودهم في مكالمات هاتفية مملَّة ومطوَّلة، محشوَّة باللغو والحروب الكلامية، تتخلَّلها مظاهر العنترية والتظاهرات الزائفة، التي سرعان ما تَفْتُر، وتتحوَّل إلى المطالبة بضبط النفس، والاحتكام للعقل، والتحذير من خطورة الخطوات المتسرِّعة.

وعلى الجانب الآخر من الصورة، استاء حسين مما يصله ويراه من أخبار، وعَجِب من أمر هؤلاء القوم. على الرَّغْمِ من كونهم في محنة مزويِّة بإحكام، فإن تعاطي عقولهم للقضية ما يزال تغلب عليه تحكُّمات الأهواء والتشوُّش. أما العدوي فدأب على تحميسه وتحريضه، ولا يفتأ يُكرِّر أنهم سيتنازلون في النهاية تحت وطأة الخسارة. سيحضرون الاجتماع، وهم إن حضروا فالمسألة منتهية. ولقد بلغت ثقة العدوي حدًّا دعاه للسعي السريع في ترتيباتٍ مكلِّفة للغاية بشأن زعامتهم المستقبلية للعائلة، حتى لكأنه فقد صوابه من شدَّة لهفته. واستغرب حسين، ولم يمانع مع هذا إذ يقنع نفسه أن للمحامي العتيد المبرِّرات الكافية، وأنه بالتأكيد يعلم ما يفعل. وسار هذا بالتزامن مع حركة نشيطة شهدها قصر الفردوس لتجهيزه داخليًّا لاستضافة الاجتماع. لكن مظاهر الرفض أخذت منحًى مختلفًا بشكلٍ مفاجئ، وبدا أن حسابات العدوي نَزِقَت وزَلَّت، أو أغفلت عاملًا لم يُؤخذ في الحُسبان.

* * *

- السلام عليكم.

- بأقولك يا بدري، أنت عليك عفريت اسمه اجتماع؟!

فتّح عينيك يا شهاوي، ورق البنكنوت اللي شقينا فيه، ابن الحرام بيحرقه! مستنيين إيه علشان تفهموا إن الموضوع جد؟! أنا بقالي شهرونص أحايل فيكم.

- أنت كلِّمت مرزوق ومكاوي، يا حاج بدري؟

- حَصَل.. وهم اقتنعوا بالاجتماع.

- لا يا حبيبي، إن كان الواد ابن إمبارح عرف يخدك بالباط، على نفسك.. لكن إحنا، لأ.

- أنا زيِّي زيُّكم، اللي يصيبكم يصيبني.

- أنت وحدك، اتَّفقت معاه.. أنا كنت بأشقي وأنحت في الصخر، علشان تيجوا تأكلوها والعة؟ أنا أتحط في قبري، ولا شيء من ده يتم.

- يا شهاوي افهم، أنا عايز مصلحتكم.

- أنت آخر واحد يتكلم عن المصلحة.

- يعني إيه، آخر واحد يتكلم عن المصلحة؟!

- يعني ما تجبرنيش أفكَّرك بأيام الحاج.. أنت كنت واكل من وراه أكتافنا، وآخد المصلحة تكيَّة.

- مش فاهم! قصدك إني حرامي؟!

- حرامي، حرامي، أنا ماليش دعوة.. هو أنت نبي مرسل؟! ما كلنا ممكن نبقي حرامية!

- الاجتماع حيتم غصب عنك يا شهاوي.. أنا متَّفق مع مكاوي ومرزوق على كل حاجة.. تحب تيجي، تبقي اشتريت نفسك.. مش عايز، أنت حر.

أنت مش فاهم يا بدري، الأيام القديمة خلاص، خُلُصِت! مافيش كبير.. أنا مش أُجَرِي، ومش حاشتغل لحساب عَيِّل صغير.. تجارتي ليَّ وحدي، إن كنت مفكَّر أنك تزقُّه علينا، يركب هو وتتمكِّن أنت في ظله، تبقي كبرت وخرَّفت.. عايزين تبقوا كبار؟ وأنا أعمل إيه دلوقت؟ أرفع الجلابية وأهوِّي؟!

- أف! أعمل اللي تعمله، أنت حر.

- الاجتماع ده في كَفَّة، وأنتم بحالكم وعيالكم في الكَفَّة التانية.. خاف على نفسك يا بدري، أنت رجل رجليك والقبر مافيش، عيش اليومين اللي فاضلين لك بالتي هي أحسن.. ما لكش دعوة بيَّ أو بالناس التانية، فاهم؟

- أنت بتهدِّدني؟

- أنا برضك اتكلمت مع مرزوق ومكاوي، راجع نفسك يا كبير، لأنهم مش حييجوا.. وكلِّمت عاصم، ورسِّيته على الدور من أوِّله، وأنت تعرفه بن المَرَة الكافرة، ما يعرفش أبوه.. وهو متَّفق معايا إن ما فيش شيء اسمه نجتمع.. فهمت؟

- أنت اتجننت يا شهاوي؟ ليه كلمت عاصم، ليه دخلته بيننا؟! كانوا خلاص وافقوا! حرام عليك يا أخي!

- من اليوم ده، من الساعة دي، أنت من طريق، وإحنا من طريق.. أنا بأتكلِّم عنِّي وعن الباقين.. هي الشغلانة الأخيرة وخلاص.. أنت أبلغته بشيء بخصوص الشغلانة دي يا بدري؟ أوعى، أوعى تكون...؟!

- اسكت يا راجل يا مخبول!

- الموت حيكون لك رحمة، لو كلمة غلط طلعت منك بخصوص الموضوع ده.. أنا عملت حساب للقرابة والعشرة، وعملت اعتبار للحاج جوهر ومعزِّتك عنده، وما رضيتش أتصرف معاك بللي يليق بخسِّتك ونذالتك!

- أنت ضيَّعت نفسك، وضيَّعت إخوانك.. نسيت عايش ورجاله؟

- لا عايش ولا ميت.. إحنا لنا رجالتنا، وما أحدش يقدر يمسنا.. إن كان خوِّفك، أو عشِّمك، إحنا نعرف نتصرف معاه إزاي، وعاملين له ترتيب مخصوص، يوصله على كفوف الراحة من هنا لجهنَّم، هو ومحامي النحس اللي مِسَيِّرُه كما الكراكوز.

* * *

حدثت هذه المكالمة بعد أسبوعين من مقتل جلال السايس. كان حسين قد أجَّل بحثه في معضلة إيلي مجدلاني وشريكه الغامض كي يتفرَّغ للتخطيط والإشراف على الضربات المُوَجَّهة لمصالح العائلة. كان هذا هو السبب الظاهر. أما السبب المُستتر،

والحقيقي، فهو وقوعه فريسةً لاضطرابٍ وقلقٍ دفينٍ من انكشاف حقيقةٍ لا يريد أن يعلم عنها شيئًا. كانت الأجواء حوله مشحونة بالتوتُّر، وكان في حالةٍ من الخوف الباطني العميق من شريك إيلي مجدلاني الغامض، ومما قد ينكشف إن تمادى في الحفروراءه. تحوَّلت المسألة في نفسه إلى بركانٍ مكتوم استمرعلى مدى الأيام الماضية في بناء ضغط الانفجار، حتى أصبح الصبر مستحيلًا، والتظاهر باللامبالاة سخيفًا، والانتظار ضربًا من ضروب الهلاك. لقد قذفت أمواج الشك بقُمْقُمٍ لابد أن ينكسر، حتى وإن خرج منه عفريت من الجن بنبإٍ خطيرٍ وشرٍ مستطيرٍ.

وفي تلك الليلة، عندما عاد حسين أدراجه لقصر الفردوس، بعد ضربة ناجحة لأحد معاقل العائلة في جزيرة الواكل بأسيوط، لم يكن يدري شيئًا عن المكالمة السالف ذكرها بين البدري والشهاوي. حاول أن ينام، لكن ذهنه ذهب أول ما ذهب إلى قُصَاصَة الورق التي كتبها في سيَّارته قبل أن يدهس جلال السايس. استخرجها من مكمنها كمن يستخرج قُمْقُمًا محبوسًا في قعره ماردٌ من الجن. وفضَّ الورقة كمن يكسر وِعَاءً خُرَافِيًّا مختومًا على شيطانٍ رجيم. ورأي أول ما رأى اسم حَسَن.. أخوه. تداعت اعترافات جلال السايس في رأسه خشنةً فظَّةً كبناءٍ تَصَدَّعَ وآذن بالانهيار والسُّقوط. حَسَن كان داعرًا قوادًا! لم تكفه تجارة المخدرات فطفق يتاجر في الفروج الحرام. يا له من حثالة قذر! انتابت حسين حالة من القنوط، وصار يلعن الأيام، ويعض بنان الندم على وجوده العاثر في هذا الخِضَمِّ الفاسد من الأشخاص والعلاقات. هؤلاء السفلة، تجار الرقيق، واطئو البغايا، وأحفاد الفجرة!

ثم لم يستطع المُكوث ساكنًا أكثر من ذلك، فجلس أمام الحاسب الآلي، ودخل على الإنترنت، ولساعتين لم يلتفت عن الشاشة كالمسحور. استخدم تلقائيًّا التحليل المنطقي، وأبحر في محرِّكات البحث الرئيسية مُسْتَعْلِمًا بعناوين معيَّنة، وتحرَّى الدقَّة والخصوصية في اختيار لفظة البحث المناسبة، ليتجنَّب آلاف النتائج المتشابهة. بحث بين عشرات المواقع حول شركات الدعاية والإعلان، ومجال الاستعراض في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. كانت عيناه تتابعان بلهفة عشرات التوافقات والاحتمالات، وتدقِّقان في آخر الأخبار الفنيَّة والدوريات النقدية، وحركات المسرح والحفلات الكبرى، والمسارح والعروض الشعبية والإثنية.

ثم عثر أخيرًا على صورة ما. ولو أن صاعقةً هَوَت من السماءِ على أمّ رأسه، لكان أهون. ظل يبحلق غير مصدّق، وتسارع تنفسه كأنه بصدد فاجعة مميتة. ولساعة أخرى جدَّ في تتبُّع الأثر وصار يتشمَّم خلفه مُلحًا في الطلب، حتى جلس أخيرًا مُنَكِسًا رأسه، وقلبه يدق كمضخَّةٍ بخارية، وأمامه على الشاشة صورة رقمية مُلوَّنة لامرأة حادة الصبا في أواخر العشرينات، وجهها قوقازي أسمر، وعيناها واسعتان، وشعرها أسودٌ دافق. أنفها دقيق، وثغرها درّيٌ بريء، يتناقض مع عينيها اللئيمتين ونظرتها الحادة العميقة. أظهرت اللقطة نزول بدنها على مستويات ضامرة في ثوبٍ حريري قصير، جَسَّم مفاتنها بوقاحة، وكشف ساقيها الطويلتين المصقولتين.. إنها هي! هي الشريك الغامض.. هي من أطلقت عليه إيفيلين وإيلي.. هي من أذلَّته وساقته كالخروف لحتفه.. غطَّت شهرتها الآفاق، نظرًا لما تقدمه من خدمات ترفيهية متميّزة ذات نمط ثقافي مغاير يتهافت عليه الجمهور الغربي.

وبينما يجلس غارقًا في أفكاره ومخاوفه، اتَّصل به العدوي وسأله أن يطَّلع على بريده الإلكتروني، وأن يستمع للملف الصوتي المُرفق في الرسالة. أنهى حسين المكالمة واستمع للنص المُسَجَّل للمكالمة بين الشهاوي والبدري، ثم زفر بإحباط شديد. ها هي مصيبة أخرى تسقط في حجره! كان الاجتماع قاب قوسين أو أدنى من الانعقاد، ثم انتهى كل شيء فجأة. المشاق، والمخاطر، والقتلى، والتكاليف الباهظة للتجهيزات، والاتصالات مع كافة الأطراف.. كل هذا ذهب هباءً. إنه لا يستطيع لَوْم البدري. الرجل بذل ما في وسعه، وكاد ينجح بالفعل، لولا الشهاوي، هذا الكلب السمين. إنه يحوز قدرة عظيمة على توليد المشاكسة فالعنف، كما أن الغدر خلقٌ لا يزايله. وحده كوَّن جبهةً مضادة، وجمع لها الأنصار. استطاع نشر بذورٍ من الشقاق مدَّت في أعماقهم جذورًا من الشك والرهبة خوَّفتهم من عودة الأيام الخالية، حتى نجح فيما فشل فيه هو: جمع كلمتهم على أن "لا."

والأدهى أنه استعان بالفاجر الآخر: عاصم. لقد تجنَّبه من البداية عالمًا بقدرته على خلق جبهة عداوة مُسْتَحْكَمَة لن يقوى على مجابهتها. ماذا يفعل الآن؟ لقد جرؤ الشهاوي على التهديد الصريح. "أعد له ترتيبًا مخصوصًا"، هذا ما قاله. لا بد من ردّ حاسمٍ على تُرَّهاته، ردّ موجع، مدمّر لا بد من زلزلة كيانه، وتقويض بنيانه، وتمزيق فؤاده. لا بد

من ضربة مدوِّية، ومفجعة، تدخله جُحره إلى غير رجعة. زفر بحنقٍ قاتلٍ ويأس، وسأل نفسه: هل الاجتماع بأهله حقًّا مسألة ذات شأنٍ جلل، تتعاظم نتائجها وتداعياتها بهذا الشكل؟ وهل يفضِّلون الموت جميعًا، على فكرة الاستسلام له؟ ماذا يضيرهم لو أتوا؟! لقد أعدَّ لهم العدوي جدول أعمال لا يُشقّ له غبار. هذا ما وعده إيَّاه محاميه، وإن العدوي لا يكذب أبدًا! والله لن يطيب له مرقد، أو يهنأ بطعام حتى يحل هذه المشكلة، أو يحل من على كاهل الشهاوي أعباء الحياة.

طلب حسين العدوي على هاتفه، وتبادلا حديثًا مختصرًا أطلَع فيه كل منهما الآخر على آخر التطوُّرات، والتي لم تبشِّر بخير، ثم ختم حسين المكالمة بصوتٍ ناقم مكدود قائلًا: "مافيش إلا حل واحد. ألقى حسين الهاتف جانبه بإهمال، ووضع رأسه بين كفَّيه بإحباطٍ شديد. ظلَّ على وضعه ثابتًا لدقائق، ثم رفع عينيه المجهدتين لشاشة الحاسب مرةً أخرى ناظرًا إلى صورة المرأة. وكالمدمن، مدَّ حسين أصابعه للوحة الأزرار، وتَبَحَّر في البحث آملًا في الحصول على مزيد من المعلومات عن صاحبة الصورة.

ثم كانت القارعة!

كانت قد قادته المصادفة الشاذة إلى استخدام الحاسب الدفتري الخاص بأخيه الراحل حَسَن؛ ذلك أنَّه تكاسل عن النزول للغرفة السحرية، وآثر البحث في غرفة نومه، ولم يكن لديه هو نفسه حاسب دفتري خاص به. وقادته المصادفة الشاذة الأخرى إلى أنه في مَعرِض بحثه، كَتَبَ جملة البحث الرئيسية: «أسماء راقصات من الشرق الأوسط» خَطَأً في محرِك بحث القُرص الصلب بدلًا من شريط البحث على مُتَصَفِّح الويب، وكانت الكارثة العظمى والنكبة الكبرى أن ظهرت له حاوية ملفات رقمية تحت اسم «أسمَاء» على القرص الصلب.

وقع قلبه بين قدميه وهو ينظر فزعًا وألف هاجس وهاجس ينهشونه بلا رحمة. أَسمَاء؟! زوجته؟ على حاسب أخيه؟! بأصبعٍ مرتجف نَقَر وفتح الحاوية، ورأى داخلها عدَّة ملفات فيديو مُرَقَّمَة تصاعديًّا: «أسمَاء ١»، و«أسمَاء ٢»... إلخ.. ثم نَقَر مُجدَّدًا ليفتح أول ملف.. كان في حالة رعب مخيفة، وهاجمته الأعراض المصاحبة لإثارة الجهاز العصبي اللاإرادي وإفراز الأدرينالين، فتسارعت ضربات قلبه، وتصبَّب عرقًا، وشعر

باختناقٍ ودوار.

بدأ الفيديو بمشهدٍ قريب من كاميرا ثابتة لمقعدين وثيرين في غرفةِ معيشةٍ فخمة. صورة الفيديو كانت نقيَّة وعالية الجودة، فيها جلس حَسَن الجارحي بجسده الضخم كالغَضَنْفَر، وكان مرتديًا روبًا منزليًّا مُزَرْكَشًا انفتح عن صدره العاري العريض وكرشه العظيمة.. كان مظهره العام مُنَفِّرًا وغير مُطَمْئِن بالمرَّة، كمن هو مُقْبِل على فاحشة أخلاقية.. ثم دخلت أسْمَاء الصورة.. كانت كما هي دائمًا، بارعة الحسن شديدة البياض، وجهها مستنير كالبدر في أصل الليل. ارتدت كعادتها عباءةً حريريةً سوداء، وحجابًا مُحْكَمًا مُحْتَشِمًا، فلم يظهر منها إلا وجهها. بدا على ملامحها الضيق الشديد والتوتُّر، واستهل حَسَن الحوار بسؤالها بخشونة: "جاية ليه؟"

اعتصرت قبضةٌ خشنة أمعاء حسين وهو يرى حَرَمَه المصون في حضرة هذا الفاجر، ففاضت عيناه بالدموع دون أن يدري. تحدَّثت أسْمَاء بحرصٍ وأدبٍ وعصبيةٍ شديدةٍ أيضًا، وناشدته الله والرحم ألا يترك حسين في محنته مع الداخلية وحده، فتطاول عليها بفحُشِ القول، وسبَّ زوجها بألفاظ نابية، وسبَّها بعد ذلك بألفاظ أشد، فانفجرت بالبكاء وردَّت عليه بشدَّة على قدر ما سمحت لها صدمتها، فاستشاط حَسَن غضبًا، وهجم عليها. كان نهوضه غريبًا، وغير منطقي، وبدا أن ما يفعله مُرتَبٌ له سلفًا، لأنَّه سار على سيناريو بدأه بأن لطمها، ثم دخل الصورة فورًا رجله المُسمَّى أشْمُوط، الذي تلقَّى أسْمَاء وشلَّ حركتها تمامًا من الخلف. تولَّت أسْمَاء حالة فزع رهيبة، ورَفَسَت بقدميها وقاومت بكل قوتها، لكن مقاومتها لم تُحْدِث أي أثر بينما يجلس أشْمُوط ويُقْعِدُها على حِجْره، ثم يقيِّد حركتها تمامًا بعد أن يفتح ساقيها ويحكم قبضتيه على كعبيها. اتجه حَسَن نحو ضحيَّته وهو يخلع رداءه، ثم رفع عباءتها بِيُسر! وكان ما شاهده حسين بعد ذلك فوق احتمال البشر.

* * *

منذ دخل النونو قصر الفردوس وهو بعدُ شاب صغير، خُصِّصَت له غرفة ضيِّقة ملحقة بغرفة غسيل الملابس بالطابق التحتي. لا يشغل الغرفة إلا فراشًا ضخمًا من حديد، وخزانة ملابس صغيرة، ومصدر الإضاءة الوحيد مصباحٌ كهربيٌّ قبيح يتدلى

من سقفٍ أسقطت الرطوبة طلاءه. ومؤخرًا أحضر له حسين تلفازًا صغيرًا لتسليته، فأمسى العملاق يقضي جُل وقته مُحدِّقًا في الشاشة بذهول، محاولًا الإحاطة بكل ما يُعرض عليها بحركات دائرية دؤوبة من عينيه.

العلاقة بين النونو وحسين عضوية، تقوم على التبادل النفعي للمصالح. منذ التحق النونو بالعائلة، عُومِل من قبل الجميع كبارًا وصغارًا كأنَّه حشرة لا نفس لها ولا روح، ولا فطنة لها ولا ذكاء أو إرادة، لذلك ما أن بدا من حسين بادرة حُسْن معاملة وتعاطف صادق حتى تعلَّق به العملاق تعلُّق الطفل بأمه، وصار يأتمر بأمره وينتهي بنهيه، ورضي في كنفه بأهون نصيب من الدنيا. نتيجة اضطراباته النفسية الحادَّة، وتدهور التطوُّر النمائي في مهاراته الاجتماعية واللغوية، مع ما صاحب ذلك من عزلة اجتماعية شديدة، أصبح اعتماد النونو على سيِّده مصيريًّا، ووجوده في حياته ضروريًّا كحافزٍ للحركة وأداء وظائف الحياة الأساسية المختلفة، بدونه ينفلت عقاله وتنطلق ميوله العدوانية والتخريبية بلا رابط.

ومن جهته وفَّر له حسين الغذاء والكساء والرعاية الأساسية، ومع العِشْرَة والحاجة الشديدة لقدراته الاستثنائية وقوته الباطشة، اضطُّر حسين أن يتعلم إشاراته الخاصة واستطاع فهم لغته الجسدية، ومراعاة قدراته العقلية والحسِّية والحركية، وترويض قوَّته الغاشمة، ثم بالتدريج وبطول الصبر هذَّبه تهذيبًا رفعه من مصاف الحيوانات المفترسة إلى أقرب ما يكون الإنسان، ومنعه عن إتيان أمورٍ يخجل من اقترافها العقلاء!

الحقيقة أن قيام حسين برعاية حاجات النونو ومؤانسته وحفظ كرامته لم يؤد بالضرورة إلى إيجاد مشاعر المودَّة والحب تجاه العملاق، لكنَّه أشاع جوًّا ملائمًا لبناء علاقة بنَّاءة ووثيقة، قائمة على التجاوب والفهم المتبادل، بها صار النونو بحكم العادة أشبه بأخ أصغر لحسين، أو على أسوأ الظروف فردًا من أفراد الأسرة، حتى ولو كان من الدرجة الثانية، وقد كان من قبل أدنى منزلةً من كلاب الحراسة. المفارقة الوحيدة هنا هي أن الإنسان الوحيد الذي استطاع حسين التجاوب معه على أساس سيكولوجي سليم هو في الواقع إنسانٌ مختلٌ عقليًا.

في هذه الليلة استغرقت شاشة التلفاز النونو كالعادة وخدَّرت حواسه، فلم يشعر

بمضي الوقت وقرب طلوع الشمس، حتى قطعت عليه تلك الصرخة تركيزه. كانت صرخة مرعبة كأن صاحبها يكابد آلامًا رهيبة ورعبًا صاعقًا تردَّدت في أروقة القصر. التفت النونو بحدَّة وشبه فزع، ونظر في السقف بانزعاج، وأطال النظر كغوريلا تعاين جسمًا عدائيًّا غريبًا. وعندما تكرَّرت الصرخة، انتفض النونو فزعًا وخرج من غرفته كالعاصفة لمَّا ميَّز صوت حسين، وتحوَّل انزعاجه إلى فزعٍ حيوانيٍ مخيف، به جرى كوحشٍ مفترس وتخبَّط بين الجدران حتى قابل في طريقة شباب البدو وقد فزعوا هم أيضًا وتوجَّهوا بأسلحتهم إلى غرفة حسين. أزاحهم النونو عن طريقه كأنهم هياكل خفيفة من خشب، واقتحم الغرفة بعنف.

كان حسين بالداخل يصرخ بجنون ويحطِّم الحاسب الدفتري على رأسه! وعندما اقتحم النونو الغرفة التفت إليه حسين بشراسة والدم يغطي وجهه وحطام الحاسب بين يديه، ثم هجم عليه كالكلب المسعور وهو يصرخ، فتراجع النونو بفزع. اقتحم شباب البدو الغرفة بأسلحتهم مُشْهَرَة، ففوجئوا بحسين يضرب النونو بقبضتين دامتين ويصرخ كمن أصابته لوثة. لم يحتمل النونو الضرب لأكثر من ثوانٍ، ثم غلبه الجانب الوحشي، فزأر بعتوٍ وانقض على حسين كالخرتيت. رفسه حسين وخمشه بأظافره، لكن النونو قبض على شعره، وناوله صفعة مباغتة ومفجعة كادت أن تخلع رأسه، انطرح على إثرها حسين أرضًا كالقذيفة. لم يصدِّق البدو ما تراه أعينهم، ولم يدروا ما المفروض أن يفعلوه الآن!

احتقن وجه حسين حتى استحال للون الدم، وانتفش شعره، وسرى الأدرينالين في عروقه، فاندفع نحو النونو وضربه بجسده كله، فلم يتزحزح النونو قيد شبر، بل لطمه بقوَّةٍ مهولة، طار لها جسد الشاب وسقط على فراشه بعنف. مدَّ حسين يديه واستل مسدَّسه من أسفل الوسادة، وهجم على النونو مرةً أخرى صارخًا، ثم لطمه بالمسدَّس على فكه لطمه زلزلت كيان الرجلين. كاد حسين أن يرتد ليسقط أرضًا، وسقط النونو فعلًا، لكنَّه لم يستقر لحظة، بل نهض نهوضًا عاتيًا، وهجم على سيِّده ليدكه بقبضتيه دكًا وقد غاب إدراكه واستمكنت منه شهوة القتل، لولا أن عاجله حسين بضربةٍ أخرى أشد قوَّة أصابت أنفه ودفعته القهقري، ثم أسقطه على ركبتيه. هنا أصدر النونو صريرًا غليظًا غريبًا من جوفه أفاق به حسين من نوبة السُعار المفاجئة، فسدَّد فوهة السلاح

لرأس العملاق، وصرخ فيه بجنون:

- اثبت، اثبت مكانك.. اثبت!

تجمَّد النونو عند رؤية السلاح، وصار يلهث ويزوم بوجهٍ شيطاني مشوه. أما حسين فتلفَّت حوله لا يدري ما يفعل، ثم صرخ بغضب متأجِّج الأوار:

- أنت مجنون.. مجنون! بتتهجَّم عليَّ؟!

الحقيقة أن حسين كان مرعوبًا، رعبًا يقوِّض الأركان ويدقُّ المفاصل. إنه يعلم أن سلاحه لن يغني عنه شيئًا إذا هجم عليه النونو مدفوعًا بحالة الهيجان الطارئة. ويعلم أنه لو أظهر خوفه، فلن يتورَّع رجله عن دقِّ عنقه.

لكن هذا الهجوم شتَّت انتباه حسين عن الكارثة الرهيبة التي حاقت به. الكارثة الرهيبة! اتَّسعت عيناه وهجم عليه ما شاهده منذ دقائق بضراوة، فارتجفت عيناه، وانقبض وجهه والتوى كالمشلول، ثم خفض سلاحه ببطء. اعتراه ذهول عجيب أمام هول الكارثة، ولم يدر بالضبط ما المفروض أن يكون رد فعله أما هذا الظرف الغريب والمفاجئ الذي وجد نفسه فيه!

رفع النونو عينيه الضيقتين إلى سيِّده، وللعجب كانتا دامعتين. لم يكن على وجهه تعبيرٌ محدَّد، لكن شفته السفلى تمطَّت، وصدرت منه زمجرة خشنة طويلة، أتبعها بزمجراتٍ متقطِّعة واهتزازات مضطربة، استغرق حسين فترة حتى أدرك أنها البكاء. كان حسين يظن أن هذا المخلوق قد قُدَّ من جمادٍ قاسٍ، وأنه مُجرَّد آلة قتال طائشة. لم يكن لديه وقت ولا احتمال لهذا الهراء، وبدا له النونو لحظتها كغوريلا قذرة، والبدو كحشرات طفيلية بشعة، فاحمرَّت عيناه وارتعشت عضلات وجهه كلها، ثم صرخ مكشرًا عن أنيابه:

- برَّه! اطلعوا برَّه! برَّه!

تراجع النونو مصدومًا، وتقهقر البدو بانزعاج شديد، فتقدَّم حسين ملوِّحًا بذراعيه ومستمرًا في صراخه والرذاذ يندفع من فمه:

- برَّه، برَّه، برَّه! اخرجوا برَّه!

نهض النونو وحثَّ خطاه نحو الباب بخوفٍ مفاجئ، بينما يأخذ حسين ببعض أجزاء الحاسب المُهشَّم ويقذفهم بها وهو بطيل صراخه الجنوني، حتى صَفَق الباب خلفهم بعنف. تلفَّت حوله في الغرفة الخالية وهو يزوم ويتنفس بثقل. وفي لحظة أصابه مسٌ من جنون وهو يستعيد ما رأى لحظة بلحظة! الصراخ والاستجداء ضد الزمجرة المحمومة واللهاث العدواني الشَبِق. الرفس الجنوني ضد حركات الإدخال القسرية والتقاء العُسَيلتين في احتكاكٍ خشن. البكاء الذليل ضد الهمهمة الذكورية النشوانة القوية. العجز التام ضد انقباضات اللذّة واندفاع القذف في دفقات قوية وغزيرة لوَّثت كل شيء.

الموقف فوق احتماله! هَمَسَ بذهول: "أسماء؟ وحَسَن؟! إزاي؟! طيّب إزاي؟!" تصاعدت حرارة الهمس مع حرارة رأسه، وتغيَّرلون بشرته لحُمْرَة متّقدة، وجعل يزمجر ويدير النظر حوله بعينين زائغتين.. كيف فعلوا بها هذا؟ بل كيف فعلوا به هذا؟! ليتهم قتلوه أو أحرقوه أو صلبوه.. لا، لا، مستحيل! الرحمة يا رب! لا، بل العذاب يا رب! صُبَّ فوق رأسي من عذاب الجحيم! أنا أسيرٌ وحيد، خسرت كل شيء، وآخر ما كان لي فقدته.. لوَّثتم بيتي أيها اللصوص! أعيدوا إليَّ شرفي واذبحوني.. أعيدوا إليَّ شرفي ولكم عليَّ عهد الله وميثاقه أن أعيش تحت أقدامكم وبين كلابكم عبدًا.. أعيدوا إليَّ شرفي واضربوني بمقامع الحديد، افتحوا رأسي وصبُّوا فيه الحميم! أليس منكم من تأخذه بي الشفقة، فيصب في رأسي الحميم؟!.. لا أريد الرحمة، بل شفقة كالتي تنظرون بها لكلب أجرب ينزف على قارعة الطريق.. إني أنزف قيحًا وصديدًا.. أكلتم لحمي وهتكتم عرضي، أفرأيتم من هو أجدر بالرثاء، أو من هو أشقى مني في الأولين والآخرين؟! ويلٌ لكم أيها الحثالة الأنذال.. ألا تعلمون من أنا؟!

سال المخاط من أنفه، وتفجَّرت الدموع من عينيه، وجعل يدور في الغرفة كشمبانزي عجوز جريح، وخُيِّلَ إليه أنه يترك في كل موطئ قدم بقعةً من دمٍ وقيح وصديد.. ألا تعلمون من أنا؟! أنا حسين حربي جوهر الجارحي! سأصل إليكم أيها السفلة ولو اختبأتم في الكهوف، ولأستخرجنَّكم ولو لجأتم للقبور، ولأذيقنَّكم العذاب الشديد ولو تحصَّنتم على قمم الجبال! سأبتر أيديكم وأرجلكم، وأفقأ عيونكم، وأبقر بطونكم، وأنزع أثداء نسائكم، وأحرق أولادكم، ثم لأقطعنَّ لحومكم وأطعم بها كلاب السكك.. لكن لمن

أفعل هذا، وقد قتلتكم؟! ليتني ما قتلتكم! عودوا إليَّ.. أعدهم إليَّ يا رب! أعد إليَّ أخي الذي خنقته بيدي! كم كنت رحيمًا به! أعده إليَّ يا رب.. أقسم أن.. أن.. سأطحن عظامه، وأهرس لحمه، وأقشِّر جلده، ثم أهتك عرضه.. بقبضتي هاتين! لكني خنقته.. رحمته وقتلته في ثلاث دقائق!

الآن فقط فهم سر تغيُّر زوجته المفاجئ في أيامها الأخيرة. الآن فقط فهم سر الخوف الدائم والعجز عن النوم وهُجْرَانِها له في الفراش، وهي خطوة متطرفة لم يسبق لها أن أقدمت عليها من قبل مهما استفحل بينهم الخلاف. الآن فقط فهم سر مشاعر الرفض والقرف، والعجز والقلق، والاكتئاب والغضب، والاضطراب والأرق. كانت قد انقلبت بين يومٍ وليلة إلى إنسانةٍ أخرى لا يعرفها، هشَّة عاجزة، عدوانية ضائعة. أيام عاشتها في رعبٍ داهم، ونومٍ مضطرب ينقطع بكوابيس إجرامية وصراخ رهيب بالليل. أيام عاشتها بين صمتٍ ذليل، ونوبات هياج مخيفة، وشجارات فاحشة لأتفه الأسباب، وصراخ جنوني تتفوَّه فيه بأبشع الألفاظ وأغلظ المعاني. لم يكد يصدِّق أذنيه وهو يسمعها تصرخ في وجهه بأن: "أنا خلاص انتهيت! حياتي خِلْصِت!" "بقيت مَرَة وسخة، بُص عليَّ، أهُه، وسخة" "أهلك جوّزوك مَرَة وسخة!" لم يفهم أين ذهبت أسمَاء، أين العفيفة الطاهرة الخيِّرة؟ أين النسمة الجميلة والثمرة الدانية؟ أين هي من تلك الهزيلة الشاحبة المجنونة التي تصرخ: "أنا لازم أموت، خلاص ماعدتش أستحق أعيش!" "أنا مُت، قتلتوني يا كلاب، يا خونة، يا كفرة.. ربنا هو المنتقم!" الآن فهم لمَ كان يشعر بجسدها جانبه كأنه مُهَشَّم ليس فيه أثر للحياة، ولمَ كانت تدخل في نوبات بكاء لا تنتهي، ولمَ كانت تنعزل بالساعات في الحمَّام، ولمَ كانت ترمقه بنظرة كراهية مخيفة. قتلوها قتلًا معنويًّا بطيئًا لم تتمكن بعده من إيجاد مكان يسعها على وجه الأرض، فصار كل ما حولها ومن حولها منفِّرًا مجرمًا وشنيعًا. الآن فقط فهم كيف تجرَّأ أشمُوط في الليلة المشؤومة! ولماذا تجرَّأ أشمُوط! الآن فقط فهم لمَ قتلوها قبل حتى أن يقتلوه! الآن فقط فهم كيف أن دفن سر اعتداء الأخ على زوجة أخيه، على ابنة عمه، أهم ألف مرة من القضاء عليه!

انهار حسين أرضًا وانخرط في بكاءٍ حارٍ مريرٍ، وأخذ ينوح كالثكالى. أيتها الغبيَّة! أيتها الغبيَّة، لماذا ذهبت؟! ألا تعودين إليَّ يا أسمَاء فأتأمل وجهك الصَبُوح.. و.. وأقتلك بيدي

قبل أن يَمَسَّك الكلاب! أخْنُقكِ قبل أن يَنْتَهِك عفَّتك هؤلاء السفلة الأوغاد! آاااه.. آاااه.. ماذا جَنَت الطاهرة حتى تستحق هذا؟ بل أنت من جنيت.. إنها الآن بين يدي ربٍّ كريم، أما أنت فباقٍ هنا، بين الوسخ والقاذورات وحثالة بني آدم.

كانت لحظات سوداء ماضية، هرسته تحت ثقلها هرسًا، وطحنته بأسنانها طحنًا، وتركت وعيه هائمًا في أودية الانتقام الملتهبة ومتاهاته المظلمة، ووَسْوَسَت شياطينه إليه بهمسات خفيَّة أفقدته صوابه، فأخذه بكاءٌ وضحك، أو ضحكٌ وبكاء، انتهى إلى هذيان محموم.. أنا مسكين بائس منكوب! أنا شيطان عاجز مكلوم! أنا الطرح المر لشجرة خبيثة تنبت في أصل الجحيم.

***

في السابعة صباحًا قَدِم العدوي، وأن يرد على القصر في مثل هذا التوقيت المبكِّر فهذا أمرٌ غير عادي، وأن يجد حسين متيقظًا في انتظاره، فذلك أمر أجل شأنًا. كانت الأجواء مشحونة والقلوب تبلغ الحناجر، وتبدَّت النتائج المحبطة للكل على كفايتها. الاجتماع تم إلغاؤه تقريبًا، والشهاوي تزعَّم جبهة تهدف لاستئصال شأفتهم جميعًا، وهم باتوا في خطر؛ ذلك أن الهجوم عليهم قد يحدث في أي لحظة. الأهم من ذلك كله التغييرات التي طرأت على حسين هذا الصباح. رأى العدوي فيه شخصًا آخر غير الذي يعرفه. وجهُهُ مظلمٌ وكئيب، عليه سواد الشر وشحوب الأموات، وعيناه منتفختان عليهما غشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروقٍ حمر. لم يجرؤ العدوي على سؤاله عمَّا به، لكن علم على وجه اليقين أن شيئًا ما أكبر من أزمة الاجتماع قد حدث. وما أن اشتبك معه في نقاش حامي حول سبل التصرُّف لتدارك الأزمة، حتى أَحَسَّ بأن كل شيء يرتجف بالاضطراب والعنف والحقد الأسود.

الحقيقة أن حسين قضى ساعات الفجر الأولى وحتى الشروق محاولًا كبت فورته الدموية واندفاعه الأهوج. فكَّر جديًا في الانتحار لكن بدا له أن هذا الفعل لن يفيد إلا خصومه. أدرك أنه لا بد وأن يتصوَّر المشكلة بصورة دقيقة، ثم يُركِّز على ما يجب وما لا يجب فعله، خصوصًا وقد بدأت أبعاد الموقف تتَّضح: إن مشاعر الخوف الداخلي العميق الممزوجة بالغضب الأعمى قد تدفعه لارتكاب عمل سيندم عليه في المستقبل. لو

لبَّى رغبته العارمة في الانتقام، لأقدم على أفعالٍ طائشة ودموية لن يطاوعه عليها أحد إلا النونو. إن السيطرة على عائلته لم تعد هدفه. كل ما يريده الآن هو القتل.. القتل.. فقط القتل! وهو ما يتعارض مع هدف محاميه الطُفَيْلي البغيض، وأهداف البدو المرتزقة. إنه يعلم أن كلاب الحرب هؤلاء يدينون بالولاء فقط لسيِّدهم الحمداني في الجبل، وسيِّدهم لن يحرِّكهم إلا إن كان في الأمر مصلحة أو ربح مباشر. لا بديل إذن عن الاستمرار في خطة السيطرة على العائلة. إنه لا يُفكر في قتل عشوائي يشفي به غليله، بل إبادة منظمة لكل فرع في هذه الشجرة العائلية الملعونة. مهمة كبيرة وخطيرة لا يستطيع القيام بها وحده، ولا حتى والنونو معه. إنه يحتاج أن يكون على رأس العائلة لتدميرها. هذا هو الحل الوحيد! صوت العقل يقول إن القيام بأي تصرف غير محسوب من شأنه أن يفسد مسار خطته كلها. لا بد أن يقبض على مشاعره ويخفي لوعته، ثم يُحَرِّك الموقف لأقصى درجة كي يصل إلى مراده.

حاول حسين بإخلاصٍ ضبط أعصابه وتوضيح أبعاد المصيبة الخطيرة للعدوي (دون أن يشير من قريبٍ أو بعيدٍ للكارثة العظمى والمصيبة الماحقة). المسألة لم تعد سيطرة على مال أو تجارة، بل صراعًا للبقاء. ولا بد من ضربة استباقية مزلزلة. وإنه والله، ليكافئن أعمامه من جنس بضاعتهم، وليجعلن مكايدهم في نحورهم. إن الشهاوي رجل عنيد، رأسه كالصرمة القديمة! يكره السيطرة، ويسعى بالفساد والفرقة في الجماعة كي ينفرد بأمره. وإن العند الأعمى في الحق والباطل صفة متأصِّلة في نفس حسين، وهي الصفة التي شد ما يكرهها في خصمه، لأنها تجعلهما كالديوك. والكارثة أن يتواجد ديكان في مكانٍ واحد. لا بد أن ينقر أحدهما الآخر حتى الموت. إنه يكره الشهاوي كراهية مطلقة، ولن يألو جهدًا لقتله. استقام أمره واستحكم على تلك الفكرة. إن هذا الرجل هو أس البلاء، والخلاص منه خير مطلق.

قضى حسين والعدوي النهار بطوله في التفاوض، ثم تلقى حسين مكالمةً هاتفيةً من البدري بَثَّ فيها الأخبار المشؤومة، وأعلن استعداده التام للتعاون في حال استحداث مخطط جديد للم الشمل. ولقد استفحل غضب حسين، وازداد إصرارًا على النية التي عقدها البارحة: الضربة المزدوجة التي ستكسر أهم محورين للعائلة في الوقت الحالي. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يقترح فيها الإقدام على هذه الضربة الاستباقية، لكن

العدوي لم يقابل مقترحه قبلًا إلا بالرفض القاطع والانزعاج، لأنها جريئة لحد الترويع، بل إنها كارثة نسبة الخطر فيها مرتفعة، والدمار التام هو الاحتمال الغالب للكل. أما استجابته اليوم للمقترح فواهية على غير العادة، لم تتبد فيها قدرته على الاحتواء. لقد اكتفى بالتبرير والتفكير والتهدئة. لكن الأحداث سبقت بشائرها، ولم يعد من سبيل لردها. لقد سيطرت على حسين نزعة عدوانية خارجة عن السيطرة.

ولم يعد بوسع العدوي منع الشاب. والحق أنه لم يرغب في ردّه عن فورته، فالأوغاد استنفدوا فرصهم فعلًا، وهضموا الضربات الموجعة، ورفضوا أي تقديم منهجي لحل الأزمة أو الوصول لتسوية وسطية. استقبل حسين رد فعله هذا وفهم أنه يقرّه على ما ذهب إليه، وإن لم يعلنها صراحة. حسن، هو لديه الجرأة لإعلانها صراحة. هل يريدون تحويل الأزمة إلى معركة؟ هل يريدون الحرب؟ سيطحنهم طحنًا!

وبناءً على اتفاق الطرفين، شهد قصر الفردوس اجتماعات مطوّلة بين العدوي وحسين والبدو في غرفة المكتب الرئيسية التي تحوّلت لغرفة عمليات. استعانوا بذخيرة غنية من البيانات من مصادر عدة أبرزها «الصراصير» المنتشرة في بيوت الكبار، ومصادر أخرى للعدوي من داخل العائلة وخارجها. عكف حسين لأيامٍ متصلة على الخطة يُنقِّحها ويعيد ترتيبها، وشاركه العدوي لحظة بلحظة تاركًا مكتبه ومصالحه وبيته، ومقيمًا في القصر. عَلِمَ حسين أنه لا مجال للخطأ، ووضع في اعتباره عامل السرعة والتوقيت، فالضربة لابد أن تكون خاطفة ومميتة.

ثم ترجم خطته إلى نقاطٍ ورسومات توضيحية يتيسَّر على الجميع فهمها، وحادثوا الشيخ عايش الحمداني في هذا الشأن للاستفادة بخبرته، فأبدى تعاونًا رَحْبًا وغبطة مخلصة لمّا علم ما انتووا، وأدلى بدلوٍ عظيم في المسألة عَدَل به المائل، وعرض مشكورًا إيفاد المزيد من الرجال لتأمين إنجاز الهدف، وقبل حسين عرضه شاكرًا. وفي اليوم التالي وصل ستة من البدو، ليصير مجموع من معه ستة عشر رجلًا. وعزم الشيخ عايش على متابعة العملية لحظة بلحظة عبر هواتف الأقمار الصناعية، وأوصى رجاله بنفسه، وراجع معهم خطة الهجوم وكافة شيء عن الهدف. وقد قبل الرجل المخلص تقسيط أجرة الاستعانة برجال إضافيين لحين ميسرة، لما علم بعِظَم الغنيمة التي ستقع بين أيديهم لو تيسَّر نجاح الخطة. وفي اليوم المنتظر انتقل فريق العمل لمسرح العمليات،

وقبع العدوي وحسين في الغرفة المسحورة، يعضّان الأنامل قلقًا، ولبث الشيخ عايش في الجبال منتظرًا البشارة. حتى جاءت لحظة الصفر.

***

رأس بناس، ساحل البحر الأحمر جنوبًا.

رست سفينة «لؤلؤة البحار» قرب الشاطئ في عتمة انتصاف الليل، التي لم يُبدِّدها إلا مخاريط من نور تصدر عن بعض السيارات والشاحنات الرابضة على الشاطئ، وانتشر في المكان عشرون رجلًا مسلحًا يتابعون عملية تفريغ كميةٍ ضخمةٍ من الهيرُوين، بنقاوة خمس وسبعين بالمائة.

اجتمعت كل رؤوس العائلة مع أطرافٍ دولية أخرى: عراقيين ولبنانيين وإسرائيليين، وضخُّوا في تلك العملية مبلغًا هائلًا. تولَّت العائلة مسؤولية استقبال هذه الكمية وتوصيلها عبر المنافذ الحدودية لكافة الأطراف المشاركة مقابل نسبة ثلاثة بالمائة عن كل كيلوجرام هِيرُوين يصل لمستقره سالمًا. هذه العملية نتاج خمس عمليات مركبة تمت في أعالي البحار عبر خمس سفن أخرى، جمعت شحناتها في سفينة الشحن «لؤلؤة البحار» في البحر العربي، وتُعتبر من أكبر ما ورد على منطقة الشرق الأوسط من حيث الزنة الكلية والقيمة النقدية والأرباح المتوقعة، والمخاطرة العالية التي تحملتها كاملة العائلة، بضمانات قاسية لتعويض الأطراف الأخرى إن تعثَّر إيصال الشحنة، وهو الكفيل إن حدث بتدمير موارد العائلة تدميرًا، وتركهم جميعًا -إن عاشوا- مُفلسين عُراة كيوم وُلدوا.

تتم عملية التفريغ على قدمٍ وساق، بنظام وصمت، وخلف تبَّة رملية قريبة رقدت جماعة من البدو الملثمين بكامل عتادهم وتسليحهم على هيئة مجموعات يراقبون العمل الدقيق عبر مناظير مقربة. على صفحة الرمال المتاخمة للشاطئ قبعت أربع شاحنات ثقيلة اتجه إليها الرجال ذهابًا وإيابًا من وإلى الشاطئ. قامت مجموعة بنقل لفائف من السجَّاد من السفينة إلى الشاطئ بواسطة قوارب خشبية صغيرة، وقامت مجموعة أخرى باستخراج أنابيب بلاستيكية طويلة مدفونة في اللفائف، منها تم تفريغ الهِيرُوين وإعادة تعبئته في أكياس بلاستيكية شفافة.

العملية طويلة ومرهقة، وتتطلّب قدرًا كبيرًا من الدقة والرقابة لضمان تقليص الهالك، ومنع تسريب كميات جانبية بواسطة بحّارة السفينة والتبّاعين. عُبِّئ المخدِّر في أكثر من ثلاثة آلاف كيس، ثم خُزِّن في أجولةٍ قماشية نُقلت من الشاطئ إلى صناديق الشاحنات بسرعةٍ ونظام. راقب المسلحون العشرون إجراءات التفريغ والنقل عن كثب، موزّعين أنفسهم على مجموعات عمل: واحدة ترافق الرائحين والغادين، وثانية تقف على التعبئة لحظة بلحظة، وثالثة تراقب الأجواء المحيطة، ورابعة تفتِّش لفائف السجاد الفارغة العائدة لمخازن السفينة، وخامسة تباشر وزن الشحنات المجمَّعة الواردة للشاحنات للوقوف على الزنة النهائية.

استغرقت العملية الليل كله، وقبل الفجر مباشرةً، بعد أن تمكَّن الإرهاق والسأم من الكل، تحرك الملُثَّمون الراقدون غير بعيد. كانوا خمسة عشر رجلًا، زَحَف منهم أربعة على بطونهم بخفَّة وصمت، كلٌّ منهم يتَّجه لواحدة من الشاحنات الأربعة. طالت بهم الدقائق حتى وصل كل منهم لباطن شاحنة متفاديًا العيون اليقظة ومُحتجبًا بالظلام. ثبَّت كل منهم شحنته من أعواد متفجرات الـ«سي فور» العاملة عن بعد، وأجهزة تتبُّع طويلة المدى للوقوف على الموقع التقريبي للشاحنات، وحال فراغ كل منهم من مهمته عاد لينضم لزملائه عند التبَّة، ثم انسحبوا جميعًا إلى مواقعهم استعدادًا لتتبُّع الشاحنات الأربعة.

ومع أضواء الشروق الأولى اكتمل الشحن، وصعد البحارة إلى السفينة، فمَخَر بدنها العملاق صفحة الماء لمقصدها الأصلي إلى قناة السويس، وتحرَّكت الشاحنات كلٌّ لوجهتها المعلومة. أما العشرون رجلًا فغادر معظمهم مع الشاحنات لحراسة الحمولة الثمينة، وآخرون لازموا مواقعهم لإزالة آثار الشحن والنقل عن الشاطئ الرملي. أخذت الشاحنات مساراتٍ غير مطروقة تقصيًا للسرية، وامتلأت صناديقها بأطنانٍ من البضائع، بينما دُسَّت عبوات الهيرُوين النفيسة في مخازن سرية.

وما أن انتصف النهار، وعند نقطة معينة في كل طريق، انتظرت سيارة تويوتا نصف نقل. ما أن تلوح الشاحنة الثمينة على مرمى البصر، حتى يضغط أحد البدو زر جهاز التفجير عن بعد، فتشتعل فتائل متفجرات الـ«سي فور» لتنسف محاور الإطارات، فتستحيل الشاحنة لكتلة ثقيلة عديمة الحركة، وقد تنقلب على جانبها أو تحيد عن

نهر الطريق بالكلية. هنا ينقض البدو على الكابينة والصندوق الخلفي بالسلاح الآلي، ويطلقون النار دون تمييز على كل ما يتحرك داخل الشاحنة أو قربها، وما أن يطمئنوا حتى يقوموا بنقل عبوات المُخدِّر للتيوتا النصف نقل المنتظرة غير بعيد.

تكرَّرت هذه العملية بتفاصيلها أربع مرات على الطرق المختلفة التي سلكتها الشاحنات، وواجه البدو مستويات متباينة من المقاومة استطاعوا درأها جميعًا، فكانت الحصيلة خمسة وعشرين قتيلًا: السائقين والتبَّاعين والقائمين على حراسة الشحنة، وخمسة من البدو، توفِّي منهم ثلاثة في طريق العودة متأثرين بإصاباتهم. وفي الساعة الثالثة عصرًا، دخلت خمس سيارات تويوتا نصف نقل القاهرة، يقودها شباب البدو برخص قيادة مزورة وأذونات نقل لا يشق لها الغبار بحمولات تتنوع بين الأرز والسكر والمسلى النباتي.

* * *

القاهرة، الحي الثامن بمدينة نصر.

قامت الشركة العصرية للإنشاءات والمقاولات ببناء برجٍ من عشرة طوابق على مساحة ألف متر مربع، ولم يتم تسويق المنشأة لظروفٍ غامضة. لسنواتٍ وقفت البناية خالية تمرح فيها العفاريت، بلونها الترابي وجدرانها الداخلية الرمادية الكئيبة. ثم تقدَّمت إحدى شركات المحاسبة الكبرى بعرض لتأجير طابقين كاملين بعد أن زحف الإعمار على المنطقة، لتحويلهما لمقرٍ رئيس. قامت الشركة بتشطيب المكان وتجهيزه بالوحدات المكتبية والتجهيزات الكهربية والميكانيكية اللازمة على مستوى راقٍ، ثم، ولسببٍ غير معروفٍ أيضًا، تراجعت الشركة عن العقد المُبرم بينها وبين العصرية للمقاولات مالكة العقار، وعزمت على نقل نشاطها لمكان آخر، وامتنعت عن دفع الشرط الجزائي المنصوص عليه في العقد. وقام حَسَن الجارحي رئيس مجلس إدارة العصرية للمقاولات -إحدى شركات مجموعة الجارحي الاستثمارية- بمتابعة القضية لآخر مدى مع سيِّد العدوي المحامي.

طالت حبال القضية في المحاكم، نظرًا لتقديم محامي شركة المحاسبة أوراقًا تثبت تهالك مرافق العقار، ومخالفتها للمواصفات القياسية المنصوص عليها في قوانين

البناء، حتى اجتمع الطرفان على اتفاقٍ وسط، بموجبه تقوم شركة المحاسبات بدفع قيمة معلومة من الشرط الجزائي مع التنازل عن كافة تجهيزات المكان من أثاث قيّم وأجهزة غالية الثمن. ومرّت الأعوام والبناية لا تزال على خلوّها، وفيما بعد تمت تصفية العصرية للمقاولات وتسريح مهندسيها وموظفيها في غمار التصفية الكبرى التي مُنِيَت بها مجموعة الجارحي الاستثمارية بعد موت مؤسسيها الثلاثة: جوهر الجارحي، وحربي الجارحي، وحَسَن الجارحي، وانتقلت ملكية البناية للحفيد: حسين الجارحي.

وفي تلك الليلة، في تمام الساعة التاسعة مساءً، حفل مدخل البناية بحركة نشيطة وغير معتادة؛ إذ وقفت السيارات التويوتا النصف نقل الأربعة أمام المدخل، مع سيارة فخمة رباعية الدفع. حمل البدو أجولة المخدرات على أكتافهم صعودًا حتى الطابق العاشر، حيث المقر السابق لشركة المحاسبة، وقام حسين بنفسه بالإشراف على العملية.

انتشر البدو بالداخل لتأمين المكان في عتمةٍ شاملة سعوا في حشاياها كالأشباح على إضاءةٍ مهزوزةٍ منبعثة من مصابيحهم اليدوية الصغيرة. وعندما أتموا تأمين المكان، اتَّجهوا إلى الخزينة في الجهة القبلية من المبنى. اختار حسين هذا المكان بالذات لتخزين الشحنة، لأن خزينة الشركة ذات بابٍ سميكٍ من الصلب، مُجهَّز بقفلٍ آمن وأرقام سرية، وحوائط الخزينة ذاتها مبطنة بالخرسانة المسلحة وشرائح الصُّلب، ما يجعل محاولة اقتحامها أمرًا في غاية الصعوبة.

كوَّم الرجال أحمالهم الثمينة في الخزينة، حتى احتلت الكَمِيَّة أغلب مساحة المكان. وقف حسين يرمق الشحنة بكآبة وشيءٍ من اللامبالاة، وشعر أنه أمام شيء أكبر منه بكثير. الآن استفحلت همومه، من خلاف وضغينة مع ذوي رحمه، إلى عداوةٍ مع أطراف لا يدري عنها شيئًا، يعملون في مهنةٍ وعرةٍ تحكمها شرائع الغاب. وإن مبلغ الألف جنيه يستحق القتال والقتل من أجله، فكيف بما قيمته الملايين من الجنيهات؟ إنه مبلغ تطير له الرقاب، وتُشَن في سبيله الحروب. وجعل يردِّد في نفسه وهو يرمق الشحنة بنظرة سلبية مظلمة: "ماذا فعلت بنفسي؟!" ثم أدخل الرقم الشفري المُعقَّد وأغلق باب الخزانة الثقيل.

وفي سيارته حدَّث نفسه أن ما حصل ليس إلا إنجازًا، لكنَّه غير مكتمل، وإن رجاله يتَّجهون الآن إلى وجهة محددة. فالليلة هي ليلة الشهاوي. أعدَّ له برنامجًا حافلًا استغل فيه الهستيريا الحماسية الناشئة عن نجاح الاستيلاء على الشحنة لشن هجوم إجرامي مُفترس اعتبره جائزةً أولى، ستكون مقدمةً لجوائز أخرى قادمة.

وما أن بلغ خبر الاستيلاء على الشحنة الشيخ عايش، حتى كبَّر فرحًا، أما العدوي فزفر وكأنها آخر أنفاسه، وجعل يحمد الله بحرارة، ويشد على يد موكله مُبشرًا ومُنذرًا.

***

في الساعة الثالثة صباحًا وصلت اللينكولن نافيجيتور رباعية الدفع للفيلا الكبيرة الكائنة بغرب الجولف، وانفتح باب الفيلا النحاسي أوتوماتيكيًّا لتدلف السيارة. نزل منها الحاج الشهاوي، بهامته الضخمة ووجهه المنتفخ وجسمه السمين، واتَّجه لباب الفيلا. تملَّك الإرهاق جسمه، خاصة أن الأسبوع الماضي لم يكن سهلًا. كان قد قضى خمسة أيام في قرية بني يحيى؛ إذ توفي الحاج مجاهد أبي رحيم أحد شيوخ القرية، ووالد زوجه نرجس. ما أن لفظ الحاج مجاهد أنفاسه حتى نادى المنادي في القرية بالمصيبة، وتلقى الشهاوي الخبر عبر الهاتف بعد ربع ساعة من حدوثه، ووصل القرية مع أسرته والمَعْمَعَة على أشدها، إذ تجمَّع الرجال من القرى والنجوع المجاورة، وجاءت النسوة صارخات: "حبيبي يا أبويا."

فورًا، وعند رؤية المنظر، خلعت زوجتا الشهاوي -الحاجة سهير والست نرجس- النعال ودخلتا الحشود. كشفت النساء وجوههن، وخلعن عباءاتهن، وضربن على الصدور والوجوه، وسرن حفاة، وجهرن بالصيَاح، واستماتت نرجس بالذات نظرًا لأن الفقيد والدها، فوضعت على رأسها جالوصًا (أي قطعة كبيرة) من الطمي المبتل استخرجته من أقرب مصرف. أما الحاج الشهاوي فقد انضم للرجال، واشترك في غسل الميت وتكفينه والصلاة عليه، ثم خرج متقدِّمًا المشيعين، حتى انتهوا إلى مدافن العائلة، حيث أدخلت الجثة، وعاد الجميع إلى ديارهم استعدادًا للعزاء الكبير.

وفي المساء نُصب صوانٌ كبير يليق بمقام المرحوم وعائلته، وتزعَّمت الحاجة سهير -الأصيلة- كتيبة المعدِّدات على الرَّغمِ من أن المتوفى يخص ضُرَّتها، وصدحت أنشودات

البكاء الصارخ والنواح المتفجّع، وزادت شدتها نظرًا لتوافد المُعزِّيات وتقديمهن آيات الحزن في شكل المزيد من النواح، بينما يُطاف عليهن بالمشروبات الدافئة لتسليك الحلق. ورَأسَ الحاج الشهاوي الرجال في تلقي العزاء، وتباكى هو وأولاده على المتوفى، وأشرفوا على إعداد الطعام للأهل والزائرين، وتنظيم مظاهر الحداد، واستقبال المُعزِّين، وسمع كلامًا كثيرًا يتعلق بضرورة التزام الصبر واحتساب الأجر والرضا بالقدر.

على مدى أيام ثلاثة عاش الحاج الشهاوي هذه التظاهرة الصاخبة بجوارحه في الظاهر، محيلًا عمل القلب في الحزن بحقيقته على غيره، وهم كثر: زوجات المرحوم وإخوانه وأبناؤه وذووا رحمه وجميع أبناء القرية، "أبناء الكلاب، عليهم من الله اللعنة!" نعم، كان مُتوجِّسًا حقًّا من أمرٍ يعلم أنه واقع لا محالة، ومُحتشدًا للتدخُّل إذا تأزَّمت الأمور، ولم يخب ظنه. كان جالسًا وسط المعزين، عندما رأى زوجته نرجس تجري شاحبة الوجه خائرة القوى، وهو المنظر الذي لم يشهده من قبل قط. تلقَّاها فزعًا، بينما تهتف دون انقطاع: "الحقني يا شهاوي، عايزين ياكلوها." علم أن الورثة -من جملة أولاد الكلب من القرية، بل بسببهم وصم القرية كلها بكونها منحدرة من سلالات الكلاب والمساخيط والسّعَالي- اجتمعوا في السر، وبدأوا في توزيع التَرِكَة فيما بينهم بناءً على ما ادعوا أنها وصية الحاج مجاهد بالنسبة لمسألة تقسيم العقارات والأطيان. طبعًا استشاط الشهاوي غضبًا وركبته العفاريت، وجمع أولاده، واقتحموا دار المرحوم، فإذا بالنَصْبَة قد نُصِبَت، والذكور من الأبناء مجتمعون كاللصوص، يتجاوبون بالفحش وهم يتنازعون التركة بينهم دون أن يكون للإناث نصيب.

ولأن الشهاوي ليس شخصًا هينًا، فإنه مَرَق من الباب بجسارة ودون استئذان، وشنَّ عليهم هجومًا طاحنًا، وأنشأ يكرر بغلظة وهياج: "اللي بتعملوه باطل، كفر، والباطل من الشيطان، يا شياطين، يا كفرة!"، واشتد عليهم في الوعيد، وذكَّرهم بمكانته وسطوته، وما في إمكانه أن يفعل. استمرت المداولات لساعات، ومع تقدُّم الوقت كانت مقاومتهم تزداد رخاوة وتخاذلًا، لأنهم يعلمون فعلًا من هو زوج أختهم، ويعلمون عن سطوته واتصالاته، وانبساط يديه على المال والرجال والسلاح والنفوذ، فلم يخرج الشهاوي إلا قابضاً بيده على حُجَج نصيب زوجته من التَرِكَة.

استقر بين أهله وأهل زوجته خمسة أيام، ثم غادر إلى القاهرة لتلبية أمر أشد إيثارًا

وأجل قدرًا. لم يكن يطأ خرابة إلا ويخرج له عفريت، فإلى جانب الفاجعة في الفقيد الكبير، كانت الفاجعة الأكبر في المصنع، إذ تعطَّلت ماكينتا خطوط حفر العوارض والمنشار الشريطي، وهي كارثة اضطر معها لاستدعاء أحد مهندسي الشركة المنتجة للماكينات بفلوريدا بالولايات المتحدة. لم يكن الوقت ملائمًا على الإطلاق؛ إذ ستكلفه عملية الإصلاح واستبدال قطع الغيار وتوقف عمل الماكينات خسائر هو في غنى عنها الآن. قضى يومين في المصنع، وعاد مكدودًا لا يُمنّي نفسه إلا بالزاد والنوم، وكان يعلم أن أسرته لا بد أنها قد عادت اليوم، وأنهم حتمًا نائمين بعد المشقَّة والعنت العصبي اللّذَيْن لاقوهما في البلد.

توجَّه إلى المطبخ الكبير بالطابق الأرضي كالكلب تسوقه أنفه، ولاحت لعينيه المائدة التي تتوسطه. كان قد ملّ طعام الخادمة الإندونيسية المِسْخ، وتاقت نفسه لطعام الحاجة سهير، ولا ريب أنه شعر بامتنانٍ صادقٍ عندما رأى المائدة المغطَّاة بالقماش الأبيض، الذي فضحت ثناياه ما تحته من الأطايب. عرف أن هذا طعام زوجته لسببين: أولًا تغطيته بالقماش الأبيض، وثانيًا تلك البقع التي تعني أن الطعام غارق في الزفر. رفع الملاءة وأحَسَّ بصدره ينشرح، عندما رأى مائدة وافية الزاد، أخذت حظها من العناية والتجميل، في قلبها دورق زجاجي امتلأ بالحليب المنسَّم بماء الزهر، مشروبه المفضل.. شمَّر عن ساعديه وألقى نظرة شاملة على الموقعة، فلاح في عينيه اشتداد الحرص والطمع. فرك كفيه متمتمًا: "اللهم صل على النبي"، وجرع الحليب مباشرة من الدورق، ثم أقبل على المحمَّر والمشمَّر بشهية واسعة، ونسي في غمار لذته المشاكل والوفاة والمصنع وكل ما عداها.

لا يجد الحاج الشهاوي متعًا في دنياه سوى لذة المطعم والمنكح. تفهم زوجته سهير هذا الموضوع جيدًا، لذلك ما أن تقدَّم بها السن حتى زوَّجته بنرجس، ولم يكن اختيارًا عشوائيًّا؛ فهي بنتٌ طيِّعة نضرة الشباب، وهي أيضًا بنت الرجل الفاضل مجاهد أبي رحيم، من أعيان البلد وصاحب أملاك. وتقبَّل الشهاوي العطيَّة شاكرًا، وشعر برضا الله يُظلل جوانحه إذ منَّ عليه بزوجتين مطيعتين، الأولى تطعمه وتسقيه من يديها التي تلتف في الحرير فتلبي له شهوة البطن، والثانية تلتف كلها في الحرير لتلبي شهوة الفرج، وكلتاهما متناغمتان كالعسل في الزبد، لهما مركز واحد تدوران حوله، هو الحاج

الشهاوي. لا عجب إذن أن تحول الرجل لمخلوق منزلي، لا يفعل شيئًا إلا المُكوث في البيت وقت أن لا يكون عمل، حتى عظم عجزه، وتدلدل ثدياه.

أخذ من الطعام قدر شبعه، ثم زاد عليه مرات حتى رضي. تجشَّأ. وأغمض عينيه وقد نزلت عليه السكينة؛ سكينة كالتي تصيب الكريم إن تصدَّق، والشحيح إن أمسك. غادر المطبخ واعتلى درجات السلم الرخامي متثاقلًا في ضعف، ودخل غرفته. لاحظ جسم الحاجة النائمة في الظلام، وقرَّر أن يبيت عندها الليلة. كان يعلم أنه لن يحظى بأكثر من ساعتي نوم على أفضل تقدير؛ لأن عليه النهوض مبكرًا للوقوف على أمر الشحنة المأمولة. ويعلم أيضًا أن كثرة الأكل يعقبها كربٌ يفسد يومه، من حيث تراكم الغازات في أمعائه. سيدافعها ثم يدفعها ضِرْطًا أو فُسَاءً في حضرة عُمَّاله، وهو مُنكرٌ معلومٌ عنه بالضرورة، لكن ما باليد حيلة! ثم ليس بعد ذلك إلا شعورًا بعدم الراحة، يستفحل بعد انغماسه في العمل إلى انقباضٍ مؤلم، مع إحساسٍ بالحاجة إلى التبرُّز، مصحوبة بحزق لا إرادي. بليَّة لا مفر منها!

ارتدى منامته، واستلقى جانب زوجته، وشعر بالرضا عنها؛ لأنها لم تشأ إلا أن تنام مطمئنة إلى أن الحاج سيعود ليجد لقمة ينشرح بها صدره. كاد ينعس، لكنَّه شعر ببللٍ في الفراش. ظن أن الحاجة بالت لا إراديًا، فزفر بضيقٍ شديد، وتحوَّل كل امتنانه إلى سخط وقرف في لحظةٍ واحدة، وعزم أن يبيت ليلته عند الأخرى في اللحظة التالية مباشرةً، لكن ليس قبل أن يكدِّر على هذه صفو ليلتها، "الفاجرة بنت الكلب"، كما كدَّرت هي عليه ليلته.

أضاء المصباح الكائن جواره، ونهض مشمئزًا. أشرقت الغرفة بالإضاءة الهادئة إلى حدٍ يتيح له التميز، فرأى المشهد على حقيقته. انفرج شدقاه، ثم ارتد مصعوقًا وسقط أرضًا. زحف للخلف حتى شعر بالجدار خلفه، فالتصق به. رقدت الحاجة سهير على ظهرها، ووجَّهت نظرة ثابتة للسقف، وفغرت فاها. لم يستطع إحصاء عدد الطلقات التي تلقتها، إذ إن الفراش قد تلوَّث كله بالدم، وتحوَّل لون اللحاف الأبيض الناصع إلى الأحمر القاني. تلفَّت حوله وشهق شهقاتٍ مشروخة نابعة من صميم صدره، واذهام وجهه فعلاه السواد، وكان إن ألمت به ضائقة أليمة لا يحمَّر وجهه كمعظم الناس، بل يسودّ اسْوِدادًا بيِّنًا. راح ينقل نظرات مستنجدة لكل ركن، وجاهد كي يخرج صوته،

ونادي بحسٍ مبحوح: "يا.. عامر.. يا.. عبد العال.. يا جوهر.. يا.. ظريف.. يا ظريف.. يا كـ.اشف.. يا طـ.اهر.. يـ.ـا.. سميَّة."

كرَّر نداءاته مرارًا وهو يكاد يبكي، ولما يئس من الإجابة، فرَّت العبرات من عينيه، وصار يردد باختناق: "يا مكادي." وأخيرًا رفع رأسه، وصرخ: "يا رب.

* * *

لبث الشهاوي موقعه دقائق، ثم جاهد نفسه لينهض. ولم يكن هذا أمرًا هينًا. إنه يكافح كالجريح للوقوف على أقدامه. لكنَّه عجوز، فقد طاقةً كبيرةً في الطعام ثم الصعود ثم الهُجُوع فالنهوض. ثم نجح في القيام بمشقَّة. وسعى دون أن ينظر خلفه تتأرجح به طيَّاته الشحمية كأمواج في بحرٍ من طحينة. جاس في الحجرات العلوية، وقلبه يكاد يتوقَّف خوفًا مما قد يجد. بدأ بغرفة زوجته الصغيرة. رآها في الظلمة مُرتَّبة، وبعض الضوء يتسلل عبر فرجة باب الحمام المُلحق، فراوده أمل بسيط، دخل على أثره الحمام مسرعًا، ثم توقف وقد هاله ما رأى.

رقدت نرجس في البانيو، واستطاع إحصاء عدَّة طلقات، استقرت منها اثنتان في الرأس، وتسببت إحداهما في الإطاحة بالأذن اليسرى وجانب من الوجه فذهب عنه الجمال. كان الماء ما يزال يتدفَّق من الدش وينهمر على جسمها المثقوب فيأخذ دمها ويحوِّله لسائل وردي ينتهي إلى البالوعة.

غادر الحمَّام والغرفة كلها مهرولًا، واتَّجه إلى غرفة المعيشة العلوية، والتي تحوَّلت إلى خرابٍ وأنقاض. امتلأت الجدران بالثقوب، وسقطت طبقات الطلاء مُفتَّتة على الأرضية في مواضع كثيرة، وتحطَّم أغلب الأثاث، وتناثرت فوارغ الطلقات في كل مكان. وعلى كامل مسطَّح الغرفة رقد أولاده الستَّة في برك من الدم: طاهر، وعامر، وجوهر، وعبد العال، وظريف، والكاشف.

تراجع الشهاوي، وهرول مُولولًا إلى المكان الأخير، غرفة ابنته الوحيدة. وعلى الأرضية المكسوة بالموكيت رقدت سُمَيَّة. كان وجهها مشوَّهًا بالجراح، وكانت ما تزال تعالج سكرات الموت. عرف الشهاوي ذلك من الإيقاع الحركي لصدرها. لم تقو على الكلام، لكنَّها غالبت نفسها لما خفَّ عليها لهاث الموت وهمست ببعض كلمات. لم يفهمها

الشهاوي إذ كانت همهمات متداخلة غير ذات معنى.

أخرج هاتفه المحمول الذي لا يفارقه في نومٍ أو يقظة ليطلب أي شخص يدركه، لكن في تلك اللحظة بالذات سبقه الهاتف ورنَّ. رفعه إلى أذنه واستمع لمحدثه، وكان ينقل إليه خبرًا ما بصوتٍ مرتفع ونبرة نائحة، فاتسعت عينا الشهاوي وصرخ مرعوبًا: "إيه؟!.. إيه؟!.. إيه؟!" سقط الهاتف من يده.. لقد وصله الخبر بسرقة شحنة الهيرُوين، بنصيبه وأنصبه العائلة والأطراف الأخرى. يبس الدمع في عينيه من هول الجائحة، وراح يحدِّق في الجدران والسقف بذهول دون أن يلقي نظرة أخرى على ابنته. خمس دقائق يبس واقفًا هكذا يتنفَّس بصعوبة، لحقت خلالها سُميَّة بأمها وإخوتها.

***

من منظور «عين الطائر» تفرَّج حسين على الموقف من بدايته الأولى، وسخَّر كل الشاشات لنقله من مختلف الزوايا والأمكنة، بدءًا من المذبحة ذاتها التي ارتكبها البدو، حتى وصول الشهاوي. من المؤكد أن حسين شعر بقدرٍ من التشفي تكفي شروره لإضرام النار في غرفته، وكان ذلك حتى وصلت المكالمة. كان وَقْع المقتلة على الشهاوي أمر، ووَقْع المكالمة عليه أمر آخر. لم يتخيَّل حسين أن تأثير الكارثة سيناله بهذا المنال العسير. رفع الشهاوي يديه ليتحسَّس وجهه فزعًا إذ شعر بتنميل يكتنفه. حاول أن يقول أي شيء لكن لسانه ثَقُل. غرس أصابعه في بطنه العظيمة بألم، وتلفَّت حوله بخوفٍ عظيم. إنه وحيد منعزل. انقطعت أسباب الحياة بأي إنسان في الجوار إلا هو. لكنَّه ينظر فكأن حوله الغيلان والعفاريت. أغلق أنفه بأصابعه كأنما أحيط بأنتن صُنَانٍ من الريح، وألحَّ على أذنيه صفيرٌ مُتَّصِل.

أخذت عيناه تطرفان بشدة لمَّا تولَّدت أمامهما بقعٌ سوداء ورمادية. وصل التنميل لقدميه فأخمش أظافرهما في الموكيت، واختل توازنه حتى صار الوقوف مكابدة. ثم مدَّ بوزه للأمام، فظن حسين من مكمنه أنه سيقول شيئًا، لكن الشهاوي أخلف ظنَّه، وبطريقة مفزعة، إذ صرخ.. صرخة خشنة ممتدة مبهمة كالعواء، ثم سقط. ارتخى جسده، وفقدت أطرافه ترابطها كأنه مات. ثم بدأت تحركاته العنيفة: تشنُّجات لا إرادية شملت أجزاءً مختلفةً من العضلات تولَّدت وتكرَّرت، ثم زادت حدتها. اصطكت

أسنانه وجحظت عيناه جحوظًا مخيفًا، وخرجت من بين شدقيه رغاوةٌ بيضاء اختلطت بالدم. أخذ يشهق بصوتٍ عالٍ نتيجة عُسر شديد في التنفس مع التقلصات التشنُّجية المستمرة، وثبتت عيناه أخيرًا.

المنظر كان مرعبًا بالتأكيد. تغيَّرت مشاعر حسين من الانتشاء والشماتة إلى شعور آخر جاثم وثقيل بالشر.. نظر بشبقٍ لتشنجات الشهاوي المُركبة والتي استمرت لعشر دقائق كاملة، حتى أخذت في الزوال التدريجي. رقد صامتًا، واتسعت من تحت ردفيه بركة صغيرة بُنِّيَّة اللون عالية الكثافة، مع لونٍ أصفر داكن انتشر فيما بين الفخذين وحولهما. حار حسين في أمره ولم يدر ما يفعل. لم يكن يريد الحاج الشهاوي ميتًا في الوقت الحالي، ولم يجزم إن كان قد مات أم ما زال حيًّا.

مرَّت الدقائق والشاب لا يحزم أمره. كان بين نارين: نارٌ يريدها أن تحرق الشهاوي الآن، وأخرى يريد أن يغذِّيها بحُسن التخطيط والصبر حتى تنتشر وتحرق كل شيء غدًا. ثم تناول هاتفًا محمولًا خَصَّه لخط مسروق يُجري منه ومن غيره على الدوام كل مكالماته المشبوهة، وطلب ابن الشهاوي الأكبر مكادي، ثم أضفى على صوته خشونة عجيبة كي لا يتعرَّف عليه، وقال له بهلع، وبصوت أشبه بالصراخ: "الحق أبوك يا مكادي، حيروح منك في الفيلا." كان مكادي يبيت في المصنع فتخطته المذبحة، ولم تكن نجاته صدفة، لكن حسين آثر إبقاء أكبر الأولاد وأقربهم لقلب أبيهم على قيد الحياة، لتحقيق نوع من «التوازن»، فلا يُسلب الشهاوي كل شيء بضربة واحدة، فيتحول تفجُّعه في أهله إلى موجة انتقام مجنونة.

حار مكادي في أمره، وأصابه جزعٌ مؤلم، وفكَّر: هل هذا كمين مثلًا؟ هل يريد شخصٌ ما استقطابه للفيلا أو لطريق مؤدي لها؟ ومن الذي حدَّثه وحذره بتلك الطريقة المقبضة؟ اتَّصل بالفيلا مرارًا، وبأي مكان من المحتمل أن يتواجدوا فيه للوقوف على صحة الخبر، واتَّصل بالهواتف المحمولة لكل فرد في أسرته دون جدوى، واتَّصل بالبواب والحارس والبستاني، وما من ردٍ من أيٍ من هؤلاء. قدَّر أن شيئًا ما سيئًا قد حدث، ولم يكن أمامه إلا تصرُّفًا واحدًا.

بعد نصف ساعة شاهد حسين على شاشاته الابن يقتحم الدار في نفرٍ كثير من

الرجال جمع منهم قدر ما استطاع تحسُّبًا لأي طارئ، ورؤوا البواب والحارس متكوّمَيْن وقد اختلط دم هذا بذاك في غرفة المربية بالطابق الأرضي. أصاب الفزع مكادي فارتقى السلم الداخلي وعقله تطحنه الهواجس، حتى رأى ما رأى. اقترب حسين من إحدى الشاشات ليراقب رد فعل مكادي عن كثب. الآن، لو ضاع الشهاوي وابنه فستكون فَجِيعَة مركّبة: الداخلية ستندس في الموضوع، ويضيع الغرض المرجو من الجريمة. بتوتُّر تابع حسين رد فعل مكادي، الذي فزع وصرخ، ثم انهار وبكي وانكب على جسم هذا وذاك، وكاد الموقف يخرج عن السيطرة لولا الرجال. رفعوه عن الأرض، وأجلسوه وهدأوا من روعه على قدر الإمكان، وعندما أعلن أحدهم أن الحاج الشهاوي حيّ، ثاب مكادي إلى رشده وبدأوا في رفع أبيه عن الأرض تمهيدًا لنقله.

***

في تلك الليلة نام حسين أخيرًا بعد ليالٍ طويلة من الأرق القاتل. كانت ليلة بشعة عانى فيها من كوابيس إجرامية ودموية، واستيقظ صارخًا أكثر من مرة. وفي المساء التالي كان سبيله لتقصي أخبار الشهاوي قد انقطع، فاتَّصل بالعدوي، الذي كان -كالمعتاد- يعلم كل شيء. عرف منه حالة الشهاوي واسم وعنوان المستشفى الذي نُقل إليه.

ولأن فعل رجل في ألف رجل، خير من قول ألف رجل في رجل، فقد قضى حسين قسمًا كبيرًا من اليوم التالي مستجيبًا للهاتف الذي لم يكف عن الرنين، متتابعًا باستجابات العائلة تجاه الكارثة التي هجمت عليهم دون إنذار. واجهتهم من قبل مآسي، بَيْدَ أن المأساة تلك المرّة ماردة، فيها من الشر ما لا يمكن تحصيله بغيرها. حتى البدري فوجئ بما حدث، وكان من أوائل المُتحدِّثين، وصار يكرِّر لحسين دون انقطاع: "رحنا في داهية."

انحصرت ردود أفعالهم في مسألتين: الأولى سرقة شحنة الهِيرُوِين. والثانية: ما أصاب الشهاوي، الركن الشديد الذي آووا إليه، والذي كان منذ حين رافعًا راية العصيان. لأوّل مرة تلقَّى حسين محادثتين من متولي ومرزوق، وكانت استجابتهما في البُداءة ثورية، حملت قدرًا من الغضب الشديد والوعيد، لكن حسين لم يجاوبهما إلا باللين واللباقة، عارضًا جانبه من المساومة. ثم شيئًا فشيئًا طفا الانهيار والذعر على السطح، بل إن مكاوي في آخر حديثه تهدَّجت نبراته وكاد يبكي بكاء الثكالى، مُنبئًا حسين بالمصيبة التي

ستصيبهم جميعًا لو استمر على حمقه وعِنده.

أما مرزوق فاستعار رد فعل البدري بتصرُّف، وصار يردّد بصوت مبحوح مشرف على البكاء: "إحنا خلاص ضعنا." لكن حسين طمأنهما ببرود، وأكّد أن الشحنة تم تخزينها في مكان آمن بشكل مؤقت. وهذا الشكل المؤقت ترتهن فترته بمدى استجابتهم له في المرحلة القادمة بشأن حضور الاجتماع، وما يأتي بعده من ترتيبات، فإن رأى منهم ما يرضيه، تعود إليهم شحنتهم لا تنقص جرامًا واحدًا، لأنه بطبعه لا يحب السرقة، وإلا فليأتوه بأمرهم الذي إياه يوعدون.

* * *

- عملتها يا بدري.. أنت وحسين؟

- اسمع يا مِكَّاوي.. أنا.. زيّ ما جرى لكم جرى ليّ، تجارتي خربت، وفلوسي كلها، نصيبي في البضاعة، على كف عفريت، زيّ فلوسكم.

- حنعمل إيه؟ حنعمل إيه دلوقت؟

- أنا قلت لكم، حذَّرتكم، قلتم متفق معاه.

- أنا عند هنا ومش حاسكت يا بدري.. حاجمع رجالتي، أنا والشهاوي ومرزوق، حاعلنها حرب.. على بن الزواني ده، ويا إحنا يا هو.. وأنت، أنت، أنا مش حاسيبك.

- اعمل اللي تعمله.. أنت شفت عناد الشهاوي عمل فيه إيه.. فرَّجني حتقدر إزاي على رجال عايش.

- هيه يا مِكاوي، سَكَت.. خلّيني أقول لك آخر الكلام، ولو تنقل عني لمرزوق والشهاوي، ولعاصم لو لك معه سكة، يبقي العيب عدّاك.. الاجتماع بعد أسبوع، وأنا رايح.. عايزين تحضروا كان بها، مش عايزين، في ستين داهية.

- اجتماع، اجتماع.. عايز مننا إيه، هه، إيه؟

- أنا زيّي زيّك، ما أعرفش حاجة.

- يعني إيه؟ افرض رحنا برجلينا، وطلع عامل لنا كمين!

- إحنا ميّتين في كل الأحوال، بإيده أو بإيد غيره.. على الأقل هو يلاغينا، وله عندنا حاجة، المصيبة في شركائنا في البضاعة.. لو فاحت.. ربنا هو المُطّلِع.

- وبعدين حتخسروا إيه؟ ما كل شيء ضاع، رُوح يا أخي، مش يمكن تكسب؟

- أكسب؟!

- لو صَدَق نكسب.. هو وعدني أن البضاعة بخير، وأنه حيردّها بشروط.. نروح، ونشوفه عايز إيه، يمكن نطلع بمصلحة.. المهم نعثر على البضاعة، وكل شيء بعد كده يهون.

- هه يا حاج مِكاوي، قلت إيه؟

- يعني يكون عايز إيه بن الملعونة؟

- والله العظيم ما أعرف.

- يعني.. نروح لقضانا برجلينا؟

- أنا عملت اللي يخلّص ذمتي من ربنا.. أنتم أحرار.

***

البياض هو السمة الغالبة على هذا الرواق بمستشفى السلام الدولي بالمعادي: سيراميك الأرضية الشاحب، والسقف، والحوائط الناصعة، والأبواب البيضاء. دفع حسين الباب المروحي، وتقدّم عبر الممر وخلفه النونو، ورأى على بعد مكادي الابن الأكبر للشهاوي جالسًا في ثُلّةٍ من رجاله يدخن السجائر بشراهة ويحك رأسه بشدة.

توجّه إليه حسين دون تردد، وما أن انتبه مكادي وتعرّفه حتى اربَدّ وجهه، ثم صرخ وانقض عليه. تصاعد الصياح، وتحوّل بسرعة إلى مشاجرة، ثم تدخّل التومارجية والأطباء والممرضات لفض الاشتباك، واندس النونو في الجمع ليحول بين الطرفين، وأخيرًا انفض الاشتجار وإن ظل مكادي يصيح ويشتم، في حين استسلم حسين لجهود من يفضّون بينه وبين خصمه، وتلقى شتائمه القبيحة بوجهٍ مُسْوَدٍ بارد.

تمكَّن التعب من مكادي وبحَّ صوته، فجلس مرهقًا، وأخذ يهرش جبهته ويحدِّج خصمه بنظرات نارية، وسكنت الفوضى والأصوات وعاد الجميع إلى مواقعهم. خلى الممر إلا من الخصمين والنونو وأربعة رجال. ظل حسين صامتًا دقيقة، محدِّقًا في الرجل، ثم قال بصوتٍ لا حياة فيه:

- أنا مقدِّر حالتك يا مكادي، لكني فقط جئت اطمئن على الحاج.

ضمَّ مكادي شفتيه بغيظ، وألجم غضبه وصمت. فقال حسين:

- لو ممكن أدخل له.

- تدخل لمن؟!

- أدخل للشهاوي.

انفلتت أعصاب مكادي، وجاء انفلاتها تلك المرة كفرقعةٍ مُدَوِيَّة، حيث صرخ صرخة قبيحة ولطم حسين لطمة مفاجئة اندفع على إثرها وسقط أرضًا، وقبل أن يتمالك نفسه قبض مكادي على عنقه، وأخذ يضغط مطلقًا صرخات مجنونة. ركض الكل تجاههما، وقبل أن يصل أحد شعر مكادي بيدِ النونو الهائلة تقبض على مؤخرة عنقه، وتنتزعه عن غريمه كالريشة لتقرعه بالحائط.

ثبَّت النونو مكادي على هذا الوضع، أما حسين فقد أخذ يُدلِّك عنقه بألم، ويتنفَّس بعمقٍ محاولًا تسليك مجرى الهواء. لم يستسلم مكادي فكان يحرِّك قدميه وذراعيه في كل اتجاه، ويضرب الهواء بيديه وساقيه، لكنَّه لم ينل النونو ولو بضربة، والعملاق نفسه لم يعان أدنى انزعاج أو شعور بالتعب، حتى خارت قوى خصمه، فهدأت حركته وتقلَّص وجهه وأجهش بالبكاء مع شعوره بالذلة والصَغَار. ها هو قاتل أهله أمامه، يستأذن للدخول على أبيه! فأي هوان هذا؟!

أصلح حسين من ملبسه، واستدعى في نفسه الهدوء والرويَّة، واقترب ووقف على مسافة مناسبة ليتَّقي أي ضربة غادرة، ثم قال بقسوة:

- اقصر الشر يا مكادي، وسيبني أدخل للحاج، أقول له كلمتين وأمشي فورًا.

- آه يا بن الكلب، يا.. يا...

- إحنا في مستشفي، مش في طابونة، المفروض يكون فيه هدوء ومراعاة لمشاعر المرضى وحالتهم الصحيَّة...

واستمر حسين في تقريعه ومكادي ينظر إليه غير مصدِّق. لم يسمع الرجل في حياته حديثًا مُحمَّلًا بهذا القدر من الخِسَّة، ومُنظَّمًا على اتساق الفظاظة بصيغ مُنمَّقة وهيئة مُوشَّاة بـ"لو يمكن"، و"من فضلك"، و"اقصر الشر"، ولم يشعر في حياته كما شعر الآن بهذا القدر من الوضاعة والوهن والضآلة، وبالرخص والصغر والدناءة، وبالوحشة والوحدة، لذلك استعصت عليه الكلمات، فأخذته نوبة مشنجة أخرى من البكاء، ثم أسند ظهره على الحائط وسقط أرضًا بانهيار.

راقبه حسين من أعلى، ثم قال بتمهُّلٍ واحتقار: "خذوه من هنا، شربوه ليمونادة أو سم هاري يهدِّي أعصابه." وتقدَّم لغرفة الشهاوي على هيئة من أعياه الملل، وفي طريقه دفع أحد رجال مكادي بكفه متابعًا: "ياللا، تحرَّكوا، كفاية فضائح.

ودخل الغرفة. وبالداخل وجد طبيبًا متقدمًا في السن، فتحدَّث معه طويلًا، وعندما اكتفى صرفه بأدب. علم حسين أن الشهاوي قد أصيب -كما توقَّع- بسكتة دماغية أسفرت عن نزيفٍ داخلي نتيجة إرهاق وتوتُّر عاطفي شديد، أدت إلى حدوث نشاط كهربي شديد في الخلايا العصبية للدماغ، وتسبَّبت في صدمة مفاجئة تسمَّى صدمة الصرع. تلك كانت أول نوبة، وهي مقدمة لنوبات أخرى ستتكرَّر على مُدَدٍ متفاوتة تبعًا لحالته النفسية والجسمانية، قد تصل كثافتها لمرتين في اليوم الواحد، أو مرتين في السنة، وقد لا تتكرر قط.

أكد الطبيب أن ما أصاب الحاج الشهاوي هو نوبة مركبة كان من الممكن أن تؤدي لوفاته، لو أنها استمرت أكثر من خمس عشرة دقيقة. أجروا له كشف بالموجات الصوتية على الشريان السباتي، وأشعة على الشرايين، وتصوير بالأشعة المقطعية، وأشعة الرنين المغناطيسي، واستطاعوا إسعافه واحتواء الإصابة سريعًا، وتقليل التلف الحادث في المخ للحد الأدنى. سيتمكَّن غالبًا من استرجاع حالته الصحيَّة الأولى أو يدنو منها قدر الإمكان، يتوقَّف هذا على مدى إصابة المخ. قد يُصاب بصعوباتٍ في الرؤية والكلام والتنفُّس والسمع والتوازن العام، علاوةً على المشاكل النفسية وحالة

إحباط مزمنة، وهي أعراض طبيعية يمكن تخطِّيها بالعلاج. وما تمنَّاه حسين فعلًا، من صميم قلبه، ألا تسوء حالته، لأن ميعادًا للاجتماع قد تحدَّد، ولن يُتراجع فيه مهما تكن الظروف، وفي نيته أن يجبر الشهاوي على الحضور ولو على نقَّالة، وإن خرج منه جثة هامدة.

جذب حسين المقعد الوحيد بالغرفة، وجلس جانب الفراش متطلعًا لوجه الشهاوي المكدود.. وجه انعقدت عليه كآبة المنظر وسوء المنقلب، ثم هَزَّ كتفه بغلظة، وهو يقول بصوت مرتفع: "حاج شهاوي، سامعني؟"

فور أن بلغه الصوت اختلج جفناه وانفتحا، وجاست عيناه حوله كمَيْكَنَةٍ خربة، تعطَّلت كافة دوائرها وأسلاكها. ثم قبض على يد حسين، فتبسَّم الشاب بكآبة، وقال: "حمد الله على السلامة يا حاج."

تطلَّع إليه الشهاوي مُحتارًا ليستبين من أمامه، وعندما أدركه تحوَّلت نظرة التساؤل إلى الذهول والاستغاثة. اسودَّ وجهه، وسُمع لأنفاسه صوت حشرجة. سيطر حسين على أعصابه بقبضةٍ من فولاذ، واغتصب من تلافيف مخه تعبيرًا مرحًا بغيضًا وضعه كما هو على وجهه، وقال:

- أنت زيّ الفل يا عم الحاج! كلها يومين وتستعيد نشاطك بشكل طبيعي.

أحجم حسين عما كان قد اعتزم عليه في الفرح بكربه، ولم يشحط في الشماتة لإيمانه الشخصي بأن اللامبالاة وإظهار المودة هي أشد وطأة وأمضى أثرًا، لذلك تابع ملتمسًا في نبراته الرجاء والود الزائف:

- لكن بدماغ ألين شويَّة، ورحمة ولادك! أنت شفت الدماغ الناشفة بتعمل إيه! لكن البَرَكة في المحروس مكادي.. أنا قصدت أسيهولك، علشان ما تقولوش إني إيدي غشيمة وقلبي أسود!

ازدرد الشهاوي ريقه بعسر، ثم قال كلمات مبهمة استعصت على فهم حسين، فسأله أن يعيد ما قال، فقال الشهاوي بصوتٍ خشنٍ مبحوح:

- عـ. ملتها يا.. ابن المـ. نجوسة؟!

قال حسين لائمًا:

- ليه الغلط؟ خلينا حلوين مع بعض.. (ثم تنهَّد بصدق) يا حاج الحكمة تقول: آخر الدواء الكيّ.. أنا حاولت معاكم، بكل طريقة، وطبعًا ما كنتش أحب الأمور تصل للدرجة دي.. أنا فعلًا عايز مصلحتكم، وواجبي يحتّم عليَّ، أني ما أشوفكمش تغرقوا بعد الحاج جوهر، وأقف أتفرج!

عضّ الشهاوي على نواجذه، وقال والزبد يفر من بين شفتيه: "عـ. ملتها"، فقال حسين بترفُّع:

- أنت رجل مشاغب يا شهاوي، وأنا قلت أقرص لك ودانك.

قبض الشهاوي على ياقة قميص حسين بضعف، وجذبه إليه، ولم يقاوم حسين، بل استمع بصبرٍ للشهاوي وهو يقول من بين أضراسه:

- أنت.. فـ. اهم إيه اللي.. أنت عملته.. في نفسك.. وفينا؟ أنت قتلت نفسك.. وقتلـ.. ـنا معاك.

وضاقت عيناه، وقال بلهاثٍ وحقد:

- البـ. ضاعة.. فين.. يا حسين؟

نظر حسين إلى الشهاوي من أعلى بسطوةٍ غاشمةٍ وتكبُّر، وخُيلَ إليه في لحظة أنه يشعر على طرف لسانه بمذاق الجَبَرُوت.. والقدرة الطاغية.. والسلطة القاهرة.. وكم كان المذاق حلوًا شائكًا آثمًا.. ثم نهض الشهاوي فجأة بنصف جسمه كأنه استجمع آخر ما في عروقه وعضلاته وأعصابه من قوَّة، وأمسك وجه حسين وغرس أصابعه في بشرته، وقال بجنونٍ ولهاثٍ عسير:

- البضاعة.. ترجع.. أنت.. أنـ. ـت فاهم.. البـ. ضاعة دي.. ترجع النهارده.. أنا حأ.. أنا.. على.. حتـ..

تغيَّر وجه حسين من الغضب، ودفع الشهاوي من كتفيه بقوَّة، فارتد للفراش متأوهًا، ثم ظل يلهث متطلعًا للسقف وكأنه يختنق. نظر حسين إليه وشفتاه ترتعشان مقتًا وشهوةً كي يطبق بأظافره وأسنانه على هذا العِجل العجوز القذر.. ولقد ملك نفسه بإرادةٍ فولاذية، ومال عليه قائلًا ببرودةٍ وقسوة:

- اسمع.. أنتم بتتاجروا في الصنف اللي يُثاقل بالذهب، كأنكم بتتاجروا في الجِنس، وأنا فكَّرت أديكم درس.. أنت المسؤول عن اللي حصل، والباقيين عاموا على عومك.. كل غرضي الاجتماع، وأنت هتيجي في الميعاد.. لا حاجل، ولا حاراعي ظروفك.. تيجي على كرسي بعجل، تيجي على نقَّالة، يرفعوك على سقَّالة، ما يهمنيش.. حتيجي في الميعاد، ولو فيها موتك.

تجعَّد وجه الشهاوي، وأحَسَّ أن الفراش كيان رخو ثقيل يحيط به ويخنقه.. يجذبه إلى أعماقٍ مظلمة ويخنقه.. يخنقه.. وقال بنبرة مضطربة وشبه بكاء:

- أنت.. مش فاهم.. أنت بتلعب على من.. النـ. ـاس اللي.. مشاركين في البضاعة.. لو شمُّوا خبر...

- أنا مِستَبْيَع يا معلِّم، واللي في دماغي حاعمله.. البضاعة سليمة، وعلى قد سرعة تسوية الأمور المُعلَّقة بيننا، على قد ما الموقف ينتهي على خير.

- ولما أقول تحضر الاجتماع، مش يعني تيجي وتقعد زي القُفَّة! لكن توافق على كل اللي أطرحه، واللي يتكلم من إخوانك تسكته.. دي مسؤوليتك، زي ما قلِّبتهم عليّ، ترجَّعهم لصفي.. وده شيء مش غريب عليك، طول عمرك كنت تعمله أيام الحاج.

وتابع بغضبٍ ونقمة، وكأنه استحضر الموقف قبل وقوعه:

- وشرف أمك، لو ما جِتش، أو لو شميت رائحة غدر، فعلًا أنا حاحرق البضاعة.. وعوِّدوا نفسكم من هنا ورايح على كده معايا.. ما فيش حاجة تتعمل ما تعجبنيش إلا ولها عقاب.. لحد أما دماغتكم الناشفة دي (ودس إبهامه بعنف في جبهة الشهاوي حتى تأوَّه) تلين.. الساعة ٩ مساءً، يوم الخميس الجاي.. حيكون قدامنا لحد الصبح، نصفي أمورنا ونتَّفق على الخطوط العريضة للمرحلة الجاية.

وشدَّد عليه قائلًا:

- اتصالات بأي شخص من العائلة قبل الاجتماع مرفوضة.. استغل اليومين الباقيين أنك تشد حيلك، وتستعد لليلة الكبيرة.. تعال بالرجال اللي أنت عايزهم، لأجل ما تحس بالأمان.. أي محاولة للإخلال بالنظام حاعتبرها محاولة للتعدي عليَّ شخصيًا، وحاقابلها

بعدوانية. وافتكريا شهاوي إني معايا عايش الحمداني.

صمت الشهاوي طويلًا وشَخَص ببصره للسقف، وارتعش ذراعه الأيمن تدريجيًا.. تداعي عليه الغم والكرب والهوان بما لا يطيق ولا يحتمل، حتى أوشكت أنفاسه أن تنقطع، وروحه أن تفر من جسده، واجتمعت عليه ظلمات الغرفة وذل المرض ووَطأة الموت وغَشْيَتُه، فألجمته إلجامًا، وقضمت ظهره قضمًا. موقفٌ عظيمٌ وهولٌ شديدٌ علقت به دماء أهل بيته، وقارعةٌ لا يكاد عقله يتخيَّلها، فضلًا عن أن يحتملها. ذهَبَ وعيه بين الصَّحوةِ والسَكرةِ، وذَهِل عقله عن أي فكر أو رأي صواب.. وأخيرًا التفت لحسين قائلًا بصوتٍ غليظ متقطِّع:

- ميعادنا.. يوم الـ. خميس.

نظر إليه حسين بإمعان، وتراجع في مقعده عاقدًا ذراعيه أمام صدره، ثم علت وجهه ابتسامة خبيثة، وقال:

- ميعادنا يوم الخميس، بإذن الله.

ونهض فجأة، ونظر إليه من عَلٍ، وقال:

- شد حيلك يا عم الحاج، مش عايزين الأعادي يقولوا الثور وقع وكثرت سكاكينه.

واستدار وقطع طريقه إلى باب الغرفة. تابعه الشهاوي حتى أغلق الباب، ثم قبع في الظلمة مبحلقًا في السقف، عيناه متسعتان، وأذناه تستمعان للرنين الرتيب للأجهزة المحيطة به. سجَّل منحنى القلب اضطرابًا ملحوظًا، إذ تلمع عيناه وتفر منهما العبرات.

* * *

دخل مساء الخميس بالعتمةِ والغُمُوم، إذ سدَّت الغيوم فروج السماء، وتدنَّت درجات الحرارة عن معدلاتها الطبيعية. على مساحة خمسين فدانًا من الحدائق والأشجار والنخيل قبع قصر الفردوس، ولأكثر من عامين استتر بين حُجُبِ الظلمات والنسيان. لكن هذه الليلة، وعلى عكس المعتاد، غَمَر نورٌ ساطع الأسوار والحوائط من وحدات الإضاءة المنتشرة في الرَوْضَة الأمامية، فبدَّدت إلى حدٍّ ما وحشة المكان وكآبة الطقس.

أُنشِأ قصر الفردوس من الخرسانة المسلَّحة، التي كوَّنت بنيانًا إنشائيًّا منيفًا عثماني الطابع، ارتفعت منه قُبَّةٌ ضخمة احتلت موقعًا متمكِّنًا لا يُعلى عليه. نُفِّذَت واجهاته ببذخٍ شديد، بزخارف ملوَّنة وكساءٍ من رخام الألاباستر، وتميَّز تصميمه الداخلي بالإسراف والتكلُّف. ومع هذا، لا يُعتبر الذوق الرفيع سمة من سماته، وإن كان لا يفتقر الفخامة الأخَّاذة، والمبالغة في استخدام الارتفاعات الداخلية الشاهقة.

انبعثت في ساحة القصر الأمامية حركة ونشاط لنفرٍ بملابس الخدم البيضاء، انشغلوا بإعداد المكان بلمساتٍ نهائية لاستقبال حدثه غير العادي. وفي تمام الساعة السابعة، انفتحت البوابة الأمامية الثقيلة، وتحرك الرجال تأهُّبا لاستقبال الضيوف. وصلت مجموعة من السيارات الفارهة، هبطت منها جماعةٌ من الرجال الغلاظ، أمَّنوا المكان المحيط، وفتحوا أبواب السيارة الوسطى، فغادرها رجلٌ نحيفٌ طويلٌ عميق السُمرة. هو مكَّاوي الجارحي: مؤسِّس «أسمنت بني عمَّار»، وهي شركة عانت خسائر ثقيلة مؤخَّرًا نتيجة سوء الإدارة ومديونيات للبنوك، وهي على وَشْك الإفلاس.

وفي السابعة والنصف، وصلت مجموعة أخرى من السيارات، هبط منها عددٌ من الرجال الأشدَّاء. أمَّنوا المنطقة وفتحوا باب السيارة الوسطى، ليهبط منها رجلٌ في رأسه كِبَر يناقض ذبول بدنه. وجهه متغضِّن، وعيناه ضيِّقتان دنيئتان، ويعاني من عرجٍ واضح لاختلافٍ في الطول بين ساقيه. هو مرزوق الطويل: مؤسِّس شركة «المستقبل للتوريد والتصدير»، التي تواجه أيضًا صعوباتٍ مالية كبيرة، وتبلغ مديونياتها للبنوك مئات الملايين، وتجري إجراءات إعلان الإفلاس على قدمٍ وساق.

وبعد ربع ساعة وصلت قافلةٌ أخرى من السيارات، هبط منها جيشٌ من الرجال المسلحين بالرشاشات، انتشروا في المكان، وأبعدوا المحيطين عن دائرة تواجدهم. اتَّجه سيُدهم -وهو رجلٌ شديد السمرة في الحلقة الرابعة من عمره- إلى السيارة الوسطى، ودقَّ على زجاجها الخلفي برفق، فانخفض الزجاج بنعومة. ولاح بالداخل فراغٌ معتمٌ، فقال:

- كله تمام يا حاج.. تخليك علشان الساقعة؟

انفلق السواد عن وجهٍ متقلِّص، دار بعينين رماديَّتين فيما حوله، وأمر بأن "افتح

الباب"، فردَّ الآخر بلين:

- يا حاج الجو ساقعة.. أخاف عليك تستهوى.

- أنا قلت.. حأنـ.ـزل.. يا مكادي.

زفر مكادي يائسًا، ثم أشار للرجال، فاستخرجوا مقعدًا متحركًا من الحقيبة الخلفية لإحدى السيارات، بينما جاهد آخرون لإنزال جسم الحاج السمين وحمله لوضعه على المقعد. كافحهم الحاج بسلاطة لسانه، محاولًا دفع أيديهم والقيام وحده على ساقيه، مع علمه أنه لن يقدر على ذلك. أقبل عليه رجاله ببطانية سميكة دثَّروه بها، فسبَّهم بأمهاتهم، ودفع عن نفسه أيديهم الغليظة الممتدَّة بالعون، يدفع هذه فتمتد تلك، ويزيح تلك لتقصده هذه، حتى صرخ فيهم وسبَّ الدين. تابعته أعين المراقبين بشيءٍ من الشفقة، ثم أقبل عليه كل من سبقه لتأدية واجب السلام، لولا أن شتمهم هو زاعقًا ليرد عليهم أي محاولة للاقتراب أو الشماتة، لأن الشهاوي ما زال هو الشهاوي، لم يسقط بعد. نعم، إنه أعرج، لكنَّه لا يزال مخيفًا!

هذا هو عزيز الشهاوي الجارحي. أكثر أعضاء العائلة قوةً وثراءً. يملك مجموعة صناعية للحديد والصلب، تُعتبر من أكبر خمسة منتجين في السوق المصرية، وتُوَظِّف أكثر من ثلاثة آلاف عامل وفني وإداري. تعاني حاليًّا مديونيات عالية للبنوك ولوزارة الكهرباء والطاقة، تُقَدَّر بمليارات الجنيهات.

وفي تمام الساعة الثامنة والربع، وصلت القافلة الأخيرة من السيارات. هبط السمين الأخير مع عصابة من المسلحين. دار بعينيه في الجمع المتوقِّف أمامه، واصطكت أسنانه من البرد. لاح على وجهه الكدر، وفي عينيه استبشار السوء، كمن ينعق عليه غرابٌ أبْقَعٌ قبل الرحيل. هذا هو بدري الجارحي. قضى دقائقه الأولى مستطلعا الموقف، حتى انبثق صوت الشهاوي الأجش، يطوي أحمالا من النقمة والضغينة، قائلًا:

- حمد الله بالسلامة يا أبو زيد! اتأخرت ليه؟ ولا أقول البيت بيتك؟

* * *

اكتمل عددُ الحاضرين، وازدحمت الساحة الأمامية بالسيارات والبشر. ثم عَرَجَت الوفود في السلم العريض، ومرقوا كالغوغاء دون ضابطٍ لباب القصر الرئيس المُزخرف

بتشكيلات فارسية مبهرة. تزاحموا في بهو الاستقبال الرئيسي، وهو بلاطٌ سلطاني مطعَّم بالرخام والحرير النفيس والكماليات العريقة. لزم الكبار الصمت وجمعهم التقلُّصُ والتربُّص، أما الباقون فتدامجوا على الرُّغاءِ والزِياطِ والتدخين، حتى استحال الفراغ إلى سُدُم رمادية، وزحف السم الزعاف إلى كل مكان. ثم قادهم طاقم الخدمة عبر الأروقة والسلالم إلى غرفة الاجتماعات ذات الباب المُوَشّي. نظروا بدهشٍ للغرفة الفسيحة الفاخرة بحوائطها المُجَلَّدة بخشب الزان، ومنضدة الاجتماع الضخمة البديعة التي اكتست بقشرة ثمينة من الأبنوس، وتوزَّع حولها ثمانية عشر مقعدًا جلديًا أنيقًا.

تحلَّقوا حول المنضدة الكبيرة كمن يعاين جسمًا غريبًا أو مخلوقًا شاذًا، وتوحَّشوا من المكان. كاد البعض أن يغادر لولا أن دعاهم أفراد الخدمة للجلوس. نشبت مشاجرة إذ أصر الحاج شهاوي على اتِّخاذ مكان غير مكانه المُخَصَّص، وتدخَّل الجميع لفض الاشتباك، وأصرَّ الحاج على رأيه وارتفع صوته بالوعيد، ثم تقدَّم وأزاح المقعد عن المكان المقصود، ودفع بمقعده ذي العجل ليأخذ مكانه بالقوَّة الجبرية وبسياسة فرض الأمر الواقع.

طال بهم الصمت والانتظار، وفي تمام الساعة التاسعة انفتحت ضلفتا الباب. فتحهما بامتداد ذراعيه الشاب البرونزي النحيل، ووطأ داخل الغرفة بحذائه اللامع، وبَذلَته السوداء الفخمة، وقميصه الأشيب. مُباغتًا بالمنظر، حملق في الوجوه.. كانت تلك أول مرة يرى فيها الزعماء الأشاوس وجهًا لوجه منذ سنواتٍ طوال.. الشهاوي، والبدري، ومكاوي، ومرزوق، وحولهم باقي الحضور الخسيس من الحرس والمعاونين.. ولم يسعده المشهد حقيقةً.. ثم أخذت الأفكار تغير على دماغه: "الشهاوي الكلب، احتل مكاني على رأس المائدة.. هذا فشلٌ استتم قبل البدء!" "أيتها النفوس الخبيثة، اجتمعتم أخيرًا تحت سقف واحد. جئتم إلى سخطٍ ونقمة، ولن تخرجوا من هنا إلا كما يخرج الشوك من الصوف المبلول!" "ريحكم منتنة، ووُجوهُكم قبيحة، ومظهركم أبشع من مخبركم أيها الملاعين!" "لكم زمان اِنقَدتم فيه للحاج الكبير.. بين يديه تحوَّلتم أيها الوحوش المفترسة إلى دواجن ذليلة، تتحلَّقون حوله كما يطوف السُوقة حول أضرحة الأولياء، فتخف أصواتكم، وترق طبائعكم، وتلين أهواؤكم.. ليس على عيونكم الوقحة سوى نظرات الذل والخشوع، ولا على ألسنتكم الطويلة سوى السمع والطاعة".. "أبشروا

بالذي يسوؤكم، هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

بُهت كبار الجارحية، وتبادلوا نظرات مرتبكة تشي بانعدام الحيلة والتغرُّب الموحش. حسين نفسه فوجئ كما فوجئوا، وأحَسَّ بذات القدر من الغُربة والتشوُّش والالتباس، وضاق بكل شيء وضاق به كل شيء، فتجمَّعت أحزانه وإحباطاته على وجهه بتكشيرة عميقة. وعندما توقَّف بهم الزمن، وشهد الكبار تحجُّره في موقعه وتحيُّره في أمره، علموا أنه فريسةٌ سهلة. جرَّأهم عليه صمته، ولكم من صمتٍ أذلّ مغوارًا! فجأة شملتهم موجاتٌ غامرةٌ من البهجة والانشراح، فقد مرَّت أول اللحظات العسيرة بسلام، وما هو آتٍ حتمًا أيسر. ثم تبدَّد الصمت وتحدَّثوا وتضاحكوا على حين فجأة.

"فشل الاجتماع من قبل أن يبدأ." تسلَّطت على حسين هذه الفكرة. غشيه شعورٌ بالغثيان، فكأنه مقبلٌ على حسابٍ عسير أو معركة مصيرية. إنه يؤمن أن الاجتماعات ليست إلا مضيعة للوقت والطاقة، خصوصًا مع هؤلاء الجهلة الجامحين؛ ذلك أنه دومًا ينظر إليهم ككتلة من المنحرفين الأوغاد، سفلة من بني الإنسان، لكنَّه اليوم مُجبرٌ على التدني لخواطرهم واللين لأهوائهم. للدخول بينهم لابد أن يحظى بالقبول، وإنه يعتبر الدخول بينهم كالدخول في شبكة أنفاق لصرف القاذورات. لا سبيل لطرق سُبلها إلا بتحضير منهجي مدروس، أو "كدخول اللبوس في الشرج" (وهو تشبيه شَحَط به في فكره، واستبشعه واستساغه في تلازم نادر). لكنه، ومنذ ترك الداخلية، فقد الثقة بالنفس المؤهِّلة لقيادة مجموعة عمل أو السيطرة عليها، والقصد هنا جماعة من الموظفين المُدربين، المُروضين على الطاعة والانقياد، فما البال بهؤلاء؟ ثم إن كل الظروف التمهيدية ترشِّح الاجتماع للإخفاق، فلقد حضروا متأخرين، ودخل هو عليهم بغير تمهيد ولا استعداد.

من اللحظة الأولى التي كَفَّت فيها ألسنتهم عن الصمت، سيطر الشهاوي على الحلبة، وفي دبره استمكن الحَكَّاؤون والزَّغَّاؤون. ألدوا في اللهو والضحك وتمادوا كلما تمادى هو في السكوت عنهم، ثم آل الأمر إلى التهكُّم والهجوم اللفظيّ المؤسف.

سادت ضجَّة كتخاور الثيران، ورآهم حسين في هذه اللحظة على صورتهم الحقة: مجموعة من العجائز الضُّلَّال المترهِّلين. كان تغرُّبهم عن المكان سلوكًا مؤقَّتًا انتهى عندما

تكيّفوا مع البيئة المستحدثة عليهم كأي حيوان بريّ. تتبّع طبيعة الإشارات المشوّشة والعشوائية الصادرة منهم، ولوهلة تخيّل أنه في غابة.. رأى بعين الخيال جدران الغرفة وسقفها يتشققون عن حبائل نباتية وأهداب متسلقة، ثم جاءت عشيرةٌ من القرود تتقافز في كل مكان مطلقة صرخات مزعجة: "أأووأأووو.. آآآآ!" لابد أن الفكرة قد ملكته حتى أنه وقف مشدوهًا مأخوذًا بترانيم الكلام والرتمات الموزونة.

لم يفق من تخيُّلاته إلا على صوت الشهاوي، وهو يقول بلهجةٍ مسرحيةٍ متلفِّتا حوله: "جرى إيه.. يا حيلة أمك؟! إنت جايبنا هنا.. علشان نتملّى في خلقتك؟!" تلفَّت حسين حوله عاجزًا، وتقلَّص وجهه بغل. السفلة يتطاولون عليه الآن. والشهاوي.. هذا الـ. إنه عنيد كالذباب! ألم تؤثر فيه مصارع نسائه وأولاده؟! ألم يتّعظ؟! استحالة.. أليس وبشرًا؟ إن نازلةً صاعقة كالتي نزلت به في أهله وماله لهي كفيلة بتحطيم أعتى الرجال.. ثم يكون منه مثل هذا السُعار؟ حملت عيناه تعبير حيرة وتخبُّط، ولما ضجَّ بالصوت والضوضاء المتداخلة والهأهأة، دار على عقبيه وغادر الغرفة كالعاصفة صافقًا الباب خلفه، وتنامى إلى سمعه من الخارج أصواتٌ مُتداخلة مُستملحة تساؤل الشهاوي الساخر. ميَّز بعض الأصوات تقول عبارات من أمثال: "الكبير كبير"، "ما هو البُرص ما يعملش فيها تمساح!"، ثم سمع أصواتٌ أخرى تهتف: "ادلعي ياعوجه فى السنة السودة!"، و"اللي ما نفعني بيضي، هأبكي على بيض بيضي؟!" اعتصر قبضتيه اعتصارًا، وأقسم في قرارة نفسه أن ينكِّل بهم، وأن ينزلهم جميعًا منازل بها من المهالك، وصنوف العذاب ما لا يقدر على وصفه إنسان. ثم اندفع مُجاوزًا الممر ومنه إلى البهو وسؤالٌ يتردَّد في دماغه: "أين العدوي؟!"

***

في تمام الساعة العاشرة، تصاعد نفيرٌ مزعج أمام البوابة الحديدية. عبرت الجي إم سي الحمراء ساحة القصر، وحاول سائقها دسَّها بين رتل السيارات المنتظرة، حتى تطوَّع بعض رجال العائلة ممن بقوا في الخارج بالمساعدة صائحين: "ارمي كله شمال "ادِّيني عجلة ورا."

انفتح الباب الأيسر وهبط رجل عن مقعد القيادة المرتفع. ممتلئ الجسد كان، عظيم

الكرش، متوسط الطول، ذا وجه أسمر مستدير كالكرة، وعينين منتفختين، وصلعة فسيحة. ارتدى بَذلَةً سوداء فخمة، وقميصًا عريض الياقة. رفع يده بتحيَّة صاخبة: "مساء الفُل يا رجالة!"، ثم اندفع صوب مدخل القصر، واعتلى درجات السُلَّم برشاقةٍ ونشاط. عَبَر بهو الاستقبال، ولاح له حسين يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، وعندما رآه حسين، بادره بعتاب ولهفة:

- كنت فين يا عدوي؟ دي مواعيد نسوان!

تساءل العدوي إذ هما يسيران:

- عملت إيه معهم؟

- حاكون عملت إيه؟ دول شوية أوباش.

هذا هو سيِّد إسماعيل العدوي. التحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة، وتخرَّج فيها بتقدير جيد جدًّا، ثم عُيِّن وكيلًا للنيابة العامة في جنوب القاهرة، ثم وكيلًا للنيابة بالموسكي، وأخيرًا نيابة قسم ثانٍ أسيوط، حيث حكم مجلس تأديب القضاة الابتدائي والاستئنافي بفصله بعد تلقِّي النائب العام شكاوى ضده بسبب «سلوكيات لا تتفق وعمله القضائي». هو مالك ومدير مكتب العدوي للتحكيم والاستشارات القانونية بالمهندسين، الذي تولى العديد من القضايا الجنائية والتجارية الشهيرة.

سخَّر مكتبه الكبير لخدمة مصالح العائلة منذ نشأتها، وإنقاذها من الغوائل القانونية التي تدهمهم بصفة دورية. هو شهابٌ ساطعٌ وقُطبٌ كبير، انتهازي ومدلِّس من طرازٍ نادر، صاحب بصيرةٍ ثاقبةٍ ودهاءٍ عميق، جانس بين وقاره الأكاديمي وانحطاطه الأخلاقي في توافقٍ متناغم.

لبث جانب الحاج جوهر زمنًا طويلًا امتص فيه من دم العائلة عَلَى مَهَلٍ، حتى دبَّت بينهما خلافاتٌ فادحة لأسبابٍ عدَّة. أوَّلها، أن الحاج جوهر كان دومًا يبغضه، ويعلم أنه ثعبانٌ غير مؤتمن، مهما بذل من جهدٍ لرعايته وتسمينه ورَفْع خَسِيسَتِه. ومهما أغدق عليه المال الوفير وراقب منه الهَنَوَات، فإنه سيسعى إليه يومًا في الظلام ليلدغه. ثانيها، أن مكانة العدوي ارتفعت في العائلة لحدٍّ لم يعد من الممكن السكوت عليه، وصار له عند بعض كبار الجارحية معروفًا ومنَّة، نظرًا لأفضاله المباشرة عليهم من حيث

إنقاذهم ومصالحهم بصفةٍ مستمرةٍ من الأزمات القانونية والجنائية المتواترة. ثالثها، إخفاؤه الكثير من الأمور عن الحاج الكبير وحفيده حَسَن، وتصرُّفه في شؤون العائلة الحسَّاسة بشكلٍ مستقل، فكأنه شريكٌ للحاج وحفيده في الأمر. رابعها، أنه بالرغم من عدم معارضة العدوي ولاية حَسَن الجارحي بعد مصيبة الحاج الكبير في مقتل ابنه، وسعيه -في أول الأمر- إلى تزكية هذا الاختيار وتزيينه للحاج، فإنه ما لبث أن أحَسَّ بفساد هذا الرأي، خصوصًا بعد انفلات عيار حَسَن في اللَّهْوِ والمجون، واستعانته بحاشيةٍ جديدة همَّشت دور العدوي، ثم شُيُوع نيَّة حَسَن في تفويض محامٍ آخر لتولِّي شؤون العائلة القانونية، وظهور نفوذ عشيقته سَحَر، التي تنقم على العائلة عمومًا والعدوي خصوصًا، لنفوذه المتنامي الذي ناطح سلطان حَسَن الجارحي نفسه (بل إن العدوي جزم أن نهاية العائلة ستكون على يديّ هذه الحِدَأة المُعْوَجَّة الفاجرة). خامسها، أن حَسَن الجارحي بعد تولّيه الأمر، رأى من العدوي ما أخافه أن يطمع بالمُلك، فاستشار الحاج الكبير وبعض مُقرَّبيه، فخوَّفوه وأوغروا صدره عليه وأشاروا عليه بقتله.

استشعر العدوي تغيُّر الحاج وحفيده من جهته، وعَزلَه شيئًا فشيئًا عن أعمال العائلة، وتأكَّد من نيَّتهما المُبيَّتة على قتله بسبب ما يعلمه عنهم، فتحالف مع الحفيد الآخر حسين الجارحي مستغلًّا أزمته الماحقة التي أجَّجت نار الخلاف بينه وبين أخيه، ودبَّر أيضًا مع أطراف من داخل العائلة وخارجها في الخفاء، وحرَّكهم جميعًا للقضاء على الحاج الكبير وخاصَّته، وهَدْم زعامتهم من القواعد، مستخلصًا منهم ما شاء من قرائح الشر والتهافت على المال والتجارة، ومستغلًّا تلهُّيهم جوعًا وعطشًا للانقضاض على الأمر كله.

له أذرع في عوالم علوية متسامية، وعوالم سفلية شريرة، وتشمل أعماله كل ما يمكن التكسُّب من ورائه. هو داهية مكَّار، يتحدَّث دائمًا بثقةٍ وصوتٍ عالي النبرات على غير منازعة، ويقضي نهاره صاخبًا في الدنيا مستخلصًا من كل شيء فيها ما يستطيع، وبأي وسيلة كانت. وإن له منطقٌ نافذٌ وحذقٌ في الحوار لا يَبُزُّه فيهما أحد، ذلك أنه أوتي قدرة مدرارة على الجدل والطنطنة، وكيف لا وهو رجل صنعته الكلام؟ يدبجه وينمِّقه، ويكذب ويلفِّق ويزوِّر، ويتلوَّن في كل مكان حتى يصير جزءًا لا يتجزَّأ منه.

في نهاية يومه يلجأ لغرفة مكتبه الكبيرة، ويلبد بكرسيه اللين فيتداخل فيه ويلزق

بعضه ببعض، يرشف من قهوته المفضّلة المُشَبَّعة بالسكر، ويتَّخذ أنفاسًا أصيلة من سجائره خانقة الرائحة التي لا يدخِّنها إلا بالمساء، بنسقٍ متضافرٍ متِّسق، بل بانضباط صارم، رشفة ثم نَفَس، وهكذا بالتوالي، حتى يستجمع أفكاره وتهدأ جوارحة ويتغربل من إزعاجات اليوم ومشاكله، فتضيق حدقتاه اللئيمتان، ويستغرقه النحر والنبر والتفكير والتدبير.

***

اقتحم العدوي الغرفة، فانكتم الضجيج لدى مرآه. تبعه حسين ثم انسل سبعة من البدو خلفهما، وأتموا دائرةً محكمة طوَّقت المكان. اندهش العدوي جدًّا، إذ لم يتصور أن يؤول الاجتماع المأمول لتلك البُغكوكة! لم يتخيَّل حسين أيضًا أن ينالهم دخول المحامي بهذا التأثير، إذ غادرهم التبسُّط، واعتدل منهم رهط كالمجندين إذا ما فوجئوا بضابطهم، وآخرون اضطربوا كالطرائد إذا ما اشتمت ريح الأسود، ونظراتهم تقول: "جاءك الموت يا تارك الصلاة!"

ألقى العدوي نظرة شاملة على الموقعة، ثم إنه تقدَّم وعالج مشكلة الشهاوي ومكانه على رأس منضدة الاجتماع بضربة حالفها التوفيق: أمسك بمقبضي كرسيه المتحرك، ودفعه دفعةً انزلقت به وبحِمْلِه لجانب المنضدة بإهمال، ودعا حسين بالإشارة كي يحتل مكانه، فأقدم حسين دون تردُّد ناظرًا إلى الشهاوي شامتًا. تلفَّت الشهاوي حوله مأخوذًا مُرتاعًا لا يدري ما يفعل، خاصة وأن ما من أحد من رجاله ولا حتى ابنه مدَّ له يد العون، أو اعترض بالقول أو العمل على تلك الإزاحة الغاشمة.

الآن تمكَّن العدوي من تحقيق التقدُّم النفسي بواسطة الوضعية والترهيب. سلَّك حنجرته ثم قال بصوت جهوري:

- معلهش يا حاج شهاوي، التبس عليك، وقعدت في مكان غلط.. يا مكادي، شوف أبوك العاجز ده واحشره هنا على الطرابيزة! (مشيرًا لمقعدٍ بعينه).. يا ريت شوية هدوء يا جماعة، والكل يطفئ الدخان (مصفقًا بيديه) أنا حاسس إني في غُرزة.. عشرة أنفار يطلعوا بره على الأقل، علشان نعرف نتنفس.. همُّوا وبنظام لو سمحتم، علشان الليلة تعدي على خير.

وسكت متابعًا تأثيرات إرشاداته. لم يتحرّك أحدٌ في البداية انصياعًا لأوامره، التي قالها قاطعًا، بهيلمان الآمر المُطاع. تطلّعوا جميعًا إلى أصحاب الأمر، الذين أومؤوا لهم بالموافقة أملًا في أن تنقضي ليلتهم بسلام. تتابعت الوفود بالمغادرة بقدر من الفوضى والغوغائية، حتى إن البعض انحشروا بين ضلفتي الباب وهم يتزاحمون في الخروج والتراص في الممر.

تحلّي العدوي بالصبر والصمت متابعًا الهجرة الجماعية، بينما وقف جانبه حسين مُتحليًا هو أيضًا بالصمت واليبوسة، فبدا كتابعٍ لا متبوع، مُسلمًا زمام القيادة إلى محاميه، ومُستظلًا بظله، ومُستجيرًا به، على ما في هذا من تأثير سلبي ينال صورته أمام أعمامه بالأذى. خلت الغرفة تقريبًا من الوقوف إلا من البدو وبعض الرجال، وبعد لحظات انفتح الباب ودخل النونو. تابعته أعين الجلوس برهبة شاعرين بتمادي الموقف في التأزُّم. شقَّ النونو طريقه قابضًا على سلاح آليّ مخيف، فاختلَّت مقاييس الغرفة كلها في أعين الحاضرين، لأن العملاق سيطر على المجال المكاني، وأخذ فيه موقع الصدارة، فبدت الغرفة على سعتها كعلبة كبريت، تراص على جانبيها أراذل من الأقزام.

ثم عقد العدوي كفيه خلف ظهره، وقال بقوّة:

- مهم جدًّا إنكم تعرفوا، قبل ما نبدأ، إننا مش جايين نهرَّج.. أنا رجل قضيت عمري في إدارة العمل الجماعي في ظروف غاية في الحساسية والصعوبة.. وأهم شيء، الالتزام بسلوكيات عامة في هذا الاجتماع وأي اجتماع قادم، ثم تحديد جدول الأعمال.

تساءل مكاوي بعدوانية:

- ومن يحدِّد جداول الأعمال؟

أجاب العدوي بيقين:

- أنا طبعًا، ولما أقول كلمة «أنا»، يعني أقصد مكتبي، وهو مكتب يضم فحول في عالم الإدارة والقانون.. الناس دي سهرت الليالي الطويلة وترافعت عنكم في المحاكم، ولولاهم، كان كل واحد منكم أصبح رقم في سجلّات ليمان طُرَه.

ثم أدار عينيه في الجمع رافعًا عقيرته بسطوة:

- ما تنسوش إن معانا بضاعة بملايين، رجوعها رهن تعاونكن معانا النهارده.

قال مرزوق بثورة مكبوتة:

- أنت كده بدأتها بإنك بتضطهدنا.

هَزَّ العدوي كرشه بحركة سوقية، وقال بوقاحة:

- وأنا اضطهدك ليه يا مرزوق؟ هو أنت جوز أمي؟!

قالها العدوي، ثم أدرك خطأه فورًا، لأن المبادرة بسوءِ الخلق مع هؤلاء السفلة تكفي للحطِّ من هيبته، فضلًا عن أن الشتم بضاعة المُفلِسين. إزْمَهَرَّت عينا مرزوقٍ بوعيدٍ وغضب،، وهمَّ أن يقول بحقدٍ ملتهب: "أمك؟! لا يا متر، ماستنضفش!" نعم كانت على لسانه، وكانت كفيلةً بردّ كرامته، بل كفيلةً بإزاحة العدوي من مكانه المتسلِّط، وجذبه للقاع في مُشَادَّة كلامية عقيمة قد تنحط للبذاءة، لولا أن تحدَّث الشهاوي، وقال بهدوءٍ ظاهري واعْوِجَاجٍ في اللسان وصعوبةٍ في النطق:

- بصرف النظرعن موضوع البضاعة.. إيه اللي حتضيفه.. أنت، و«هو» (قالها باحتقار قاصدًا حسين)، علشان.. نسلِّمكم نفسنا كده.. بالرخيص؟ وإيه اللي يضمنلك.. إننا نلتزم بعد ما البضاعة ترجع؟

التفت إليه العدوي، وكان يشعر بالغضب من نفسه، وبالارتياح العميق كذلك أن أنقذه حسن حظه من زلَّة لسانٍ مُكلِّفه، وعزم على التركيزوالسيطرة التامة على النقاش من الآن فَصَاعِدًا، فقال برَزَانَة:

- ضمان الالتزام أمره سهل! المشكلة أنه بعد وفاة الحاج الكبير، ما شفناش منكم غير الفشل والانهيار.. (وقال ناصحًا) أنتم محتاجين لشخص يصرِّف أموركم.

جزَّ الشهاوي على أسنانه، وقال وقد خُنِيَ غيظًا:

- كانت.. ماشية يا عدوي.. لحد أما.. أنتم خربتوها.

- أصل الشغل إرف يا حاج.. لو مافيش إدارة كويِّسة كل شيء تعملوه يفشل.

قال الشهاوي ببغض:

- أنتم.. لهفتم اللقمة اليتيمة.. اللي بنحضَّرلها من سنين.. ولولا كده.. ما كنَّاش.. نبقى قدامك دلوقت.

- اللقمة اليتيمة، حتى لمّا ترجع لكم، مش هتغيَّر شيء، لأنكم بطبعكم فشلة!

فتح الشهاوي فمه ليقارعه، ولكن العدوي عاجله قائلًا:

- الحاج جوهر كان مختلف عنكم تمامًا.. كانت استثماراته مقياسها مغاير.. اعتمد على البورصة وسمسرة الأوراق المالية والأراضي، وده أهّله أنه يمتص أرباح المخدرات الكبيرة ويوظّفها، وفي نفس الوقت يوازن بين أعماله، وبينكم.. يسيبكم تموجوا في بعض، زي البهائم في الزريبة، وكل حين يرميلكم لقمة، ويقف يتفرَّج عليكم وأنتم بتقطَّعوا في بعض عليها.. ولمَّا كبرتم، أوكل لكم مصالح كبيرة، اللي هي مصالحكم دلوقت، لكن الحقيقة أنه هو اللي كان في يده الحل والربط.

وسأل الشهاوي بجديَّة في هيئة المُعايَرة:

- تقدر تقول لي مشكلة واحدة، قابلتك أيام الحاج، وقدرت، أو حتى حاولت تحلّها؟ كل وظيفتك إنك زي كاتب الديوان، ووَقْت ما تحصل مصيبة، أنت اللي تدخل الليمان.. أنتم كنتم واجهات، تسدُّوا عن الحاج الريح وتسمحوا له بحريَّة الحركة.. وبعد وفاته ورثتم، والورث كبير، وأنتم مش عارفين تتصرَّفوا فيه إزاي.. كل مصالحكم تواجهها تعثُّرات جسيمة لنفس الأسباب: (وبدأ في العدِّ على أصابعه) غياب التنسيق، وتضييق الحكومة عليكم، وعدم استغلالكم لعوائد المخدرات بشكل سليم.. كل اللي تقدروا عليه، إنكم تضخُّوا مبالغ ضخمة، فقط لتأخير الإفلاس قدر المستطاع.

ورفع سبَّابتيه، وقال بتقزُّز:

- انهيار مصالحكم حصل في خطوات متطابقة، كأنكم على اتفاق! مع أول خطوة في التعثُّر يبدأ البنك بالهجوم، يقدِّم شيكاته للجهات القضائية، وده يضع الجميع على شفا إعلان الإفلاس.. تُباع المنتجات برخص التراب، تحضيرًا لطرح المصنع أو الشركة للبيع.. تُسدَّد الرسوم السيادية زي الضرائب والتأمينات، ويأتي المُصَفِّي القضائي، ويقسِّم أملاككم على الدائنين، وأنتم بقيتم في الشارع.. ده اللي حصل، وبيحصل، وحيحصل مع كل نفر فيكم.

تبادل الكبار نظراتٍ قانتة، فعلَتْ شفتا العدوي ابتسامة واثقة، واستطرد قائلًا:

- اجتماع النهارده لبحث الحلول.. الموضوع ما عادش يقتصر على مجرَّد البحث عن

زعامة مناسبة، تحل محل الكبير اللي راح.. إحنا رسمنا خطة متكاملة، تتمحور حول ثلاثة أسس، لو التزمنا جميعًا بها، أضمن لكم أنه خلال مدة قصيرة نستعيد اسمنا ومكانتنا.. الخطة مُقسَّمة لبنود ومراحل محدَّدة.

وتوجَّه بنشاط لرأس المائدة، وجذب ملفًّا أنيقًا. وضع منظاره الطبي الصغير على عينيه، وأنشأ يقول، ناظرًا بين الحين والحين للأوراق ومسترشدًا بالعناوين ورؤوس الموضوعات، ومنظِّمًا من خلالها أفكاره:

- المحور الأول، أعمالنا الشرعية.. (ورفع عينيه إلى الجمع متأسِّفًا) أنتم كل مجالات أعمالكم غنيَّة، وتصلح للتوسع، ولكن مشكلتكم نقص الطموح، واعتباركم مصالحكم مجرَّد واجهات تغطُّوا بها مجال التجارة الأصلية.. وهي نظرة قاصرة. لأن أعمالكم هي طريقكم للشرعية والسيادة، واكتساب النفوذ والاحترام.

وضرب كفًّا بكف، وتابع منكرًا:

- انشغلتم طول الوقت في دايلمَّة، تحاولوا تشيلوا ده، ده يقع، وتعدلوا الكفة دي، الثانية تميل! بدل ما أعمالكم تكون مصدر للشرعية والأمان، تحوَّلت لعبء، لدرجة أن بعضكم فكَّر أن إشهار الإفلاس نعمة.. (وتنهَّد مخلصًا) سامحوني، بس أنتم بعتم برخص التراب مصالح بناها الحاج جوهر بالعرق والدم.. أهنتم ذكراه بعد ما انتشلكم من الفقر والضنك وعملكم بني آدميين.. سفِّهتم أحلامه، اللي كانت بعزيمة وصبر، تتحوَّل لحقيقة.. إن المصالح دي تقوم مرة ثانية وتكبر، ده أمر مش مستحيل.

وهَزَّ رأسه بعُجبٍ قائلًا:

إحنا عملنا خطة مبدئية لكل واحد منكم، تؤهِّله لأنه يقوم على حيله مرة ثانية، تُنفَّذ بالتنسيق مع مكتبي.. نقطة أخرى مهمَّة، وهي السيطرة على مصالح الناس اللي راحت.. المصالح المُعطَّلة للطماوي، وعبد الحكم، وعبد السلام.. صناعات معدنية وشحن ونقل وغزل ونسج وغيرها.. كلها أعمال تُوزَن بالذهب مرمية للحكومة والورثة والديَّانة.. إحنا معتمدين عليكم، لأننا مش حنقدر نديركل ده وحدنا.. أنا أعرف أنكم تجَّار لكم وزنكم في السوق.. المهم الالتزام والتنسيق، والجديَّة.. الحاج قدر وحده يدير كل ده، وهو لا كان نبي مُرسَل ولا مَلَك جبار! لكن كان عنده طموح والتزام.

نظروا إليه جميعًا بغيظٍ مكبوت، وارتفعت درجة حرارة بعضٍ منهم وهم يتابعون ما اعتبروه مسرحية هزلية سمجة، أو درسًا مدرسيًّا سخيفًا. وانتقل العدوي فورًا للبند الثاني مُجريًا من الملف صفحات أخرى، وقال:

- المحور الثاني: غسيل الأموال.. أنتم ترتكبوا أخطاء دورية تعطي فرصة للأجهزة الرقابية إنها تحاصركم.. وعندكم مشاكل ضخمة في عملية فتح الحسابات، وإعلان المعاملات التجارية، والتعامل مع البنوك المشبوهة.. والأهم، أنكم بتصرَّفوا أرباحكم في عمليات خارج المؤسسة المالية، تتَّسم بالإسراف، زيّ شراء المجوهرات والسيارات والعقارات.. وشراء مؤسسات مالية وتجارية أحيانًا تكون منهارة، لاستعمالها كقناة للسيولة النقدية.. وأنا عندي هنا قائمة بمشترياتكم، أنتم وأسركم وأولادكم من سنتين إلى الآن.. قائمة تخض!

وسدَّد إلى مكاوي ضربة أولى قائلًا:

- أنت مثلًا يا حاج مكاوي، تعرف لو حد دخل فيلتك في القطامية، وسرق مشغولات الذهب اللي في خزنة البدروم، حتكون بضربة واحدة خسرت قد إيه؟

تهيَّجت أعصاب مكاوي فجأة، واتسعت عيناه بانزعاجٍ لدي سماعه تلك المعلومات التي يعتبرها من أسراره الخطيرة. تلفت حوله مذعورًا، واستعصى عليه النطق لما رأى نظرات الكل تُسلَّط عليه، وأحَسَّ أن دماغه يغلي من الهلع. ولم يمهله العدوي أو يمهلهم في خواطرهم السرية، بل وجَّه ضربته الثانية إلى البدري قائلًا:

أما أنت يا حاج بدري، فالظاهر أنك علشان ما بتحبش البنوك، بتخزّن كاش بالملايين وسط الهدوم، وتحت الكنب، وفي شنط العربيات!

انكمش البدري في مقعده وقد شعر بنفسه يُغمر في ماء بارد، دون أن يرد، أو حتى تتوافر لديه النيَّة على الرد، فقد عزم على الالتزام بالحياد السلبي حفاظًا على اتفاقه مع حسين قدر الإمكان من جهة، وحفاظًا على ماء وجهه وعلاقته بإخوانه من جهة أخرى. أما "الكاش" فلم يؤرقه؛ لأنه لم يعد لديه منه الكثير مما يُخشي عليه. ولم يول العدوي أيًّا من ذلك اهتمامًا، بل أردف:

- أنتم بعمليات غسيل الأموال لا تسعون للحصول على عائد لاستثماراتكم؛ لأن

أعمالكم تحوّلت لبلاعة تستهلك الأرباح باستمرار.. بقيتم زيّ تاجر المخدرات اللي أدمن بضاعته، البودرة اللي بيسترزق منها، يسفّها أول بأول لحد ما تضيع ويضيع هو معها.. غيركده، أنتم تعتمدوا في تبييض أموالكم ونقلها من حساباتها المحلية لحساباتها الأجنبية، على المنظومات المالية والبنكية للدول المضطربة والغير مستقرة اقتصاديًّا، على أساس أن وسائلها الرقابية ضعيفة، وقوانينها وتشريعاتها المتعلقة بالأموال من الممكن اختراقها بسهولة، متناسين أن المؤشرات الاقتصادية لهذه الدول مُضَلِّلة، وأن معدَّلات الفائدة فيها قليلة، وأسعار الصرف بها غير مستقرة.

وقلب كفيه، مستطردًا بغيظ:

- ده معناه أنكم تعتمدوا في تعاملاتكم المالية والتحويلية على مجموعة من المعاونين اللصوص والنصابين والخونة.

وسكت ليستجمع أفكاره من جهة، ويترك لهم المجال للشعور بعمق الورطة التي زلت فيها أقدامهم، ثم قال متنهدًا:

إحنا وضعنا إستراتيجية طويلة المدى، لها عدة محاور نقدر بها التغطية على مكاسبنا.. أولًا استخدام أصحاب الخبرة في المجال.. الدنيا مليانة محاسبين ومستشارين ماليين وخبراء اقتصاديين ووُزَرَاء سابقين لو استلزم الأمر.. مقابل أجور محدَّدة، نقدر نستعين بخبراء، نظير تنفيذ سياسية عريضة لعملية غسيل الأموال، وابتكار أساليب متجدِّدة للتمويه والمراوغة.

قال مرزوق بوجه طقّ منه الشرر:

- الله يلعنك يا زمان، يا للى خليت للندل كلام! أنت عايز تدخَّل علينا الغريب، يتطلع على أسرارنا ويكشف سترنا؟!

أجاب العدوي بأسف:

- صحيح، أصحاب العقول في مناحة! سؤال غبي، من إنسان غبي! (وكانت تلك إهانة محسوبة، وليست مجرَّد زلَّة لسان).. أنا أعتذر عن أي تجاوز لفظي، بس أنتم لازم تفتَّحوا معايا عن كده.

استشاط مرزوق غضبًا، وهمَّ بالانفجار في وجه العدوي، لكن الشهاوي أشار إليه

بسطوة أن يَقر، وقال بغضب مكبوت:

- وتعتذر ليه.. يا أستاذ سيِّد؟ الغلطة غلطة شلة الأراجوزات.. اللي قاعدة تتسب وتتهان.. وساكتة.

- يا حاج شهاوي لا تجبرني أني أتكلم، وأقول اللي كاتمه في قلبي.

قالها العدوي محذِّرًا، وهرش ذقنه مفكرًا، ثم تبسَّم متلاعبًا وقال:

- لكن حيث إنك فتحت الموضوع، خذ منه جانب.

ونقل حديثه لعموم الحضور قائلًا:

أنتم عايشين في بلد تعمل على جذب رؤوس الأموال الأجنبية، وتشجِّع تدفُّق الاستثمار على أرضها، مهما يكون الثمن.. تعطي المستثمرين مزايا وضمانات، وقوانين سرية الحسابات لضمان استقرارهم.. ترجِّح كفة جذب الاستثمار على كفة مقتضيات الصالح العام.. ترخي قبضة الرقابة على المؤسسات المالية، وتعطي نوع من المرونة بالنسبة لقواعد وقاية النظام المالي وغسيل الأموال القذرة.. الأجواء دي تشجِّع على تفشِّي الاحتيال، والاختلاس، والتهرُّب الضريبي، والفساد الإداري، والرشوة، وتهريب الأموال! ودا جانب مضيء، بسببه استطاع الحاج جوهر تكوين شبكة معقَّدة من العلاقات، وقِدِر يستقطب مجموعة من المتعاونين في مواقع مهمَّة وحساسة، همُّهم كان الاستفادة من مناصبهم قدر الإمكان، لأن كراسيهم مش مضمونة، واللي بيخرج عمره ما بيرجع.. بمساعدة الناس دي، قِدِر الحاج يمرَّر عمليات تحويل النقد والغسيل دون تدخُّل أو إزعاج من الجهات الرقابية.. الحاج جوهر، يوم ما توفاه الله، كان بين يديه ناس ثقيلة جدًّا، تعاونوا معاه بإخلاص، بناءً على علاقة تبادل المنفعة.. تحبُّوا أقول أسماء، ولا أذكر مناصب؟

وجزَّ على أسنانه مغتاظًا، ثم قال بدهش:

- المصيبة أن الناس دي بعد وفاة الحاج، كانت منتظرة توضَّحوا مواقفكم.. والله العظيم الناس كانت منتظرة ومستعدة تتعاون.. تعرفوا إن كان تحت أيديهم أرقام حسابات بمبالغ مهولة، تعلَّقت كلها بعد موت الحاج؟ كلهم انتظروا علشان يعرفوا أبعاد الموقف الجديد، ولما طال الوقت، كان الطبيعي أنهم يقرَّروا يتصرفوا.. كل اللي

قدر يأخذ حاجة أخذها.. أرقام حسابات تغيَّرت، واختفت.. فلوس كانت فلوسنا، وضاعت بالساهل.

وسكت وحدَّق في وجوههم بشيء من التقزُّز، في حين تجمَّدت نظراتهم وعلتها الصدمة. ثم إنه شبَّك كفَّيه خلف ظهره، وتحرَّك وهو يقول آسفًا:

- طبعًا المحور الثاني يتركَّز حول استعادة الناس دي، وإثبات جديَّتنا واستعدادنا للعمل.. الموضوع صعب وأقرب للبداية من الصفر، لكنَّه في الوقت نفسه مش مستحيل.

وتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، ثم قال:

- المحاور السابقة مجرد مقدِّمة مختصرة نقدر نضع بها خطة عمل لتوظيف أموالنا بشكل آمن ومربح.. دراسة الخطة ستتم بشكل أشمل مع أصحاب خبرة في كل المجال.

ورَفَعَ سرواله المنزلق عن بطنه العظيمة، ثم قال:

- ننتقل للمحور الأهم: المخدرات.. (وأخذ نفسًا، وزفره مَمْدُودًا بِعُمْقٍ، استعدادًا للدخول في أهم نقطة في رأيه) في مصر إحنا بنشهد عهد ذهبي، بدليل ثبات أسعار السوق بوجه عام.. ومع أن الكميات المُصَادَرَة في ازدياد، فهذا لا يشير إلى تحسُّن وسائل تطبيق القانون، لكنه يشير لزيادة حيِّز الزراعات والتهريب.. يمكن هذا العهد ينافس عهد الرئيس المؤمن السادات، اللي كانت على أيامه، المخدرات تُباع زي الخضار والفاكهة! (وأردف مزهوًّا) إحنا هدفنا قبل كل شيء، توسيع سقف أعمالنا، والعودة بها لسابق عهدها أيام الحاج الكبير.. تجارتكم الآن لا تغطي إلا القنب الهندي بمنتجاته، والهيروين بشكل أساسي، وباقي الأصناف يتم التعرض لها بكميات غير إنتاجية لا تقدِّم هامش ربح كبير.. السوق واسع، والأنواع متعدِّدة.. علينا توسعة رقعة الزراعات الخاصة بالقنب بالذات، لأنه يطرح محصول وفير طول السنة، ثم إنه أصعب في الإبادة وأوسع انتشارًا في سوق الاستهلاك المصري.. إحنا قمنا بعمل دراسة مُفصَّلة تخص عملية التوزيع الجغرافي، تهدف للسيطرة على المزروعات، وعلى حصادها وتوريدها وتصنيعها.. حنتجه لمناطق أشد وعورة وبعيدة عن السلطات، بالتعاون مع «الراشديين».. والشيخ عايش الحمداني مشكورًا أبدى استعداده للتعاون.. من خلال السياسة الزراعية الجديدة، سنحاول توفير منتج محلي عالي الجودة ينافس مثيله القادم من الخارج.

وقَهْقَهَ قائلًا كمن يرسل مُلحةً وتُحفةً لا مثيل لها:

- وأنا أسمي ده، بضمير مستريح: «دعم الصناعة الوطنية، وكسر الاحتكار الأجنبي»!

على الرَّغمِ من المناخ الغير مستقر، إلا البعض لم يملك مع أطروفته وضحكته الرنَّانة المزعجة إلا أن يتبسَّم بعُسر، في حين كتم آخرون ضحكاتهم المستهزئة، فخرجت من حلوقهم في صوت خوار. أكمل العدوي دون أن يلاحظ:

- أنا قمت بتجهيز جدول زمني، يهدف لزيادة المساحات المزروعة على حسب النوع، وده مشار إليه بالأرقام في صفحة ١٥، وجداول البيانات بالفدان.

تخبَّطوا بين الخوف والفضول.. لكن لابد من التقصِّي، ومعرفة ما يدور. هكذا تفعل حيوانات الغابة. لأول مرة منذ بدأ الاجتماع امتدَّت أيادي بعضهم تجاه الملفات السوداء الموضوعة أمامهم، وطالعوا الصفحة المعنية بفضول. هذا في نظر العدوي تطوُّر يبعث على التفاؤل، فاستمر قائلًا:

- لكن لتحقيق التطوير المأمول يجب أولًا التغلب على مشاكلكم الإدارية.. لازم تنسوا الإكليشيهات الثابتة، والأساليب العتيقة في التجارة.. لازم تدريب كوادر بفكر جديد وتنظيم مختلف.. المخدرات ضرورة عصرية، مش مجرَّد سلعة استهلاكية! لذلك يجب توجيه الطلب في الاتجاه الصحيح، وبالكم الصحيح.. يجب تقديم بدائل مختلفة للسعر والنوعية، ودراسة دورة الطلب، واحتياجات المستهلكين.

وانتفخ بشكل ما، وقال:

- إستراتيجياتنا محددة، وخطواتنا معروفة، وجاهزة للتنفيذ.

أنهى العدوي هذه الفقرة من حديثه، وتوقَّف لالتقاط أنفاسه، نظرًا لما يثيره الحديث المتصل في صدره الضعيف من مشقة. وعلى سبيل العادة الغالبة، تُرجمت خواطر الحاضرين إلى استجابات مادية: منهم من هرش جبهته، ومن حك فروة رأسه، ومن نقر بأصابعه على الطاولة الخشبة، وسَرَى الصمت في طيَّاته حوارات بليغة دارت في العقول. ثم انبعث الهمس، ومنه تعالى الأزيز، وتصاعد إلى هياج [illegible] تمايز الأصوات، وهو مما يكون من شأنهم في الافتراق، كأسراب المبتدعة وشراذم أهل الأهواء والزيْغ.

عَرَضَ العدوي نقاطًا أوفت على الغاية، حتى حار حسين -وهو المراقب الصامت- في أمر هؤلاء القوم. التزموا الصمت ما دام العدوي مسترسلًا في حديثه، وما أن لاح الخلل، حتى وقعوا في الاختلاط والفوضى. ارتفعت الأيدي وعلى الصياح، وقام بعضهم ليغالب بصوته على الآخرين، فلم يتركوا تفصيلةً إلا وأثاروها، ولا اقتراحًا إلا ورفضوه، فكأن ثَمَّة بؤرة شيطانية تأجَّجت بينهم، ودفعتهم للمبالغةِ في اللغو، واللَّدِ في العداوة. تدامجت درجات الأصوات بفظاظةٍ وانقطاع، وباتت تُرَى سحائب الفرقة ونذر الاختلاف. كان منهم من يثير القضية ولا ينتظر تعليقًا، فإما أن يوغل في غيرها، أو يزيحه أخٌ آخر بمداخلة أخرى. شعر حسين بتفاقم الوضع، لكنه لمَّا أمعن في مراقبة العدوي، أدرك أنه بظنِّه حطَّ من قدر الرجل. دون شك كان الهجوم كاسحًا، لكن العدوي صَمَتَ صمت الكرام، وتركهم يفرغون شحنتهم الأولى دون معوقات، كي تهدأ نفوسهم، فيخرجون من وطأة الصدمة الأولى، ثم ردَّ عليهم بهجوم مرتد، منه ما كان إجابات على استفسارات، وما كان إلى المناكفة الضاربة أقرب، وما هو العدوان بعينه. كان يوضِّح، ويجادل، ويقترب كثيرًا من محدِّثه فينتهك مداه المكاني ومجاله النفسي الآمن. تكلَّم بثقة ورباطة جأش، وصدرت عنه ألفاظٌ جارحة، ونظر في عيون محدثيه بتحدٍّ سافر، وعمَّ بجوارحه جميع الحضور. ومع معارفه العميقة بطبائعهم وأهوائهم، استطاع رسم صورته كانعكاس لقيمة السلطة، فألزمهم بتوقيره وصدهم عند حدود لا يتجاوزونها.

الآن علم حسين أن هذا الرجل يعرف بالضبط ما يفعل، منذ أشرف على إعداد مكان الاجتماع، واضعًا في الاعتبار ألا تكون الغرفة ملائمة لاستيعاب أعدادهم بشكل مريح، سواءً من حيث فراغات الجلوس، أو درجات الحرارة (التي حرص أن تكون أعلى من المعتاد)، لوضعهم تحت وطأة تعذيبٍ معنوي بطئ. كان يحقنهم على مر الدقائق بالرغبة في التخلُّص من أجواء الاجتماع الخانقة الرطبة، المُقيِّدة لحريتهم ولكل ما اعتادوا عليه من طقوسٍ يقاومون بها المثيرات المستفزة والتوتُّر العصبي (مثل التدخين). إنه يعلم أنهم كلما تقادم بهم الوقت، سيتحوَّل أملهم في مغادرة المكان إلى رغبةٍ قاهرة (كرغبة حابس البول) تدفعهم لقبول أي قرار، حتى ولو انتهوا إلى ما لا يرضيهم. لم يغفل أيضًا ترتيب الجلوس، إذ وضع الشهاوي -وهو ألد خصم وأشد أفراد العائلة غلظة وسطوة- في «بقعة الرجل الميت»، جانب رأس المائدة، كي لا يحظى بالاتصال البصري، ما يُحجِّم

من معارضته وثقته بذاته.

لم تكن المواجهة سهلة؛ لأن من أمامه الآن هم تركيبة اجتماعية وسلوكية صعبة: أناس لم يفلح الترف في صقل طبائعهم الغشيمة وأخلاقياتهم الخشنة، فأقاموا في ضياعهم مستعمرات يحكمها طابع الحياة الحشري المتطفل. أناس مقتوا القيادة، وكنُّوا لرمزها الوحيد -الحاج جوهر- الكراهية؛ وذلك لما رأوا منه من صلفٍ وظلم، فما أن اختفى حتى انقادت أهواؤهم للجشع، فثاروا واضطربوا وعَظُمَ بينهم الشر. لم يترددوا في تقويض بنيان العائلة المتين، فألحقوا الضرر بالمصلحة العامة في سبيل مصالح شخصية ضيِّقة. كان الحاج بالنسبة لهم -على تسلُّطه وطغيانه- الطين.. الأرض الثابتة.. الخصوبة المتجدِّدة التي تجري في عروق العائلة فتضمن بقاءها. ربما لهذا لم يحاولوا الالتفاف حول قيادته أو التشكيك في أحقيته في الريادة، ولكن ما أن اختفى، حتى جرفوا الأرض، وصبُّوا من طميها الغني قوالب من الطوب الرديء بيعت بأبخس الأثمان، فكانوا كمن يضرم النار في بيته طلبًا لليلة دفء وحيدة.

الوحيد الذي لم ييأس هو الشهاوي. لقد نصب من نفسه حارسًا متقدِّمًا للقطيع، ومَرَدَ مرودًا طاغيًا جاوز به حد إخوانه، وبلغ غايةً من الجدل والطنطنة. استغرب حسين حقيقةً من هذا الرجل، لأنه تجاوز ما اتفقا عليه وكأنه يأس من الحياة، فاستمات في معركته الأخيرة. استشاط منه الشاب غضبًا، وبدت الغرفة أمامه كمشهدٍ عبثي هاج فيها الحضور واضطربوا ووقعوا في فسادٍ عظيم. لم يكن يعنيه الاجتماع في هذه اللحظة من قريبٍ أو بعيد، إلا لهدفٍ واحد: السيطرة.. ثم القتل! هجمت عليه ذِكْرَي زوجته، ثم اخترق قلبه إحساسٌ حارقٌ بالعار والمقت والضغينة، وأكل الندم أعصابه إذ يرى أولاد السِّفَاح من أعمامه وأهله أمامه أحياءًا أصحَّاء.. بئس بِزُّ القَحْبَةِ الَّتي أرضعتكم! إنه خطئي أن د عوتكم وأمَّنتكم.. لماذا لا تموتون الآن؟! النونو هنا، والبدو هنا! النونو وحده لا يكفي، وهؤلاء الأعراب لن يطاوعونني، ولا هذا العدوي العاهر، بئس بِزُّ القَحْبَةِ الَّتي أرضعته هو الآخر! لو أمرت، النونو لأعمل فيكم الطعن والتقطيع يا حثالة الناس.. لو فقط أمرت.. لكن.. ستكون مجزرة، وسأضيع فيها، فالسلاح معهم كثير، وقد ينجو منهم نفر! لا، الصبر الصبر.. لا ينبغي أن يفلت منهم أحد، ولا ينبغي أن أموت معهم، فالأوباش أصحاب مال وبنين ونساء.. والله لأحرقن قلوبكم على فلذات أكبادكم، وعلى المهابل

التي تلجونها في الحرام!

استغرقته تخيُّلاته، حتى أفاق منها على صوت الشهاوي وهو يقول بهياج: "كلام فارغ، أنا لا أوافق، ولن أحني رأسي لأي شخص كان.

***

بعنفٍ حرّك الشهاوي ذراعه، وعَجْعَج باهتياجٍ تطاير له الرذاذ من بين شدقيه:

- ده كلام فارغ.. أنا.. مش مـ.ـوافق.. مش موافق.. ومش.. حأطاطي لأي شين كان.

التفت إليه العدوي بكل جسمه، وقال مستذئبًا:

- مش موافق على إيه يا شهاوي؟ (ورفع كفه، وبَسَط أصابعه الخمسة محاذاةً لوجهه) الموضوع بديهي، زيّ الخمسة! دول خمسة.. حد يقدر ينكر إن دول خمسة؟

ناكفه الشهاوي بضراوة:

- أيوه.. أنا أنـ. أنكر! دول أربعة! أنا.. شايف كده.. أنا حر!

تساءل العدوي هازئًا:

- وكده تبقي الخمسة أربعة؟! حتغيَّر نظام الكون؟

قال الشهاوي بغلظة:

- أيوه!

رفع العدوي سبابته متوعدًا، وقال وقد غطى العرق جبهته بغلالة حبيبية لامعة:

- يبقي أنت رجل أعمى البصر والبصيرة.. (وضاقت حدقتاه بوعيد) افتكر يا شهاوي اللي حصل لك، أنت لسه ما قمتش من على كرسي المعاقين، والموت عنك مش بعيد.

جحظت عينا الشهاوي، وصاح بفزعٍ ناظرًا حوله، وهو يُشهد الجميع:

- أنت.. بتهدِّدني يا سيِّد؟ أنا ما با.. ما بأخافش.. ما أتهدِّدش.. أنا.. أنا ليَّ عزوة ورجالة!

- وكانت فين العزوة والرجالة، لما انضربت في قلب بيتك؟

- أنا قلت.. كلمتي الأخيرة.. أنا مش.. مش موافق على الـ. اللي بيحصل.. ومش لاقي سبـ. سبب واحد.. يخلينا نسلِّمك فلوسنا.. وتجارتنا.. أنت وبن المـ. المنجوسة بتاعك ده!

وأشار إلى حسين، الذي طال صمته حتى بدا كعنصر زينة مُكَمِّل للجلسة، روحه هائمة في أودية الأوهام وأغواره. صَمَت العدوي برهة ليستجمع أنفاسه، ثم سأله فجأة:

- أمال أنت جيت ليه؟

- إيه؟!

- أنت عارف إنك بمجيتك وافقت على المبدأ، وجاي تشوف إيه اللي لك في الهَلْمَّة الجديدة دي.. أنت مجرَّد مُومِس، وافقت على المبدأ، وبتتفاوض على السعر!

بُهت الشهاوي، فقال العدوي بقسوة:

- أقول لك أنت جيت ليه.

ورفع عقيرته على الجميع، مكررًا:

- أقول لكم جميعًا، أنتم جئتم ليه.. لثلاثة أسباب...

وبدأ العد على أصابعه، قائلًا:

- أولًا: الخوف.. ثانيًا: الفشل.. ثالثًا، والأهم: البضاعة.. شحنة هيروين، لو ما رجعتش، نقول كلنا يا رحمن يا رحيم! الحقيقة كلها أسباب بديهية، ومحل اعتبار.. بصراحة هي محور العملية كلها، لأننا لو خرجنا النهارده بدون ما نتفق، كل اللي تحسبوه حيحصل.. من جهتنا، حنطلق عليكم كافة رجالنا، والأدهى أن الشيخ عايش مُأمِّل على شغل كبير! ومن جهةٍ أخرى لو اتفقنا، حندخل في شغل يعم بالخير علينا كلنا.. أما البضاعة.. الحقيقة أني اتفقت، أنا وحسين، على إن مافيش جرام واحد يرجع لو لم نستقر على شيء النهارده.

ورفع سبَّابته متوعِّدًا، وقال قاصدًا من كل كلمة معناها:

- وقسمًا بالله، أني أنا حاولع في كل ذرة هيروين في الشحنة، ووَرُّوني حتتصرفوا إزاي! الأحسن في الحالة دي أن كل واحد يهج على بلده، على الأقل يضمن دفنة عليها القيمة.

ثم قال موجِّهًا حديثه للشهاوي:

- أنا بس حبيت آخذك بالحسنى، يمكن الأمور تُسوَّى بيننا عن فهم واقتناع، مش عن غصب وإجبار.

وأشار للباب، قائلًا:

- وإذا ما كانش عاجبك، الباب قدامك.. وريني المرجلة.

نظر مكادي إلى الباب متوترًا، متوقِعًا في أي لحظة أن يحرِك أبوه عجلتي الكرسي المتحرِك عازمًا الانصراف، وتأهَّب، وتأهَّب رجاله. ثم قال العدوي:

- إيه يا حاج؟ تفضَّل بالسلامة، ما حدش حيأذيك.. تمشي من هنا صاغ سليم، وتتحمَّل تبعات تصرُّفك كما الرجال.

طأطأ الشهاوي رَأسَه بصمتٍ محتقن، ثم إنه أخلف ظنون الجميع، ولم يحرِك أصبعًا، فقال العدوي بخسَّة مبتذلة:

- جري إيه يا حاج، هو كلام والسلام؟

ووَجَّه حديثه لجميع أفراد العائلة، قائلًا:

- الكلام ده يعُم على الكل، اللي مش عاجبه يتفضَّل بره، وأنا أفهم من كده إنه رفض وأمره انتهى بالنسبة لنا.

حاروا جميعًا جوابًا، أما هو فوقف ثابتًا، مُترِيِّثًا، مُستَمْلِحًا تأثيرردِّه المفحم، حتى قال البدري محاولًا تلطيف الأجواء:

- جري إيه يا أستاذ سيِّد؟ يعني إحنا ما لناش عزاء ولا إيه؟ (وتلفُّت حوله) نمشي بقى ونفضَّها سيرة!

قال العدوي بجفاء:

- الشغل ما يقفش على حد.

تلمَّظ البدري في جلسته قائلًا:

- لأ طبعًا يقف، أمال إحنا بِنُرُط في إيه من الصبح؟ الأمور ما تمشيش إلا لما نتَّفق.

وطاف في وجوه إخوانه بتساؤلٍ، المقصود منه تعضيد وجهة نظره:

- ولا إيه يا جماعة؟ نفكَّر في العرض، وأكيد في النهاية نتَّفق.. والكلام هات وخد.

قال مرزوق معترضًا:

- هو فين الهات وخد يا حاج بدري؟ إحنا من الصبح بنسمع شخط ونطر، ولا كأننا شوية أُجَرِيَة.

وتدخَّل مكاوي موافقًا لمقتضى الحال:

- وبعدين إحنا ما رفضناش الموضوع.. إحنا مش معترضين على إننا نشتغل جماعة، إحنا معترضين على الطريقة.

ووجَّه كلامه للعدوي، قائلًا:

- وبعدين يا متر، ما تنكرش علينا حق السؤال، لأن اللي بتقوله مش هيِّن.. إحنا ما نكرهش إن يكون لنا كبير.. وإحنا كنا طول عمرنا في طوع الحاج جوهر، وتحت ظله، يقول يمين، نميل معاه، يقول شمال، نميل معاه.. ولما ربنا ابتلاه كنا في طوع حَسَن وتحت ظله، يقول يمين، نميل معاه، يقول شمال، نميل معاه! (وأشار لرأسه) إنما نتنوَّر قبل ما نسلِّم.

وكما فعل البدري فعل هو، تلفَّت حوله قائلًا بتساؤلٍ الهدف منه تثبيت وجهة نظره:

- غلطش أنا يا جماعة؟!

وجموا جميعًا، وانشغل العدوي بالتطلُّع إلى الشهاوي بعينين كجمرتين ملتهبتين، في حين لم ينطق الشهاوي بحرف. لم يكن ينوي الانصراف بحال لأنه ليس غبيًّا، ويدرك ما يمكن أن يحدث ترتُّبًا على موقفٍ خاطئ يتَّخذه في لحظة غضب، إذ ما تزال صورة زوجته نرجس الغارقة في الدم ماثلة أمامه. لقد أصبح عزيز الشهاوي -الذي كان يدك الأرض صحةً وجبروتًا- عاجزًا، لا يستطيع التبوُّل دون مساعدة، والله يعلم هل سيستطيع الوقوف على قدميه مرةً أخرى أم لا. إنه لا يحتمل خسائر جديدة، لا في بدنه، ولا في ماله، ولا في من بقى من أهله. الأفضل له أن يصمت ويُسِرَّ في نفسه، ويطوى كَشْحَه على الشر كما يفعل دائمًا، حتى يلوح الخلل، فينقض. ثم إنه لم يستسلم، ولم يأت خالي الوفاض، بل لقد فكَّر وقدَّر، وإن لم يكن متيقِّنًا من فلاح مساعيه، فضلًا عن المقامرة عليها. شعر بسخونة وضغط شديد في رأسه، فتقلَّص وجهه حتى تجسَّمت فيه آيات البغضاء. نظر بعينيه المنكَّستين في ساعته الذهبية مليًّا، وأمل ما يراوده، ثم تطلع إلى الباب باختناق.

التقط العدوي ذبذباته واستوعبها، وقلق منها في الواقع لأنه يعلم أن هذا الرجل يجري كل حاله على شُعبٍ من التمويه والخداع والخيانة، حتى أنه سأله بتربُّص:

- منتظر أحد، ولا وراك ميعاد، يا حاج شهاوي؟

نظر إليه الشهاوي دون أن يجيب، ثم نظر فيما حوله بقلّة حيلة، فلم ير من بين الحاضرين مُعارضًا. رأى نفسه وحيدًا فريدًا، يحاول الوقوف في وجه الطوفان، والأوغاد الآخرون يستترون خلفه وخلف خصمه في ذات الوقت. إنه ينوي، إن سنحت الفرصة، أن ينتقم منهم أجمعين. إنهم لم يقفوا في صفه وقت الشدة ولا بد أن يدفعوا الثمن.

علت وتيرة الأصوات مُجدَّدًا بعبارات متداخلة ومداخلات عشوائية، حملت هذه المرة أمارات التخاذل، وساعدهم العدوي في مساعيهم اللئيمة الساذجة، فلم يغلق في وجوههم الأبواب. لم ينطق الشهاوي، وقرّر مقاطعة فعاليات مسرح العرائس هذا حتى ينفض، أو يموت كمدًا في مقعده. أما حسين فشغل نفسه بالنظر إليه، وأيقن أنه يضمر في نفسه أمرًا ما، أو ينتظر حدوث أمرٍ ما.

ثم أشار العدوي لحسين من طرفٍ خفي كي يحتل مكانه ويبدأ مُدَاخلته. لكنَّ حسين -كدأبه في الملمات والمواقف الصعبة- عَمِه وتباطأ في الدخول، وأربكته الإشارات الصارمة. أخَّر قدمًا وقدَّم أخرى، وغالت في بطنه تفاعلات حيوية نتيجة القلق وهيبة الموقف. ثم قال مكاوي، مُستسلمًا مُجدَّدًا لتلهفه وخراب أعصابه:

- ما هو الكلام ده ما يرضيش حد، يا أستاذ سيّد.. لازم نطمئن على البضاعة.

قال العدوي بجديَّة:

- يا حاج مكاوي، البضاعة بخير، وحترجع لكم خالصة مخلصة، مع إن ده مش عدل، لأننا أخذناها من بق كلاب! يعني المفروض يكون لنا فيها نصيب، بما أن حسين (مشيرًا إليه) هو الكبير (وكم بدت عبارته مضحكة).. هي دي الأصول لأن الميَّة ما تفوتش على العطشان.

قال مرزوق بغلظة أخفت غمًا واضطرابًا:

- الصراحة الحاج مكاوي عنده حق، أنت مسكت في يدك كل الحبال، وبتطلب مننا إن إحنا نثق فيك عمياني.. ده كلام ما يعقلش.

قال العدوي مُعاتبًا (وفي حال كهذه يعتبر العتاب فسحة يروِّح بها عنهم):

- خليكم واقعيين.. الحبال كلها فعلًا في إيدينا، وأنتم لا تملكون حتى طلب ضمانات، إلا أن مصلحتنا واحدة.. إحنا بنضيَّع وقت، مع أننا المفروض دلوقت نكون بنقرأ الفاتحة.

تنهَّد مرزوق يائسًا، وكاد أن ينبطح أرضًا من فرط هبوط معنوياته، وتبادل النظر مع إخوانه، وحرصوا جميعًا على غض الطرف عن الشهاوي. ثم تدخَّل الشهاوي نفسه بعد طول سكوت، وسأل ببطء:

- نقرأ.. الفاتحة.. لمين؟

التفتت إليه الأعين بتساؤل، بينما ردَّ العدوي فورًا وهو يشير لحسين مرةً أخرى خلسة لما استثقل تباطؤه:

- لله يا أخي.

- مش قصدي.. أنا أقصد.. نعاهد مين.. على إيه؟ مين.. كبير القعدة؟

قالها الشهاوي بعد أن فوجئ بأنه عَلِمَ على حين غفلة منه ومن الحاضرين كيف يأتي الأمور من مأتاها، وقد اندهش من كيفيَّة فوات هذه النقطة عن ذهنه. فتحيَّن الفرصة ونظر لأقاربه، قائلًا بلؤم:

- أنتم.. خافي عليكم.. نقطة مـ.. مهمة جدًّا يا إخوانٌ.. من الكبير بالضبط؟ العدوي؟.. العدوي ما ينفعش.. صحيح هو معانا.. من سنين.. بس هو ما يحسبش من العائلة.. دي قواعد حطَّها الحاج.. تقبلوا إن.. إن واحد مش من صلب الحاج.. ولا من دمِّنا.. يتحكُّم فينا؟ تقبلوا إن واحد.. كان يشتغل عندنا أُجَري.. يحط مداسه.. على رؤوسكم؟

نزل عليهم الوجوم لمَّا أدركوا بالفعل خفاء هذه النقطة عن بالهم، ولقد شعر العدوي لأول مرة بالخطر، فالتفت بعموم جسمه لحسين بشكلٍ واضح، ناظرًا إليه بغيظ، ثم هَزَّ كتفيه علامة أن لم يعد في جعبته شيء، وأن الكرة الآن في ملعبه هو. بدَّل حسين النظر ما بينه وبينهم في حيرة، فأشار العدوي بكفه إليه علامة أن تفضَّل لما عجزت الإشارات الخفية عن تحقيق مغزاها.

رأى الشهاوي ما يحدث كما رآه الكل، وانتشى، وكيف لا وهي أول بادرة نصر تلوح منذ

بدأ هذا الاجتماع الملعون. تابع حديثه خشية أن يزول التأثير، أوتخونه ألفاظه بعد أن انزلق إلى هجوم منسَّق:

- وإذا.. مـ. ما كانش العدوي.. يبقي حسين؟ صحيح هو حفيد الحاج.. ومن لحمنا.. على العين والرأس (واضعًا كفَّيه متشابكين على رأسه) بس.. ده عايز يبقي كبير.. هو فين الكبير؟ ما سمعناش حسُّه مـ. من أول ما قعدنا.. متبِّت في كرسيه.. كأنه مالوش أم، جاي مسلوب للدنيا.. يا جدعان الموضوع باين زي الشمس.. العدوي هو اللي مستقوي.. والثاني مطأطئ في ظله.. ده كبير ده؟! إحنا لو استفردنا به نِبَرقَعَه.. لمًّا دخل علينا في الأول (مشيرًا بإبهامه للخلف).. من غير العدوي.. انفجع.. ماعرفش يقعد، إلا لما العدوي أقعده.. وما عرفش يسمع.. إلا لما العدوي أسكتنا.

ورفع كفيه داعيًا بصوت أشبه بالنُّواح:

- الله يرحمك.. يا حاج جوهر! الله يرحمك.. يا حَسَن!

ثم أنزل نظره لحسين، بعينين ضيِّقتين منتفختين، وقال ماطًّا كلماته:

- حَسَن كل سنة من عمره.. كانت تفصِّل عشر سنين خبرة.. كان لافف ومَبْرُوم.. يشيل شُغل، ويُعتمد عليه.. والجنيه كان عنده براجل.. يعني الخمسين جنيه.. بخمسين راجل! من أيام الحاج، وهو ماسك شغل.. متربّي ومتأسِّس صح.. دلوقت خلاص.. مـ. ما عادش فيه شنبات.. ودا اللي أنا قاعد بأقوله من شهور: الكبار ماتوا.. لو كان ينفع.. كان حد منا أولى بها.. (وضرب كفًا بكف) خلاص.. كده خلصت.

هكذا خلق الشهاوي زاوية هجوم شاملة، وجعل من نفسه نقطة ارتكاز انقض منها دون رحمة. وقدَّم اللمسة الأخيرة، موجِّهًا حديثه إلى العدوي:

- مع احترامي لك يا أستاذ سيِّد.. أنت ما تنفعش تبقي كبير.. أهي دي بقى لو فيها مـ. موتنا.. دلوقت هنا أهه.. ما حدِّش هنا هيقبل بوضع زي ده.. سقترحاتك كلها حلوة.. وأنا عن نفسي موافق عليها.. (هَزَّ رأسه بقوَّة علامة التأييد) ومـ. ومؤكِّد نقدر نحقِّقها.. ونكبَّر بها، ونعوَّض اللي ضاع.. بس ننفِّذها مش وأنت كبير.. تكون أنت زي ما أنت طول عمرك.. محامي العيلة وموظَّف عندها.. آخر كل شهر تـ. تأخذ عرقك مع الشكر.. أنا عن نفسي موافق على وضعك الجديد، تبقى (ولبث مفكرًا لحظات).. مُـ. مُنـ. مُنَسِّق؟

مُنَسِّق، تنسِّق تجارتنا، وتبقي مدير أعمالنا.

وعمَّ الحاضرين بالحديث، وقد غادر السواد وجهه بالتدريج:

- إيه رأيكم يا إخوانّ؟ يُهَيَّأ لي.. المشكلة كده انحلِّت؟ طبعًا الموضوع يحتاج نقاش طويل.. نعمله بيننا وبين بعضنا.. في وقت تاني.. أظن كلنا تعبنا.. والساعة دلوقت تيجي..

ونظر في ساعته، فاتَّسعت عيناه، وقال متصنِّعًا الدهشة:

- يا ستَّار! الساعة عدِّت ١٢ إحنا تأخرنا جدًّا.. بينا يا جدعان.. بيوتنا أولى بينا.

وبدأ يدفع عجلتي مقعده بعيدًا عن مائدة الاجتماع وفي نيَّته المغادرة، وتلقَّى مكادي النيَّة وتفاعل معها فورًا ومن خلفه رجاله، بينما يهتف الشهاوي وكأنه نسي أمرًا:

- آه.. لم عزالك يا حاج مرزوق.. علشان.. عايزك في كلمتين بره.

وبهذا ضمن أن ينهض واحدٌ آخر، وقد تَمَلْمَلَ مرزوق في مجلسه لحظات ثم بدأ ينهض متثاقلًا. ولأن الجبال من الحصى، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فقد انتقل تأثير المبادرة كتيار كهربي إلى الحضور.

تبادل البدري ومكاوي نظراتٌ حَيْرَانَة، ثم تأهَّبت الجموع للمغادرة بعد ذلك الانقلاب الغير متوقع أو المنطقي، والذي أتى كما رأوه كمعجزةٍ من السماء. لم يتحرَّك العدوي، مع استطاعته منعهم وإرهابهم لو أراد. تجسَّمت الصورة أمامه كأجَلِّ ما يكون الفشل، ولم يكن ينوي التدخُّل إن لم يتدخل حسين، ثم إنه عزم، لو أنهم غادروا بالفعل وخلت الغرفة، أن يقطع علاقته بموكله نهائيًّا، ويدل الآخرين على مكمن الهيرُوين المخزون، ويطوي هذه الصفحة من حياته للأبد، وبطبيعة الحال بدأت تخالجه مشاعر بالإحباط والندم والغيظ.

أما حسين فلم يبرح مقعده. كانت فرصته تخبو أمامه رويدًا رويدًا، كشعلة شمعة ذابلة تراقصها ريحٌ عاتية. رآهم يبتعدون شيئًا فشيئًا، ويشيِّعونه بين لحظةٍ وأخرى بنظرات ازدراء وتشفٍّ. شعر مع ابتعادهم أن الدنيا كلها تبتعد وتخلو من حوله. لم يعد يجلس على المائدة ويقف حولها إلا البدري ورجاله، الذين تعلقت أبصارهم بالهجرة الجماعية، وتمنوا لو يلحقوا بها لولا استمرار كبيرهم في الجلوس. تحرَّكت يدا البدري بتوترٍ شفَّ عن رغبة ملحة في القيام، لولا بقايا صبرٍ وتروٍّ.

تجمَّعوا حول الباب، وانشغلوا لحظات في محاولة الخروج دون جدوى. حاولوا فتح المزلاج مرارًا بالوسائل السِلمِيَة، ثم دبَّ القلق في الصفوف وشرع بعض الرجال في هزِّ المقبض هزَّات شديدة. حاول أحد الأشداء الانفراد بالباب وعلاج القفل بالشدة، فلم يفلح، وفي النهاية، بعد التصايح والتجمهر، التفتوا.. التفتوا بتوجُّس إلى مائدة الاجتماع، حيث جلس حسين مطرقًا برأسه، وباسطًا كفيه أمامه. ثم رفع عينيه بابتسامة متشفية شريرة، وقال بصوت خافت رنا إلى آذانهم كفحيح الأفاعي:

- الباب مصوجر! محدِّش هيخرج.

ثم نهض نهوضًا بطيئًا، تمثَّل أمام أعينهم شيطانيًّا عاتيًا، ومدَّ يده اليمنى جانبه، فوضع فيها النونو سنجته ضخمة. قبض حسين على مقبض السنجة الخشبي بشدةٍ وبأس، ثم أدارها في الهواء دورةً، وطعن بها سطح الطاولة بكل ما أوتي من قوَّة، فسمعوا لاختراق النصل العريض للنسيج الخشبي المتماسك دويًّا مُفزعًا.

ساد صمتٌ تام والكل يتابع هذا التطور الجديد، ونقلوا أبصارهم بين حسين والسنجة مذهولين. بدا لهم النصل القائم بطرفه في الخشب كعباءةٍ إبليسيَّة حطَّت عليهم. مرزوق ومكاوي بالذات تبخرت آمالهما في تجاوز الأزمة. أما الشهاوي، فقد تخبَّطت مشاعره بين الذهول والغضب الأعمى، وانعدام القدرة على أخذ قرار سريع وصائب، وعجز تام عن النطق. جثم عليه شعورٌ قاهرٌ بالغدر وبالابتزاز. لقد قبل على مضض ابتزاز العدوي، لأنه اقتصر على الكلام، والكلام في النهاية ليس إلا ترددات صوتية تنتقل في الفراغ وتتلاشي فلا تُلزم بشيء، ثم إن العدوي هو العدوي.. داهيةٌ خليق بابتزازهم وإذلالهم وسوْمِهم الْخَسْف، أما الآخر فمختلف.. هذا الدخيل المتطفِّل. هذا المُخنَّث مُستقبح الذكر سيءُ السيرة، ربيب العاهرات وتربية الزواني! إنها مهزلة! مصيبة! إنه نوع من الابتزاز يجب التعامل معه بقدر من الحذر، كي لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه.

أفلت حسين المقبض، فاستوت السنجة على ساقها عموديًّا على مسطح الطاولة، ثم قال مشيرًا بكفه إليها، كأنه يقدِّم فردًا جديدًا انضم قسرًا للاجتماع:

- ده سيف المعز!

كان تأثير كلمته سيئًا وسريعًا، حيث استنلوا، كلهم تقريبًا، سلاحهم ما بين مدافع آلية

ونصف آلية، وصوَّبوها في آن واحد لحسين، فرفع البدو أسلحتهم الآلية، ووَجَّهوها طبقًا لخطة تَزامُن سريعة لإطلاق النار تهدف لإسقاط أكبر عددٍ ممكن من الخصوم في آن واحد. طفت العدوانية على الوجوه، وهدَّد التوتُّر الكل بالموت الوشيك. ولكن ما وشت به ملامح حسين كان عدم الاكتراث. راقب العدوي الموقف من وجهة نظر جديدة، فيما يقول حسين بلهجة مخيفة:

- أنا ما عنديش غيركم.

ولا شك أن شعورًا فوَّارًا بالقوَّة سرى في عروق حسين لحظتها إذ يتابع بضغينة:

- حياتكم في كفَّة، وميراثي في الكفَّة الثانية.. سلاحكم ورجالكم لا وزن لهم في وضعنا الحالي.. (وأشار لأحد البدو) الناس دي قلبها ميت، لا تعرف تخاف، ولا تعرف ربنا.. كل واحد منهم مُكَلَّف بواحد منكم، والحاج الشهاوي بالذات له نصيب الفخذة، لأنه من اختصاص النونو.. النهارده يا جماعة إما الموضوع يُحسَم، أو كلكم حتموتوا هنا، في الأوضة دي.

تطلَّع العدوي لموكله بنظرة جديدة، وأحَسَّ مرَّة أخرى أن ثَمَّة تغيُّر غامض وقاصم أصاب الشاب. إنه ينظر إليه الآن ولا يكاد يعرفه. يشعر بغشاوة وعكارة تحيط به في كل حركة، ولا يرى في عينيه حب السلطة ولا النزوع إلى الثراء والسيطرة.. بل فقط السواد.. والموت.

نظر حسين في الوجوه الواجمة، وقال بقسوة:

- العيلة دي كلها، ما تتبرمش على صباعي بمليم.. زي ما الحاج بدري تفضَّل (مشيرًا للبدري الجالس مكبوسًا في مقعده) وقال قبل كده: أنا أعتبركم صراصير، أدهسكم، وأحك مداسي في الأسفلت علشان أزيح الوساخة.. اثبتوا لي إني غلطان، وإنكم على مستوى المسؤولية، وإنكم ممكن تكونوا بطانتي، ورجالي.

ووَجَّه حديثه للشهاوي، قائلًا بعداوةٍ وكُرْه:

- أنت كنت عايز الكبير يتكلِّم، وآديه تكلَّم، وبيقول لك: الموت عنَّك مش بعيد.

اسودَّ وجه الشهاوي وتقبَّضت بطنه إزاء هذا التهديد الصريح، وأَحَسَّ بعمق البلوى التي سقط فيها. لقد قامر بأكثر مما يحتمل الموقف. ثم فتح حسين سِتْرَتَه السوداء

الأنيقة، مُبَيِّنًا مقبض سلاحه، وقال:

- الخيار لكم، نفكّر بالعقل، كلنا نكسب، أو السلاح يطول على الكل (ثم أشار بكفه) لو سمحتم الكل يرجع مكانه.

تساءل مكاوي بقلقٍ شديد:

- أنت عايز إيه بالضبط يا حسين؟

سأله حسين بكآبة:

- لسه بتسأل، أنا عايز إيه؟ (ثم تنهّد بنقمة) أنا عايز أخرجكم من الضيق للسِعَة ("من ضيق الدنيا لسِعَةِ الجحيم وظلمته." قالها بقلبه ولم ينطقها بلسانه).. علشان نقوم تاني، لازم نرجع جماعة، وأي جماعة لازم يكون لها قيادة.. وفي وضعنا الحالي، القيادة مش مجرَّد ضرورة أخلاقية، لكنَّها ضرورة لحياتنا ذاتها.

وتلفَّت حوله، ثم قال مستاءً:

- أنا ما أعرفش أتكلم والناس واقفة، ده شيء يشتِّت التركيز، ويشجع على الفوضى.

ثم صفَّق بكفيه، وقال مشجعًا:

- من فضلكم، كل حيّ يرجع مكانه.

ثبتوا في مواقعهم بضع لحظات، ثم تحرَّك مرزوق ومكاوي متثاقلين صوب مائدة الاجتماع، وكأنهما منقادان لحبل المشنقة، ومعهما تحرَّك رجالهما. استقروا في أماكنهم، ولم يبق عند الباب إلا الشهاوي وحاشيته الذين تزاحموا في منتهى الغرفة، كمن يحتمي من شرٍ متطاير، ولم يبد في نية الشهاوي أن يتحرَّك بمقعده ذي العجل بأية حال. ثم قال حسين بصبر وتركيز:

- أنتم كنتم تحت الحاج عبيد.. كنتم ساكنين تحت الطين، دلوقت، عايشين في سرايات.. كنتم إيه؟ حشرات، حرافيش، جعيدية، مكارية، كلافين، أنفار، ما تعرفوش غير الفأس وعُلق الشادوف، بعد دا كله اتمرعتم، ونسيتم الفضل.. (وضيَّق حدقتيه بحقد) أنا بطبعي، أحب آخذ حقي بذراعي، كل حركة وكل موقف يفضل زي وخز الإبرة مهما يكون هيِّن.. يفضل مخزون في القلب (مشيرًا بإبهامه لموضع القلب من صدره) حول

الأوعية الدموية يتجمَّع الصدأ والسناج، لحد لما تضيق ويرتفع ضغط الدم، ويحصل الانفجار.

وكشأن محاميه فعل، اتخذ بين الفقرة وأختها فاصلًا دراميًا لم يتعد الثواني الثلاثة، ثم قال بترفُّع:

- أنا مش جاي أدوَّر على المريسة، ومش محتاجكم تسبَّحوا بحمدى.. لا تسبَّحوا، ولا تقبَّحوا! لأني حينوبني إيه من ده كله؟ الفلوس؟ أنا معايا فلوس تحيَّر الكافر.. الرئاسة؟ كلها وجع قلب.. الموضوع كله نزاهة.. أنا يصعب عليَّ أشوفكم على ده الحال وأقف، لأنكم أهلي.

وصمت مجددًا، ثم قال باحتقار:

- وربنا خلق البني آدمين صنفين: صنف يشتغل عند الناس، وصنف يشغَّل الناس.. أنتم من الصنف الأول، محتاجين للتوجيه والقيادة والتنظيم، ولازم تتعمل لكم تَرْبَيَة كاملة.

ثم قال بتحكُّم، وتمكُّن، وسيطرة:

إحنا جايين هنا وواضعين لأنفسنا خطة عمل وقواعد نلتزم بها.. القواعد دي حتحدد إطار العلاقة بيني وبينكم.. إحنا حنمارس مهامنا من خلال جماعية التنظيم، لكن الأمر في النهاية يعود ليَّ لبلورة ما تتفق عليه العائلة من أفكاروقرارات وسياسيات.. (وضغط على كلماته) حتخضعوا لسلطة تعاقب عند التقصير، وعند سوء الإدارة، وعند التفريط.

عاود التفاؤل العدوي، بعد أن ظل يسأل نفسه طوال الفترة التي قضاها الشاب سلبيًا صامتًا: هل أخطأ في الاعتماد على حسين؟ كيف تحوَّلت شخصيته العدوانية المتعالية، إلى الأخرى المذعورة التي أخفت نواقصها بقناعٍ زائف من عدم الاكتراث والصمت؟ اندهش، وتساءل: أين حسين الذي يعرفه، وكيف طاش حكمه عليه إلى هذا الحد؟ كان يظن أنه شخصٌ مغرور، متطيِّر، لا يتورَّع عن إتيان أي فعل ما دام يأمن عواقبه. وهو في ذات الوقت مهزوز، لا يثق في نفسه، ويولي من يظنُّهم أهل الرأي ثقةً تبلغ حد الغباء، ويقبل الانقياد عن طيب خاطر ما دام يطمئن أنه في موضع القيادة. تلك

هي الصفات المثالية التي اختارها العدوي لمشروعه الكبير، الذي أعد له منذ سنين، للسيطرة على عائلة قِوَامها كبارٌ لا يتحركون إلا لو غُمِطوا وسُفِهت أحلامُهم. نعم، في لحظةٍ بلغ منه اليأس مبلغًا جعله يعيد حساباته من جديد، لكن كما يُغاث صاحب اللهاث بالماء في جوفه من حر العطش، كانت تأثير كلمات حسين على العدوي، لمَّا رآه يتحدث إليهم مستصغِرًا ومحتقِرًا.

رأى المحامي تأثير الصحوة على الطرفين: حسين اشتدَّ وتورَّد، ودبَّت في أواصره الحياة من جديد. استعاد في هذه الدقائق «حسين الجارحي» القديم، الذي نشأ على عقيدةٍ عسكريةٍ سَلَّطَته سيفًا على رقاب الناس، ونصبته رقيبًا مُهيْمنًا على افعالهم، فنزعت نفسه إلى التطرُّف، ومالت جوارحه لردود الأفعال الانتقامية البحتة. أما كبار الجارحية، فتراخوا وتهدَّلوا في مقاعدهم، وعلت وجوههم علامات الإحباط والتأفُّف. لهذا ما أن أشار حسين إليه، حتى نشط وأقبل عليهم مسرورًا، وعَزَم ألا يترك المكان إلا وقد انتزع منهم تعهدًا لفظيًّا بالموافقة.

بهذه الروح الفتيَّة، استلم العدوي الراية من مُوَكِلِه، وقال بثبات:

دي بداية جديدة، وكل بداية لازم لها قواعد حازمة وقوية، تضمن النظام والانضباط.. المطلوب منكم في المرحلة الحالية إنكم تتركوا لنا أنفسكم تمامًا.. اليوم نتفق، وكل واحد منكم يرجع بيته ينام، ويطمئن إن اللي جاي مؤكَّد أفضل.

نظروا إليه كالغرقى، وكان الإرهاق والحر قد نالا منهم، وبدأت بذور التسليم للقدر المحتوم تؤتي ثمارها. ثم قال حسين بهدوء:

- أعتقد أن ما فيش حاجة نقدر نسمعها، إلا أننا نقرأ الفاتحة!

غلب عليهم البؤس، حتى الشهاوي بدا بائسًا محطمًا، وإن لم يكن في نيَّته الموافقة على أي شيء أيًا كان -على الرَّغمِ من تأزُّم الموقف- إذ إن الأمل في الفرج لم ينعدم بالكلية، لكنه بات باهتًا وبعيدًا، والتمسُّك به في حد ذاته كالسباحة عكس الطوفان. أعجزته حالته الصحيَّة المتردية عن التدخُّل، ووَسْوَسَت له غريزة البقاء بالنزوح لبر الأمان، أو الفرار. ثم رفع مرزوق كفه كالتلميذ قائلًا:

- أنا خرمان ومش عارف أفكر.. ممكن أدخن؟!

نظر إليه حسين بدهش، ثم هَزَّ رأسه موافقًا. أشعل مرزوق سيجارته بأصابع مرتعشة، ثم أخذ منها نفسًا شَبِقًا، ونَخَّه غزيرًا، فتاقت إليه خياشيم كل المدخنين بالغرفة دون استثناء. لسببٍ ما كان هذا الامتياز محصورًا على مرزوق دون غيره، فلم يحاول مجاراته أحد. ولما ارتوى من النيكوتين وانتظمت أفكاره، تساءل بتوجُّس:

- طيِّب والبضاعة؟

لم يجبه أحد، فقال مرزوق مسارعًا، كي لا يُفهم موقفه خطأً:

- حقنا نعرف رأسنا من رجلينا.. ولا إيه؟

لم يرد أحد، فكرَّر آيسًا:

- ولا إيه؟

خذلوه فلم يرفع أحدهم حسَّه بحرف، إذ عزموا جماعة، وعلى غير اتفاق، على تركه يواجه مَغَبَّة سؤاله وحده. توقَّعوا إجابة غامضة أو ساخطة من العدوي أو حسين، بأن هذا الموضوع قد سبقت الإشارة إليه مرارًا، وأن إثارته مُجدَّدًا مرفوضة، بَيْدَ أن حسين أجاب باستقرار:

- البضاعة مجرَّد ضمان أمان، وهترجع لكم خالصة مخلَّصة.. أنا رجل ما أحبش الحاجة سنكحة ولا حرام، أحبها نظيفة على كبُوتها!

- لكن يا حسين، أنا سامع كده كلام، أنكم ناويين تـ.

قاطعه حسين، وهو يرمقه بنظرة نارية:

- مشكلتك يا مرزوق أنك تموت في النخّ والولولة.. أنا قلت اطمئن على البضاعة.. هو عمر القط أكل عياله؟!

قال مرزوق بغير رغبة ولا اقتناع:

- ربنا يستر.

طوَّف حسين بصره في الجمع، متجاهلًا الشهاوي عن عمد، ثم تساءل ببطء: "نقرأ الفاتحة؟"، فقال البدري بسرعة مُحرِّضًا، خشية أن يدور نقاش آخر: "نقرأ الفاتحة." رفع حسين كفَّيه، ثم رفع البدري كفَّيه، ومن بعده رفعوا أكفَّهم الواحد تلو الآخر،

وكادوا أن يبدأوا في تلاوة سرّية، لولا أن تذكّر حسين شيئًا، ففك كفيه وقال:

- ملحوظة أحب أقولها.. حيث إن المرسة لها أصول، يبقي من هنا ورايح ما أسمعش حد منكم يناديني باسمي حاف! يعني مثلًا تقولوا لي: الباشا.. أو الكبير.. أنا حاسيب لكم حرية الاختيار، ومش حالزمكم بلفظ معين.

وأطرق مفكرًا للحظات، ثم قال وقد توصَّل لحلٍ وسط في رأيه:

- أقول لكم.. قولوا لي يا حاج حسين! إيه رأيكم؟

حدّقوا فيه مندهشين، وجالت في عقولهم خواطر أفصح عنها الشهاوي بجلاء، متسائلًا بصوت بائس منكتم، كأنه خرج من تحت وسادة قطنية:

- وهو أنت.. كنت حجّيت؟

سلّط عليه حسين بصره، وقال باسمًا:

- وهي دي تفرق برضه؟ (ونقل حديثه إلى الحضور) السنة دي أكون حاجّج، لأجل ما أكون اسم على مسمى!

ثم قال آمرًا:

- نقرأ الفاتحة.

استغرق الجلوس في التلاوة بأصوات هَسْهَسَة وتأتأة. وحده الشهاوي أطرق مغتاظًا لا يدري ما يفعل، وشعر بضغط دمه يرتفع، وبأنه سيخر ميتًا عمّا قليل. أما ابنه مكادي فقد تطلّع إلى ما يحدث أمامه بذهول، وأراد أن يتدخَّل بأي شكل لفض هذه المهزلة، وما ردّه عن هذا إلا توقير أبيه، وعدم استيعابه معطيات الموقف بالتحديد، ومخافة انحدار الأمور إلى ما قد يخفي عليه استقراؤه.. ثم إن أبيه، وهو من هو، كفَّ لسانه فلم ينطق، فما عساه أن يفعل من بعد سكون الكبير؟ لكنه خاف على أبيه فعلًا، خاصة وقد رأى انتفاخ وجهه وارتعاش يديه، ولو علم كم الكبت والغليان اللذين يثوران في دماغه لأجبره على المغادرة، ولو بالقوّة. كانت الأفكار تدور في رأس الشهاوي وتكاد تشفطه من الواقع، فيتمنّى لو يترك نفسه لجوامحها، فينقض على حسين ويقبض على عنقه فلا يتركه إلا جثة هامدة، ثم إلى العدوي فيبقر بطنه، لأنه أُس البلاء الحقيقي، فلولاه ما

تجرأ عليهم حسين، هذا السفيه الأحمق. ثم حادت مشاعره جميعها إلى كراهية أصيلة وسخط على الحاج جوهر أصل البلايا، فهو من مات على حين غرة، وهو من مكَّن العدوي من أعناقهم، ثم ترك لهم هذا الحفيد الوقح الغرير ليصول ويجول فيهم دون مصد. لكن ما عساه أن يفعل، سوى أن يسكت، ويسكت، ثم أن يسكت؟!

أما حسين فكان في معزلٍ عنهم. حتى فاتحة الكتاب ما استطاع قراءتها، بل اكتفى برفع كفَّيه والغَمْغَمَة بتركيباتٍ لفظية مبهمة، وشغل نفسه بالفرجة عليهم وهم يقرأون، واستسلم لسُكْرة الهيمنة. كانت تلك من لحظات الظفر في حياته. بل ارتياحًا غامرًا، إحساسًا طاغيًا بالسطوة والثقة. حتى إعراض الشهاوي عن القراءة لم يكدِّر عليه صفو نجاحه، لأن سكوته في حد ذاته نجاح. نجاح؟! يا له من نجاحٍ بائسٍ باهظ الثمن، خسر في سبيله كل شيء، وسيتحمَّل من بعده أعباءً ستستنزف ما بقي فيه من شيء. جَشَأت دماغه بالأفكار السود، وأعصابه بلهفة الوثوب على الأمر كله، وعضلاته بانقباضات الشَهْوَة العَنِيفَة لسفك الدم، ونفسه بأهوال العار والهوان والانتقام. إنه ينظر إلى رجالٍ ميِّتين عما قريب. مجرَّد جثث بالية، ورُمم مستقذرة ما زالت تدب فيها الروح. جال هذا في خاطره وأكثر، خلال الثواني القليلة التي كادوا يتمُّون فيها آيات السورة، حتى سَمِع تلك الطرقات. ثلاث طرقات منتظمة، بدَّدت أطباق الصمت، واقتحمت على حسين خواطره المحمومة. لم يكن له أن يأذن بالدخول، لكن الله إن أراد إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوي العقول عقولهم. أتى رد فعله غريزيًّا، إذ هو يهتف محتدًا وقد اكفهر وجهه: "ادخل.

توجَّس العدوي خيفةً لسبب مبهم، وتطلَّع مُترَبِّصًا للباب، وسمع صوت القفل يُفتَحُ من الخارج، ولسان المزلاج ينسحب. ثم لاح القادم الجديد للناظرين. دخل بخطواتٍ واثقة، يتبعه اثنان من رجاله.

هو شابٌ بهيُّ الطلعة، طويل القامة، رياضي القوام، في منتصف الثلاثينات، له وجه طويل، وشعر أكرت ذهبي كثيف، وأنف مدبَّب معقوف، أدناه شارب شرقاوي رفيع مُشَذَّبٌ بعناية. أصابعه ناعمة نحيفة. وحاجباه مُزججَّان، وعيناه خضراوتان مكتحلتان. ارتدى بَذلَةً ثمينةً بلون السومو الفاتح، وقميصًا أبيض لامعًا، وربطة عنق محكمة معقودة على شكل «عنق الكتكوت». كادت هيئته أن تُنَزِّه عن العيوب، وأن

تتزيَّن بصفات الكمال وحسن القوام، لولا الانتفاخين الداكنين تحت عينيه نتيجة السهر المستديم، والمداومة على معاقرة الكحوليات.

تقدَّم خطوتين، وقال مبتسمًا بكياسة: "مساء الخير.

* * *

قال الحاج جوهر: "ابن الزانية يطلع يا قوَّاس يا مكَّاس، بس إحنا ما نفرَّطش في لحمنا أبدًا!"

هذا هو عاصم عبد الهادي، الابن الوحيد لعبد الهادي منصور الجارحي، من إخوان الحاج جوهر غير الأشقاء. أحبَّ الحاج جوهر أخاه عبد الهادي وقرَّبه، وهو من القلائل في العائلة الذين تلقُّوا قسطًا من التعليم العالي. تمكَّن خلال سنوات الدراسة من الإنفاق على نفسه حتى أتم مراحله التعليمية، ونال درجة البكالوريوس في الهندسة المدنية. التحق بالعمل في إحدى شركات المقاولات الحكومية الكبرى، وتقلَّد عدة مناصب إدارية، ما أكسبه خبرة واسعة في إدارة الأعمال في مختلف المشروعات الإنشائية ومشروعات التكليف الإجباري. وبعد خمس عشرة سنة، أنشأ مكتبه الخاص، وتزامن هذا مع انضمامه لأنشطة عائلة الجارحي المنافية للقانون، ولم تمض التسع سنوات حتى تحوَّل المكتب إلى واحدة من كبرى شركات المقاولات العاملة في مصر، ودخلت كإدارة مستقلة ضمن مجموعة الجارحي الاستثمارية، تحت اسم «العصرية للمقاولات«، ثم دخل عبد الهادي القطاع الصناعي بقوَّة، وتفرَّغ لتأسيس مُجَمَّع صناعيّ ضخم بمدينة العاشر من رمضان، حمل اسم «مجموعة عبد الهادي الصناعية»، التي تَخَصَّصَت في صناعات الأغذية والبلاستيك، ونمت لتستحوذ على نصيب لا يُستهان به من السوق، بمساعدة أرباح المخدرات الهائلة.

حاول الإنجاب مرارًا دون جدوى، حتى يأس وأيقن انقطاع نسبه، فطلَّق زوجته، وصب جُل همِّه على التنعُّم بالحياة الدنيا، مؤمنًا أنها ليست إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وهلاك يحدثه جريان الدهر. وكان مُختلفًا عن سائر إخوانه وأبناء عمومته ممن يسفُّون في طلب الدنايا، فكان رفيع المقام حسن الذوق. ثم إنه لم يتبذَّل، بل أسرف في الزنا حتى عُرف عليه التهتُّك. ثم لم يلبث أن همَّ السقم بدنه، فاسودَّت نظرته للحياة، واقتصرت

رحلاته على النمسا يقصدها في الشتاء والصيف شهرين، يستقر خلالهما في فندق «البيت الكبير» المطل على سفوح الجبال البيضاء في بلدة كيرتشبرج. لا يفعل شيئًا سوى المُكوث في شرفة غرفته مستدفئًا بالشمس، أو في البار محتسيًا المُسْكِرات، وكان قد بلغ الخامسة والستين. تَوَطَّدَت أواصر الصداقة بينه وبين ساقيةٍ شقراء اسمها سيبل هيلم، ثم أصيب بوعكة صحية شديدة (وكان يعاني من السُكَّر وتليُّف الكبد)، ولبثت هي جواره طول مدة الأزمة، فعرض عليها الشيخ الثري الزواج. قبلت الشابة فورًا، وقدَّرت أنها ستضطر لخدمته سنتين على أقصى تقدير، ثم يذهب كلٌ منهما لحال سبيله: هو إلى القبر، وهي إلى البنك. اعتنقت الإسلام رسميًّا وغيَّرت اسمها لـ«حبيبة» كي تضمن حقها في الميراث كاملًا، وكانت، في ذاك الوقت في العشرين من عمرها.

فوجئت العائلة بزيجة أخيهم من صبيَّة أعجمية لا يُعرف لها أصل، واعتبروها جُرْسة ما بعدها جُرْسة. حاول الحاج جوهر بشتى السبل إقناع أخيه بتطليق زوجته، لكن حبيبة أعلنت أنها حامل من زوجها، وكان للخبر وقع صاعق على الطرفين، فعبد الهادي أَحَسَّ أن ما تحقق هو معجزة، والحاج جوهر كاد يجن، لأن أخاه عقيم لا أمل يُرجى من شفائه.. العلم أكَّد هذا. حاول الحاج إفاقة أخيه، وصارحه بأن زوجته بغي وأن حملها سِفَاح، وما زادهما هذا إلا بعدًا وتنافرًا. ثم وُلد الطفل، وكان ذكرًا جميلًا، ملامحه أوروبية بيضاء، احتفل الزوجان بمقدمه كأنه فتحًا مبينًا، وسماه أبوه عاصم.

أَحَسَّ الحاج جوهر أنه أدَّى ما تفرضه عليه صلة القرابة، وعزم على أن يُجهز على الرجل تمامًا، جزاءًا له على انطماس بصيرته، وسفاهة عقله، وخروجه عن الجمع. وعلى الجانب الآخر نجحت حبيبة في إقناع عبد الهادي بضمان مستقبل ابنه الوحيد، فخصَّص نصف أملاكه لها بيعًا وشراءًا، والنصف الآخر لطفلها وتحت وصايتها إلى أن يبلغ سن الرشد، وفي يوم لاحق وصلته عريضة الدعوى بالحَجْر من قِبَل الحاج جوهر لما أبداه من "سفه واختلال في الذاكرة، وضعف في الحكم على الأشياء، والتصرُّفات الشاذة، والطعن في قواه العقلية عامة"، وقاد الدعوى أمام ساحات القضاء سيِّد العدوي المحامي. وبعد عام، وبسبب الضغوط الشديدة، من قبل العائلة من جهة وقد طعنوا عليه كافة، ومن قبل الزوجة من جهة أخرى، أصيب عبد الهادي بجلطة في المخ، إِسْتُتْبِعَت بنزيفٍ أغرق الفص الأيمن بالدم، انتهى إلى حالة شلل عام.

نقلته زوجته فور إصابته بالفالج لمَصَحَّة بالنمسا، وتفرَّغت لصراعاتها القانونية مع الحاج جوهر وإخوانه، ونجحت في تصفية قسم لا يستهان به من الأراضي والممتلكات، والأهم: الاستحواذ على «مجموعة عبد الهادي الصناعية»، وتلك كانت هزيمة قارعة للحاج الكبير. وبعد شهرٍ واحد مات عبد الهادي غمًّا دون أن يعلم به أحد، إلا سيّد العدوي، الذي عاين شهادة الوفاة مصادفةً في واحدة من جلسات المحكمة. وما حيَّر الكل، هو صبر الحاج جوهر على حبال المحاكم الطويلة، خاصةً بعد ضياع المجموعة الصناعية من أيديهم -وتلك كانت خسارة فادحة- لأنه يستطيع أن ينهي وجود حبيبة وابنها من على وجه الأرض لو أراد، والأرجح أنه كف يده عنها إكرامًا لأخيه الذي مات وحيدًا في أرض كفر، إذ ربما -والله أعلم- يكون هذا المخلوق ابنه فعلًا.

في كنف أمِّه نشأ عاصم عبد الهادي، فنَبَت مرَّ الزهر مجهول الخصال. جمعت بينه وبين حَسَن الجارجي صداقة متينة، ونالا بكالوريوس الهندسة المدنية في الجامعة الأمريكية سويًا، وحصلا فيما بعد على درجة الماجيستير في إدارة الأعمال، وبجانب إدارته لمجموعة أبيه الصناعية مع أمه، دخل عاصم كشريك في «العصريَّة للمقاولات» دون علم الحاج. ثم علم الحاج في ما بعد، ولم يعلِّق بالسلب أو الإيجاب، فاعتبر حَسَن رد فعله هذا بمثابة موافقة «مُتحفِّظة» على وجوده في أوساط العائلة، وقلَّده منصبًا إداريًا كبيرًا في الشركة.

تابعه الحاج من طرفٍ خفي، وفكَّر أن انضمامه لتنظيم العائلة الإجرامي قد يكون ذا فائدة. وأحَسَّ حَسَن برغبة الحاج الخفيَّة، فسعى في مسألة عودة عاصم للعائلة، وهذا وإن صادف هوىً في نفس الكبير، فإن نَسَبَهُ الملوَّث بالشوائب والشكوك، ودينه المغموز فيه، والماضي العدائي لأبويه يكفونه للرفض. لكن حَسَن أصر في شفاعته حتى لان الحاج، وامتثل على مضضٍ ظاهر وارتياح باطني، لأنه كان قد تصفَّح أحوال أنسابه، فلم يجد منهم من هو مثل عاصم في طموحه وكفاءته. بشرط: ألا يكون لأمه شأن بأي أمر كان من أمور العائلة، ويستحسن، من باب الاحتياط، أن يقطع علاقته بها. قبل عاصم الشرط دون تردُّد، ثم قتلت أمه فيما بعد، وهي ما تزال في السادسة والأربعين، في حادث سيارة مروِّع بالقاهرة.

أما عاصم فتمكَّن مما سُلب من ممتلكات أبيه، وتَوَطَّدَت علاقته بالحاج، وحافظ في

الوقت نفسه على حجابٍ صفيق بينه وبين باقي الجارحية، معتبرًا أنه متى خالطهم صار مُتَّهَمًا، فلم يحضر اجتماعًا، أو يشاورهم في أمر، ولم يرونه إلا مرتين أو ثلاثًا لظروفٍ خرجت عن إرادته. وعندما توفِّي الحاج الكبير، كان عاصم الوحيد الذي لم ينله من الأذى شيءٌ يذكر، سواء في تجارته واستثماراته القانونية، أو أنشطته المنافية للقانون.

* * *

عندما دخل الغرفة تفاوتت مشاعر الحاضرين. العدوي زفر زفرة من دخلت عليه المصيبة، والشهاوي اشرَأَبَّ إليه، وانفكت كلاحة وجهه، وعلم أن الحدث الجديد -الذي طال انتظاره- قد يعيد الأمور إلى نصابها الأمثل. مكَّاوي ومرزوق والبدري تشتَّتوا هم ورجالهم بين انفعالاتٍ شتى، وعزموا على التزام الحياد السلبي انتظارًا لما قد تسفر عنه الأمور.

أما حسين، ففوجئ بما لم يضعه في الحسبان، وانهارت ثقته بنفسه فجأة. فَقَدَ الانسجام الطارئ بين ذاته وأسلحته، وتبخَّرت أحلامه وأوهامه جميعًا في لحظة واحدة. حتى في لحظات خوفه وإحجامه، كان يفكِّر في أن تباطؤه عن المواجهة لا يرجع إلا لاستعلاءٍ في نفسه، وعفاف عن مخالطة ومخاطبة هؤلاء الغوغاء. ولكن بدخول عاصم اختلف الموقف، لأن هذا الخصم الجديد يحوز النِّدِّيَّة، إن لم يكن التفوُّق. تتابعت ردود أفعال حسين كالكلب إذا فوجئ بمنافسٍ عدواني يطأ ساحة يعتبرها ساحته، ومن ثم أصبح لزامًا عليه أن يخوض صراع سيادة. كشَّر وزام، وتنفَّس بصوتٍ مسموع، وعاودته آلام صدره، وآمن بحتمية خوض قتال حتى الموت مع هذا المفترس الجديد. لا بد أن يثبت أنه الأقوى، والأشد عدوانية. لكن كيف يفعل ذلك؟!

تبسَّم عاصم في وجوه الجميع، وجلس على مقعدٍ هيَّأه له أحد رجليه، اكتسب فيه بين الأراذل بؤرة جاذبة وموقع صدارة. كان طوله البيِّن وبياض بشرته وشُقْرته مما يميِّز هيئته في القطر المصري كله، فكيف حاله إذن في غرفةٍ ضيِّقة تغصُّ بأقبح مخلوقاتٍ دبَّت على وجه الأرض؟! كانت عيناه شفافتين عميقتين، ككرتين من فيروز، دار بهما بين الجلوس، ثم اختار العدوي كهدفٍ أول، فسأله:

- إزي حالك يا سيِّد؟

- بخير يا عاصم بك.

تساءل عاصم مرةً أخرى هازئًا:

- أنت بتعمل إيه هنا يا سيّد؟ أنا طول عمري أقدّرك، وأحترمك.. مؤمن إنك نموذج للشخص الناجح، علشان كده دائمًا كنت أستغرب: ليه تحشر نفسك وسط العالم دي؟ وإن كان فيه مبرّر زمان، دلوقت إيه المبرّر؟ بعد لما جوهر مات، إيه اللي يجبرك على التواجد وسط العصابة دي، من الفشلة والمرتزقة والهلّيبة؟!

- أمر من اثنين: إما إنك مش على قدر من العقل، ورجاحة التفكير، اللي تؤهلك لمعرفة إن البعد عن الناس دي غنيمة.. لا أعتقد (وهَزَّ رأسه نافيًا).. أو إنك مبيِّت على نية، تزيح بها الكل، وتقعد في النهاية على تلها.. إيه رأيك، تختار إيه؟

- جوهر دائمًا كان يقول لي: "العدوي لو تمكّن، حيهدمها، ويقعد على تلّها" يا سيّد الموضوع لا يستحق.

- ده حال الدنيا يا بك.

لم يكن عاصم شرهًا في جلسته، أو متهافتًا ملقيًا بثقله على المائدة، بل جلس كما يقول المثل الفرنسي: "كأن هناك فأرًا في ظهره، وهرًا من أمامه"، مستريحًا دون استرخاء، مستقيمًا دون تشنُّج. ثم قال بتريُّث من يعرف سطوته:

- ما فيش حاجة تستأهل حرقة الدم.. ثم إنك عايز إيه بعد كل اللي حقَّقته في حياتك؟ أنت رجل قانوني محترم، وتواجدك الدائم مع أصحاب السوابق دول يجعلك محل شبهة.

- اسمع كلامي يا سيد، وخَرَّج نفسك منها.. أقسم لك إن حسين ده، هو اللي حيقضي عليك.

وعلى ذكر حسين، نقل اهتمامه إليه، وسأله:

- إزي حالك يا حسين؟

- إزيّك يا عاصم؟

- فترة طويلة ما شفناش بعض.. مش المفترض إننا أصحاب؟!

- مش فاكر إن عمرنا كنا أصحاب.

- على الأقل، أنا وحَسَن كنا أصحاب، وأكثر.. حَسَن، أخوك، فاكره؟

- أيوه، فاكره.

- حيث إنك عملت اتصالاتك، ونجحت إنك تجمع أعمامنا تحت سقف واحد، كان المفروض تديني خبر.. ولو بتليفون.

- أنا دائمًا أخرجك من حساباتي.

- ليه؟! هو أنا مش محسوب على العائلة؟!

تنقّلت أعين الحاضرين بينهما بالتتابع إذ يتصدى كلّ من الغريمين للآخر. كان حسين يتحدَّث وقد رُزح تحت ضغطٍ قاهر، بينما يتحدَّث عاصم بشيءٍ من عدم الاكتراث، أثار جوًّا عامًّا من الإحباط والتشوُّش. وعندما قال عاصم عبارته الأخيرة بهزأ، رَدَّ عليه حسين بغيظ:

- أيوه مش محسوب على العيلة.

- ليه كده يا حسين؟ تصدَّق أنا زعلت! أنا اسمي «عاصم عبد الهادي الجارحي". يعني لِيَّ زي ما لك، ويمكن أكثر.. أنا المفروض في حكم عمَّك.

- مش بالأسماء.. أنت صادف إنك انكتبت على اسمنا، مسألة روتينية بحتة، لكنك مش مننا.. الحاج دائمًا كان يقول: إنك بن زَنْيَة قِرْد! أنت بن زَنْيَة قِرْد يا عاصم!

- وإيه المشكلة؟ ما هو كان يقول عليك أنك بن زَنْيَة كلب! وهي ثابتة عليك أكثر ما ثابتة عليَّ! أنا جيت بعقد شرعي، مش شغل خدَّامين.

اخترقت الكلمة قلب حسين كحربةٍ من نار، فغلى منها دماغه كما يغلي الماء في الدورق، أما عاصم فأخذ نفسًا عميقًا عازمًا الدخول فيما يهمُّه. شبَّك أصابعه أمام وجهه قائلًا:

- اعذروني إن كنت قطعت عليكم حديث.. أنا مش جاي هنا علشان أشارك في فعاليات اجتماع ما أعرفش إيه هدفه.. والحقيقة، أنا مش فاهم إيه اللي بيحصل، وأعتقد أن كل اللي أنا شايفه غير منطقي.

- ده لأنك اقتحمت علينا جلستنا دون استئذان، أو دعوة.

قالها حسين بعدوانية، فردَّ عاصم بلامبالاة:

- مش دي النقطة.

لم يحاول العدوي المشاركة، ولم يكن ينوي ذلك، لأنه أيقن أن حبل الوصال مع العائلة قد انقطع بقدوم هذا الشخص، وما من سبيل لوَصْلِه، ولم يمنعه من المغادرة إلا بقيَّةٌ من حياء، كي لا يُقال بفراره وقت الغمة. رمى المحامي حسين بنظرة كاسدة هابطة، فبدا له كمن يَسْنِد بكتفه بنايةً تنهار، وهو يقول:

- اللي أنت شايفه إن الناس تجمَّعت، واتفقت على شيء.

قال عاصم مُسالما:

- المظاهر يمكن تكون خدَّاعة.. أنتم صحيح مجتمعين بأجسامكم، لكني أرى بوضوح أنكم غير متفقين بالمرة.

كانت انفعالاته تخرج عبر وسائط من الابتسامات متباينة المغزى، سواء للدهش، أو التهكم، أو التقرير. ولقد واصل حديثه قائلًا:

- النقطة المقصودة: إيه الهدف من الاجتماع؟ لكل شيء هدف، وسبب.. والسبب في وجودنا كلنا هنا، هو أنت يا حسين.. (ثم أشار إليه بسبابته، وتابع بيقين) أنت تحاول تأخذ ما تظنُّنا أخذناه منك، وإحنا نحاول استعادة ما نظنَّك أخذته منا.. علشان كده أنت هنا، وهم هنا، وأنا هنا.

زفر حسين، وقال:

- للأسف.

- نعم؟

- أنا بأسأل نفسي، إن كان انضمامك لنا إضافة حسنة، ولا سيئة.

- ده يحدِّده أمور كثيرة.

- زي؟

- الهدف من انضمامي.

- وهو؟

- نرجع ثاني، الهدف من الاجتماع.

- أنت عارف الهدف من الاجتماع.

- الأمور بالنسبة لي، على قدر من الالتباس.. وضَّح لي من فضلك.

- إحنا هنا علشان لم الشمل، والتوحُّد تحت قيادة واحدة، وبحث خطط المرحلة الـ..

- لا، لا.. دي وسيلة مش هدف.

قال حسين، كابتًا انفعاله:

- أنت تعرف الهدف.

- هل هو بالضرورة واحد؟

قال حسين، وقد بدأت انفعالاته تتسرَّب، وتأخذ طريقها للانفجار:

- مالك بتلف وتدور ليه؟

- هل غايتنا بالضرورة واحدة؟

- بمعنى؟

- المعنى واضح.

قال حسين محتدًا:

- مش فاهم.. أيوه غايتنا واحدة.. أنت عايز إيه؟!

قال عاصم مهدِّئًا من روعه:

- غلط، أنت إما تغالط نفسك، أو تكذب، أو مش مدرك أنت بتقول إيه.. أيهم تختار؟

- ولا واحد من خياراتك دي، شكرًا!

ثم أردف بتحدٍ:

- أنا ممكن أقدم لك خيارات ثانية.

رفع عاصم كفه رافضًا، وقال:

- شكرًا، أنا لا أحتاج خياراتك.. إحنا مش ممكن نتّفق في أهدافنا، ده أمر ثابت.. تقدر تعتبره الثابت الرقمي اللي يزن المعادلة، ويحقّق العلاقة بين طرفيها.. ولما تقول، أن غاياتنا تتّفق، وأهدافنا واحدة، فأنت أنكرت وجود الثابت الرقمي.. وده لا يجوز، في حياتنا على الأقل، اللي تحكمها قوانين مادية ثابتة.

هَزَّ حسين رأسه بإنكاروانعدام فهم، ثم سأله مُترِبّصًا كمن يحدق به الخطر.

- يعني إيه؟

- أنت تهدف للزعامة، والانفراد بالأمر.. بتهدف لفرض سياسة الأمر الواقع، من خلال ليّ الذراع.. وإحنا اللي جابنا هنا مش الرغبة في الوحدة، ولا الخضوع طبعًا.. إحنا جايين هنا علشان البضاعة.

وتغيّرت سحنته، واكتست بالجديّة، وهو يقول بتركيز:

- شحنة الهيروين، أصل الموضوع.. أظن كلامي صح.

- إلى حدٍّ ما.

أشرق وجه عاصم قليلًا، وهو يقول:

- عظيم.. كده اتفقنا على شيء.. بالنظر لحجم الشحنة، وحجم الأموال المستثمرة فيها، وحجم الأطراف المشتركة في تسويقها، فإن أي هدف، وأي نتيجة، وأي كلام، يتضاءل أمام المصيبة اللي إحنا فيها.. وتعطيل الشحنة بهذا الشكل مصيبة كبيرة فعلًا، ولو تكلَّمنا في موضوع آخر، نبقى بنمثِّل مشهد غير معقول في مسرح العبث.. نقدر نتكلَّم في القيادة والزعامة والوحدة، و.. و.. و.. بعدين.. الأولويات تأتي في المقدمة.

وتوجَّه بسؤاله إلى الحاضرين، قائلًا:

- مش كده ولا إيه، يا كبار؟

كان عمادُ حديثه لغةً عاميةً غير مألوفة، غريبة النبرات مُسنَّنة المخارج، تتتابع

كلسعات سوط قاطعة. أما تعاطيه اللغة ففيه أناة وصبر، فكأنه غير قادر على الإلمام بجوانبها أو الإيغال في حواشيها المتينة بطلاقة، وعلى الرَّغمِ من هذا فهي محكمة واضحة، عميقة الألفاظ موزونة النبرات. ثقته بذاته أمرٌ مسلمٌ به، لذلك فهو يطرح حديثه نافذًا، لأنه يعلم كل شيء، ومن حوله لا يعلمون شيئًا، وتلك معضلة تُرهقه في انتقاء الكلمات، وتُشعره بسمو قدره عمن حوله في نفس الوقت، فيقول لسان حاله: "هذا قدري؛ أن أتعامل معكم أيها الأغبياء.

قال حسين مسارعًا، كي لا يعطي فرصة للحاضرين للاشتراك في الحوار:

- أنا أولوياتي معروفة. وتأتي في المقدمة.. أنت عنصر دخيل يا عاصم، وما لكش حق في التدخُّل أصلًا، أو الكلام.. تُملي علينا أولوياتنا؟ بأي حق؟

صمت عاصم برهة مفكرًا، ثم قال:

- ما توريني أمارة على الفتونة دي.

- يعني إيه؟

- يعني أنت بتتكلِّم كأنك ملكت الأمر فعلًا.. لكن الواقع أنك ما لكش في العيلة دي غير الاسم.

- يعني إيه؟

- يعني أنت لا تصلح تكون الكبير.. أنت يا حسين مش حتمثل إضافة، لكنك حتكون نقطة سلبية جديدة تضاف للعائلة، تتسبَّب في زيادة الخلاف.

وأشار بسبابته بحركة دائرية، طالت الجلوس جميعًا، وقال:

- الناس دي إن طاوعوك النهارده، يبقي عن ضغط وترهيب، وحيقلبوا عليك.. إن آجلًا أو عاجلًا.. (ثم أردف متملِّلًا) أنا مش عايز أتوه عن موضوعي الأصلي.

انبرى الشهاوي متدخِّلًا، وقال بفظاظة:

- عندك حق.. يا عاصم باشا.. وأنا.. نيابة عن إخواني باقول: كـ. كلنا يد واحدة معاك.

سدَّد حسين إلى الشهاوي نظرةً شديدة. لم يدر من شدة غيظه ما يفعل، وتمنَّى أن يطلق النار عليه فورًا، هذا التمساح الدنيء، هذا الزاحف الشرير! وقد تلقى الشهاوي

رسالته وردّها بنظرة وقحة، وضحك بعينيه الضيقتين. ثم قال عاصم بتروٍّ:

- اسمع كلامي كويّس يا حسين، وحط تحته خطوط لحد ما تكتفي.. إحنا.. عاوزين.. الشحنة (نطقها بأكبر قدر من التأني والعمق).. أنا مش عايز أهدِّد، مش عن انعدام قدرة، لكن عن انعدام مبرِّر.. لأن الشحنة حترجع، برضاك، أو غصبًا عنك.

ومدّ كفيه مبسوطتين أمامه، قائلًا:

- أنا جاي هنا بالذوق أولًا، بأترجاك إنك تدلّنا على مكان الشحنة، من غير مساومة، أو شروط.. حنروح دلوقت، حالًا، كلنا، للمكان اللي تاويت فيه البضاعة.. كلنا معانا رجالنا، وكلنا مسلحين، وكلنا حنرجع بيوتنا بأمان.. وبعد كده المجال مفتوح أمامك لأي أحاديث، أو مفاوضات.

تنفّس حسين بصوتٍ مسموع، وقد حار جوابًا، فقال عاصم، يستحثه على الاستجابة:

- ما سمعتش ردك.

- أنا ما عنديش حاجة أضيفها.. اللي ينطبق عليهم، ينطبق عليك.. تتسلّموا بضاعتكم بشروطي، ماذا وإلا، أحرقها بيديّ!

ضحك عاصم، ثم قال مستاءً:

- لأ، لأ، ما تقولش كده.. أنت كده حتغطي القاهرة بسحابة هيروين، والناس كلها تتسطل بالمجّان.. إحنا مش بالكرم ده.. لسكان القاهرة نصيب، لكن لازم يدفعوا، وأنت عايز تقدِّمه مجانًا؟!

ورفع عينيه إلى سقف الغرفة، وقال متعجِّبًا:

- أهو ده العجب العجاب!

قال حسين، وهو يَزُمُّ شفتيه:

- أنا قلت اللي عندي.

سأله عاصم باهتمام، مستقصِيًا قراره النهائي:

- بترفض إعادة الشحنة؟

- أيوه.

ابتسم عاصم فكأنه ارتاح للنتيجة، وقال:

أنا أحب الوضوح.. الناس دي تشهد، والمحامي بتاعك يشهد، إني سألتك أولًا بالذوق.. تحمَّل تبعات موقفك المتطرِّف.

واستوْفَزَ في قِعدته على هيئة من يريد القيام، فقال حسين بنبرةٍ مكبونة:

- الكلام ما انتهاش يا كحيل العين! اقعد!

نهض عاصم فعلًا دون أن يعيره اهتمامًا، وأخذ طريقه للخروج، وتبعه رجلاه، فقال حسين ووجهه يكاد ينفر من السخونة:

- لو ما قعدتش دلوقت...

الحقيقة أنه لم يجد ما يتم به جواب الشرط، فاكتفي بالمعنى، وكانت محاولة بائسة لتدارك الموقف. نظر إلى محاميه مستنجدًا، وكم اندهش، وسخط، من وجهه البارد الراكن إلى السكون والسلم. أما عاصم فقد التفت، وقال ببساطة:

- الموضوع انتهى بالنسبة ليَّ، ولكم مطلق الحرية إنكم تكملوا اللي أنا قطعته.

قال حسين بسرعةٍ وغيظ مُبالغ فيهما ربما أخفى بهما شعورًا باطنيًّا بالوضاعة والوَهَن:

- الزم مكانك.. ما حدش حيخرج من غير إذني.

ضحك عاصم وقال:

- ما تفقدش أعصابك يا حسين، وما تهدِّدنيش بالبدو.. عايز تضرب نار، تفضَّل، كلنا حنموت دون جدوى.. ده قَدَر، وأنا رجل مؤمن بالغيبيات والقَدَر.. إن كان مُقَدَّر لنا الموت دلوقت، هنا، أنا متقبِّل تمامًا.

- فكَّر كويس، قبل ما تعمل حاجة تندم عليها.

- يا حبيبي، أنت اللي عملت شيء، مؤكَّد حتندم على تبعاته، وحدك.. أنا حطِّيتك أمام خيارين: ترجَّع البضاعة أو تتحمَّل النتائج، وكيفيَّة استجابتك للموضوع تخصَّك بشكل حصري.

ووجَّه حديثه للعدوي، قائلًا:

- أنت رجل عاقل يا أستاذ سيّد.. حاول تعيد تقييم الموقف، وتقنع موكلك، لعل ربنا يهديه.

ثم ألقى السلام، وتقدَّم صوب الباب بخطواتٍ واثقة.

شعر حسين أن الموقف أكبر من قدرته على التصرُّف، واكتفى بمراقبة عدوّه وهو ينصرف مع رجليه، ويغلق الباب خلفه. ثم أَحَسَّ بدوار، وتشوَّشت الصورة أمامه تمامًا، وفقد بصره البعد البؤري، وفقدت معه الأشياء الوضوح والعمق، فصارت الحوائط ووحدات الأثاث والناس كيانات مهتزة، متداخلة، منعدمة التفاصيل، ومختلطة الألوان.

أما سائر أفراد العائلة، فقد شهدوا بأمهات أعينهم مغادرة عاصم، وإن لم يشعروا بانصرافه، بل أحسُّوا باستمرارية تواجده، بطريقة ما، وسطهم. أبى تواجده الطاغي أن يتبدَّد مع انصرافه، فاستمر ماثلًا أمامهم، بقسماته الدقيقة، وملاحته، وأدبه الجم. وإنه، مع حضوره الكثيف، ليس شخصًا مُحبَّبًا أو مألوفًا، فهو يتنافر مع أي بيئة، لأنه كيان متوحِّد بذاته، منطبق على صفاته. صفاته البدنية والسلوكية هي مخطَّط تواجده وغلبته، عليها اعتمد في مراعاته للدباجة اللغوية، كي يخرج حديثه في أبهى حُلَّة، وأمضى أثر.

مرَّت بهم الدقائق ثقيلة متمهِّلة، مثل فيها طيفه أمامهم غائمًا مجهولًا ثم انقطع السكون بصوت احتكاك عود الكبريت يُوقِدُ سيجارة مِكَّاوي، فأخرجوا جميعًا السجائر، وأشعلوها بالقدَّاحات والكبريت، ليغمر الغرفة صوت الطقطقة والاحتكاك، وامتصاص الأنفاس، ونخُّ الدخان، حتى تَكَمْكَمَ الفراغ واحتشى بالأبخرة.. ثم ضحك الشهاوي.. انشق شدقاه فبان حلقه اللحمي الغويط. ضحكته كريهة بهيمية ومدوّية، التفتت إليها أعين الحضور جميعًا.

* * *

الفصل السادس:

إِشْتِبَاكٌ مُتَقَارِبُ المَدَى

"سألني عن الشيعة الروافض! هل قرأت كتبًا عن تاريخهم؟ إيه رأيي في السُنَّة؟ هل صنعت أسلحة، أو تعلّمت الطيران؟! خفت جدًّا، وحَسيت إني تورَّطت في شيء كبير.

اجتاز حسين مراحله الثلاث المعتادة من الغضب:

الأولى: الكبت والاحتشاد، وفيها يكاد يغلي مخه، فلا يكف عن اللف والدوران حول نفسه كالقرد في القفص.

الثانية: الثورة والانفجار، فحطَّم ما استطاع من أثاث الغرفة، وقذف كل شيء بكل شيء، حتى تحوَّلت غرفته لكتلٍ من الأنقاض.

الثالثة: الإحباط والانهاك البدني والنفسي.

كان مرهقًا وتعيسًا، زاهدًا في كل شيء. ما زال يذكر انصراف الكل: رجال العائلة الواحد تلو الآخر، وأفراد الخدمة، والبدو جميعًا، والعدوي الذي غادر كاسف البال، دون إشعار أو خطة لتدارك الموقف. لم يلازمه سوى النونو. ما زال يذكر قهقهة الشهاوي المدوِّية. لقد هَأهَأ الكلب وأطال وأسرف!

استمرأ حسين استعادة التفاصيل السيئة، وفَتَحَ جراحه، وخاض في جايئتها من الدم والقيح. لقد دخل عليهم عاصم الملعون بغارةٍ إجهاضية. ليته ما سمح له بالدخول. كيف لم يُبلغه الحمقى بمقدمه؟ كيف تركوه يدخل القصر، ويجول فيه مع رجاله بحريَّة، حتى وصل لغرفة الاجتماع؟ كيف ضلَّت به بصيرته، لدرجة أنه لم يترك لهم خبرًا بمنع عاصم من الدخول؟ كيف تسرَّع، وأذن له بالدخول، دون أن يَستَبِينَ؟ إنه يعلم -المصيبة أنه يعلم- أن دخول هذا الإنسان أي مكان يعني الخراب. إنه يعلم أن هذا الرجل في حدِّ ذاته يمثِّل نحسًا متجسِّدًا، وكارثة نُفخت فيها الروح. وإنه يعلم أن تهديداته ليست من فراغ. والآن وقد هجره البدو، صار نحره حلالًا بلالًا لكل من يريد الثأر.

لم تكن نتائج الاجتماع مثمرة، ولم تكن حتى صفرًا، فالصفر في عالم الرياضيات قيمة في حد ذاته. كان الفراغ، انعدام القيمة، اللاشيء! لا بد أن كل واحد من أعمامه يلتحف في فراشه الآن قرير العين، مطمئن البال لما أسفر عنه الاجتماع: مجرد فرقعة في الفراغ. ثم من أين له الآن بالرجال إن أراد المضي قدمًا في الحرب؟ لقد انفض البدو من حوله بعد فشل الاجتماع. أما عايش، "الأعرابي الخسيس!"، لعله يدبِّر الآن للاستيلاء على الشحنة لنفسه. وبفرض أنهم تركوها له، فما عساه أن يفعل بها؟ إنها كَمِّيَّة مهولة،

فهل يجرؤ فعلًا على حرقها، وتحمُّل التبعات؟

تَعَرَّقته خواطره، حتى صارت كتلًا رخوة ثقيلة جثمت على أنفاسه. أخذ يلهث محاولًا تسليك مجرى هوائي لرئتيه دون جدوى، فلم يدر بنفسه إلا وقد ضرب كفًّا بكف، وهز رأسه قائلًا بضيقٍ ويأس: "ملعون أبوك يا زمان!" وكانت تلك بداية، التقط منها طرف الخيط لمحادثة ذاتية طويلة.. قال لنفسه بنبرةٍ ارتعشت كما يرتعش سطح البحيرة الراكدة إذا ما ألقيَت فيها حصوة: "أنا كل شيء بأعمله بأندم عليه.. أختار الحاجة، وأنا عارف إنها غلط، وهتفشل.. كل اختياراتي غلط.. كل حاجة أفكَّر فيها مليون مرة.. كل شيء هيِّن، لو فيه اختيار، يهزّني، لأني بني آدم مهزوز في كل شيء." واشتد قليلًا على نفسه: "خلاص، أنا تعبت، مش عايز أكمِّل.. أنا كوم زبالة! أي حد يقترب مني، يموت، أو حياته تتدمَّر." وارتعش وجهه وهو يتابع هامسًا فيما يشبه البكاء: "أنا نحس، نحس.."

صار يلهث باذلًا في مكانه مجهودًا مضنيًا، وفكَّر جدِّيًّا (أو هو ظنه تفكيرًا جدِّيًّا) في معاجلة الله بنفسه، بإلقائها من الشرفة، ليسقط مُحطَّمًا عند ساحة القصر. كيف حاله عندئذٍ؟ هل سيموت، أم يتحطَّم عموده الفقري، ويعيش قعيدًا كسيحًا ما امتدت به الأيام؟ فاضل في مخيلته بين أسوأ المصيرين، وإن أيقن أنه مستحقٌّ لكلاهما.. لو مات فإن الجحيم له دار إقامة، لا موت فيها ولا انقطاع.. أما لو عاش كسيحًا، فهل يستغل الفرصة للعودة إلى الله؟ هل سيتوب مثلًا؟ وهل يُقيل الله عَثْرَتَه فيُنزل عليه الرحمة، أم يأخذه بذنوبه؟ ربما يزداد نقمة على الزمن والقدر، أو ينشغل بإنفاق نقوده على العلاج! صَنَع في خياله قضيَّة وهمية، وأقام عليها مجموعة احتمالات، فأشعره هذا بنوع من الرثاء للذات.. لكن مجابهة الواقع أمر آخر. أن تتحقق أباطيله فهو حتمًا ما لا يريد، وإنه يعلم أنه يفضِّل أن يعيش حياته صحيحًا آثمًا، على أن يُساء في بدنه، ويعيش تائبًا صالحًا. ثم وصل لنتيجة منطقية. قال لنفسه متحيِّرًا: "أنا.. لازم أشوف شغلانة تانية! لو عايز أشتغل أساسًا!" ثم تابع بسرعة مخافة أن تخونه أفكاره: "المشكلة إني ما أعرفش شغلانة تانية.. أنا كنت موظَّف في الحكومة. ما أعرفش أعمل إلا اللي الحكومة علمته لي.. والحكومة رفتتني، وسابتني دون بديل.. دلوقت مش عارف أعمل إيه!" وصَمَت لحظات مراجعًا نفسه، ثم قال بكبتٍ وكراهية: "كلُّكم عندكم دافع؟ كلكم اتبهدلتم، واتمرمطتم، وشربتم المر، وما كانش لكم طريق تاني إلا التجارة دي.. كلُّكم عندكم

مبرِّرات؟" وخمش وجهه بأظافره في عنف، وقال بعينين زائغتين: "أنا الوحيد اللي جنت للدنيا وفي بُقِّي الملعقة الذهب؟ ما شفتش غير النغنغة والفلوس؟! عُمر ما الزمن غدر بي، علشان كده أنا اللي ربنا يعاقبه!"

أخذت الشياطين تنفخ في روحه من أرواحها، فشعر بتخبُّطه بين دركات من النار، وخرج بنتيجة واحدة: إن موت الحاج كان رزءًا جللًا حلَّ بالعائلة. لا بد أن هذا هو السبب. لقد غادر الحاج جوهر الدنيا، وانتهى من بعده كل شيء. وهو الذي تمكَّنت منه الأوهام، وغرَّته الأماني، لكنها لا تعمي الأبصار، لكن تعمي القلوب التي في الصدور. ضاعت الفرصة. كان البدو تحت يديه، لكنَّه أضاع الفرصة. كان يمكنه قتل أكبر عددٍ ممكن من أعمامه، لكنَّه أضاع الفرصة! لم يستطع تحديد ما الذي أخطأ فيه، ولا التعرُّف على وجه القصور. أهو في نفسه، أم العائلة، أم في من يستعين بهم؟ لكن ماذا عليه أن يفعل أكثر مما فعل؟ إنه ما أراد أن يقطع أمرًا إلا واستشار أهل الرأي، وما زال غير موفَّق كمن يستنيم في حياته إلى منامات السفهاء. لا بد أن وجه العيب في أهل الرأي ذاتهم، وهو العدوي. هذا الخسيس! بل إن العيب أيضًا في نفسه. إنه يأخذ بأطراف الأمور ولو كانت مُستنكرة منافية للعقل، ويعدل عن الصواب وكان منطقيًّا مُيَسَّرًا.

رقد على فراشه متطلعًا للسقف طويلًا، وتتابعت أفكاره بعجلة تسارعية حادة، وصلت به للذروة، ثم تدنَّت للأسفل شيئًا فشيئًا، حتى خَبَت النار داخله، وانعقد النوم على قافيته، ووَسْوَسَ له شيطانه: "عليك ليل طويل. نومٌ أشبه ما يكون بالموت، مساحات من السواد اللانهائي، انقطعت بأعجب الكوابيس.

مرَّت عليه ساعات لم يفق خلالها إلا في تلك اللحظة. فتح عينيه. وأَحَسَّ بوجود شخص ما معه في الغرفة. نهض ليجلس على طرف الفراش، ولمح طيف شخص واقف أمام الباب. مدَّ يده للأباجورة جانبه وضغط زرها، فغشى النور عينيه لحظة.. ثم رآها.

جلس جامدًا عاري الصدر يرمقها بذهول. لم تكن عليه منامة كاملة، بل يرتدي فقط سروالًا خفيفًا. أمام الباب وقفت، واستندت على الحائط بكتفها، وميَّلت جسمها بمنحنى ناعم جهة اليمين. حدَّق في وجهها طويلًا، ثم تساءل بخفوت: "سَحَر؟" تطلَّعت إليه مليًّا، ثم سألته بصوتها الناعم ذي البَحَّة الخفيفة: "إزيّ حالك يا حسين؟"

لم تكن عينا حسين تحملان أثرًا لدهشةٍ أو خوف، لذلك أحَسَّت أنَّه لم يستوعب بعد وجودها. ضغطت مفتاح الإنارة جانبها، فانكشف منها كل شيء. كانت مرتدية ثوبًا علويًا حريريًا على اللحم، لونه وردي فاقع، وذراعاه قصيران مُطرَّزان، التقي عند خصرها بسروال چينز أزرق. ربطت شعرها بإيشاربٍ زاهي الألوان على الطريقة الغجرية، فتسلَّل من ثنايا الربطة المحكمة قليلٌ من خصلات شعرها الناعم. أما رائحتها الطيبة فنبعت من عطر «نُتُورنِس» من «رالف لورين»، به استأسرت أجواء الغرفة.

لم يستوعب الموقف بعد. موقفٌ صَعُب على حواسه إدراكه حتى وإن كان محسوسًا، وعلى عقله تحديده حتى وإن كان معقولًا! إنها هي! هي سَحَر.. سَحَر سعيد عبد الباري.. مسجَّل خطر فئة أ.. مطلوبة في عشر قضايا.. ممارسة الدعارة، وإدارة محل للفجور، وضرب أفضى إلى موت، وقتل عمد، وسرقة بالإكراه، واشتباه تعاطي وترويج مخدرات.. محكوم عليها غيابيًّا بالسجن والإعدام. هي.. هي المُسيِّرة الرئيسية لشبكة إيلي مجدلاني بعد مقتله وحَسَن.. هي من دبَّرت اغتياله وإذلاله.. هي من أشعلت حرب التصفية بينه وبين عائلته.. هي من قادته في متاهات شبكة إيلي مجلاني حتى نزل لهذا الدرك الأسفل.

أطرق لبرهة تأجَّجت فيها النار في نفسه، ولم يدر إلا والغيظ والغضب يسريان في عروقه، فخطف سلاحه من تحت وسادته، وانقض عليها في أربع خطوات سريعة. هي أيضًا لم تستوعب الموقف، بل فوجئت به أمامها. دفعها بعنف تجاه الحائط، فارتطمت به بقوَّة، وصرخت من الألم الشديد. تركها واندفع للممر شاهرًا سلاحه، ثم اقتحم الغرفة مرة أخرى كالعاصفة وركل باب الحمام، ودار فيه بناظريه حتى اطمأن أنَّها وحدها.

استقرت أنفاسه قليلًا، فعاد إلى سَحَر الملقاه أرضًا. غالبت نفسها ونهضت، ثم قالت له برباطة جأش:

- نزِّل سلاحك يا حسين، أنا جيت لوحدي.

قال لها بغلظة:

- ادَّوَّري لأجل ما أجِيلِك.

- ما معيش سلاح.

- ما يضرّش لو تأكدت.. ادَّوّري.

- تفتيش ذاتي؟!

قالتها بتحدٍ، وعيناها تضيقان بتعبير بري شرس. تقدَّم منها فابتعدت عن مساره برشاقة، فتقدَّم منها مُجدَّدًا، فانحاشت عن مساره. هنا جذبها إليه بعنف وأمرها مغتاظًا أن تثبت. استشعرت غضبه وتوتره ورأت ارتجافة أصابعه، فدفعت ذراعه بعنف، وقالت متوعِّدة بنبرة شديدة:

- إياك تمسكني بالشكل ده.. صوابعك علمت على ذراعي.

ازمَهَرَّت عيناه، وهجم عليها بغتة. أطلق قبضته في بطنها بلكمةٍ مروِّعة (ليست مروِّعة بإطلاق؛ لأنه حَرِص غَريزيًّا على ملائمة قدرتها على التحمُّل، فلكمها كمن يلكم تحفةً ثمينةً لا يُستَطَاع إتلافها)، فسقطت صارخة، لكنَّه تلقاها قبل أن تتم سقطتها من كتفيها، وألصقها بعنف بالحائط، وقال بخشونة: "ادَّوّري.

لم تكن تعي بالضبط ما يحدث، لكنَّها أطاعته بشكل تلقائي. أمرها بغلظة أن ترفع ذراعيها، ثم ضرب فخذها أسفل ردفها بالضبط قائلًا: "افتحي رجليكي." فتشها ذاتيًا ظهرًا لبطن بحذقٍ وغلظة، فنفر عرق في عنقها غضبًا وقد بدأ يعاودها الإدراك ويذهب عنها ألم البطن الرهيب، وارتجف جسمها بالغيظ والثورة. غرز أصابعه في بشرتها حتى انفتح فمها قسرًا، واستنشق رائحة فمها وهو يسألها بعدوانية: "أنت مكربعة حاجة؟"

باغتته بصفعة أصابت أذنه، فلكمها في بطنها، ثم في جانبها، فتهاوت أرضًا وهي تبكي من شدة الألم. كانت تبكي بحرقة وغيظ، لكنَّه لم يستشعر منها شبهة الذلة أو الضعف، ثم إنها سيطرت على أنفاسها، فألصق مسدسه برأسها قائلًا وقد نفد حلمه: "إيه اللي جابك هنا، ودخلت إزايّ؟"

استحال وجهها لجذوة حمراء مشتعلة، ثم طوَّحت بيدها في وجهه، فخدشت أظافرها جفنه الأيمن وكادت تفقأ عينه. همَّ بها لولا أن سلت من شعرها مشبكًا حادًا أشبه بالإبرة، ووجَّهت السن إلى عنقه، فشعر بالجسم المعدني المدبَّب يندس في جلده أسفل ذقنه، وسمع صوتها الشرس: "لو مابطلتش تلطيش، حأقتلك!"

* * *

وُلِدَت سَحَر سعيد عبد الباري في دمياط، لأبٍ ضابطٍ في القوات المسلحة، وأم طبيبة من المنصورة، وعاشت العائلة في فيلا مطلة على النيل في ناحية نائية مملوكة لجدَّتها من جهة الأب، والتي كانت تستضيفهم وتقوم بأعباء البيت المالية. كان أبوها رجلًا عصبيًا معتل المزاج، شريرًا مسرفًا في العربدة. استمرت الحياة بالأسرة هشَّة تعيسة، حتى كان يوم قرَّرت فيه الجدَّة الزواج للمرة الثالثة، وكانت سَحَر في الحادية عشرة، وكان العريس فرَّانًا قبيح الخلقة في العشرين من العمر، أرزقيًا وقشَّاشًا. عُقِد القران في الفيلا بحضور الابن، الذي شهد على العقد رغمًا عنه مع الطبَّاخ العجوز، وانتهت الإجراءات في خمس دقائق. في تلك الليلة شرب الأب حتى ثمل، وضرب زوجته فكسر أسنانها وأنفها، وكسر إبهام سَحَر الأيسر. بعدها استمرأ الأب الضرب والمهانة، واستفحلت شراسته، ولم يعد يطيق نفسه أو أمه أو العريس، فهددته أمه بالطرد من الفيلا لو استمر على حاله في تكدير صفو معاشها. ونظرًا أن الأب "عبد للقرش، وكاب فلوس كما ستدأب سَحَر على نعته فيما بعد، فلقد تحامل على نفسه وقبل سوء المعاملة المستجدة من أمه وسوء تصرفها.

ووَضعٌ كهذا كان لا بد له أن ينفجر. وكان الانفجار في ليلةٍ عاد فيها الرجل مخمورًا، فراودت زوجته فكرة آنية نفذتها فورًا: قالت له أن حماتها -أمُّه- قد باعت للفرَّان العقارات ومعرض الموبيليا في شارع بور سعيد. لم يفكِّر الأب مرتين. لقد تحامل على نفسه ونهض، ودخل غرفة نوم أمه، ورآها راقدة في انتظار زوجها، الذي كان لحسن حظه يستحم. بمسدسه سدَّد طلقة واحدة إلى رأسها قتلتها فورًا، وعلى دوي الطلقة قفز الفرَّان من نافذة الحمام، واختفى.

ظلت الزوجة تصرخ بهَلعٍ دون توقُّف لأنها لم تظن أو تتخيل أن يؤول رد فعل زوجها لسُعار القتل. أما الأب فكان كالمسحور، إذ توجَّه إلى المطبخ وأعد لنفسه قدحًا من القهوة المركَّزة دون سكَّر، وصعد وجلس جانب جثة أمه على الفراش، يرشف من القهوة ويدخِّن. أما سَحَر فكانت تتلصَّص على أبيها من خلل الباب كالفأر، ثم تنزل لتراقب أمها تصرخ عبر إفريز السلم.

شاهد الأب فيلم السهرة، واستجمع أفكاره وحدَّد خطواته. غلَّف جثة أمه في مِلاءة ثم في مُشمَّع، وضرب زوجته حتى كتمها، وذهب بحمله لمنطقة تسمي «المطحن»، وهو

فرنٌ ضخمٌ يُنتج مادة الأسفلت. دفع لخفير المطحن مبلغًا محترمًا كي يُدخله، وألقى الجثة في فم الفرن وراقبها وهي تغيب في المصهور الملتهب. ثم أبلغ توًّا عن اختفاء أمه، واتَّهم الفرَّان بقتلها والتخلُّص من جثتها.

نال الفرَّان حكمًا بالسجن المشدَّد، أما الأب فقد ورث كافة أموال أمه وعقاراتها. على عكس المتوقَّع انقلبت حاله للأسوأ، وتورَّمت ضراوته واتَّقد غضبه، وتم فصله من القوات المسلحة لسوء سلوكه، فبات يبدِّد أمواله على الساقطات والخمَّارات. أما الطامة الكبرى فكانت زواجه من مُمَرضَة سيئة السمعة، ابتاع لها شقة كبيرة في شارع بور سعيد بجانب معرض الأثاث. وهنا أقدمت زوجته الأولى على أعجب تصرف، إذ زارت الفرَّان المسجون منذ عام، ودبَّرت معه مكيدة، بها قدَّما بلاغًا اتَّهما فيه زوجها بقتل أمه، وأرشدت المباحث للمطحن. تم استجواب خفير المطحن والقبض على الأب، وإطلاق سراح الفرَّان.

وفي يومٍ تمكَّن الأب من الهرب من محبسه، وتتبَّع أخبار الفرَّان حتى التقاه في شقته، وألقاه من النافذة، فسقط الرجل على رأسه من الطابق السادس. بعدها توجَّه للفيلا وشنق زوجته، ثم بقربطنه بأحد سكاكين المطبخ. ولم يعف سَحَر الصغيرة آنذاك من الأذى إلا تواجدها في المدرسة، لكنَّها عادت ووجدت أمَّها مُعلَّقةً من السقف، وأباها متكوِّمًا كالزنبور الميت على أرضية المطبخ.

وقعت سَحَر في براثن المُمَرضَة زوجة أبيها، إذ رفض أهل أبيها وأمها استقبالها، وركَّزوا جهودهم على شن حملة لتحديد مصير تَرِكَة الأسرة الميِّتة. ففضلًا عن أن الوريثة امرأة ساقطة وتلك في حد ذاتها كارثة، فإنها لا تمت بصلة للعائلة. وعلى كل حال لم يكن لسَحَر شأن فيما يجري، لأنها كانت في شغل تخدم وتنظف، وعلمت أن زوجة أبيها لها علاقات بعددٍ من الرجال يتردَّدون على الشقة.

ثم قرَّرت زوجة الأب الاستقرار في الفيلا درءًا لأي محاولة من الورثة لفرض الأمر الواقع والاستيلاء عليها بوضع اليد، بناءًا على نصيحة محاميها. ولقد ارتعبت سَحَر من الفكرة نظرًا لما يُشاعُ عن الشجرة الوحيدة جانب الفيلا، وترجَّت سيدتها كل يوم تقريبًا مكرِّرة: "يا ستي العفريت، والنبي ما تودِّينا هناك"، فتضحك المرأة وتقول: "أنت عبيطة

يا بت؟! ما عفريت إلا البني آدم.

و«عفريت الست» قصة مشهورة أحاطت بالفيلا ووَقَف على صدقها شهود عيان، ففي الليل، عند الشجرة الوحيدة المُجانِبَة للفيلا على ضفَّة النيل، تُسْمَع صرخات مريعة. وتلوح امرأة ضامرة الجسم متغضِّنة الوجه، لها شعر أبيض منتفش يتطاير بغير ريح كاللهب، تتسلَّق الشجرة كالقرد بقميص نوم وثقب أسود يزيِّن رأسها، وتتَّسع عيناها ككرة تامة الاستدارة وتصرخ طوال الليل، ومع تكرُّر هذا الموقف بشكل شبه يومي انقطعت أرجل البشر والحيوانات والطيور عن المنطقة.

لكن المرضة لم تبال، فقبل الانتقال للفيلا جاءت بمشايخ قرأوا القرآن، وذبحت عجلين ووَزَّعَت لحومهما على الفقراء، الذين توافدوا زرافاتٍ ووحدانًا لم يمنعهم جنٌ أو عفريت، ونجحت مساعيها تقريبًا، إذ قلَّ ظهور العفريت حتى انعدم، ولم يُسمع صراخها إلا في ليالٍ مُحدَّدة كل شهر. استقرت الحياة بالمرأة والصغيرة بعض الوقت، إلى أن تزوَّجت بأحد عُشَّاقها، ولزم هذا التخلص من البنت، وحيث إن أحدًا من أهلها لم يقبلها وأن مسؤوليتها المعنوية تجاهها تمنعها من إلقائها في الشارع، فإن السيِّدة قرَّرت إرسالها لإحدى صديقاتها الحميمات، "صاحبتي، حتأخذ بالها منك يا بت" هكذا قالت لسَحَر.

بعد أيام وصلت الاثنتان إلى القاهرة، وفي حي شُبرا سلَّمت المرأة عُهْدَتَهَا لصديقتها الحميمة: امرأة تُدْعَي «سَنَاجِئ كَرَارَة»، "السيِّدة المُنتقبة المحترمة" كما ستسميها سَحَر فيما بعد.

الحقيقة أن السيدة سناجئ -وكنيتها «أم عنقود»- لم تكن منتقبة ولا محترمة، وليس في طبعها إلا طلب الأرزاق بألوان الحِيَل وعجائب الألاعيب. تنزل سوق العمل بنفسها -الذي هو بالنسبة لها قوارع الطرق- وفي أوقات الراحة تُقعي على الرصيف، وترفع النقاب، وتدخن السجائر، وبالليل تتعاطى الحشيش وأحياناً الأفيون. قَدِمَت من بور سعيد في شرخ شبابها، ومارست قائمةً من الأعمال المنحطة المنافية للخلق القويم والآداب العامة، فحصَّلت منها مكسبًا كبيرًا ونفوذًا راسخًا (على مستوى منطقة شُبرا، في أوساط المُشَرَّدين والمتسولين والمنحرفين)، وتدير حاليًا مؤسَّسةً متعددة الأعمال،

توظف أكثر من سبعين طفلًا وطفلة تستغلهم في التسول والسرقة وتوزيع الممنوعات والأعمال المنافية للآداب، وتأوي أطفالها في قبو بناية تملكها بشبرا. في هذه الأجواء قضت سَحَر سنوات مراهقتها وشبابها الأول، فاكتسبت مهارة الصمود في عالمٍ قاسٍ تكلّست فيه أخلاقها، وتعلّمت البشاعات والقذى، وتعاطت حياة مشاع صغيرة مليئة بالمخازي.

بدأت حياتها المهنيّة بالتسوُّل، ثم باعت السلع الرخيصة والمناديل الورقية على إشارات المرور وجانب المستشفيات والمطاعم والمراكز التجارية، وصاحبت العجائز والمعاقين والمعاتيه بروشيتّات طبيّة وفواتير وسندات دين وإيصالات مياه وكهرباء متأخرة السداد. لم تختلف حياة سَحَر الصغيرة كثيرًا عن حياة الخنازير في المزابل والزرائب. نعم، كانت تذهب للمدرسة كل صباح، وهو إجراءٌ حرصت عليه سناجئ، فأجبرتها وغيرها من البنات الجميلات على نيل نصيب -ولو طفيف- من التعليم الأساسي، لكنّها تعود في المساء والأجازات الصيفية لتتقلّب في الوَسَخ والغائِط مع زملائها ظهرًا لبطن. يقضون حاجتهم حيث يأكلون وينامون، ويعايشون أمورًا تعتبرها الفطرة السوية مُحفزة على الاشمئزاز والتَّقَزُّز والاختِقار. كانت الأمراض الجلديّة والفطريات والالتهابات منتشرةً بين الأطفال، وتَعَايُشُهُم مع الحشرات والقوارض والقمامة أمرًا معتادًا، ووَفاةُ أحدهم بحُمّى أو تسمُّم حدثًا لا يدعو للاستغراب، ولم يكن مقتل طفل أو شاب منهم دهسًا على قارعة الطريق بسيارة مسرعة أو حافلة بالأمر الغريب أو النادر الحدوث، هذا غير المشاجرات الدمويّة بينهم، وألوان العقاب والتنكيل التي يلاقونها من أرباب العمل، مثل الكي والضرب بالسلاسل والحرمان من الطعام والتعليق والنفخ والاغتصاب.

سبع سنوات عاشتها سَحَر تطلب السَّفْسَافَ من كل قول وعمل، بين التسول والنشل وتوزيع المخدرات، فاستغلظ منها الظاهر واشْتَّق. أُلقِي القبض عليها مِرَارًا وقضت لياليَ سوداء في الأقسام، واغْتُصِبَت عِدَّة مرات في المخافر والشوارع وفي منزل سيدتها ذاتها، بل وعاشرت زوج سناجئ وعددًا من الأولاد بشكلٍ اعتيادي، واجتازت المرحلة الثانوية بنجاح، والتحقت بكلية التجارة! في تلك المرحلة تبلور تكوينها البدني والعقلي، وكان طبيعيًا أن تسمو بإمكاناتها لآفاقٍ أخرى، فرشّحها زوج سناجئ للعمل معه في توزيع

المخدرات، واستمرت مع هذا في تعليمها الجامعي، لأن الجامعة تُمثل -للفُوَاة- سوقًا خصبة لهذين النشاطين -المخدرات والدعارة- وغطاءًا ساترًا. عَمِلَت أيضًا في السرقة، وكان نشاطًا مُتَضَمَّنًا في الدعارة، فإن وقع في برائنها شابٌ غريرٌ، خدَّرته وجرَّدته من كل ما له قيمة، وأخذت ملبسه ونعليه، وهجرته عاريًا كيوم وُلد. وكما يصيب الهُزال حصائلها في أيام، تصيبها التُخمةُ في أيام أُخرَيات، وقد تحصِّل مبالغ صخمة تتعدَّى الخمسين ألفًا من الجنيهات أحيانًا، على صورةِ نقد أو مجوهرات، وقد تضطر لمعاشرة زبائنها، أو تُفلِتُ دون أن تذرف قطرة عرق واحدة.

ومع براعتها في أداء المهام الموكَّلة إليها، والمكاسب الكبيرة التي تحقِّقها دوريًا، احتلت سحر مكانةً خاصة لدى السِت سناجئ وزوجها، لكنها عاشت في كنفهما حياة ضيقٍ وشِدَّةٍ وعَوَز، ويرجع هذا لنظام إداري ومالي مُحكم فرضته سناجئ، يمتص أرباح أطفالها باستمرار، ويقمعهم ويئد طموحاتهم. ثم داهمت الشرطة وكرها بشُبرا ذات يوم، وعثروا على كمياتٍ كبيرةٍ من المخدرات والنقد والمصوغات مُخبَّأة في مكامن مسحورة بخزانات الملابس وتحت الفُرُش وداخل الحوائط وتحت أحواض الحمامات والمراحيض، فتم الحكم عليها وعلى زوجها بفترات سجن مديدة.

ثم وجدت سَحَر نفسها وحيدة مفلسة في الشارع، وقد انقطعت بها الأسباب.

* * *

أُلحِق بالطابق الأول لقصر الفردوس مطبخٌ متوسط المساحة. جلس كلٌ من حسين وسَحَر متقابلين، وقد وضع الأول مسدَّسه على المنضدة قُبالته وغادرته أمارات الغيظ والنقمة، وحلَّت محلها نظرات خاملة لا تشي بشيء. وكانت آثار الصراع جليَّة على وجه سَحَر، فقد احمَّر وجهها في أكثر من موضع، وانتشر الألم في بطنها وقفصها الصدري من أثر لكماته. ذهب حسين إلى المطبخ وحده لينال جرعة ماء بارد ويغسل وجهه، فتبعته بآلية.

لم يكن هناك مجال لأي حديث. نَهَض حسين وأخرج من الفريزر عدَّة قوالب صغيرة من الثلج أفرغها في كيس بلاستيكي نظيف وأحكم غلقه، وبصفحة نصل أحد السكاكين دَكَّه، وألقى بالكيس أمامها وجلس. لم يكن مُصدِّقًا أنَّها هنا معه، إذ اكتنفته حالة زَهْوٍ

غريبة، فحدَّق إلى هذه الغَيْداء أمامه بنظراتها المتعالية، ومقلتيها اللاذعتين، وجمالها الفاجر، وقسماتها المراهقة الأنانية، وتسارع نبض قلبه وانقلبت معدته رأسًا على عقب، ثم شعر بكيانه يتداعى مُفتَّتًا. خفض عينيه ببطء وكادتا تدمعان. لقد تغيَّرت بالتأكيد، فثلاثة أعوام ليست بالزمن الهيِّن، ولينظر لنفسه ويتدبَّر. لكن مهما تتغيَّر، تظل هي هي.. سَحَر! كل تفصيلة منها مطبوعة في ذاكرته.. شعرها، ووجهها، وأصابعها، والشَّامَةُ الدقيقة على جانب عنقها.

فكَّت الإيشارب وألصقت الكيس بموضع الإصابة من رأسها، وأحَسَّت بشيء من الراحة مع الملمس البارد لجَرِيش الثلج. تابع حسين حركتها بذهول، وركَّز على وجهها الأسمر المُكتسب لصفة الجدية والقسوة، الوُضَّاء من دون ابتهاج أو لطف.. وتتابعت على ذهنه المشاهد والأحداث، خاطفةٌ وصعبة: قصر الفردوس.. تبادل إطلاق النار.. العدو، والصراخ، والأمطار.. السيارتان منقلبتان.. سَحَر أمامه، والماء والدم يغرقانها، وخطواتها تائهة متعثِّرة.. وسلاحه قريبٌ منه.. لماذا لم يطلق النار؟ كلا، له عذره، سلاحه كان فارغًا.. أم مُعطلًا؟! لكنَّها.. تضرَّعت إليه.. و.. قبَّلت قدميه.. استرحمته.. لَحَسَت الطين والماء والذُل من على حذائه.. نعم، نعم، ذلَّت وهانت بين يديه.. ولو، أما كان يقدر عليها؟ لكانت ضربة واحدة بقبضته كفيلة بإنهاء المسألة.. لو فعل لجنَّب نفسه بلاءً! عظيمًا.. مجدلاني وإيفيلين.. سَمَا وجلال السايس.. إصاباته وأيام قضاها وخرطوم محشور في بلعومه. ثم تساءل بصوتٍ خافت:

- إيه اللي جابك يا سَحَر؟

فكَّرت قليلًا، ثم وضعت الكيس عن رأسها، وسألته مهتمَّة:

- في حد معاك هنا؟

- النونو.

هكذا أجاب فورًا، ثم شعر بالغباء فجأة بينما تسأله:

- هو فين؟

لم يعرف بما يجيب، أيكذب أم يصدق، لكنَّها أجابت عنه:

- نايم طبعًا.. (ومَصْمَصَت شفتيها بسوقيَّة) الخيبة حطَّة والباب مفتوح!

قال بائسًا:

- ما أملكش لوم الوحيد اللي قبل يفضل معايا.

قالت باستهتار:

- وظِّف غيره، أنت مش تملك الفلوس؟

- الفلوس ما تشتريش الولاء.

- الفلوس ما تشتريش إلا الولاء.

- وإذا غيري يقدر يدفع أكثر؟

- تدفع أكثر منه.

تنهَّد بمرارة، ثم تذكَّر أمرًا، فنهض وهمَّ بالخروج، فسألته أن: إلى أين، فأشار إلى صدره العاري وقال: "أجيب حاجة ألبسها." هزَّت كتفيها قائلة: "إن كنت مرتاح أنا مش متضايقة."

غادر حسين، ولم تمض دقيقتان حتى عاد إليها وصدره مستور بقميص منامته، ووجد سلاحه مكان ما تركه. جلس صامتًا وسأل نفسه: كيف بلغت به الغباوة شأنًا تجعله يترك سلاحه أمامها؟ وتساءل أيضًا: كيف بلغت بها الغباوة شأنًا تجعلها تترك سلاحه حيث تركه؟ ثم سألها بفتور:

- إيه اللي جابك يا سَحَر؟ ودخلت هنا إزاي؟

افترَّت عن أسنانها ضاحكة، ويا لضحكتها! خليطٌ من زقزقة العصافير وبحَّة متقطِّعة! لطالما أطارت تلك الضحكة صوابه فيما مضى، وجذبته من تلابيبه إلى القاع، بل إلى أسفل سافلين. وقالت:

- أنت غبي جدًّا يا حسين! حاولت تغيَّر شفرات دخول الأبواب؟ أنا استغربت جدًّا إن نفس الأرقام القديمة شغَّالة لما دخلت القصر. وسألت نفسي، هل ممكن يصل بك الغباء لدرجة إنَّك تسيب الوضع على ما هو عليه من ثلاث سنين؟

حار جوابًا، فسألها مخشنًّا:

- ومنين جبتي الأرقام القديمة.

هزّت رأسها مشفقة، وقالت:

- من حَسَن أخوك.. حبيب قلبي، اللي معاه كان معايا، واللي يعرفه أنا أعرفه.. بعد ما الحاج انشل، أنا مسكت مع حَسَن شغل كثير، ومسكت إدارة القصر، يعني الأرقام الشفرية كلها في إيدي.

أفحمته، ففكَّر: كيف بلغ به الإهمال هذا الحد؟ كان يعرف في نفسه نزوعه للتباطؤ والتأجيل، لكن ألهذا الدرك نزل؟ لم يتصوَّر أن تعرف سَحَر أو غيرها تلك الأرقام.. وكيف يتأتى له أن يعلم أن أخاه قد بلغت به الثقة فيها للحد الذي يسلمها معه رقبته؟ كم كان أخوه رخيصًا قذرًا قصير النظر! أغاظته الفكرة لدرجة أنه حلف بالله العظيم في قرارة نفسه أن يفيق من معاش المشردين هذا، لأن الحياة أصبحت خطرة وأعداءه كُثُر، وأية زلة أو ثغرة تنكشف منه كفيلة بالقضاء عليه.

أما هي فتطلَّعت إليه كأنها ترى خواطره تتنازع وتتلاطم فترفعه وتحطُّه، تُدَاخِلُها نزعاته المعتادة لتعذيب الذات وتأنيب الضمير واللوم القاتل المُثبط لكل عزيمة والذي لا تُرجى منه فائدة. لم تكن سعيدةً بحالة اليبس التي أصابته، ولم تكن تعيسةً أيضًا. إنها تتفرَّج عليه بعين العطف والاعتبار؛ لأنّه بالنسبة لها شخصٌ فريدٌ من نوعه، أحمق ولحُمْقِه سمة مُحبَّبة تدفعها أحيانًا للإشفاق عليه. هذا الكائن الضئيل التعس، الذي يذكِّرها بالكلاب الصغيرة الضالة.

مالت وشبّكت ذراعيها وأسندت ذقنها على سطح الطاولة، وتنأنأت بكسل، وظلت ترمقه كالقطة لمَّا تنتظر طعامًا، وهو يبادلها النظر حاسبًا حسبة معقدة. ثم سألها مرَّةً ثالثةً بخواء:

- أنت جاية ليه يا سَحَر؟

- وحشتني!

- ما كنتيش خايفة إني أعمل فيك حاجة؟

ضحكت ضحكة متَّزنة خافتة، وقالت:

- أخاف منك؟ سلامتك وتعيش! أنت لا يمكن تؤذيني.

ضاقت عيناه، وقال حاقدًا:

- تعبت جدًّا علشان أوْصَلك.

- عارفة؛ بس اللي بيني وبينك يستاهل.

- اللي بيني وبينك شيء واحد.

- اللي بيني وبينك حاجة معقَّدة.. إحنا علاقتنا ببعض علاقة دم يا حسين.

- خليني أكون صريح معاكي يا سَحَر، أنا سعيت وراكي لسبب واحد.

- أنت صحيت في يوم، وقرَّرت تشطب أهلك من الدنيا.

قال بحقدٍ عارم:

- أهلي هم اللي صحيوا في يوم، وقرَّروا يشطبوني من الدنيا.. وبدأوا بأسْمَاء.. فاكرة أسْمَاء؟

زاغ منها البصر لحظة وتعكَّر وجهها، ثم نظرت إليه مليًّا، وقالت بصوتٍ خفيض:

- بس سيبتني أعيش.

ارتجفت شفتاه واحمرَّ وجهه كأنَّه على وشْك البكاء، وقال بتهيُّجٍ وبُغض:

- بعد ما بُستي جزمتي!

رَمَته بنظرةٍ مخيفة، وغلى في جوفها الغضب والنقمة والعداوة، لكنَّها كبتت مشاعرها بعزيمة ماضية، أو هي ازدردتها كما يُزدرد الصديد والقيح والسم. مالت تجاهه ولم يبق في وجهها من أثر كلمته إلا قليلًا من الكِدر، وسألته بتُؤدَة:

- تفتكر، ليه سبتني أعيش؟

- غباء وقصر نظر، لا أكثر.

بهذا أجاب بألم، فهزَّت رأسها نافية، وقالت بخفة:

- إيه اللي منعك دلوقت؟ سلاحك قدامك.. (ثم زفرت) يا حسين، أنا وأنت كده (ولفَّت الوُسْطَى حول السَّبَّابَة)، علاقتنا صعبة وخطر، والخطر هو اللي ضمن لها الاستمرار.

هَزَّ حسين رأسه مستاءً، وقال:

- علشان مرة أو مرتين؟

ضحكت بصخبٍ، وقالت:

- دي الحاجة الوحيدة اللي المفروض ماتتنساش.. يا حبيبي سبعتاشر مرَّة! منهم مرتين في أوضة الحاج القبلية، هنا!

تسارعت وتيرة أنفاسه، وقال بغلٍ وتربُّص:

- أنا أخذت على نفسي عهد، إنك لازم تموتي.

سألته مندهشة أن "ليه كده؟!"، فقال بقسوة:

- أنت اللي بدأتي.

ضحكت برَوْقة ورزانة، ومرارة أيضًا، ثم قالت:

- أنا حلفت إني أخرب دنيتك زي ما خربت دنيتي.. أنت قتلت حَسَن وأخذت مني كل شيء، وذليتني ذل الدنيا والآخرة.. (وارتعشت شفتاها) صح، أنا بُسْت جزمتك.. لحست الطين والخَرا من على نعلك.. وكان لازم تدفع الثمن (وأشارت إليه بسبابةٍ مرتجفة) أنا بَعَتلك إيفيلين، وأنت أدرى مني إزاي قدرت تلفَّك تحت جناحها.. بصراحة، هي الأول كانت بتلعب عليك، لكن حَبَّة حَبَّة بقت تحب عشرتك، واندفاعك أنك ترضيها بأي ثمن.. والثمن كان غالي جدًا.. تعرفه؟

لم ينبس، فتبسَّمت وقالت شامتة:

- كل ما يخص أسْمَاء.. دهبها، مجوهراتها، كل إكسسوار تسحبه وتلفه في علبة قطيفة وتهاديها به.. يا حسين أنا أحب أقول لك، إن كل شيء عَطِيته لإيفيلين، كان بيوصلني في علبته!

بدأ وجهه في التغيُّر كشأن اللحم لما يصبه العفن فيتغيَّر وتخبث رائحته. أراد أن يقول أن.. أن.. حَسَن هو من.. لكنَّه لم يستطع! شُلَّ لسانه.. لم يستطع.. إنَّها تلوِّك سيرة زوجتك على لسانها النَجِس. إنها تَنقُمُ عليه أن قتل قوَّادها الذي هتك عرضه مرتين! أي هلاك هذا؟! بل أي عذاب؟! اقْتُلْهَا أيها المُخَنَّث، اقْتُلْهَا أيها العاهر، يا ابن الفاجرة اقْتُلْهَا! فقط سدِّد سلاحك، واثقب رأسها! لا أستطيع! لا أقدر!

نظرت في عينيه، وقالت بشيء من الرقَّة:

- أنا يا حبيبي مش عايزاك تظلم البنت، إيفيلين لما جالها مني أمر الخلاص منك، عيَّطِت، وحاولت تقنعني أنك اتغيَّرت، بقيت ضايع، وأتفه من أني أدوَّر وراك على أي نوع من رد الاعتبار.. (ثم تغيَّرت نبرتها للاستعلاء) بس أنا لما آأمر، لازم أمري يِتنَفذ! (وضحكت باسترواح) ملعون أبوها، عملتها وضربتك بالنار بجد! (وهزَّت رأسها بعجب) بس أنت، معجون بمية أبالسة، طلعت منها!

استشعرت اضطرابه وعجزه عن الاستجابة، وإن لم تستشعر دموع العجز التي كتمها بعُسر وألم، كحابس البَوْل يكبته مُضطرًا، فقالت بيُسْر:

- أنت لازم تشكرني يا حسين.. أنا أنقذتك من حياة كانت حتقضي عليك بعد سنين قليلة. مخدرات وأماكن مشبوهة وناس وحشة.. أنت بعد خروجك من المستشفى فُقْت، وبدأت تدوَّر على وِزْتَك.. بعدها أنت بقيت طايح.. إيلي كان جريء، مع أنه شاف الموت، بس دلُّك غلط على أعمامك.. أنا لسه مستغربة إصراره على كلمته، مع أني متأكدة إنك دَوَّقته الويل.. يمكن عناد، أو غيرة.. (وضحكت مُجدَّدًا) أصله كان عارف أدق تفاصيل علاقتك بمراته، أنا كنت بأبلَّغه بيها أول بأول، والحيوان كان بيحبَّها موت.. على آخر أيامه كان اتهبل.. أنت تحوَّلت بالنسبة له لإبليس.. عدو أزلي!

وتَثَنت في جلستها بمجونٍ واستخفاف قائلة:

- وهي صراحة كانت مجنونة بيك، ومن حكاياتها عَنَّك.. أوف.. دا أنت جَنِنْتِني شخصيًّا! في حاجات صُغيَّرة تقدر تعرف منها إن كانت الست بتحبَّك، وكلها كانت في إيفيلين.. أنت كنت معاها كل حاجة إيلي يتمنَّى يكونها.. وهي كانت معاك إنسانة تانية.. إنسانة نضيفة.. فاهم؟ أنا شَحَنت إيلي عليك لآخر طاقته، علشان يقدر يقف، ويواجهك يا حسين.. وهو ماخيبش ظَنّي فيه!

وصمتت لحظة، ثم قالت بجديَّة:

- أنتم عيلة واطية، وأنا قرَّرت أنكم تخلَّصوا على بعض! وأنت ماكدِّبتش خبر.. كنت محتاج كلمة واحدة من إيلي: عبد الحكم الجارحي.. وهو قالها رغم كل شيء؛ لأني لما آأمر، لازم أمري يتنفذ! ولأنه كان مقتنع.. كان مؤمن.. إن دي أحسن طريقة ينتقم بها

مِنّك.. ومن إيفيلين.. ومن نفسه! والبَرَكة فيَّ طبعًا.. وأنت ذكاءك كبير، والحظ جانبك، لحد ما وصلت لجلال السايس.. شابو!

تجعَّد وجه حسين وأحَسَّ بروحه تنسحب منه لتهوي لقعر الجحيم، إلى خِضَمّ زاخر من نيرانٍ وصواعقٍ ودخان، فقالت ساخرة:

- أنت استحليت الدم، ودخلت في دوامة، وكان نفسي أعرف أنت تقدر تروح لحد فين.. أنا كنت مستعدة أضحي بالشبكة كلها علشان أضمن لك خط السير المرسوم.. الصراحة الشبكة ما عدش لها أهمية عندي؛ لأني ما عدتش محتاجة فلوسها النجسة.. كل واحد من الشبكة كان عارف بالضبط يقول لك إيه، ويوجّهك فين، لحد هنا (وأشارت بسبابتها للأرض بحسم).. المكان ده، والموقف ده.

سألها حسين بألم:

- أدينا مع بعض.. كل ده ليه؟

تبسَّمت سَحَرله، وقالت بنعومة:

- لأنك وحشتني!

قال حاقدًا:

- وحشتك، كنت تتكلمي في التليفون.. أنت اللي بتعمليه ما لهوش معنى.

هزَّت رأسها نفيًا، وقالت بهدوء:

- حبيب قلبي، أنا كل شيء أعمله وراؤه معنى وهدف.

- عايزة تقتليني مثلًا؟

- لو كنت عايزاك تموت، كان حصل من زمن.

ثم حدَّقت في وجهه الذي غزاه الكدر والحمرة، وقالت برفق كأنها تحادث طفلًا:

- الحَق يا حسين، أنا ما كنتش عايزاك تموت.. بس تدفع ثمن اللي عملته في نفسك وفيَّ وفي أهلك.. أنت ذلّيتني، وأنا كرهتك! وأنت كنت حتوقّع نفسك بنفسك، لأن عقدة الذنب أكبر منك.. هو ده حسين اللي أنا أعرفه.. أنا جيتلك النهارده، علشان أنقذك من نفسك!

قالت جملتها الأخيرة والعطف والحزن يطفوان على وجهها النقي، ثم انقطع خيط الكلام بصمتٍ كئيب. جالت بعينيها في أرجاء المطبخ لتلاحظ الفوضى التي تعمُّه، والرائحة المختمرة الخبيثة التي تكتنفه، وصفوف النمل مختلف الأحجام التي تسعى على الحوائط والأرضيات جنبًا لجنب مع الصراصيروالذباب الدقيق بين بقايا الطعام. ثم سمعته يقول لها بصوت خافت:

- تغيَّرت كثير.

- أنت كمان تغيَّرت.

- للأسوأ ولا الأحسن؟

زفرت، وقالت باسمة:

- للأقذر.

ثم أشعلت سيجارة، وغلَّفهما الصمت حتى أتت عليها. تدنَّت مشاعرحسين المحمومة إلى حالة من الإنهاك الشامل والسلبية التامة، بعد فورة داخلية زائفة، استبسل فيها بالمدافعة والممانعة، في عوالم ذهنية من الخيال المَحْض! ولكم أحَسَّ لحظتها بالبؤس والهوان.. والعار! وعندما طال بهما الصمت وهي تحدِّق فيه وهو يتلافى نظراتها إلى الأرض، سألته:

- تشرب قهوة؟

رفع عينيه إليها بشيءٍ من الاستنكاروالدهشة؛ لأن السؤال بالنسبة إليه كان مفاجئًا وغريبًا، كسؤال الجندي لعدوِّه أن يشاركه العَشَاء في مُعْتَرَكٍ تناثرت فيه الجثث وارتفعت فيه سحب الدخان والنار. لكنَّه أجاب بحيرةٍ واضطراب:

- مش عارف إن كان عندي بن.. حاقوم أشوف.

قاطعته وهي تنهض:

- خليك أنت، أنا حاقوم أشوف.

تعهَّدها ببصره مندهشًا من خفَّة تصرفها، وعندما رآها تذرع المطبخ ذهابًا وإيابًا، وتفتِّش في الأرفف والأدراج، وتحاول تنظيم ما يقابلها من فوضي، قدَّر أنها تحاول

استعادة الألفة القديمة مع المكان. أزالت بحرص كل ما طالته يداها من بقايا الطعام في كيس أسود كبير، وقالت مولياه ظهرها: "أنت عايش في مزبلة." ابتسم مرتبكًا ولم يجد ما يقوله. فكَّر للحظة أنه قد جُن أو أن تهيؤاته بدأت تتَّخذ صورة الواقع وتزاحمه في عالمه الحقيقي.

استمرَّت في البحث بهمَّة، ولما طالت الدقائق بدأ الصداع يهاجمها، وهو أمر يصيبها عادةً عندما يستغرقها البحث عن شيءٍ في دائرةٍ ضيقةٍ ولا تجده. وبدأت تزفر وتتذمَّر بصوتٍ خافت، حتى وجدت ما تريد. سألته بروتينية وهي تعدُّ قَدَحَ القهوة: "آخر مرة أكلت طبيخ بيتي كانت إمتى؟" لم يخطر بباله أن يسأله أحد هذا السؤال «البَيْتوتي»، فبحث في مخه عن آخر مرة، واستطاع أن يتذكرها، وهو ما أدهشه وأصابه بضيق شديد وهَمٍّ مُطبق. ثم أجاب:

- آخر مرة، كان طبيخ إيفيلين.

- سنة عايش على أكل برة؟!

قالتها بهدوءٍ تام، وكأن اسم إيفيلين وما ترتَّب عليه من أحداث لا يمثل لها أدنى قيمة. ثم تذكَّر أنه لم يعلم قبلها ولا بعدها من هو أشد قسوة منها. لقد انتُزِعَت الرحمة من قلبها انتزاعًا.

انقبض منها اشد الانقباض، وشعر بنفسه تنفر وتبغي الفرار من هذه المخلوقة جميلة الخلقة سيِّئة المنبت. لكن أين المفر؟ وقالت دون أن تنظر إليه:

- أنت أسلوب حياتك مش صحي.. أكل قليل، تدخين وشرب كثير، غير الحشيش!

نظر إليها بقنوطٍ ونقمة، وعلم أنها تستعرض إلمامها بحاله كله. الملعونة كانت تتجسَّس عليه كما كان يتجسَّس هو على عائلته. يا ترى كم مرة دخلت القصر في غيبته، أو حتى خُلسَةً في وجوده؟ بنت الحرام، سيطرت عليه وحرَّكته كما الكراكوز ضد عائلته وشبكتها، وقتلت به من أرادت.

لحظته بطرف عينيها وهي تعد القهوة وقد وضع وجهه بين كفيه كأنه على وِشْك البكاء، لكنَّها لم ترحمه، بل قالت بهزأ:

- بقيت سرسجي يا حسين!

وبِم أجابها؟ "بم ستجيبها أيها الخنزير المَخْصِي؟! تكلَّم يا مسلوب الإرادة.. أتكلَّم؟! وماذا أكون أنا؟! لست إلا دُمْيَة تلعب بها المومسات.. قل شيئًا، أو افعل شيئًا، اقتلها الآن، سلاحك أمامك، اقتلها اقتلها.. أقتلها؟ أنا؟! هل تقصدني أنا؟ لا أقدر، أهون على أن أقطع يدي هنا، على هذه المنضدة، الآن، لكن لا أقتلها.. لا أستطيع! لماذا؟ طيِّب، لماذا؟! لقد سحرتني منذ سنين مضت.. إن على رأسي عفريت من الجن، أشعر به دومًا.. إن هؤلاء الملاعين الكفرة يمارسون السِحْر، وأقسم إنها دبَّرت لي عملًا وأخفته في مكان ما.. لا أجد تفسيرًا غير هذا!!"

وبم أجابها؟ قال بائسًا غائمًا:

- طبعًا أنت مالكيش في الحشيش والكلام ده.

- لِيَّ طبعًا، لكن مش بالجنون ده.. لأن شغلي يعتمد على اللياقة البدنية وصحة الجهاز التنفسي.. بس أنا مستغربة، لأني أعرف أنك تكره المخدرات، وكنت تنكر على حَسَن كيفه في تدخين الحشيش، وتعتبره هايف وبليد لأن العادة دي استعبدته.. ودلوقت أنت بتحشِّش قد إيه، خمستاشر مرة في الأسبوع؟

- الوحدة والإحباط يعملوا أكتر من كده.

رمقته بنظرة غريبة، ثم سألته بفضول:

- عندك حشيش دلوقت؟

لم يفهم الغَرَض من السؤال، فأجاب حذرًا:

- لبناني من العجيب!

عادت دون تعقيب لما تفعل، ثم تهادت في خيَلاء للمنضدة، ووضعت قدحي القهوة أمام حسين وجلست. أخذا يرشفان بأناة، ثم سألته بيقظة:

- هه.. عَجَبِتك القهوة؟

هَزَّ رأسه مؤمِّنًا، وقال بتوكيد:

- تسلم إيدك.

استنار وجهها فجأة فهو إلى إشراقة الذهب أقرب، وعاودته تلقائيًا قائلة:

- سلامتك وتعيش!

ثم صمتا لحظات بين الشراب والدخان، حتى قالت:

- أنت بتعرف تقول كلمة حلوة.. على عكس أخوك، البحر يروق ويتعكَّر، وهو دايمًا متعكَّر.

- حَسَن طول عمره إرضاؤه صعب.

ردَّت فورًا:

- قول مستحيل.

لم يدر بم يجب، فالتزم السكوت تاركًا لها مبادرة الحديث وإدارة دفته كيف تشاء، وهو على كل حال ما يزال لا يفهم ما يحدث بالضبط، فاكتفى بالاستمتاع بقهوته. وعندما أنهى شرابه سألها بغتة:

- أنت إيه اللي رماك في سكتنا؟

رفعت عينيها إليه لتَسْتَبين مَغْزَى سؤاله. لم يكن حسين عدوانيًّا في نبرة صوته، ومن ثم لم يكن سؤاله استنكاريًّا أو هُجُوميًّا، بل أقرب لمحاولة بَدْء حوار، وهو ما أسعدها على حين فُجَاءَة. إن حديثها السابق كله لم يكن إلا محاولة لـ«نَكشُه» و«استفزازه»، ثم «ترويضه» أو «استئناسه»، ثم الركون إلى زاوية آمنة نسبيًّا يمكنها منها فتح «حوار»، يأخذهما بمرونة وتدرُّج إلى مفاوضات «تقرير المصير»! ولابد للحوار من نقطة بداية، وها هو يقدمها إليها غنيمةً باردة. وإن لديها الكثير من الرُّغاءِ والغُثَاء مما تريد تفريغه ها هنا على مسمعٍ من «خليلها اللَّدُود»! لذا استجابت لتساؤله فورًا، وبدأت تسرد ببساطة:

- أنا اشتغلت في الشحاتة، وبعت بضاعة على الأرصفة، وفي النشل وتوزيع المخدرات، وآخر المتمَّة رقَّاصة! فكَّر وأكيد تقدر توصل لإجابة سؤالك: مخدرات، ودعارة، ورقص، وتسأل إزاي عرفت حَسَن؟!

قال بكراهية عميقة ومفاجئة:

- كان يوم نحس، يوم ما حَسَن دخَّلك وسطنا.

تراجعت في مقعدها، وضحكت قائلة:

- ورَبنا عندك حق. بس أنا أيامي كلها نَحْس، من قبل ما أدخل وسطيكم، وبعد ما بقيت وسطيكم! أنا من زمان شوارعية، ورزقي على حسب الريح ما توديني، وممكن أدفع كثير علشان أكلة.. كل اللي حصل بعد كده كان علشان أكلة.. بسببها قابلت واحد اسمه بَدْر، وبسببها دخلت في سِكَّة ما يعلم بيها إلا ربنا، وبسببها بقيت «سَحَر» اللي أنت شايفها قدامك دلوقت، وبسببها قابلت حَسَن.

- من بَدْر؟

استحضرت الصورة في مخيلتها، وقالت:

- بُص، بَدْر دا، سَبَع رجال في بعض! غني جدًّا، ومقرف جدًّا.. أنا فاكرة ملامحه كأنّه قدامي.. صدره مِلَسْلِس زيّ الستات، وحلماته غامقة وكبيرة (وضحكت) ما تفرقوش عن صدور الحوامل إلا بالشعر.

وشبَكت ذراعيها معتمدة على الطاولة، ومالت متطلعة إلى وجه حسين القسيم:

- لو شفته عريان، ورب الكعبة، ما تقلعه من رجلك! كان أسمر، جدًّا.. مش زيي أو زيّك.. أنت سمارك لوز، ووشك حلو زيّ القمر! (ابتسم ابتسامة خفيفة مبتهجًا بهذا الثناء العابر) إنما هو، كان سماره سواد وعكارة، غامق ومترّب.. وشه عتمة في عتمة، وجسمه كله مطوي زيّ مصارين البهايم.

وتنهّدت، وقالت بخبره من عركته الأيام:

- الجوع يا حبيبي يعمل معجزات، وأيامها كنت أشلانة (أي: مُفلِسَة)، ومِقضِيّاها نوم على الأرصفة.. لو كان قرد عزمني على أكلة كنت قبلت.. بَدْر كان أزارجي، يحب يتسكَّع على أبواب المولات والكافيهات، وله كيف مخصوص في الشحاتين وبنات الليل الأوساخ.. فوق ده كله يحب الأكل جدًّا.. حبه للأكل وعبادته للنسوان خرجت بنتيجة طبيعية.. تفتكر إيه؟

- أنه يعزمهم على الأكل في أي مكان.

- وعزومته كانت في الجون.. كنت باتسنكّح في الشارع وشافني، وركبت معاه، وكنت حاتكعبل؛ لأنها أول مرة أركب عربية كبيرة.. فكري يودّي ويجيب، حنروح فين؟ أخذنا كوبري عبّاس لمجرى العيون، ووصلنا مطعم شعبي اسمه أبو حاجة.. بَدْر طلب وقعد

يتكلم، والطلبات نزلت: ثلاثة كيلو كباب وكفتة ونص ممبار، ونيفة مسلوقة بشُربة وبهاريز (وتنفَّست الصُّعَدَاء) يا مراري! عقلي طار من صوابع الكفتة.. وأكلت لحد ما اتسطلت.

ونهضت فجأة وهي تقول:

- أنا اتخنقت من القعدة، وعايزة اشم هوا.

واتَّجهت إلى الشرفة الصغيرة الملحقة بالمطبخ، فتبعها حسين مُسيَّرًا لا مُخيَّرًا، ودخل الشرفة فأحَسَّ بالبرودة تخدِّر أطرافه. وقف الاثنان متجاورِان مستشرفان الأفق المعتم، ثم أشعلت سيجارتين لها وله، وقالت:

- وإيجه الوقت علشان أدفع ثمن الأكل.. أخذني لشقته في الجيزة، وقال: "شقة زين، مو أحد يطولها.. ما فيها أحد، فاضية! فرش سوبر لوكس!" (ثم ابتسمت بحزن) الحق الشقة كانت سوبر لوكس، لها طلَّة حلوة على النيل.. اتهجَّم عليَّ، كان خشن جدًّا، بس أنا متعودة على كده.. وسألني عن اسمي، وقال: "عاشت أيامج.. وعاشت الأسامي يا سَحُورة." على الأقل ما ضربنيش ولا قال لي كلمة وحشة.. خفت جدًّا لأنه عايزني أبيت، فكَّرته إني أقبض تلتمِيت جنيه في الساعة!

ثم ضحكت بمرح، وقالت:

- تخيَّل، ابن العبيطة صدَّق أني بآخذ تلتمِيت جنيه في الساعة! وقال: "أي حاضر، بس لحظة." واداني تقفيلة فلوس، أنا ما صدَّقتش لدرجة أني افتكرت أنها مضروبة.

اتخذت نفسًا غائرًا من سيجارتها وزفرته غزيرًا، وقالت مُستقبحة:

- فضلت معه طول مدة إقامته في مصر، وأخذني معه وهو مسافر الكويت.. أنا اعتبرتها إعارة، هو أحسن من غيره، فلوسه كثيرة وإيده فِرطة.. قلت في نفسي أسافر معه يمكن أقدر أضغط عليه وأتجوِّزه، وإن ما حصلش أفضل أحلب فيه على قدر ما أقدر.. فرصة، صح؟

لم يستجب حسين، فابتسمت مستهزئة وقالت:

- كنت هَبْلة، افتكرت إني وقعت على لقيَّة.. قعَّدني في شقة واسعة جدًا.. بس تغور الجنينة اللي حارسها القرد! التليفون يرن كثيروأطنِّش، أنا عارفة إنه هويتصل، وأعرف هوعايزإيه.. في الآخرأرد، أتأسِّف وأتحجّج، ويقول: "لا لا مومهم.. هلا آسف ما انتبهت عليج.. أعذريني لما تأخرت عليج.. آجي؟!" أدَلّع وأقول له تعالى، بس شوف تدفع كام.. "الله وايد حلوكلامك! الله صوتك وايد حلو." لمًّا كان يدخل الشقة بالدشداشة، يكون عرقان كأنه خارج توُّه من المالح، ومفرهد.. أسأله مالك، يقول لي: "صعدت الدرج لأن الأصانصيرمصكّر.. ما أقدرأمشي خطوة، ما أقدرآخذ نفس!"

كانت تغيُّر من سحنتها، وتضفي على نبراتها غلظة لتتقمص الدور، وعلى الرَّغْمِ من جودة أدائها وما قد يبعثه من رغبة في الضحك، فإن حسين لم يبتسم مطلقًا، لأنَّه كان في غمّ أغناه عن أي مَسرَّة، وأيضًا حرص ألا يجرح شعورها برد فعل غيرمناسب لأنه يعرف طبعها المتطايرالمضطرب. ظهرت على قسماته أمارات الجِديَّة والتركيزإذ هي تتابع:

- كأني شايفاه قدام عيني، داخل عليَّ الدغف! "هلا مساء النوير، شلونك سَحُّورة؟" أقول له إزيك يا سي بَدْر، سلامتك وتعيش! "حمد الله طيب." يقعد قدام التليفزيون منتظرإني أعمل العشاء؛ لأني خدَّامة أبوه.. هنا بالذات، كل مرة، يخيب أملي، وأحَسّ أن الإعارة انحولت لسُخرة.

وأردفت بسخرية مريرة:

السفرمن غيركونتراتو، ولا أجازات، في بلد زي حَلّة الشوربة من الحروالرطوبة.. أحيانًا تجيله نوبة صراحة فيقول: "أنا كنت مشتاق لك موت.. لو في كلمة أكبرمن أحبك، كنت قلتها لك، بس يا حسافة ما في!" كل ليلة معايا هي أسعد لياليه، والدنيا "صج حلوة." المسكين مش عارف "شنو يسوي" علشان يثبت أنه يحبني.. خلطة من المذلة والفنطزية وقرف العواجيز.

وضحكت قائلة وهي تحرِّك كفها أفقيًّا أمام حلقها ذهابًا وإيابًا:

- كان لازم في مرة وهونايم معايا أضربه بساطور.. في السرير، لمَّا يخلَّص، ينهج ويقول (وجعلت تشهق بشهوانية) "الله يقطع إبليسج!" يلعن أمه، رائحة وسخة، تخليك تعوز

تطرش.. فاهم قصدي يا حسين؟

لم يستجب مرة أخرى، فشعرت أنها تحتاج لإيضاح الصورة أكثر، فقالت:

- في ناس بطبيعتهم أوساخ، لو الدنيا فرضت عليهم الغندرة من بَرَّة، تفضل الناس القريبة منهم تعاني وساخاتهم من جوة.. أحيانًا تكون إيده فِرطَة ويدِّيني من غير حساب، وأحيانًا يُملص.. "بس أنا مستعيل الحين، أكلمك العشاء، أوكي، الساعة ٨.. سلام. ويلطع على رقبتي بوسة، ويفتح الباب ويلتفت: "بس راح أشتاق لك وايد، وما أدري شنو راح يصبَّرني على فراقك.. يعطيج ألف، ألف، ألف عافية حبيبتي.

سكتت قليلًا لتستجمع أفكارها، ثم التفتت لحسين قائلة:

- ومع كده، عمره ما ضربني ولا شتمني.. يصرف عليَّ ويحبني، يعني بالنسبة للي فات، المفروض إن بَدْر نعمة.. صح؟ لكن ده لحد لما حَمَلت منه.

حَدَجَها حسين غير مصدِّق، ولأنه لم يجد ما يعلق به، قالت عنه:

- آه، حَمَلت منه، غصبًا عني.. دي كانت بداية النهاية بيني وبينه.

- كان عايز يسقَّطك طبعًا.

هكذا غمغم متفهمًا، فضحكت بغيظ، وقالت:

- يا ريت! ده راجل مخه كظوظ! (أي: لا يفقه شيئًا) كان عايز الوَلَه (الطفل)، بس مش عايزني أربيه أو يعرف إني أمه بعد كده!

حدَّق غير مصدِّق مرة أخرى، ورأت أن من واجبها التفسير، فقالت بإسهاب:

- بَدْر كانت غيته أنه يشكِّلني على مزاجه.. يحطني في قالب يتمتَّع به ويقدر يتعامل معه.. عايزني أتأوَّه في السرير زي اللي عرفهم وشافهم، وغير كده يحبني أبقى هادية ومطيعة ومكسورة الجناح.. عايزني أتحشم وأبقى محترمة قدام الناس، وأقلع له وأعمل معاه حاجات قبيحة بالليل.. عايز الوَلَه لأنه من صلبه، ومش عايزني في الشروة: لأنه كده يضطر يتزوجني.. بعد كده بدأ الضرب والإهانات، وأنا كنت في بلده، باسم غير اسمي وجواز سفر مزوَّر، وعليَّ أحكام في بلدي، وما ليش حقوق أصلًا.. قال لي الوَلَه لازم يكون كويتي بالتأسيس، ولازم تكون أمه كويتيَّة، ومحترمة!

ثم نظرت للفراغ، وقالت بابتسامة مهمومة:

- المصيبة إني اترجيته يسيبلي الوَلَه، وأنا أعمل أي حاجة يطلبها.. دلوقت أنا مستغربة من نفسي، ليه أذل نفسي كده؟

قال حسين بخفوت:

- شيء طبيعي.. مش ابنك؟

رمقته سَحَر بنظرة هازئة، ثم أخرجت ضحكة مكتومة بالخوار أشبه، وقالت:

- أنا كان فكري إني أقدر أربطه بالوَلَه، يمكن يتجوّزني، بس هو عَرَض عليَّ عرض كريم، ملعون أبوه! اشتغل في بيته خدَّامة وأنا حِبلى، من غير كشف اللي بيني وبينه.. لو أثبت إني أقدر أكون محترمة ومطيعة، يمكن يقبل يتجوِّزني، وأعيش مع الوَلَه تحت طوع أهل بيته.

وبطوَّعت بعقب السيجارة مغتاظة، وقالت:

- وافقت، ملعون أبويا! بيته كان أحسن بيت، ونسوانه أحسن نسوان.. أخته اقترحت أنهم أحسن يجيبوا بنت فيتنامية طيِّعة وأمينة وقليلة الكلام، على عكس المصريين، حرامية ورطُّهم كتير.. افتكروا السواق حامد لما كان يغش في البنزين ويشغَّل العربية لمشاوير سمسرة لحسابه، ومراته أُمَيْمَة اللي كانت تسرق الأكل والصيغة، وكانت عايزة تعمل عَمَل للقمُّورة الصُغيَّرة.. خدمتهم شهرين، أكتر من آذاني فيهم بنته مرام.. شتمتني وضربتني كتير، وأنا كنت المرمطون بتاعها، أحضَّر لها حمَّامها وغياراتها، ولما تقف قُدَّام المرآة تحط "ها الكريمات والدعافيس"، أقف جانبها زي العبد الأسود في الأفلام.

- إيه الدعافيس؟!

سألها حسين منتبهًا، فضحكت قائلة:

- وربنا ما أعرف، كانت تقول كده.. تلبس دنجريه ضيِّق (أي جينز) وبلوزة، وتنزل تفطر على زبداية وعصير، لأنها "مسوِّية ريجيم" تقعد على الكرسي الهزَّاز قدَّام التلفزيون، تغيِّر المحطات بصباع رجلها على الريموت لأنها مشغولة، تأكل ظلاتو (أي جيلاتي: آيس كريم)، مع إنها "مسوِّية ريجيم"!

وأطلقت ضحكة ناقمة، وقالت:

- ما تحملتش أشوف بَدْر اللي كان يوطي يبوس رجلي، يعاملني كخدَّامة.. قررت إنه لأ، مستحيل أعيش معاهم بقية عمري، وواجهته بالكلام ده.. قلت له إما يشوف حل أو أعمل له فضيحة، والصراحة الراجل تفهَّم ودبَّرلي سكن مؤقت أقضي فيه فترة الحمل، وياخذ هو الوَلَه بعد كده يضمه لأهل لبيته، بحجّة أنه اتجوِّز في مصر وطلَّق، ويسمع كلمتين ويتخانق خناقتين والموضوع ينتهي.. وحَصَل، وولدت، وما عرفتش اللي جبته وَلَه ولا بِت، وما شفتوش، ولا عرفت اسمه.. حط لي مبلغ معقول في البنك، وشحنني على مصر بالهدوم اللي عليَّ والباسبورت.. دي الفلوس اللي بدأت بها لما رجعت مصر.

- طيِّب، الرجل بن حلال! أنا شايف أنه عاملك كويِّس.

ضحكت بهزأ وسجع رائق، وقالت منكرة:

- بن حلال؟! ده ابن الكلب مصّ زعزوعتي!

قال مُصرًّا:

- أنت نفسك قلت إنك بالفلوس دي بدأت حياتك هنا، يعني أولًا وأخيرًا من خير بَدْر.

- ده لحمي الحيّ اللي نهش فيه سنين!

قالتها سَحَر وهي ترمقه بحدَّة مُتَوَقدَة، ثم أشاحت بوجهها عنه. غلَّفهما الصمت، وأحَسَّ حسين بالبرودة تنخر عظامه، واستغرب كيف أنها تقف هكذا بثوبها الخفيف، فسألها بشيءٍ من التردُّد:

- أجيب الجاكيت بتاعك من جوه؟ الجو بارد.

أدهشها سؤاله، وأحَسَّت أن موقفه الرافض يتزعزع. رأتها فرصة سانحة، فحدَّقت في وجهه طويلًا، ثم غلبها الشوق إليه، فأدنت يدها من وجهه.. كانت لمستها ناعمة على بشرته، وذات أثر حار في نفسه، حتى شعر بقلبه ينبض بقوَّة، وعقله يُسلَب بالتدريج. ثم إنها تقدَّمت منه خطوتين حتى لَزِقت به.. إنَّها ضربة دقيقة إلى هدفٍ حسَّاس.. إنَّها لا تستخدم القوَّة للقتال، بل التقنية! تسمَّر حسين، وأحَسَّ بالخطر مع هذا القرب المبالغ فيه، وشعر بسخونة أنفاسها على بشرته. وكم بدا له وجهها رائقًا وجميلًا، بتفاصيله

الوسيمة السلسة، وكم بدت له عيناها مريبتين وَضّائتين، بإسبالهما اللطيف واتساعهما الذهبي الوقح.

علم حسين معني أن تكون القوّة لينة ومُدمِّرة! علت وجهه أمارات الرهبة والقلق، وفكّر في القاعدتين اللتين حلف ألا يحيد عنهما بعد سقطته مع إيفيلين: ألا يفعلها مع شخصٍ لا يعرفه، وألا يفعلها في مكانٍ لا يعرفه. لكنَّ شيطانه وسوس له: إنها سَحَر، كيف لا يعرفها وهو أدرى الناس بها؟ والمكان هو بيته، فأي مكان أأمن من هذا؟! ثم عاد ففكَّر من جانب مخالف، فانفلق الفراغ عن وجه العدوي. تذكَّر حوارًا دار بينه وبين محاميه حذَّره فيه من أن السقطة القادمة هي القاضية. وقد أجابه يومها بثقة أن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، فقهقه العدوي بغلظة، وقال: "ده المؤمن يا باشا." وكان على حق.

وبناءًا على هذه النتيجة تلخلج خطوتين، وتَمتَم بعسرٍ وهو يزدرد ريقه:

- الـ سجائر بتاعتك دي، بتطفي وحدها.

قالت بصوتٍ خفيض:

- بلدية نيويورك فرضت النظام ده، لأن الناس بترمي الأعقاب في الأرض، منعًا للحرائق.. تطفي لو ما أخذتش منها نفس.

لم يفهم ما علاقة بلدية نيويورك بالمسألة، لكنَّه نظر فوق الإفريز، ثم قال وهو يدفعها عنه برفق:

- سَحَر.. أنا كده.. أقع.

استجمعت شتات نفسها في لحظة، وتراجعت قائلة بجدية:

- إذا كانت السجائر مش عاجباك، ورينا الأحسن.

نظر متسائلًا، فأجابته من عينيها بنظرة لئيمة فهم بها مرادها، وتفكَّر طويلًا، ثم لم يلبث أن غلبه شيطانه فدخل، وتبعته فورًا بهفوٍ في المشي وخفة.

ولم تمر دقائق حتى جمعتهما غرفة نومه، حيث جلسا متقاربين على الأريكة الوثيرة. رصَّ عدَّته أمامه على المنضدة الرخامية، فتطلعت إليها الشابة وهي تفرك يديها جذلة.

العدَّة عبارة عن ورق بفرة من نوع ممتاز، ومَكِنة لَفّ السجائر، وحشيش لبناني أصلي. أضاف حسين إلى الحشيش كميات بسيطة من الكوكايين والبراز المُجفف، وبعض السموم العصبية الحديثة التي تزيد تأثير دخان الحشيش المُهيّج. ثم تعهَّد المخلوط بورق البفرة بواسطة مَكِنة اللَّف.

ناول حسين رفيقته أول خابور، لكنَّها أبعدت يده وأخبرته أنها تلف بيدها ما تتعاطاه، ودون المكِنة، التي إن دلت فتدل على نقص الخبرة والسوقية! أخبرته أيضًا أنه ليس هناك أفضل من لَفِّ الحشيش بالطريقة العادية البسيطة، التي تليق بأصحاب الخبرة، والتي لا تتطلب أكثر من ممارسة متأنية تكفيه المكِنات والصمغ وباقي الكلام الفارغ. حاول الدفاع عن نفسه وتكذيبها في نفس الوقت، فما كان منها إلا أن برهنت عمليًّا.

نَشَرَت الخليط، وفصلت مقدارًا مناسبًا منه، وأخذت تخرطه وتخلخل مكوناته كي يتَّسق وتتضافر عناصره، ثم بدأت في لف الخابور بحنكة ودون إحكام زائد كي لا تخنقه. أتمت عملها بتأنٍ وإتقان، ثم رفعت الخابور القصير المكتنز أمام ناظريها بإحساس من أنجز أعجوبة. أحكمت إطباق أسنانها على طرفه، وأشعلته وسحبت النفس الأول بصريرٍ عسير. لا، بل مَصَّته بقوَّة، ثم نزعته من فمها، وجزَّت على أسنانها وهي تشهق من داخلها بكتمان حتى ارتعش وجهها وتخضَّب بحمرةٍ قانية، فكأنما نفذ منها الدخان في الصميم، وتخلَّل العروق والأعصاب.. ثم زفرته حُرًّا غزيرًا، ورفعت عينيها المحمرتين إلى رفيقها الذي حدَّق في وجهها مبهوتًا.

***

عندما عادت سَحَر من الكويت، وبالنقود التي ادَّخرتها، استطاعت تأسيس شركة صغيرة للأعمال الحرة اشترت لها شقة واسعة في القناطر، وقسَّمتها قسمين، أحدهما جهَّزته كمقر للشركة، والآخر كمسكن، جهَّزته بأربع غرف نوم مؤثثة على أعلى مستوى، وغرفة معيشة واسعة بوحدة بارفخمة، وحمام كبير بجاكوزي وغرفة ساونا. ثم نشرت إعلانًا لطلب فتيات للعمل في مجال المبيعات مقابل مرتب مجزي.

توافدت الراغبات فورًا، وكانت تقابلهن، وتدرس مقوماتهن الجمالية، ولا تقبل إلا المغتربات منهن، فوظَّفت ست شابات من الخمسين اللائي تقدمن. كلفتهن ببعض

الأعمال المفتعلة، وصبرت عليهن أيامًا، حتى كان يوم جمعتهن فيه، وعرضت عليهن عرضًا مغريًا. بإمكانهن الاستقرار معها في الشقة. نظرًا أنها تقطنها وحيدة، وإن الشقة كما رأين فسيحة وتسعهن. طبعًا وافقن فورًا لأنهن مغتربات، ولأن السكن نظيف جدًّا ومجاني. ابتاعت سَحَر كاميراتي فيديو رقمتين صغيرتين، وثبتت كل منهما في مكان خفي، وظلت أيامًا تسجل للبنات.

وفي يوم دعتهن لمأدبة كبيرة، أكلن فيها وشربن وضحكن، ثم سألتهن سَحَر عمن تعرف فيهن الرقص، فتطوعن جميعًا وفتكن في سلوكهن. ثم جمعتهن وصارحتهن بحقيقة العمل الذي من أجله أسست الشركة واستقدمتهن، وهو أن بعض رجال الأعمال سيتوافدون عليهن في الشقة. طبعًا ثرن ورفضن، فإذا بسَحَر تعرض عليهن تسجيلات الفيديو وهن يرقصن وفي أوضاع مخلة، وهدَّدت بفضحهن. لم تشك لحظة في موافقتهن، لأن الإغراء المادي لا يُقاوم، ثم إنها اختارتهن بعناية وعاينت أخلاقهن وعلمت أنهن أهلٌ للبِغاء، ولم تكن في الواقع تحتاج للتهديد. دارت عجلة العمل، وكوَّنت سَحَر قاعدةً معقولةً من الزبائن، وشاركت بناتهن الأرباح «بالعَدْل». وبالتدريج ازدهرت تجارتها، وتنوَّعت شرائح عملائها، وزاد عدد فتياتها، وزاد متوسط ما تحققه الواحدة منهن في الشهر لآلاف الجنيهات.

خطَّطت سَحَر للتوسُّع، وقامت بتسفير البنات للخليج، وكانت تتعامل في هذا مع سمسار من الحوامدية يستقدم لها البنات الفقراء والأرامل والمطلقات، وتقوم هي بنشر صورهن في أبواب هواة المراسلة في المجلات العربية، وعلى الهاتف تقوم سَحَر بالتفاوض معهم. ثم يُرسل العميل حوالة بريدية بالمبلغ المتفق عليه مع تذكرة البنت المطلوبة، ويتكفَّل المحامي بالشق القانوني للسفر، فيحرِّر عقود زواج عرفي مزورة، أو عقود عمل وهمية. ولأن العمل «نظيف وخطورته محدودة»، كما كانت تظن سَحَر، وصعوبته كمنت في البداية في تكوين شبكة اتصالات جيِّدة تحمي الشبكة وتجلب الزبائن، استنامت سَحَر إلى حياتها الجديدة المريحة، وأحسنت الظن بالمستقبل، حتى داهمت مباحث الآداب المكان، وألقت القبض على كل من فيه.

* * *

حيث إنهما يتعاطيان المُخدِّر تدخينًا فإنه ذاب مع مجرى الدم عبر حويصلات الرئة ومنه لأنحاء المخ، فكان هذا أسرع السبل للتأثير على الجهاز العصبي المركزي. في البداية اختلت مراكز الإدراك: السمع والبصر والتفكير والتوافق العصبي العضلي. استرخاء ونعاس من جهة، وابتهاج وتهيُّج من جهة أخرى. ثم بدأت حالة الذُّهَان العصبي بأنواع من الخداع الحسي والهلاوس.

ترامت هواجسهما في عوالم خداعية، وجمع حديثهما الفساد من كل جهة، ودامت بينهما ألفةٌ دانية، صفا فيها الفكر، وزادت الرؤية وضوحًا لأمور شتى في الحياة، عرضا فيها وجهات نظر متبادلة، حملت في طياتها بذور تفكير أينعت، لكنَّها في الحقيقة أفكار هي محض زبالة الأذهان. حدَّثته عن كراهيتها للطيران، وحدَّثها عن حبّه لإيذاء الناس، وحدَّثته عن أنها ما تزال تحمد ربها عندما تستيقظ كل صباح، لأنه آواها في فراش تحت سقف وأبقاها حية، وحدَّثها عن عجبه من تأرجحها بين الرضا والسخط، والمجون والإيمان، فأخذتهما مجادلات عارية عن الحجة عاطلة عن البرهان، تقع بهما على شعب متفاوتة من الفساد. شَطحا في التُّرَّهَات دون معوِّق، وكان يوافقها ويمانعها في ذات الوقت لهذيانه، أما هي فكانت لها لازمات متكرّرة تقطع بها مجرى الحديث فتهتف: "بص يا حبيبي، خلِّيني أقول لك.."، و"بس يا سيدي، وأخويا عند أخوك، وأبويا عند أبوك"، و"سلامتك وتعيش.

كان كل شيء رفيقًا ناعمًا، والوصال يمتد بينهما بسلاسةٍ ولُطف، وسبل الحوار تسري بينهما كسَبْح الأفاعي في المستنقعات. مرت اللحظات بليدة متمهلة، وغاب الماضي في الحاضر واختلطت التفاصيل كالعجين، وعندما تحوَّلت التأثيرات الكيميائية المتداولة آليًّا بين خلايا الجسم إلى تجربة عاطفية متلهفة، هجمت ذبابة. ذبابة صغيرة مزعجة الدنين سريعة الحركة انشق عنها الفراغ لتكدر عليهما صفو مجلسهما، وتلك طامة كبرى لمن هم في مثل حالتهما. طارداها وقفزا خلفها، مع هستيريا وصراخ وتبادح بالوسادات، حتى تمكن حسين من القضاء عليها. فتوقف الاثنان يلهثان، وشعرا بسخونة الغرفة، وانسح منهما العرق غزيرًا.

تواجها، وبيس بينهما خط الحوار. تأجَّجت داخلها مشاعر متناقضة غلبت عليها الضغينة. من البداية لمست ارتيابه في أمرها حتى وإن جلس مطمئنًا إليها في الظاهر،

لكنَّها أعدَّت العدة لإنفاذ ما عزمت عليه، وطرحت لنفسها خيارين: أحدهما تناجي به أشواقًا عتيدة، والآخر تلبي به رغبتها القاهرة في النيل منه وإذلاله. عرفت من أين وكيف يؤتى، واستدرجته هونًا هونًا، حتى صار بين يديها طيعًا لينًا يميل معها أنَّى مالت. وهو، أترع فؤاده بطلتها البارعة. كمنت في فؤاده خافية عن الأبصار ككمون النار في الحجر، فلما جاءت، اشتعل الحجر بنار شوقٍ حارقة.

اقتربت منه بقصور في المشي نبع من اختلال في الاتزان، وأمسكته من طوق ثوبه مسكة متمكن، وحَلّت أزرار قميصه العلوي القليلة. شعر باستحثاث قارص، وتسارعت نبضات قلبه. رأت احتقان بشرته بالدم، فأزالت عنه قميصه ليسقط حرًّا على الأرض، وجاست بيديها على بطنه وصدره المتوتر. تسمَّر مكانه بينما تحل عنه رباط سرواله المطاطي، وتدفعه برفق ليجلس على طرف الفراش.

خلعت نعليها، ونزعت ثوبها العلوي الضَيق، ثم حلَّت الجينز اللَّصِيق عن خصرها النحيل، وانزلته بشيءٍ من العُسْر، فاختلطت ثناياه بلباسها الداخلي الرقيق، حتى خلَّصت قدميها الحافيتين منه. عجز حسين عن النطق وهو يَرَى من التفاصيل ما لم يستطع رؤيته قبلًا في غمار اللهوجة وتَخَطُّف اللذة، فكانت الصدمة شديدة وغير متوقعة. هاله جمالها المحض وكمالها البيِّن.. كم كان تَملُّك هذا الكيان المثالي من أشد الأحلام جموحًا! راودته مرارًا ودفعها عن مخيلته تكرارًا، حتى أسلم نفسه لسكين ذبَّاحته، ونكص معها إلى ساحات بهيمية كفتهما عن أي تدبير.

تفرَّس ذاهلًا في تناسق العضلات وأُنمُوذَجية الأعضاء، ثم في البشرة الصافية الحُرَّة من النقائض، والدقائق المتناغمة البريئة من التنافر، والتكوين البهي الذي تشكل الانعطافات الهادئة والمنحنيات المتقنة والتقوّسات البديعة فيه أصل الجمال. دقق النظر فكأنه يراها أول مرة، في حاجبيها المُزَجَّجين، وجفنيها الناعسين، وعينيها الذهبيتين، وأصابعها الطويلة ذات الأظفار الرقيقة اللامعة. صدرها حدَّق فيه مسحورًا: نهدان متقنان، تزينهما حلمتان دقيقتان، تبرز كل منهما عبر هالة حبيبية تامة الاستدارة لونها للدكانة أميل. بطنها مشدودة مُرصَّعة بسُرَّة ضحلة، تؤول بعضلات منحرفة إلى عظام حوض بارزة، وتنتهي بانسيابيةٍ عند نقطة التقاء مكسوة بعَانَةٍ فاحمةٍ كَثَّة، منها ... ين ممشوقين إلى ساقين في نقاء البَلُّور، إلى قدمين ناعمتين، وأصابع رتيبة

متضافرة.

تخلَّلت شعرها الطويل بأصابعها لتجمعه كله وتلقيه خلف ظهرها، كي تسمح لرفيقها بإمعان النظر فيها دون حائل، ووجَّهت إليه نظرة فضولية غريبة. غاب ذهن حسين في صراع من الأفكار المتلاحقة والمحمومة. حدَّث نفسه بأن ما يراه الآن كان عسيرًا حتى على التمني. لا بد أن التكامل البدني صفة كامنة في موروثاتها الجينية. لا بد أنها استغرقت سنوات من التخطيط الذكي والأداء الشاق. إنه يعرف هذا لأن له باعًا طويلًا في بناء الأجسام، إذ يذكر أنه حتى فترة قريبة كان يباهي بقوام ممشوق وعضلات صلبة وتقسيم بديع أثنى عليه كثيرون، قبل أن تغمَّه الأيام وتستهلكه النوائب. كاد يترك القضية الأصلية ويغيب في شباك هواجسه، لولا أن قطعت عليه أفكاره، وتقدَّمت منه حتى أصبحت أمامه بالضبط. ازدرد ريقه ثم مَدَّ يدًا مهتزة جسَّ بها فخذها، وعندما انتقلت إليه حرارة الحياة مدَّ يده الأخرى، وجذبها إليه برفق. لثم بطنها، أو هو مسَّها بشفتيه مرارًا كالمحموم.

***

غلبت درجات لونية صفراء أقرب للظلمات على أجواء الغرفة، وألقت أنماطًا ناعمةً من الظل والنور على الجسمين المتلاحمين. كانا قد بدآ بشيءٍ من التردُّد والهيبة، خاصة هو، لكن مع تقادم الوقت استَهْوَتْهُما الشَّيَاطِين، فزال انقباض الأنفس. حَمِيَ عليهما الوغى، فتحوَّل التلامس المتقع لاشتباكٍ متقارب المدى، واشتدت حرارة اللقاء، ثم تطوَّر إلى ملاحقة وتدافع، فتباعدا وتقابلا كقطبين مغناطيسيين، تارة هما متقابلان فيتجاذبا، وتارة متماثلان فيتباعدا.

شَعَر حسين من اللحظات الأولى بخضوعه فأصابه بالغيظ، فترجم هذا إلى غلظة وفظاظة، وكلما استهل بسلوكٍ عدواني، استجابت هي بسلوكياتٍ أشد قسوة، فأصبحت ردود أفعالها شرسة خاطفة، وتحركاتها متعجلة ونشيطة، ثم اشتد النزاع حتى أخذ طابعًا إغوائيًا خبيثًا. كانت تدفعه فيدفعها، ويطرحها فتعلوه، وتفر منه فيجدُّ في إدراكها.

علا منهما الفحيح والصياح المقضوم، وانبعثت في الأوصال تفاعلات لا شعورية، ثم

وصل التحفز للحد الأقصى، فسرت من مكامن القوّة فيهما مساراتٌ غنية من العنفوان والطاقة، ثم تصاعدت النبضات بمعدّلٍ مجنون، وتولّد عنها ضغطٌ تضاعف على فتراتٍ قصيرة متقطّعة، ثم كانت الذروة التي انفجرت فيهما حاملةً رغدًا مذهلًا وانجرافًا عقليًا بدائيًّا، انبعثت في اللُّبَاب وتفشّت كجيوش من الحشرات خارقة السرعة، زحفت من داخل البدن لخارجه.

لم يكن في الغرفة من صوتٍ إلا لهاث شديد. ينهج حسين كأنه خرج لتوّه من سباق عدو طويل، وتلهث سَحَر كمن خرجت لتوّها من غطس عميق. أخذ الجهد منهما كل مأخذ، وتدنى جسداهما من حالة الإثارة بالتدريج. انجبس العرق من مسام سَحَر حتى بلل شعرها وبشرتها، وفاح عبقه المُتخم. ولم يتضايق حسين، على الرُّغْمِ من كونها غزيرة العرق مقارنةً بغيرها من الإناث، ولكم أحب عرقها ولَحَسَه في العهد البائد! استلقى متراخيًا بأريحيَّة تامة، وأراحت هي بدنها على بدنه، والأثر المُسَكِّن يبعث في نفسها نشوة.

لبثت لصيقته لحظات تنعم بلمساته حتى سكنت، ثم انزاحت عنه، وراحت تتنفَّس برضا. أشعل حسين سيجارتين، فتلقَّت سيجارتها مُمْتَنَّة، وتطلَّعت مليًّا إلى عوده الأحقف ودقائق وجهه المنسَّقة ولحيته شبه النامية، وقالت باسمة:

- جسمك لسَّه حلو يا حسين! عضلاتك ملفوفة وبطنك مشدودة وقدّك شديد.. بس خسيت جامد.

تنهَّد بحسرة، وتبادل معها حوارًا مُنسَجمًا حول تردي صحته، وأثنى على قوامها الجميل ودمَّها الخفيف، وكانا ما يزالان بين سلطنة المُخدِّر ونشوة الجماع. ثم سألها عما فعلت بعد أن أعادها بَدْر لمصر، فأطلقت ضحكة منغومة، وقالت ساخرة: "قررت أتوب!" وكذلك ضحك هو وقال: "والمثل يقول: إن تابت القحبة، عرَّصت!" فتضاحكا برهة بسجعٍ منسجم، ثم تنهّدت وقالت:

اشتريت شقة صغيرة في القناطر، وقدرت أعتر على ست بنات، وأسست شركة أعمال حُرَّة في الظاهر، ومن الباطن شغَّلت البنات!

اندهش لهذا التطور المباغت، ثم إنها ضحكت ضحكة كاسدة، وقالت:

- لحد لما كبسوا عليَّ بتوع الآداب! كسروا الباب، كانوا اتنين ضباط، ومعاهم

خمسة لابسين ملكي.. أنا كنت واخدة احتياطي مع الآداب، سواء بالفلوس أو بالبنات، ودليتهم قبل كده على كذا بنت وكذا ضبطية، وكانت ليَّ علاقة قويَّة مع عقيد تقيل هناك، لكن الظاهر أن في حاجة عملتها غلط... أو حد دل عليَّ، أو يمكن ما أخدتش احتياطاتي صح.. مع كده سألتهم: معاكم إذن بالتفتيش؟ ما ردوش بالكلام، فعرفت أنه مش بإيدي أعمل أي حاجة.. اتشبحنا (أي انضربنا بشدة) بالبيادات واللكميات، وأخذوا كل شيء: الملابس الداخلية والفوط والملايات، حتى الشامبوهات والكريمات، والبار كله اتكسَّر بخمور قيمتها أكثر من تلاتين ألف جنيه.. وأخذوا الكاميرات وأجهزة الكمبيوتر، والفلوس طبعًا، أكثر من ربع مليون جنيه!

ومالت من رقدتها لتطفئ السيجارة، وعادت فكوَّمت وسادتين خلفها، وأسندت ظهرها، وقالت:

- شمَّعوا الشقة، وأخدونا على القسم، وطلع لنا ضابط لابس ملكي شكله مفتري.. عرفت بعد كده إنه رئيس فرع البحث الجنائي شخصيًّا، وأن اسمه العقيد حمزة الناظر.. كان بيشرف على الاستجوابات، ويشارك في الضرب بنفسه، باللُّكميَّات والتلطيش والشلاليت.. الكل اتشبحوا.. واحدة من البنات فقدت أعصابها وشتمته، واللي عرفته بعد كده أنهم ربطوها وعَلَّقُوها في السقف وضربوها بالفلكة واغتصبوها، وماتت بعدها، وزوَّرا محضر بإنها انتحرت في الحجز.. أنا يومها انضربت بالشومة وبالجنزير، كان حمزة ومعاه أمين، وجاب سيخ حديد.. ما قدرتش أمسك نفسي فصرخت وعيَّطت.. أصل كان عَدَّى عليَّ زمن في نعمة وزهزهة، ونسيت الدنيا بتمشي إزاي في الأقسام.. ضربوني بتاع ربع ساعة بالسيخ في كل جسمي، وفِضِل الضرب مِعَلِّم بعد كده تسع أشهر.. ليلتها كنت مذهولة، وما أعرفش إن كنت نمت أو لأ.. اليوم اللي بعده دخَّلوني على حمزة.. وقَّفوني قدامه، فشتمني، وناولني قلم على وشي، سَوَزني.. وهاتك يا ضرب فيَّ هو والمخبرين، في وشي وبطني باللُّكميَّات والشلاليت.. بصراحة أنا ما كنتش عارفة هم بيضربوني ليه، وعايزين مني إيه بالضبط.. أنا كنت مستعدة أمضي على أي ورقة.

غادرت الفراش، وذرعت الغرفة إلى أن وصلت للنافذة الكبيرة وحسين يتابعها، حيث وقفت ناظرة إلى الحديقة الخلفية المترامية، الغارقة في ظلمة دامسة، وتفكَّرت برهة، ثم قالت:

- أنا شايفة بصراحة إن حمزة ده راجل مجنون، أكيد مجنون.. مش إنسان طبيعي، أكيد حد أذاه وهو صغيِّر.. أنا انضربت قبل كده كتير، بس مش بالطريقة المنظَّمة والمرهقة دي.. يكرَّروا الضرب وأسُورَء، وحمزة يفَكَّر إني بأمثل، فيغرَّقوني بميَّة عشان أفوق.. آخر المَتَمَّة قلَّعوني هدومي.. المرة دي قاومت وصرخت، بس مافيش فايدة.. علَّقوني على الحيط، وطَفُّوا سجاير في بطني وفخذي وباطي ورقبتي، وهنا (وأشارت للعانة) ومن ورا.. وسورئت تاني.. لما فُقت، الأوضة كانت فاضية.. صراحة خُفت أوي من حالتي كدا، وأنا عريانة، وكنت سامعة صُوات وصريخ جاي من تحت.. ما عرفتش إيه اللي حصل للبنات، وصراحة ولا همني.. مصيبتي كانت مكفياني وزيادة.. كنت أغفل وأصحى، واتمنيت لو يحولوني على النيابة علشان أرتاح من العذاب دا.. وبعدين اتنين مخبرين لابسين ملكي دخلوا.

والتفتت إليه، وقالت باضطراب:

- تعرف يا حسين؟ من صُغري وأنا عندي مشكلة في دماغي، يمكن يكون عيب اتولدت بيه.. أحيانًا حاجات كبيرة تغيب عن دماغي، أنساها ولا كأنها حصلت، وحاجات تانية تدخل في بعضها.. بس في أحداث أفتكرها بكل تفاصيلها.. أشوفها قدَّامي زي يوم ما حصلت، صوت وصورة.. مش الكلام بس، لكن دَبة جزمة، شخشخة مفاتيح، زنة لمبة نيون، خروشة راديو.. فاهم قصدي؟

أومأ إيجاباً بتركيز، فالتفتت عنه إلى الحديقة، وقالت:

الاتنين المخبرين وشوشهم كانت سودا، شعرهم أكرت، وريحتهم عرق.. اتنين جيفة الجيفة! زبالة الزبالة! قرَّبوا مني، ومن أول نظرة عرفت هم عايزين إيه.. صرخت بعلو حسي، يمكن حد يسمع، ويبجي يفوت عليهم غرضهم.. اترجيتهم: اضربوني، كهربوني، اعملوا اللي أنتم عايزينه، إلا دا.. أنا كنت خلاص، فكَّرت إني ارتحت من الخرا دا.. كنت نسيته.. ما كنتش عايزاه تاني.. كنت زهقت، زهقت، زهقت.. زهقت.. الاتنين مسكوني وجَسُّوا بِزَازي! (وانقبضت أصابعها في الفراغ، كأنها تعتصر كتلة هلامية)..منظري ما كانش يسر؛ لأن جسمي كان معرَّق ومِزْرِق من كتر الضرب.. طبعًا دا ما بحواش في الجاموس دول.. الواحد منهم كان حرنان زي التور، ومستعد يدخل في الحيط.. صرخت

بعلو حِسي، لدرجة إن الأمين طل من الباب وهددني إما أسكت، أو ينزلني للمساجين تحت يغتصبوني، وقفل الباب.. واحد سَلم سلاحة للثاني، وفك بنطلونه.. كنت بأولول، وفضلت أصرخ جواي: يا رب أموت، يا رب أموت، يا رب أموت!

كرَّرت دعاءها الأخير وهي تهز رأسها برتابة، ثم سكتت فجأة، وتابعت بنبرة مستقرة:

- الحمد لله، لحد كده، ومش فاكرة حاجة.. ما فقتش إلا وأنا على الأرض، مناخيري انكسرت، والتراب في بقي، وفهمت إنهم فكُّوني علشان يتمكنوا مني أحسن على الأرض، وكنت بأنزف طبعًا، من إستي.. شعري كان متقطَّع، وجِتِت في جسمي كانت شايطة، وعليها رطوبة مِلَزَّقة، دم أو مَنِي.. ما كنتش بأعيَّط، كنت بأولول بصوت واطي، زي ما أي شرموطة المفروض تعمل! وبعدين ما صحتش إلا في الزنزانة.. ما كنتش قادرة أقعد أو أمشي، ألم فظيع من قدَّام ومن ورا، ومَغَص، ووَساخة إسهال، وريحتي كانت تقرف.. جواي كان فاضي، لو طرقعت تسمع رنَّة وصَدَى.. مرة ثانية جرجروني لمكتب حمزة.. كان بيتكلم في التليفون، عن نقل الصالون لشقته في الرحاب، وإن البنت نورهان سُخْنَة.. خلَّص وجالي.. شَدني من شعري وِش، وضرب رأسي في الحيط، وكفاني على الأرض، وهاتك يا شلاليت.

وتحرَّكت لحظة في دائرة ضيقة، ثم عادت مكانها قائلة بإنكار:

- يا أخي ما كانش بيعاملني كبني آدم، أو حتى كحيوان.. كنت كومة وساخة ينفضها بجزمته.. ما كنتش مصدقة اللي بيحصل، مش فاهمة، أنا عملت حاجة كبيرة أنا ما أعرفهاش؟! أنا حامضي على أي حاجة، ليه التعذيب؟!.. ولاد الحرام كهربوني في ذراعي ولساني، وضربوني بالعصيان على رأسي، وانقطع عرقين في صوابعي لأني كنت بأحمي رأسي بإيدي، ونزفت دم كثير.

وجمعت شعرها للخلف، وزفرت قائلة بغضب عارم:

- أخيرًا بدأ يستجوبني، الأول أورديحي، من غير محضر.. اتوقَّعت أنه يسألني عن الشقة والزبائن، بس طلع الموضوع كبير جدًّا.. سألني عن الشيعة الروافض! أعرف حد منهم؟ تصوَّر؟! هل قريت كتب عن تاريخهم؟ إيه رأيي في السُنَّة؟ هل صنَّعت أسلحة، أو تعلمت الطيران؟! طيران؟! خفت أوي، وحسيت إني تورَّطت في حاجة كبيرة.. وسألني عن

الدعارة. أنا كنت في حالة رعب، وفكَّرت إن التهمة دي أخف من الطيَّارات والحاجات الأمنية، فاعترفت طوَّالي بإدارة محل للفجور.. سألني عن ازدراء الأديان.. ما كنتش فاهمة الاسم أصلًا، وحسيت أنها تهمة كبيرة جدًّا.

ابتسم حسين مشفقًا ابتسامة العالم ببواطن الأمور، بينما تتابع مكروبة:

- عرفت بعد كده إنه كان بيلعب عليَّ علشان اعترف طوَّالي، بس أنا كنت حاعترف، وأمضي من غير ما أبص.. ودا اللي حصل، مضيت على المحضر وما أعرفش فيه إيه.. وأخيرًا رحَّلونا على النيابة.. العسكري قرص الكلبش نمرة زيادة، وما كانش معايا فلوس أدفع علشان يِرَخي، وكل ما يجرني جلدي بتسلخ.. جمعونا على الصبح في ساحة القسم، وحمزة نزل لنا بنفسه، وآخر مرة شفته، لمَّا زعق بعلو حسه (ورفعت صوتها وأضفت عليه غلظة): "مين اللي قال إن الشراميط ما بتخلفش؟! ما هم بيجيبوا أشكال زيكم يا ولاد الشرموطة!" دخَّلونا عربية الترحيل، خمسين واحد، رجال وستات على بعض، ساعتين في الحر والعرق، لحد لما وصلنا للنيابة، وجمعونا في تخشيبة النيابة، اللي منها عَرَضونا على وكيل النيابة واحد واحد.. قعَّدونا في التخشيبة بتاع تسع ساعات.. وأول مرَّة بدأت أبص حوَليًّا.. كنت متكلبشة مع وَلَه صعيدي عنده تمنتاشر سنة، قبضوا عليه في وصولات أمانة.. كان غلبان، قلبوه في القسم وسرقوا جزمته وشَبَحوه.. وكان معانا واحد ثاني ممسوك في قضية حيازة، ثلاثة وعشرين جرام هيروين نفي، ودا أصلًا عليه حكم عشر سنين.. وثالث مِغطي ذراعه بوشم، وعلى وشه بِشَل شديدة.

وضحكت قائلة:

- يومها شفت ناس وبلاوي، تصعب على الكافر.. مش أول مرة يعني، بس الظاهر إني كنت أخدت على العيشة النضيفة، ونسيت الدنيا ماشية إزاي.. رجَّالة على سِتَّات، ولاد صُغَار على عواجيز.. كان في مَرَة شكلها فظيع، صابغة شعرها بمَية أكسجين، خنقت الوَلَه ابنها.. أنا كنت مِفَكَّرة إني اتشبحت.. اتشبحت؟! تعال يا بني شوفها.. دول خَرْشِموا أمَّها! وعلى كده كانت بتشتم وتتخانق زي الناضورجية.

وتحرَّكت لجانب النافذة، فأخذت بأهداب الستار وصارت تعبث بها. لاحظ حسين أنها تُكثر من الحركة، ولا تكاد تقر في مكان، وعزا هذا إلى توتُّرها. أشعل سيجارتين، وألقى

إليها بواحدة تلقتها ببراعة. أخذت نفسًا وزفرته شديدًا، وقالت:

- وإيجه دوري.. دخلت على وكيل النيابة.. حالتي كانت زفت، ووِشي اتشلفط بالطول والعرض، وريحتي صَنت.. كنت مِفَكّرة أني مش حاسكت لما يعرضوني على النيابة، حاشتكي وأنكر اعترافي اللي حصل تحت التعذيب، وأخليهم يعاينوا إصاباتي، وأودي حمزة في ستين داهية بإذن الله.. ناس معايا في الحجز حذّروني من الخطوة دي، لأن وكيل النيابة حاله مش حيكون أحسن من حمزة، وحيثبت إن ما فيش إصابات، أو إنها مُفْتَعَلَة، أو إني اعتديت على ضابط شرطة.. وعرفت إن حمزة واصل جدًّا، وعنده علاقات بضباط في أمن الدولة وأعضاء مجلس شعب، ومعروف إنه مجنون، ومع كده ما حدش يقدر يلمسه.. بس ما همنيش.. قلت حاقول، واللي يحصل.

وفارقت النافذة لتجول في الغرفة بخطوات ملساء، وهي تتابع بهزأ:

الباشا وكيل النيابة كان قاعد على مكتبه في التكييف، وجانبه فنجان القهوة المضبوط، ووَرَاه عسكري الخدمة.. اتفتحت في الكلام على اللي جري: ما فيش إذن نيابة، انضربنا واتبهدلنا واتعذبنا.. وفَرْتِكْت نفسي عياط وأنا بأقوله: "دول اغتصبوني يا باشا!".. الناس دي مجانين، وحمزة دا مريض نفسي، ولازم يتحاسب.. أنا مش حاسكت، لازم كيت وكيت، وأنك.. وأنك.. وكلام أهبل من دا كتير.. الحق، الراجل سمعني للآخر من غير مقاطعة، وبعدين قال: "اللي بعده!".. (وضحكت في صوت أشبه بالشّخر) وخرَّجوني من الأوضة.. يا ريته قال لي مثلًا أني كدَّابة، أو الكلام دا خطير ومسؤولية كبيرة، وما فيش عليه إثبات.. ولا كلمة.. وبعدين خَرَّجونا من النيابة على عربية الترحيل، وفي العربية عرفت إن النيابة أمرت بحبسنا خمستاشر يوم على ذمة التحقيق.. ما كنتش عارفة أعمل إيه، أو أكلم مين.. شفت واحدة من بناتي -اسمها حَنَان، بت بيضا وصغيَّرة، زي القمر- اتبهدلت ومستقبلها ضاع.

كاد يخبرها أنها هي من ضَيَّعت مستقبلها، لكنه أحجم، أما هي فسأمت تجوالها، فانتقت مقعدًا واستوت عليه متراخية، وقالت برويَّة:

- ما كناش عارفين رايحين على فين، والناس سألوا بعض، وست من المحجوزين قالت إننا رايحين على سجن القناطر.. ناس كتير لما سمعت انهارت وعيَّطت.. في القناطر

كان أوسخ استقبال، كوِّمونا في أوضة نقضي بها الليل، والصبح قلَّعونا وحلقوا لنا، وضربونا.. الضرب كان سياسة عامة، وتقوم به المسجونات مش العساكر، علشان يتفادوا أي مسؤولية جنائية.. لمدة شهر، كنا نتحبس أربعة وعشرين ساعة في اليوم، الباب ما يفتحش إلا علشان يزقُّوا الأكل.. كانت في حنفية واحدة تقطر ميَّة، من الساعة تسعة بالليل لحد الساعة اتناشر.. كل واحدة لها بطانية، وجزمتك تعملها مخدَّة.. (وضحكت) لأجل الحظ كنت حافية طول الوقت.. فضلت على الوضع ده مدة طويلة، يعرضونا على النيابة كل شوية، ويجدِّدوا حبسنا.. ويوم الحكم خدونا على محكمة القناطر الخيرية.. قاعة المحكمة كانت صغيرة ومكتومة، وزحمة جدًّا: هيصة ومحامين وضباط وعساكر وأهالي، وشتيمة وعياط وصوات، كل حاجة فيها كانت مهينة وفوضوية.. أنا سمعت اسمي وما سمعتش الحكم، وناس ما سمعتش اسمها أصلًا.. لما رحَّلونا تاني على السجن، في العربية المأمور قرأ لنا أحكامنا.. عرفت إني أخدت سنتين، ومراقبة سنتين.

- قضيتها إزاي؟

تنهَّدت وقالت:

- سجن القناطر يا حبيبي، عنبر الآداب.. قال لك ادخل الزريبة اختارلك كلب، قال كلهم كلاب ولاد كلب! اللي يعيِّ يفضل عيَّان لحد لما يموت، برشام الصداع هو العلاج الوحيد لكل الحالات.. السجَّانات بيسرقوا كل حاجة، حتى الزيارات.. لنا أربعتاشر وجبة كل أسبوع، فول وعدس ولحمة وجبنة، بس كثير بتحصل حالات تسمُّم جماعي.. أكل الناس كان زيارات من بره، كل حاجة يعتمدوا عليها من الزيارات، النظافة والملايات والغيارات، لكن أنا ما كانش لي حد يعمل لي زيارة.. اللي هوِّن عليَّ الحال إني تعرَّفت على رقَّاصة اسمها منال، محكوم عليها في قضايا دعارة ونصب، كانت كل فترة تنفحني بحاجة من زياراتها.. لو حكيت لك على السنتين، محتاجة سنتين.

وأخذت نفسًا شديدًا من سيجارتها وزفرته، فاحترم حسين صمتها للحظة، ثم سألها بصوتٍ خفيض:

- عملت إيه لما خرجت؟

- التجربة كانت هباب.. كانت أول مرة أتعرَّض فيها لضغط بالشكل دا.. لما خرجت كنت تعبانة، وصرفت كل فلوسي على المحامين والرشاوي والنصَّابين.. كنت وحيدة وغريبة وعجوزة! والدنيا بالنسبة لي بقت كومة قذارة.. وكنت فاضية زي القُلَّة بالضبط.

وضحكت من التشبيه، ثم تابعت مغمومة:

- بس يا سيدي.. وأخويا عند أخوك، وأبويا عند أبوك! فترة ضياع قضيتها وحدي في شقة القناطر، آكل وأنام وأتفرَّج على التليفزيون، وأصرف شوية الفلوس اللي اتبقوا معايا.. شهرين على كده لحد أما فُقت وبدأت أفكَّر من جديد.

وبسطت كفَّيها، وقالت بجديَّة كشأن من يقيِّم حدثًا:

- شفت نهاية كل شيء على بعد ثلاثة متر قدَّامي.. من الآخر، حياتي فشلت! ما فيش وظيفة ممكن أشتغلها، لأن كل شيء يعتمد على سمعتك، وأنا طلعت من السجن وشايلة زنزانتي على أكتافي، وفيشي الجنائي مكتوب فيه: «اعتياد ممارسة دعارة – قضية ٤٢٧٥ جنح القناطر الخيرية».. فكَّرت أشغَّل الشقة تاني، وفعلًا قدرت أدبر أربع بنات جُداد.. لكن في آخر لحظة غيَّرت رأيي، ولغيت المشروع.

- ليه؟

- خفت جدًّا، حسِّيت إني أخذت كفايتي.

* * *

إن البوح الذاتي صفة مُتأصِّلة في ذات سَحَر. بعد محنة السجن، استبد بها القلق المزمن لدرجة الاستغراق في مونولوجات ذاتية، ووقع وعيها في مكانٍ ما بين أحلام اليقظة والوسوسة.

أما حسين، فقد وضعته سَحَر في منزلة أفضل قليلًا من الوسواس؛ لأنه حبيب إلى نفسها، لكنَّه لا يرقى لمكانة الصديق الحق من جهة السمو الروحي! وعلى كل الأحوال لم تكن تريد لمشوار حياتها أن يتحوَّل لحلقة نقاش. ليس معه على وجه الخصوص، لأنها تعلم أنه مخلوق أناني ضيِّق الأفق، لا يرى الدنيا إلا من نافذةٍ ضيِّقة. لن يمكنه منها تصوُّر الأحداث بصورتها الواقعية الخشنة، لأن درجة التصديق تختلف بين المُخبَر والمعايِن. لكن ما أتعبها فعلًا، هو إحساسها الدائم بالنقص إذا ما وُضِعَت في إطار صورةٍ

واحدةٍ مع حسين، كأنها بضاعة يُستحطُّ من ثمنها لرداءتها! نعم، إنَّها تعلم أن له غدَرَات جسام، لكنَّها تحس أنها أدنى منه منزلة وأقل شأنًا، ربما لأنه لم يتكسَّب من بيع لحمه على قوارع الطرق.. لقد أورثها هذا العمل خزيًا لا تذهب مرارته قط.

أما حسين فلا شك أدركته الرقة. لم يعرف على وجه اليقين إن كانت مجرد طفلة انتهازية شرسة، أم ساحرة سامة تستحق الحرق حيَّة في قفص! كان يظن أنه لم يعلم في الأرض أحدًا أشقى منه، ولا أشد تشتتًا أو أسوأ حالًا، فإذا بها قد قاست من نكال الدنيا ما لو نزل بجبل لدكه ركامًا، إن صَدَقَت. وما لفت نظره أيضًا أنها تستعرض ذكرياتها بنسق متَّزن، وألفاظ وافية، وسلاسة لا مزيد عليها، أوصلته لدرجة سامية من التفاعل مع أوزارها.

* * *

أشارت بكفها منبسطة علامة الاستقامة إلى الأمام، وقالت بحزم:

- الهدف قدَّامي كان واضح: لازم ألم فلوس كثيرة، بطريقة آمنة ومضمونة.. عايز تبقى بني آدم؟ لازم يكون معاك فلوس كثيرة، الأول تشتري نفسك، وبعد كده، لو معاك فلوس أكثر تدوس على غيرك، لأن الكل هنا كلاب فلوس، وعبيد للقرش! ما فيش هنا كلام زي قيمة العمل والأخلاقيات والأمانة والمجهود.

تنهَّد حسين إذ سمع تلك النغمة من قبل، وتعجَّب إذ تحدثه «صاحبة الصون والعفاف» عن «قيمة العمل والأخلاقيات والأمانة والمجهود»، فكأنها جربت هذا المسلك في حياتها ولم يجزها خيرًا! وقالت معضدَّة وجهة نظرها:

- مش مصدَّق بص لخِلَق الناس في الشوارع.. وشوش كالحة، كلها خبث وشر وقبح وبجاحة.. مع إننا كلنا في الآخر-إحنا المصريين- جيفة الجيفة.. ولا إيه رأيك؟

بأمانة، عَزَم أن يقول ساخرًا: "شيء طبيعي إن واحدة زيّك تقول الكلام ده"، لكنَّه وجد نفسه يقول بسلبية: "مش موافق." قالت بإصرار وهي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا:

- أي واحد عاقل لازم يوافق.. وأنتم أكبر مثال على كده.. شوية جهلة وعربجية، تلاقي كل واحد منكم، اللي يعرف له وزير، واللي كان في فرح بنت المحافظ، واللي أخو مراته عضو مجلس شعب.. وأنتم في الآخر كنتم إيه، شوية جرابيع.

تقبَّل منها الإساءة بصدرٍ رحب، نظرًا لأنه تعوَّد على الطعن في عائلته كلما أرَّق وجوده من أمامه، فابتسم بتراخٍ وقال:

- سمعت الكلام ده قبل كده.. المهم، اتصرفتي إزاي؟

أشارت إليه بسبابتها قائلة بتحقيق:

- الشغل المضمون، إيجه من جهة السجن.. منال -الرَقَّاصة اللي تعرَّفت عليها هناك- قدرت تدبَّرلي شغل في محل في المقطم، وعرفت أجيب شغل جانبي في حفلات خاصة وأعياد ميلاد وأفراح، وبعدين اشتغلت في فِرَق، وموديل تصوير، وعملت عمليات تجميل علشان أشيل آثار الضرب والغرز.. وبدأت أعرف ممثلين ومطربين، وقابلت رجال أعمال وتجار كبار، نوعية حَسَن أخوك.. بص، أنا في الأول كنت أهز وسطي، وأقبض تمنميت جنيه في الليلة.. بعد كده لمَّا بقيت أهزوسطي نفس الساعتين، أقبض ميتين وعشرين ألف جنيه.

- ميتين وعشرين ألف جنيه؟!

- إحنا سلعة مربحة يا أستاذ، غيرإن الرقَّاصة في بلدك لها حضور جماهيري أكثر من عضو مجلس شعب!

ضحك حسين لدى سماعه العبارة، وردَّد في نفسه: "سلعة؟" و"حضور جماهيري؟!" تابعت سَحَر قاطعة أفكاره: "بس المشاكل لا كان لها أول ولا آخر. حدَّق فيها وما زال يردِّد في نفسه: "حضور جماهيري؟!" لكم تغيَّرت ألفاظها، واكتسبت نضجًا وثراءً.. يا للعجب! ما بين طرفة عين وانتباهتها يتغيَّر الناس من حالٍ إلى حال. وقُطعت أفكاره مرة أخرى بصوتها ذي البحة الخفيفة إذ تقول:

- لازم تكون صاحي طول الوقت.. التعاقدات والبلطجة والخناقات (وشرعت تحصي على أصابعها) النصَّابين والعقود العرفية، والحفلات المشبوهة.. (وضحكت) حتى نقابة المهن الموسيقية، وكله يبعت إنذارات قضائية وبلاغات، ولازم تدفع وإلا الشغل يقف.. في الآخر تعبت، عمري سبعة وعشرين سنة، وحسيت إنه سبعة وستين.. كنت محتاجة حد يحميني.. علشان كده أول مرة شفت أخوك، قَرَّرت إن هو ده.

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة متسائلًا، فقالت متحمِّسة:

- لو كنت شفته ساعتها كنت تفهم سبب اختياري، كنا في حفلة في يخت في دبي، وهو كان قاعد على كنبة مع ناس مبَحْبَحَة، وشكلهم بيتكلموا في حاجة مهمة جدًّا.. وهو.. نافش ريشه وقاعد مرسوم صح، مسبّل عينيه، مسرَّح شعره بالمسطرة، حاطط رجل على رجل بشياكة، وبيتكلم كأنه بِينتِف! الصورة المثالية للشخص الفلُّوطة!

ومالت للأمام، وسألته باهتمام:

- بذمتك يا حسين، واحد بالشكل ده، ولابس بدلة بيضا، تفتكر كان ممكن أسيبه؟ مستحيل! أنا رحت ناحيته وأنا عارفة إيه اللي أنا باصطاده بالضبط.

تبسَّم حسين دون أن يُعلق، فألقت بنفسها جانبه على الفراش، وقالت بسرور متطلعة للسقف:

- وظني طلع في محله يا صاحبي!

خفض بصره إليها. كانت مستلقية، وكان جالسًا جانبها القرفصاء، وكان ينظر إليها بشيءٍ من الرقَّة واللطف كأنها قطة صغيرة ذكية. وقد التفتت إليه وبادلته النظر، حتى مال إليها وسألها:

- أنت عمرك حبيتي يا سَحَر؟

- طبعًا!

بهذا أجابته بتوكيد، فهَزَّ رأسه نفيًا بهدوء، وقال:

- أنت لا يمكن يكون في قلبك حب تجاه حد... أنت اللي بيحركك طاقة حقد وكراهية للناس وللدنيا.

- بالعكس، أنا بأحب ناس كثير.

- على سبيل المثال؟

- حُبّ حُبّ يعني؟!

هكذا تساءلت بعمق، وأخذت نفسًا عميقًا من هواء الغرفة المُعبَّأ بالدخان والرطوبة، ثم نهضت بشعر منتفش، وقالت جادة بعد تفكير:

- ممكن أقول لك إني حبيت ثلاث أشخاص.. وده عدد كبير بالنسبة لظروفي.

- أول واحد؟

بهذا تساءل بخفوت، فقالت بعد تردُّد يسير:

- أخوك...

قد يُكابِد المرءُ آلامًا خبيثة، نتيجة إصابته بمرض تعفُّنيّ لا شِفَاءَ مِنْهُ، فيكدر عليه معاشه، ويغمسه غمسًا في محنة العذابِ المُستديم.. ثم لما تُتَاحُ له فرصة المتعة -ولو كانت في قبح ثمرة الزَّقُّوم- يسعى إليها سعي الوحوش، ويأكل منها فيملأ منها البطون.. ثم إنَّ التلذُّذ ليطغى مُؤقَّتًا على المرض، إذ يُفرِز الجسمُ المُسكِّنات الطبيعية والنوافل العصبية المُحسِّنة للمزاج، فينسى المريضُ آلامه ومعاناته المزمنة إلى حين.. لكن ما أن تزول رِعشةُ النشوة وحمأتها، حتى تعود إليه نبضات الألم فجأة، على هيئةِ صاعقةٍ مهلكة.. هذا ما حدث لحسين لحظتها، عندما سمع من سَحَر لفظة «أخوك»!

فجأة انتبه إلى أن ما حُكِيَ قبلاً وابتسم لطرافته، وما يُحكى بين يديه الآن، يخص أخيه.. هذا الدَّنِيءُ الفاحش، الوضيع القبيح، الخائن خَسِيسُ النَّفسِ.. هذا المخذول الملعون، المنتكس الفطرة، المطموس البصيرة، الضعيف العقل، القليل الديانة.. جثمت عليه كراهيةٌ مخيفة وضيقٌ ثقيل، وسيطر عليه اشمئزازٌ شديد، وأحَسَّ بألمٍ يعتصر قلبه ومعدته اعتصارًا.. خلطة من الأحاسيس الانسحابية الهدَّامة نشبت في قلبه كنارٍ موقدة، ورفعت حرارة جسمه إلى حد الالتهاب، فارتعش ونظر إلى سَحَر ببغضٍ رهيب.. هل.. تعرف ما فعله الكلب؟ هل يخبرها؟ هل.. يقتلها؟! الآن؟! عندما وصل بفكرِهِ لهذه النقطة أَحَسَّ بالرفض والعجز، وبالدونية والذل، وسمعها تقول بكراهية دفينة:

- بذل مجهود كبير علشان يتَضَّفني، وكان بيحبني، أنا متأكدة.. ودي أول مرة حد يحبني.. واتحمَّل مني كتير.. بس أخد كتير.. حَسَن كان فاكر نفسه إنسان سوبر، دي كانت مشكلته.. أنا يمكن كنت بأحبه، بس كنت بأكرهه! علشان مغرور وبكَّاش، وسرسجي وشمحطي! وكان بيضربني عادي، ولو غلطة أو مشكلة لازم يسمَّعني الوصلة المعتادة: إزاي إني خدامة سراير، وإني طرح شوارع، وإنه جابني من المزابل، ويقول بقرف: "أنا حاولت أعملك بني آدمة، حاولت أحترمك، لكن آخِر الزَّمر طيط.

وأردفت ساخرة:

- لما كان ينام معايا، بيعمل زي ما غيره يعمل.. يفقعني الجدر زي البهيمة، حديد في حديد! وأما يخلَّص يزقِّني ويبعد، وآهي ليلة وفراقْها صُبْح! يقعد على حرف السرير، ويقفل البنطلون، ويولع سيجارته.. اللحظة دي أحس إنه هتكني وسابني مرمية في الشارع.. لو قمت له وحاولت ألمسه يزقِّني ويقول: "قومي استحمي، ما أحبكيش تنامي جانبي كده." كل يوم أسأل نفسي، إيه اللي مصبَّرك على كده يا بت؟! وما الاقيش إلا إجابة واحدة.

أجابها بكراهية:

- المصلحة.. حتسيبي الفلوس دي كلها إزاي؟

- والأمان.. حَسَن حماني، وشاركني في شغله، واعتمد عليَّ، ووثق فيَّ.. وكان مُخلِص، ومتمسِّك بوجودي معاه.. لدرجة إنه قرَّر في آخر أيامه إننا نتجوِّز، وبدأنا نمشي في الترتيبات فعلًا (وتنهَّدت) الله يرحمه.

ضحك ساخرًا، وقال بحقد:

- الله يجحمه، كان أهبل!

نظرت إليه معاتبة وقد فهمت ما يقصد (بل ظنَّت أنها فهمت ما يقصد)، وإن لم تغضب كثيرًا، لأن المعرَّة تصيبه بقدر ما تصيبها، لكنَّها عزمت على ردِّها له بما يليق، فقالت بتركيزوهي تحدّ النظر إليه:

- الشخص الثاني اللي حبيته.. أسْمَاء، مراتك.

أدركت أن ضربتها قد أصابته في مقتل عندما تغيَّروجهه، وقال متوترًا:

- من فضلك، ما فيش داعي نجيب سيرتها.

هزَّت كتفها باستهتار مُتعمَّد، وقالت:

- سلامتك حبيبي! أنت سألتني، ولازم أرد عليك بأمانة.

كرَّر مقالته وقد بدأت الحمرة تغزو وجهه:

- ما فيش داعي نجيب سيرتها.

قالت بتريُّث وعينين لامعتين:

- أنا كنت بأحبها فعلًا.

لاحظت توتُّر أنفاسه واضطراب حركة صدره، ولَوْح نذر الشر على وجهه، فأدركت أن الغيظ كظٌّ في قلبه. وكان إدراكها قاصرًا ومقامرتها خطيرة على أعصابه؛ ذلك أنها لم تدرك أبعاد الموقف على حقيقته. وعلى الرَّغمِ من كونها ليست خطوة حكيمة، لم تنزجر، بل أبت إلا أن تتم فاصل النكاية ببَعثَرة المخبوء في صدرها، فقالت بثبات:

أسمَاء إحساساتي بها ملخبطة! الكلام بيننا كان قليل، وهي كانت بتتجاهلني وتعاملني بقرف.. بس كانت بتحاول تخبّي قرفها، علشان هي ذوق! مرّة واحدة اتكلمنا بتاع ثلث ساعة، وعرفت قد إيه هي طيّبة ومستقيمة.. لولا قرفها مني، كان يمكن نبقي أصحاب، ويمكن كانت تغيّر فيّ حاجات كثيرة.. الله يرحمها؛ كانت بقعة بيضاء صغيرة وسط سواد في سواد.

لانت ملامحه بالتدريج لما قالت عن زوجته ما يرضيه، ودعا لها بالرحمة مهمومًا. شعرت بالرغبة في قول المزيد، فقالت بنبراتٍ متَّزنة:

- أسمَاء كانت لها طبيعة أخلاقية حسَّاسة، وإحساس بالحياة، أقرب للخرافة والهبل.. ما تعرفش غير الأبيض والأسود.. تستشهد بالدين في كل حاجة، وكل كلامها نصايح وعِبَر ومواعظ.. (وابتسمت بشيءٍ من الغيظ) خلط الدين بكل حاجة عِرْق ضارب في العائلة.. بس هي كانت تقول وتلتزم. والالتزام رفعها عن الوسط اللي عاشت فيه.. بنت الناس البيضا الغنيّة، النظيفة المُحجَّبة، تلبس أغلى لبس، وتلتزم بالمظهر الإسلامي الكامل.. فاكره إنها أحسن واحدة في الدنيا، مع أن عمرها ما تعرَّضت في يوم لامتحان يضطرها تبيع التزامها.

انتابت حسين مع تلك الجملة الأخيرة عن "الامتحان" مجموعة من الأحاسيس الدونية الذليلة، المختلطة بنظرة سلبية عنيفة لتلك العاهرة الماثلة أمامه. هجمت عليه نوبةٌ مباغتةٌ ومركَّزةٌ من العصبية الشديدة والاكتئاب الشامل، واسترجع الحوادث فاضطربت عواطفه وتهيَّجت نفسه إلى القتال والقتل. وفي لحظة لم يدرك فيها ما حدث له بالضبط، وكوتر قوس شُدَّ لمُنتهاه ثم انفلت، وفي أجواء ضبابية مُبهمة، رأى نفسه ينقض عليها صارخًا: "اخرسي! اخرسي!"، ورأى يديه تمسكان برأسها، وإبهاميه يخزقان

عينيها! سمعها تصرخ صرخةً مهولةً، ورآها ترفس وتنتفض كطيرٍ ذبيح، ورأى نفسه وقد نزع إبهامية من تجويف العينين، وبخنجر مشرشر يقطِّع جسدها، ثم رأى أوْداجَها تَشْخَبُ دَمًا و... أفاق من خيالاته المُكثَّفَة والمريضة على صوت سَحَر الحقود وهي تقول:

- أنا فاكرة مرة كان في كلام في السياسة، وهي قالت: "الحكَّام العرب لو يدرسوا خطبة استخلاف عُمَر بن الخَطَّاب، حيعرفوا أن الإسلام ده حاجة جامدة جدًّا."

تَعَجَّب حسين أشد العجب من الخداع العقلي الذي يمارسه مُخُّه عليه، وقد كاد يصدِّق للحظة أنَّه قضى عليها. نظر إلى جسمها سليمًا لم يصبه سوء، ثم إلى نفسه بعد أن لم يتحرك من مكانه قيد أنمله، ثم نظر إليها مُجددًا بذهول وهو لا يكاد يصدِّق أنه يسمع هذا الهراء عن زوجته من هذه الفاجرة ويجلس صامتًا، فيما تضحك هي بِبُغْض وتتابع:

- والله العظيم كانت هَبْلة! بس في نفس الوقت لها شخصية قويَّة كشفت الطاعون اللي حواليها، مش زي اللي رقص للقرد في دولته.. وقدرت تتكيَّف مع الوسط المشوَّه ده.

وضيَّقت عينيها متوجِّهة إليه بالقصد، قائلة بحقد:

- قدرت تتكيَّف معاك يا حسين، أنت اللي فيك كل العِبَر.. أنا كنت أشوفك معاها، ماشي وراها منين ما تروح، تحاول تمسك إيديها، ولو حد مننا حاول يتكلم معها لازم تكون بينه وبينها، علشان تصد عنها وقت اللزوم.. تحب إنها تتعالى علينا، مع إنك أنت نفسك ما كنتش تتعالى عليَّ.. ولما تضحك في وشها (وجزَّت على أسنانها جزَّة خفيفة) ضحكتك تولع جواي النار، وأحَسَّ بالظلم والحقد والكره للناس كلها.. لكن في الآخر ربنا بلاها بيك، أنت يا تافه يا رخيص! ودفعت ثمن صبرها غالي.

شَعَر بكتلة ثقيلة تجثم على عينيه وجفونه، وتكرمشت جبهته فكأنه موشك على البكاء، فقالت وهي تراقب انفعالاته عن كثب: "الثالث." وجَّه إليها عينين محمرتين، وسألها بصوت مختنق: "ثالث إيه؟"، فابتسمت مجيبة:

- ثالث من أحبه.. اللي أخذ عقلك.

لم يرد بشيءٍ إذ تَحَرَّكَتْ نفسه وَهَمَّت بالبُكَاء، فرمقته بنظرةٍ عميقةٍ وغريبة، وكان مجرد النظر المتمعِّن في عينها الكبيرتين يبث في نفسه خَدَرًا واستكانة، فما البال إذا

اقتربت بوجهها من وجهه لشبه ملاصقة، وشفتاها تُهَسْهِسَان له:

- أنت يا حسين!

ثم أردفت بنبرةٍ مغمورةٍ، كأنها قادمة من أغوارسحيقة:

- أنا ثلاثة أرباعي مات، والربع الباقي نحّس، وما عادش يحوًّا فيه حاجة: إهانات، سفالة، ضرب.. لكن اللي يكسَّرني فعلًا، المعاملة الطيِّبة! وأنت عمرك ما حسستني أني أقل منك.. كلهم في العيلة حسسوني بالذل، وسمعتهم بيقولوا عني كلام فُحْش، وحَسَن كتير ما كان يتأثر بالكلام ده، ويقعد بالأسابيع يبص لي بوش كلب.

كانت تتكلَّم بصوتٍ خافتٍ جدًّا قريب لسمعه وفؤاده، فشعر بروحه تنسحب إليها، وتفاصيل وجهها وحركات شفتيها تملأ الصورة أمامه، ورائحة ريقها تداعب أنفه فيتنسمها كأنها عطر، وثغرها يكاد يلامس ثغره، وأنفها يداعب أنفه. لقد كان يتطلع إليها مفتونًا مسلوب الإدارة وهي تتابع حديثها:

- لكن أنت.. ما توقعتش إن البراءة ممكن تعيش في جحر البذاءة والقذارة.. ما توقعتش إني أقاوم وأعتبر إن اللي يمر بيَّ تجارب لذيذة أتعلم منها وآخذ خبرة.. حتى أخوك حَسَن، كان غبي، ما قدرش يفهم إن في دماغي هدف واحد.

ونقرت بسبابتها على جانب رأسها برفق قائلة:

- هدف مستعدة أتعلَّق بيه لحد الموت، بضوافري وأسناني: إني مارجعش لعيشة الخوف والذل تاني.. وحَسَن إدَّاني الأمان، ودَوَّقني الذل ألوان.. (وأشارت إليه) لكن أنت، عمرك ما بصيت لي من فوق لتحت، عمرك ما بجَّحت ولا قبَّحت، ودي عندي كبيرة جدًّا.. كنت بأشوفك عَيل طايش ودَمُّه خفيف، الدنيا عطته أكثر من حقه، وكُنت بِصْعَب عليَّ، وأحسدك في نفس الوقت، وأتمنى القرب منك، لأنك نظيف وريحتك حلوة! والأهم، إننا بتِجْمَعْنَا حاجات مشتركة: أن كل من بالعيلة بيبُصُّوا لنا على أننا نقطة سودا في حياتهم.. أنت: علشان بن الزّنية يطلع يا قوّاس يا مكَّاس، وأنا: علشان رقَّاصة وخدَّامة سراير.

هذه البعوضة السامة! ملعونة وملعون أبوها، في فرحها الفضيحة، وفي حزنها الفضيحة. هل قال لها شيئًا من هذا؟ كلا البَتَّة! هل أبدى لها استيائه من الخوض في

سيرة الأموات، الأبرار منهم والأشرار؟ إطلاقًا! وتنهّدت هي متحسرة:

- وفي يوم ما قدرتش أتحمّل، قرّرت إنّي عايزاك، لدرجة أحيانًا إنّي كنت بأحلم بيك في نومي!

ثم نظرت إلى دهشته، وضحكت وقالت:

- وربنا كنت بأحلم بيك، تخيّل! لما كنت أشوفك، جسمي يقَرْقَض في بعضه!

قال بخفوت:

- أنت حتى ما همكيش الحاج واللي ممكن يعمله.

هزّت كتفيها وضحكت قائلة:

- الأغرب، إن أنت نفسك ما خفتش من الحاج.

رسم على وجهه بسمةً شاحبة، أقرب للتَجَهُّم والندم منها للابتسام، وقال:

- أنا كنت مرعوب، لكن.. أنت متوقعة، إن أنا، أقدر عليك؟

حوّطت وجهه بكفيها، وقالت:

- ما كنتش تبقى معايا دلوقت.

* * *

حكت له عن العائلة، وتمادت في بيان خستهم، متهاويةً إلى دهاليز الفحش في حديثها، وخصّت الحاج بأوصافٍ لا مثيل لها، وبزّها هو في ذلك مكثرًا الهَرَأ وهو يذكر مخازيهم ويسبّهم من صميم قلبه، وتخلّلت كل حكاية وأخرى فواصل من التماجن واللهاث والتخاور، واتّخذ الضحكُ صفات العشوائية والخشونة، والمرارة والنهيج الأقرب للبكاء. حدّثته عن عملها مع أخيه، وتسلُّمها زمام شراكته لإيلي مجدلاني، والتي حافظ على سريّتها ليتّقي غضب الحاج الكبير، الذي لو علم بانحدار حفيده إلى هذا الدرك الوضيع، لكان له معه شأن آخر. وضحكت كثيرًا وهي تفسّر حالة اختلال المبادئ المرعبة التي يعانيها جوهر الجارحي وأذنابه، من حيث رفض العمل بالدعارة، وهم ممّن يدمنون لعق أبْظُر المُومِسَات! حكت له عن صعوبة الإدارة في أول الأمر، وكيفيّة إعادة هيكلة الشبكة، ثم هجرتها للولايات المتحدة، والمبالغ الكبيرة التي ورثتها، وحاكت بزهوٍ كيف تُقَدَّم على

خشبة المسرح: «الفنانة الاستعراضية ذات الأصول المصرية! التي آمنت أن الرقص التعبيري كناية عن الحياة، نتعلم به خلال الزمن والفراغ!»، وكلام آخر طويل من هذا القبيل. سدَّد إليها حسين نظرةً خاملةً طويلة، وردَّد في نفسه: الفنانة الاستعراضية ذات الأصول المصريةً –الصميمة– المنحدرة من زبالات الأزقة وظلمات العشوائيات، ومجاهل الجارحية وحثالة نسائها. بَخٍ بَخٍ، قد أصَبْتِ واتيت بالحق والبيان الواضح يا أخت سَحَر، ويا لها من أصول!

ثم إنه أصغى إليها بنصف عقل بعد ذلك، وبالنصف الآخر تاه في ضلالاتٍ مظلمة وخيالاتٍ كابوسية وأطيافٍ دموية غيَّبته في الْعَبَاء والعزلة، ثم لمًّا يفيق يُبْصر لحمها إذ هي تجلس معه مُنْجَرِدة دون حياء، ويرى أحوالها في التدخين والتهتُّك، ويوقن أنها بغيٌّ نهمة لا شرف لها ولا عفة.

كان علمه بسَحَر خاطفًا متوترًا، لكنَّه استوفى مراحله على وجه الكفاية. علمها عين اليقين لما أبصرها أول مرة، وعلمها علم اليقين لما حدَّثها أول مرة، ثم علمها حق اليقين لما زنى بها أول مرة! كان في وطئه فرجها الحرام فاحشة كبرى وجريمة نكراء، ومفسدة للدنيا وذهاب للخير وجلب للشرور والنكبات. كانت وما زالت مِعْوَل خراب، وسببًا للذل والخزي والانحطاط.

حدَّثته بصدقٍ، وسعدت بودِّه وعطفه، فسمحت لضعفها بالظهور دون التدني للإخفاق أو المذلة. حكت له عن منزلها الجميل في فلوريدا، وعن تدريبات اللياقة البدنية الشاقة التي تؤديها يوميًا، وكلام كثير تافه عن نظرتها للحياة، ومن كلمة إلى الأخرى، وقفشة إلى أختها، استطال بهما الحديث إلى التافه من المزاح، وتبسَّط بهما المزاح إلى هستيريا، فإذا بهما بعد ضجة وهأهأة يتهاويان. مضت بهما اللحظات، ناعمة وثرية إذ يستلقيان جنبًا لجنب ناظران إلى السقف، وانقطع بهما خيط الحديث، ثم إن حسين فاضت مشاعره، فانقلب ملتفتًا إليها، ونظر في عينيها الواسعتين، وأخبرها مرتعشًا كيف أن عينيها جميلتان، وكم أتعبته وحيَّرته. وَشْوَشَت له مضطربة بأن "تسلم وتعيش!"، ثم دنت منه فتلاثما، وتقلبا بتمهُّل متعانقين، فإذا بهما يترديان إلى مهاوي الفتن السحيقة.

مرَّت عليهما دقائق طوال تطارحا فيها الغرام، وعالج كل منهما الآخر برفقٍ وتأنٍ، فزحفا

سويًا ككيانٍ متسق، يتلاهثان بشبق، ويتعانقان بتضامٍ وتلاؤمٍ بعد انفصال، كالجرح لما يلتئم لحمه ويبرأ، فأصبح في اتحادهما متنفس لحرمان مُشوَّه. لم يكن الفراش هذه المرة حلبة مصارعة، بل بحيرة آسنة من عجين موفور القوام، أبحرا بين تموجاته الدمثة بلطف ورخاوة، وتبادلا أبلغ الحوارات بصيغٍ غير شفهية، جالت في المساحة الضحلة بين أبلغ المعاني والسفه. لم تخجل من إبداء تفاعلاتها بشكل إباحي أشعره أنه عاشق متمكِّن، فغادره التشوُّش المعتاد، وغادرتها صفاتها الانتقائية واستعلائها الغريزي ولامبالاتها المطلقة إزاء الرجال. لم يرفع يديه عنها أو يفارق بشفتيه بشرتها، بل لثمها شبرًا شبرًا مُمرِّغًا وجهه فيها ومستلذًا بما يبلغه منها كالكلب الظمآن.

كان سعيدًا.. سعادة بدائية فظة، انتزعها انتزاعًا من عنق الألم والكراهية. أما هي فتَفَاحَشَتْ في غرامها به، وتعوَّجت بعمقٍ وثابرت بعويل خفيٍّ ضارع. كانت بين يديه سلِسة المقادة تامة في تناهي الخضوع، لكنَّها في حقيقة الأمر تملكته بلا منازع وذوَّبته في عذوبتها حتى رقَّ وكاد يتبدد. استخلص كل منهما من الآخر جرعات من النشاط والقوَّة، فتضافرت طاقتاهما وتشابكتا، ثم خرجت مُجمل أفعالهما عن الإرادة، فارتدا إلى انقباض متدفِّق ثم انطلاقة جارفة وشاقَّة اكتسحتهما اكتساحًا.

رقدا متضامين ونال منهما الوهن والرخاوة، فانجذبا لأغوارٍ مكدودة، ثم ضحكت سَحَر بخفةٍ نمَّت عن استرواحة تستلذ بها كاطمئنان القائظ لنسيم نَدِيّ، وقرصت وجنته برفقٍ قائلة: "قطعت نفسي!" تبسَّم بحزن، فسألته: "أنت أكيد بالع حاجة، صح؟" ظلَّ مبتسمًا دون أن يجب، فقالت:

- مؤكد بالع حاجة، قل إيه، ورحمة أبوك!

- حَلَنْ البحر!

ضحكت بمرح، وقالت:

- أنت كمان؟! العيلة دي كلها بتلحس حَلَنْ البحر، لدرجة أني فكَّرت إن كان عندكم له مزارع مثلًا؟!

- الحاج كان بيجيبه من ناسنا في كوم أمبو وأسوان، وهم لهم ناس يجيبوه من البحر الأحمر.

أومأت متفهِّمة، ثم نهضت وعطفت إلى الحمام الملحق بالغرفة، فتابع جسمها الأفرع حتى غابت عن بصره دون أن تسك الباب. قضت حاجتها، وصعدت للفراش لترقد في حضنه، فطوَّقها ونظر لوجهها مليًا، ثم سألها -للمرة الرابعة- بخفوتٍ وبنبرة رقيقة، أحسَّت فيها باضطرابه وتلهفه:

- أنت جاية ليه يا سَحَر؟

- وحشتني.

- عايزة مني إيه؟

- مش عارفة!

- يا سَحَر، أنت حرباية، ما تعمليش حاجة إلا لو تعود عليك بمصلحة.. إيه مصلحتك في إنك تيجي النهارده؟

- ما كنتش عايز تشوفني؟

تنهَّد وأعاد سؤاله برجاء، فسألته بتريث:

- عايزني أمشي دلوقت؟

- قل لي اطلعي بره، وأنا حالبس هدومي، ومش حتشوف وشي مرة ثانية.

أسقط في يده فلم يستطع الإجابة، ثم إنها رنت إليه بنظرةٍ لم يسبق له أن رآها على هاتين العينين من قبل، وقالت بنبرةٍ مرتعشةٍ لم يسبق له أن سمعها من بين هاتين الشفتين من قبل:

أسألك سؤال، واستحلفك بربنا المعبود ما تألِسش عليّ (أي لا تستهزئ بي).. تتجوزني؟!

"تتجوز...؟!!" حدَّق فيها مذهولًا. كانت صدمة عدم فهم وليس دهشة، لأن فكره في تلك اللحظة كان مخلخلًا مهزوزًا، وكذلك فكرها أغلب الظن. إن منطوق السؤال باعثًا في حد ذاته على الهزأ، لكن نبرتها لا يتضح منها إلا الجد. ثم إنها همست له صادقة:

- أقول لك حاجة مجنونة؟ (وهزَّت رأسها بقوَّة).. لأ، إففف! حاسلك الأول سؤال..

ممكن اللي بيننا يكون حب يا حسين؟! يعني، هل ممكن إنك، مثلًا، تحبني زي ما كنت تحب مراتك؟ (وهزّت رأسها ثانية) مش لازم بنفس الدرجة، أنا أرضي بواحد على عشرة.

فضّ عنها ذراعيه وأبعدها برفق، ثم نهض وجلس محيطًا ساقيه المضمومتين بذراعيه، ونظر للأمام بوجوم. جلست على ركبتيها مواجهة له لتدخل في مجال رؤيته قائلة برجاء:

- اللي حصل النهارده مش لازم يعدي من غير ما نستغله، وأكيد حتفرق معايا ومعاك.. نتجوّز ونسافر، إيه رأيك؟!

سألها بخواء:

- نسافر فين؟

- نسافر أمريكا، نتجوّز بُكره لو تحب.. يا حسين، إحنا متفصّلين على بعض، ومش محتاجين لحد.. أنت حتأخذ إقامة لأني معايا جنسية، ونقعد في فلوريدا، بيتي هناك يجنن، نمشي على البحر ونتكلم.. و..

وضحكت بتوتُّر، وأردفت:

- إحنا حتى مش محتاجين نشتغل، أنت معاك ملايين، وأنا مستكفية.. إحنا لسه صغار، حنستمتع بحياتنا ونخلف لو تحب.

كان معدَّل تنفُّسها ونبض قلبها متسارعين مضطربين، على حين قال هو بحياديَّة ودون تعبير:

- أنا ما أحبش أمريكا.

قالت بسرعة:

- مش مهم، مش لازم أمريكا، ممكن كندا.. بلد جميلة جدًّا، وفيها مناطق مقطوعة، نعيش فيها وحدنا من غير ما نحتاج مخلوق.

- أنا مش عايز أسافر، أنا بأحب البلد دي، وعايز أقعد فيها.

- البلد دي حتخرب بعد سنين قليلة، اسمع اللي أقول لك عليه.

- إيه اللي يخليها تخرب، ما هي طول عمرها كده.

- حتخرب وربنا، اللي مش حيغرق هو اللي يقدر يفك منها على خير.

هكذا قالت بسخط، ثم قبَّلت شفتيه بلهوجة، وقالت بلهاثٍ أحَسَّ بلفحه على بشرته:

- ما تكونش عبيط.. صدقني تكسب، وترتاح.. أنا وأنت نرتاح.

قال بوهن:

- أنا حاسس إن في حاجة وحشة جدًّا حتحصلي، حاسس أن ربنا مش حيسيبني، حينتقم مني على الشر اللي عملته.

خُيِّل إليها أنه لا يعي ما تقول، فتابعت بإصرار وحمية:

- انس كل اللي حصل.. تعال نروح بعيد وننسى القذارة والناس اللي تربطنا بكل حاجة وحشة.. دي فرصة لي ولك ما تضيَّعهاش، نجرَّب يا أخي، حتخسر إيه؟! إحنا زيّ بعض كربون، وممكن ننجح.. صدَّقني يا حسين، أنا بأحبك! طول عمري، أنت بالنسبة ليّ مرض، عقدة مش عارفة أحلها، بأحاول أتخلص منها مش عارفة، دلوقت ما فيش داعي أتخلص منها.. نقدر نبدأ من الأول.. لازم توافق، لأن الموضوع هيترتَّب عليه حاجات كثيرة جدًّا، لازم أرتِّب لها من الليلة، من دلوقت.

لم يأتِ برد فعل، فتابعت وقد بدأت النرفزة تلتمس سبيلها إليها:

- أرجوك ما تفكرش.. أنا فعلًا ممكن أكون مراتك، وممكن أكون نظيفة ومحترمة، أصونك وأحبك.. إحنا من نفس الطينة.. بذمتك، بذمتك عمرك حسيت بالانسجام ده مع حد؟!

- ربنا مش حيسيبني، أنا عارف.. أنا شايف الموت قدامي وخايف جدًّا، ولوحدي.. مفيش حد معايا، ومش عارف أعمل إيه.

قالها شاردًا مغمورًا كأنه مُشرف على البكاء، فعلمت أنه إما يتهرَّب، أو أنه في وادٍ آخر. ولأنها في مخاطبة الآخر لا تسلك سُبل الإلحاح، أدركت أن مسالكها معه قد انسدت لغير رجعة، وكم أحزنها هذا وخدشها. وكيف لا، وهو حبيب العمر وحبّة القلب وقرَّة العين؟! ربنا يشهد أنها حاولت أن تجنبه الأذى، لكنَّه البصر الذي يعمي، والقلب الذي يَعمه. ربَّتت على كتفه، وقالت بتعاطف:

- بكيفك يا حسين.

ظل وجهها على رجائه ورحابته برهة، ثم اكتسى بالجمود. وبينما ترى عينيه وقد غابتا في غشاوةٍ من الدمع، داخلها الندم، ثم رقَّ قلبها له للمرة الأخيرة، فأقبلت عليه تعانقه، فاعتنقها ملهوفًا واشتد في تطويقها كمن يلتفع ثوبه في ليل بارد فيشتمل به ويضمَّه مشتاقًا.

لثمته في رقبته وكتفه، ولاذت به كالغريق بطوق النجاة، وأخيرًا حلَّت نفسها عنه فعاد لوجهها جموده، ثم انقلبت لتستلقي جانبه موليًاه ظهرها، وقالت كمن يؤدي العزاء في ميِّت:

- أنا حأنام لو ما يضايقكش، ساعة واحدة قبل ما أمشي.

يبس حسين على جلسته لا يرفع عينيه عنها، حتى انتظمت أنفاسها. لم يكن يفكر في أمر محدد سوى أن يرقبها في تراخيها. عادت البراءة لوجهها الوضَّاء، وانعكس النور الخافت على جسمها. ثم اطمأن أخيرًا وناله النَصَب وثقل جفناه، فاستلقى جانبها، وراح في نومٍ عميق.

***

لزمنٍ ما استغرقه النوم، وفي أحلك نقطة من الليل، قُبَيْلَ الفجر مباشرةً، أقلقت مضجعه حركةٌ مُبهَمَةٌ أحَسَّ بها بوضوح، فرفع وجهه عن الوسادة، ثم جلس وأدار عينيه فيما حوله ليرى. كانت الغرفة شبه مظلمة إلا من إضاءةٍ ذابلةٍ قادمةٍ من الرواق الخارجي. استطاع إحصاء سبعة أو ثمانية رجال، توزَّعوا أمام مدخل الغرفة وداخلها. وعندما تكيَّفت عيناه مع الإضاءة الخافتة، ميَّز عاصم عبد الهادي ببنيته الطويلة الرشيقة، وقد وقف عاقدًا ذراعيه يرمقه بتمعُّن.. ثم رأى سَحَر.. على الفوتيل المواجه للفراش جلست.

ارتدت إحدى عباءات زوجته الحريرية السوداء المُطرَّزة بخيوطٍ من الفضة، وبسطت كفيها على مسندي مقعدها، ووضعت ساقًا على ساق. وعندما أبصرها حسين لم يعد يرى سواها. غاب أغلب وجهها وجسمها في تكوينات من السواد، وانفصل منها الظل عن النور بمساحات ناعمة التدرُّج، أضفت عليها مظهراً كئيبًا مقبضًا. تمنَّى لو كان ما يراه الآن ضربًا من ضروب التخريف، لأنه لو كان واقعًا فلقد تورَّط في موقفٍ في

غاية السوء. لم يكن فزعًا، بقدرما بدا غير مصدِّق، أو مستوعب، والأحرى أنه لم يكن مقتنعًا. ثم إنه تذكُّر أمرًا ما.

مال فجأة وضغط مفتاحًا كهربيًّا مثبتًا فوق الكومود إلى جانب الفراش. ضغطه مرارًا دون جدوى، ثم عاد إلى موضعه ببطء، وتبدَّت على وجهه آيات اليأس والإحباط، واستيقان الهلاك، ورأى ما يشبه ابتسامات متشفيَّة على وجوه الحضور جميعًا.. إلا سَحَر.

هذا المفتاح الكهربي هو جرس استدعاء مُوصَّل بغرفة النونو. وبغض النظر عن كونهم أفسدوا كافة التوصيلات الكهربية وأنظمة الشبكات، فإن رَجُلَهُ ما كان ليستجيب، ولو قُرعت على رأسه الطبول. اضطجع النونو على ظهره بملامح جامدة وقد رُصِّع جبينه بثقبٍ أسودٍ جاف. لم يشعر العملاق في نومه بدخول أحد، فجاء قتله سلسًا يسيرًا. لم يدر حسين بما حل بالنونو، واستحوذت عليه فكرة كونه عاريًّا. إنه متقبِّل ما يمكن أن يصيبه، لكن ليس في عُرْي، فأسوأ البلايا أن يُؤذى ويُهان مع انكشاف عورته. فهذا كفيل بإلحاق هزيمة معنوية ماحقة به، من قبل أن يبدأ الإيذاء البدني المتوقع.

وعندما ولَّى بصره جهة من كانت شريكة الزِنا منذ قليل، رآها تنهض ببطء، والظلال تزحف عليها كأرواح مطلقة الانسياب. أقبلت عليه، واستوت جانبه. أحاطت خدَّيه بكفيها، وتطلَّع هو إليها بغرابةٍ ونفور كأنه يراها أول مرة. ثم أخذت تُوَشْوِش له بأناة، كأنها تشرح معضلةً حسابيةً لصبي صغير. نمت إليه كلُّ كلمةٍ منها كالسم يهاجم الأنسجة من الدم، ووَصَلَ صوتها إليه رخيمًا قريبًا، عذبًا نقيًّا، بين أحرفه وامتداداته بَزَغَت بحَّتها الخفيفة. أومأ برأسه بين الحين والحين كأنه يستوعب ما تقوله بتفهم وعناية. وتقلَّصت ملامحها لتعبِّر عن كراهية راسخة، ثم تراخت بحزنٍ وندم، ثم تقبَّضت مع الشعور بالإثم. ولم تخرج استجاباته عن الذهول.. نالته حالةُ كسادٍ غليظة، ووَشَت نظراته بما يعانيه من تبلُّد مريب، فكأنه يدبر أمرًا أو أن الفهم استغلق عليه. راقب عاصم الموقف مَلِيًّا محاولاً استشفاف ما بين السطور، لكنَّه قبض على مشاعره مراعاةً لسَحَر.

أتمت سَحَر حوارها السري مع حسين، ولثمت شفتيه مرتين، ثم فارقته ونهضت. ولما

التفتت عنه، ولاح وجهُها للحاضرين، لم يكن عليه إلا اليُبُوسَة والفتور، ومتانة المظهر مع الحسن والبهاء. تقدَّمت على الأرضية الخشبية بصندلها سامق الكعب، فتابعت الأعين قوامها الممشوق وساقيها الطويلتين وخَصرها الأهيف من وراء عباءتها الرقيقة وهي تمشي بتُؤَدَةٍ للأمام، بخطوات متبخترةٍ في خيلاءٍ وتكَبُّر، حتى مَرَقَت من مدخل الغرفة بثقةٍ واطمئنان، لا تلوي على أحد، فكأنه ليس هناك غيرها في هذه الغرفة.. وهذا القصر.. وهذه الدنيا.

وما أن غادرت، حتى أشار عاصمٌ لرجاله، فانقضوا على حسين جميعًا. طرحوه أرضًا، وتكاثروا عليه بالركل واللكم، ثم سحبوه على أرضية الغرفة، ومنها لأروقة القصر، فمر جسده على درجات سلالم كثيرة، ولم يعد يشعر إلا بالصدمات والرجرجة كأن العشرات يطئونه بالنعال دون رحمة، ثم استشرى الألم في كل أعضائه، وشعر بالبول يتدفق من بين فخذيه ويغرق ساقيه. لم يصرخ أو يتكلم أو يقاوم، بل استسلم لمصيره المُظلم مُصدرًا أنات عميقة مبتورة، حتى اسودَّت الدنيا، فصار وعيه إلى العدم، وتراخي بدنه، فإذا بهم يتجاذبونه كجسم رخوي ميت، ويتنادفونه كما يُندف القطن ليرق.

* * *

الفصل السابع:

المُكَعَّب

"لازم من هنا ورايح، تتعلم تقبل قدرك.. ده يعفيك من ألم زيادة، ومقاومة ما لهاش معنى."

ثم استيقظ...

في البداية لم يشعر بشيءٍ، ولم يتذكَّر شيئًا. كل ما أمامه ظلال حالكة منعدمة الهوية، ثم شيئًا فشيئًا سَرَت في عروقه مشاعر مقبضة، وعاودته الأحداث بالتدريج، وتزامن هذا مع بَدْء إدراكه للبيئة من حوله. أدرك أنه يجلس على مقعدٍ خشبي، وأن يديه وساقيه قُيِّدُوا على المقعد بأربطةٍ رفيعة مؤلمة. حاول التعرُّف على خصائص الأرضية، فتحسَّسها بأصابع قدميه الحافيتين، وكانت مزيجًا من التراب والحصى وأجسام صلبة وحادَّة. وأدرك أيضًا أنه ما زال عاريًا كيوم وُلِد. وكانت تلك إشارة لتتابع الأحاسيس السيئة، ففضلًا عن حالة الجزع والانقباض، بدأ الألم، وكان منتشرًا من مواقع كدماته وجروحه. أطبقت عليه ظلمةٌ لم يرَ مثلها من قبل. سوادٌ كسواد القبور، أَحَسَّ به يتكاثف حوله ويضمُّه، فضاقت أنفاسه، وانقبض وجهه، ورغب في البكاء أو الصراخ، لكنه لم يستطع. إن عينيه جافتين، والخوف يقوِّض أركانه فيمنعه من التركيز. فقط يبس في موضعه دون حراك متتبِّعًا صوت شهيقه وزفيره، ومحرِّكًا حدقتيه برعبٍ في محاولة يائسة لتجاوز حواشي الظلمة. ضاع منه حساب الثواني والدقائق، فلبث لا يدري أهي ساعة أم خمس ساعات؟ أهو نائم أم مستيقظ؟ أيفكر حقًّا أم أن ذهنه خواء؟

ثم حاول أن يرتِّب خواطره، ويناقش الاحتمالات مع نفسه. استعرض في ذهنه قائمةً بمن يمكن أن يفعل به هذا، وحدَّث نفسه أنه في الفترة البسيطة السابقة كوَّن لنفسه جبهةً عريضةً من الموتورين وأولياء الدم، وهؤلاء جميعًا لن يتورَّعوا عن انتهاك حرمة بدنه ونفسه، بدءًا من الإساءة اللفظية وصولًا لمستبشع الأمور. الأمر الغريب أنه رأى عاصم عبد الهادي في غرفة النوم، لكن هذه التفصيلة مُحِيَت عن ذهنه بالكليَّة. بل إنه لم يستوعب الموقف على وجهه الوافي، أو يصدِّقه، ولم يكوِّن تصوُّر عن الوضع الحالي أو عن الساعات القادمة.

وفي اللحظة التالية سمع صوت انزياح مزلاجٍ ضخم. انفتح بابٌ معدنيٌّ ثقيلٌ بصرير، ومنه دخل عدَّة أشخاص، ودخل معهم قليلٌ من النور أضاء المكان نسبيًّا. تمعَّن حسين في القادمين بانتباهٍ شديد، وكانوا ثلاثة رجال: واحدٌ جلس أمامه مباشرة على مقعدٍ خشبي، والآخر وقف عند الباب بقوامه المعتدل وشعره الأشقر وقسماته البهيَّة (وهو

عاصم عبد الهادي). والثالث وقف جانبه بجسد أُثقِلَ بالشحم حتى اتَّخذ شكل ثمرة الكمثرى.

على الضوء المقبض ألقى حسين نظرةً عامة على المكان لتكوين تصوُّر بصري يستعين به في الظلمة الكالحة، وأحَسَّ بنظرات الحاضرين تنتهكه، وعاوده الانزعاج الجارف والإحساس بالعُري، فحاول ضم فخذيه. ثم تنحنح عاصم وقال بشيءٍ من الخجل مع ابتسامة مجاملة:

- إزيّ حالك يا حسين؟

- عاصم؟!

هكذا تساءل حسين بذهول، فقال عاصم بلهجة من هو خجلان لكنَّه مضطَّر:

- أنا أعتذر أني اضطريت أجيبك هنا، صدقني ماحبتش الموضوع يتم بالطريقة دي، لكن ما باليد حيلة.. أنت أجبرتني.

تساءل حسين متحيِّرًا:

- أجبرتك؟!

قال عاصم بشيءٍ من الشفقة والتقدير:

- من فضلك يا حسين ركِّز معايا. أنت كنت في قصر الفردوس مع سَحَر، وإحنا اضطرينا، آسفين، ندخل القصر دون إذنك بمساعدة سَحَر، لأنها تعرف مفاتيح أجهزة الإنذار والأقفال، واضطرينا نقتل النونو.

"نـ. نقتل النونو؟!" هنا داخل حسين ارْتِيَاعٌ مفاجئ، وبدأ تقديره لعمق الورطة التي وقع فيها يتّضح. ويبث في نفسه دفقات غامرة من اليأس القاتل. إنها مصيبة، فلو أن مكروهًا أصاب النونو، فما من شخص بعده سيُكلِّف نفسه مشقة البحث عنه، ما يقطع أي أمل له في النجاة. وقع هذا في روع حسين فسأل جزعًا:

- النونو مات؟!

- أنا آسف على وجودك معانا بالشكل المهين ده، بس أنا أؤكد لك أنها الحالة اللي وجدناك عليها، وما كانش في فرصة إنك تستر نفسك بالشكل اللائق. بصراحة أنا

اقترحت إننا نجيب لك أي شيء يسترك، لكن الأستاذ تَيْسِير نصحني أن الظروف تقتضي أنك تفضل على حالتك.

- من تَيْسِير؟!

- الأستاذ اللي قاعد في وشك.

حدَّق حسين في وجه الجالس أمامه بنظرة متفحِّصة، ثم عاد ببصره لعاصم وسأله بوجهٍ منقبض:

- عايزين مني إيه؟

- أنت حطِّيتنا في موقف حساس جدًا، أنا والعيلة. استوليت على شحنة هيروين قيمتها المالية عالية جدًا. المبلغ فعلًا ضخم، وأنا لي منه نصيب أكبر من أنصبة العائلة مجتمعين، لأني أصلًا صاحب الوساطة.

هنا فقط استعاد حسين صفاءه الذهني بالتمام على هيئة انفجار ساطع، شعر به يخرق دماغه ويكتسح تلافيف مخه، فأدرك أنه سقط سقطته الكبرى. ما العمل الآن؟ لو أفضى إليهم بما يريدون ستنتفي حاجتهم إليه، وسيقتلونه حتمًا. على الجانب الآخر: إنه ليس على استعدادٍ لتحمُّل الألم. لو يعلم على وجه اليقين إمكان انتهاء المسألة سلميًّا لأفصح عن بغيتهم دون تردد. جَزَم أنهم سيفعلون به الأفاعيل حتى يتكلَّم، ولن تأخذهم به رحمة.

ثم قال عاصم ملتمسًا في كلامه الاتزان والترتيب:

- ويارَيت الموضوع يقتصر علينا، في دائرة العائلة. كان ممكن نحل الموضوع "أُسَريًّا"! المشكلة أن في أطراف مشتركة في الشحنة من دول متعددة، ومواعيد التسليم تقترب يوم عن يوم. الشحنة اتسرقت من أسبوع تقريبًا، وباقي أسبوع على التسليم. أنا بمعجزة قدرت أجري اتصالاتي وأؤجل عشرة أيام زيادة، وده تأخير يكلفنا غرامات ضخمة، لكن يتبقى أمامنا تمنتاشر يوم بالضبط. وأظنَّك تعرف التأخير دون مبرِّر في عملية بالمقياس ده يعني إيه، فما بالك بالإلغاء؟ (وشدَّد على كلامه) لازم في بحر عشر أيام الشحنة ترجع، لأنها حتأخذ وقت في إعادة التجهيز والتعبئة والتوزيع، وده بفضلك طبعًا، حيث أنك أفسدت الخطة الأصلية (وعقد كفيه خلف ظهره وأطرق). الحقيقة

أن محاولة إرضاء شركائنا بتعويضات مالية عن ضياع الشحنة ما لهوش معنى، لأننا، من جهة، مش حنقدر نأمن غدر الناس دي، ولأننا، من جهة ثانية، لا نملك في الوقت الحالي الرفاهية المادية لدفع مبلغ ضخم بالشكل ده، في ظل الظروف الصعبة اللي العيلة كلها تمر بها.

وسكت، متيحًا الفرصة لضيفه المقيَّد أن يتدبَّر حديثه. ثم انتظر أن يأتي بأي رد فعل. لكن حسين لم يطرف رمشًا، بل استمر مُطرقًا وصدره يعلو ويهبط بالنفس. مال عاصم قليلًا، وسأله بقلق:

- حسين، مركِّز معايا؟

أومأ حسين إيجابًا بذهول، فأومأ عاصم بدوره مُقدِّرًا، وقال:

- إحنا كلنا معرَّضين للخطر يا حسين. العيلة كلها تنتهي، أو الشحنة ترجع خلال الوقت المحدَّد. الناس دي لا ترحم، والتفاهم مش سياستهم المفضَّلة، ومنهم واحد عراقي اسمه «أبو ترس». جماعته سبعميت نفر مسلَّح، ميليشيا بشعة مدعومة من الأمريكان، وأمنيته إنه يشتغل برَّه الحدود. هو وحده كفيل بالقضاء علينا جميعًا. ده على سبيل المثال، فما بالك بأطراف أخرى لو اجتمعوا ضدنا (وتنهَّد بيأس). أنا فكَّرت إن اثنين يعرفوا مخبأ الشحنة، أنت وسيِّد العدوي. أنا لجأت لسيِّد أولًا، لأن أكره ما عليَّ أن أؤذي حد من العيلة، خصوصًا أنت؛ لأنك ابن عمي وأخ لصديق عزيز، وبمثابة أخ ليَّ! لكن للأسف سيد العدوي اختفى تمامًا بعد الاجتماع، وكله بيدوَّر عليه دلوقت. أما أنا فعليَّ مسؤولية جسيمة وثقيلة على قلبي، وهي استنطاقك. وربنا يعلم إني مش عايز أعمل كده، لكن ما باليد حيلة.

وأردف بلين، وهو يضم يديه أمام وجهه يرجوه:

كل ما أتمناه أنك توفَّر عليَّ وعلى نفسك المشقَّة، وتقرّ بمكان الشحنة، وكل حيّ يروح لحاله.

بدت على حسين أمارات التفكير العميق والقلق العارم. وبعد فترة رفع لعاصم عينين مُتَحَيِّرتين، وقال باضطرابٍ شديد:

- لو سمحت يا عاصم، سيبني أمشي من هنا!

حدَّق عاصم فيه بدهشة، وخُيِّل إليه أنه لم يسمع مما قال كلمة، لكنَّه آثر الرد مع هذا فقال:

- الموضوع في إيدك، وينتهي بكلمتين.

قال حسين بوجه متقبِّض:

- يا عاصم، أنت مش فاهم. الأماكن الضيِّقة والمقفولة بترعبني. من فضلك سيبني أمشي من هنا، وبعدين نقدر نتفاهم بأسلوب متحضِّر!

نفخ عاصم، وقال بزهقٍ وأسف:

- جرَّبنا يا حسين الأسلوب المتحضِّر، وما نفعش.

قال حسين كالغريق يستخلص آخر أنفاسه:

- على الأقل، حطِّني في مكان ثاني. يكون أوسع، وفيه تهوية وشبَّاك!

- ما أقدرش.

- ليه ما تقدرش يا عاصم، ليه؟!

تنهَّد عاصم بشيءٍ من الألم، وقال:

- يا حسين، من فضلك. ما تصعَّبش الأمور عليَّ وعليك.

قال حسين مراوغًا لأجل مطلب آخر، هو في رأيه من أضعف الإيمان:

- طيِّب، ادِّيني حاجة ألبسها من فضلك! أنا ما أقدرش أفضل قاعد بالصورة دي. على الأقل.

فكَّر عاصم لحظة، ثم نظر لذلك الذي يجلس أمام حسين مستشيرًا، فهَزَّ الرجل رأسه رافضًا بعزم. رمَّق عاصم سجينه بأسف، وهَزَّ كتفيه علامة أنه قد أسقط في يده، فقال حسين برجاءٍ حار:

- يا عاصم، استحلفك بالله ترحمني! وتدِّيني حاجة ألبسها! أسلوب التعامل ما ينفعش يكون كده.

هَزَّ عاصم رأسه بأن لا، فنظر حسين لعورته بجزع، ثم رفع رأسه وردَّد متوسِّلًا:

- طيِّب، على الأقل سيِّب رجلي، أو اربطهم في بعض، على الأقل أحاول أستر نفسي بأفخاذي!

تفكَّر عاصم قليلًا في العرض، وبدا له عادلًا ولن يضر في شيء، فهمَّ بطرحه على تَيْسِير الجالس أمام حسين، لكن تَيْسِير أعلم الناس بسيِّده، فما أن رأى منه شبهة اللين حتى نهض إليه وقال بتصميم، وتلك أول مرة يسمع فيها حسين صوته، وكان خفخافًا، كأنه يخرج من أنفه:

- من فضلك يا عاصم بك، تسيبوني لوحدي، علشان أشوف شغلي.

اتسعت عينا حسين، وأحَسَّ بخوفٍ شنيع يتملَّكه، خصوصًا مع كلمة "أشوف شغلي. رأى تَيْسِير يقود عاصم بلباقة للخارج، يتبعه الرجل السمين الذي اكتفى بالمراقبة طوال الوقت. ثم بدا له الباب وهو يُرد بصرير ثم يصطك بالحائط، كأن أبواب الرحمة والإنسانية أغلقت للأبد، وتركته وحيدًا مع وحش طليق.

ولَّاه تَيْسِير ظهره دقيقة، ثم التفت إليه بوجه متجهِّم، وأقبل عليه يحجل، وكانت بساقه إصابة قديمة. جلس أمام حسين، ومال عليه يسأله وهو ينظر مباشرة في عينيه: "فين البضاعة؟"

* * *

المكان الذي وُضع فيه هو غرفة صغيرة على شكل المكعَّب، تدلَّى من سقفها مصباحٌ كهربي بسيط. الحوائط رمادية كئيبة أسقطت الرطوبة طلاءها، واكتست كلها بالسناج والوَسَخ. أما الأرض فمكسوَّة بالسيراميك، برزت بعض ترابيعه عبر أكوام من القذر والبرك الآسنة، وتحطَّم أغلبه حتى بات السير بقدمين حافيتين محفوفًا بالمخاطر، ولابد لباطن القدم أن يتمزَّق إما بخزْق حطام السيراميك الحادة، أو شظايا الزجاج والمسامير وإبر المحاقن الطبية (التي وجودها في حد ذاته عجيب فكأنها وُضِعَت عمدًا، أو أن المكان كان مرتعًا لشرذمة من المدمنين). للغرفة بابان سميكان متقابلان من الصلب، واحد فقط يدخل ويخرج منه الزوَّار، والآخر يفضي إلى ممرٍ مسدود. رائحة الغرفة فظيعة: هي مزيج من عطانة الخمور ونتن الرمم وصُنان البول، ويمكن رؤية بعض ما تقدَّم ذكره في الأركان؛ وسخٌ جاف، وبُوْرٌ منتنة، وفضلات اشتدت شناعتها، وبعض زبالة طعام ناله

العفن حتى اسوَّد.

في هذا المكان قضى حسين فترةً من الزمن لم يستطع تحديدها على وجه اليقين. أيام مضت عليه لم يرَ فيها بصيصًا من نور، اللهم إلا المصباح الأصفر الذي يضيء بيئةً ليس من الخير رؤيتها، ويُريه أناسًا ليس أبشع من النظر في وجوههم. وليست الظلمة أفضل حالًا من النور، بل إنها تجثم على صدره وأنفاسه كالغول، وما زالت تتفتق خيالاته عن الجن وتجسُّمات الضلال والخَرَف. أكثر ما آذاه صنبورٌ صدئ برز من الحائط، يتقاطر منه باستمرار سائلٌ لزجٌ كريهٌ متماسك القوام، هو مزيج من نفايات عضوية وكيماوية سامة. لا ينقطع التقاطر قط، إذ تستمر الكرات الكثيفة في التساقط إلى بركة فوَّاحة، منها تكاد أمعاؤه تأكل حشاياها. على وجه العموم بدت الغرفة كأنها التجسيد الحيّ للبشاعة وسوء المنقلب، وبثَّت الجدران الأربعة في النفس إحساسًا بأن ثَمَّة أنشطة آثمة وغير سوية استُضيفت هنا.

استمرت جلسات الاستجواب ساعات متصلة، تكرَّر فيها الإيذاء اللفظي والبدني تصاعديًّا، وقام به بشكل منهجي ومنظَّم تَنْسِير مع ثلاثة رجال يرتدون دائمًا أفرولات زرقاء باهتة. وبعد كل جلسة يفكُّون قيود حسين لإتاحة قدرٍ محدودٍ من الحركة على أرضية مُلَغَّمة بالمسامير وشظايا الزجاج، فيظل حسين وحيدًا في ظلام دامس لساعاتٍ تمر عليه كالدهور والآماد. يسلم عقله فريسةً لأصناف الخواطر والأفكار المخيفة والهدَّامة، ويستسلم للكبت والغليان، فترتفع درجة حرارة جسمه لحد لا يُطاق، لدرجة أن العرق يغطيه دون أن يبذل جهدًا. فقط يقبع مكانه منحشرًا في الركن، ويلهث ويزوم دون توقف.

أدخلوا له الطعام عدة مرات، وتركوا له بصيصًا من نور كي يرى ما يأكل. ولا تصح تسمية ما يدفعونه إليه بالطعام، لأنه شيء آخر يختلف في المذاق والقوام، يتكتَّل على صحن معدني صدئ، لكنَّه في كل الأحوال يأكل منها قدر ما يستطيع صابرًا، بعد بداية شاقة كلها تهوُّع وتقيُّؤ.

الأدهى أنه أَلِف القذارة، فصار يقضي حاجته حيث يعيش. ينهض لمَّا تؤلمه الحاجة عن ركنه الذي اتَّخذه مجلسًا ومنامًا وسكنًا، ويسعى بحرصٍ بمحاذاة الجدار للركن

المقابل، محاذرًا أن تلج قدمه في أي جزئية حادة، وغالبًا ما تفشل مساعيه فتخرق الأرض جلده حتى تدميه. لم تؤلمه تلك الجروح للحد الذي يشلُّه عن الحركة، لكنَّها كانت تستفزُّه جدًا. ينتحي الركن المقابل (وليس من المستبعد أن يكون هو نفس الركن الذي اتخذه سكنًا، ذلك أنه لا يرى شيئًا في الظلمة الدامسة)، ولمَّا يطمئن لموقعه يُقعي أرضًا كالكلب ويقضي حاجته. أيضًا زال انزعاجه من عُرْيه، إذ وقر داخله ظنٌّ أن الظلام كما يحول بينه وبين رؤية سجَّانيه، يحول بينهم وبين رؤيتهم عورته أيضًا. أما النوم، فمشكوك فيه، لأنه ما كان يدري متى ينام ومتى يفيق. اتصل خط الزمن، وأصبح النوم واليقظة حلقة سريالية متتابعة ساحت مقدماتها في نهاياتها، فإن جاءه النعاس ينعس، وما يدري إلا وقد أفاق، فهل نام خمس دقائق؟ أم خمس ساعات؟! الله أعلم.

ومع تقادم الوقت تلفت أعصابه، وضمرت قدرته على الاحتمال، واحتاج إلى النفث عن غيظه وغليانه. لكن ما علَّه يفعل وهو عاجز حتى عن الحركة؟ فاتخذ قرارًا مصيريًّا بالإضراب عن الطعام، حتى نهشه الجوع فعدل عن الاضراب وإن اكتفى بأقل القليل. ما يكفي لبقائه على قيد الحياة، هكذا قال في نفسه. ثم تدهورت به الحال إلى الصراخ وضرب الجدار بقبضته، والسب والتهديد، وقد يعمد إلى إيذاء نفسه، فيضرب الأرض بقدميه، ثم يعود وقد علقت به دقائق حادة أدمت الجلد وكشطت البشرة. ويصرخ، ليس من ألم فقط، بل من الغيظ، حتى يغلبه الإنهاك فيجلس باكيًا عند ركنه وملاذه، ومبولته ومجلسه ومنامه. وشيئًا فشيئًا يستعيد هدوءه، فإما أن ينام، أو ينهض محاذرًا متَّخذًا طريقه إلى الباب، فيدق عليه متوسلًا أن ينعموا عليه بما يستر به بدنه.

وكما يمتلئ البالون بالهواء، امتلأ دماغه بأفكار دارت حول فلك وجودي وفلسفي صعب: كيف تردَّى لهذا الدرك العميق؟ كيف تحوَّل لورم قبيح؟ كيف فشل في أن يعيش حياةً منتجةً بعد أن توافرت له كافة مقوِّمات النجاح؟ لابد وأنه ميل غريزي أو وراثي للفساد والإفساد. إنه الآن، في هذه اللحظة، لا يرى نفسه إلا أنموذجًا لهؤلاء الفشلة والمُشردين الذين يتهربون من أداء أي دور إيجابي في الحياة. تزوَّج من امرأة محترمة وملتزمة، عذبة اللسان ترضي باليسير، وفوق هذا وذاك هي حب حياته منذ الصغر، فما كان أسهل من أن يعيش في كنفها راضيًا محترمًا، لكنَّه أبي وغمِط النعمة. لم يتقبَّل حلاوة الزواج والسكن، واستهزأ بأسس الرباط والدين، وسدَّد تركيزه في

البحث عن السلبيات والتبرُّم من الالتزام. تلبَّس بالأنانية، واستهزأ بالولاء لربِّه ودينه، ويكاد يقسم أنه ما رأى نفسه وقد ولَّى وجهه جهة القبلة ذات يوم، أو توجه لله بالدعاء، أو حتى صلى الجُمعة. والأخيرة بالذات، ولأنها شعيرة إلزامية يقف على شهادتها الناس، كان يتحايل عليها، فيهيم على وجهه في الطرقات حتى ينقضي ميقات الصلاة، وينخرط في جموع المغادرين كأنه منهم. ولما تزوَّج لم يتغيَّر من سلوكه شيء، اللهم إلا مرَّتين أجبرته زوجته على مصاحبتها للمسجد، ويذكر أنه غطَّ غطيطًا ما دامت الخطبة، وكاد يتشاجر مع بعض الإخوة المصلين ممن نبَّهوه إلى حتمية إعادة الوضوء لأنه نام، وما كان ليفعل لو انطبقت السماء على الأرض، فحلف يمينًا غموسًا، في صحن بيت الله، أنه لم يغفل ولو للحظة. والأدهى أنه عاش مع هذا راضيًا غافلًا، ونظر بحقدٍ إلى فكرة العمل الشريف، معتبرًا أن الأخذ بالأسباب من مقامات العامة والغوغاء. فما فائدة العمل الجاد ما دام المجتمع ذاته لا يقدِّس قيمة العمل، ويعيش أفراده حياة طفيلية خبيثة عمادها النصب والاحتيال والتهليب والفهلوة والانتهازية؟ كيف يعيش ليخدم أولائك السابلة في الشوارع، الذين لا يتورَّعون عن كسر القانون وتدمير ثوابت الدين لو أن هذا يحقِّق فائدة؟ حتى الميزة الأخلاقية الوحيدة التي نذر نفسه لتلبيتها، وهي ألا يأتي النساء في الحرام، لم يأخذها عهدًا يلتزم بمعناه ويعمل بمقتضاه، إذ سرعان ما نبذه في حياة زوجته، واكتشف أن تمسُّكه بهذه الفضيلة لم يكن إلا إطارًا شكليًّا سببه الخوف ممن حوله.

أما زوجته، فلكم محَّضت له غاية الحب.. حبٌّ مركَّب، ألقت به إليه دون تحفُّظ. ظنَّت به خيرًا أبدًا، مهما شانت معاصيه وتدنَّت مقاصده، فتحرَّت في محاسبته أسباب الرحمة. وكانت تفكر دائمًا: كيف تحاسبه وهي ترى ما بلغه حال أمة الإسلام مُجملًا من غربة الدين وقيادة المفسدين وفتور الشرائع وتعطيل الحدود؟! إنه مسكين، شبَّ على قسوة القلب، والجهل التام بالعبادات والمعاملات، وتبلوَّر معتقده على تزيين الباطل وخلطه على الناس بلبوس الحق. إنه يذكرها الآن، ويعلم أنها منه كانت كالروح من البدن، ومع هذا أساء إليها، فباتت ليالٍ طويلة وهي عليه غاضبة. الويل له، أكانت له خادمة؟! أم كانت له جارية مملوكة؟! حاشاها! بل هي سيِّدة مصون، ابتُليت به فصبرت، ولقد جازاها الله على صبرها خير الجزاء، فتوفاها شهيدة، فخرجت من الدنيا

كخروج اللبن من بين اللحم والدم وهو مُبرَّأ منهما.

إنه الآن يستطيع اعتبار نفسه، ولا فخر، شخصًا مختلًا نفسيًّا، قضى على مستقبله بسبب سيرته البريَّة وإظهاره الدائم لنوع من الحقد العدواني الدفاعي تجاه الآخرين. نعم، إنه الآن يرى نفسه على حقيقتها، معيبة تافهة الشأن خسيسة الأصل. الآن فهم أخيرًا، لماذا كان يقف محدِّقًا في صورته بالمرآة مشمئزًا، قائلًا لها في سرّه: "مهما تنظف نفسك، ستظل من أخبث خلق الله!"

في هذا اليوم، صَمَد تِنْسِير لاستجواب حسين ساعات متصلة، حتى تطلَّع إليه حسين بكراهيةٍ شديدة. كان وجهه داميًا، وجسده يمتلئ بالكدمات والجروح من جراء الاعتداء البدني الغليظ. وفي لحظةٍ انتفخت أوداجه، ثم جأر بصرخة عدوانية قبيحة وبصق في وجه تِنْسِير، وحاول التهجُّم عليه وهو مُقيَّد في مقعده، لكن تِنْسِير نهض مسرعًا ليتلافاه. دار حسين بمقعده حول نفسه، وصار يصرخ ويزعق ناظرًا للسقف وقد احمرَّت عيناه من شدة الغيظ. وقف تِنْسِير ورجاله ينظرون بهدوء، ثم انسحبوا وردُّوا الباب خلفهم، ولم تمض اللحظات حتى أطفأوا النور. لبث حسين وحيدًا يعوي بخفوت، حتى أخذ منه الإرهاق كل مأخذ، وأطبقت عليه الظلمة من جوانبها، فقرَّ في موقعه يلهث يائسًا محمومًا. أدرك أنهم -حتى وهو وحده- ضنُّوا عليه بأن يحلُّوا عنه قيوده، كعقابٍ له على ثورته. كان درسًا مهمًا استوعبه جيدًا.

ثم مرَّت عليه ساعاتٌ شعر في نهايتها بحاجته للتبول. ولم يدر كيف يتصرَّف وهو على حاله هذه مُقيَّد، وهو إن أصبح يعيش في وسطٍ يتَّسم مُجملًا بالقذارة، فهو يحاول الالتزام بالقدر الأدنى من النظافة، وهو القدر الذي يدفع الحيوان الأعجمي لرفع ساقه كي لا يبول على نفسه. إذن أضيف إلى آلامه ألم جديد، وهو حبس البول. حاول نسيان المسألة، وما زادته المحاولة إلا ألمًا ورغبة. حاول أن يصبر ويصبر، لكن ما نهاية هذا الصبر؟ لعلَّهم يتركونه هكذا يومًا أو يومين، فهل يصمد للاحتمال؟ أما يكفي ألم الجوع والظمأ والتكبيل، فيكون هذا؟!

ثم اضيء المصباح الأصفر فغُشي بصره. انفتح الباب ودخل رجلٌ شديد السمنة

بسمت من يتسلَّل، وردَّ الباب خلفه بقدرٍ من الهدوء. أقبل عليه متهاديًا، حاملًا عُلْبَة كُشَري، ومقعدًا خشبيًّا قصيرًا، فتراقصت طيّاته المدملجة وأكوامه الدهنية المُكْتَنِزة. وضع المقعد أمام حسين وجلس عليه بمشقَّة كجوال انطُرح أرضًا. نظر للشاب بشيءٍ من الترقُّب والفضول، وبادله حسين النظر، وظلا على سكوتهما دقيقة.

آثر حسين أن يطبق فمه خشية أن يتجرأ عليه غريمه بشيءٍ غير مُستحب. ثم حل الرجل عن العلبة غطائها، وفتح كيسيْ الصلصلة المتبَلة والدَقَّة وسكب محتوياتهما، وخلط الكل في بعضه بالملعقة، ثم أخذ يمضغ مستغرقًا، وحسين يكاد أن يفترسه بنظراته. طارت من ذهنه رغبة التبوُّل وكل رغبة أخرى وصار يتفكَّر في ألم البطن وجفاف العروق، وهو يعلم أن الرجل إنما يفعل ما يفعل لإذلاله. ثم سأله ناقمًا:

- خلاص؟! حَبَكِتْ تأكل هنا؟!

حدَّق الرجل فيه ببراءة، ثم قال بوداعة:

- لا مؤاخذة! تعال كُل!

زفر حسين بمشقَّة، فسأله الرجل باهتمام صادق:

- جَعَان؟ تاكل؟!

يجبه حسين، فأطرق الرجل مفكِّرًا بعمق وهو يقلِّب الخليط ببطء، ثم لاحت منه إلى الباب نظرة متوجِّسة كمن يخاف أن يفاجئه أحدٌ بالدخول. ثم نهض بعسر وأقبل على حسين، وتساءل بحذر: "تأكل؟" جاوب حسين الحذر بالريبة، ثم أومأ برأسه بقوَّة وفي عينيه نظرة، هي أنموذج للاستجداء والترجِّي. ازدرد السمين ريقه بصعوبة، وناشده بخفوت:

- حلفتك بالله، ما تقول لحد!

أومأ حسين إيجابًا بقوَّة، فاغترف الرجل بالملعقة، وقال منذرًا:

- أنا مش حاقدر أفكَّك، أنت فاهمني طبعًا. حأكِّلك بإيدي، ماشي؟

- بتأكل إيه؟

"كُشَري!" بهذا أجاب السمين باسمًا. كُشَري! هل ثَمَّة أجمل من تلك الكلمة في

العالم؟ في الوجود كله؟! وأدنى الملعقة من فم حسين، فأقبل عليها الشاب برأسه ومجامع عزائمه، ومضغ فكان أطيب ما دخل جوفه منذ خُلق.

تشاركا في العلبة بالإنصاف، وما أسرع ما انتهت وحسين يكاد يبكي من اشتداد اللذة، والآخر باسمٌ سعيدٌ يقول:

- سَقَى الكلب، ودخل الجنة!

لم تضايق العبارة حسين في شيء، ولم يُرِد أن يفسد هذه الثواني السعيدة على نفسه. ثم إنه تردَّد طويلًا، قبل أن يتساءل برجاء:

- من فضلك، هل ممكن..؟

رمقه البدين مستريبًا، فازدرد حسين ريقه وأدرك أنه ربما يطلب ما لا يطيق الرجل. ثم قال متوسِّلًا:

- أبوس إيدك، تفكّني!

رماه الرجل بدهشة من المطلب الوقح، فكرَّر حسين وقد تلقَّى الرسالة:

- أبوس إيدك.. تفكّني.. عايز أعمل حمَّام.

أطرق السمين مُفكِّرًا. كانت المسألة ضرورية وملحَّة من الواضح، لكن آثر التفاوض والمساومة، فسأل:

- ما تقدرش تصرَّف نفسك كده، وأنت قاعد؟!

- أبوس إيدك.. تفكّني.. أعمل حَمَّام بس!

تردَّد الرجل، ثم أقبل عليه متمتمًا:

- ربنا يستر!

دار حوله وأمسك بقيده البلاستيكي، وهمس إليه:

- من فضلك يا بك، ما تخلينيش أندم.

أومأ حسين موافقًا بعزم، فحلَّ الرجل عنه قيود يديه وقدميه، وابتعد. نظر حسين غير مصدِّق، وجال في خاطره أن ينقض على الرجل مستغلًا رقة قلبه، فيفقأ عينيه

ويشج رأسه ويفر. لكن بقية حكمة صدَّته عن نيته، لسببين، الأول أنه لا يدري ما ينتظره بالخارج، لعلها أبواب مغلقة أو جيوش من الحرس. والثاني أنه ليس في عروقه قوّة، ولو ألقى عليه الرجل جشمه لكسر أضلاعه وقتله خنقًا. وبناءً عليه، نهض حسين بصعوبة، وسعى عابرًا أكوام الوسخ والشظايا حتى وصل لركنه الأثير، فقضى حاجته براحة غامرة.

راقبه البدين دون خجل حتى فرغ، وعاد لركنه الأول فجلس. تبادل الرجلان النظر، وربما وشت عينا حسين بشيءٍ من الامتنان. ثم سأله:

- اسمك إيه؟

- الأسطي مُسْمَار!

أومأ حسين بحذر، واستغرب من الاسم، وقدَّر أنها كنيته، ثم تساءل بصوتٍ ممتقع:

- إحنا فين يا أسطى مُسْمَار؟

- في المصنع.

- مصنع إيه؟

- مصانع عبد الهادي.

- اللي في العشر؟

- اللي في العاشر.

وأشار إلى المقعد علامة أن يعود إليه، فسأله الشاب جزعًا إن كان سيقيده مُجدَّدًا، فقال مُسْمَار مُحرَجًا:

- غصب عني يا بك.. إحنا اتفقنا، ربنا يبارك لك!

تنهَّد حسين آيسًا، وحثَّ خطاه بحرص ساعيًا نحو وَثَاقه، حتى استقر على كرسيه وشبَّك معصميه خلف ظهره طواعيةً. قيَّده مُسْمَار بقوَّةٍ آلمته، ثم دار ليوثق قدميه، فناشده حسين راجيًا:

- أبوس إيدك يا أسطى مُسْمَار.. كتِّف رجليَّ في بعضهم.

تساءل مُسْمَار بدهش عن السبب، ففسَّر حسين راجيًا:

- أبوس إيدك، كتِّف رجليَّ في بعضهم، أعرف أضم أفخاذي، وأستر نفسي!

تبسَّم مُسْمَار مُحرَجًا وهو يوثق كل قدم في ساق من ساقي المقعد الأماميين، فيجبره على فرج فخذيه وكشف عورته طوال الوقت، وقال آسفًا:

- ماقدرش!

أومأ حسين مُقدِّرًا، وإن أصابه الحزن واليأس، فجعل يفكِّر مجدَّدًا في مسألة هروبه، ولعله يحاول المرة القادمة، لو أن هناك مرة قادمة.

رفع مُسْمَار كرسيه، واتجه للباب دون كلمة وعجيزته تتأرجَّح خلفه كالهلام. ثم تذكَّر أمرًا، فالتفت لحسين محذِّرًا برفق:

- ربنا يبارك لك يا بك. ما فيش حاجة حصلت، لا أنا جيت، ولا أنت قمت

ردَّ حسين بفتور:

- ما تقلقش يا أسطى.

ولم تمضِ اللحظات حتى أغلق الباب، وانطفأ النور، وغرقت الغرفة في ظلمة دامسة. وشتَّان الفارق بين تلك الظلمة وسابقتها. إنه يشعر الآن أنه مُنعَّم. رزقه الله ببعضِ شبع وراحة. استسلم للاسترخاء، ومنه لنوم طال لم يقطعه شيء.

* * *

مرَّ على حسين زمنٌ آخر لم يدخل عليه أحد، فعادت عليه هواجسه بالوحدة وشِرَارِ الخواطر، ثم إنهم قطعوا عنه الزاد والشراب. ظلَّ على وضعه مقيَّدًا ذليلًا، ونكأت عليه الحاجة مجدَّدًا، فكتمها ما استطاع، وغادره كلُّ أثر للامتنان لذلك الخنزير السمين الذي كان قدومه شرًا خالصًا. ليته لم يدخل عليه ولم يُرِه النعمة بعد أن نسيها. ثم ندم أشد الندم أن لم يحاول الهرب. لعن جبنه وركونه للثبات، وجزم أن تلك السلبية هي ما أوردته الهلكة، وستكون سبب حتفه بإذن الله! ثم دخل عليه تَيْسِير مُجدَّدًا بسؤاله اللعين: "فين البضاعة؟". لكنه لم يتعدَّ عليه بالضرب هذه المرَّة. جلس حسين أمامه ورجاله الثلاثة عاريًا صامتًا صابرًا، ثم انفجر في النهاية ثائرًا صارخًا، وحاول تحرير نفسه أو التهجُّم عليهم، فتركوه وقد ناله من الجهد كل منال.

الذي رآه مصيبة حقًا، هو أنه بال في مجلسه، ثم بال مرارًا، حتى صار كتلةً من العفن. ثم تكيَّف على وضعه وغادره الضيق بالتدريج، حتى صار يبول على فخذيه بأريحيَّة! وأخيرًا حلُّوا عنه قيده كي يتمكَّن من التقوُّت بما يدفعوه إليه من نتن، فأكل صابرًا. ثم تخلَّى عن ركنه القذر، وراح يعيث فسادًا في الغرفة بحريَّة، فجلس وأكل حيث نخم ودفع قذره.

ثم كان يوم دخل فيه عليه مُسْمَار، فرمقه حسين بنظرات خاسئة قاسية. جلب مُسْمَار بعض شطائر الطعمية والباذنجان المقلي، وأطعمه منها بلطف، وتجاذب معه أطراف الحديث. وقد سأله حسين بتوتُّر:

- أنتم عايزين مني إيه؟

- عايزين نعرف يا بك.. البضاعة فين؟

صرخ حسين ثائرًا (وأفرط في علو الصوت جازمًا بسلامة العاقبة):

- ماحدش يسأل السؤال ده مرة ثانية.

- خلاص خلاص، هدّي أخلاقك، ربنا يبارك لك.

تابع حسين صراخه المزعج:

- يا أولاد الحرام، غيَّروا السؤال، غيَّروا الكلام، أنتم كده هتجننوني!

تلقَّى مُسْمَار ثورته بسعة صدر، وقال وهو يشعل سيجارته:

- هدِّي نفسك يا باشا.. ربنا يبارك فيك! كل شيء ينصلح.

جزَّ حسين على أسنانه، واحمرَّت عيناه وهو يقول بانتفاضة مفتعلة، نفَّث فيها عن بعض ما يحيق بصدره من كبتٍ وهوان:

- يا بن المرَة الـ. الـ.! بطَّل تقول ربنا يبارك لك.. ربنا يأخذك!

لم يجرؤ حسين على شتمه صراحةً، ذلك أن إثارة غضبه لم تبد خطوة حكيمة في الوقت الحالي. ثم إن مُسْمَار زفر بلامبالاة وتجاهل ثورته تمامًا، وجعل يحدِّثه في أمورٍ جانبية عادية نجحت في إلهائه وتهدئة أعصابه، فاكتفى بالانكماش في ركنه كالقرد.

حدَّثه مُسْمَار عن عمله، وعن عاصم وتَيْسِير، وعن النصرانية والإسلام، إذ كان

نصرانيًا أصليًا و"تأسلم"، ويفكِّر حاليًا في التنصُّر، وعن الفارق الذي يراه من خبرته بين الدعوة الإسلامية والتبشير النصراني، وكيف أن الإسلام يُستَغلَق عليه فهمه، لأن كلام المشايخ "صعب جدًا." وضمَّ حسين ساقيه قدر الإمكان، وسأله ساخطًا:

- ومراتك.. موافقة على التهريج ده؟ هي مسلمة ولّا مسيحية؟

لم يرد مُسْمَار أن يزجَّ بزوجته في الموضوع، فأجاب باقتضاب:

- مراتي مالهاش في الحوارات دي!

وحال معاينته لتعبير وجه حسين الموغل في الرفض والاستنفار، نفخ وقال:

- أعمل إيه في الشك وكثرة التفكير؟

نظر إليه حسين مشمئزًا، ثم أطرق يفكِّر. في رأيه، لم يكن لحوارهما مغزى، لكنه خاض فيه ومستعد لخوض غيره وأتفه منه لأن شعور الوحدة يكاد يقتله. وإنه إن يحادثه أي مخلوق، حتى لو كان معتوهًا أو فاجرًا أو خنزيرًا، فسينجرف معه في الحديث مهما يكن من تفاهته وشذوذه. وتفكيره الآن ينحصر في استبقاء مُسْمَار لأطول وقت، ليس حُبًا فيه بل طلبًا للصحبة، وللإضاءة، فتستريح مؤقتًا مخاوفه المستترة التي تتولَّد في الظلام. لذلك قال بتريُّث:

- مؤكد ربنا بيضيِّق عليك الرزق، وبيتليك بالضنك والمرض!

هَزَّ مُسْمَار رأسه نافيًا بيقين، وقال:

- بالعكس، ربنا موسَّعها عليَّ. أنا غير شغلي في المصنع، عندي ورشة نجارة في شارع البحر الأعظم، غير ورشة دار السلام، وورشة صغيَّرة في شبرا منت.

- لكن الواضح أن مشكلتك مع الدين مش سببها الشك، سببها أنك بتعبد القرش، غير كده مالكش رب!

قال مُسْمَار متزلِّفًا:

- ما يعيبش. الجنيه ده أبونا، اِدِّيني جنيه وخذ عينيَّ. طيب ده أنا كان عندي عمارة (وتلك ذكرها أيضًا إمعانًا في إثبات سعة الرزق) بنيتها لناس معرفة في العبور.

- أنت استشاري معماري كمان؟!

- ومقاول، ربنا يبارك لك! الرجل صاحب العمارة كان كاويني، ويمص مني النقدية على مهل مهله. وأنا خصيمي الفلوس، حبيبي آه، لكن عند القرش ولنا وقفة. أمَّال إيه؟

أمَّن حسين على مقولته بإيماءة، فاسترسل مُسْمَار في سرد مشكلته مع صاحب العمارة، ثم ذكر مشكلات أخرى ركَّز فيها على جشعه وجودة رأيه وشطارته في طلب الرزق. ثم حلَّ الصمت مجددًا.

بحث حسين في ذهنه عن موضوع يصلح للحديث، ولمَّا لم يجد ضاق فجأة بوجود هذا الخنزير. وبدا صوته الودود الناعم، وحديثه المتقطِّع اللاهث كأبشع ما يخرج من فم إنسان. وفكَّر: هل من اللباقة أن يطلب منه الانصراف؟ أم أن مطلبه سيعتبر وقاحة لا تغتفر؟ طيِّب، والإضاءة، وطلب الصحبة؟! طُز! ثم ومضت في ذهنه فكرة أخرى، وهي الهرب. راودته بإصرار، وتخيَّل نفسه وهو يجثم عليه ويوسعه ضربًا وليكن ما يكون. لكنه مُرهقٌ وضعيف، وأوصاله مُخدَّره. وبفرض أنه نجح جزئيًّا وخرج من الغرفة، فالنتيجة لا تخرج عن احتمالين. إما أن يُقتل، وإما أن يُعاد إلى هذه الغرفة الكريهة المقرفة، ومن الطبيعي حينئذ أن يسحبوا منه امتيازاته مثل البقاء حرًّا دون قيد، وقضاء الحاجة أنَّى شاء، وتناول تلك الزبالة التي يسمُّونها طعام. ثم إنهم من بعد ذلك سيسيئون معاملته، وربما يضربونه أو يهينونه أو يغتصبونه، وهو لا يستبعد هذا «الاحتمال» الأخير، ويحسب له ألف حساب، على أساس أن التحرُّش الجنسي هو دَيْدَن الأشرار الآن. تبقى إذًا رغبته في المُكْث وحده، ومسألة إحراج مُسْمَار. إحراجه؟! بحق السماء ما معنى أن يكون لبقًا في هذا المكان القذر، حفرة الجرذان هذه؟

وبناءً عليه رفع عينين محمرَّتين إلى غريمه، وقال بصفاقة:

- اطلع برَّه!

فوجئ مُسْمَار بالكلمة، لكن حسين لم يمهله، بل كرَّر بضيق شديد:

- اطلع برَّه!

لم يتحرك مُسْمَار مع هذا، ما استفزَّ حسين فنهض واقفًا وهو يخفي عورته بيمينه، ويلقي بذراعه الأيسر على امتداده تجاه الباب الحديدي، ويصرخ بجنون:

- اطلع برَّه، غور وسيبني لوحدي.. برَّه، برَّه، برَّه!

وظل يكرِّر العبارة كالمخبول والزبد يتطاير من بين شفتيه، فنهض مُسْمَار وأخذ مقعده، وهرول للخارج فزعًا، خائفًا من أن يتهجَّم عليه الشاب، خصوصًا وأنه غير مُقيَّد.

* * *

تقع مجموعة «عبد الهادي» الصناعية على مساحة عشرين ألف متر مربع بمدينة العاشر من رمضان، وتضم نخبة ممتازة من المهندسين والفنيين والعُمَّال المَهَرَة، كما تضم فريقًا من الإداريين ذوي الكفاءات المتميِّزة. تتكوَّن المجموعة من مجمعين صناعيين: الأول هو «تانا» للصناعات الغذائية، المُؤسَّس منذ عشر سنوات، وهو شراكة مصرية ماليزية، يمثل الجانب الماليزي منها شركة «جورج تون» والشركة الماليزية للشحن الدولي. تختص «تانا» بصناعة السمن وزيوت الطعام والدهون الصناعية، وتقدم منتجات ممتازة تلبي احتياجات السوق المصري وأسواق التصدير الخارجية.

منذ عام تقريبًا، وأثناء قيام بعض العُمَّال بلحام خط جديد لإنتاج المسلى، تطايرت شرارات اللحام لتشعل مخزنًا للزيوت. ولأن مقومات الأمن الصناعي لا تستدعي وجود نظام إطفاء ذاتي، امتدَّت الزيوت المشتعلة لباقي أرجاء المصنع. استمر الحريق هائلًا لساعات، ومع المجال الواسع للالتهاب وسرعة الألسنة العالية ووجود مواد قابلة للاشتعال، كان تقدُّم اللهب سريعًا جدًا، حتى وصل لخزان السولار الرئيسي، ما أدَّى لانفجاره واستفحال الحريق حتى أتى على جميع منشآت صناعات الأغذية والزيوت والصابون. ولمَّا أخفقت جهود الإطفاء في السيطرة على الحريق بعد ساعاتٍ متصلة، نتيجة الآلية الخاطئة في استعمال الماء بدلًا من السوائل الرغوية المفترض استخدامها في حرائق الزيوت، كثفت قوات الإطفاء محاولاتها لمنع وصول اللهب لوحدة هدرجة الزيوت، مع الوضع في الاعتبار احتمال إخلاء التجمعات السكنية المجاورة، وتأمين المنطقة الصناعية الواقعة قريبًا.

أسفر الحادث عن وفاة عشرين عاملًا وإصابة أربعين آخرين، وتدمير جميع منشآت «تانا» للصناعات الغذائية عدا وحدة الهدرجة، وقدَّر خبراء الدفاع المدني الخسائر المبدئية بأكثر من مائة مليون جنيه، وتوقفت خطوط الإنتاج لأجل غير مسمى نتيجة

الخلافات مع شركة التأمين.

المجمع الصناعي الثاني -والأكبر- هو «إلتا» للصناعات البلاستيكية، وهو شراكة مع شركة بنفس الاسم مملوكة للكيبوتز. ينتج المجمع أنواعًا مبتكرة من الشبك المغلف والشبك العازل الكاسي، بجانب منتجاته الأساسية من البلاستيك، كالمواسير والحبال وشكائر البلاستيك.

يعمل بالمجمعين خمسمائة موظف ومهندس وإداري ومحاسب، وأكثر من ألفي عامل وفني يتوزَّعون على ثلاث ورديات، تشرف على خطوط الإنتاج والصيانة مدة أربع وعشرين ساعة.

ليس الرجل الثاني في المصنع بعد عاصم عبد الهادي هو نائب رئيس مجلس الإدارة، ولا المدير العام، ولا مدير الإدارات الهندسية مثلًا. يحتل هذه المنزلة رجلان، ليسا من أصحاب المؤهلات النادرة ولا الخبرات المتميزة ولا التخصصات الدقيقة، ولا يملكان مهارات إدارية فذة. وليسا كذلك من القواد المُظفَّرين ولا الشعراء المُفلقين، ويسبقهما صفٌّ طويلٌ من الرجال المحترمين العاملين في المجموعة منذ أنشئت. لا يرجع سبب تقديم عاصم هذين الرجلين لمقومات مهنية، بل لأسباب شخصية بحتة. الرجلان هما تَيْسِير عبد الحكم، وصبحي غطاس المعروف بالأسطى «مُسْمَار».

تَيْسِير عبد الحكم هو مدير إدارة الرقابة والأمن، وهو شخصٌ متوسط القامة، مدكوك البدن منتفخ الوجه. بشرته قمحية داكنة، ورأسه كبيرة تعلوها قبة من الشعر الأكرت الثقيل تزيِّن قلبها من الخلف صلعة بارعة. عيناه ناعستان لامعتان، ترقبان الشر دومًا وتصيبان بالسوء بلا خيبة ولا طيْش، وصوته ثخين مبحوح، ليس بالشديد ولا بالمسترسل، يخرج من فيه كأنه يخرج من بطنه تارة، ومن أنفه تارةً أخرى. هو أغبى الناس وخُسالتهم من بعيد، وأشدهم تنافرًا عن قرب، على وجهه تلوح صفة الحقد وشدة الحسد.

لا يرتدي إلا قمصانًا مُقلَّمة شاحبة، وسراويل من قماش الجبردين المتين. فَقَدَ ساقه اليمنى في حادث قطار، لكنَّها انقطعت من أسفل الركبة لحسن طالعه، ما مكَّنه من الاستعانة بطرفٍ استعاضي صناعي سمح له بأداء أنشطته الحياتية اليومية بشكل

شبه طبيعي. تسبَّبت ساقه المفقودة في تنامي عقدة نقص عظيمة لديه، فهو من جهةٍ دائم الشكوى من معاناته معها، ومن جهة أخرى يدَّعي على الدوام علمه بكل شيء، فما من شيء إلا وعَمِله، أو علم عنه، ويقابل أي سؤال أو استفسار بمعلومات مؤكَّدة تتسبَّب أحيانًا في مشاكل جسيمة نظرًا لادِّعائه العلم فيما لا يعلم.

وأثار تدخُّله فيما لا يعنيه حفيظة العاملين، حتى استقال من المصنع سبعةٌ وعشرون مهندسًا ومحاسبًا خلال العامين الماضيين فقط. وفي غير الفتوى في شتى الأمور، يغلب عليه الصمت والسكون، والسر في ذلك يكمن في كراهيته لصحبة البشر. الحقيقة أن هذا الإنسان يكره كل الناس، ويعفي نفسه من التعامل معهم إلا لو قهرته الظروف، ولو تُرك وشأنه فسيصمت في حياته كما سيصمت في قبره، لهذا يترك انطباعًا لكل من يراه أنه بغيض مقيت. إن أقبل على غريم له يضحك بغلظة، ويكفهر وجهه كصفة أكلة السحت، وتظهر نواجذه كالأموات.

تتحكَّم ساقه في حالته النفسية، فلو نكأته يصير أبغض خلق الله إلى خلقه، ويدخل المصنع وعلى وجهه نظرة غم وتعاسة. أما لو تقرَّحت، ويضطر عندئذٍ للاتكاء على عصا، وتصير الخطوة معاناة، فإن هذا بمثابة اليوم الأسود على من يوقعه سوء حظه تحت براثنه، يستوي في ذلك العُمَّال والمهندسون والسائقون وأفراد الأمن.

يعتبر تَيْسِير السيد عاصم عبد الهادي من النخبة الممتازة، جامعًا لمناقب الصفوة، ولا يناديه أو يرضى أن يناديه أحدٌ إلا بلقب البك، ثم إنه يعتبر نفسه بالتبعية من النخبة الممتازة، «صفوة الصفوة». يحاول تقليده في المظهر والمخبر قدر الإمكان، بل إنه، وخلال فترة سابقة، استغنى عن منظاره الطبي، ووضع عدسات ملونة بنفس لون عينيَ عاصم. وإذا رأى سيده رائحًا أو غاديًا، أو داخلًا أو خارجًا، يقبل عليه مهرولًا ويحمل عنه حقيبته، وليس هذا إلا لاعتبارات صداقة أقوى من صلات الدم. ولا يفتأ يتحدَّث عن عِظَم قدره ودنو منزلته لدى عاصم بك، ويقول: "إذا ما أتى ذكر تَيْسِير عند البك، فضع تحته ألف خط.

في غير هذه الأحوال يُرى طوال الوقت متجوِّلًا في المصنع، متابعًا الصغيرة والكبيرة، ومُتدخِّلًا فيما يخصه وما لا يخصه، ومُخرجًا شروره على الكل بنفس راضية وهدوء

مُهيمن. وإن أطلعه أحدٌ على أمر ما، يحك ما تحت أنفه، ويرمق محدِّثه بخبث وتدقيق، ويوجِّه تساؤلًا بالنفي: "لا والله؟"، ثم يتَّخذ قرارات الخصم والجزاءات ولفت النظر والفصل، ويستمع إلى تظلمات العُمَّال وضجيجهم ولا يجاوبها إلا بالسكينة والتبسُّم كأنه ليس له في الأمر ناغية ولا راغية، ويقول: "يا جماعة، لا تتعبوا أنفسكم، الموضوع منتهي" ويسكت، فيتشجَّع من أمامه على الاستزادة من الترجي والاسترضاء علَّه يلين، فيستمع صابرًا إلى شحوطهم في المساومة، ثم يتحوَّل عنهم فجأة مناديًا رجلًا ما في آخر العنبر يعلو حسه: "يا.. فلان.. قلت مائة مرة عربيات الشحن تبعد عن الرصيف"، أو: "يا علان، بعثت بأحد لتشحيم الأوناش كما سبق وأمرت؟"

وفي المساء يجلس بين يديِّ عاصم طوْع العنان، ويأتي على وصلته المعتادة من تَلَهْوُقِ سيِّده ومسح الجوخ له، ثم يدور في حلقات مفرغة يتحدَّث فيها عن صعوبة الحياة وتردِّي الأحوال في البلد كل يوم عما سبقه، ويصغي إليه عاصم خافضًا له جناح الذل، ثم يقول بقنوط: "ما فيش فائدة!"

السؤال هو: لماذا يحتفظ به عاصم، على الرَّغْمِ من كل تلك المثالب؟

الجواب هو: لأسبابٍ ثلاثة.

الأول: لأنه ضابط شرطة سابق، تربَّى على الحياة المنضبطة، وجُبل على الطاعة والنظام، وتعلم أن يكون قنطرة ممتازة تنتقل عبرها الأوامر ذهابًا وإيابًا. يتلقَّى ممن هم أعلى منه، ويصبُّ ما تلقاه نارًا ونكالًا على من هم أدنى منه، ولا يقرُّ حتى يُشرَعُ في تنفيذ الأوامر ممارسًا في سبيل ذلك هواية محببة إلى نفسه، وهي إذلال من دونه في المنزلة. هذه السلوكيات انتقلت كباقةٍ واحدة إلى مصانع «عبد الهادي» بعد خروجه إلى المعاش، فسيطر مع الأسطى مُسْمَار على العُمَّال بيدٍ من حديد، فانتظم سير العمل على أحسن ما يكون (من وجهة نظرهما).

الثاني: قدرته على العمل المتَّصل. إنه ليس من المبدعين الأفذاذ ولا الإداريين العباقرة، لكنَّه بصمجي ممتاز، يتَّخذ من اللوائح ناموسًا مقدسًا، ولا يحتاج إلا لمن يضعه على المضمار فينطلق غير آبه بالعوائق. يحافظ على مواقيت التسليم، ويطارد واردات المواد الخام، ويقف على صيانة ماكينة أو تأخر طلبية، ويحاسب العُمَّال على

السقطة واللقطة، ويتلاعب في مواقيت ساعات العنابر لتمديد دوام الورديات، ويراجع الحسابات ويحضر الاجتماعات ويطالع المحاضر، ويتكفَّل بتسوية التأمينات وتقليص المصروفات، ويحاول انتهاك مكتسبات العُمَّال البسيطة بدءًا من أجورهم وصولًا لوجباتهم، ويتولى مسؤولية الرَّشَاوَى والتربيطات والسمسرة وكافة الأعمال القذرة الخاصة بالمصنعين. يُرَى دائمًا في أوقات الأزمات واقفًا على رؤوس العُمَّال، يتحرَّك ويصرخ ويشتم ويتشاجر، ويمر عليه اليوم واليومان دون نوم ولا راحة، ولا يقطع دوام العمل إلا لتناول لقمة أو خطف دش سريع.

الثالث: هذا الرجل مخلوق أسريٌّ بحت، يحب بيته ويداوم على الاتصال به طوال مدة تواجده في العمل، ويضحك منه مرؤوسوه لسببين: الأول أن أمه ما تزال حيَّة تحدثه يوميًا بالصباح على الرَّغمِ من تجاوزه الستين، والثاني أنه ما زال يضاجع زوجته. المعروف عن زوجته أنها لا ترتوي، "ما بتقولش لأ" كما يخبرهم عنها الأسطى مُسْمَار. تصغره بعشرين عامًا، ولابد أن يواقعها مرَّة على الأقل كل يومين وإلا تجن، وأحيانًا تحتاج لمرتين في اليوم الواحد، ولقد وجَّه هذا اهتماماته لهدفٍ واحد، وهو إطفاء شهوتها إذ لا يأمن عليها من الفتنة. وهو يعلم انها بمقدورها أن تزني كسهولة فرقعة الأصابع. وبسبب سنه المتقدمة يواظب على مقوِّيات معينة، وقلَّل من التدخين، واتَّجه إلى الأغذية الصحيَّة. يستخدم أغلب عُمَّال المصنع -إن لم يكن جميعهم- مقوِّيات جنسية يروِّجها بينهم مُسْمَار، وكثيرًا ما يراود مُسْمَار تَيْسِير عن بضاعته ولا يُقابَل إلا بالرفض، لأن تَيْسِير يستعين بمقوي واحد يثق في نتائجه وطول مفعوله: «حَلَل البحر». وحَلَل البحر هو حيوان يشبه ثعبان البحر يُصطاد من البحر الأحمر، ويُترك ليجف تمامًا في الشمس، ثم يُطحن كله بجلده وعظمه ولحمه حتى يصير مسحوقًا، ويُلعق بطرف اللسان. وليس له من مُورِّد إلا عاصم نفسه.

لهذه الأسباب الثلاثة صار تَيْسِير عبدًا أمينًا لعاصم عبد الهادي، عبودية شاملة تضم تحتها عبودية العمل، فهو لا يكره في حياته شيئًا قدر كراهيته للتبطُّل والفراغ، وعبوديته لحَلَل البحر الذي به يحافظ على أهله وبيته. بطبيعة الحال لا يضمر تَيْسِير لسيِّده غير الولاء التام. صحيح أنه يُسفِّه أحلامه في غيابه ويقرض فروته، لكن هذا هو حال بن آدم في تتبُّع سوءات الناس.

صبحي غطّاس المعروف بالأسطى «مُسْمَار»، وهو رئيس عُمَّال خطوط إنتاج الخيش. رجل في الخمسين من عمره، تنطبق عليه مقولة: «تدفع الأرحام، وتحمل الأرض». أبيض ناصع البياض، غابت قسمات وجهه بين كتلٍ من الشحم واللحم. رأسه كتلة كروية تغور فيها عيناه الملونتان وأنفه المفلطح وأذناه الدقيقتان وفمه الصغير. جسمه كتلة رجراجة متجانسة في قصرها واستدارتها. أطرافه لينة مكتنزة، وأصابعه سميكة قصيرة مضحكة.

إن تحرَّك، تتحرَّك معه أجزاءٌ متعدِّدة من جسمه برخاوةٍ مطلقة، بدءًا من لغده المخفوق ووجنتيه المتهدلتين، وصولًا لثدييه وكرشه وأفخاذه. أما أردافه فليس في الحديث عنها حرج، وهو إن مشى فعلى مهلٍ كأنه يجدِّف، خاصة مع تباعد أطرافه نظرًا للتراكمات الدهنية الحائلة بين العضو وأخيه.

هو رجلٌ مُجامل وصاحب واجب، لطيف المعشر وفي كلامه طرف من هزأ. يستهل حديثه بنبرة مطوَّلة ناعمة يقول فيها: "إزيّ حالك يا بك، الصحة تمام وكله تمام؟!"، ويفصل بين فقرات حديثه بدعاء "ربنا يبارك لك"، الذي هو بمثابة علامة ترقيم بين الجمل. بصفته رئيس عُمَّال عتيق، يرى أن العُمَّال والحرفيين فئة متطفلة خبيثة كالبراغيث والحشرات السامة، ولابد من سياسة حكيمة للتعامل معها، لأنهم كسالى وأنذال، يعشقون كثرة الأكل وقلة العمل، ويحبون البانجو والحشيش حبًا جمًا. ويعتقد أن مَيْل العامل للتلكُّع غريزي لا شأن للإرادة الآدمية به، كذلك مَيْلهم لخداع رؤسائهم نتيجة حقد طبقي متوارث ومتأصِّل. ويذكر دائمًا مقولة سمعها من أحد العُمَّال لما نزل ابن عاصم متفقِّدًا سير العمل ومُتفرِّجًا على العُمَّال والماكينات، بأن "هؤلاء الخرفان المخصية ينزلون إلينا لنعلِّمهم، ثم يترأسون علينا بعد ذلك"، ولم يزد مُسْمَار يومها عن أن قال له: "هذا صحيح يابن الحرام، التفت لشغلك يلعن دين أمك!" لم تمض به السُنَّة على سب الأديان، لكنَّه مع الأوباش يسب كل شيء. يسبهم وآباءهم وأمهاتهم وعشائرهم بتهم تمس الشرف والنسب، ويسب الدين والأنبياء، ويلتمس لنفسه العذر في ذلك لأنه ما من سبيل آخر للتعامل مع هؤلاء، ثم إن الواحد منهم تسكره النشوة لما يُسب علنًا، وأمام زملائه (كما يعتقد).

يمثِّل مُسْمَار القبضة الباطشة لعاصم عبد الهادي، التي تدك آمال العُمَّال وتئد

محاولاتهم المستميتة للمطالبة بحقوقهم أو تحسين ظروفهم، من حيث الرعاية الصحيَّة والاجتماعية، ويشرف بنفسه على تدبيرات الفصل التعسُفي حال إجراءات التوسعة والتطوير. بَيْدَ أن العُمَّال لا يكرهونه بقدر بُغضهم لتَيْسِير، ويُجْمِعُون على كونه خفيف الظل، ومتواضعًا أغلب أحواله، ومضحكًا أيضًا، خاصة لمَّا يجول بين صفوف الماكينات متحدِّثًا في هاتفه المحمول، بادئًا مكالماته بصوته الناعم المرتفع: "إزيّك يا عسل، أخبارك إيه؟ حاضر، حاضر، حاضر، أيوه حاضر!"، وهو إلى هذا كذَّاب كبير، ونمَّام مكثر من لَوْكِ الباطل وتتبُّع عورات الناس، ويتخلَّط في الخبر أكثر من مائة كذبة، يقرقر بها كقرقرة الدجاجة.

عمل في سن التاسعة كصبي ميكانيكي، ثم كنجَّار مسلح، ثم انتقل للميكانيكا والتصنيع، وبجانب هذا يتاجر في كل شيء يمكن أنه يهبش به لعياله، محتالًا من هاهنا وهاهناك: هواتف محمولة، وأدوية ومقويات جنسية، وسيارات مستعملة، وتجميع الحاسبات الآلية، وتوزيع الحشيش والأفيون والبانجو طبعًا، ويملك بعض الأكشاك الصغيرة في التجمُّعات العمرانية الجديدة تخدم العُمَّال والحرفيين بوجبات الفول والطعمية والمخلَّلات والمكيِّفات والمخدِّرات بأسعار خيالية، فضلًا عن امتلاكه سيارتي نقل جماعي يعمل عليها عددٌ من السائقين في ثلاث ورديات. وفي مواسم ارتفاع الأسعار يشارك مع معارفه من تجار الجملة والبقالين وأصحاب المقاصف في تخزين السلع وطرحها بأسعار مضاعفة، ثم إنه يُقرض بالربا الفاحش، ويضارب أحيانًا في البورصة على استحياء.

ولد الأسطى مُسْمَار نصرانيًّا، فأسلم ثم ارتد، ثم أسلم فارتد، ويعتبر نفسه حاليًا مسيحيًّا أرثوذكسيًّا، لكنَّه آل أخيرًا في تشتُّته إلى الهلكة بالشكوك والشهوات والشبهات، حتى ألقى بأمره كله للغفلة والظلمات والأهواء والأغراض والأغلاط، تقلِّبه كيف تشاء.

ولاعتناقه الإسلام وجهين للحقيقة: أولهما أنه أسلم كي يتزوَّج جارته، أرملة عبد العال المعروف بـ«كُتكُت»، تاجر المخدِّرات المشهور بالجيَّارة. كان مُسْمَار تورَّط معها سرًا ولسنوات طويلة في الزنا، وعلم الكل في المنطقة بأمر العلاقة، وإن اجتمعوا باتفاق غير معلن على عدم التحدُّث في الأمر لما قد ينجم عنه من مشاكل كبيرة جدًا، نظرًا لسطوة الرجلين، مُسْمَار وكُتكُت. تحوَّلت العلاقة لمحل شك من قِبَل مباحث القاهرة بعد أن

عُثر على أجزاء من جثة كُتكُت، فأُلقي القبض على مُسْمَار وعشيقته، وكادت المباحث تحيلهما للنيابة لولا أن اكتشفوا، وبمحض الصدفة، أن الجاني هو أحد أصدقاء القتيل، وهو تاجر معروف بمنشأة ناصر.

بعد انفراج الأزمة أسلم مُسْمَار وتزوَّج عشيقته، واعتقد أهالي المنطقة أنه أسلم فقط على الورق، لكنَّه ضحد ظنّهم بالانتظام في الصلاة بالمسجد حتى أحبوه ونسوا ما كان منه، ومدَّ له الكثيرون يد المساعدة بعد أن انقطع عنه أهله. وبسبب هذه المساعدات كان تأرجحه بين النصرانية والإسلام محل كتمان لا تعلم به إلاّ زوجته، التي لا تعنيها ملته بحال. ولا يؤثر تأرجحه بين الملتين على الأوشام المدقوقة على جسده، بل إنه لا يفتأ يدق الأوشام عند صديق له يسكن قريبًا من دير مارجرجس بالخطاطبة في الإسكندرية. لو أسعفه وقته يزوره، فيدق له الصلبان مختلفة الأشكال والأحجام وصور بعض القديسين.

أما الوجه الثاني لإسلامه، فلا ينبع عن تَذَبْذُبٍ بقدر ما ينبع من قبول للديانتين، ولو أن لديه الوقت وسعة الإطلاع والصبر على البحث لنذر نفسه لمعرفة الحقيقة. وهو يشهد أن الرب يخلق ويحيي ويميت، ويرزق ويغفر ويُحاسب، سواء في ذاته الصمدية المطلقة، أو على هيئة الأقانيم الثلاثة. يحب فكرة الحياة الأبدية مع الرب يسوع، والنعيم المقيم في الفردوس الأعلى جوار الرسول الكريم مُحَمَّد بن عَبدِ الله (ﷺ)، ولا يفترض على أي الأحوال أنه سيذهب إلى الجحيم.

يُمثِّل الطعام له متعة لا تضاهيها متعة، ويندهش من حوله إذا ما رأوه يجلس لاهثًا مبهورًا، فيذرف العرق كأنه سهلك، ويخرج من جيبه قضيبًا من الشيكولاتة يلوكه على مهل. وإن دهشتهم ذاتها محل دهشة، إذ أليس من المفترض للسمين أن يأكل؟ لا، بل عليه أن يكتفي بما يرفل فيه من دهن. الغداء هو وجبته الرئيسية في صدر وجبات وحواشي لا حصر لها في اليوم، ودعامته طواجن اللحم والمحاشي والأرز والبطاطس وهلم جرا، يأكلها مرتابًا متطيّرًا في غرفة مغلقة كالقط إن سَرق طعامًا.

وبجانب اشتهاء العُمَّال البسطاء ما يحشِي به مُسْمَار معدته يوميًا من أطايب الطعام، يوقنون أن هذا الرجل سيموت حتمًا بنزيف في المخ كما يقول هو عن نفسه، لأنه يأكل

الزاد بضراوة، عالمًا أن زيادة الدهون في الجسم تؤدي إلى مخاطر الإصابة بداء السكر، وارتفاع ضغط الدم، وأمراض المرارة وخلل التنفس، والنقرص والفصال العظمي. وليس علمه بهذه الأمراض عن دراية طبية، بل لأنه مصابٌ بأغلبها، وهو يواظب على طقوس دوائية قبل الأكل وبعده، ويزور شهريًا ثلاثة أطباء متخصصين.

يعلم من بالمصنع حب مُسْمَار لزوجته، ولا يفتأ يكرِّر أنها عليه ستر وغطاء، وأنه ما رأى «الجَخَّة» إلا بين يديها، ويدعو الله أن يبقيها له ما بقى، وأن يجعل ميقاته قبل ميقاتها. ويذكر حادثةً فاصلةً في حياته علم منها أن بدنه يتداعى لغير رجعة، بعد أن عاد من زيارة للطبيب، ودعا زوجته لتسخين العشاء. وفي هذا اليوم بالذات، مدَّت المرأة أصنافًا مُسَبَّكَة، وأتبعت العشاء بنصف صينية من الرموش (وهي عجينة من سميط البسبوسة). ولما ألحَّت عليه بالسؤال عن نتيجة زيارته للطبيب، أجابها وهو يلف سيجارة: "شايفة اللي أكلته ده؟ الدكتور حرَّج عليَّ أقرب له. لحظتها ضربت زوجته على صدرها، وشهقت قائلة: "يا مصيبتي!"

يُمثِّل المصنع بعُمَّاله وإدارته ائتلافًا مُتَّسِقًا تتوزَّع فيه المهام والمسؤوليات بقدرٍ من الكفاءة تتيح لعجلة الإنتاج الدوران باتزان. لكن في هذا الائتلاف المتَّسِق، في هذه الصفحة البيضاء، في هذه البحيرة الراكدة، يوجد تَيْسِير ومُسْمَار: العقدة المحتكئة، النقطة السوداء، الاضطراب الذي يبدِّد صفو السكون. يعلم الجميع أن نفوذهما يَجُبُّ نفوذ رؤساء الإدارات وجماعة الموظفين. حاول الكثيرون كسر شوكتهما بالسعي عند عاصم كي يتخلَّص منهما، فوجودهما في حد ذاته يشيع جوًا محتقنًا، ويزرع العراقيل والألغام في مسالك العمل، لكن عاصم لم يستجب، لأن ما يربطه بالثنائي أكبر من أي وشاية. ويظن كل قادم مستجد أن في وسعه محاربة رأسي الفساد في المصنع، ولا يلبث أن يُفاجأ بالحقيقة المُرَّة: ن تَيْسِير ومُسْمَار يمكنهما طرد أي شخص، كائنًا من كان، مهما تكن خبرته أو مهارته أو حساسية منصبه، والكل يعلم على سبيل المثال أنهما أقنعا عاصم بالتوقيع على قرار إقالة مدير عام المصانع، وكان رجلًا أمينًا مستقيمًا، يعمل في المصنع منذ أيام عبد الهادي الجارحي، وله يدين عاصم بالفضل، فعلى أكتافه استمرت الشركة، ولولاه لانهارت بوفاة أبيه

العلاقة بين تَيْسِير ومُسْمَار في غاية السوء، تنطوي على احتقان شديد يتطوَّر غالبًا إلى

مشاجرات مؤسفة واشتباكٍ بالأيدي، فيعلو حسَّهما، تَيْسِير بصوته العميق الغليظ، ومُسْمَار بصوته الناعم المبهور. ويتدخَّل العُمَّال لفض المشاجرة لا لغرض حل المشكلة، بل لأهداف أقل نبلًا تنحصر في التسلِّي البهيج وتمضية الوقت في غير العمل. ومن جهته يعمل عاصم على تزكية هذا الاحتقان من طرفٍ خفي، وإن تفاقم احتواه كي لا يتطوَّر إلى ما لا تحمد عقباه، وبهذا يضمن بث روح التنافس بينهما والتسابق على استرضائه. يستمع صابرًا لشكايتهما الكيديَّة، ومناوشة كلٌ منهما لغريمه، وتصله عنهما الأخبار متواترة عبر عيون وآذان له في المصنع. وهو على عكس ما يُشاع عنه، يعرف الصغيرة والكبيرة، وليست مسألة انعزاله وسيطرة رجليه على المقادير كافة إلا خرافة يروِّجها هو نفسه لمصلحته الشخصية، وإن جملة ما يحدث يتم بأمره بشكل أو آخر.

لا يُري مُسْمَار إلا مستهزئًا بتَيْسِير، فيعلِّق على حكاياته عن متانة صداقته بالرجل الكبير وكيف يتَّخذه خليلًا وخليصًا، ويقلِّده بتعبيرات سوقية، ويخفض صوته متلفِّتًا حوله قائلًا وهو يكتم في بطنه ضحكة: "تعال يا تَيْسِير، يا حبيب قلبي، اقعد على حجري!"، ويرد على نفسه متأوِّهًا: "لأ لأ يا عاصم بك، كده عيب، لما الموظَّفين يمشوا." ولا يقدر تَيْسِير على مجاراته في سلاطة لسانه وسلاسة قفشاته، فيكتفي بالصمت كعادته، لكنَّه يكرهه ويكرهه، ويزداد يقينًا في قدوم اليوم الذي سيتمكَّن فيه من القضاء عليه، هو ومن يمالئه من عُمَّال وموظفين. وإنه يعرف عن مُسْمَار اختلاسات إن لم تكف لسجنه فلطرده على الأقل، ولولا خوفه من انكشاف اختلاساته هو نفسه لبادر بكشف أوراقه. وفي أحيانٍ نادرة يحاول مجاراة مُسْمَار لفظيًّا، فيصفه أمام العُمَّال بأنه ابن سفلة، يعمل أي شيء لجلب القرش، ولا يفتأ يكرر حكايته المشهورة عن مُسْمَار: وفاة أمه ببلدته المتاخمة لشريط القطار في نفس يوم احتراق أحد قطارات الصعيد، وكيف احتملها على كتفه بعد أن لفظت النفس، ووَصَل بها إلى موقع الحادث الذي يَعُمّه الصراخ والحريق والموت قبل وصول المسؤولين، وألقى بها في أتون النار كي يحظى بتعويض الخمسة وعشرين ألف جنيه. وإذا سُئل مُسْمَار عن الواقعة يجيب بملء فيه: "إيه؟ رزقي ورزق عيالي!"

وعلى كل حال يعتبرهما عاصم على رأس عصابة الحمقى واللصوص الذين يرزح المصنع تحت جهالتهم وانتفاء أهليتهم. وكيف لا وهما من أراذل الرجال؟ لكنَّه عندما

يحادثهما يتواضع إليهما، ويتدنَّى لمنازلهما المنحطة واضمحلالهما الفكري، ويدأب على قول: "يا مُسْمَار، أنت أخي، ليس لي ظهر غيرك"، و"يا تَيْسِير أنت أخي، ليس لي ظهر غيرك.

***

تشابهت على حسين الأيام بالتتالي، بين استجوابٍ وتكبيل وصمتٍ طويل. وبالتدريج تعوَّد على التكرار الإيقاعي. ثم إنهم تركوه على حريته كالبهيمة في الزَّرِيبَة. أَحَسَّ أنه لو بقي على حاله هذا إلى الممات فليس هذا بالأمر السيء، لأنه لا يختلف عن حياته السابقة، فالتباين بينهما في المظهر فقط، لكن اللب واحد، القذارة والظلمة والوحدة. ثم إنه فقد القدرة على التأفُّف أو الرثاء، وأيقن استحالة حُسن العاقبة، فلم يعد يساوره الأمل في الخروج. بل إنه توقَّف عن الإحساس بالاشمئزاز من بدنه الذي علته قذارة غير مسبوقة ولا متبولة، إذ أن المكان بذاته آية في القذارة، ولا يمكن التفرقة بحال بين قذارته هو نفسه وقذارة الغرفة. أما الصنبور الصدئ فقد راودته نفسه على محاولة خلعه أو كسره، ولم يمنعه إلا احتمال مفزع بأن يؤدي هذا إلى جريان المادة السوداء اللزجة دون ضابط لتملأ الغرفة، وهو الكفيل بإفساد معاشه، وتحويل حياته إلى عذابٍ متصل يضطر فيه للتوغل في تلك المخاضة الآسنة من أنتن مواد الدنيا.

لم تخفِّف عليه وحدته سوى زيارات مُسْمَار المستمرَّة له، ودائمًا ما يدخل عليه الرجل متسلِّلًا كأنه خاطر وقدم إليه سرًا، ثم يقبل عليه بسمت المتخوِّف مما قد ينجم عن فعلته من ضرر. قابله حسين في المبتدأ بقدرٍ من الارتياب والعداونية، ونظر إليه كجزء من ثنائية الاستجواب المشهورة «الشرطي الطيِّب/الشرطي الشرِّير». لكن بالتدريج حل الاستطلاع محل الشك، ثم خالجه شيء من التعوُّد على صُحبة هذا الحلُوف الطيِّب. لم تتشعَّب بهما موضوعات الحديث، بل اقتصرت من جانب حسين على الشكاية من قذارة الغرفة وكآبتها التي لا تُطاق، ومن جانب مُسْمَار كان الحديث عن أحوال المصنع: المشاكل والأعطال والنوادر والسرقات والمشاجرات، وكان ينتقي الدُرر، فيمهِّد لها ثم يُفصِّل فيها بأسلوب شيِّق لبق، مُنَقَّح بالهزل والتشخيص. وكان مما تحدَّث عنه باستفاضة حريق مصنع الأغذية الذي دمَّره تدميرًا، مُفصِّلًا في بدايته واستفحاله، وجهود الإطفاء والإجلاء، ووُشْك اللهب أن يحيط بوحدة الهدرجة. شرح مصطلح وحدة الهدرجة على وجه الدِقَّة، وخزان الهيدروجين الملحق بها، وخطورة انفجاره، الذي لو

حدث لأذًى لتدمير ساحق للمنطقة الصناعية كلها.

وفي هذا اليوم دخل مُسْمَار بوجه يفيض بالبِشر، وجلس بمشقَّة مطلقًا آهة الراحة بعد التعب. ثم نظر لحسين القابع في ركنه كجروٍ مذعور، وتبسَّم قائلًا:

- إزيّ حالك يا بك؟ الصحة تمام، وكله تمام؟!

سأله حسين متلهّفًا:

- جايب معاك إيه النهارده؟

- فول!

- فول؟!

هكذا تساءل حسين بإحباط، وكأن ما يأكله أفضل من الفول، فقال مُسْمَار مؤكِّدًا:

- هو في زي الفول؟ بالزيت والسجق والصلصة والبسطرمة، والبيض والطعمية.. مدمِّس ومطبوخ ومسبِّك.

تنهَّد حسين ببؤس، أما مُسْمَار فجعل يعِّد فطوره، ثم تذكَّر أمرًا، فبحث في جيوبه حتى أخرج هاتفًا محمولًا أنيقًا، وأخذ يعبث فيه. جذب هذا الفعل انتباه حسين لأن الهاتف تشابه عليه، لكن بإمعان النظر فيه أدرك، وبما لا يدع مجالًا بالشك، أن هذا هاتفه، بسبب نوعه النادر والتجريح الواضح في السطح السفلي. وسأل مُسْمَار بصوتٍ فاتر:

- تليفوني ده؟

أومأ مُسْمَار بالإيجاب، وضحك قائلًا:

- أصله عجبني، شُفته في أوضة نومك قلت آخذه أستنفع به. باين عليك مقطوع من شجرة. أديلك هنا أيام، ولا واحد اتَّصل عليك.

ونظر للشاشة مليًّا مراعيًّا التركيز على كلماته، وقال:

- إلا واحدة، كل يومين تقريبًا تبعت لك رسالة.. اسمها سَمَا.

ثم ثبَّت بؤرة إبصاره عليه، بينما يرفع حسين رأسه منتبهًا عند ورود الاسم على سمعه. ليس عن دهشةٍ للخبر، فهو يعلم أن أرملة جلال السايس تبعث له برسائل

تسأله فيها عن أحواله بين الحين والآخر، وهو لم يستجب، مخافة أن يتورَّط في رَدَخٍ آخرفي هذا الوقت الدقيق. ولكم راودته نفسه أن يرد عليها ويسألها اللقاء. إنه يستغرب إذ أصبح لها في قلبه مكان على قِصَرمعرفته بها، والأصح أنها نزوة جامحة أوولع مؤقت. هذا ما أقنع نفسه به مُمْسِكًا عن الرد عليها. لكن الآن، وفي جُبِّه الضيِّق هذا إذ يتردى إلى أحط الحضيض، ارتجف فؤاده مع ذكر الاسم، وعاد إلى مخيلته الوجه الأبيض الجميل، والشعر المُمَوَّج الملفوف، والضحكة العذبة، والهمسة واللمسة، فتزلزل من أعماقه وكاد يبكي شوقًا ومذلَّة. لكنَّه وأد انفعالاته قدر الاستطاعة وهو يستمع إلى مُسْمَار إذ يسأله منتبهًا:

- من سَمَا دي، اللي بتطاردك؟

لم يردَّ عليه حسين فتابع بفضولٍ خبيث:

- تحب أقرالك؟ كل الرسايل بالإنجليزي، بس آخر واحدة استقبلتها إمبارح بالعربي: "حسين.. برجاء الاتصال.. عايزة أطـ.. أطمئن عليك.

وتبسَّم متسائلًا بنبرة غير مريحة:

- قريبتك، ولا مرافقها؟ لها على التليفون صورة، حلوة جدًّا، وبيضا!

رمقه حسين بضغينة ملتهبة فهم منها السمين أنه لا ينوي التحدُّث في الموضوع، فتجاوزه كليةً كأنه لم يكن، وأعاد الهاتف لجيبه. طأطأ حسين، ودسَّ رأسه بين ذراعيه المتشابكتين على ركبتيه وقد ضاقت عليه الدنيا. فقال مُسْمَار على سبيل المجاملة، وبصوتٍ خافت:

- المهم إنها ما تكونش ساكنة في مصر القديمة!

تساءل حسين بشرود:

- مالها مصر القديمة؟

- مالها مصر القديمة؟! طبعًا، ما هو أولاد الذوات زيَّك، ما يعرفوش الدنيا ماشية إزاي!

قالها مُسْمَار بحماسة، وانطلق يتحدَّث بلا تحفُّظ عن مساوئ مصر القديمة من

وجهة نظره، والعداوات بين آل غطّاس (عائلته) وعائلات أخرى بالمنطقة. حكى عن أبيه العربجي بالمدابغ، الذي قضى خمس عشرة سنة في السجن لأنه قتل إنسانًا يُسمَّى «أبو دومة»، ثم قُتِلَ هو نفسه بعد ذلك على يدِ ابن أبو دومة، وهتف أيضًا: "الواد أديله سبع سنين في السجن، وعمره أصلًا ما شاف أبوه!"

جعل يضيف الخضراوات والطعمية والبيض المسلوق لصحن الفول المُدَمَّس، واستمر في الحديث عن منطقة الجيَّارة قرب مصر القديمة، مستهلًا بقوله: "الجيارة دي منطقة، أجارك الله، مِتْلَبْشَة عن تُمِّة عينها." وأخبره عن عبد العال المعروف «كُتْكُت»، الذي كان يبيع المخدرات في وضح النهار على قارعة الطريق في حماية جيش من البلطجية، وكيف وقف مكانه بعد مقتله إكرامًا لزوجته. ثم شمَّر عن ساعديه وشق رغيفًا مُتَّخِذًا منه لقمةً كبيرةً، دسَّها في الفول، وأخرجها وقد كادت تذوب من شدَّة ما تشبَّعت بالسوائل. وما كان أسهل من ذوبانها إذ يتأوَّه مستمتعًا، ويقول لحسين بحماسة: "مد يدك يا بك.

نظر إليه حسين بفتور، فهَزَّ مُسْمَار كتفيه علامة أن "أنت حر"، وأقبل على الطعام بنهم. ساد صمتٌ أليم انقطع بطرقات متردِّدة على الباب. التفت مُسْمَار بترقُّب، ورأى تَيْسِير يدخل ومعه رجاله الثلاثة، ثم دخل عاصم بطلَّته البهيَّة وقامته المعتدلة وملبسه الأنيق. شعر حسين بخوفٍ حقيقي وتوجُّس من اكتمال الصحبة، وقدَّر أن شيئًا قبيحًا سيحدث الآن. وألقى عاصم نظرةً شاملةً على الموقع، ثم تبسَّم وصبَّح، فنهض مُسْمَار من فوره، وقال بثناءٍ حار:

- صباح النور يا بك، ربنا يبارك لك.

وقف تَيْسِير صامتًا كعادته، بينما تقدَّم عاصم بخطواتٍ يسيرة متردِّدة، وقال بصوتٍ ضعيف:

- يا رب ما أكونش قطعت عليكم كلام.

قال مُسْمَار بحرارة فاكهًا:

- العفو يا بك، أنا بس كنت بأفطر.

أشار عاصم لحسين قائلًا:

- مش كنت تعزم على الرجل؟ كويّس لما يقول علينا بخلاء ومعقِّنين؟

رد مُسْمَار بحميَّة دافعًا عن نفسه التهمة:

- دي تيجي برضه يا بك؟ عزمت عليه صدَّقني، بس هو نفسه مش جايباه.

وجَّه عاصم حديثه لضيفه، وتساءل بتعاطفٍ صادق:

- ليه كده يا حسين؟

وسأل مُسْمَار:

- بتأكل إيه يا أسطى مُسْمَار؟

- فول يا بك.

أشار عاصم للصحن، وتساءل مستأذنًا: "ممكن أذوق؟"، فأكبَّ مُسْمَار على مقعده الصغير لينظفه لسيّده بكُم قميصه، وقال منشرحًا: "لنا الشرف يا بك، تفضَّل." وجَّه عاصم الحديث لحسين ناظرًا للطعام أمامه:

- تعرف يا حسين؟ على عكس ما تتخيَّل، أنا إنسان بسيط جدًا. رجل على باب الله لا أحب جلسة العرش. لولا الملامة كنت سِبْت مكتبي وقعدت تحت، مع بتوع الأمن!

مدَّ يده واقتطع لُقَيْمَة، وغمَّسها في الفول وبدأ يلوكها. صدمه الطعم فتكدَّرت صفحة وجهه، وكاد يلفظ ما في فمه، وبدا وكأنه سيتقيأ. التفت إلى مُسْمَار يسأله مُنكرًا إن كان هذا فول حقًا، فحلف مُسْمَار بالنعمة الشريفة أنه فول. سأله عاصم غير مصدق:

- حاطط عليه إيه؟

قال مُسْمَار بلهجة من يعتذر:

- بيض مسلوق وطعمية، وبصل وأوطة وبقدونس، بالليمون والملح والكمُّون.

- مش قصدي.. عليه إيه، سمن أو زيت، ولَّا إيه ده بالضبط؟

افتعل مُسْمَار ضحكة مختنقة، ثم قال لاهثًا بصوت مُحرَج وقد بدأ الزبد يتكوَّن حول شفتيه: "فول باللِّيَّة." اتسعت عينا عاصم بدهشة، ثم ضحك عاليًا وقال:

- فول باللِّيَّة، وعلى الصبح، وضغط دمك والكوليسترول والـ..؟ حرام عليك.

حار مُسْمَار جوابًا فآثر السكوت، وقال عاصم:

- تصدَّق يا حسين.. مهما تروح وتيجي، وتسافر وتأكل، ما فيش زي الفول.

قال حسين بصوت ساكن مكدود:

- ما بآكلش فول.. بيعملي لي حموضة.

أطلق عاصم آهةً متحسرةً خافتة، وفرك كفيه عن بقايا الخبز ونهض. سأل تَيْسِير بصوتٍ مرتفع وهو يشير لحسين:

- الرجل الطيّب ده، عامل معاكم إيه؟

هَزَّ تَيْسِير رأسه متضايقًا، فالتفت عاصم إلى حسين، وقال يشجّعه:

إيه يا سي حسين؟! ما تشد حيلك معانا علشان نخلص. الوقت يمر والشحنة لازم ترجع في بحر أيام. إحنا ملتزمين معاك بمراحل. من فضلك لا تجبرنا على الانتقال للمرحلة القادمة.

ثم استدار مغادرًا، يتبعه تَيْسِير والرجال الثلاثة، فلم يعد في الغرفة سوى مُسْمَار وحسين. جلس الأول قبالة الطعام، وقال لائمًا:

- عاجبك كده يا بك؟ آديك جبت لنا الكلام.

رمقه حسين متسائلًا، ففسَّر مُسْمَار بنبرة مطولة رفيعة:

- قلت لك تأكل معايا.. تحرجني وتخليه يقول عليَّ بخيل. هو يقصدني أنا بالكلام ده، أنا فاهمه كويِّس. أما تَيْسِير، كلب السراية، الله أعلم بِيْوِز في ودانه بإيه دلوقت.. بيقول له مُسْمَار بيعمل ويسوّي، وبييجي هنا من وراك.

وتأوَّه باستياء وعاد منكبًا على ما بقى من فطوره، ينهش فيه فكأنه لا يُتْخَمُ من طعام قط، حتى فرغ ولملم عدَّته مسارعًا، وهرول للخارج دون أن يضيف كلمة.

وفي مساء هذا اليوم دخل على حسين تَيْسِير ورجاله الثلاثة، وأوثقوه من وراء ظهره، وعلَّقوه بحبلٍ غليظ من معصميه في حلقة حديدية بالسقف. وما أن تركوه يتدَلَّى حرًا حتى ندت عن فمه شهقة، اتسعت لها عيناه لأقصاهما. إن الألم لا يُطاق.. لا يُطاق! أخذت الشاب دورةٌ من الشهيق والزفير متحشرجة وخشنة، وجعل جسمه يرتعش

وألم العظام ينهش ظهره نهشًا. مرّت دقائقُ وحسين ينتظر زوال صدمة الألم الأولى دون جدوى، بل خُيّل إليه أن الألم يزيد ولا ينقص، حتى سقط فريسةً لنبضاته المُخْقَوْقِفة، وأحَسَّ بتقلُّص كل حوصلة في رئتيه، حتى صار امتصاص النفس مشقَّة لا تُحتمل.

وعندما دخل مُسْمَار وعاصم، حلُّوا عنه قيوده وأنزلوه، فكاد يبكي تأثُّرًا وراحةً من زوال الألم بغتة. تركوه يَنْعَم على مقعده لحظة، ولما هدأ قدَّر أنهم ما أنزلوه إلا لشر. ولم يخب ظنه. تقدَّم تَيْسِير حتى صار أمامه مباشرةً، فإذا به يحل سرواله، ويبول في وجهه! صرخ حسين.. صرخ وصرخ برعبٍ لا يوصف، وهَزَّ رأسه بجنونٍ وخيط السائل الساخن يروي وجهه ويرتد لرذاذ بشع، وينسال على عنقه وصدره. أخيرًا نفذت ذخيرة تَيْسِير بعد لحظات كالدهر، وكان مخزونًا غزيرًا مشحونًا بقوَّة دفع شديدة تلقاه حسين لآخر قطرة. جعل حسين يشهق ويزفر دون انقطاع مرتاعًا، ومستبشعًا البلل الذي غمر وجهه وشعره وجسمه، وتسلَّل لما بين شفتيه. كان صُنَانُه خانقًا لا يُطاق، وسخونته بشعة لا تحتمل، وقوامه الخفيف يتشعَّب على بدنه كله.

أخذ حسين يَبْصُق وقد انقبض وجهه بامتعاض وفزعٍ وانعدام تصديق. تقدَّم عاصم منه على مهل، ومال للأمام قائلًا بتريُّث:

- أنا عايز البضاعة كلها يا حسين، كل جرام منها. دي فلوس كثيرة جدًّا، وأنا عايزها ترجع. إحنا هنا معاك لحد ما نعرف فين البضاعة.

نظر حسين مذهولًا، فأردف عاصم:

- كان ممكن نسيبك مُعلَّق كده يومين أو ثلاثة. التعليق من الخلف مؤلم جدًّا، لأن وزنك يعتمد تمامًا على تجويف الذراعين. وعلى المدى الطويل، التعليق يتسبَّب في تدمير الأعصاب والأربطة، ويمكن يسبِّب لك شلل في دراعاتك. بس للأسف إحنا لا نملك وقت للدلع ده. أنا سِبتك براحتك على الآخر، لكن الظاهر إنك افتكرتنا بنهرَّج.

وتبدَّل وجهه كأنما استحضر شخصية أخرى مغايرة، فقال بمقتٍ وقسوة:

- أنا عارف إنك يائس، ما لكش حد ترجع له أو تبكي عليه، لكن يتبقَّى أنت؛ بجسمك وروحك. أنت لا تتخيَّل إيه ممكن يجرى لك. ياريتك حتى تموت. أنت مش حتموت يا حسين، لأن الموت هو صك الرحمة النهائي. فمن فضلك، شُوَيّة تعاون.. خلّينا نطلع من

المكان القذرده.

تدخَّل مُسْمَار قائلًا بحماسة:

- حيتعاون يا بك، ربنا يبارك لك. ثم إنه له ناس يبكي عليهم ويبكوا عليه، وأكيد يعوز يرجع لهم بالسلامة.

التفت إليه عاصم غير فاهم، فأدني مُسْمَار هاتف حسين من سيدِه، وعلى شاشته صورة ما، وقال:

- بص يا بك للشابة العَسَل دي! اسمها سَمَا. البِنيَّة بتسأل عليه كل يوم تقريبًا، وهو شكله بيعزَّها.

تمعَّن عاصم في الصورة، ثم التفت لحسين، وسأله بتركيز:

- من سَمَا دي يا حسين؟

بدَّل حسين النظر بينهما مذهولًا دون أن يفهم ما يتكلمان عنه بالضبط. ولمَّا لم يتلق عاصم إجابة أعرض عنه وتبادل حديثًا هامسًا مع مُسْمَار. وسمع حسين عاصم يقول وهو يهز رأسه إيجابًا:

- أنا حاتولى الموضوع.

ثم أقبل على حسين بخطوات واسعة، وقال له ببطء، مراعيًا أن تصل كل كلمة لأذني حسين، وتتغلغل في عقله:

- إحنا هنا يا حسين حنعمل فيك كل ما تتخيَّله، وما لا تتخيَّله. أشياء لا يمكن أن تتخيل أن بني آدم يعملها في بني آدم. أنا عايزك تثبت معنا، لأن المرحلة القادمة صعبة جدًا.

* * *

تزوَّج عاصم عبد الهادي في سن صغيرة بناءً على إلحاح من أمه. زوجته سيِّدة شابة مُحجَّبة ومحترمة، تخرَّجت في الجامعة الأمريكية، وهي ابنة وكيل وزارة سابق بوزارة المالية، ورئيس اللجان لمصلحة الضرائب سابقًا. رُزق عاصم منها بولدين وبنت، وحياتهما معًا مستقرَّة ظاهريًا. وواقع الأمر، أن التنافر هو العنصر الوحيد المشترك

بينهما. نما بينهما التباعد لتدخُّل أمه بشكل منهجي في أدق شؤونهما الحياتية، حتى كانت مرة احتدم فيها الخلاف بين الزوجين، فأوسعها عاصم ضربًا وكسر لها أصبعين. انعقدت للصلح جلسات مطوَّلة، وتدخَّل من العائلتين أناسٌ ممن لهم شأن، حتى تحوَّل الخلاف لعقدة متينة تستعصي على الحل. فتكلَّست بهما الحياة على شأنٍ شاذ تحت سقفٍ واحد. إنهما يعيشان معًا، وينامان على فراش واحد، لكن تمر بهما الأسابيع دون تبادل كلمة واحدة. فترات صمت ممتدَّة ولعينة، ينقبض فيها وجه زوجته ويتعس حتى يتعذَّر عليه النظر فيه. على مر الأعوام تكيَّف عاصم على هذه الحياة، كما تتحوَّل القرح إلى ندبات جافة وخشنة.

تعيش زوجته حياتها كالتالي: تستيقظ في العاشرة صباحًا، فتتناول إفطارها، ثم تعكف ساعتين على الصحف، فتكتب التعليقات وتضيف الحواشي السخيفة، ونظرًا لأنها تطالع الصحف قبل زوجها، الذي لا يستيقظ عادة قبل منتصف النهار، يفاجأ هو بالجريدة مُوشَّاة بوجهات نظر مسبقة على الأحداث. تستفزُّه عادتها جدًا، ليس لسببٍ إلا لشعوره بأنها تفرض عليه الوصاية بآرائها حتى وهما متخاصمان. ثم إنه، ولحل تلك المشكلة، أمر بابتياع نسخة مخصوصة له لا يمسُّها أحد قبله.

في الظهر، وقبل استيقاظ زوجها بالضبط، تذهب للنادي، وهناك تقابل صديقاتها، فتتغدَّى معهن، ثم يمضي عليهن النهار في الثرثرة لا ينقطعن عنها إلا للصلاة. وأحيانًا تهيم على وجهها بالسيارة لتقطع القاهرة بالطول والعرض، أو قد تقطع المسافات إلى الإسكندرية لتجلس ساعة أمام البحر، وقد تذهب لحضور درس دين في مسجد بعيد جدًا لشيخ لا يسمع عنه أحد، أو تحضر ندوة عن الأميرة فاطمة إسماعيل مثلًا، أو عن قضايا مثل النفقة والمتعة، أو حق ولاية الطفل، ولا تهتم بالموضوع في حد ذاته، بقدر ما تنتبه للفرجة على الحضور من الرجال والنساء؛ تكالبهم على البوفيه إن وُجد، ونهمهم واقتتالهم على المقبِّلات والعصائر، ولا تستغني في هذا عن كراسة مذكراتها، فتُسَجِّل مثلًا وهي جالسة: "رأيت اليوم فلان الفلاني المشهور بالسمعة الحسنة والاستقامة، واكتشفت أنه سيّء السلوك والسمعة، ولا يختلف في قليل أو كثير عن البوَّاب عبد الفتاح"، ويعجبها التشبيه، فتكتب على سبيل المبالغة الأدبية: "وزوجته أيضًا، لا تختلف في قليل أو كثير عن بذرية زوجة عبد الفتاح."

أيًا كان ما تفعله في نهارها، لابد أن تعود للبيت قبل التاسعة مساءً، كي ترى الأولاد وتتناول معهم طعام العشاء. وأمر العشاء غريب في هذه العائلة، فهم يحرصون عليه لو سنحت الظروف. يأكلون دون أن تصدر منهم كلمة أو تعليق، اللهم إلا لو نظرت إلى زوجها نظرة تنغرز في بدنه كالإبرة، وتقول: "مش قلنا الهباب ده ما يتحطِّش قدَّامنا على الأكل، والأحسن لو ما يدخلش البيت أصلًا؟". وتقصد بهذا النبيذ الذي يواظب على تناوله على الطعام. وعادةً لا يكترث بهذا التعليق، فيحمّر وجهها غضبًا، فيأخذ كوبه وزجاجته ويهجر غرفة الطعام إلى المكتب ليواصل التدخين والشراب. وتظل قابعة في مكانها مع الأولاد، ثم تهزُّ رأسها قائلة بنقمة: "ما فيش فايدة، أبوكم عمره ما حينصلح. لا يتيح لها الأولاد فرصة المتابعة، بل يتسلّلون الواحد تلو الآخر حتى تخلو لها مائدة الطعام. ولا تنهض، بل تُقبل على طعامها بهدوء، وأحيانًا دون شهية، ولعلها تثبت لهم أن وجودهم من عدمه غير ذو أهمية. تنهي طعام العشاء، وترتدي منامتها، وتحتسي اللبن الدافئ وهي تشاهد التلفاز، حتى تنام أمامه لتبدأ في الصباح طقوسها المعتادة.

هناك ثلاثة أبناء.

فَوْزي: الأكبر، والأقرب لقلب أبيه، والأبعد عن أمه. ولدٌ هادئ ولطيف تعدَّى التاسعة عشر من عمره. أبيض وطويل، يدرس الطب في الجامعة الألمانية، وهو شابٌ مكافحٌ ومجتهد. في أوقات فراغه يعمل في محل للغوص بشرم الشيخ، حيث تعرَّف على بنت ألمانية، وأمله أن يتزوَّجها ويترك البلد لغير رجعة. ينفق على نفسه في الملبس والخروج، لهذا يحبَّه أبوه، لأنه لا يطلب شيئًا، ولأنه قادر على تحمُّل المسؤولية، لكنَّه يحبَّه كما يحب نماذج السفن على مكتبه. تركيبات متقنة وهشَّة، موضوعة على حوامل أو داخل قوارير، ولا يُستحسن الاقتراب منها أو التفاعل معها.

نَانْسِي: أصغر من أخيها بسنة، وتدرس الفنون التطبيقية بأكاديمية خاصة، وتختلف عن أخيها في الشكل والموضوع. على الرَّغمِ من أنها بنت جميلة وحَبُّوبة، لكنَّها تبدو كالمدمنين بتصفيفة شعرها العشوائية، وعودها النحيف، وبشرتها البيضاء الناصعة، وملابسها الفاضحة الضيقة جدًا، وخفِّها المنزلي المطاطي الذي لا ترتدي غيره في الخروج، وقيادتها المجنونة لسيارتها الألمانية رباعية الدفع. ولا تذكر أمها أن رأتها بملابس محافظة أبدًا، وإن تكتفي دائمًا إن رأتها تخرج بأن تقول: "يا بنتي حرام عليكِ،

احترمي نفسك"، وترد عليها الصغيرة وهي تهرول للخارج: "باي مام!"

ابتُلِيَتْ مُؤخَّرًا بضيق الأفق وشح الصبر والسفه والسفالة، وأصبحت ببنات الليل أشبه، بسبب المخدِّرات التي تواظب على تدخينها في دورات المياه بالأكاديمية، والسجائر والبيرة التي أكثرت من تعاطيهم على المقاهي مع الأصدقاء، وفي الشقق وشواطئ الساحل الشمالي والغردقة. وهي على علاقة بولدٍ في الأكاديمية يكبرها بعامين ويساويها في السنة الدراسية، ابن مهندس يعمل في الكويت منذ عشرين عامًا. يصاحبها كظلها في جميع تحركاتها، وهي تسيطر عليه تمامًا، بل تستعبده وتبتزه، حيث ألزمته بالإنفاق عليها في التنقلات والمخدِّرات والكحوليات والدخان والأكل والسينما والهدايا، ويدفع المسكين ويدفع بلا كلل أو اعتراض. ويعود ذلك إلى شخصيته المعتلة وفهمه القاصر للحياة ولين شكيمته. أما السبب الأجَلُّ، فهو أنه يمارس معها الفجور إن سنحت الفرصة، وتلك تكون أسعد أيام حياته، فيحلِّق معها لآفاق بعيدة. قدَّمته نانسي إلى أبيها وأمها، فما كان من عاصم إلا أن بغضه أشد البغض، ثم ألف الوضع شأنه كشأن كل ما يجري في هذا البيت، ونأى بنفسه عن الدخول في صراعات مع البنت التي أصبحت كالسِعْلاة في التوائها وعسرها وسلاطة لسانها.

تَامِر: أصغر الأبناء. من صغار الهوام اللاذعة شديدة الوثب. صبيٌ في الخامسة عشر من عمره، يدرس بمدرسة أمريكية بالزمالك. وعلى عكس سائر أفراد الأسرة كان هو، ببشرته السمراء العميقة، وشعره الأكرت السميك، وبنيته الممصوصة الجافة. هذا الكائن يجتمع على بغضه أهل البيت جميعًا، لأنه معاكس لكل ما هو طبيعي وسوي في الحياة، ولا يطيع أمرًا إلا بالعكس، ولا يستقر في مكانه لحظة. يصرخ دون انقطاع كأنه في حالٍ مستمرة من عذاب أو سُعار، أو أنه مختل عقليًا منذ ولد. لا تشغله في هذه الدنيا إلا كرة القدم والأفلام الإباحية، ويُرى دومًا وهو يحادث زميله عَبَّاس همسًا في الهاتف، ويقول متلفتًا حوله كالمجرمين: "أيوه يا عَبَاس.. في خناقة!"، إشارةً إلى شجاراته التي لا تنتهي في نادي الجزيرة مع الأطفال في سنه، وزملائه الأكبر منه في المرحلة الثانوية. وهو دائمًا مجروح أو مَكْدوم في وجهه أو يديه أو ركبتيه، إما من شجار أو إصابة ملاعب. يصاحب بنتًا في مدرسته، ولا يحبها مع هذا، وإن سُئل عنها يقهقه ويطيل كالمساطيل، ويقول: "أم أويء مخلَفة في الحرام، وعلى كتفها عيِّلين!"

يطلب النقود بصفة مستمرة، من أمه أولًا، فتزجره وتدفعه قائلة: "رُوح خد من أبوك"، فيجري الولد لأبيه صارخًا: "داد، داد، داد، عايز ميتين جنيه." ويجيبه عاصم: "امشِ يا بني دلوقت، أنت لا ابني ولا أعرفك." فيضرب الصبي بقدميه في الأرض ويصرخ: "أنا مش فاهم مين منكم مخاصمني، بس أنا عايز ميتين جنيه." وهكذا يركض من هذه مرة إلى ذاك مرة حتى ينال بغيته أو قريبًا منها، متوثّبًا كالذبابة. بهيئته الرثة وأظافره القذرة المتآكلة يشبه الصبيان المُشردين، لذلك عندما يتواجد مع أبيه يناديه عاصم قائلًا: "تعال يا ابن البواب"، فيركض الولد لأمه صارخًا: "أنا ابن بواب، داد بيقول أنا ابن بواب!" يبغضه عاصم ويستغرب كلما نظر في خلقته ووجهه الضارب إلى سواد، ولا يمنعه هذا من ملاعبة الولد، لكن بخشونة مُتعمَّدة، فيقرصه ويدفعه ويصفعه، ولا يستجيب الولد لهذا المزاح إلا بأشد منه، فيضحك ضحكات مسعورة موتورة، ويلطم أباه.

كما يتَّضح، يأس الأبوان من أبنائهما. الأم ترى أنها فعلت العجب لإصلاحهم دون جدوى، والأب يرى أن عيارهم المنفلت لا سبيل لتداركه حاليًا، بَيْدَ أنه أعد لهم خِططًا لتأمين مستقبلهم، وأراح ضميره بهذا. تعيش الأسرة السعيدة في فيلا كبيرة على طريق مصر الإسماعيلية قرب مدينة العاشر من رمضان في مساحة خضرة تتجاوز العشرين فدانًا، بها حوض سباحة وبحيرة صناعية خلابة.

* * *

الأيام التالية التي عاشها حسين كانت سيِّئةً للغاية، فُعل فيه خلالها الأفاعيل. اشرأبت عليه البشاعات والبلايا، ومرَّت به وقائعٌ لم تخطر له على بال، ولا راودته في أغلظ كوابيسه. أجبروه على ابتلاع مساحيق الغسيل، وعلى شرب البول، واستعملوا معه الكيماويات المهيِّجة في أماكن حساسة من جسمه، وكهربوه في فمه وأعضائه التناسلية. قيَّدوا قدميه بلوحٍ خشبي، ثم جَلَدوا باطن قدمية بفَلَقَةٍ غليظة، فسبَّبوا تلفيات شديدة في النهايات العصبية والبناء العظمي للقدم، خاصة العظام الصغيرة والأوتار. أغلقوا أنفه بمشبك، وأقحموا قُمْعًا في فمه ليسقوه رغمًا عنه سائلًا غريب الطعم عالي اللزوجة، وكان مضطرًا لابتلاعه كله تلافيًا للاختناق، حتى تنتفخ بطنه، وما أن يشعر بها على رف الانفجار، حتى يعلقونه من قدميه بالمقلوب، فيضغط الماء

المتراكم على معدته مسببًا آلامًا هائلة لا تسمح له حتى بالصراخ.

وبعد كل وصلة تعذيب، يطرحونه على المقعد الخشبي، ويسأله تَيْسِير السؤال المشؤوم: "أين الشحنة؟"، فينهار حسين ويبكي، ولا يتحدَّث مع هذا. ولا يرجع صموده لصلابةٍ أو إصرار مُركبين في طبعه، لأن ما يحدث أكبر من احتماله، لكن خوفه من الموت أشد. إنه يعلم على وجه اليقين أنهم سيقتلونه لو أفصح عن مكان الشحنة، ويعلم يقينًا أيضًا أن مَلَكَ الموت لو أُذِنَ له، فسيقبض روحه كما يُسلخ الجلد عن اللحم، وما ينتظره بعد ذلك أدهى وأمر.

نعم، إن ما يحدث في عمومه سؤالٌ واستجواب، لكن واقع الأمر أنهم استعبدوه انبسطت عليه سيطرتهم التامة، فتعاملوا معه على أنهم أسياد، وأنه شيءٌ بلا قيمة، بدءًا من الإذلال من خلال العُري، والإيذاء اللفظي من خلال السبِّ والإهانة، وصولًا للضرب المُبرّح. استقبل صنوف الألم بتجربتين حسيَّتين: الأولى أحاسيس الوخز والطعن، وهي آلام أولية وسريعة، والثانية آلام تدمير الأنسجة: عذابات عميقة ومنتشرة تنبع من الخلايا المدمرة.

لم يكن يرى إلا تَيْسِير، الذي احتلت سلوكياته موقع الصدارة، على الرَّغمِ من تواجد خمسة أشخاص آخرين في ذات الغرفة، يتفرَّجون عليه كطلبة مدارس الطب القائمين على موائد التشريح. أبدى تَيْسِير تبلُّدًا تامًا في الشعور، وغرورًا زائدًا عن الحد، وانحطاطًا اعتياديًا، وإساءةً لفظيةً فاضحة، فكان يخاطب حسين بصيغة الأنثى غالبًا، ولا يصفه إلا بالداعرة والمومس، ويخوض في عرضه بألفاظٍ جارحة وبذيئة، عضَّدها بالبُصَاقِ والركل والتبوُّل، وأحيانًا يفرض عليه الوصاية، فيخبره بمشاعره كأنها نابعة منه، كأن يقول له مثلًا: "أنتِ شكلِك عايزة تنضربي يا مَنيوكة، شكلك بتحبي الضرب والشتيمة."

لم يستخدم تَيْسِير إلا لغة التهديد والسلوك الترهيبي عامةً، مُبديًا في هذا غضبًا شديدًا وعدوانيةً مخيفة، ومع نَضْج دلائل انعدام السيطرة الذاتية منه، يكاد أن يحطم أسنانه وهو يجزُّ عليها، ويصرخ في حسين بهوس، ويهوي عليه ضربًا دون رحمة. وفي لحظة معيَّنة، يلقي ما بيده ويغادر دون أن يضيف كلمةً واحدة، وخلفه ينسحب الجميع رادين الباب الحديدي خلفهم، تاركين حسين مُلقىً بين الحياة والموت.

قضى حسين ليلته هذه متكوّمًا في وضع جنيني، وتراخت أوصاله وخفتَّ صوت تنفسه تمامًا. أغمض عينيه مُجبَرًا لتورُّمهما، وبعثت مواضع الضربات في نفسه آلامًا نابضة عنيفة، ودبَّ الفساد في مواضع أخرى حتى تحوَّلت لقرحٍ عفنة وتسلُّخات ملتهبة. كان يعتقد أن للألم استهلالة أولى لا يمكن احتمالها، ثم تخفتُّ وطأتها بالتدريج، لكن أن يستمر الألم هكذا، هذا ما يبعث على الجنون. أصبح كل موضع منه يبعث في نفسه ألمًا لا يُطَاق، فلم يستطع الثبات على رقدته. غالب نفسه ونهض وهو يبكي كالثكالى، وشرع يذرع الغرفة المظلمة ذهابًا وإيابًا، وقيامًا وقعودًا، مُصدرًا حشرجات مغتاظة غاضبة. أصابه الغثيان والتشوُّش الكامل، وصارت تناوشه الهلاوس وأعراض الاضطراب العقلي الحاد نتيجة حالة العزلة. ثم أضيئت الغرفة، وانفتح الباب، ودخلت الصحبة المعتادة. بحلقوا فيه لحظات إذ هو يجلس مستندًا للحائط، بساقين ممتدتين للأمام كالخرقة البالية. رفع حسين عينيه إليهم بعد أن غلب انبهاره بالنور، وكانت الرؤية مشوَّشة. أقبل عليه عاصم، ونزل إليه وتساءل مهمومًا:

- مش ناوي تليّن دماغك يا حسين؟

نظر إليه حسين مذهولًا كأنه يراه للمرة الأولى، فتنهّد عاصم وقال:

- النهارده يا حسين حنشد أظافرك كلها، واحد ورا التاني لحد ما تتكلِّم!

وهمَّ بالنهوض، لكن حسين قبض على إسورة قميصه الأبيض، وكانت قبضته رخوة ضعيفة، وتمتم راجيًا بصوت خفيض: "كفاية." التفت عاصم وأدنى أذنه من فم حسين، وتساءل باهتمام: "بتقول إيه؟" كرَّر حسين قوله بإجهاد، فقال عاصم بصوتٍ مستقر:

- كفاية يا حسين. قل لي، فين البضاعة؟

قال حسين هامسًا:

- الدور الثاني.. خمستاشر شارع الطاهر.. بلوك خمسة وستين.. مدينة نصر.. التجمُّع الثامن.

لاحقه عاصم بشيء من اللهفة:

- عارف، عارف.. العمارة الفاضية.

أومأ حسين إيجابًا بضعف، فتساءل عاصم متحقِّقًا:

- الدور الثاني، شركة المحاسبة؟

أومأ حسين، وأضاف بنبرة مكدودة: "في الخزنة." هنا تنهَّد عاصم براحةٍ غامرة، وعلت شفتيه بسمة مستبشرة. صمت لحظة مستوعبًا الأثر السار لقرب انزياح الغمة، ثم سأله:

- قفلتها بالأرقام؟

أومأ حسين إيجابًا، فسأله عاصم عن ماهية الشفرة. حاول حسين تذكُّر الأرقام بعزم قوته دون جدوى. احترم عاصم صمته مدركًا محاولاته المضنية، وأخيرًا رفع حسين رأسه بعد طول إطراق، وقال بصوتٍ متداعٍ وقد دمعت عيناه:

- مش قادر أفتكر يا عاصم.. والله العظيم ما فاكر.

نظر إليه عاصم مليًّا، ثم طأطأ متفكِّرًا وسأله:

- الأرقام لها عنك أي مغزى؟ أي تاريخ مثلًا، أو رقم تليفون، أو حساب في بنك؟

هَزَّ حسين رأسه نافيًا، فتساءل عاصم متعجِّبًا:

- شيء غريب.. أمَّال إيه المفروض يفكَّرك بالرقم لو نسيت؟

- والله ما فاكر يا عاصم.. أنا.. رأسي.. زي ما تكون في حاجة.. بتنقَّط! يهيَّأ لي كان في، حاجة تفكَّرني.. بس مش فاكر.. يمكن ورقة.. أو رقم مسلسل.. والله العظيم ما فاكر.

رَبَّتَ عاصم على كتفه، وقال مقدِّرًا:

- ولا يهمك.. أنا أعرف أتصرف.. طبعًا مش حتلومني لو قلت لك إنك حتفضل معانا إلى أن أتأكد من المعلومة واسترجع الشحنة.. الشحنة طبعًا كلها هناك؟

- كلها.

- خير خير.

هكذا قال عاصم ببشرٍ حقيقي وصوتٍ متهدِّج، ثم نهض وغادر مسرعًا.

أراد حسين أن يطلب شربة ماءٍ نظيفة، لكن قواه لم تطاوعه. وألقي عليه تَيْسِير نظرة

لا هي بالمصدِّقة ولا المكذِّبة، على حين بدت على مُسْمَار مخايل الاستغراب.

***

الذي لم يعلمه عبد الهادي الجارحي عن زوجته الشقراء الصغيرة سيبل هيلم، أم ابنه الوحيد عاصم، أن لعائلتها تاريخ باهر في المرض العقلي، إذ عانى عمُّها من الاضطراب الزوراني (الشكوك المرضية)، وقضى أخوها معظم حياته في مصحَّة عقلية بسبب مرض الفُصام الذُهاني (وهو واحد من أسوأ الأمراض العقلية)، أما شقيقتها الكبرى فمصابة باضطراب وجداني ثنائي القطب. أصيب أيضًا خمسةٌ من أقاربها بأمراض عقلية خطيرة، مثل الذُهان وتعدُّد الشخصية الفصامي واضطراب الهويَّة الجنسية، علاوة على أمها التي عانت من كثرة الهلاوس السمعية والبصرية.

أما سيبل نفسها فكانت أكثرهم حظًا، إذ أصيبت فقط بهوس ديني شديد. كانت البداية بتطرُّف شعائري، تحوَّل إلى اكتئاب عميق، وتطوَّر إلى هوس اكتئابي. ثم إنها بدأت في رؤية ظواهر فوق طبيعية، مثل رؤية الشياطين والأموات ووُحوشٍ من أبعاد كونية موازية، ثم كانت الذروة عندما أصيبت بنوبتي هوسٍ عنيفتين؛ الأولى لمَّا أيقنت أن لها دور رئيس في إعداد العالم لمجيء الرب يسوع المسيح الثاني الوشيك. النوبة الثانية، وهي الأهم، لمَّا أيقنت أن الشَّيطان حل في جسد ابنها عاصم، وتلك كانت نقطة تحوُّل في علاقتها به. الحقيقة أنها لم تعتبر ابنها شريرًا في ذاته، وليس كذلك مسؤولًا عن أيٍّ من أفعاله، لذلك اتَّبعت برنامجًا علاجيًا طويلًا علمت أنه قد يستغرق سنوات من جلسات «طرد الأرواح الشريرة»، التي تتضمَّن غالبًا اعتداءات بدنية قاسية وشبه دموية لطرد شيطان ابنها المتوطِّن. في هذا الضنك عاش عاصم طفولةً ومراهقةً سريَّةً تأقلم فيها على الألم واستساغه.

يعلم أفراد العائلة المُقرَّبون من عاصم عبد الهادي أنه شخصٌ مهزوزٌ وضعيفٌ، قليل الصبر وهوائي لا يُؤتمن له جانب. تنعدم لديه القدرة على رد العدوان عن نفسه في الحال، لكنَّه يكبت في نفسه حتى تحين اللحظة المناسبة، فيرد الأذى بضراوة ويكيل الكيل بأضعافه. تتبدَّل شخصيته خارج النطاق الأسري للنقيض، فيكتسب سمتًا مهنيًّا لا يعرف الهزل ولا يرحم، ويبدو في معظم أحواله متنافيًا مع الواقع، بمظهره الذي

يفتقد الخطأ والنقص الآدمي المعتاد. يتعامل بخفَّة غير طبيعية، ويتحدَّث بصوتٍ رخيم رتيب، وبصيغة العالم بكافة الأمور، فيتَّخذ قراراته بسرعة وحزم.

لا يرجع فساد العلاقه بينه وبين زوجته لتخاذلٍ منه، ولا لعتوٍّ في أخلاقه ولا لتهتكٍ في خصاله، لأنه إنسانٌ محترم ومؤدب، وكونه تهوَّر مرة وأثخنها ضربًا، فلا يعني هذا أنه شخص شرِّير. كانت لحظة ضعف غير مقصودة، والأرجح أنها لن تتكرَّر. لكن أن تعود عليه بالإذلال وتعاسة المعاش، فهذا الذي لا يُحتمل. بحق الله، لماذا لم تنفصل هي وأبناؤها الثلاثة، وإنه على استعداد لتولِّي واجباته المالية تامة. لقد فكَّر كثيرًا في الطلاق، لكن بدت له خطوة ضخمة لا يستطيع البت فيها بنفسه. فضلًا عن نشوء نوع من ألفة الخصام بينهما. تواجدهما معًا، وتنافرهما مع هذا صار أمرًا مألوفًا مُطمْئِنًا، ولا يتخيَّل كم ستكون فكرة عودة المياه لمجاريها مرعبة. ثم إن الأمور تدهورت في البيت من سيِّء إلى أسوأ، حتى آلت إلى تحجُّرٍ انحشروا فيه جميعًا.

فرض على نفسه روتينًا مقدَّسًا، بمقتضاه يستيقظ بعد الظهر ويأخذ دشًا باردًا، ويقرأ الصحف، ثم يذهب إلى المصنع حيث يُجري مقابلاته ويستقبل ضيوفه، ومنه يعود لبيته ليتناول طعام العشاء البائس مع الأسرة. الحق أنه حاول كثيرًا إصلاح الأمور مع زوجته، ويوميًّا يبادرها بالتحية ويسألها مُترفِّقًا عن أحوالها، فلا تزيد عن الحمد بلهجة جافة ووجهٍ عنجهيٍّ متكلِّف، ولو حاول ملامستها فتلك مصيبة، وهي في هذا لا تعفيه من الحرج وإشعاره بالدنو والهوان، حتى دبَّ اليأس في نفسه ثم الجفاء. بَغِضَها، وهدأ البُغْضُ إلى القطيعة، ثم صار يتعامل مع أمرها كأي بلية أخرى في الحياة. نتيجة اعتلالاته النفسية الأصيلة وتعاسته الأسرية، أصبح مسلكه في الهروب غريبًا في أول أمره، ثم شاذًا في منتهاه. اعتزل في شعابٍ متطرفة، واهتم بكل ما يكرِّس وحدته، مثل قضاء الساعات مع الخيل في الإسطبل، والاهتمام الجنوني بالنباتات، وإنفاق الأيام والأموال في متابعة مشاتله في رشيد وإدكو والجزيرة، العامرة بأنواع النخيل المستورد من العراق والسعودية.

ثم ضجَّ بحياة العزلة، وبحث عن سبلٍ أخرى يشغل بها نفسه، فانحدر لدركٍ سفلي متعدِّد الجوانح، نشب في جذوره وامتص عصارته. أصبح مدمنًا عتيدًا، وله في هذا الباع حتى الآن سنوات خمس، مرَّت عليه منهم الثلاث الأخيرة دون أن يتوقف عن التعاطي

ولو ليوم واحد. كان الأمر في مبتدئه ضربًا من الملذات يُرفه به عن نفسه، ثم أصبح ضرورة ملحة كالهواء، بدونها يصير إلى حال جنونية من افتقاد المحسوس من الأحوال والمعقول، فلا يستطيع التواصل مع نفسه ولا الآخرين. وإنه يحصل على المخدرات بسهولة متناهية بطبيعة الحال، ويعتبر نفسه موسوعة حيَّة في أسرارها. جاهد للحفاظ على سرية أمره، لأنه يعلم أن الحاج الكبير سيقتله إن شم الخبر، لأن المدمن التاجر لا يتصرَّف بدافع التربُّح، ولا يستطيع العمل في منظومة الجماعة، بل هدفه الأوحد إطفاء نهمته. إلى جانب المخدرات، أقبل على الكحوليات فأصبح في دنياها عابدًا جوَّالًا، ثم على النساء فتمرَّغ في الرذيلة لا يمنعه مانع. ومع اجتراره الملذات كان ينظر لنفسه على أنه شخص مختل ومعتل، ومتنافر مع كل ما هو سَوِيّ وأخلاقي، فتتمكَّن منه حالة اكتئاب كبرى وعزلة شاملة.

لا يخرج عاصم عن قوقعة الانعزال إلا في أوروبا، حيث سبق أن قام برحلات بحرية متعددة تقوم على أنشطة غير أخلاقية للجنسين، وتردَّد على حانات المثليين وحمَّاماتهم، وأوكار الدعارة القذرة والحانات الخاصة، وباشر قصص رعب طبية، تبادل فيها اللعاب والمني والغائط والدم مع العشرات كل عام، وأصيب بجراح دورية في المستقيم وفي أجزاء حساسة من جسمه، وخاض في ممارسات مخزية في أماكن غير نظيفة: مثل دورات المياه والأزقة والمنازل المهجورة ومقالب القمامة. أحيانًا يسأل نفسه: لِمَ تفعل ما تفعل؟! ولا يجد إجابة إلا كونه معتوهًا مغلوبًا على عقله، يحب الانقلابات ويسعى لطَرْقِ ما هو غير مألوف، وفي نفس الوقت لا يصمد للاختيارات ولا الاختبارات. ثم يستدر لنفسه الأعذار، وينحى باللائمة على مَنْشَئه وتغرُّبه عن أسرته وعلى أمه الشيطانة، لكنَّه لمَّا يسترجع التفاصيل المقرفة، يعمل في أحشائه وروحه ماء الرجال كما يعمل السم في البدن، فيؤنِّب نفسه أشد التأنيب ويلبث على حاله هذه أيامًا، يكفهر فيها وجهه وتتجهَّم أخلاقه ويضيق صدره، وتلك أصعب حالاته.

أورثته حياته عددًا من الأمراض الخبيثة، في مقدِّمتها التهاب الكبد الوبائي، وضعف الذاكرة، وانحراف في المزاج، وأسوأ ما يعانيه على الإطلاق: الأرق. تمر عليه الليالي الطويلة لا يغمض له جفن. هذا الأرق يصيبه بالهوس. إنه لا يستطيع أن يغلق جفنيه، ولا يستطيع أن يوقف مخه عن الدوران والصرير لحظة. إنه مجهدٌ ومتلهفٌ ومحصورٌ

في زنزانة مميتة من اليقظة الأبدية، ويعتمد على المسكّنات والأدوية المهدئة فلا تزيده إلا يقظة. إنه يريد النوم ولا يستطيع. وليس أسوأ من الأرق إلا أن ينقطع عن المخدّرات ولو ليوم واحد. تلك إذًا طامة كبرى، إذ يتحوّل لحيوان مفترس.

لجأ في الفترة الأخيرة إلى القراءة، فأفسح لها وقتًا ثابتًا كل يوم، ولم يكن من قبل ببعيدٍ عنها، لكن لم يخصِّص لها الاهتمام المطلوب. تركّزت قراءاته قبلًا على مجالات السلاح لأنه مولع بجمع السلاح والتعرُّف على أنواعه، ثم السياسة والفلسفة. قرأ كثيرًا عن النظرية المادية في المعرفة، وعن الفيزياء النووية (على هيئة شروحات ونتائج وليس معادلات وتشكيلات رياضية). وشأنها كشأن كل شيء في حياته، انحرفت به قراءاته، وأقبل على «أعمال الشيطان» كما يسميها. تأريخ القتل الجماعي، وسير السفاحين أمثال هنري هوارد هولمز وأندريا تشيكاتيلو. قرأ أعمال دونانيا ألفونس فرانسوا دوساد السيِّئة السمعة، مثل «جوستين» و«جولييت» و«أيام سودوم المائة وعشرون»، ووَلِع بالحشايا المرسومة لقسوةٍ جنسية شديدة، ولم يعتبرها موادًا إباحيةً مباشرةً، بل منظومة هجاء معقدة مُوجَّهة للنفاق والتظاهر بالفضيلة والتديُّن.

قرأ كثيرًا عن الشذوذ من وجهات نظر تقبِّنه وأخرى تناهضه، وقرأ أوصاف سيجموند فرويد لظاهرتي الشذوذ والماسوشية، وكتابات روبرت جاي ليفتون التحليلية عن جوزيف مينجيل ومن معه من الأطباء النازيين العاملين في معتقل «أوشفيتز»، وانكب على تتبُّع أبحاث أجنبية تدَّعي أن مجتمع الطب والصحة العقلية بدأ يتقبَّل حقيقة أن السادية الماسوشية آمنة، وقرأ إصدارات الجمعية النفسية الأمريكية، التي أقرَّت بأن السادية الماسوشية ليست اضطرابًا عقليًا، ولا تتحوَّل إلى اضطراب عقلي إلا عندما تتسبَّب الخيالات والاستحثاثات الجنسية والسلوكية في حدوث اكتئاب سريري واضح، أو في إفساد وظائف اجتماعية ومهنية في نفس الإنسان.

تابع عصام أخبار ما يسمى بتجمُّع «الفانيليا»، وبحث فترة عن شخص يمكن الوثوق به ينتمي للتجمع. ثم التقي «مستشاره الناضج» على الإنترنت، وهو عضوٌ قديم في مجتمع السادية الماسوشية ممن يلمُّون بالنقاط التقنيَّة والجانب الفلسفي. وسافر إليه في الولايات المتحدة. وجده إنسانًا دمثًا أمينًا، وكانت نصيحته لعاصم أن يتقبَّل المخاطرة، ويقتنص الفرصة ويكتشف ويتعلم ويستمتع! عرف عاصم أن تجمُّع الفانيليا

له جانب مؤسسي، وأنه يمثل خليطًا متفاوتًا من البشر، وعلى تباينهم فإنهم في توافقهم يمثِّلون طيفًا تامًا منسجم الألوان، يجمع كل التوجُّهات الجنسية دون تفرقة، وينفتح على كل الناس دون قيود.

عَرف أن الفانيليا تحدث بنسبة تسعين بالمائة داخل الرأس، وأن المخ هو أكبر عضو جنسي في جسم الإنسان. بدأت تراوده خيالات منحرفة وغير متَّزنة تجاه الرجال والنساء على السواء، وأحَسَّ بخطورة هذا التطور في بدايته وتخوَّف منه، ثم اطمأنت نفسه عندما رأى الاستقبال الحافل له في التجمُّع، وأدهشته كثرة أعدادهم. تَعَلَّم على أيديهم كيمياء الجسم البشري، وإنتاجه لمقاومات الألم الداخلية، وكيفية إثارتها بالتدريب والأنشطة المؤلمة التي تُعَوِّد الجسم على التكيُّف مع الألم. تعلَّم كيف يستحث إحساسًا نشوانيًا مُركَّزًا كذلك الذي يتحقَّق من المستحضرات الأفيونية المسكِّنة للألم، والتي تتماثل كيميائيًّا مع الأندروفينات، وتعلَّم كيف يكتشف مثيرات كثيفة يستحضرها من المتعة العقلية المتواكبة مع الألم.

علم عاصم أنه خارج تجمُّع الفانيليا تسود أفكار بالية تصوِّرهم مخلوقات مفترسة ذات سلوكيات مريضة مدمِّرة، وشعر بنقلة كبيرة في حياته فتحت له آفاقًا جديدة، لا للإبحار فيها، بل للطيران في أجوائها! لقد عاد من الولايات المتحدة وهو شخصٌ مختلف، صاحب وجهة نظر تقدُّمية تجاه هذه الطغمة. وبعد بحث وتمحيص، قرَّر الانضمام إليهم. إنهم ليسوا قطيعًا من الغوغاء والمثليِّين القذرين (فحسب)، بل منهم الأطباء والمحامون والمعلمون وعُمَّال البناء ورجال المطافئ ورجال الأعمال. إنهم مجتمع بشري متميِّز متسامٍ، ارتفع على الطبقية والانتماءات الإثنية، وطاف حول محراب الإثارة وتبادل السلطة والثقة في الشريك، وتبادل الحب والمتعة، والبحث عن الألم المُسبِّب لأقصى آيات اللذة بشكله المطلق!

تمخَّضت هذه الخبرات والمؤثرات عن «عاصم جديد»، يحكم على نفسه وعلى الناس بناءً على توجهاته الشهوانية، وينظر إلى العالم الخارجي على أنه بيئة حشرية تعج بنماذج نمطية سلبية: نساءٌ منافقات، وساقطاتٌ مدَّعيات الفضيلة، ورجالٌ قذرون كذابون تسوقهم شهواتهم كما تُساق النعاج، وهم جميعًا ليسوا أفضل منه. من المعروف أن مدمني الخمر والشواذ والعاهرات وكل من يعاكسون الفطرة الإنسانية

السويَّة يعانون العديد من أشكال المرض النفسي ودلائل الانحراف التي ترتبط بالعنف بالضرورة، وتزداد وطأتها تحت تأثير الكحوليات والمخدرات. وما يحدث لهؤلاء حدث لعاصم بالضبط، ربما عن غير دراية وقصد، وإنه ما يزال ينظر لنفسه على أنه شخصٌ لطيفٌ ودود، يمتاز بقدرٍ كبير من الرقة والأدب، لكن العنف والرفض والتعاسة التي يسببها له المجتمع والأسرة لابد لهم من رد فعل. إن ما سيفعله ليس أكثر من رد فعل، يُسَلَّط على أناس يستحقونه.

وكما يحبو الباحث عن الحقيقة لأولى درجات الإيمان، بدأ عاصم أولى خطواته. وما يزال يذكرها بشيء من الحزن، لأنه حاد في تلك التجربة -وبشكل مفزع- عما سبق أن رآه وتعلمه في تجمُّع الفانيليا. ما يزال يذكر هذا الاختلاج البسيط في قلبه عندما أحضر له تَيْسِير ومُسْمَار أول ضحيَّة. رجلٌ في الأربعين من عمره، أشعث أغبر خفيف العقل، يسعى في ميدان الجيزة حافيًا يسب المارة. اصطاده الرجلان في الرابعة فجرًا، وأحضراه للمصنع حيث غسَّلاه وحلقا شعره ولحيته، ثم اشتغلوا عليه مدة ست ساعات حتى أنهوا التجربة. لقد عرف عاصم يومها نوعًا جديدًا من اللَّذَّة، كان صعبًا فعلًا في البداية، خاصة وأن المنحى الدموي لم يخطر له على بال، وتطوَّع به تَيْسِير ومُسْمَار عن مبادرة فردية، لكن لم يلبث أن استوعبه وهضمه، واستساغه، واستخلص منه سعادة متأنِّقة نادرة المثال. وبالتزامن واصل قراءاته، وتابع تاريخ التعذيب للجنس البشري، فكان يقرأ بعناية وتمعُّن، ويطالع الصور الفوتوغرافية والماكينات واللوحات العتيقة. توقَّف طويلًا عند الرومان، وتعرَّف على أمزجتهم الابتكارية الفذَّة، وتعجَّب من هؤلاء القوم اللذين أظهروا نوعًا من العبقرية والإخلاص لعلم الألم.

تغيَّرت معظم مفاهيمه السابقة؛ إذ كان يظن أن التعذيب بتعريفه الأكاديمي هو التسبُّب في ألم جسدي شديد كنوع من العقاب والإكراه، وأن الأشرار هم من يتعرَّضون للتعذيب في الظروف الطبيعية، لأن جوهرهم الإجرامي يضعهم في تصادم دائم مع السلطة، التي تستطيع ممارسة التعذيب منهجيًّا. الآن تعرَّف على وجهة نظر بديلة، تدفع بأنه -وتحت الظروف المناسبة- مع توافر الفرصة والتشجيع، يمكن دفع أغلب الناس لتعذيب بعضهم البعض، ومن ثم يمكن تجريد الأشياء من صفاتها الإنسانية، ورؤية الضحايا -إن صحَّت تسميتهم كذلك- على أنهم موجودات لهدف البحث والتجريب،

وأن الألم مجرَّد اختبار آخر محفِّز عصبيًّا، يمكن قياسه وتسجيله على مخلوق حي. ولا ينكر منصف أثر أبحاث العلماء الألمان على العينات الآدمية في معتقل «أوشفيتز» على مسار الطب، وإسهامها في إنهاء معاناة الملايين، وإنقاذ حياة الأطفال!

نجح عاصم في نبذ الكوابح الأخلاقية وضوابط القانون والعرف والضمير، واعتبر أن الإنسان وفأر التجارب سواءٌ بسواء. أليس هذا من لحم ودم، وذاك أيضًا من لحم ودم؟! ألا يصرخ هذا من الألم، ويصرخ ذاك من الألم؟! إيقاع الألم على الآخرين يمكن اعتباره معيارًا مقبولًا تحت ظروف معينة، ويتم استخدامه مؤسسيًّا في السجون وأقسام الشرطة والمعتقلات، وما كان استثنائيًّا للضرورة المُدركة، أضحى يُنفَّذ بشكل مُعمَّم ورَحْب. حدث هذا على مرأى ومسمع من الضمير الإنساني العام، دون أن توقف البشرية نشاطها، أو تضع كل ذات حملٍ حملها. إن الإنسان يأكل ويشرب ويغط في نومه، ويشاهد الأفلام التافهة والمسرحيات الرخيصة، وهو يعلم علم اليقين، أن ثَمَّة إنسان مُقيَّد في قبو مظلم، تُقطَّع أعضاؤه الواحد تلو الآخر، ولم يحرِك أحدٌ ساكنًا. ولأن كل الأمور نسبية، فإن مبرِّرات مثل انتزاع المعلومات أو حفظ الأمن أو فرض النظام أو تأديب المجرمين، ليست مبرِّرات سامية مُنَزَّلة من السماء أو استثنائية، ولا تعتبر خيرًا من ممارسة التعذيب لأي سبب آخر، ما دام فيه المتعة والفائدة.

ثم إن كل إنسان يستمتع بالألم، ويحب إيذاء أخيه. وقد رأى عاصم بنفسه، في نفس هذه الغرفة الضيِّقة، شخصين في موقفين متماثلين، كل منهما تم اختطافه عنوة، تجمعهما نظريًّا مصلحة واحدة، يقوم أحدهما بتعذيب الآخر وتشويه خلقته، ليس لمبرر الالتزام الإجباري أو القناعة الشخصية، بل بضغطٍ يسير قد لا يتجاوز الإقناع الشفهي المباشر أو التهديد البسيط. إن السادية جزءٌ لا يتجزَّأ من نفسية الإنسان، وما يحتاج إليه هو الحافز، كي يستقل ويتضخَّم.

يعتقد عاصم أنه بمشاركته في هذه الأنشطة قد جمع بين الإرادة والفرصة، وكفى به التزامًا ما يفرضه عليه المجتمع من تصرفات مُفتعلة ووحدة كئيبة. حسنًا، من لم يختر أن ينهج نهجه فهو حر. لكنَّه أيضًا حر. لقد تصرَّف، وتحمَّل المسؤولية، ويستطيع الآن أن يقوم ويسعى على سطح الأرض بحرية وطمأنينة.

أنفق عاصم زهاء الثلاثة ملايين جنيه على هوايته الجديدة لتجهيز مكان ملائم منعزل عن العالم الخارجي، وبمعاونة تَيْسِير ومُسْمَار استقدم ما استطاع من أدوات، وما يتعذَّر الحصول عليه يقوم بتجميع تصميماته، وأحيانًا يُصمِّم ماكينة كاملة، ويسلِّم رسوماتها الميكانيكية لمُسْمَار، الذي يشرف على تنفيذها في ورشة حدادة يملكها. ويُشاع في المصنع أيضًا مقولة مخيفة مفادها أن تَيْسِير ومُسْمَار يجلبان المشرَّدين وصبيان وبنات الشوارع، وأن ثمَّة أنشطة فظيعة تجري في طابق سفلي وسرى أسفل أحد العنابر. يُتناقل هذا الكلام سرًا في المصنع، ولا يجرؤ مخلوق على تأكيده أو نفيه، ولا الجهر به.

***

شيئًا ما كان مختلفًا لمَّا دخلوا عليه هذه المرَّة. مُسْمَار وتَيْسِير ارتسمت على وجهيهما أمارات الغضب والغيظ، أما عاصم فكان ناقمًا تعيسًا.

ثم أقبل العُمَّال الثلاثة على حسين، فرفعوه عن مرقده بخشونة وطرحوه على الكرسي الخشبي. بسطوا كفيه على ذراعي المقعد وكبَّلوهما بشريطٍ لاصق سميك. ذرع عاصم الغرفة جيئةً وذهابًا، وانقبض وجهه بالسخط وضيق الصبر، وكاد رأسه يغلي من شدة التفكير. انتظر حسين أن يحدثه أحد منهم، ثم تساءل بتربُّص وخوف باطني قاتل:

- في إيه؟

لم يجبه أحد، فسأل بقلق والخوف ينهش أمعاءه:

- لقيتم البضاعة؟

لم يجبه أحد، فجعل حسين ينظر للأرض حائرًا، واحتمالات شتَّى توخز خاطره، ثم اهتزَّ من داخله اهتزازًا، وفقد أعصابه، وصرخ:

- حد منكم يرد عليَّ.

التفت إليه عاصم بوجه محتقن، وقال كأنه يبصق:

- لأ.

- لأ إيه؟!

- لأ، ما لقيناش البضاعة.

بهذا أجاب عاصم بصوتٍ مكبوت. جحظت عينا حسين، وحملق في محدثه بذهول. ثم ردَّد بصعوبة، وهو ينتزع الكلمات عن حلقه انتزاعًا: "لأ؟ لأ؟!" تساءل عاصم بعصبية شديدة:

- حد يعرف مكان البضاعة، غيرك، والعدوي؟

همَّ حسين بالنفي كرد فعل تلقائي، ثم برزت في ذهنه فكرة مرعبة، تحوَّلت فورًا إلى يقين. جمد من المفاجأة، وهمس فزعًا:

- عايش...

سأله عاصم محتدًا:

- مين؟ بتقول مين؟

كرَّر حسين مفزوعًا:

- عايش.. عايش.

وجعل يدير عينيه فيما حوله وقد بدا له الموقف آية في العبثية والجنون. ولقد احتقن وجهه المُثخن بالجراح، ثم افترثغره عن بسمة مكبوتة، أتبعها بضحكة مُجلجلة تفجَّرت من حلقه كقنبلة. نظروا إليه جميعًا بإنكار، ودون اكتراث استمر يضحك بقوَّة، وكأن الضحكات تُستخرج قسرًا من صميم روحه. ضَحِكٌ مهووس أشبه بالنحيب منه بالضحك. وأخيرًا صمت واللهاث يكاد يمزِّق صدره، ثم قال بمرارة:

- عملها النذل.. عايش الحمداني!

نظر إليه عاصم دون فهم، ثم تقدَّم منه فجأة بخطى واسعة، ولطمه على وجهه لطمة كادت تطير عينيه، تردَّد لها في فراغ الغرفة دَوِيٌّ. ثم أخذه من شعره بقسوة، وجذب وجهه للخلف، وقال بشراسة:

- فين البضاعة يا حسين؟

صاح حسين بألم، وضحك مع هذا ضحكات متقطِّعة هازئة ومجنونة، وصرخ شامتًا:

- عايش الحمداني.. شيخ الراشديين.. البدو، اللي كانوا في الاجتماع.

سأله عاصم بعينين محمرّتين، وهو يكاد ينزع فروة رأسه من قسوة الشد:

- البدو يعرفوا مكان الشحنة؟

ضحك حسين متوجِّعًا، وقال بعينين زائغتين:

- همَّ اللي خزنوا معايا البضاعة.

قال عاصم كالمحموم:

- تعرف محاولة فتح الخزينة أخذت مننا وقت قد إيه؟ ست ساعات. الخزينة كانت سليمة يا حسين، وما عليهاش أي أثر للعنف.

قال حسين بمرارة، والدمع يغطي وجهه ويمتزج بالدم والمخاط:

- مؤكّد عرفوا الأرقام.. دول ولاد جنيَّة.. مش حيعصى عليهم معرفة الأرقام.

أزاح عاصم رأس حسين بعنفٍ وغضبٍ هائل، ثم شرع يذرع المكعَّب، وهو يحادث نفسه هاذيًا:

- مستحيل.. الخزينة كانت مقفولة. مؤكّد ما حدش فتحها قبلنا. التراب، والعنكبوت عشّش فيها.. مستحيل!

ضحك حسين شامتًا، وقال وقد غادره كل منطق وإدراك:

- أنتم ضعتم يا عاصم.. خلاص، أنتم كده، انتهيتم.

كان عاصم يتحرّك دون روية، والآخرون ينظرون إليه بحذر، بينما حسين يواصل ضحكاته قائلًا:

- خلاص كده، الشحنة كلها طارت. اعتبرها غرقت في البحر. كلنا كده، بحمد الله، أموات.

وهأهأ بصوتٍ مدوي، فانقض عليه عاصم فجأة، ولطسه جانب أذنه بقوّة، وصرخ بنبرة رفيعة مزعجة: "اخرس. هبط على الغرفة سكونٌ مفاجئ، سوى أنين منتظم من حسين وهو يمسك أذنه بألم شديد.

أشعل عاصم سيجارة، وطأطأ مقلّبًا الأمر على جوانبه، متمكنًا في كل تفصيلة منه، ومستدلًا بعقله على دلائله. وعلى هذا أتى على السيجارة، ثم عاوده الاستقرار والهدوء

(في الظاهر)، وواجه حسين متحدثًا بهيئة الرجل العقلاني:

- أنت كذّاب يا حسين. البضاعة عمرها ما كانت في الخزينة. أنا عارف أنا بأقول إيه.

اندهش حسين من هذا الادعاء الصفيق الذي قيل كأنه حقيقة دامغة، دون أن يُستدعى له دليلًا، وبدت له حالة إنكار واضحة. لا شك أنها حالة إنكار، لأن عاصم لو سلَّم بحقيقة استيلاء عايش الحمداني على الشحنة، فليس لهذا مرادف إلا الهلاك. ما من سبيل يُمَكِّنهم مُجتمعين من استعادة الشحنة من البدو، إلا لو أعلنوا الحرب، وهجموا على معاقلهم الحصينة في الجبال. بحق الله، إنهم يملكون مدافع مضادة للدبابات! ولو أنهم فعلًا استولوا على الشحنة، فإنهم غالبًا قد بدأوا في توزيعها لحسابهم. وتلك طامة كبرى، وقارعة مدمرة. وترجم حسين أفكاره هذه بصخب، وهو يقول مستمرًّا في الضحك:

- انكرزي ما تحب.. هو ما أخدهاش.. أصله لو.. آه.. خذ رجالك واهجموا على الجبل.. لازم طبعًا يكون في دعم جوي، وقصف بالمدفعية الثقيلة.. اسمح لي أحسبها من فضلك! أنتم محتاجين.. إحم! خمسميت رجل مسلح، بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية.. و.. و.. خمس عربيات مدرَّعة، ودعم بالأقمار الصناعية.. و.. نشوف حرس الحدود، لو يتعاونوا معنا.. ولو ندبَّر طائرتين هليكوبتر بالصواريخ.. لازم طبعًا!

ثم اتَّخذ سمت الرجل الجدي على حين غرة، وقال:

- المؤكد طبعًا أني أكذب.. أصل لو عايش أخدها، يبقى خلاص.

أنهى عبارته ثم أخذته نوبة مستمرة من الهأهأة، وهو يتأوَّه ويهز رأسه. نظر إليه عاصم بصمت، والإنكار في رأسه يتبوأ مُستقرًا عاليًا تعلَّق بأسبابه كأنه أمر بديهي. نعم، هو ذاك، الشاب يكذب! بتلقائية وأريحية لا مثيل لهما في التلفيق وخداع النفس، صبر حتى أنهى سجينه ضحكاته، ثم قال بثبات:

- أنت كذَّاب يا حسين.. وحتقول لنا فين البضاعة دلوقت.

ابتسم حسين هازئًا ومنتعشًا، وقال وقد استعاد شيئًا من تورُّده وصحته، كأنها صحوة ما قبل الموت:

- طبعًا، طبعًا.. كذَّاب.. عايش؟ عايش إيه يا رجل؟!

تراجع عاصم خطوتين بنفس راضية، وأحَسَّ أنه أدَّى ما عليه من حُسن الظن وطول الصبر بالشاب، ولقد أنذره فلم يرتدع. أشار لمُسْمَار، الذي أخرج كمَّاشة من الصلب، وتقدَّم نحو حسين.. هنا.. هنا فقط، غادر التبسط حسين، وامتقع وجهه مرة أخرى، والتزم الصمت التام. بلغه مُسْمَار، وانحنى عليه وهو يقول آسفًا:

- اعذرني يا باشا!

قال حسين بفزع، وقد ترقرقت عيناه بالدمع، وتغيَّر وجهه للنقيض:

- والله العظيم، أنا قلت الحقيقة.. عايش الـ. الـ..

ونظر مرتاعًا إلى الأداة الحديدة، ثم مترجِّيًا إلى عاصم، الذي، ولأول مرة، فقد وجهه السحنة المؤدبة، والنظرات الخجلى المعتذرة، التي يقربها كم هو آسف لما يحدث، وأنه ما كان ليحدث لولا أن أجبرته الظروف. حلَّ على وجهه تعبيرٌ آخر لم يره حسين عليه من قبل.

أمسك مُسْمَار كفَّ ضحيَّته بشدة، وقبض بفكيِّ الكمَّاشة على طرف ظفر إصبعه الأوسط. أفلتت من عينيّ حسين الدموع، وصار يتنفَّس بعمق. وبدأ مُسْمَار يشد. لم تكن العملية يسيرة أو سلسلة، بل صراع بين شدٍ وجذب، وأنينٍ ولهاث وجزٍ وزم، حتى بدأ الظفر ينفصل، ثم خرج فجأة وبعنف من اللحم. صرخ حسين صرخةً مفجعةً شقت فراغ الغرفة، ثم فقد السيطرة على نفسه، وبال لا إراديًا. أما مُسْمَار فنزع الظفر الدامي عن الكمَّاشة، وأقبل على السبابة، وقبض بالفكَّين على طرف الظفر.

ولساعتين متصلتين نزع أظافر اليدين العشرة، ومع امتلاخ كل ظفر عن لحمه يصرخ حسين صرخة مروِّعة، تأخذ الطابع النسوي الرفيع. وكان أبشع الألم في الإبهامين، حيث ذرف حسين الدمع بينهما هتونًا، وبكى مستعطفًا، وحلف بأغلظ الأيمان أنه قال الحقيقة. فقد الوعي ثلاث مرات، وفي الثالثة همد جسمه تمامًا، وتراخت أصابعه الدامية الممزَّقة الأطراف، وخابت مساعيهم لإفاقته بالماء المثلَّج والنشادر والخل.

وأمام جسده المصاب المقيَّد على مقعد، وقف مُسْمَار وقد أخذ منه الجهد كل مأخذ، وتصبَّب منه العرق غزيرًا نفَّاذًا. ثم تجمَّع الثلاثة، هو وعاصم وتَيْسِير، كالثلاثة صراصير تتلاقى وتتلامس قرون استشعارها، وتفاوضوا لدقائق حتى استقروا على رأي، وانصرفوا

بصمتٍ آسفين كأنهم يشيِّعون جنازة. وفي الظلمة جلس الشاب عاريًا متراخيًا، مُطأطأً برأسه، لا يكاد يرتفع صدره وينخفض من ضعف أنفاسه.

* * *

استرخت سَمَا على فراشها بمسكنها بالمعادي بقدمين حافيتين، وقد ارتدت بلوزةً قطنيةً ناعمةً زاهية الألوان، وسروالًا واسعًا مُريحًا من الكِتَّان الوردي، وانشغلت دقائق بهاتفها المحمول. اتَّصلت برقمٍ ما منه، ثم تنهَّدت بخيبة أمل عندما سمعت صفير المُجيب الآلي، وقالت مع هذا، بنبرةٍ متردِّدة: "أيوه يا حسين، سَمَا معاك، دي رابع مرة أحاول أكلِّمك فيها. يا رب تكون بخير، أنا بس عايزة أطمئن عليك. من فضلك تكلِّمني، لو تحب.. باي." أنهت رسالتها الصوتية، وألقت بهاتفها جانبها وهي تزفر بإحباط، ثم صبَّت لنفسها بعض العصير، وجلست ترشف منه بأناة وهي تدخِّن سيجارة، وتطالع واحدة من العديد المجلات الفرنسية الملقاة على الفراش وعلى الأرض.

منذ مات زوجها، جلال السايس، اتَّخذت حياتها طابعًا هادئًا كسولًا. تستيقظ يوميًّا في العصر، وتؤدي تدريباتها المستجدَّة في الجيمنازيوم القريب، ثم تعود للبيت وتتناول غذاءها، وقد تنزل في المساء لأي مكان. تراوحت مشاعرها تجاه حسين بين الامتنان الصادق والإعراض العدواني. في الأيام الأولى، وبعد إفاقتها من دوَّامة التحقيقات والتحرِّيات والمستشفى، نفرت منه واعتبرته خطرًا إجراميًّا داهمًا. سألت نفسها مرارًا عن كيفيَّة تحوُّله من إنسانٍ خجولٍ إلى قنبلةٍ موقوتة؟ لكنها عادت ففكَّرت: أليس هذا دَيْدَن النفس البشرية؟ ألا تُجَنّ الخليَّة الحيَّة السويَّة، وتتحوَّل إلى جرثومةٍ سامةٍ، تستشري وتتضاعف وتقضي على الخلايا السليمة في أعراض مرض السرطان؟! ألا تتحوَّل الزوجة المسالمة، في لحظة واحدة، إلى ذبَّاحة دموية بسبب عوامل كبتٍ أو إحباطٍ أو غيظ؟ السؤال ليس إذًا في «كيف»، بل في «هل»! هل يُعتبر موت جلال قصاصًا عادلًا، أم جريمة قتل غادرة؟

الحقيقة أن الجريمة -على بشاعتها- شفت غليلها وقرَّت عينها، وأصابتها برزقٍ كثير من جراء انتقال ثروة زوجها إليها كتَرِكَةٍ خالصة. نعم لم تضع يديها عليها حتى الآن لاقترانها بجريمة قتل، لكن محاميها طمأنها أنها مسألة وقت. كانت فرحتها مزدوجة.

فرحة الخلاص من هذا المجرم، وفرحة الميراث الكبير. لكن وسط هذه الفرحة الصافية وَخَزَها خاطرٌ أليم، وهو كونها شريكة في الجريمة. ربما لم تقتل بيديها، ولم تحرّض كذلك، لكنه الشعور الدفين بالذنب والندم.

حاولت إقناع نفسها بأن قتل جلال السايس كان بترًا لعضوٍ في المجتمع يعاني مرضًا عُضالًا خبيثًا ومعديًا، وأنه عقوبةٌ استئصاليةٌ لا انفعالية، وعقابًا عادلًا لا انتقامًا جنونيًا. بَيْدَ أن قبولها هذه الجريمة يعزّز مفهوم العنف والدم الذي تحاول التنصُّل منه ولو بالكذب، وإلا فإنها تقبل القتل كعلاج لمشاكلها! لكن جلال السايس في إجرامه فاق القتل. وإنها أعلم الناس بتأثيره الفاحش على حياة عشرات الفتيات البريئات اللائي ألقاهن حظُّهن العاثر في طريقه. إن إجرام جلال السايس أشدُّ وطأةً وأمضى أثرًا من القتل. لقد رأته ينتشل الفتيات الفقيرات والمنبوذات والمشرَّدات والهاربات والجائعات والخادمات والبائعات الجائلات، وغيرهن ممن ينتمين إلى الطبقات المُهمَّشة والغوغائية المطحونة، فيدفعهن دفعًا للرذيلة والاستعباد الجنسي بالترغيب والترهيب والإغراء والعنف، وكان الموت لهنَّ أكرم وأرحم مما أجبرهن هذا الحيوان البذيء على اقترافه!

أما على الجانب الشخصي، فعلى مدى سنوات، استطاع جلال قتلها قتلًا معنويًّا بطيئًا، وقضى فيها على خفَّة روحها ورقة أخلاقها وتناغمها مع إيقاعات الطبيعة وأمزجة الناس! رأى فيها جلال غلافًا شهوانيًا مبتذلًا لا حياة فيه ولا مشاعر، مُعرَّضًا لكل ما يتراَى له من وسائل الاستنزاف والهيمنة، فغرسها في مستنقعٍ حمضي لا مهرب منه، وامتص منها عصارة الحياة. لم تر معه يومًا واحدًا سويًّا، بل كانت تستعين في معاشرتها له بالمخدِّرات، كي تتغلَّب على الذي قد قَذَرَته وكَرِهَتهُ فيه لِوَسَخِهِ. وكم كان قذرًا كريهًا. مدَّ شراكه الخداعية حتى أسقطها في عصمته، وتحت كرشه! وانزلقت هي بلا مقاومة، بل جذبتها الفاقة وضيق الحال إلى أحط الحضيض، وفي شقته بالمعادي (التي أصبحت شقتها فيما بعد)، أقفل عليها الغطاء، ومدَّ زوائده وأطرافه اللزجة الكريهة فعَلِقَت بها، حتى «انزنأت» في شبكةٍ لا فكاك منها، فأفرز إنزيماته الهاضمة التي أذابت عزيمتها وطموحها وشخصيتها وجسدها، وأفنتها في عُكَن بطنه.

ثم جاء حسين.. وحرَّرها.. لكن بأي ثمن؟ لقد قتل إنسانًا بدون وجه حق. لكن هل جلال فعلًا إنسان؟! إنها تعتبر أن الإنسان -من المُنطَلَقِ الفلسفي الذي تؤمن به- تجسيد

إلاهيٌّ سامٍ، وُجِد ليطلب معالي الأمور! أما جلال، فلعله حلقة الوصل بين «التجسيد الإلهي على الأرض» والقرود! إنه مخلوقٌ حيوانيٌّ مفترس على هيئة بني آدم، بلا روح ولا ضمير، لم يطلب إلا الدناسات والدناءات، ولم يعش حياته إلا لأجل نزواته وشهواته. ربما يكون الحكم عليه بهذه الطريقة لاأخلاقيًّا متعاليًا، لكن أليست هذه هي الحقيقة، مهما كرهناها أو تنصّلنا منها؟ الحقيقة أنها وصلت لهذه النتيجة بعد تفكيرٍ عميق، وسجائر كثيرة، وكَميَّة مُكَلِّفة من المخدِّرات، بها لخَّصت المعضلة في تضادٍ بسيط بين الخير (هي)، والشر (هو).. وبينهما حسين (قاتلٌ بالصدفة)!

هكذا حاولت بكل قوتها رفعَ وطأة الشعور بالذنب عن نفسها، وتفنيد شبهة الاشتراك في الجريمة، أو حتى قبولها من الناحية الأخلاقية. ثم تفرَّغت لالتماس العذر لحسين فيما اقترفت يداه، مُلبيةً في ذلك نزعتها الشديدة في رؤيته مُجدَّدًا، وقريحتها الفطرية في اشتهائه! قرأت كثيرًا على الإنترنت عن التفسير النفسي لجرائم مشابهة، وتوصَّلت تحت سطوة غريزتها المُلحَّة إلى نتيجةٍ أخرى لا تقل إبداعًا ولا وصولية عن سابقتها: لا يرجع سرُّ ارتكاب حسين لجريمته إلى شرٍ إجرامي مُركَّب في نفسه، بل إلى انفجار انفعالي وقرصنة عصبية مفاجئة، سيطرت على مخِّه وأطلقت استجابةً جامحةً في لحظةٍ حرجةٍ قبل أن يستوعب ما حدث أو يحكم على مدى ملائمته. وجزمت أنه، وبعد انقضاء الحدث الوحشي، أدرك كارثية عواقبه وارتاع له كأي نفسٍ بشرية سويَّة تشمئز من سفك الدم. لهذا، وبعد أيامٍ قلائل من دفن جلال، تخلَّصت بكفاءة من نفورها من حسين، فلم يتبق لها إلا الامتنان الصادق، ودأبت على الاتصال به بلا تحفُّظ بحجة الاطمئنان عليه، وآلمها وأحبطها إعراضه عن الرد، ولم يثنها عن الاستمرار في المحاولة مع هذا.

علاوة على هذا، تضافرت أحاسيسها المعقَّدة وغيَّرت منها جذريًّا، فعزمت بصدقٍ وإخلاص على التحوّل عن كل ما شانها في الماضي، وبدء حياة نظيفة لا تشوبها شائبة. كفَّت عن الاختلاف إلى المحال الصاخبة والملاهي المشبوهة، وانقطعت عن معاقرة الكحوليات وتدخين المخدِّرات، وصارت تقضي أمسياتها وحيدة تتصفَّح الإنترنت أو تقرأ، في أماكن هادئة ومحترمة، وهجرت كل معارفها ممن يثيرون الشبهات أو يحضُّون على المنكر، وحاولت قدر الإمكان التزام جانب الحشمة والفضيلة. ولم يكن التغيير سهلًا، بل جاء بعد فترة ارتباك وتوهان تام. من جهة أحسَّت بحتمية هجران طابع حياتها

المتهتِّك الهدَّام، ومن جهة أخرى شعرت بغربة مظلمة وخوف عميق من ترك الملذَّات التي اعتادت عليها، والتي كانت بطبيعة الحال بعيدةً كل البعد عن الوَقَارِ والتَعَفُّفِ والفطرة السويَّة. وحتى بعد أن انقطعت عن كل ما يشينها، أحَسَّت بوحشةٍ شديدةٍ وخلوةٍ دامسة، ثم بفراغٍ تام. لم تعد تنتمي لعالمها الأصلي المليء بالخطايا اللذيذة والكبائر، ولم تستطع الانسجام مع عالم الفضيلة والرتابة والملل! رأت أيامًا سودًا عانت فيها من الضياع، وعانت أيضًا أعراضًا انسحابية راودتها بضراوة على العودة للمخازي التي كانت تعافسها ليل نهار، لكنَّها قاومتها بقوَّةٍ وتفانٍ، وحاولت الالتحاق بحياة مُثمرة وأكثر إنجازًا، ركَّزت فيها على عملها الفني، وبدأت على استحياء في كتابة مدوَّنات بسيطة، وانهمكت كذلك في القراءة وبعض الرياضات الخفيفة.

لم تعد تغادر المعادي إلا فيما ندر، لقضاء حاجاتٍ ومشاوير محدَّدة. تتسلَّى أحيانًا بطبخ أصنافٍ عدة تتعلَّمها من المجلات النسائية والفضائيات، وتحاول تطبيق الوصفة المرَّة تلو الأخرى حتى تتقنها، أو تدفعها لهِبَة الخادمة، التي تتمنَّى لو تعطف عليها السيِّدة بعشرة جنيهات بدلًا من هذا العَكّ. الحقيقة أن هِبَة بنت مطيعة ومؤدَّبة، تحب سيِّدتها حبًا خالصًا لا تكنُّه لأمها، ولا يشينها سوى السفاسف التي تنهبها، والمغالطات الهيِّنة في حساب المشتريات، لكن يدها لا تمتد قط لشيءٍ ذي قيمة. تحبُّها سَمَا، وتبتاع لها بين الحين والآخر هديَّةً أو ثوبًا، وزادت مشاعرها تجاهها وتجاه كل شيء رهافةً بعد مقتل زوجها، إذ سيطرت عليها حالة من الحلم والسمو. الأمر الوحيد الذي تعالج سَمَا فيه البنت أشد المعالجة هو النظافة. تبيت هِبَة مَرَّة كل أسبوعين عند أبيها الخفير في المقطَّم، وتعود بوجهٍ غير الوجه. القذارة تلوِّنها، والانحراف يشوب مزاجها ولسانها، والكدمات تزيِّن وجنتها وجبهتها وبطنها. فتجتهد سَمَا على مدار الأسبوع في إزالة الأوشاب التي علقت بالطفلة.

تقضي سَمَا أغلب وقتها ساهرة تقرأ، أحيانًا بتركيزٍ وتمعُّن، وأحايين أخرى لمجرَّد تمضية الوقت، دون الخروج بحصيلة فكرية أو وجهة نظر، وتخصُّ اهتمامها بالكتب والمجلات ذات الطبيعة الأدبية أو النسائية، وقد يغالبها النوم أثناء القراءة، فتقضي نصف ليلتها جالسة، حتى تقلق لسببٍ ما، فتتَّجه آليًا للحمام لتقضي حاجتها وتغسل أسنانها، وتأوي إلى فراشها لتنام عشر ساعات متصلة.

سمعت سَمَا رنين جرس الباب، فنهضت لتفتح، وتبسَّمت بإشراق إذ لاحت لها شابةٌ مُحَجَّبَة نحيلة الجسم، بهيَّة الخلقة، شديدة الشبه بها، تحمل طفلةً سمراء جميلة، وخلفها رجلٌ طويلٌ صُلْب العُود، أسمر الوجه، جميل الخلقة، له لحية مُرسلة. ضحكت الشابة في وجه سَمَا وتَنَضَّر وجهها سُرورًا، فتبادلتا القبلات والعناق المحكم. ثم جذبت سَمَا الصغيرة من بين ذراعي أمها، وضمَّتها بشوق، حتى صرخت وتملَّصت مفلتة، وجرت للداخل. كانت ذات شعرٍ أسودٍ ناعمٍ ملفوف، اجتمع إلى ذؤابة مضفورة قصيرة، ووجهٍ بريءٍ نضر، وعينين سوداوتين واسعتين، وجسم خفيف. خطواتها قصيرة متأرجِّحة، وشفتاها لا تنقطعان عن الجَعْجَعَة.

وبادرت سَمَا الشابة المحجَّبة قائلة بعتاب:

- كده يا ريمي، الوقت ده كله، من غير سؤال أو اتصال؟

بدَّلت الشابة النظر بينها والرجل الواقف خلفها، بوجه غزت الحمرة بياضه الناصع، ولم تجد ما تقوله. فهتفت فجأة وهي تتقدَّم للداخل:

- حاسبي يا بنت، ما تدخليش التِراس!

وخف صوتها دلالة على الابتعاد، وهي تنادي:

- رَنَا، أنت يا بنت.

أما الرجل، فحيَّته سَمَا قائلة بتريُّث:

- إزيَّك يا عبد الحليم؟

حمد الله بتحفُّظ، وأطبق شفتيه كما يفعل دائمًا. كان مستاءً من تواجده معها وهي متخفِفةٌ في الملبس. وعلمت سَمَا من صمته عدم رضاه عن تواجده في هذا المكان، فأحَسَّت بشيء من الحرج.

لم تقطع رتابة حياتها سوى زيارات أختها ريهام وأسرتها، وتلك تكون، بلا شك، أسعد أوقاتها. وتُختتم الزيارات دائمًا بدعوة ملحَّة للأخت بالمبيت، ورفض متحرّج ليس لعدم رغبة، بل لأن عبد الحليم ضجَّ من ملل الانتظار أسفل البناية، إذ نادرًا ما يقبل الصعود، اللهم إلا تحت إلحاحٍ شديد من زوجته كما حدث الليلة. وعلى قدر حبِّ سَمَا

لأختها، كان رفضها لزوجها، الذي تسميه الشيخ عبد الحليم، وتنعته بالبُهْلُول: "السيد الجامع لصفات الخير، المرح الضحَّاك!" ورأت سَمَا حتى وقتٍ قريب أن المصائب لا تأتي إلا من أصحاب اللِّحى، وأن هذا الرجل يمثِّل كل ما تكرهه في الرجال؛ الغرور والنذالة وثقل الظل والتهافت على الدنيا. لكنَّها الآن تنظر إليه بتقديرٍ عميق، وتجزم أنه الإنسان المحترم الوحيد في حياتها. ولا يمكنها أن تنكر تأثيره الطيِّب على أختها وعليها، خاصة مع ميله الغريزي للإصلاح، ورعايته لمصالحها ومصالح أختها بجهدٍ وإخلاص. ولكم سعدت بالتغيُّر الجديد الطارئ على حياتها، وشعرت أنها تحرَّرت من هذا الكيان الثقيل الذي طالما أكب على أنفاسها، واجترح معها ما تعافه النفس السويَّة.

أقبلت ريهام وقد استعادت البنت وحملتها بين ذراعيها، ولم تَكُف الصغيرة عن الصرير بفمها، أو محاولة التملُّص من بين ذراعيِّ أمها. ثم سألت سَمَا أختها عن أحوالهم، فحمدت الشابة ربَّها وهما يتجهان إلى المطبخ، بينما تفر منها البنت مجدَّدًا. وعند عتب باب المطبخ رفعت صوتها للبنت هاتفة بوعيد:

- رنا، ما تدخليش التِراس، ولا تلعبي في التلفزيون.

أتاها صوت رَنَا من بعيد صارخة بأن "حاضر."

ودخلا سويًّا المطبخ وسَمَا تُطَمْئِن أختها أن الشرفة مغلقة بإحكام، أما عبد الحليم فقصد غرفة المعيشة، وجلس يراقب ابنته. انتهت الأختان من رص حاجيات الصغيرة في الثلاجة، وقالت ريهام بشيءٍ من حذر وإحراج:

- المرة دي، حنسيب معاكي رنا مدة ثلاث أيام.. (ثم استطردت بسرعة) بس لو مش فاضية مش مـ..

- أنا فاضية على الآخر (قالتها ضاحكة، ثم سألت بفضول): أنتم مسافرين؟

أومأت أختها إيجابًا، وقالت:

- إسكندرية.

تعلم سَمَا أن أهل زوج أختها يقيمون بالإسكندرية، ولم ترد أن تحشر أنفها كي تعرف سبب الزيارة الطويلة، ولماذا يتركون معها ابنتهما، فلم تسأل عن شيء. ولشد ما أزعجها هتاف أختها إذ هي تنادي زوجها:

- ياللا يا عبده، الوقت تأخر.

اتجهوا جميعًا إلى باب الشقة، وسَمَا تقول برجاء:

- أنا مش فاهمة، ليه السفر بالليل. ما تبيِّتوا عندي النهارده.

اعتذرت لها ريهام بأن زوجها لا يطيق السفر إلا ليلًا. وعلَّقت سَمَا بكآبةٍ وأسى:

- بالذمة ده كلام؟!

نادوا الصغيرة، فأقبلت عدوًا وهي تصرخ:

- إيه منك ليها؟! في إيه؟

احتضنها الأب، ثم ضمتها الأم طويلًا وقبَّلتها بتوق، وأوصتها بحسن التصرف وسماع كلام خالتها، وحذَّرتها من أي شكاية. وعلى عتب الباب، قالت سَمَا بشيءٍ من الحزن:

- يا عبده، من فضلك، وغلاوة النبي عندك، على قدر الإمكان، حاولوا تزوروني وتسمح لي أزوركم. أنا هنا وحدي زيّ ما أنت شايف. وإن كان في شيء كنت تعترض عليه زمان، ما عادش يحصل دلوقت.

- حاضر.

قالها عبد الحليم دون أن يصوِّب بصره، بلهجة اشتمت فيها الود، فأثلجت صدرًا. ثم احتضنتها ريهام وقالت باسمة:

- خدي بالك من نفسك، ومش حاوصيك على رَنَا، لأنك أحن عليها منّي.

انتظرت سَمَا لدى الباب حتى هبط المصعد بأختها وزوجها، ثم دخلت ونادت البنت، فأقبلت عليها جريًا وقفزت إليها، فتلقَّفتها، ورفعتها لتتَّخذ نصيبها من القبلات اللذيذة، وقالت:

- إزيّ الحال يا جميل؟ تأكلي آيس كريم؟

هزَّت الصغيرة رأسها إيجابًا بقوَّة، فأخذتها إلى المطبخ، واستخرجت من الثلاجة علبتي آيس كريم، وخيَّرت الصغيرة بإغراء: "فانيليا، وكراميل، أو شيكولاته؟" اختارت مزيجًا من اثنين، فأخرجت سَمَا صحنًا بللوريًا صغيرًا، وأعدَّت لها طبقًا شهيًّا غطته بمعجون الشيكولاتة وخليط من المكسَّرات، وقدَّمته لها قائلة بابتسامة معسولة ولهجة آمرة:

-ياللا يا جميل، كُل!

أكلت البنت بنهم، بينما قصدت خالتها المَوْقِد حيث أعدَّت بعض القهوة والحليب. نظرت إليها البنت بتمعُّن، وسألتها مهتمة:

- بتشربي إيه يا سَمَا؟

- تعرفي لو قلتي سَمَا حاف مرة ثانية، حأرقعك قلم.. يِسُورِك.

- ما تقدريش! بتشربي إيه؟

- قهوة بحليب.

- عايزة قهوة بحليب.

- القهوة يشربها الناس الكبار.

- مش عايزة أسمع كلمة! أنا عايزة قهوة بحليب.

- خلَّصي يا بت، أنت مش فالحة إلا في الرغي.

قال رنا محتجة:

- أنا كده، إن كان عاجبك!

- خلَّصي أكلك علشان نستحمى وننام.

- قلت مش عايزة أسمع كلمة، ومش عايزة أستحمى.. ومش عايزة أنام!

هكذا قالتها رَنَا بإباءٍ وحزم، ثم عادت لمأكلها حتى زفرت بامتلاء، ووضعت الملعقة في الطبق، وقالت بأنفاس مبهورة: "خلاص، مش قادرة." نهضت سَمَا فورًا وهي تدعو لها بالهناء والشفاء، وأخذتها فحضَّرت الحَمَّام، وبينما تغسل جسمها الصغير، انشغلت هي بالطرطشة والدَنْدَنة وبصق الماء.

جففتها سَمَا جيدًا وألبستها ثوب النوم المعَطَّر، ووضعتها على فراشها الكبير. جلست رنا القرفصاء، ورأسها يدور كطبق الرادار، ثم استكانت ما أن اضطجعت خالتها جانبها. احتضنتها سَمَا بإحكام كما تفعل دومًا، وشيئًا فشيئًا استكانت الحركة الدؤوبة، وهدأت الأنفاس المتوتِّرة، ونامت. ثم تسلَّل النعاس إلى سَمَا، وهي تشعر أنها أنعم الأولين والآخرين.

ثم فتحت عينيها على صوت جلبة خافتة قادمة من الصالون.

ولما أرهفت السمع ولم يكن شيء، خُيِّل إليها أن ما سمعته مَحْض تهيُّئات. ثم سمعت الصوت مرةً أخرى. خفق قلبها، ونزلت عن الفراش. ولما توجَّهت للباب، بدأت الأحداث التعيسة التي لن تنساها، ولن ينساها كل من سيكون طرفًا فيها أو شاهدًا عليها.

انفتح الباب في وجهها بعنف، فصدم أنفها وكسره، وألقاها أرضًا. ثم دخل رجالٌ ثلاثة، انقضوا عليها، فقاومتهم وصرخت صرخات منكتمة، وُئدت لمَّا وضع أحدهم كفًا غليظة على فمها. أدارت عينيها بين الأذرع والأرجل المتشابكة صوب الفراش، وزُلزلت من داخلها زلزالًا لمَّا سمعت صرخة رَنَا، ورأتها بطرف عينها تقفز من الفراش وتجري للخارج. وكانت الطامة الكبرى عندما رأت أحد الرجال يطارد الصغيرة. تدفَّقت في عروقها طاقة رعب رهيبة، وانتابتها حالة ضارية وجنونية من الفزع والمقاومة. ولما سمعت صياح الطفلة المرعوب وهي تناديها باسمها مجُرَدًا كعادتها "سَمَا، سَمَا"، اخترقت قلبها حربةٌ من نار، وصرخت بهستيريا اقتلعت صوابها. ولم ينتج عن مقاومتها أثر، إذ حشر الرجلان الآخران في فمها قماشة، ولفَّ أحدهما حول فمها وعينيها شريطًا لاصقًا عريضًا، ثم قيَّداها من يديها وساقيها بإحكام.

وفي تلك اللحظة اتَّخذ صراخ الصغيرة صفةً قاصفةً مريعةً، ثم انكتم. وحال سماعها الصرخة، أصيبت سَمَا بحالة ذهول شاملة شلَّتها، فاستغل الرجلان سكونها المفاجئ، ووَضَعَاها في جوال رمادي كبير. وبعد لحظة جاء الرجل الثالث. تبيَّن منه صاحباه على النور الخافت يده اليمنى القابضة على مقبض سكين مطبخ عريض، تلوَّث نصله بالدم، وكذلك أصابعه ووجهه وبعض ثوبه برتوشٍ عشوائية قانية أخرى. كان يلهث بصوتٍ مسموع، ودخلت عليه دُهْمة مريبة كالسابح في الغثاء والطين. وداخل الجوال تزلزل قلب سَمَا وجَحِمَت في روحها النار، إذ تسمع أحدهم يقول: "البت فين؟"

هنا، فهمت فجأة، فصرخت بعزم قوتها صرخة قبيحة كادت تتمزق منها لهاة حلقها، فأكبَّ عليها الثلاثة باللكم والركل دون رحمة وقد أخذهم سعارٌ وحشي. ثم كانت الركلة التي أصابت صدرها فحطَّمت ضلعًا، وأخرى في رأسها استأصلت إدراكها. فأحَسَّت بنبضةٍ كثيفةٍ مفاجئة تدهم مخها وتضغط عليه، ثم انتهى كل شيء.

وقف الثلاثة يلهثون، ثم انسحب صاحب السكين إلى المطبخ، وتبعه آخر من فوره، فيما بقي الثالث ليُحكم إغلاق الجوال بلفافة حبل كانت معه. تناهى إلى سمعه جدلٌ احتدم بين زميليه في المطبخ:

- إيه اللي عملته ده يا مجنون؟

- كنت عايزها تصرخ، وتلم علينا الخلق؟

- كنت اكتمها بأي طريقة.. حنتصرف إزاي دلوقت؟!

- إملا جردل بميَّة وصابون، وشوفلي مشمَّع! هِزّ طولك، قبل ما الدم ينشف وتبقي توربطة.

ثم إنه تجاهل باقي الحوار وتوجَّه إلى خزانة الملابس، ففتح أضلفها بعنف، وجعل ينكش باطنها حتى عثر في أماكن متفرقة على كمية كبيرة من النقود والحليّ. أقبل الرجل غير مصدِّق، وجعل يحشو ملابسه بما يستطيع، جاعلًا أذنيه مع رفيقيه في المطبخ. ثم لساعتين تصاعدت أصوات صلصلة وجلبة تنظيف، وخرير ماء متدفِّق يُملأ ويُسكب، ونشنشة أكياس وحك وإزالة. وعندما كانت الساعة الثالثة والنصف صباحًا، وقف الرجلان عند باب غرفة النوم، وقد تَهم وجهاهما وطغت عليهما حلكةٌ غريبة، وشدة وقحط، كأنهما خارجان من منجم فحم. زحف عليهما شحوب الموتى، وتغطيا برتوش الدم وبقعه في كل مكان، ولاحظ زميلهما أن يد أحدهما ترتعش، فيما يقول له الآخر بتماسك: "شيل الشوال، وقوم.

حمل كلٌ من الرجلين عدة أكياس سوداء منتفخة ومنبعجة، وبعد دقائق شحنوا حقيبة سيارتهم بأحمالهم من الأكياس والجوال. أشعلوا جميعًا السجائر، وفتحوا النوافذ على الرَّغمِ من برودة الطقس الشديدة، وقال أربطهم جأشًا لمن يقود بجانبه بلهجةٍ آمرة: "اطلع على عزبة أبو قرن." طوت بهم السيارة المسافات طيًا، وكانت وحدها على الأسفلت في هذا الصقيع. تزايدت سرعة السيارة حتى تعدَّت المائة وخمسين كيلو مترًا في الساعة، فقبض من بالخلف على كتف السائق، وقال بشدة: "هدِّي يا أسطى، هتودينا في داهية." لحظ الرجل تسرُّعه، فتدارك أمره حتى تباطأت السيارة إلى مائة وعشرين كيلو مترًا في الساعة.

وصلوا العزبة بعد عشرين دقيقة تقريبًا، وتوّقفوا عند مدخل زقاق، أقيمت على ناصيته بناية من طابقين، يتّضح من مظهرها العام أنها آيلة للسقوط. بقي السائق قابضًا على عجلة القيادة، بينما تعاون الآخران لنقل الأكياس لبئر السلم البناية. اجتازا بابًا خشبيًّا تآكلت أطرافه إلى منورٍ ضيّق، حيث رفعا غطاء غرفة التفتيش بمشقة، وألقيا فيها بالأكياس جميعًا. أهالا على الحفرة أكوامًا من التراب والركام والزلط والزبالة، ثم أحكما غلق غطاء غرفة التفتيش بالأسمنت، كي لا يتمكن أحد من فتحها لو قادته الظروف ولو بالصدفة لهذا المكان، وأيضًا كي لا تفوح رائحة التعفُّن. ولما خالطت بقية ظلمة الليل بياض الفجر، خرج الرجلان من البناية وعلى وجهيهما أثر الكدّ. استقرا على مقعديهما، وأشعلوا جميعًا السجائر وانقطعوا عن الحديث، بينما تقطع السيارة طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي تحت أضواء النهار الأولى.

***

في هذا الصباح الغائم لم يتم تطبيق الإجراءات المعتادة على تلك السيارة، التي دخلت فورًا لساحة المصنع الأمامية واتّجهت لأحد العنابر. وهناك غادر العُمَّال الثلاثة السيارة، وحملوا متعاونين جوالًا كبيرًا من الحقيبة، ثم تواروا في جانب العنبر. ولم يمضِ وقت طويل حتى تنقَّلوا بحملهم من ممرات مظلمة إلى فراغاتٍ أشد إظلامًا، وفي غرفة ضيّقة منتنة الرائحة ألقوا بالجوال أرضًا وحلُّوا الأربطة من حوله. وما أن فعلوا حتى صرخت المرأة داخله، وكانت قد استعادت وعيها في الطريق بين عزبة أبي قرن إلى المنطقة الصناعية. انهالوا عليها ضربًا وركلًا وسبًّا بقسوة غير عادية كأنهم يضربون كلبًا، حتى انكتمت ذاهلة من الألم، وتقبَّض جسمها بعنف. أجلسوها على مقعدٍ خشبي، وحلقوا شعرها بماكينة كهربية كليلة، حتى أتوا على رأسها ولم يبق فيه إلا زغبٌ خفيف. حاولوا نزع منامتها، فقاومتهم بالدفع والتملُّص المذعور، فما كان منهم إلا أن طرحوها أرضًا، وأوسعوها ضربًا وحشيًا، ومزَّقوا ملابسها حتى تعرَّت كيوم وُلدت.

وكما تهيمن شهوة الدم على الحيوان المفترس إذ يمرق في فريسته بأنيابه وأضراسه، تاق الثلاثة بشراسة إلى اللحم لما رؤوا ضحيتهم مسجاة أرضًا لا حول لها ولا قوَّة. كان الضغط العصبي عليهم شديدًا، مع استثارة محمومة وحالٍ من سعار. تكالبوا عليها دفعة واحدة، ففوجئت بأيادٍ تمتد إليها، ومحاولات إقحام مروِّعة وعشوائية، فصرخت

مستغيثةً ومتقهقرة، فحملوا عليها مجتمعين كالضباع تتنافس على كل قضمة. كانت في حالة صدمة مرعبة وانعدام تصديق، لكنها قاومت بثورةٍ مسعورة ودون أمل. تصاعد الصراخ واللهاث والهمهمة والزمجرة، إذ يتناوب عليها الثلاثة، مُقرنين اتصالهم الهمجي بعدوانٍ افتراسي غليظ شلّ مقاومتها، حتى أطفأوا شهواتهم وانفضوا من حولها. وقفوا يلهثون والعرق يغمرهم، وانشغل كل منهم في ضمّ سراويله وتعديل هندامه، بينما استلقت هي أرضًا تئن وتتنفَّس بصعوبة. إن ما يحدث لا يُصدَّق. إنه كابوس مريع. يستحيل تصوُّر أن ما يجري هو الحقيقة. انسحبت لنفسها كتيارٍ بحري ينشفط لعمق المحيط، فتكالبت وتراكمت، ثم اهتزَّت ببكاءٍ وعويل ممدود. وجَّه إليها أحد الرجال فوَّهة خرطوم مياه وفتح الصنبور، فانطلق الماء غزيرًا مثلجًا قاسيًا، مُسلَّطًا على بدنها كالسياط، حتى تخلَّل منها كل عضو، وجرف في طريقه الدم والقذر.

أقاموها على قدميها، واتَّسمت تحركاتهم بقدرٍ أقل من القسوة، فطوَّقوا رسغيها بأغلالٍ حديدية. اختلط صوت لهاثها المضطرب بخشخشة النعال إذ يجتازون ممرًا ضيقًا كانت الإضاءة فيه مقبضةً كريهة، لم تكشف من الجدران الخرسانية إلا كسوتها السميكة من آثار الرشح والسناج والوسخ.

***

ما أن استيقظ حسين حتى هجم عليه ألمٌ حارق في أطراف أصابعه الملتهبة. استعاد ذكريات قريبة، ومَثل في مخيلته مشهد الكمَّاشة وهي تقبض على طرف ظفر الإبهام، ثم تشده للخارج ببطء. ارتعشت شفتاه، ثم بكى بحرقة ومذلَّة. إنه على يقين أنهم لن يدعونه يموت في سلام. سيكون موته بطيئًا شاقًا.

وإذ هو على هذا الحال، انفتح الباب وأضيء النور، ودخل تَيْسِير حاملًا مقعدًا خشبيًا، ثم دخل مُسْمَار حاملًا حقيبتين كبيرتين، ثم دخل الرجال الثلاثة يقتادون أمامهم أُنثَى بيضاء عارية، وضعوها عنوة على المقعد الخشبي، وأوثقوها فيه بحبال غليظة. نظر حسين إليها مبهوتًا، وعرف أنها سَمَا. كان ذهوله شاملًا أحاط بحواسه وملك عليه أمره مطلقًا.

أما هي، فكانت مبتلَّةً كأنها خرجت من البحر. رأسها حليق تمامًا، بجروح وخدوش

قبيحة على فروة الرأس، وأطرافها مزرقة مخدوشة في مواضع عديدة. حدَّقت بذهول في حسين لما عرفته، وردَّدت اسمه غير مصدقة: "حسين؟!" كان مُقيَّدًا مثلها، على هيئة مُزْرِيَة: وجه متورِّم منتفخ، وجسدت استشرت فيه الكدمات البشعة، وقدماه متسلختان، مع دم ورغوة يسيلان من فمه وأنفه.

ولم تمضِ لحظات حتى دخل عاصم متهاديًا. تغندروتطيَّب، ولبس أبهى ما عنده كأنه مقبلٌ على مأدبة أو حفلٍ ساهر. أطال النظر في وجه وجسد سَمَا، ثم اتجه إلى حسين، وقال:

- دي سَمَا يوسف يا حسين. جبنهالك مخصوص علشان تسلّيك، لما حسّينا بغلاوتها عندك.

عجز حسين عن النطق، ونسي كل آلامه مع هذه المصيبة الجديدة، والعجيبة، التي ما خطرت له على بال في أسوأ كوابيسه. واصل عاصم حديثه ضاحكًا:

- بصراحة أنا ما صدقت ألاقي حد ممكن يكون غالي عليك، إحنا استنتجنا كده من رسائلها على تليفونك، ومُسْمَار برضه قال لي إنك شكلك مرافقها! المهم إحنا هنعمل فيها حاجات وحشة، لو ما قلتش فين البضاعة.. (وتغيَّرت لهجته إلى الجدّية والتركيز) حأسألك مرة واحدة يا حسين، فين البضاعة؟

استولت على حسين حالة بله تامة، فإذا به يرمق الكل بعينين مشدوهتين جاحظتين. أما سَمَا فكانت تلهث دون انقطاع، وقلبها يكاد ينفروينفصل عن مكمنه، ثم تكرمشت ملامحها على نحو بشع، وصارت تعوي، مردّدة بانهيار اسم صغيرتها رَنَا. كانت صرخاتها مفزعة ومقبضة جدًا، حتى أن تَيْسِير-وكان حاملًا لعصاه الأبانوس (لأنه نهض اليوم من نومه وساقه في حالة سيئة)- تقدَّم إليها، وضربها بكل ما أوتي من قوَّة بالعصى، ضربة هُيِّأ لمن شهدها أنها شدخت رأسها. انقطع صراخ سَمَا، وتوقَّف تنفسها من فرط الألم، فجاهدت أشد المجاهدة لتدخل نفسًا واحدًا لرئتيها، حتى أنها لم تستطع إصدار أي صوت.

كانت الغرفة عطنة خانقة بالفرن أشبه، ارتفعت فيها نسبة الرطوبة وريحة القذرلحد لا يطيقه إنسان، حتى أن قميص عاصم وسرواله تلوثا بالعرق الغزير فورًا. ثم سأل

حسين بتنهيدة:

- للمرة الأخيرة يا حسين، فين البضاعة؟

رفع حسين إليه عينين حائرتين ذاهلتين، فوضع عاصم يديه على خصره، وقال بنبرة متزنة:

- لمًا تحب تتكلم، قل لنا.

وأشار للعُمّال الثلاثة فغادروا، وأشار لمُسْمَار، الذي ارتدَى هذه المرة أوفرول واقٍ، وحذاءً طويل العنق من البلاستيك، يُصطلح على تسميته «الطرُمبة» أو «البرطوشة». فتح الحقيبتين بنشاط، فبانت محتوياتهما من المعدات.

رتَّب أدواته على مائدةٍ صغيرة، جانبها القطن والخيط ومعدات الشفط، وبعض قطع الأفيون. توجَّه إلى سَمَا وألقى عليها نظرة شاملة، ثم قال لها بضع كلمات هامسة لم يسمعها في الغرفة سواهما. بكت هي على إثرها بانهيار، وهزَّت رأسها بالرفض حين مد إليها يده بقطعة أفيون. أخذها النهج والنشيج إذ هو يواسيها برفق، ويحاول إقناعها بالتقام الأفيونة. مسَّ شفتيها بلطف، ودفع بالمخدر تحت لسانها، واستطاع حسين سماعه وهو يقول لها بتعاطفٍ وخفوت: "استحلبي منها تحت لسانك.. حتساعد جدًا"، ثم عاد لأدواته والقلق يغلبه. أكثر ما يخشاه مُسْمَار في هذه المرحلة الدقيقة أن تصاب هذه الشابة بصدمةٍ بدنية، تنهي العرض فور أن يبدأ. لكنه طمأن نفسه بنجاحاته الباهرة السابقة، والخبرة التي اكتسبها من تجاربه وأخطائه. أخذ نفسًا عميقًا، وتناول المنقار (وهو قطعة سلاح حادة تشبه الأزميل، لكن هذا المنقار بالذات كان غريبًا، بطول لا يقل عن الثلاثين سنتيمترًا)، وباليد الأخرى تناول المرزبَّة (وهي أداة تشبه الشاكوش ذات وزن ثقيل)، واتَّجه نحوها. هنا، وكأنما أدرك ما يجري للمرة الأولى استولى الهلع على حسين، وقال ملاحقًا:

- أنت حتعمل إيه؟ حتعمل إيه؟!

توقَّف مُسْمَار، والتفت إلى سيِّده منتظرًا المشورة، بينما يواصل حسين مذعورًا:

- أنا مش فاهم حاجة!! أنتم بتعملوا إيه؟!

قال عاصم بنبرة مسالمة ساكنة:

- دورك جاي يا حسين.. أنا ما حبيتش أبدأ بيك، لأني مش عايز استنفذ طاقتك.. وعلى كل حال، أنت اللي جنيت على المسكينة.. الفرصة لسه قدامك.. قل لي فين البضاعة، وكل شيء ينتهي.

صَرَخَ حسين مُتهيّجًا:

- أنا قلت لك فين البضاعة.. الله يلعنك! قلت لك إن عايش والبدو سرقوها.

تأتأ عاصم نافيًا، وقال بتريُّث:

- وأنا قلت لك إنك كذاب.. من دلوقت المفروض ما تخافش من الموت، لأن الموت أحيانًا يبقى رحمة.. ركّز في اللي حنعمله في المسكينة دي، وفكّر في اللي حنعمله فيك بعد ما ننتهي منها.

انهار حسين، وظل يُوَحْوِح دون انقطاع: "يا كلاب، يا كلاب!" أشار عاصم لمُسْمَار كي يبدأ عمله. أطرقت سَمَا ناظرة إلى الأرض بتركيز بصدر يعلو ويهبط. بدأت تستحلب الأفيونة تحت لسانها بالفعل، وهي تزمزم بصوت خرج من حلقومها غليظًا. كل خطوة يخطوها مُسْمَار بحذائه السميك على الأرضية، تبدو وكأنها تدنو بها إلى قعر الجحيم. وعندما بلغها مُسْمَار، انحنى وقال لها صادقًا:

- اللحظات الجاية حتكون صعبة جدًا.. حاولي تتحمّلي معايا، وتشدّي حيلك!

كانت يداها مقيَّدتين منبسطتين على مسند مقعدها. دسَّ مُسْمَار سن المنقار في كفها الأيسر بدقة كي يضمن صِحَّة الإدخال. انقبض وجهها بعد تهدُّل، وسال الريق من بين شفتيها، كما بالت دون إرادة، ولوَّثت سروال مُسْمَار وحذاءه. لكن الرجل كان في شغل عن كل ما حوله، إذ دخل في حال من الاحتشاد والتركيز. وفي اللحظة التالية رفع المرزبة، وأهوى بها على المنقار. ومع فرقعة الطرق المعدني، اخترق سن المنقار لحم اليد. أرعدت الشابة واهتزَّ بها المقعد، وكأن سن المنقار دُقَّ في دماغها، ولو دُقَّ في الدماغ لكان أهون. نتأت مقلتي عينيها، وأخذها الشهيق والزفير بصوت زمجرة مخشن. لم تصرخ، ليس عن قوَّة تحمل، بل لعدم استطاعة. لقد أخذتها نبضة الألم فشلَّتها، فلم تستطع إلا أن تضم جسمها بعضه على بعض منقبضةً باستماتة. أما حسين فجُنَّ جنونه، وانفلتت من حلقه صرخة ثائرة قبيحة كأنما دُقَّ هو، ثم إنه أطلق أخرى أشد بأسًا وبؤسًا،

وأتبعها بثالثة، واستمر يجأر بالصراخ والعويل والنواح، وهَزَّ جسده بجنون محاولًا تخليص نفسه مما يوثق وثاقه.

وتوتَّر مُسْمَار كعادته في هذه المواقف الشديدة، وتمتم لسَمَا بعبارات خافتة محاولًا التخفيف عنها. وخرج من بين شفتيه صوت وشوشة مُطَمْئِن: "شـ. شـ. شـش"، ونَفَخ كمن يطفئ نارًا. ثم دقَّ المنقار في يدها حتى دخل كله في لحم الكف وفي مسند المقعد. أدَّى مُسْمَار في هذه اللحظات الدقيقة مجهودًا ذهنيًّا ونفسيًّا وبدنيًّا لا يُستهان به. أخذ وقته في الراحة، مُعطيًا لنفسه ولضحيَّته الفرصة لالتقاط الأنفاس، ثم ثقب كفَّها الآخر بضرباتٍ متتالية وقوية، وسط سكون تام لا يقطعه سوى فرقعات الطرق، والأنات المقضومة القاصفة.

رأى مُسْمَار سَمَا متراخية كهيئة الموتى. تدلَّى رأسها وتَدَلْدَلَ ثدياها، ولوَّث الدم يديها ومسندي المقعد. فَزِع وهرول لمائدة أدواته آخذًا من تحتها سطلًا مُمْتَلِئًا بالماء والثلج، وألقى بمحتوياته في وجهها، فأفاقت منتفضة، وصرخت بصوت لقشاع أنثى الضبع أشبه. هنا اطمأنت نفسه.

نكَّس حسين رأسه كي يتلافى رؤية ما يحدث، وأخذه انتحابٌ مرتعشٌ ذليل. استغرق عاصم في الفرجة ونسي حسين تقريبًا، حتى حانت منه التفاتة فانتبه إليه. اقترب منه، وانحنى يمس ذقنه برفق ليرفع رأسه إليه، ويتساءل قلقًا، كأنه يوقظ عزيزًا من نوم:

- حسين.. أنت معانا؟!

رفع حسين رأسه، وقد زمْهَرَتْ عيناه واحمرَّ وجهه، وقال باكيًا:

- أنت مجنون.. أنت مش طبيعي.

تساءل عاصم باستغراب:

- ليه؟!

- أنت حيوان.. مش بني آدم.. حتى الحيوانات ما تعملش كده في بعض.

تبسَّم عاصم، وقال مُشْفِقًا:

- غير صحيح.. بعض الحيوانات تُظهر سلوكيات مشابهة للتعذيب والاغتصاب!

كان تعليقًا سخيفًا، منقطع الصلة بأي شيء. أخذ حسين يزوم ويخور، وينظر إليه باغضًا سكرانًا. ورأى عاصم في عينيه خبالًا وجنونًا مدمرًا. تفكَّر برهة وأخذته أخيلته بينما يحك ذقنه. وأثار منظر حسين في نفسه العطف، فسأله برفق:

- ليه تقول عليَّ حيوان؟ اقنعني!

ضمَّ حسين شفتيه بقوَّة والدمع ينبع من عينيه هتونًا. فأشار عاصم لمُسْمَار أن يتريَّث، وقال مُقرًّا من غير إنكار:

- أنا أعترف أنِّي -بخلاف الاضطرار أني أعمل اللي بأعمله دلوقت- مبسوط جدًا منه.. تعتقد أن ده غلط؟

ورفع كفَّيه، هاتفًا فيما يشبه السخط:

- في رأيي، كل إنسان حر في اللي يعمله. ليه تحصر نفسك في مُتع تقليدية ضيقة؟! ليه الحتمية البيولوجية هي اللي لازم تتحكم فينا؟!

ثم قال ناصحًا:

- يا حسين، يا حبيبي.. المجتمع مُلزم أن يقبل كل فرد فيه، على ما يختار أن يكون ويفعل.. دي الأخوَّة الحقيقية بين البشر! (وابتسم ببشاشة) ما تبصش كده.. اسمع الأول.

وأطرق مفكرًا ومستجمعًا أفكاره. وبدت له فكرة غريبة لكن ظريفة في نفس الوقت: أن يقنعه كي يخوض تجربة قد تفيد جميع الأطراف. لقد شهد بأم عينيه نماذج تستجيب للإقناع، وتحقِّق نتائج و«إنجازات» ما كانت لتخطر على باله هو شخصيًّا. لذلك قال بتجاسر وتلهُّف:

- انسى موضوع البضاعة مؤقتًا. إيه رأيك لمَّا تقترح علينا خطوات نعملها مع الست دي؟ (مشيرًا إليها دون أن ينظر). تقترح علينا مثلًا: دلوقت نخلع ذراعها.. أو ندق ركبتها.. ومُسْمَار هنا متعاون جدًا، ومستعد يتقبَّل أي اقتراحات.

وأومأ برأسه إيجابًا وهو ينظر إلى رجله السمين كأنه يسأله عن رأيه. ولقد هزَّ مُسْمَار كتفيه بلا معنى. اختمرت الفكرة في رأس عاصم، وعزم على إقناع حسين بشتَّى السبل.

فقال له بحماسة:

المتعة كلها عبارة عن كيماويات وهرمونات تتفاعل في جسمك. يعني مثلًا: الأندروفينات، يفرزها الجسم عند الشعور بالألم، وتوصف بأنها ممتعة، وأحيانًا مسبِّبة للإدمان. الحامض اللبني، تفرزه العضلات تحت الضغط، يوصف بأن تأثيره ممتع. ده شيء مُثبت علميًّا، وأنا نفسي جرَّبته (وضم سبابته وإبهامه كأنه يمسك بآفةٍ دقيقة) شعور في منتهى الرُّقي، يُعتبر من صفوة الكماليات!

وبدأ يذرع المكان جيئةً وذهابًا في دائرة ضيِّقة أمام حسين، وهو يتابع:

حاول تُخْرِج من الموضوع جانبه القبيح.. حاول تتكيَّف.. التكيُّف هو بداية التعوُّد، والتعوُّد هو التمهيد للألفة، والألفة نتيجتها الطبيعية الحب! تاريخ الجنس البشري قائم على طبيعة التكيُّف.. والموضوع، لمن يتكيَّف معه، له مذاق خاص.. أنت تعيش في مجتمع العادة فيه أصبحت متغيِّرة ومتدفِّقة طول الوقت.. المجتمع اللي ينظر النهارده لكل غريب على إنه شاذ، بُكره يكون السائد فيه هو الشاذ.

وأخذ نفسًا أصيلًا، ثم تابع وقد خلب لبَّ نفسه وفُتِنَ بحسن بيانه وما يقدِّمه من دلائل منطقيَّة وأمثلة طريفة:

- بُصْ للموضوع على أنه استعباد اختياري.. الناس كلها موافقة على الاستعباد الاختياري، لأن المجتمع كله يسير على نهج العبودية بشكل واسع النطاق.

وتساءل مُنكِرًا دون أن يسأله أحد:

- إزاي؟!

وأجاب نفسه بتحقيق:

- مثلًا، نظامك الاقتصادي يُجبر العُمَّال على الحرمان من منتجاتهم، اللي علشانها تم استعبادهم. والمنتجات نفسها، لا يتم توزيعها بناءً على صلاحيتها أو كثافة الطلب عليها، بل بناءً على قيمتها الشرائية، اللي تتحكَّم فيها القوى الغامضة للسوق والمال! حاديك مثال: تفتكر أن العُمَّال عندي، في مصنع السمن، بياكلوا من السمن اللي بينتجوه، أو أي سمن من أي نوع، ولَّا يشمُّوه حتى؟! دول بالكاد عايشين. تفتكر أن عُمَّال في مصنع للشيكولاتة أو الآيس كريم، يذوقوا، وأولادهم، من منتجاتهم.. لا يمكن!

وتنهَّد، وقال ناصحًا:

- يا حسين، دي فرصة نادرة، تحصل مرة واحدة في العمر.. أنا دلوقت أفاوضك على نقطة التحكُّم والقبول، وياريت ماتضيَّعش الفرصة، لأنك في الحقيقة غير جدير بالمفاوضات.. أنت منعدم السلطة.

وغيَّر بنرته إلى الترقُّب:

- هه، تكلَّم.. قل لي اقتراحاتك!

وسأله مستحثًا إياه على المشاركة:

- نبدأ معاها منين؟

كان حسين مُطأطِئًا. وعندما سمع السؤال، رفع رأسه ببطء، بعينين مُحْمرَّتين ملتهبتين. منظرٌ سَلَبَ لبَّ عاصمٍ، ونقل رسالة طوارئ مباغتة كزنبركٍ عصبي لكل أجزاء مخه، فنبض قلبه بشدَّةٍ وشوقٍ، وغامت عيناه بخيالات ملتوية وضلالات فاحشة، فانتشر ذَكَرُهُ وخرج منه مذيًا لزجًا، وتمنَّى لو.. لـ. لو.. يـ. يهجم على الشاب و..! وبصوتٍ خرج عسيرًا.. مظلمًا.. مبحوحًا.. قال حسين:

- أقسم بالله.. يا عاصم.. إني هأخرج من هنا.. وساعتها...

ضحك عاصم متبسطًا متوتِّرًا، وقال وقد شعر بإرهاقٍ وضعفٍ في البصر والتركيز نتيجة الاستثارة والكبت:

- يا حسين، ما تحلمش.. أنت مش حتخرج من هنا إلا في حالة واحدة، لو قلت على مكان البضاعة، بس بِجَد المرَّة دي.. ثم، أنت ليه بتستحلف لي؟ ده جزائي؟ أنا عايز أوصل معاك لعلاقة، يكون تبادل السلطة فيها ديناميكي.. تعتقد أني ما أقدرش أحولها لعلاقة اعتسافية بذيئة؟! المفروض أنك تكون مُمْتَن.. وعلامة الامتنان الموافقة.

تبادل تيَسير ومُسْمَار النظر بضجرٍ وتبرُّم. وكانت سَمَا تتنفَّس بعمق، وتصدر أنينًا ضارعًا ورعشات منتظمة، بينما تقبض أصابعها المُحاصرة وتفردها. أما حسين فقال بصوتٍ قحطٍ خشن، كمن ينبض قلبه بين براثن قبضة شيطان رجيم:

- أنا حأقتلك يا عاصم.. أقسم بالله، حأقتلك.

أومأ عاصم إيجابًا، وقال بتقدير:

- طيِّب، طيِّب.. قل لي دلوقت.. تحب تبدأ إزاي؟

تقطَّع صوت حسين، وقال ضارعًا:

- أنت بتعمل كده ليه؟ أنا قلت لك على مكان البضاعة.. والله العظيم ده كان مكانها.

وغلبه التأثر فتجعَّدت جبهته وبكى من جديد، ثم استجمع قواه، وقال ملهوفًا:

- طيِّب، أنت مش قلت.. نتفاوض؟ سيبها، وخلي الموضوع بيني وبينك.. أي شيء أنت عايزه أنا حأنفذه.

وغلبه البكاء مجدَّدًا، فقال متألِّمًا ضارعًا:

- بس سيبها، وكل شيء ممكن نحلُّه.

أدرك عاصم أن رغبته المنحرفة لن تُلبَّى اليوم، وأنه يهيم في وادٍ وغريمه يهيم في وادٍ آخر، فتنهَّد بإحباطٍ وباعث الشهوة فيه يوخزه وخزًا، وقال آسفًا:

- على كل حال، الحل الأخير في إيديك.. تقول لنا فين الشحنة، وكل الألم والمعاناة ينتهوا.

انتظر رد فعل، فلم يجبه سوى الأنين والنحيب. كان ساخطًا أشد السخط، ولم يمتنع عن الشحوط في الطلب حياءً، فهو من أبعد أهل الأرض عن الحياء، فكأن الأرض استصَّت ماء الحياء من وجهه؛ لكنه علم أنه يطلب المستحيل. زفر بيأسٍ، وأشار لمُسْمَار، الذي عاد إلى أدواته للبدء في العمل مجدَّدًا.

* * *

مرَّت عدَّة ساعات كالحلم، أطل فيها الشرُّ برأسه، وفعَل فيها مُسْمَار بسَمَا الأفاعيل. لم تكن استجابة سَمَا للألم تتناسب مع ما يُفعَلُ بها، لأنه أمدَّها بمعينٍ مستمرٍ من الأفيون، ليس من دافع إنساني، بل كي تحتمَّل الألم لأقصى وقتٍ ممكن وهي واعية. في البداية كان الصراخ مستمرًا ومريعًا، يختلط بالعويل والولولة، ثم أتى المخدر بفعوله على خير ما يُرجى، لكن المصيبة المُذْلِهِمَّة أن جسمها يُحطَّم ويُبتر قطعةً قطعة وهي تنظر سحَّ منها العرق، وتسارع معدَّل تنفُّسها لحدودٍ خطيرة. وإن اشتد عليها الألم لو أخطأ

مُسْمَار في ضربةٍ أو حشر أداته بين الأنسجة، ترتجف بمعدَّل مضطرب، وتصدر خوارًا مرعبًا، وتشخص ببصرها للأعلى. انبثق من فمها ومنخريها المخاط، حتى كلَّلت رغوةٌ بيضاء ذقنها وشفتيها، وهي في هذا بين الوعي والإغماء.

أما المراقبون فتباينت أحوالهم. اتخذ الأسطى مُسْمَار سمت الأطباء، بكمامته وقفازيه الملوثين بالدم، ووضع لنفسه جدولًا زمنيًا كي يُتِمَّ فيه عمليته الدقيقة. لو حدث نزيف، أو انفلق جرحٌ عن الحد المسموح، يسعى بتوتُّر لتدارك الموقف، وتتحرَّك يداه بنشاطٍ لتُضمِّدا جرحًا أو تخيِّطا وريدًا أو تشفطا دمًا. وما يعنيه لحظتها فعلًا، أن ينقذ الضحيَّة من الموت. ينسال العرق على وجهه وجسمه، وتُتابع عيناه المضاعفات وردود أفعال سَمَا، بغض النظر عن أنه إنما ينقذها كي تمتد بها لحظات المعاناة لزمن أطول.

أما تَيْسِير فوقف كالتمثال، بعينين ذاهلتين، وشَدَقٍ مُتَدَلِّه، يتابع بكافة حواسه ما يحدث، فيحمَّر وجهه، ويرتفع ضغط دمه، ويزدرد ريقه بمعدل ثلاث مرات في الدقيقة على الأقل. إنه في شغل عما يحوطه، يُركِّز في الدم ومقاساة الشدة والعذاب، والأدوات الحادة وتمزيق الأنسجة، فتراوده خيالات مُهيِّجة ومُركَّزة ومُتكرِّرة، وتحيق به مُحفِّزات غامضة يمكن رؤية أماراتها عليه بقليل من التدقيق. ثم تغشاه حالة كدرو عكارة تعزله عمَّن حوله، وتضفي على وجهه سوادٌ غريب، بما يؤكِّد فساد مساحات وظيفية مهمَّة لديه، حوَّلت حب الرؤية إلى إدمان لا سبيل لشفائه، يتَّخذه ملذَّة قد تنتهي بأن يبلل نفسه في مجموعة من الانقباضات المتناسقة اللاإرادية، تلك عندما تصل لحظة الألم إلى أقصاها، ويحمَّر البؤس، ويتلون المشهد بأبشع آيات القسوة والقبح.

أما عاصم فهو أربطهم جأشًا وأثبتهم قدمًا. وقف بثباتٍ مديمًا النظر، بوجهٍ تبدو عليه أمارات الجِدِّيَّة والفضول «العِلمي». نعم، قد تتسارع أنفاسه، وترتجف شفتاه، وقد يمسح شاربه الرفيع بعصبية، لكن فيما عدا ذلك، هو على السمت الرزين المستقر، هادئ الروع، ملتمسًا هيئة المراقب والمشرف.

أما حسين فكان أسوأهم حالًا. غَضَّ طَرْفَهُ أغلب الوقت وهو يئن ويعوي. ينظر حينًا فلا يحتمل، فيطبق جفنيه بشدَّة، ويتمنى لو يضربه العمى أو تتخطَّف الطير كبده، ولا يرى ما يرى. إن هذا هو عذاب القبر. الجنون، والوحشية، والضيق الموحل، والانطباقة

المهلكة. الصراخ الضارع والدم والبكاء. هذا هو عذاب القبر. ولما طالت الساعات حتى صارت دهرًا، ولم يتوقَّف الجنون ولو لحظة، هدأ جسده بعد اضطراب، وأعرض عن رؤية ما يحدث مطلقًا.

أمسك مُسْمَار بصيوان أذن سَمَا، وشدَّه برفقٍ إلى للخارج. بسكينه المعقوف بدأ يفتق الأنسجة الغضروفية المرنة، مراقبًا الجرح عن كثب. انقبض جسم سَمَا كله وهو مُكبّل في مقعده، ثم عوت بأنينٍ غليظ إلى الزمجرة أقرب، حتى انفصل لحمها في يد الرجل السمين. نظر مُسْمَار لصيوان الأذن الغارق في الدم بين يديه بشيءٍ من العجب والإنكار، ثم ألقاه أرضًا.

اقترب عاصم ليلقي نظرةً شاملةً عن قرب، فلاحت في عينيه غمامةٌ، وفي وجهه حصرٌ وحمرة. ثم إنه تراجع مسرعًا، وخطف عصا تَيْسِير بحركةٍ مفاجئة حتى كاد يوقعه، وبكل قوته، طوَّح برأس العصا المعدني فشقَّت الضربة رأس سَمَا عند الحاجب بعمق، وطرحتها ومقعدها أرضًا بدويٍ مزعج.

كانت الرغبة تنهشه. ليس بالعصا، بل بأحد هذه الأدوات الطويلة المخيفة ذات النتوءات. ينهال على هذا اللحم الأبيض اللبِّن، ويمزِّقه. يفترسه افتراسًا! إن هذا الشبق اليافع حريٌّ به أن يُوظَّف في وجهته الصحيحة، وإنه لو ترك نفسه على سجيّتها، لبلَّل نفسه دون إرادة، ولسال من بين شفتيه اللعاب والمخاط والزبد كالبهيمة. إن هذا الجسم الممتلئ لا بديل له عن أن يتمزَّق إربًا.. آااه.. إنه عالم صغير هائج بالجوع! كانت خواطره حارَّةً ومشوَّشة، لو استجاب لها لأقبل على تصرفات غير اعتيادية وكثيفة. لكن ثَمَّة فكرة غريبة وَرَدَت على رأسه حالًا. نعم، إنها فكرةٌ هوجاء لا تزن عواقب الأمور، ومقامرة قد تأتي بنتيجة وخيمة. لكن لهذا اكتسبت الفكرة جموحها وحلاوتها.

أقبل عاصم على مُسْمَار، وهمس في أذنيه ببضع كلمات، وما من شك أن البدين أعجبته الفكرة، لكن رأى أن من واجبه أن يطلع سيده على مخاطرها. توجَّه عاصم نحو تيْسِير، وكان الرجل شاردًا محدِّقًا في الضحية المسجيَّة أرضًا، ولما أطلعه عاصم على الفكرة، أعجبته بتحفظ، ولم يناقشها، لأنه يعرف سيِّده عندما تسيطر عليه رغبةٌ أو نزوة. خرج عاصم من الغرفة، واستدعى تيْسِير العُمَّال الثلاثة، الذين دخلوا بأعين

يطق منها الشرر وقد أمسك كل منهم بسنجةٍ عريضة. اقترب مُسْمَار من حسين متهاديًا، ممسكًا بسكينٍ كبير، ترتج بطنه أمامه، فهوي قلب حسين بين قدميه هلعًا، وعلم أن دوره قد أتى. دار مُسْمَار حوله، فتسرَّب البول من حسين مُجدَّدًا وهو يحاول الالتفات ليرى من خلف ظهره. لكن مُسْمَار قطع قيوده، الواحد تلو الآخر. ارتعش حسين ناظرًا إلى يديه الحُرَّتين بذهول. ابتعد عنه مُسْمَار بخطواتٍ حذرة وقسمات متربِّصة، حتى وقف في منتصف المسافة بينه وبين موضع سَمَا، فوضع السكين أرضًا بحرص، ونظر إلى سَمَا نظرة ذات مغزى. ثم رفع أدواته، وغادر وغادروا جميعًا.

إن حسين ما يزال جالسًا على مقعده المعدني حُرًا، أصابعه الدامية تقبض على مسندي المقعد، وعيناه المنتفختان ترمقان الفراغ بذهول. وإن سَمَا ما تزال مُقيَّدة في مقعدها، ساقطةً به أرضًا على جانبها. جروح البتر مُخيَّطة بخيوط سلكية بشعة، حولها امتدَّت بِرَكٌ محدودةٌ من الدم، بدت في الظلمة كالقطران، يطفو على سطحها ما بُتر من يديها وقدميها وبدنها في مشهد غير معقول ولا محتمل. في منتصف المسافة بينه وبينها، كان السكين الكبير يحمل رسالةً واضحة.

كانت سَمَا واعيةً متماسكة، عيناها دامعتان محمرتان، والعرق يغمرها بغلالة لامعة. أما وجهها فبين التهدُّل وانقباض الألم. ألمٌ لا يرحم ولا يكف، محسوس بما يدفع للجنون، واهن بما لا يكفي للموت. ولعل الأفيون نقمة لا رحمة. نعم، لقد عزَّز قدرتها على احتمال الألم، وحجب عنها نبضات صاعقة كانت كفيلةً بقتلها، لكن القتل رحمة! لم تكن تفكر في شيء، ولم تعد تريد شيئًا، إلا أمرًا واحدًا. الرحمة والخلاص. ولم يعد يفكر في شيء، أو يرغب في شيء، اللهم إلا الرحمة والخلاص. والسكين ها هنا، مُلْقَى على الشظايا والحصباء.. في نصله الرحمة والخلاص.

تقبَّضت ملامحها، وبدت كمن يحتشد محاولًا الحديث. مجهود الحديث مُضني، والمبادءة لن تتم إلا بالكفاح والمثابرة، لكن السلعة ثمينة، والفرصة سانحة. خرج صوتها من حلقها همسًا مضطربًا، يلهج باسمه مرتين: "حسين.. حسين." نما صوتها الخافت إلى سمعه كصراخ الشياطين، فنظر إليها ذاهلًا عن كل شيء، بينما مضت هي في حاجتها، قائلة بكلمات ترتعش في فمها: "حسين.. تقدر.. تيجي.. وتخلَّصني؟" ازدردت ريقها، وقالت بهمس: "مـ. ما تسيبنيش كده.. تعال.. خلَّصني." توسَّلت إليه: "السكينة

السكينة قدامك.. أبوس إيدك.. خـ. خلصني. قالت بصوت ذابل مبحوح: "ارحمني.. ارحمني قدامك.

رفاهية المفاضلة بين الخيارات ليست متاحة. والتردُّد هو الجنون بعينه. الفرصة سانحة الآن، وفي هذه اللحظة بالذات. من يدري متي سيدخلون عليهما؟ كالمسحور نزل عن مقعده، وسعى على أربع إلى السكين، غير عابئ بما يخزُّ بشرته ولحمه من شظايا وزجاج ومسامير. طوَّقت أصابعه مقبض السكين الخشن. قبض عليه بشدَّة كأنما يستمد منه الدافع والمساندة.

راقب عاصم ضحيَّتيه من خلف الباب بإعجاب وترقُّب، مستأثرًا بالموقع الأفضل، ورأى قَبْضَ حسين على السكين كأنه الرحمة المُنَزَّلة في الدنيا.

إنه الآن قريبٌ منها، يرى وجهها ورأسها الحليق المستدير. يشعر بلفح أنفاسها على وجهه، ويستنشق ريحة العرق ونتن الدم. إنه الآن يقلِّب السكين بين أصابعه ويفكِّر، كيف يفعلها؟ عيناها الضارعتان ترسلان إليه نظرةً تنتهكه انتهاكًا. هل يغمده في صدرها؟ هل ستتألَّم كثيرًا؟ وهل في أسوأ الأحوال، سيزيد ألمها عما عانته من قبل؟ سيطعنها في عنقها من الخلف. بل سيقطع حلقومها، ويبتر مسار الدم عن المخ، فتنتهي المعاناة. ليتها تكف عن التحديق في وجهه. ليته ما التقاها وما عرفها. الآن فقط بدا له سوء عمله. كانت زَنْيَته في سَحَر وبالٌ عليه في الدنيا، وزَنْيَته في سَمَا وبالٌ عليها في الدنيا. الآن فقط بدت له دقائق المتعة السريعة في استباحة الفرج الحرام فاحشة كبرى وجريمة نكراء. لقد ذهبت الرحمات وجاء الشرور واللعنات، وإن عليه ظلمة ومقت لن يزولا إلا بموته. فلينزل عليه العذاب من السماء!

مرَّت الدقائق عسيرة. ثم أخيرًا، لاح في عينيه تقريرٌ وإصرارٌ وتحفُّز. حسم أمره، وتوصَّل لحل يعفيه من ورطة قتلها، ويعفي هؤلاء الوحوش من الاستمرار فيما يفعلون، ويحقِّق لنفسه به العدالة. اعتدل وتورَّك في جلسته، وأخذ بمقبض السكين بمجامع يديه، ووَجَّه ذبابة نصله لصدره العاري. احتشد وأخذ من البيئة المُهلكة حوله أنفاسًا خرقت رئتيه كأسياخ مُحَمَّاة. أبعد النصل عن صدره بامتداد ذراعيه، واستعد لدفعه بين ضلوعه. لأي مدى سيعاني؟ دقيقة؟ خمس دقائق؟ ثبت على موقف، بينما غابت

عن سَمَا دلائل الصحوة والإدراك، كأنما بذلت آخر ما عروقها من طاقة وحياة، وسلَّمت نفسها لثقل الموت.

أَحَسَّ حسين في ريقه حموضة بشعة ومرارة مميتة، ثم ضاقت عليه نفسه، وتراكمت عليه آثامه، وأطبقت عليه طبقات من الرخاوة المنتنة. تجعَّد وجهه، وتصاعد صوت نَهيجه، وسقط من يده السكين. اهتزَّ اهتزازًا لا إراديًا، ثم انهار أرضًا باكيًا كبناءٍ تضعضعت أركانه.

* * *

مرَّت ساعةٌ كاملة، في ختامها دخلت الشرذمة الملعونة. أخذ عاصم السكين وأعاده إلى رجله مُسْمَار، ثم تقدَّم إلى حسين بهدوء. كان الشاب متزنًا في ركن الغرفة، بوجهٍ يابسٍ عليه شحوب الموتى. نظر عاصم إليه بتركيز، وقال بصوتٍ منخفض:

- أنا مش مصدِّق يا حسين.. فرصة أتحتها لك، تتخلَّص بها من العذاب، وخفت؟ إزاي ممكن يصل الخوف واليأس بإنسان، إنه.. (ولوَّح بقبضته مغتاظًا) يَضعُف عن حسم أمره في فرصة زي دي؟ إزاي قدرت تسيب المسكينة دي، لمصير، اللي جاي فيه، أسوأ؟ خُفت على إيه؟! وحتعيش لإيه؟ ولأي مدة؟ ساعتين زيادة؟ يوم زيادة؟

سكت متيحًا له فرصة الرد، ولمَّا لم يجد استجابةً، تنهَّد وتابع مُستغربًا:

- أنا أعرف أنك سلبي ومهزوز، لكن أن تصل بك الانهزامية والضعف لهذا الحد؟ المخاطرة بالنسبة ليَّ كانت كبيرة، مع احتمال أنك تقتل نفسك، لأني كده أكون حرقت الورقة الواحدة الباقية في إيدي.. بس أنا كنت متأكِّد من النتيجة.. كنت عارف أني حأدخل عليك، وأنت على نفس وضعك، والسكينة في نفس مكانها.. أضعف الإيمان، كنت تأخذ السلاح، وتحاول تدافع عن نفسك لما دخلنا.. لكن أنك تقعد كده، لا حول لك ولا قوَّة؟!

ثم نفخ يائسًا، وبدَّل نبرته، وقال بمضاء وجديَّة:

- طيِّب يا حسين، من فضلك تقول لنا، فين الشحنة؟!

- اتكلّم يا حسين، وأنا أوعدك، أني أنهي عذابها فورًا.. وأنك تخرج من هنا حالًا.

تعكَّر وجه عاصم، وقال بغصَّة:

- أنا مش قادر أفهم.. أنت ضعيف في كل ناحية، عاجز عن اتخاذ أتفه القرارات، ومع كده مُصِر على موقفك الغبي؟! متوقع إيه، فهّمني؟! أنت خلاص، انتهيت.. خلَّص نفسك يا أخي، وخلصنا.

هنا تمعَّر وجه حسين، ثم جهشت نفسه، وانتفض باكيًا مكلومًا من جديد، يذرف الدمع على وجهه دون انقطاع. ولم تخاطب الرقة قلب عاصم، بل تغيَّر وجهه، وبدت عليه سحائب الغضب وفقدان الصبر. قال بغيظ مكبوت:

- براحتك.

وأشار لُمسْمَار بحدَّة أن يشرع في متابعة عمله. نصب الرجل السمين عدَّته مُجدَّدًا، وعلى مدى الساعتين باشر عمله باجتهادٍ وتركيز، حتى بدأت خيوط العرق تسيل من جبهته وجسمه دافقة. كان نضالًا شريرًا دارت فيه عيناه يمنة ويسرة، وتنقَّلت أصابعه بين مختلف الأدوات، ومع تقادم الوقت أخذت أفعاله طابعًا جراحيًّا لا رجعة فيه. توقَّف مُسْمَار برهة ليمسح عرقه ويلتقط أنفاسه، وليلقي نظرة شاملة على نتاج عمله. الحقيقة أنه التزم جانب الحرص والإتقان في كل ناحية وحال. يتخيَّر موقعه بدقة، ويرسم في خياله مخطَّطًا سريعًا للحركة، ثم يفتق اللحم، ويسيطر على معدَّل إدرار الدم.

توقَّفت عينا حسين عن ذرف الدمع، وانجابت سحابة الكآبة عن وجهه، فكأنما نجح أخيرًا في فصل ذاته عن الأحداث. استكان تمامًا وهَزَّ جسده كالبندول بحركة تذبْذُبيَّة منتظمة. كان يمكنه المناورة وكسب الوقت. يمكنه تضليلهم باختراع مكمن زائف للشحنة المفقودة. لكن ما الفائدة؟ ثم إن تدبير كذبة كتلك يحتاج لقدرٍ من التفكير، وهو ليس في حال تسمح له بإعمال عقله في أي مسألة. أصابه ما يشبه العمى الوجداني، فعجز عن التعرُّف على الدلالات الانفعالية للأحداث، وتوقف عن المبالاة بما يحدث حوله.

استحثَّه عاصم على الحديث بلا كلل، ثم هَزَّ رأسه بغضب وأسف. تحت ملامحه الساكنة الناعمة، كان التشوُّش والبلبلة يسيطران عليه، ويشتتانه عن التركيز في متابعة العملية، واقتناص اللذة منها كما اعتاد، لأن أصل القضيَّة لم يُحَلّ إلى الآن، ولا تبدو في المستقبل القريب بادرة انفراجه. وبصراحة، إنه يعتقد أن حسين لن يعطيهم ما يريدون، مهما فعلوا بها أو به. هل كان ضغطهم عليه مفرطًا؟ ثم راودته، وللمرة الأولى، فكرة مخيفة.. لعلَّه صادق. لعلَّه دلَّهم فعلًا على مكان الشحنة الحقيقي، ولعل البدو نهبوها فعلًا. وليس أسهل من أن يعلموا شفرة الخزانة. إن حسين أحمق، وخداعه ليست بالمسألة العويصة. يا للهول! إنها إذًا القاضية. إنها القارعة المميتة التي ليست منها نجاة. أحَسّ أن الموت محيط به من كل جانب، وبدت له الغرفة مخيفة وقبيحة، وضيّقة ومظلمة. لكن ما الذي يمكنه فعله الآن؟!

أفاق عاصم من خيالاته على جلبة أحدثها مُسْمَار. الظاهر أنه اخطأ وقطع شريانًا في فخذ ضحيته استفحل منه النزيف وخرج عن السيطرة. لهث مُسْمَار بغمٍ وخرابٍ عصبي، وحاول كبس الشريان باستخدام ضاغطة معدنية، لكن سبقته تقلُّصات لاإرادية في جسم سَمَا تولَّدت عنها مقاومة عنيفة ونزاع. لم يعد أمامه إلا عقد الشريان بواسطة ملقاطين جراحيين. حاول مدَّة خمس دقائق ارتفعت فيها درجة حرارة جسمه لحدٍ لا يطاق، لكن أصابعه كلَّت، وتعقَّدت منه هذه العملية البسيطة، فصاح ساخطًا مُغتاظًا، وطوَّح بالملقاطين إلى حيث لا يدري. الآن يقف عاجزًا، لا يدري ما يفعل، والضحيَّة ستموت منه خلال عدَّة دقائق على أقصى تقدير. نظر إلى سيِّده يسأله المشورة، فأشار إليه بإحباطٍ أن ينهي الموضوع. أصاب القرف عاصم فعفَّت نفسه مشاهدة ما يحدث، لذا غادر الغرفة فورًا. لم يتبعه تَيْسِير كعادته؛ لأنه كان مُتخشِّبًا في موقعه، بأنفاسٍ متلاحقةٍ لاهثة، عيناه معلَّقتان بجسم سَمَا الرخو المشلول، ومقاومتها المنعدمة، ودمِها الذي يشخب من الجروح المكشوفة دون انقطاع، حتى لوَّث بشرتها كلها.

أخذ مُسْمَار سكين تقطيع ضخم من صلبٍ لا يصدأ، ومال يعاين ضحيته ليقرّر أين يضرب ضربته، ثم طعنها بحرفية أسفل البطن من أقصى اليمين حتى نفذت ذبابة النصل لعمق التجويف البطني، واستنفر قواه بعزيمةٍ ليبقر بطنها من اليمين لليسار

كأنه يشق بطيخة. نظر إليها بأسف مَن تَعب في عمل وأفسده قبل أن يُتمَّه، والدم ينساح من الجرح البليغ ليغطي فخذيها ومقعدها ويسيل لأسفل.

* * *

"حسين، أنا عرضت عليك نفسي بأسلوب رخيص، دلوقت أنا ندمت عليه.. قلت لك خدني، ونروح بعيد، قلت لك اختار، لأن في ترتيبات لازم أنجزها، كان لازم نتَّفق قبل ما الناس دي تيجي.. بس أنت رفضتني، ماشفتش فيَّ غير النجاسة والحرام.. اختيار غلط، ولازم تتحمَّل مسؤوليته بشجاعة."

"أنا عارفة أنك مش مصدَّق، ومش فاهم، ولازم أشرح لك الوضع.. اللي واقف قدامك ده، عاصم عبد الهادي.. عاصم كان على اتصال بيَّ، بحكم علاقته بحَسَن أخوك، لأنهم شركاء في شغل كتير.. الشغل ده أنا ورثته، مع اللي ورثته من حَسَن.

"أنت حفرت قبرك لما سَرَقت شحنة الهيروين، اللي أنا شريكة فيها بالمناسبة! الشحنة دي مشارك فيها ناس ثقيلة جدًا.. المسألة مش بس فلوس، العائلة لازم تثبت قدرتها على حماية أعمالها، وإلا الثقة بها تنهار في السوق.. إحنا شغلنا كله قائم على السمعة والثقة."

"كانوا محتاجين شخص يقدر يدخل القصر من غير شوشرة تهيِّج رجَّالتك.. أنا كنت فاكرة أني أعرفك أكتر من نفسك، بس طلعت عبيطة.. أنت عملت حركة ما خطرتش على بالي، سرقت الشحنة، وقلبت كل الموازين.. أنا كان في فكري لك تخطيط تاني، لكن بالحركة دي، اضطريت أغيَّر كل شيء، لأني اكتشفت أننا كلنا في خطر كبير، وأنت أولنا.. أنا كنت جاية أنقذك يا حسين، حتى لو خسرت نصيبي في الشحنة.. كان لازم أعرف اللي بيننا ده إيه.. يمكن لو كنت مُت قبل ما أكلمك وأسمع منك، كنت قضيت بقية عمري أندم.

"إزاي تفكيرك يطاوعك أنك تعمل عملة زيّ دي؟! أنت كده حرمت نفسك وحرمتهم من أي منفذ أو حل وسط.. أنا متأكِّدة أن العدوي ورا الفكرة الفظيعة دي، أنا أعرف الحلُوف ده كويس، كهين، ونفسيته مش سليمة."

"عاصم كلِّمني في الموضوع، بحكم أني الوحيدة اللي معايا مفاتيح القصر وأرقامه،

وطلب أفتح لهم مدخل للقصر في السر، يسرَّبوا منه واحد أو اتنين يشوفوا الوضع إيه بالضبط، بالنسبة للبدو بالذات."

"أنا رفضت أبيعك، وكنت مستعدة أضحي بالناس دي كلها، لو أنك اخترتني.. كنت حاقدر أتصرَّف.. وربنا كنا نقدر نتصرَّف.. كنا نسلِّمهم الشحنة، وأنا حاضمن سلامتك، وبعد كده نبعد. بس أنت رفضتني، وانقلبت تنام، زي ما كان أخوك يعمل، طبق الأصل.. أنت وهو شاربين من نفس المِسْقى.. ما كانش قدَّامي غير أني أفتح لهم الأبواب.

"يا حسين، لازم تقدَّر خطورة الموقف.. أنت خسرت كل شيء.. البدو هجروك.. النونو انتهى.. كل ده حصل، وأنت شويَّة تجري ورا سراب اسمه العبلة، وشوية ورايا، وشوية سارح في الدنيا من غير هدف، وشوية مع الزناوة والمخدرات.. حتى العدوي اللي سلِّمته رقبتك اختفى.. ربنا أعلم دلوقت هو فين.. إحنا دوَّرنا عليه، على أمل أن يكون عنده معلومة."

"أنت بقيت لوحدك يا حسين، تحت رحمتهم.

"لازم من هنا ورايح، تتعلَّم تقبل قدرك.. ده يعفيك من ألم زيادة، ومقاومة ما لهاش معنى.

* * *

إنه يجلس الآن مستندًا إلى الركن، عيناه تحدِّقان في لا شيء، وجثَّة سَمَا المُخضَّبة بالدم ترقد أمامه. تركوها له، وتركوا له المصباح مُضاءً. لكنه لم يتضايق. تقبَّل قرارهم باطمئنان تام، وقرَّ مكانه دون اعتراض، وأطلق لأفكاره العنان.

وجد نفسه يعود بذهنه إلى النقطة التي منها مُنطلق كل شيء. إلى حبِّه المشوه، وخطيئته الكبرى. سَحَر. هذه الأفعى النشيطة، التي جلست تواسيه قبل النهاية. كم كان صوتها رخيمًا هامسًا، وكم كانت لمستها طيِّبةً ناعمة، وهي في هذا تنعيه، وتوكله إلى شرار الناس. مارست عليه الخيال والخداع بنوع من الشعوذة أيقظت فيه دافعًا بهيميًا مؤلمًا. تدبَّرت أمرها معه بتكتيكين: الأول هو الاقتراب البطيء الرفيق، الذي طوَّعته به بين أصابعها حتى نسي عداوته لها وأهدر أحكام العقل جميعها. والثاني هو السيطرة عليه بسرعة ما أن استشعرت منه الهشاشة والطراوة، كالعنكبوت إذ يغزل مطوِّقًا

ضحيته المشلولة.

كانت رغبتها في تملُّكه وقهره عاتية، كأنها دفاعٌ عن النفس والوجود. استدعت توليفةً مُركَّبةً من أعمق وأصدق خصائصها الذاتية، وساعدها ذكاؤها الخلَّاق وسعة خيالها على تقديم منتج ممتاز! استخدمت وجهها النضر الفصيح في نقل المشاعر من خلال مناورات الاتصال غير اللفظي، وكانت لقسماتها سمات تجذل فتسرف، وتلتاع فتسرف، وتحنق فتسرف. تارة هي هادئة معقولة، وتارة أخرى عاطفية مهووسة. في ألفاظها جفوة وفظاظة مَرَّة، ونعومة وصنائع من لطافة مَرَّة أخرى.

كيف ألقى بنفسه بين براثن هذه الحشرة السامة؟ إجابةٌ بسيطة: إن الحُمْقَ والهَبَلَ فيه خصلتان متلازمتان! إنه يبحث عن الأخطاء المتَّصفة بالغباء ويترصَّد لها، فإن وقع على إحداها، قارفها دون تردُّد أو تفكُّر. نعم، غلبه هواه، وزيَّن له شيطانه عمله. ونعم أيضًا، إنها مُتَولِّهة به، متحيِّرة من شدَّة الشَبَق، ولوعة به لحد الخبل، أُشرِبَت حُبه وزُيِّن لها سوء عملها، لكن مع حضورها الطاغي وسطوعها الزاهي، بدا هو جانبها ككيانٍ هزيل.. بائس.. عديم القيمة.

مَثُلَت في مُخيِّلته بجمالها الوقح وبسمتها الأنانية وتحرُّكاتها الخُيَلائِيَّة، فلم يشحن نفسه بنيَّة الانتقام، بل انسحب إلى طبقاتٍ من السواد أَوْرَثَتهُ هشاشةً وتراخيًا، ثم فَنَاءً سَرْمَدِيًّا غيَّبه عن الواقع، بكى فيه حينًا، ونام أحايين أخرى، حتى انتبه على صوت انزياح المزلاج وفَتْحِ الباب. رفع عينيه بتشوُّش، فإذا بالعُمَّال الثلاثة واقفون أمامه، وعلى وجوههم نُذُر الشر.

***

مازال حسين في موقعه جالسًا، وجُثَّة سَمَا أمامه مُلقاة. مرَّت عليه ثماني ساعات، تغيَّرت فيها أجزاء الجثة الملاصقة للأرض إلى أنماطٍ لونية أرجوانية داكنة، نتيجة تجمُّع الدم للأسفل. ومع تكوُّن الأحماض اللبنية في العضلات، زحف الجفاف على البدن المُمَزَّق، وفاحت رائحة عطانة مميتة.

كان مُنكمشًا يرتجف، ويئن بخفوت، بينما تشتدُّ عليه الآلام في موضع قاتل. العذاب مزمن، والرعب والصدمة لا يوصفان، والاختلال والغيظ انقلبا إلى شواظٍ يأكله من

الداخل. إنه يريد أن يصرخ.. يصرخ.. ولا يستطيع. ثَمَّة شيء ثقيل يلقي عليه بجسمه، وغصَّة متكتِلة في حلقومه تحول بينه وبين التنفس. إنه يختنق ولا يموت. وإنه يتذكَّر المرَّة بعد المرَّة.. كيف انقض عليه العُمَّال الثلاثة.. وكيف احتنكوه بينهم دون رحمة. نَفَرَ منهم وضرب برجله، لكن هيهات. ما يصنع مثله، وفي حالته، مع ثلاثةٍ من الأبالسة الأشداء، سيطر عليهم سعارٌ محموم. صرخ وقاوم وسبَّ وتضرَّع إذ يفرج منهما اثنان ساقيه. ناح بأعلى صوته واستغاذ إذ يقبض ثالثهم على ردفيه بوحشية، ويفسخهما. ثم كان ما كان. انقبضت روحه إذ يقتحم المشهد مُخيِّلته بضراوة، وشعر بأنسجته تتمزَّق مجدَّدًا. إنه على شفا اختلالٌ عقلي نهائي. مازال يشعر بمحاولة الإقحام المروعة. ما زال الضغط يتجمَّع ضد العضلة العاصرة التي تشتدُّ في الانقباض دون إرادة، ودون منع يذكر، مع تدافع العزيمة الحارقة. كان صراعًا مفترسًا وشعورًا ضروسًا بالعذاب والنضال والدفع. ثم كانت السرعة وخشونة الاحتكاك دافعًا لبدء النزيف، دون أن يبالي من خلفه بما قد ينجم عن فعلته. وليته توقف بعد أن فرغ، بل تناوب عليه الآخران، حتى ناح متوسلًا إليهم، وعوى كالسعلاة، وانتابته نوبات تقلُّص عضلي مجنونة.

الأحداث تومض في ذهنه متجهِّمة خشنة.. تمخَّض اعتداؤهم عليه عن إلقائه أرضًا كالخرقة البالية، إنه يئن متخزِّئًا كمثل ما تأتي النساء لينًا ورخامة، والدم ينزف منه. الآن ليس إلا وجعًا فظًّا ينهش في لحمه. الفراغ يلوح أمام عينيه جهنَّميًّا لعينًا. ودَّ لو تنزل على رأسه صاعقة تحرقه. ودَّ لو لم يوجد، أو لتنتهي الدنيا بما فيها! لكن الألم يجثم عليه بلا رحمة. وإنه لا يحسن الجلوس على هذه الأرضية الشائكة اللعينة. وإنه لا يستطيع معالجة مصابه، ولو ببعض الماء الدافئ. إن آلامه تفيض عن الاحتمال. فقط تكوَّم قابعًا في مجلسه، محدِّقًا في الجثة أمامه كالأعمى.

* * *

مازال حسين في موقعه جالسًا، وجُثَّة سَمَا أمامه مُلقاة. غلَّفت العكارة عينيها، وتكاثرت البكتيريا في المعدة دون رابط، متسبِّبة في اختضاب أخضر عند الجانب السفلي الأيمن من البطن، ففاحت منها رائحة اللحم المتعفِّن. أسند حسين رأسه إلى الركن، وغاب عن الوعي تقريبًا.

وعندما سمع صوت الباب يُفتح، زحف الرعب إلى قلبه فورًا. كانت الصحبة كلها، عاصم وتَنِسِير ومُسْمَار والعُمَّال الثلاثة، تزاحموا في الغرفة، وارتدوا جميعًا كمامات على وجوههم اتقاءً لأجواء الغرفة المنتنة. قيَّدوا معصميه بالسلاسل، وتعاونوا لتعليقه في حلقة حديدية بالسقف. حلَّ تَنِسِير لفافةً رماديةً كئيبة، بدت بين طيَّاتها سياطٌ ذات شظايا معدنية حادة. رآها حسين، وعلم ما هو مقبل عليه، فكفكف دمعه، وزمَّ شفتيه، وانتظر قدره المحتوم.

انتقى تَنِسِير سوطًا تمتد من نهايته أربعة سيور من جلد الثور المدبوغ، مُشبَّك فيها قطعٌ حادةٌ من الحديد. هَزَّ السوط وهو يطوف حول ضحيته، ثم جمع قوته وأطلقها دفعةً واحدة. جاءت الضربة الأولى فاخترقت بشرة حسين وتركت آثارًا طويلةً داميةً، فأطلق حسين من صميمه صرخةً شنيعة. لم يمهله تَنِسِير، بل احتشد وتراجع، وأطلق السوط على جسمه بهمَّة، مرة أخرى وثانية وثالثة، ومع كل ضربة يتلوَّى جسم حسين كالأفعى، ويملأ الفراغ صراخًا متفجِّعًا وعويلًا، ثم خارت قواه وتحوَّلت صرخاته إلى ولولةٍ مكبوتة.

لم يكن هذا جَلْدًا، بل تشويهٌ وتنكيلٌ. فقد حسين في هذه اللحظات البائسة الشقيَّة كل شيء. ستسري الأمور معه كما جرت مع سَمَا، تجاه اللارجعة. لن يتركونه إلا مِزْعةً باليةً يختلط فيها اللحم بالجلد بالعظم. وأخيرًا فرغ تَنِسِير وقد بلَّلَهُ العرق تمامًا، ثم ألقى السوط بما علق به من دمٍ ولحمٍ، وانصرف لاهثًا دون أن ينظر لأحد أو ينبس بكلمة. تحلَّق الحاضرون حول حسين، ينظرون إلى التمزُّقات العميقة، والجروح المُتفسِّخة، وقضى عاصم وَطَرَه من المشاهدة ثم انصرف هو الآخر، فلم يبق معه سوى العُمَّال الثلاثة ومُسْمَار. سكبوا على جسده عَسَلًا كثيرًا من وعاءٍ ضخم، حتى تغطَّى من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم جمعوا معداتهم، وأغلقوا الباب.

* * *

ما تزال جُثَّة سَمَا راقدة. عمَّت البقع الخضراء الداكنة جدار البطن، وظهرت تفرُّعاتٌ منتفخة تحت الجلد، نتيجة تراكم غازات التحلل.

أما حسين، فمُعلَّق في السقف، ذراعاه مشدودان للأعلى، وأطراف أصابع قدميه

بالكاد تلمس الأرض، وطبقةٌ كثيفةٌ ولزجةٌ من العسل تكسوه من أعلاه لأسفله. ظنَّ أن العذاب مُشرفٌ على نهايته، وأنه قطع نصف الطريق للموت، لكن الألم مكتسح، لا يرحم، لاذعٌ وباهتٌ في أحيان، وحادٌ واخزٌ في أحيان أخرى. الجروح والتمزُّقات تسبَّبت في تغيُّرات طارئة في تركيبته العصبية، ما قوَّض عمل آليات تثبيط الألم في جسمه، وتركه فريسةً لنبضات وومضات تجنح إلى التردّي للأسوأ.

ثم ابتُلي بغثيان قاهر، تطوَّر مع رائحة التعفُّن الرمّي التي تملأ الغرفة، فأخذه الجؤار بين القيء والإسهال، وتلوَّث بهما جسمه وساقيه. ثم انفتح الباب، وبدا على عتبته مُسْمار حاملًا صندوقًا خشبيًّا، ألقى بمحتوياته في منتصف الغرفة، وكانت كتلة سوداء أشبه بالحصى، انتثرت على الأرضية. وأغلق مُسْمار الباب بسرعة دون أن ينطق. لم يُحدِّد حسين على وجه الدقة ماهية البركة التي توسطت الأرضية قربه، حتى بدأت في التدفُّق والتحرُّك البطيء. الآن علم لم دهنوه بالعسل. عندما رأى أول صرصور، خرج بلونه البني القبيح من بين البركة السوداء ملتمسًا سبيله ومستشعرًا البيئة من حوله بقرني الاستشعار الكبيرين، وساعيًا بأقدامه المشعرة وتكوينه اللزج المدكك. واتد اتجه صوبه مباشرة.. يا للهول!! إنها ليست بركة، بل تشكيلة متنوعة من الحشرات الزاحفة والطائرة وذوات الأجنحة والمخلوقات اللاسعة والسامة. لا يمكن أن تبلغ بهم القسوة هذا الحد!

إن حسين مصابٌ برُهاب الحشرات. خوفٌ قاتل يتداخل مع أوهامه واضطراباته النفسيَّة. إنه يَرهَب الحشرات من مجرَّد النظر، فكيف إذا رأى غزوًا غاشمًا قريبًا؟ وإنه ينظر إلى الحشرة عن بعد، فيعرف على وجه اليقين أن هذا الشيء الصغير المقزِّز يترصَّده ليلدغه. وإنه يفضل الموت مقتولًا أو محروقًا أو على خازوق، على أن تزحف على بدنه حشرة واحدة. لو رآها تقصده، ينقذف الرعب الكاسح في قلبه. رعب غير مُبرر وغير منطقي، يبث في نفسه رغبة قهرية في الهرب بأي ثمن.

دنا منه الصرصور شيئًا فشيئًا، فتدفقت في عروقه طاقةٌ هائلةٌ وطارئة، اهتز على إثرها بجنون محاولًا تخليص نفسه دون جدوى، ومع بركة الإسهال الآسنة والقيء أسفله وعلى جسده، والعسل الذي كساه، والوسط البيئي القذر المحبوس فيه، اجتمعت إليه جموع الهوام والحشرات، وغشيته باللدغ والقرض والزحف. إن الحشرات تعود،

دومًا تعود، مهما فَعَلَ لطردها تعود! على هذا مَرَّت عليه ساعاتٌ طوال. تزاوجت عليه الهوام، وباض الذباب على برازه ولحمه المكشوف، والتصق الدود ببدنه وجراحه المفتوحة. نضحت على وجهه أقسى آيات الفزع والمعاناة، وصرخ بأعلى حسِّه واستغاث، لكن سرعان ما اِسْتُنْفِذَت طاقته الطارئة، وهدأت مقاومته المسعورة، وهمد جسده. شعر بكل ساق حشرية مشعرة، وبكل عضة فك مفترس، وبكل قرصة ولدغة، ففاضت عبراته، وصار يبكي بحرقة وضياع وتضرُّع.

إنه عاجز عن ردّ الأذى عن نفسه، بينما تمشي هذه الأشياء على وجهه، وتزحف على شفتيه. ثم جاء هذا الزنبور البشع وحطّ على جفنه الأيمن، وهو يدنُّ دون انقطاع. تمنَّى لو تغور الأرض بما عليها وتنخسف، لو تزول الدنيا، ويحترق بني آدم، وينطبق الكون بعضه على بعض، ويُعفى هو من العذاب لحظة واحدة. تمنى الجحيم، وتمنى لو لم يوجد، وكفر وآمن، وكفر وآمن، ثم عاد فكفر كفرًا يُذهب إليه حتى لم يعد في جلده موضع إبرةٍ من إيمان.

مقت الله، وتضرَّع إليه، ثم أخذ ينوح بصوتٍ خافتٍ ذليلٍ راجيًا الرحمة من خالق أو مخلوق. ألا يرحمه الله بصاعقة من السماء تحرقه؟ أو بشلل يصيب أعصابه ويرفع عنه بعض ما هو فيه؟ تمنَّى لو يستطيع الانتحار. لو في مقدوره لفعلها دون تردُّد، فلو أن الله موجودٌ حقًّا، فسيبطش به في الحالتين، سواءً انتحر أو مات قتيلًا، لأنه سيقابله على شركٍ ومعصية. ولو لم يوجد، فالموت له خير وراحة. لكن المشكلة في كيفيَّة الانتحار. إنه مُقيَّدٌ في السقف. عاجز لا يقوى على تحريك إصبع واحد، ولو يقدر لما لبث هكذا معلقًا كالذبيحة، بل لما فكر في الانتحار من المبتدأ. سيستثمر وقته وقوَّته في صراعٍ بالأنياب والمخالب، نافضًا عن نفسه العسل، ودافعًا جموع الحشرات، ومقاومًا الزحف الملعون بضراوة، إلى أن يموت دون ذلك، أو يرفع الله عنه العذاب.

إنه يتمنَّى الموت. نعم، فليلدغونه حتى الموت، لكن الموت لا يأتيه. دومًا يكاد.. يكاد يموت ظمئًا، لكنه لا يموت، ويكاد يموت جوعًا، لكنه لا يموت، ويكاد يموت من صدمة العفونة، لكنه لا يموت، ويكاد يموت من لسع الزنابير، لكنه لا يموت. يا للبؤس!

ما تزال جُثّة سَمَا راقدة على وضعها، تتراكم فيها الغازات. انتفخ الوجه وتوتَّر، وتكوَّرت البطن، وجحظت العينان، وبرز اللسان من بين بقايا الأسنان. الزبد الرغوي الدموي يسيل من الأنف والفم، والنفطات تتكوَّن تحت الجلد وتنفجر مطلقةً رائحة لا تُطاق.

انفتح باب الغرفة، ودخل عليه العُمَّال الثلاثة بكماماتٍ بيضاء تستر أنوفهم وأفواههم. وجَّه أحدهم خرطومًا من البلاستيك نحو جسم حسين الهامد المُعَلَّق، المكسي بغلالة كثيفة متحرِّكة من الحشرات، وفتح صِمَامَه، فاندفع ماءٌ مثلجٌ تحت ضغطٍ شديد غمَرَه وهزَّه بعنف، ونفض عنه كتل الحشرات لكل الاتجاهات. وبدا من بين الرذاذ والقطرات جسد حسين النحيل الممصوص، وبشرته المتسلِّخة الدامية.

دخل عاصم وتيْسير ومُسْمَار، والكمامات البيضاء تغطِّي أنوفهم وأفواههم أيضًا، وخطوا داخل الغرفة بأناةٍ وحرص، مراعين ألا يدهسوا حشرة أو ينزلقوا في الماء. تحلَّقوا حول ضحيَّتهم المعلَّقة، وأمعنوا فيها النظر. كان حسين ساكنًا لا يُصدِرُ صوتًا، ولا تُلاحَظُ منه من دلائل الحياة إلا تنفسٌ ضعيف لكن منتظم. عيناه مفتوحتان بقدر، ويُقسم عاصم في قرارة نفسه أن الشاب يرى ويدرك على ما به من مُصاب. تقدَّم العُمَّال الثلاثة وتعاونوا لفَكِّه عن مُعَلَّقِه، ومع كل لمسة منهم لجلده الممزَّق يصدر عنه أنينًا مؤلمًا وخافتًا، حتى وطأت قدماه الحافيتان الأرضية الشائكة، وغاصت في الشظايا والإبر. أجلسوه على مقعد خشبي، فتراخى عليه كالجثة، ومال رأسه برخاوة.

صفعه مُسْمَار بشدَّة عدة مرات حتى انتبه. أدار حسين عينيه في الحاضرين بذهول شامل، ثم انتبه إلى طقطقة صدرت من أصابع عاصم، وسمعه يسأله بخفوت:

- سامعني يا حسين؟ فاهم أنا أقول إيه؟

للعجب، هَزَّ حسين رأسه إيجابًا بإعياءٍ شديد. فقال عاصم متعاطفًا:

- أنا عارف أن الألم شديد عليك.. ياريت تكون ليِّنت دماغك.

- يا حسين من فضلك.. هي معلومة بسيطة، وكل المعاناة دي تنتهي.

تنهَّد عاصم، وقال مُحاولًا القبض على أعصابه قدر الإمكان:

- يا ريتك تقدر تبص لنفسك. مش شايف أنك دفعت ثمن كفاية؟ البضاعة دي مهما تساوي، هل قيمتها أكبر من قيمتك؟ جسمك وروحك؟! أنت اتدمَّرت يا حسين، وإن خرجت من هنا حي، حتعيش بعد كده على الأدوية، أو على كرسي متحرك.

- مش معنى كده إن جراب الحاوي فضي. لسه يا حسين.. صدَّقني، لو ما عقلتش، اللي جاي أسوأ وأضل سبيلًا.

نهض عاصم وأمارت الغيظ وبعض من فزع تبدو على وجهه، فكأنه موشك على البكاء. ماذا يفعل الآن؟! الأحمق يرفض أن يتكلم. يرفض؟! طيِّب، ليس له إذًا إلا العروسة! لكن هل يضمن أن تجبره العروسة على الكلام. يستطيع أن يقسم الآن أن حسين لا يعلم مكان الشحنة. يا للمصيبة!

ذرع عاصم الغرفة جيئةً وذهابًا، ثم حثَّ خطاه نحو حسين، وقال بنقمةٍ وشراسة، وعينه اليسرى تززُّ بنبضات لا إرادية:

- أنا مش حأسيبك إلا لما تنطق يا حسين.. لا حأسيبك، ولا حتموت، إلا لما آخذ منك اللي أنا عايزه.

ولأول مرة منذ بدأ هذا الجنون، مدَّ عاصم يده، وغرس أظافره في وجه حسين، وقال بغضبٍ مجنون:

- مش حأسيبك إلا لما أسمع منك الحقيقة.

خار حسين بين قبض الأصابع، فتركه عاصم بسخط، ونهض مشيرًا للرجال وصارخًا:

- دخَّلوه على العروسة.

فورًا أخرج مُسْمَار من جيبه مفتاحًا ضخمًا عتيقًا، اتَّجه به إلى باب الغرفة الأخرى الذي لم يُفتح منذ استضافوا حسين. قبيحًا كان، وكبيرًا كان، بإطار مُطعَّم برؤوس المسامير، وعظم من الصلب. دسَّ مُسْمَار المفتاح في القفل، فانزلقت الأسنان في مأواها،

وهبطت الدبابيس إلى مكامنها، ودارت الاسطوانة ساحبة لسان القفل، وانفتح الباب بخشونةٍ وصرير مزعج مُقَشْعِر، لتلوح من خلفه ظلمة محكمة.

مدَّ مُسْمَار يده وضغط مفتاح الكهرباء، فأضاء المصباح البسيط ممرًا طويلًا بجدارين من الخرسانة الرمادية، وسقفٍ تمتد عليه مواسير صرفٍ وتغذية، وأرضية مكسوَّة بالسيراميك، آخرها يقف شيءٌ له هيئة آدمية، لم يكد يظهر من الظلمة.

تعاون عاملان، وأسندا ذراعي حسين على كتفيهما، وسارا به جهة الباب، يتبعهم الجميع. تقدَّموا عبر الممر ببطء، بينما تترك قدما حسين على الأرضية أثرًا طويلًا ممسوحًا من الدم، حتى وصلوا لنهاية الممر المسدودة، حيث وقفت العذراء الحديدية.

- اسمها العذراء الحديدية، إحنا هنا بنسميها العروسة.

هكذا همس عاصم في أذن حسين بصوت خافت متَّقد، اختلط فيه الحقد بالانفعال والإثارة.

العذراء الحديدية هي خزانة معدنية مُصمَّمة على هيئة امرأة، ببروز على قمتها بشكل رأس. ترتفع في الطول لأكثر من مترين، وتكفي لاحتواء رجلٍ كامل النمو. حدَّقوا برهبة في هذا الكيان الأسود المخيف، ذي الباب المزدوج، والسطح الوعر الصدئ، والقاعدة الخشبية الثقيلة.

فتح مُسْمَار ضلفتي الخزانة، فبدت بجوفها المظلم بالقبر أشبه. فراغ ضيّق محصور، برز من جدرانه الداخلية عشرات المسامير المدبَّبة. شعر بهم حسين يرفعونه إلى العذراء. شعر بهم يدخلونه الفراغ المظلم الضيق. شعر بأول وخزات في ظهره من المسامير.

ثم كان عويلٌ هَرَعي وصراخٌ اهتياجي خرجا من حلق حسين، وتردَّدا في الممر ليَخْزِقا أسماع الحاضرين عند إغلاق أبواب العذراء الحديدية عليه ببطء. اخترقت رؤوس المسامير المدبَّبة ذراعيه وساقيه وفخذيه في مواقع متباينة، واخترقت مجموعة أخرى كتفيه وصدره وبطنه ومثانته وردفيه، ولم يُصَبْ عضوٌ حيوي واحد مع هذا. واخترق عينه اليمنى سن مسمار، بَخَقَها وسيَّل ما فيها. تواصل صراخه الهستيري حتى انطبقت ضلفتا باب العذراء تمامًا، فانكتم الصراخ في جوفها الجهنمي المظلم، حتى لم يُعد يُسمع إلا عويلًا مبهمًا مكتومًا.

لا تصلح الكلمات لوصف حال سجين العذراء، لأن الكلمات مهما كانت لن تضاهي إحساس من عاين وعايش الواقع. هي تجربةٌ عضويةٌ قاهرةٌ أكبر من الوصف، كابد فيها حسين حالة استثارة قصوى واستنفار ذهني وعصبي وبدني، فتَلَاَطَمَتْ حواسُه بين وخزات ألم تتَّصل وتنقطع ولا ترحم. الفراغ بالداخل ضيِّقٌ مظلمٌ بهيم، صامت عازل لا يسمع فيه إلا صوت نواحه. ومع الوقت تعقَّدت استجابته للألم وتبدَّلت فيها الحدود بين ما يُطاق وما لا يُطاق. إنه في قبر حديدي هيَّأ له الحافز الأقصى للشعور بالعذاب المطلق. اختفى الفارق بين مستهل الإحساس بالألم وقدرة تحمل الألم، فأصبح الألم كله مُستهلًا حسيًا ثابت الشدَّة، كاسحًا لا يُحتمل. إن الوقت يمر بطيئًا بلا رحمة، وإنه محصور لا يطيق ولا يستطيع الموت، ولا يقدر على الاحتمال. المسامير في بعض المواضع عميقة، حقَّقت اختراقًا غائرًا أثار مُستَقبِلات الألم الحَشَوِيَة.

يومٌ أو أكثر غَبَر عليه، لم يقضه في عزلة مطلقة، بل زاره عاصم بصحبة أحد رجاله أكثر من مرة. يقوم رجاله بحل إحدى ضلفتي باب العذراء، وتلك أشد اللحظات عُسرًا، حيث ينسلخ النواح المجنون للممر، ويلوح نصف جسم حسين العاري مستقيمًا في فراغ العذراء الحديدية، بثقوبٍ سوداءٍ دمويةٍ قبيحة، ووجه يتمعَّر في الشقاء والمعاناة. يقف عاصم أمامه مشدوهًا ولا ينبس، ويأخذه ذهول سامق لا يفكر معه في شيء. ثم يتمالك نفسه، ويسأله بغيظ ورجاء أن يخلِّص نفسه، ويدلَّهم على مكان شحنة المخدرات. وما من مجيب. فيسخط ويسبُّه وينصرف، ومن خلفه يغلق رجله ضلفة الباب على الضحيَّة بعنف، لتخترق الأنسجة في مواضع منحرفة بلا رحمة، مسبِّبة جروحًا نافذة جديدة.

ساعاتٌ تمر ومقياس الألم يتصاعد بلا سقف. ساعاتٌ تمر وعزم الألم يشتد ويزداد سوءًا. حاول الشقيُّ إلهاء نفسه بأي طريقة. بكى واستغاث بالله في سره وعلانيته. كان يصرخ بتضرُّع وجنون، برجاءٍ ونقمة، بيأسٍ وثورة: "يا رب.. يا رب، أنت سامعني؟!"، ويصرخ ويصرخ: "ارحمني يا رب.. ارحمني." فكَّر في كل وخزة، في كل نسيج يتمزَّق، في كل مسمار ينشب في عظمه. إن هذا لا يُقاس. الثواني تتراكم ولا شيء ينتهي. إنه لا يحتمل المزيد، والمزيد قادم.

مَرَّة أخرى فتحوا ضلفة من باب العذراء، فلاح البدن النحيف المتلوي من العذاب.

وقف عاصم مبهوتًا، وكانت أول مَرَّة يرى عينه المفقوءة. ثم تدارك نفسه، وطلب من مرافقه أن يدعه مع سجينه. كان عاصم في حالةٍ يرثى لها، وقد أدركه اليأس التام. وبصراحة، لم تساعده الأجواء المجنونة هذه على الاسترخاء، أما ضوضاء الأنين المتواترة فمزعجة للغاية. وفكَّر: أولم يحن بعد وقت الحديث؟ ماذا يفعل معه أكثر من هذا؟ الميعاد النهائي يقترب، والخيارات محدودة. إما العثور على الشحنة، أو الهلاك. هذا الكلب الأحمق. إنه يستحق ما يحدث له. كيف وردت على ذهنه حركة بهذا الغباء؟ وكيف؟! كيف يأتمن البدو على شحنة كتلك، بما لهم من الغلبة في الرجال والسلاح؟! إن شخص بهذا الغباء حريٌّ به ألا يعيش في دنيا الناس. لكنه لن يموت حتى يدفع ثمن ما فعل، حتى يستنفد منه آخر قطرة عرق، وآخر دفقة طاقة، وآخر نقطة دم في عذاب لا ينقطع ولا يرحم.

أغلق عاصمٌ عينيه بشدَّة، ثم زَفَر، وجلس أمام الخزانة الحديدية على مقعدٍ معدني وُضع له خصيصًا. أعصابه متهيّجة، وأوتاره مشدودة على شفا الانهيار. ثم بدأ في الحديث. لم يكن صوته مسموعًا مع الضجيج النائح، لكنه تحدَّث على كل حال. كلامٌ غريب ومنقطع الصلة، عن الألم: الصفة اللازمة في التجربة الإنسانية، التي تلخِّص المعاناة في صورة مُصغَّرة. عن نفسه. عن أمه. عن زوجته وأولاده. عن علاقته بحَسَن الجارحي. عن شحنة المخدرات. كان مبتسمًا طوال الوقت.. بعصبية.. وكراهية.. وقلة حيلة. ثم سأل حسين بضراوة عن مكان الشحنة، ورجاه واستغاث به دون جدوى. إنه لا يفهم أن ضحيَّته عنه في شُغل عنه، لا يسمع ولا يري ولا يدرك. ثم إنه أسند رأسه إلى قبضتيه، وبدا من اهتزازه أنه غاب في بكاءٍ عاجزٍ يائس. وأخيرًا قام عن مقعده والسخط يكسو وجهه، وأخذ بطرف ضلفة باب العذراء، وصفقها على جسم حسين بعنفٍ وثورة، غير عابئ بالصرخة المفاجئة التي انكتمت ما أن انطبقت الضلفتان.

إن حسين يئن بخفوت. المسامير لا ترحمه، تعبث بثقوبه وتحتك بلحمه وتخدش عظمه. إنه يشعر بعينه اليمنى تسيل. يتخيَّل سائلًا لزجًا مختلطًا بالدم ينزّ من الثقب الدامي، الذي كان يومًا عينًا ترى. المسامير مُثبَّتة في مواقع دقيقة لا يمكنها قتله.

حاول أن يحرِّك جسده كي يغمد المسامير في أعضاءٍ حيوية، ولم يؤد هذا إلا لمزيد من المعاناة. أنينه لا يزيد حاله إلا تعاسة، وألمه لا يدعه ينسحب إلى نفسه. إنه يحاول

الانسحاب إلى نفسه. لكن الألم يشفطه للخارج. إنه لا يتعب ولا يهدأ. ولا يغفل ولا ينسى.

* * *

تقع مدينة العاشر من رمضان على طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي، بسعة استيعابية تبلغ نصف مليون نسمة، وعدد ألف ومائتي مصنع تقريبًا، برأس مال يتجاوز السبعة عشر مليار جنيه. وتحتل فيها مجموعة «عبد الهادي» الصناعية موقع الصدارة بين منظومة المصانع بالمدينة. حول المجموعة يمتد سورٌ مرتفع من الخرسانة، مكسو بأعمال فنيَّة من الرخام والجرانيت، تتداخل فيها الكتابات بالخط الكوفي من أمثال: «لا حول ولا قوَّة إلا بالله»، و«بَشر الصابرين»، أما المدخل فرُفعت عليه يافطة ضخمة بكتابة بارزة: «مجموعة عبد الهادي الصناعية».

تتكوَّن منشآت المصنعين من عددٍ كبير من العنابر وخطوط الإنتاج، تفصل بينها ممرات الحركة والشحن الواسعة، والحدائق المُنسَّقة بالشجيرات والزهور. يجول العُمَّال غدوًا ورواحًا في أوفرولاتهم الزرقاء، وتغادر جموعهم العنابر ثلاث مرات في اليوم، لتحل محلها ورديةٌ جديدة. النظافة هي السمة السائدة في المكان، فعُمَّال النظافة يجتهدون على مدر اليوم لغسل الحوائط والأرضيات كافة، ليلًا ونهارًا.

أرخى الظلام سدله على المصنع، وبواسطة الخلايا الكهروضوئية أضاءت أعمدة النور والكشَّافات كل مكان في المصنع. مرَّ الوقت بطيئًا، وشيئًا فشيئًا خفَّت الحركة، وساد صمتٌ شبه تام، إلا هدير الماكينات القادم من العنابر. صفت السماء أو كادت إلا من بعض السحب المنخفضة المتفرِّقة، وسكنت الريح ولطف البرد، فلم يشعر له العاملون إلا بلسعة خفيفة، شفعت لها نقاوة الهواء وجو السكينة.

في تمام الساعة الثالثة صباحًا، توقَّفت سيارة شيفروليه نصف نقل (المعروفة تجاريًا باسم شيفروليه الدبابة الدوبل كابينة) حيال البوابة الحديدية. ألقى عليها موظف الأمن نظرة مُتَفحصة، ثم غادر كابينة الأمن، واتجه بوجه مُتفرِّس نحو البوابة دون أن يفتحها. نظر للسيارة بشك، في حين استجابت السيارة بنفيرين مزعجين. ثم ميَّز شخصًا بالغ الضخامة ينحشر على مقعد السائق، وآخر جالسًا على الكَنَبَة الخلفية.

هذا الآخر فتح باب السيارة، وهبط. هو رجلٌ سمين، مستديرٌ كالكرة، يرتدي حذاءً لامعًا كالمرآة. هذا ما استرعى انتباه موظف الأمن. أقبل هذا الرجل على البوابة متلفِّتًا حوله، حتى توقَّف أمام موظف الأمن بالضبط، وقال بابتسامة سَمِجَة:

- سيِّد العدوي.. المحامي.. عندي ميعاد مع عاصم بك.

- نعم؟!

- عندي ميعاد، مع عاصم بك.

- الساعة ثلاثة صباحًا يا أستاذ، وعاصم بك مش موجود.

- عندي ميعاد، وتقدر تتأكِّد.. عاصم بك منتظرني.

هَزَّ الموظف رأسه نفيًا بعناد، وقال:

- لا يمكن.

- مؤكَّد في خطأ.. شف لي حد كبير أكلمه.

نظر إليه الموظف بريبة، وتحدَّث هَمْسًا في جهاز الاتصال اللاسلكي. ثم رأى عملاقًا يهبط من مقعد القيادة، واتسعت عيناه دهشة، إذ لم يتصوَّر أن يوجد على ظهر الأرض إنسان على هذه الهيئة من الضخامة والغلظة. الواقع أن الضخم أثار توتره، فتراجع. ثم خرج من الكابينة رجلٌ متوسط الطول، أكرت الشعر. سعى إليهما برزانةٍ وتَأَنٍّ وهو يعرج، ونظر متمعِّنًا في الرجلين وتساءل بأدب:

- مساء الخير.. من حضراتكم؟!

- معاك سيد العدوي، المحامي.

- خيرًا؟

- عندي ميعاد مع عاصم بك.

- مستحيل يا أستاذ، إحنا قرب الفجر.

- والله الميعاد كده.. أنتم حددتموه.

هَزَّ الرجل رأسه نفيًا بثقة، وقال:

- مستحيل.. يا محترم، أنا تَيْسِير عبد الحكم، مدير إدارة الرقابة والأمن، ومدير مكتب عاصم بك.. المواعيد أنا أحددها، ولا أذكر أني قابلتك قبل كده.

تساءل العدوي بانتباه:

- أنت، تَيْسِير عبد الحكم؟

ردَّ الرجل بحذرٍ مفاجئ:

- هو أنا.

أومأ العدوي موافقًا، وأشار للنونو.

على الفور استل النونو من تحت إبطه مسدسًا بكاتم للصوت، سدَّده لرأس موظف الأمن، وأطلق النار. وقبل أن يستوعب تَيْسِير الحدث، فوجئ بقبضة النونو تطبق على فكه وتجذبه ليصدم مُصبَّعات البوابة الحديدية بعنف. كانت غلطته أنه وقف قريبًا، في متناول يد خصمه من الخارج. سأله العدوي أن يفتح لهما البوابة، فقال تَيْسِير فزعًا، وهو لا يكاد يحسن حديثًا مع قبضة النونو الخشنة التي تكاد تفتك بفكه:

- من جُوَّه.. البوابة ما تفتحش إلا من جُوَّه.

أخذ العدوي المسدس من العملاق، ووجَّهه إلى تَيْسِير، وتوعَّده بالموت لو تحرَّك أو أصدر صوتًا. أما النونو فقد اعتلى البوابة بقفزةٍ عالية، ثم قفز للجهة الأخرى. زُلزل قلب تَيْسِير مع عبور العملاق للجهة الأخرى، وأدرك أن الموقف تدهور ببساطة لا يمكن تخيلها. جَذَبه النونو من قفاه بقسوة، وباليد الأخرى جرَّ موظف الأمن القتيل من قدمه. فكَّر تَيْسِير في الصراخ، لكن بطنه كانت تفور وتضطرم، وعجزه عن التصرف يهيمن عليه. ولم يدر بنفسه إلا وهو في الكابينة يفتح البوابة، والنونو يلقي بجُثَّة الموظف بإهمال خلف المكتب.

ثم انفتحت البوابة الحديدية أمام العدوي. فعبر بسيارته للداخل. تحركت السيارة بكشافات مُطفأة، وانتحت ركنًا خفيًّا مستورًا بتجمّع كثيف من الشجر. توجَّه العدوي إلى غرفة الأمن. وعند دخوله رأى النونو واقفًا، وتَيْسِير يجلس أمام المكتب كالتلميذ بوجهٍ ممتقع. جذب العدوي مقعدًا، وجلس أمامه، وسأله مباشرة:

- فين حسين؟

- حسين من؟!

هكذا تساءل تَيْسِير فورًا باضطراب شديد. فمال العدوي تجاهه، وقال برزانة:

- طيّب، بلاش السؤال ده.. فين المُكعَّب؟

- إيه المُكعَّب؟!

تساءل بها تَيْسِير مرتعشًا، فتنهَّد العدوي وتعكَّر مزاجه، ثم قال مُفسِّرًا:

- الأوضة اللي تحت الأرض.. اللي بتِوْصَلوا لها بسرداب.. اللي بتخطفوا فيها البنات والأولاد الصغار والمتشردين والشحاذين، وتعملوا فيهم حاجات قبيحة.

أطبق تَيْسِير شفتيه بقوَّة، وبدا له أن هذا هو خير ما يفعل حاليًا. فأطبق العدوي شفتيه بالمقابل. ثم نهض ولطمه. لم تكن اللطمة قوية بقدر ما كانت مفاجئة، حتى أن تَيْسِير نظر مذهولًا، واحمرَّ وجهه. في اللحظة التالية فوجئ بيد النونو تقبض على رأسه كالكمَّاشة. جذبه وطرحه على سطح المكتب، ووقع عليه مستمكنًا كربوض الأسد على فريسته، وعاجله بلطمة رهيبة قطعت شفتيه وأدمت أنفه، ثم قبض على شعره ورفعه منه بقسوة ومُرُود، وطرحه مجدَّدًا على سطح المكتب. أغمض تَيْسِير عينيه وتلوى ألمًا، بينما يتقدَّم إليه العدوي متهاديًا. مال عليه، وسأله بأناة:

- فين المكعَّب يا تَيْسِير؟

على الرَّغمِ من الفزع والألم، أطبق تَيْسِير فمه رافضًا التعاون. ومع هذا نظر إلى النونو ضارعًا، قبل أن يكتم العملاق أنفه وفمه، ثم يستل سنجته العريضة. اتسعت عينا تَيْسِير برعبٍ، بينما يقبض العدوي على يده اليمنى، ويبسطها على سطح المكتب. رفع النونو سنجته، ونزل بمقبضها على يدِ تَيْسِير بِفَرْقَعَةٍ مروِّعة. خَارَ الرجل، وأخذته رجفةٌ عاتية، وتطايرت مع الضربات الصاعقة التالية قطرات الدم. لم تتحطَّم يده من الضربة الأولى، ليس لتهاونٍ من جهة النونو، بل للصلابة الطبيعية التي تتسِّم بها عظام بني آدم. لكن مع الضربة الأخيرة انكشف حجم الدمار الواقع في يد تَيْسِير، إذ تحطَّمت عظام السُلاميَّات ومشط اليد وبعضٌ من عظام الرسغ، واهترأ الجلد فوق موضع الإصابة.

احتقن وجه تَيْسِير كأنما سينفلق منه الدم. نبعت من عينيه الدموع، وارتعش جسمه لاإراديًا دلالةً على البكاء، ولولا كف النونو الغليظة التي تقبض على فمه، لأطلق حنجرته في صراخٍ جنوني. نظر العدوي لما يحدث مُسْتَبْشِعًا، وتقهقر غريزيًا دون أن ينطق، أما النونو فرفع مقبض سنجته الملوَّث بالدم ليناله بضربةٍ أخرى، لكن العدوي هتف به بصوت لاهث:

- خلاص، خلاص.. صبرك بالله.

وتقدَّم بحرصٍ، ومال جهة تَيْسِير الباكي، وقال له ساخطًا:

- عاجبك كده؟ أنا حاقول له يرفع يده، لكن من فضلك ما تصرخش.

هَزَّ تَيْسِير رأسه موافقًا، فرفع العدوي كف النونو. تجعَّد وجه الرجل كله، وانقبض جسمه وسقط أرضًا عن المكتب، ثم انكمش على نفسه، وأطلق آهة عميقة خشنة وخافته، ثم انفجر باكيًا. احترم العدوي حالته، واستثمر الوقت في تفتيشه. جرَّده من هاتفيه المحمولين، وسأله بشيءٍ من العطف:

- فين المُكعَّب يا أستاذ تَيْسِير؟

فتح تَيْسِير فمه عن آخره، وتأوَّه دون صوت، ثم قال فورًا:

- تحت عنبر الشكائر.

قال العدوي متفهِّمًا:

- طبعًا أنت حتمشي قدامنا، لأننا مش حنعرف نوصل لوحدنا.

أومأ تَيْسِير برأسه موافقًا عدة مرات، فغادر العدوي مكانه، ونزع سترة موظف الأمن القتيل، ومزَّق منها المِزْعة تِلْوَ المِزعة، وطوَّق بهم جرح اليد وعقدهم بحرصٍ وعناية، فيما تَصْدُرُ أنَّاتٌ متهالكة متكسِّرة من بين شفتي تَيْسِير.

وضع النونو يد تَيْسِير المقطوعة في أحد أدراج المكتب، ثم خرج ثلاثتهم. وتحت سواد الليل مضوا حتى وصلوا لعنبر شكائر البلاستيك. كانت الأجواء ساكنة، فلم يصادفوا إنسانًا في ترحالهم. وفي ركن قصي، لاح بابٌ حديديٌ لغرفة كهرباءٍ مُؤْصَدَة، تعامل معه تَيْسِير بصعوبةٍ شديدةٍ ببطاقةٍ مُمَغْنَطة، وأدخل شفرةً قصيرةً في لوحة الأزرار الملحقة

بقفل الباب الإلكتروني. انزلق المزلاج بتَكَّةٍ خافتة، ففتح العدوي الباب، ودخلوا جميعًا. لم يكن بالداخل إلا فراغًا خاليًا، ليس به معدات كهربيَّة ولا لوحات توزيع ولا شيء البَتَّةَ. فقط توسَّط الأرضية ما يبدو كغطاءٍ معدني ثقيل لبالوعة عمومية، مُغْلَق بقفلين، الأول قفل مشبك توافقي، والثاني قفل مشبك عادي. أخرج تَيْسِير بيسراه سلسلةً تزاحمت حول حلقتها المفاتيح. انتقى مفتاحًا، وأقعى على أطراف قدميه محاولًا فتح القفل العادي يائسًا. كان العمل بيدٍ واحدة مستحيلًا، فنزل إليه العدوي وسَحَب المفتاح من يده، وحلَّ القفل. اتَّجه تَيْسِير إلى القفل التوافقي الآخر، وأدار قرصه الدائري المُرَقَّم عدة مَرَّات، حتى انفتح مزلاجه، فرفع النونو الغطاء الثقيل بيسر.

أسفل الغطاء كانت فتحة في الأرضية، بدا من جوفها في الظلمة سُلَّمٌ يقود إلى سوادٍ مخيف. ارتعدت فرائص العدوي، وشعر برهبةٍ عظيمةٍ تغمره، وبحصرٍ نفسي، وتلهُّف شديد للمغادرة. إنه لن يهبط لهذا الجُبِّ الملعون. أشعل النونو كشافًا ضوئيًّا، ومضى ينزل السلالم دون مبالاة. حدَّق العدوي في العملاق بانزعاج، ثم لم يجد بُدًّا من أن يدفع تَيْسِير أمامه بخشونة، ويتبعه. كان يمسك بتَيْسِير كأنما يتشبَّث به طلبًا للصُحبة، حتى وصل الثلاثة لغرفةٍ كبيرةٍ في القاع لها باب حديدي قبيح علاه السواد ربًّا. انتقى تَيْسِير ثلاثة مفاتيح، ومدَّ بها يدًا مرتجفة للعدوي. اتَّجه المحامي للباب، وحل المزلاج العلوي بمشقة، ثم الأوسط فالأدنى، وفتحه بصريرٍ مزعج.

تسلَّلت رائحةٌ منتنةٌ عبر فُرْجَة الباب، فدار رأس العدوي من شدَّة ما وجد من خُبْثٍ مستحكم، وكاد أن يُغْمَى عليه. رفع فورًا يده إلى أنفه وفمه، وعاودته رغبةٌ حارقةٌ في أن يترك هذا المكان ولا يعود إليه أبدًا، فيما لم يبد على النونو التأثُّر أو الاكتراث، أما تَيْسِير فكان في شغلٍ عن الروائح حاليًا، وهو على كل حال معتادٌ عليها.

تقدَّم الثلاثةُ على ضوء الكشَّاف المقبض بين جدرانٍ علاها السواد وحفَّتها المواسير وقطرت منها المياه، وكلما تعمَّقوا كلما ازداد صنُّ الرائحة، حتى اضطربت بطن العدوي وانقبضت جدرانها، وغشيه تهيُّجٌ وزيادةٌ في إفراز اللعاب مع إحساسٍ كريه، فثارت نفسه للقيء، وتصاعد الحمض من معدته إلى حلقه. فكَّر تَيْسِير ألف مرة في الهرب.. الفرصة سنحت مرارًا.. وإنه يعلم طريقه على عكسهم. الأمر يستحق المخاطرة. لكنه ما حرَّك أصبعًا. كان في حالة ذهولٍ أشبه بالهستيريا الانشقاقية، من حيث فقدان

التركيز في السمع والبصر والإدرك العام، مع إعياءٍ عميق. تفسَّخ وعيه، وتَشَتَّتَت إرادته، وأصابه ارتباكٌ شديد جعله يسعى كالنائم أو الحالم.

ثم وصلوا لمكانٍ مُظلم أشبه بالمجزر، أو ورشة نجارة، أو هو وسطٌ بين الاثنين. من السقف تدلَّت تشابكات من السلاسل والخطاطيف، وعلى الأرض امتدَّت مناضد ثقيلة عليها آلات حدادةٍ ونجارةٍ، ومقصَّات وكمَّاشات وأدوات خزق كهربية ومناشير، ومعدَّات لحام. على الجانب تراصت عدَّة صناديق قمامة ضخمة، تكوَّمت فيها أشياءٌ تحاشوا جميعًا النظر فيها، وتحاشى النونو نفسه تسليط الضوء عليها.

وأخيرًا وصلوا لبابٍ حديدي مصبوغ بالسواد والصدأ، اختار له تَيْسِير من تلقاء نفسه مفتاحًا وسلَّمه للعدوي، الذي جعل يعالج مزلاجه بتراخ وبلادة. حلَّ قفليه الكبيرين، ورأى جانب إطار الباب مفتاح إضاءة. ضغطه بحركة آلية، ودفع الباب الثقيل فإذا به يرى أول ما يرى مصباحًا كهربيًّا أصفرًا بسيطًا، يتدلى من السقف بسلكٍ قصير.

غمر الضوء الشاحب الغرفة ذات المسقط المربع، ولانعدام أي منفذ للتهوية، هجمت عليهم رائحة قذرة ثقيلة. ترنَّح المحامي، ودار بعينين زائغتين في الغرفة. الحوائط الرمادية الكئيبة. بقع السناج والوسخ. الأرضية القذرة وبركها الآسنة. الأركان المنتنة بالفضلات والرطوبة. الصنبور البارز من الحائط. والجُثَّة.. على النور المُقبض تعرَّف على جثةٍ مُمَثَّل بها ومشوَّهة لامرأة، ترقد على بركةٍ غامقة اختلطت بالقذر والطين والشظايا. وجهها ثابت على آيةٍ من آيات العذاب، بانفراجة الفك، وجحوظ العينين. قَطَعَت الجُثَّة شوطًا طويلًا من التحلُّل، بعد أن تعدَّت مرحلة الانتفاخ نتيجة تراكم الغازات، حيث خرجت محتويات المعدة من الفم، ومحتويات المستقيم من الشرج، وانبعثت منها غازات هيمنت على فراغ الغرفة.

تلفَّت العدوي حوله غير مصدِّق. أحَسَّ بألم شديد في صدره يتسلَّل إلى ذراعه. أحَسَّ بالرعب والانقباض، وبأن هذه الغرفة هي مقبرته ومدفنه ومثواه الأخير. أحَسَّ أن هذه الظلمة هي ظلمة الموت، وأن كل شيء تضافر لإهلاكه. أحَسَّ بمَلَكِ الموت خلفه يأخذ برأسه، ويستعد لاقتلاع روحه. انهاض كيانه قطعة قطعة. ناله الهدْم والرعب. إنها أول مرة يرى فيها الموت على هذه الصورة. رآه كثيرًا، لكن ليس هكذا. صار يهذِّئ نفسه شارعًا

الغرفة ذهابًا وإيابًا. هَمَسَ بكلمات مُكرَّرة ومبهمة حتى تمالك نفسه، ثم رفع لتَيْسِير عينين مُتَّقِدَتين، وقال بصوت مخشن مبغض:

- حسين فين؟

- ورا الباب.

قالها تَيْسِير وهو يشير بأصبع مرتعشٍ جهة الباب المقابل، وتكرمشت عضلاتُ وجهه كالمقبل على البكاء. ضغط العدوي على يده المُحطَّمة بقسوة، فصرخ تَيْسِير صرخةً تردَّدت في الفراغ. لكن العدوي لم يبال، بل سأله بشراسة يندر أن يستعملها:

- في إيه ورا الباب؟!

قال تَيْسِير بشهيق:

- افتح وأنت تعرف.

رفع العدوي سلسلة المفاتيح أمام غريمه، وقال آمرًا بغلظة:

- اختار المفتاح.

مدَّ تَيْسِير يدًا مرتعشة، ولم تمض الدقيقة حتى انفتح الباب، فإذا بالثلاثة في ممرٍ مقبض، في نهايته تقف العذراء. لما لاحت الخزانة الحديدية السوداء، مستقيمة على قاعدتها الخشبية الثقيلة، راسخة في موقعها عند نهاية الممر، أَحَسَّ الثلاثة بشيءٍ مُبهمٍ وكريه يلتهمهم من الداخل، فجمدوا لحظة فزعًا، وكان أشدهم فزعًا العدوي. حدَّق في هذا الشيء مُسمَّرًا، ولم يتصوَّر بالضبط ما هو، وما يمكن أن يحدث بداخله، لكنه علم أنه حتمًا شيء مروِّع. حتى النونو، نظر إلى العذراء مسحورًا. نجحت الخزانة الحديدية في بث رسالة سلبية خاطبت غرائزه البَرِّيَّة، فلفتت انتباه، وربما أرعبته.

خطا العدوي مُسيَّرًا. كل خطوة يخطوها تجاه العذراء يُستحكم عليه معها شعورٌ بضمة القبر وظلمته. يُهيَّأ إليه أنه يسمع صرخات المُعذَّبين. الآن يسمع فعلًا نواحًا مكتومًا. هل وضعوا حسين في هذا الشيء؟ هل يقدر إنسان على أن يفعل هذا بآخر؟ بمخلوق حي؟ بحيوان؟! همس وكرَّر: "يا لطيف يا رب، يا لطيف، يا لطيف." لم يكن لدى تَيْسِير مفاتيح لها، ولم يكن من سبيل لفتحها دون مفتاح. ركَّز النونو طاقته على

محاولة فسخ الباب بالقوّة دون جدوى. وبينما فقد العدوي السيطرة على أعصابه، وانهار تَيْسِير إلى الحائط وتهاوى أرضًا، هرع العملاق للخارج، ثم عاد وقد حمل بين ذراعيه معدَّاتٌ مختلفة، ألقاها أمام الخزانة، وعكف على أقفالها يعالجها بكل سبيل تيسَّر له، على الرَّغمِ من قلة حيلته وخِفَّة عقله.

نصف ساعة مرَّت، وقف خلالها المحامي دون أن ينبس مراقبًا العملاق. تَيْسِير انكمش إلى الحائط وجعل يرقب الأحداث مذعورًا، لا يدري ما سيُفعَل به. والنونو استغرقه العمل حتى انغمس في عرقه. جرَّب كافة السبل والأدوات في ضوضاء لا تطاق، بين طرقٍ وقعقعةٍ وأزيزٍ وشررٍ منبعث. لأول مرَّة يرى المحامي أمارات الهِمَّة على ابنه وهو يستعمل الأداة تلو الأداة. كانت مساعيه عنيفة تفتقد العقل والمنطق، ولا تتَّبع طريقة محدَّدة للفهم، وكان في إمكان العدوي المعاونة بتقديم النصيحة، لكن رهبة الموقف غلبته. ثم إن النونو بدأ يعمل على تحطيم مفصَّلات باب العذراء، وتلك كانت خطوة على الطريق السليم. ولما دبَّ اليأس في النفوس، وبلغت القلوب الحناجر، دوَّت طرقعة عنيفة.

ابتعد النونو مسرعًا، بينما تندفع ضلفتي باب العذراء للخارج إذ تُفتحان بصليلٍ عنيف وشرارة وامضة، بالتزامن مع صرخة ألم عاتية، وهبوب للعطانة مميت. لحظة واحدة شاهدوا فيها الجسد النحيف مُثبَّتًا مستقيمًا في جوف الخزانة، جذعه متخشِّب وعوده مشدود، والثقوب تملأه. لحظة واحدة سكن عنه الأنين والعذاب، ثم انكب أرضًا قبل أن يدركه أحد، فارتطم بالبلاط بعنف، وهمد جسده.

مرَّت لحظات من الصمت..

كانوا جميعًا ذاهلين، ينظرون بنوعٍ من العَتَه للجسد المسجي أرضًا، وقد أصابتهم حالة ترحال مفاجئة وغير متوقَّعة قلعتهم عن إدراكهم قلعًا، فشعروا بالغُرْبَة عن النفس والجسم والمكان كأنهم في حلم.

على شفير الموت كان، لكنه حيٌّ. نصف أعمى كان، لكنه يتنفس. كالمولود إذا خرج من الرحم كان، لكنه لا يصرخ. مُبلَّلًا بالدم والعرق والمخاط كان، ولا يقوى على الحركة. تركت آثار المسامير على جسده ثقوبًا سوداء تخثَّر حول مخيطها الدم. تقبَّض وجه النونو الغليظ، وبدا بعوائه الخشن كأنه يقبل على البكاء، بينما وجم العدوي بعقلٍ سبيٍ

وفؤاد مغمور، ينظر لما يحدث غير مصدِّق.

دقائقٌ مرَّت، وهم لا يعلمون ما يفعلون. ما زال الشاب مُلقىً أرضًا، ينهج وينهج. الدم والزبد والمخاط يقطرون من فمه وأنفه. الآلام تمحش جلده ولحمه بلا رحمة، لكن استهلالة الألم الرهيبة والمستمرة، عذاب التخزيق، أوجاع الأعصاب والعظام، كلها زالت.. أو خفَّت.

ما يزال المخاض مؤلمًا خشنًا. ولادة أقرب إلى الموت منها للحياة. لا يعلمون إن كان المصاب سينهض، أم سيلفظ أنفاسه الأخيرة. توقَّف النونو عن البكاء، وجعل ينظر لسيده بلهفة، بينما تزداد الحركة حيوية لحظة بعد لحظة وهو يحاول النهوض! كافح وخمش أصابعه في البلاط والتراب. كابد الآلام والمشقَّة كمن يحارب شيئًا ما. وأخيرًا استطاع إقامة نفسه على ركبتين مثقوبتين، بينما يخلِّف دونه أثرًا من الدم عن كل حركة، حتى وجد سبيله للحائط، فهمد مستندًا إليه.

على مختلف الدرجات، جمعت المراقبين أحاسيس صدمة مفاجئة لم تستطع أجهزتهم النفسية استيعابها على الوجه الأمثل، فانشق وعيهم كشبحٍ هائم ينظر إلى أجسادهم من الخارج. ثم عاد الوعي بغتةً إلى جسد العدوي، فانطلقت الشحنة المكبوتة على هيئة دموع جرت في عينيه، ارتوت بها مآقٍ تشقَّقت من الجفاف عهودًا، وابتلَّ بها قلبٌ تكلَّس من الغلظة وعدم الاكتراث آمادًا. أسند ظهره إلى الجدار بدوره، وجلس أرضًا. ارتفع ضغط دمه لحد خطير. شعر باختناق وحاول أن يقول شيئًا.. أي شيء، لكن ثَمَّة وزن ثقيل أُلقِي على أنفاسه، وقبض على أحباله الصوتية، وحصره في تابوتٍ مغلق.

* * *

أيقن تَينسِير الهلكة. الضغائن تتضافر ضده، وما أن يفيق الذاهلون، حتى يكون أول من يُبطش به. والمصيبة كل المصيبة أن يفيق هذا الجالس المُمَثَّل به. يا للهول، إن آثار الشظايا المعدنية من سوطه منحوتة على كافة جسده. إن جلوسه ها هنا الآن ضرب من الحماقة، بل هو الجنون بعينه. لابد أن ينهض. أمله أن يفلت منهم، ويحذِّر الآخرين. لابد أن ينهض! لابد أن..! وفي لحظة واحدة قرَّر.. نهض مفزوعًا، والتمس طريقه للفرار

ركضًا عبر الممر. المسافة الآن تبدو طويلة، والاتزان صعب، وساقه الصناعية تكاد تنفصل عن بدنه، وأعصابه تخونه وتخذله.

تحرّك النونو من فوره، باستجابة غريزية حيوانية خاطفة، فاعترض طريقه، وعاجله بضربة صاعقة في وجهه سُمعت لها فَرْقَعَة مكبوتة، ضربته في الحائط، فارتد عنه منحطًا إلى الأرض. تكوَّم والدم يشخب من أنفه وفمه، وثَمَّة أشياء محطمة في جوفه، حاول بصقها فلم يستطع.

نظر العدوي لما حدث ببلادة، ورأى النونو يقبض على شعر تَيْسِير ويجذبه إليهم، ولم يتأوّه تَيْسِير ولم ينطق. أما حسين، فلم يلْفِتْ أيٌّ من هذا انتباهه. نعم، بعينه الواحدة تطلَّع لما حوله، لكن بنظرات زائغة تنقل الصورة دون أن يستوعبها عقله. يبس الجرح حول عينه الأخرى المخزوقة. أما جروحه الأخرى فبعضها مُسْوَدٌّ عميق، والبعض الآخر ملتهبٌ ملوَّث. إنه يفتح فمًا داميًا، ويعوي بخفوت. هل هو ضحك، أم بكاء؟! إنه يحرِّك فاه ولسانه محاولًا قول شيء. رآه العدوي فانتبه، وسعى إليه على أربع مُصْغِيًا. دنا منه إذ يتفوّه بكلماتٍ غير مفهومة. اللعاب يسيل من فمه، ورائحة أنفاسه بغيضة منتنة، تحمَّلها العدوي بإخلاص، علَّه يفهم ماذا يقول.

"أ.. خ.. خرر.. خخخ.. خر.. ر.. أرهف العدوي سمعه منصتًا لهذا الخِلط المُضطرب، وظنَّ أن عقل الشاب اختلط وفسد، أو أن لسانه شُلَّ نهائيًا. لكنه صبر على الهُذاء، وعلى العرق والدم، وعلى العين المفقوءةِ التي بثَّت في نفسه رعبًا لا يُحتمل.

"أ.. هه.. هـ.. ع.. عـ.. شـ.. أنا.. عـ.. عطشان." هكذا خرجت من فيه كالقذيفة، دفعةً واحدةً كشهقة غريق. اتسعت عينا العدوي ثم التفت فورًا إلى النونو صارخًا فيه أن اجلب المشروب. تحرّك النونو كمن أصابه مسٌّ كهربي، فأخرج من حقيبةٍ صغيرةٍ معلَّقة على منكبيه قنينةً تمتلئ بمشروب طاقة قوي، واندفع نحو حسين مُزيحًا العدوي من طريقه بخشونةٍ حتى أسقطه. وبينما يرمقه العدوي مُنكرًا، جعل النونو يسقي سيِّده برفقٍ ولهفة، كأنه هو الظمآن. مسَّ حسين المشروب الطيب الطعم بشفتيه مَسًّا، ثم جرَع منه بشوق ولَذَّة، فسرى السائل الغني بالكافيين والجلوكوز والسكروز والفيتامينات من حلقومه إلى مَريئه كالماء يتدفَّق فيسقي أرضًا قاحلةً فسدت تربتها، حتى ذهب ظمؤه

وَابْتَلَّتْ عُرُوقه وزالت يُبُوسَة العَطَشِ من خلاياه. أسند رأسه إلى الجدار وجرت دموعه على وجهه، وهو يطلق آهة عميقة، ويسكن تمامًا. غلب التأثر النونو فجعل يشارك سيّده البكاء متى بكى، ويكفكف دمعه متى كف، مراعيًا كل الحرص في أي لمسة. أما العدوي فحاول محادثته وجذب انتباهه، للوقوف على حالته بالضبط، لأن الوقت قد طال عليهم في هذا المكان، وهو موطن خطر.

مرّت على حسين ساعةٌ كاملة، امتصت خلالها أنسجة جسمه الكافيين من شرابه بوفرةٍ حيويةٍ غادقةٍ، فارتفع ضغط دمه بالتدريج، وتحفّز جهازه العصبي، وزادت حركة الأمعاء الدودية، فنشطت ذاكرته وتحسّن مستوى الأداء الإدراكي. كذلك تحسّنت نظراته، وأصبح فيها الذكاء في الاستجابة جليًّا، لكنه غير قادر على الكلام أو الوقوف، وجروحه ما تزال تؤلمه بما لا يطيق. علم العدوي هذا من تأوُّهاته، ومحاولاته الدائمة مسّ مواطن الألم. ولقد أعد حسابه لأمر كهذا. كان يعلم أنهم لو عثروا عليه حيًّا، فلن يكون على حالٍ تسر. ولقد صُعق فعلًا بشدَّة تنكيلهم به، لكن شكر لهم في سرِّه أن تركوه قطعةً واحدة! الحل الوحيد الآن هو تسكين هذا الألم القاتل. من جيب معطفه أخرج شريطًا يحوي كبسولات كبيرة، لفظ منه واحدة ودسَّها بين شفتي حسين وسقاه من بعدها شربة ماء، ثم جلس إليه صامتًا.

أرخى حسين رأسه، وجعل يتنفَّس بتروٍ. ولكم مسَّ منظره شغاف قلب العدوي الغليظ، فجعل ينظر إليه بعطف، ويدعو الله في سرّه أن يُسَرّع المُسكِّن في إعمال مفعوله، كي يتمكَّن حسين من الوقوف على قدميه، لمغادرة جب الجحيم هذا. أما النونو فدنا من سيده قدر الإمكان، وثبَّت نظره عليه دون التفاتة، بعينين برّاقتين مغرورقتين بالدمع، وأنف سال منه خيط سميك من الدم. نظر إليه حسين بعينه الوحيدة، ومدَّ يدًا مرتعشة تجاه وجهه، وجعل يمس بشرته الخشنة مسًا هينًا. ثم بسط فمه فيما يشبه الضحك، وقال همسًا: "قـ. قـ.قالوا لي.. النونو مـ. مات."

* * *

بعد فشل الاجتماع مع رؤوس العائلة، أنهى العدوي ترتيباته، واطمأن إلى مخطَّطه الاحتياطي، الذي به مهّد لنفسه سُبُلَ هروبٍ آمنة، واحتياطي نقدي نهبه من ريع

العائلة، يكفيه ولو امتد به الأجل ألف سنة. ولم تعد إلا ثغرةً واحدةً تربطه بكل النوائب التي ألمّت بالجميع، تسبَّب فيها لنفسه، بتخاذله وانعدام حرصه آنذاك. بعض المظاريف والدفاتر والأقلام، وأفرخ من الورق الشفّاف عليها رسومات توضيحية وملحوظات مكتوبة بخط يده، ومفكّرة هاتف حوت أسماء وأرقام مهمة جدًا، وأحد هواتفه المحمولة، وحقيبة رياضية صغيرة حوت غيارات وملابس نوم خفيفة. متعلقات بسيطة نسيها في قصر الفردوس بعد مقامه اليسير فيه أثناء الاجتماعات التحضيرية السابقة للاستيلاء على شحنة الهيرُوين.

قضى العدوي أيامًا يراقب تحركات حسين والعائلة، ومع كل ساعة تمضي تطرأ على ذهنه تفصيلة جديدة نسيها، أو تصرف أحمق أقدم عليه بحسن نية. لم يتّسع المجال لتفكير أو تردد. أصبح لزامًا عليه أن يعود للقصر فيمحو أي أثر لتواجده هناك.

وفي الليلة التي تلت اختطاف حسين، دخل العدوي القصر بأمان، ومحا كافة التسجيلات الصوتية والأفلام التي حوتها الأقراص الصلبة بغرفة التحكم، ثم صَعَدَ لغرفة المكتب بالطابق الأرضي، والتي اتّخذها مبيتًا ومركزًا للاجتماع أثناء تواجده في القصر. كانت على نفس الحال من الفوضى: الأوراق والأقلام وبقايا الطعام والسجائر. جمع كل ما له به صلة متوخيًا الحرص والعناية لئلا يدع شيئًا يفوته.

وما أن انتهى، حتى تذكَّر أصعب جزء من المهمة. عليه أن يصعد لغرفة النونو، ابنه. كان مما تذكَّره، أنه في معرض إقامته في القصر حاول مدِّ أواصر الصداقة بينه وبين ولده العملاق، فكان يصعد إليه في غرفته في فترات الراحة، ويتجاذب معه أطراف الحديث، وقد يهدهده ويلاعبه، وفي هذا طرح بصماته على كل متعلقات النونو. من أجل هذا كان عليه أن يعبر منطقةً وعرةً وخطرةً تؤوي ضاريًا مفترسًا لا يرحم. لكنه طمأن نفسه أن العملاق سيكون نائمًا. ولو لم يكن، فهو كفيل بإسكاته واستئناسه، فهو في النهاية أبوه. ومع هذا شمله قلق وخوف شديدين وهو يمضي في الممرات حتى وصل لغرفة النونو. وعلى الفراش الحديدي الضخم رأى ولده مضطجعًا على ظهره دون حراك. بدأ في إزالة بصماته عن كل شيء مراعيًا الصمت والحرص، لئلا يستيقظ العملاق. ثم رأى البقعة السوداء ترصِّع جبين ابنه.. أهذا ما.. يظن.. أنه هو؟! دنا منه ونظر بتركيز، فإذا بها ثقب فعلًا. تراجع مصعوقًا، ثم هرول جريًا إلى خارج الغرفة. ركض

كالمجنون متّجهًا إلى غرفة حسين، ودخلها بقدمٍ مرتعشة، والخوف ينخر في نفسه، ورآها وقد عمّها الفوضى والتحطيم. لقد ضربوا ضربتهم، وبأسرع مما قدّر.

خرج العدوي من الغرفة بعينين لا تريان، فهام على وجهه في الظلمة، وقادته قدماه إلى غرفة ابنه مرةً أخرى، فنظر إليه بعينين خاوتين. ثم أخرج منديله، وشرع يمسح بصماته عن بقيّة المتعلقات بشكل شبه آلي، وخوى ذهنه من كل شيء. حتى صدرت من حنك العملاق حشرجة، ورجف جسمه. التفت العدوي مصعوقًا، وتراجع القهقري حتى التصق بالحائط. جعل يتنفّس بصعوبة وينظر للنونو برعب. إنه لم يمت! لقد رأى الثقب في رأسه، وإنه لم يمت مع هذا!

مرّت عليه ثلث الساعة وهو يشرع الغرفة ذهابًا وإيابًا مفكّرًا، محاولًا اتخاذ القرار. كان يتلفّت ويقول في نفسه: ماذا أفعل؟ هل أدعه؟ هل أجهز عليه؟ هل هو حي فعلًا، أم أن بدله للروح طال؟! هل آخذه معي؟ وأي فائدة تُرجى من هذا؟! إنه ابنه بحق الله. مُشوَّه مُعاق، لكنه ابنه. نازعته رغبتان. الهرب بلا رجعة، ومد يد العون لهذا الطفل الكبير المسكين في مصابه. نعم إنه ما يزال حيًّا! سيأخذه. كلا. لا يمكن. سيتركه ليموت؟ لا يمكن. لقد تركه من قبل مرارًا، فلماذا الآن؟ سيتركه. كلا. لن يطيب له مطعم، أو يهنأ بنوم لو تركه يموت. سيأخذه. سيتركه. سيأخذه. سيتركه. سيأخذه. كلا، كلا، لن يأخذ أمره باللَّهْوَجَة. ماذا؟! هل يترك ابنه ليموت؟ لعثم العدوي في أمره، وتمكّث فيه وتوقف، ثم حزمه وتوكّل على خالقه، بينما يستحرّ الخوف في نفسه.

كيف استطاع نقل هذا المخلوق الهائل إلى سيارته. مسألة مُجهدة، وذكرى مُؤلمة. لا يذكر سوى أنه بذل ليلتها مجهودًا بدنيًّا ونفسيًّا لم يكابده على مدى عمره، فأصبح بعدها في حال من الخراعة كثوب مزيق. لا يذكر سوى أنه يطوي الطريق طَيًّا بسيارته مُراجعًا في ذهنه المشافي التي يمكن أن يقصدها مع ضمان التكتُّم على الأمر، واستعرض أسماء الأطباء ممن يمكن أن يمدُّوا له يد العون دون سؤال أو تعقيدات رسمية. دقائق أليمة تزاحمت فيها شتّى الأفكار في رأسه: من اقتحم القصر، ومن اختطف حسين؟ كيف هو الآن؟ وماذا قال لهم؟ هل يدلُّهم عليه؟ طبعًا سيفعل. مع أول لطمة سيفعل. لو كان مكانه لوشى به دون تفكير لحظة. واستقر العدوي على شيء واحد. حتمية الهرب.

كيف نجا النونو، برصاصةٍ أصابت رأسه؟

الحقيقة أن النونو أصيب فعلًا إصابةً مباشرةً في المخ، لكنّها لم تحدث تلفًا كاملًا. والعدوي نفسه بعد أن اطّلع على تفاصيل الحالة، هدأت عنه الدهشة الصاعقة، وحل محلها تفهمٌ متروي لكيفية بقاء ابنه على قيد الحياة. إنه يعرف إصابات أفظع حدثت في المخ، تحطّمت خلالها الجمجمة واختُرِق المخ من أحد جانبيه أو من كليهما، وظل المصاب على قيد الحياة.

ما حدث أن الرصاصة لم تحدث كسرًا بليغًا في الجمجمة، ولم تحدث تدميرًا في المخ كذلك، بل دخلت عظمة الجمجمة على زاوية مائلة، بقطر صغير للجرح، مع مدى محدود جدًا لانكشاط اللحم والجلد، بما لم يُحدث تشوُّهًا ملحوظًا، داخليًّا أو خارجيًّا. وما أنقذه فعلًا، هو عدم وجود جرح للخروج، لأن الرصاصة لم تكن بالقوّة الكافية التي تؤهّلها لاختراق الجمجمة وعبور المخ ثم الخروج من الجهة المقابلة. جرح الخروج هو القاتل المثالي، لأن الرصاصة تتمدَّد في رحلتها، وتفقد تماسكها حول محورها، وتفقد مسارها المستقيم عندما يعترض طريقها عظمًا أو نسيجًا متماسكًا، فتحدث تمزيقًا شديدًا وضررًا لا سبيل لإصلاحه في النسيج العصبي.

أجريت للنونو جراحة عاجلة أزيلت خلالها تخثرات الدم ما بين الجمجمة والمخ، واستوعب جسده العملاق فترة النقاهة بسرعة، لكنّه لم يخرج مُعافًا كأن لم يصبه شيء مشكلته لها بعد زمني، فالضرر غير المرئي لمخ مرضوض لا سبيل لعلاجه أبدًا. ربما عطّلت الإصابة وظيفةً ما في المخ، أو تسبَّبت في نوعٍ من الاكتئاب والبلبلة العاطفية (وهو الأمر الذي لن يعانيه بأكثر ما يعانيه في حالته الطبيعية)، لكن بعض الأعراض البدنية جدَّت عليه، فمع أي مجهود عنيف يبذله ينسال الدم من فمه وأذنيه، وأصبح بؤبؤي عينيه غير متساويين، وصار اتّزانه مرتبكًا. وأمام هذه الأعراض، علم العدوي أن ساعات ابنه في هذه الدنيا معدودة.

***

الفصل الثامن:

شَارِبُ الدَّم لا يَرتَوِي

"في إشاعة ماشية في المصنع أني كل يوم أسجد لخشبة وأبول على المصحف!"

بدأت كبسولة المُسكِّن البوليمارية الصغيرة تذوب في معدته، ليسري المفعول القوي في عروقه. ولم يكن التأثير سريعًا للأسف، لذلك لزم حسين مكانه فترة، نتيجة حدوث معايرة بطيئة لملائمة فقدان الألم. فكَّر العدوي أن يعطيه المزيد من الجرعات المُسكِنة لتعجيل الوصول للتأثير الكامل، لكنَّه أثنى نفسه عن هذه الفكرة بصعوبة، كي لا تتكدَّس الجرعات المضاعفة مؤدية للجرعة الزائدة. ومع سريان المخدِّر القوي في دم حسين، هدأت النبضات الحادة، وزحف إليه شعورٌ بالغثيان، مع حكَّة بسيطة في الجلد، وأحساس بالنشاط والخفة. لكن ألمه الأساسي كمن في خلفيةٍ شاحبة تبعث بتردُّدات مختلفة الشدَّة تعذِّبه وتنبش بمخالبها في دماغه، فتردَّ عنه الشعور بالراحة، وترتق كل حركة بضنكٍ ونغص. مرت الدقائق ببطء شديد، وقف خلالها النونو عند باب غرفة العذاب مُتحفِزًا لأي قادم على حين غرة، بينما جلس تِيْسير أرضًا مبدِّلًا النظر بين الحاضرين بعينين زائغتين.

دنا المحامي من موكله يحادثه همسًا، ويُطْلِعُه على الوضع بالضبط. ومع القرب منه، ورؤية جروحه عن قرب، لاحظ العدوي كم هي مُشَوَّهة وعميقة، وجزم أن هذا الشاب لن تُكتب له الحياة طويلًا. ما من شك أن حالته تلك رجَّحت في قلبه الرقَّة، فصار يشجِّعه ويواسيه كي يتناسى آلامه، وأخذته حالة نادرة من الصفاء والصدق، فصار يبيِّن له كيف نجا النونو، وكيف تدبَّر نقله وعلاجه. وهمس إليه كذلك أن العملاق لن يُعمِّر طويلًا. عندها نظر إليه حسين بعينه الواحدة، وهمس بصوتٍ ضعيفٍ مضطرب:

- إيه اللي.. رجَّعك؟

حاول العدوي أن يقول شيئًا فلم يستطع، ولم يملك إلا أن يشير للنونو، إشارةً إلى أن العملاق أجبره. نقل حسين عينه الوحيدة إلى العملاق، ثم عاد إلى محاميه، ورسم على شفتيه الممزَّقتين بسمة بائسة ومريرة، وقال بصوتٍ هو بقية يسيرة من كل شيء كان فيه:

- اتأخَّرت.. كثير.

طأطأ العدوي، ثم قال بصوتٍ مرتعش:

- المهم أنك دلوقت بخير.. (ومدَّ يده ليضغط بهما على كتفه مُشجِّعًا، لكنه توقَّف

قبل المسِّ بشبر) أنا عايزك تشد حيلك، علشان نمشي من هنا.. قبل ما حد يفاجئنا.

- بـ. خير؟!

قالها حسين، وأخرج أنينًا خافتًا متقطِّعًا، ثم جعل يهتز، فقدَّر العدوي من خواره أنه يضحك.. أو يبكي.. وأَحَسَّ العدوي في لحظةٍ بسخافة ما قاله وتفاهته.. بل ووَقاحته.. خير؟! أي خيرٍ؟! إنه لا يري حوله إلا شرًا مستطيرًا غشيه من فوقه، ولفحه من تحته، وأحاطه من جَنْبَيْهِ كأنها لُحُفٍ من قطران مشتعل. شرٌ أكل فؤاده، وخَلُص إلى أعصابه، وطحن وجدانه كطحن الحمار برحاه. ياله من ويلٍ وهلاك!

ثم نما إليه صوت حسين المتهالك وهو يقول:

- المسامير.. خزقت.. لحمي..

وكرَّر مهتزًا:

- خـ. زقت.. لـ. حمي..

ولم يدر بنفسه إلا ونحيبه يشتد ودموعه تفيض. بكى دموعًا من عينه الوحيدة، وبكي دمًا من عينه المخزوقة. خرج الزفير من صدره بصوتٍ متحشرجٍ عجيب من شدَّة الأنين، حتى انتفخت منه أضلاعه، واشتد عليه الكرب والغم والظلمات. استمع العدوي إلى عويله وهو يردِّد حال العذاب، وأثَّرت دموعه في نفسه كما يؤثر السيل في الصخر. كان رصيد العدوي من التجارب الإنسانية كبيرًا ومتنوِّعًا، لكن ما رآه في هذه الليلة بملابساته كان بعيدًا من بعيد! رأى في حسين لحظةً من لحظات التكوين المظلمة، نشأ فيها نصف إنسانٍ من مادة أولية حارة وكثيفة. ثم نما إلى سمعه صوت حسين إذ يتابع، منتزعًا الكلمات عن حلقه بعسر:

- الناس دي.. مش.. حيطلع عليها.. صبح...

أحدَّ العدوي النظر إليه وحدَّق في وجهه بانزعاج، وشيءٍ من ارتياع. ثم تساءل متلجلجًا:

- مين دول.. اللي مش حيطلع عليهم صبح؟!

قطع حسين حديثه بفاصلٍ من اللهاث كالكلب، وكان في لسانه التواءٌ كأن الكلام

يرجع على خياشيمه، وتساءل:

- إحنا الصبح.. ولا بالليل؟!

أجابه العدوي بخفوتٍ بأنه الليل. فزفر حسين وحَمِد الله. هيَّأ العدوي نفسه لسماع المزيد من الخَطَل، وفكَّر في كيفية إثنائه عن نيَّته المجنونة أيًا كانت. وكم سيصعب عليه هذا. إنه يعلم موكله لمًا يتمسَّك بكلامٍ فاسد في حالته الطبيعية، فكيف به وهو موتور على طرف من الجنون، وأقرب للموت منه للحياة. ليته ما جاء. سيُضَيِّعه الشَّابُّ المخبول. ماذا يفعل الآن؟ هل يحمله عنوة؟! وحانت منه نظرة إلى النونو. إنه يعلم أن هذا العملاق الأحمق سينفِّذ رغبات سيِّده مهما كانت. ليته ما جاء. وكما توقع سَمِع!

لم يكن في مقدور أحدٍ أن يتصوُّر كم التفاعلات المعقَّدة والهدَّامة الحاصلة في تركيبة حسين النفسية والعضوية الآن. اندمجت داخله عوامل الاضمحلال والانبعاث المتنافرة، فحوَّلت باطنه لفرنٍ تخليقي مُضْطَرِم، أطلق كَمِيَّةً هائلةً من الطاقة اجتاحت عضلاته وأعصابه في عنفوانٍ كاسح. بدأت معاناته تتَّخذ شكلًا بنائيًا رفع قدراته الحيوية للحد الأقصى. لكن الطاقة الإنتاجية في هذه المرحلة كانت أكبر من قدرات جسده على الاستجابة، لذلك، كان كل ما استطاع فعله أن يلفظ من فمه كتلةً من النخامة المختلطة بالدم، ثم أن يقول هامسًا بحقدٍ ومقت:

- كلهم لازم يموتوا.. تيسير.. ومُسْمَار.. وعاصم.. والثلاثة.

- مين الثلاثة؟

هكذا تساءل العدوي بغمٍ وانزعاج، فقال حسين بحيرة، وبؤبؤه الوحيد يدور بجنون:

- مش عارف.. مش.. قادر أميِّزهم.. بس هم عُمَّال.. مش مهم.. هنقتلهم كلهم!

تساءل العدوي بفزع:

- مين كلهم؟!

ردَّ حسين بهمسٍ مضطرب:

- كل اللي.. في المصنع.. ولو.. كانوا.. ألف! مش حيطلع .. عليهم صُبح.

نظر إليه العدوي مرعوبًا، وعلم أنه يتحدَّث عن نيَّة مُبَيِّتة، وليس نوبة طارئة، وأحَسَّ

بالقول ينبع من صميم قلبه، وخالجه لحظتها ندمٌ شديد.. شديد. ثم همس مذعورًا:

- كلُّهم مين يا مجنون أنت؟! إحنا ثلاثة.. نحمد الله أننا قدرنا ندخل ونخلّصك.

وهمَّ بالنهوض قائلًا بنرفزة وفزع:

- قم بنا نخرج من هنا، قبل ما تصدَّق نفسك، وتودينا كلنا في داهية.

أخذ حسين بمعصم العدوي في قبضته بشدَّة، فمنعه من نهوضه، وسأله متهيّجًا إن كان معه سيجارة! نظر إليه العدوي ذاهلًا، فكرَّر حسين سؤاله مُلحًا بشراسة. بحث العدوي في جيوبه بتوتُّر ونتش له سيجارة. بأصابع مرتجفة دسَّها بين شفتي حسين، وأشعلها له. سَحَب حسين النفس الأول، وشعر به يتغلغل في أغواره ويجري منه في العروق مجرى الدم. لم يكن سحبًا، بل امتصاصًا شبقًا لم يختبره من قبل، روى به ظمأه وخدَّر به حواسه، ونفثه كسيل من حمم.

أسند رأسه إلى الجدار متأوِّهًا منتشيًا بين لذة وألم.. وتذكَّر.. تذكَّر الحلكة في الخزانة الحديدية.. والمسامير.. والبكاء والعويل.. وجحيم الأفكار والفراغ والعزلة.. الخواء إلا من رائحة الصدأ والعرق والدم.. تذكَّر حديث مُسْمَار عن المصانع، وعن الحريق.. تذكَّر العُمَّال الثلاثة وتناوبهم عليه.. تذكَّر الكفر فالإيمان.. تذكَّر نداءه في شدة السواد.. وقسمه الغليظ.. ألا تهدأ له لوعة، ولا يرقأ لعينيه الدمع ولا لجروحه الدم، إلا لمـاً يقتص منهم أجمعين.

تذكَّر خطته التي أعدَّها على مهل، واستوى بها ومعها على نار العذاب المستديمة. نقَّحها وأضاف إليها وحذف منها حتى نضجت على صورتها النهائية، كما ينضج لحم الذبيحة ويذوب دهنها تحت نار موقدة. امتص النفس تلو النفس، ولفظهم مع الدموع. نعم، بكى حتى ارتجَّ بدنه، ثم أخبر العدوي بخطته، بلسان تلثل في حلقه، ودماغ ملتوه ذاهل. أنصت المحامي لكل كلمة وقلبه يخفق بشدة. ثم نظر إلى هذا الجريح المنبوذ.. إلى هذا الوجه المُشَوَّه الوالج في العرق والدم وسعار القتل.. إلى هذه العين الوحيدة الطارئ عليها يقظةٌ فائقة.. وإلى هذا البدن الراجف بقوَّة نفسية وذهنية تقاوم الموت بضراوة. فكَّر العدوي أن هذه العداوة المكبوتة، وهذه الكراهية الراسخة الحبيسة وجدت مخرجًا مأساويًا سيوردهم جميعًا المهالك.

ملأ الدخان فراغ صالون السيارة الشيفروليه النصف نقل الرابضة بين تكتُّلٍ شجري عند ركنٍ خفي من أسوار المصنع. بيدٍ مرتعشة أخذ حسين يدخِّن سيجارةً أخرى، حتى أتى عليها فكأنه أكلها. إنه جالس على الأريكة الخلفية للسيارة متدثِّرًا بمعطف النونو. كل نفس من الهواء البارد يستنشقه يغزو صدره وأضلاعه بغرغرةٍ غريبة. الفراغ المتَّسع أمامه بدا شاسعًا لا نهاية له. وكيف لا وقد شهد سِعَةً بعد استحكامِ ضيق، وفسحةً بعد انكتامٍ وكبت. والسماء. ما أن رآها، السحب الداكنة والنجوم، حتى ابتلت عينه وكست خدَّه بالدمع. إنها نعمةٌ من بعد نقمة، ونعيمٌ من بعد عذاب، وجنَّةٌ من بعد جحيم.

كانوا قد اجتمعوا في السيَّارة، وأسرَّ الشاب المكلوم لمحاميه بخطته مُجدَّدًا بحروفٍ مرتعشة، ثم أبلغ النونو بما عليه فعله. ولم تمض الدقائق على حسين حتى خلت عليه السيارة. توجَّه النونو إلى مبنى الإدارة، يجرُّ خلفه عدة لحامٍ جلبها من أسفل عنبر الشكائر. سلك طريقًا إلى جانب المبنى، وهناك عثر على مدخلًا جانبيًا. عالج قفله وهبط للأسفل بسلمٍ قصير، ووصل لبابٍ معدني عليه يافِطة مطبوع عليها: «غرفة التحكم رقم ١».

طرق النونو الباب بغلظة، وانتظر لحظات حتى انفتح له. بدى على العتب أحد موظفي الأمن وفي عينيه شيء من نعاس، ولقد فزع الرجل بمشهد العملاق أشد الفزع، فطار كل أثر من نومٍ في نفسه، وهَمَّ بقول شيٍ ما، لكن النونو عاجله بضربةٍ دامغةٍ من سنجنه شدخت رأسه وخرقت عظم الجمجمة. نظر الآخر مذهولًا إلى النصل العالق في جمجمة زميله، وكان جالسًا على مقعده أمام الشاشات، ثم أطلق صيحةً مبهمةً، وانتفض من على مقعده ناهضًا. جحظت عيناه وتخشَّبت ساقاه، فأعفاه النونو من حيرته ونزع نصله من موطن الطعن في جمجمة زميله، وانقض عليه دون رَوِيَّة. طوَّح بالسنجة تجاهه بقوَّةٍ مهولة، فانشق عنقه مولدًا في اندفاعته للخلف رذاذًا كثيفًا من الدم لوَّث وجه النونو كلطخةٍ مفاجئة. دار الرجل دورةً كاملةً من شدة الضربة، وسقط أرضًا دون أن ينبس، ثم أخذ ينتفض والدم ينزف من جرحه البليغ، بينما يبحث النونو عن لوحة التوزيع الكهربي، وهو يمسح الدم من على وجهه دون مبالاة.

فتح العملاق باب لوحة توزيع الكهرباء الضخمة، وحطَّم أزرارها وقطَّع أسلاكها

مفسدًا سكاكين الإنارة وإضاءة الطوارئ والمصعد وكشافات الدخان وأبواق إنذار الحريق، ووحدة السنترال الداخلي، وخطوط الهواتف الخارجية، وخطوط الاتصال الرقمية المباشرة لخدمة الإنترنت السريعة، وكذلك مسارات كاميرات المراقبة، وقطع أيضًا سُبل اتصال المبنى بالمولدات الاحتياطية. لم يكن يدري على وجه التحديد نتائج ما يفعل، لكنَّه نفَّذ أوامر سيِّده بحذافيرها دون تفكير، ودمَّر كل ما يمكن تدميره في الغرفة، حتى أظلمت الدنيا عليه بغتة.

نتيجة لهذا التخريب المُتعمَّد، أظلم مبنى الإدارة فجأة، فلاح ارتياح في عين حسين، إذ علم أن رجله نفَّذ التعليمات بالحرف. لم يعلم حسين بالتحديد مكان غرفة التحكم، لكنَّه قدَّر أنها ستكون بمكان ما قرب مبنى الإدارة أو أسفله من خلال ما استنتجه من أحاديث الأسطى مُسمَار عن إحدى مشاكل الطاقة التي واجهت المصنع، وكان تقديره صحيحًا. ثم ولَّى وجهه قلقًا إلى الجهة الأخرى متسائلًا في نفسه عما يفعل المحامي الآن.

وبالأعلى، في الطابق الرابع من مبنى الإدارة، كان عاصم جالسًا في مكتبه، لسوء حظه. بوغت بانقطاع الكهرباء وهبوط الظلام فجأة على غرفته. من المفترض أن تضيء وحدات إضاءة الطوارئ، لكنَّها لم تفعل، بل توهَّج كشاف الطوارئ بضوءٍ خافت، بالكاد كسر هيمنة الظلمة. رفع سمَّاعة الهاتف فوجد الحرارة منقطعة، سواءً الخطوط الخارجية أو شبكة الهاتف الداخلية. لم تكن المرة الأولى التي يحدث فيها أمرٌ كهذا، لكن نظرًا للظروف المتوتِّرة التي يعايشها هذه الأيام، نبت في مخه ألف احتمال واحتمال. التمس طريقه في الظلمة إلى النافذة، وهوى قلبه بين قدميه لما رأى.

رأى النونو يمشي الهوينى جانب المبنى، ويسحب خلفه عُدَّة لحام الأُكسي أسيتيلين؛ اسطوانة الأوكسجين الطويلة، واسطوانة الأسيتيلين القصيرة. عصرت قلب عاصم قبضةٌ قاسية، وتسمَّر مكانه وقد عجز عقله عن العمل. النونو؟! المفترض أن هذا الرجل مات. لقد عاين جثته بنفسه، فكيف له أن يسعى صحيحًا على ساقين؟! كيف دخل، ومن معه؟! مدَّ بصره لعلَّه يجد من يمكن الاستغاثة به، فلم يجد. المصنع كان خاليًا سوى من قِلَّة من العُمَّال، يمثِّلون الحد الأدنى من المتابعة البشرية للماكينات وخطوط الإنتاج، وهو حال وردية الليل دائمًا. ذهب ذهنه أول ما ذهب إلى حسين. هل أخرجوه؟! يا للهول! أين تيْسير ومُسمَار؟! أين الأمن؟! طافت على خَلَدِه فكرةٌ مفزعة:

أن يكونوا جميعًا موتى. جحظت عيناه، وأدرك إدراكًا ماحقًا الخطر المحيط به. ليس في ذهنه إلا حلًا واحدًا: الفرار. لكن كيف الفرار؟!

ثم رأى هاتفيه المحمولين، وأدهشه أن نسي أمرهما تمامًا في غمار فزعه. هرول إليهما.. لكن يا للخسارة! يا للعنة! يا للمأساة!! الليلة، وبالصدفة البحتة، فرغت بطاريتي الهاتفين، فوضع عاصم أحدهما على شاحنه، والآخر تجاهله حتى أغلق نفسه بنفسه. كاد يضرب نفسه بالحذاء وهو يحدّق في هاتفيه الميّتين، وفي الأول خاصةً الذي ما كاد يبدأ في الشحن حتى انقطعت عليه الكهرباء. لقد بُتِرَت سُبُل اتصاله بالعالم الخارجي.. تمامًا.

وعلى الجانب الآخر، توجّه العدوي مع تَيْسِير إلى كابينة الأمن. لم يكن للعدوي باعٌ في التعامل مع السلاح الناري، لكنّه أمسك بمسدّس النونو برباطة جأش. ومع كل خطوة يخطوها يسأل نفسه: كيف تمكّن حسين، وهو على حاله تلك، من أن يستجمع شتات نفسه وأحاجي أفكاره ليضع تلك الخطة المُهلِكة؟! يا رب سترك! إنها حماقة ما بعدها حماقة، ولو فشلوا فسينتهون من حيث بدأوا. غرفة التعذيب المُرعبة! أرعدته الفكرة فجعل يحثُّ الخطى تجاه كابينة الأمن، وجانبه تيْسير بوجهٍ مُحتقن. ما أن بلغا كابينة الأمن حتى وجّه تيْسير نداءً لكافة عُمّال المصنع والإداريين وموظفي الأمن بالتوجُّه لعنبر الشكائر للضرورة، والمتغيّب ستقع عليه أشد العقوبة. تردَّد نداؤه في كل مكان عبر شبكة السمّاعات المنتشرة في العنابر ومكاتب الإدارة. كان تيْسير في حالةٍ سيئةٍ من الرعب والألم والضعف، لكن الخوف من الموت كان أقوى من كل ما سبق، لذا أنهى مهمته الإجبارية وتوجَّه مع العدوي تحت تهديد السلاح لعنبر الشكائر لمتابعة توافد العُمّال والموظفين، وأجبره العدوي بينما يمضيان على دسِّ كفيه في جيبي معطفه لإخفاء يده المُحطَّمة.

وأمام مدخل مبنى الإدارة وقف النونو. كانت الأجواء هادئة للغاية، وكأن المصنع خلي من البشر، إذ لم يعترض سبيله إلا اثنان من العُمّال، تعامل معهما بسرعةٍ وصمت، وسحب جثتيهما حتى خبّأهما تحت سيارة عاصم القابعة جانب المبنى. رأى عاصم من أعلى ما حدث، فكاد يصرخ رعبًا، وعلم أن ساعته قد حانت. تمكّن منه فزعٌ قاهر وانقباضٌ مخيف إذ يرى العملاق يقتل الرجلين ببساطة كأنهما حشرتين حقيرتين. نعم

إن رؤية الموت ليست غريبة عليه، لكنَّها هذه المرة ذات مذاق خاص! وعلى عكس ما قادته إليه غرائزه وانتكاس فطرته في المُكعَّب من التمتُّع برؤية العذاب والموت، كان التقزُّز والرعب الشامل من رؤية الموت هذه المرة وهو قريبٌ منه. اختلفت تفاصيل الفرجة تمام الاختلاف. القتل الآن كان في بساطته ككسر بيضة، وفي أثره كطعنة في الكبد بنصلٍ معقوف. نعم، سُطِل هذه المرة -كما يُسطل عادةً من سلطنة الاحتضار- لكن بطريقة معاكسة، فشعر أن ضررًا بدنيًّا ما أو عاهةً مستديمةً ضربته في مقتل، بل بدا له التلف الحادث كأنه سيمتد ليطال الغرفة فيهدمها على أم رأسه. جعل يتساءل في نفسه بين قلقٍ مهلك وتلهف توّاق، هل يصعد إليه النونو؟ وما يفعل ساعتها؟ إنه لا يحمل حتى مطواة يدافع بها عن نفسه.

أمام البوابة الحديدية الأنيقة لمبنى الإدارة، فتح النونو الصمام الأزرق لأنبوب الأوكسجين، والصمام الأحمر لأنبوب الأسيتيلين، وأدْنَى «بوري» اللحام من قفل البوابة. تولَّدت شعلة اللحام وبدأت تذيب الحديد بوهجٍ ساطعٍ وشررٍ متطايرٍ، في حرارةٍ جاوزت الثلاثة آلاف درجة مئوية.

وقف عاصم يراقب ما يفعل النونو من طرفٍ خفي، والخوف ينهش صدره، والشد العصبي يطوّق عنقه، لا يدري ما يصهر العملاق بالضبط، لأن زاوية الرؤية لا تسمح له بالإلمام بالمشهد بتمامه. وأخيرًا انتهى النونو من عمله. تسلَّل عاصم على أطراف أصابعه كاتمًا أنفاسه ومستترًا بظلمة مكتبه، ورأى العملاق يبتعد بتُؤَدَة. وما أن اطمأن قليلًا، حتى غادر الغرفة كالريح، ونزل السلم بخطوات تسابق بعضها البعض حتى وصل لمدخل البناية، ففوجئ بضلفتي الباب ملحومتين في بعض، ما يمنع فتحهما. كانت أبخرة اللحام ما تزال متصاعدة عن موضع الانصهار، ففهم الآن ما فعل العملاق.. لقد حبسوه!

ما زال حسين جالسًا في السيارة يحرق سيجارته الرابعة. يده ترجف، والآلام تعاوده مع ذكريات العذاب القريب، فلم يملك إلا أن يبكي مرَّةً أخرى بحرقةٍ وهوس. لقد آل على نفسه، أنه لو خرج حيًا، ليقتلن كل حي يسعى على أرض المصنع. أما عاصم.. ومُسْمَار.. وتيْسير! أما هؤلاء الثلاثة! وأفاق فجأة على رؤية النونو في صفحة المرآة الأمامية، قادمًا على مهل، يجر خلفه عُدَّة اللحام بصريرٍ مزعج. وصل لصندوق السيارة الخلفي، وأخرج منه سلاحًا آليًّا ضخمًا، يليق بخلقته وبسطة بدنه. تنفَّس حسين بانفعال وهو ينظر

إلى السلاح المخيف، وفتح الباب المجاور له بَغْتًا، واستجمع قوته وقبض على ساعد النونو العريض، وجذبه إليه. ثم كان الصمت إذ ينظر كلٌّ منهما للآخر. كسى حسين وجهه الأعور بالنقمة والشر، فصار يزوم بقسوة، ويقبض عضلات وجهه وعنقه ويبسطها، فانتقل حديثٌ غير مسموع بين هذا وذاك، بمعانٍ متَّصلة وصافية. أصبح النوتر شديدًا، حتى لتكاد رائحة هرمون التستوستيرون تفوح في الهواء. ثم كأن اللمسة موصِّل حسَّاس، انتقلت الإشارات العصبية لتشق بينهما قناة اتصال حيوانية، فانطبع انفعال حسين وسحنته الشيطانية بالتدريج على وجه النونو، فجعل العملاق يزمجر، وتجعَّدت جبهته وتهيَّج الشر على خلقته. نبض وجهه الأسمر وتفتَّح منخراه بأنفاسٍ غائرة ضيِّقة، واحمرَّ عليه البأس في نفسه، فنبع من أنفه خيطٌ من دمٍ مختلطٌ بسائلٍ شفاف، سرى ناعمًا حتى لوَّث شفتيه. شدَّد حسين قبضته على معصم النونو، وقال بعينٍ جاحظة، وهمس مضطرم بين لهفةٍ وتهدُّجٍ وهياج: "كلُّهم يا نونو.. ما تسـ يبش منهم.. واحد حيّ." سال الدم والمخاط من فمه، واختلط بكلماته المرتعدة المحمومة، فاعتدل النونو قابضًا على سلاحه بشدة.. مدفع «إف إن إم» ٢٤٩ أوتوماتيكي، بلجيكي الصنع، عيار ٤٥ مم، بمعدَّل إطلاق نار ١٠٠٠ طلقة في الدقيقة.

تقاطر العُمَّال بقضِّهم وقضيضِهم على عنبر الشكائر، ومن بعيد بان مُسْمَار وهو قادمٌ يتأرجَّح به جسمه، وقد أقلقته تلك الإجراءات غير التقليدية، فعزم على معرفة ما يحدث. ولعله أمر خطير. حريق أو ما شابه. شهد عنبر الشكائر اليوم أحداثًا استثنائية، أخلَّت بالروتين اليومي المعتاد. العُمَّال واقفون بأفرولاتهم الزرقاء، عليهم سَمْت الذلَّة والمسكنة، بأبنيتهم البائسة الهزيلة، ووجوهم الجافة المتغضِّنة، وألسنتهم التي لا تردِّد إلا جملًا من أمثال: "من عيني حاضر"، و"تأمر"، و"خدَّامك"، لكل من هبَّ ودبَّ، سواء لمهندس أو إداري أو ملاحظ عُمَّال. ثم توافد عليهم زملاؤهم، ومعهم قِلَّة من المهندسين والموظفين، وكأنه غزو. تزاحموا واختلطوا، وتساءلوا وتحدَّثوا وضحكوا، ودخلت منهم جماعة على رهطٍ آخر من البؤساء جلسوا في تجزئةٍ من العنبر تُسْتَغَل كاستراحة، رُصَّت فيها صفوف من المناضد المعدنية والمقاعد، وحصيرة خضراء كبيرة تُستخدم كمُصلَّى. أما الجالسون فيها فعليهم من البؤس ودلائل القذارة وضيق الحال ما على زملائهم بالخارج. البعض يجلس أو ينام على الحصيرة الخضراء، والآخرون يتناولون طعامهم

بصمتٍ كالعبيد. طعامهم -وهو الوجبة التي يقدمها المصنع لعُمَّاله- يتكوَّن من رغيف خبز بلدي مُفقَّع غلب سواده بياضه، ومُثلَّث جبن مطبوخ، وعبوَّة صغيرة بها مَسْحَة من عسلٍ أو مربى.

وعندما بلغ مُسْمَار العنبر، أدهشه الزحام غير المعتاد والضوضاء المُبالغ فيها في هذه الساعة من الليل. أكثر من ثلاثين عاملًا وموظفًا اجتمعوا تحت سقفٍ واحد، ينظرون بترقُّب لما ستسفر عنه هذه الإجراءات الاستثنائية. ثم حانت من مُسْمَار التفاتة، فإذا جانب المدخل تِيْسير واقفًا. امتقع وجهه وكأنه انحشر في ركنٍ لا يقدر على الخروج منه. ثم استغرب من وجود شخصٍ أسمر متكوِّر البدن يقف جانبه. وما أن لمحه هذا المنتفخ، حتى رسم على شفتيه بسمةً سمجة، وتقدَّم يصافحه. صافحه مُسْمَار بفتورٍ وحذر، ولم يوجه له كلمة مع هذا، بل التفت إلى تِيْسير يسأله عمن يكون هذا. رماه تِيْسير بنظرة صامتة مستغيثة، لكن المنتفخ بادره بثقة قائلًا:

- سيِّد العدوي المحامي.. مدير قسم الشؤون القانونية الجديد!

نظر إليه مُسْمَار بدهشةٍ بالغة، وكأن ما قيل ينافي العقل وطبيعة الأشياء. ومنه نظر إلى تِيْسير وسأله باستغراب مشيرًا إلى المحامي:

- إيه ده؟!

قال تِيْسير بانفعال مكبوت:

- اصبر يا مُسْمَار، واسكت.

لم يصبر مُسْمَار ولم يسكت، بل مضى يتساءل ويتحدَّث دون انقطاع، حتى ضجَّ من إجابات تِيْسير المقتصرة الغامضة، وضجَّ من تواجد العدوي ذاته، ومما يحدث بوجه عام. وهي عادته إذا غَمُضَ عليه شأن، أو حدث ما يُحيِّره أو ما يضايقه: الحديث المسترسل فيما يفيد وما لا يفيد، والاعتراض دون تكلُّف. وأخيرًا، لما نفذ منه الصبر، توعَّدهم بأن يذهب، الآن وحالًا، ويُبلغ عاصم بك بالمهزلة الحاصلة الآن. وهنا كان رد فعل تِيْسير مُبالغًا فيه، إذ صرخ فيه بكل قوَّة: "اكتم بقى!" تردَّدت الصرخة بين جنبات العنبر، وساد صمتٌ مباغتٌ ومطبق. تركَّزت عيون العُمَّال كلهم على تِيْسير، الذي استشاط وجهه غضبًا. حدَّق فيه مُسْمَار ذاهلًا، ثم قطب مستنكرًا، مُبدلًا النظر بينه

وبين الحاضرين. تحرّك بحدّة عازمًا المغادرة، لولا أن قبض تيْسير على ذراعه المُبطنة بالدهن بشدّة (بيده السليمة، وهو أشدف يعمل بشماله، فجاءت مسكته مسكة مُتمكِّن)، وتساءل صائحًا بنقمة في ذات الوقت موجِّهًا حديثه للجميع، بعد أن لاحظ انقطاع الوفود عن القدوم:

- الكل هنا؟

لم يرد أحد، فقال بعلو حسه متهيّجًا:

- أنا حذَّرت.. كل من يتغيَّب، حنوقع عليه خصم وعقوبة.

تبادلوا النظر بقلق، ثم تقدَّم شيخٌ في الستين، وهو أحد رؤساء العنابر، وقال بلينٍ محاولًا تهدئة الأجواء:

- كل العُمَّال متواجدين يا باشا.

- تنتظروا هنا خمس دقائق، لأن في إعلان مهم.

قالها تيْسير آمرًا بعنف، واستدار جاذبًا مُسْمَار من ذراعه بحدَّة. أطاعه مُسْمَار كرهًا وآثر السكوت، لعلَّه يعلم ما يحدث عندما يخرجون، وتبعهما العدوي باسمًا كأن ما يحدث لا يعنيه. لكنَّه في داخله كان قلق البال مرتقبًا للشر، وتذكَّر أنه إنما يحكم قبضته على هذا الوضع المتفجِّر بمسدَّس صغير، لا يُحسن استخدامه على الوجه الأمثل.

تابعتهم أعين العُمَّال والموظفين وهم يغادرون، وتباينت ردود أفعالهم تجاه ما يجري، وعلت منهم رجَّة وضجيج. خشي معظمهم على لقمة العيش خوفًا تلقائيًّا، وتساءل آخرون عما يمكن أن يُفعل بهم بأكثر مما يُفعل فعلًا، وسبَّ آخرون عاصم وتَيْسِير ومُسْمَار بالترتيب بألفاظ نابية، وتحدَّث آخرون عن هذا العدوي الجديد، الذي لا يبدو خيرًا من سلفه ولا صاحبيه الذين معه، ولعلَّه ينضم لعصابة المحتالين والأوباش المُسيطرة على المصنع. ثلاثة فقط كانوا في قلق داهم. ثلاثة عُمَّال يعرفون أنفسهم، ويعلمون أن ما يحدث مُتَّصِل الصلة حتمًا بالسجين. تبادلوا النظر بريبة، واتَّخذ أربطهم جأشًا قراره فتحرّك، وتحرّك زميلاه معه. لكنَّهم توقَّفوا لما لاح هذا المخلوق المخيف!

مع الرجلين تقدَّم العدوي جهة مبنى الإدارة. كان مُسْمَار في حالٍ من الاضطراب

والتوتُّر، وتيْسير في حالٍ من الانقباض والعُسر، وما جمع الثلاثة على المسير إلا دفع تيْسير لمُسْمَار وإسكاته إياه طوال الوقت، ولم يكن هو نفسه يعلم إلى أين هم ذاهبون. كان الشك والانزعاج ينضحان على وجوه الثلاثة، ثم تسمَّر مُسْمَار عندما رأى عملاقًا يتقدَّم بخطى ثابتة في عكس اتجاه مسيرهم، إلى عنبر الشكائر، حيث اجتمع العُمَّال والموظفون، ويتدلى من كتفه سلاحٌ آليّ ضخم. ولم تُتَح له فرصة الاستغراب أو الاعتراض أو السؤال، إذ تردَّد بغتة في الفضاء هتاف مستغيث من أعلى: "تيْسير.. تيْسير.. مُسْمَار!"

رفع الرجلان رأسيهما بذهول تجاه ما حسباه مصدر الصوت، فرأيا عاصمًا يلوّح لهما بجنون من نافذة مكتبه الغارق في الظلمة. وفي اللحظة التالية مباشرةً استل العدوي مسدَّسه وسدَّده جهة مصدر الصوت، وأطلق النار. رصاصة مكتومة أخطأت المرمى وضربت زجاج النافذة جانب عاصم، فهشَّمته أطلق عاصمٌ صرخة متخنّثة غريبة، وانقلب منبطحًا للداخل. التفت الرجلان مصعوقان جهة المحامي، وكانت الصدمة الكبرى من نصيب مُسْمَار، سواءً من أعلى أو من أسفل. فوجئ الرجلان بفوَّهة مسدَّس العدوي موجَّهة إليهما، بينما يقف هو نفسه على بعدٍ آمن منهما. لا شك أن العدوي كان في حالٍ من الاستثارة والارتياع لا تقل عن الرجلين، لكنَّه تمالك نفسه في الظاهر، وقبض على أعصابه بشدة، ورَسَم على وجهه أمارات الاتِّزان والوعيد. وضع سبَّابته على فمه مصدرًا صوتًا خفيضًا: "ششش يدعوهما به للالتزام الصمت. ثم أشار بسلاحه أن تقدَّما. لكن تيْسير عزم على التصرُّف. لن يقف مكتوف اليدين هذه المرة. سيتصرَّف ولو قُتل.

ما يربو عن الثلاثين رجلًا رؤوا مشهدًا عجيبًا عند مدخل العنبر، إذ يخطو العملاق بحذائه العسكري طويل العنق على الأرضية. تعلَّقت أبصارهم بملامحه المرعبة، وسلاحه الأسمر الضخم. هبط على المكان صمتٌ واجم، ورفع من كان بيده عمل يده عن عمله، وتوقف الآكلون عن الازدراد، ونهض الجالس، وخرج من كان بدورة المياه. تجمَّعوا بعضهم إلى بعض دون تخطيط مسبق، وتكتَّلوا إلى وجهة واحدة، ربما ليحسنوا النظر إلى القادم الجديد، أو هي عادة اكتسبوها لمَّا يدخل شخصٌ مهم للعنبر، لإلقاء تعليمات جديدة، أو لرفع إعلان من الإدارة. وكما توقَّفوا توقَّف العملاق. وكما نظروا إليه نظر هو. تحرك بؤبؤا عينيه في محاولة لإحصاء الموجودين. ثم رفع سلاحه.

غطّى الدم وجه تيْسير وبعضًا من معطفه. لم يعلم على وجه اليقين إن كانت طلقتا العدوي أصابتاه في مقتلٍ أم لا. ولم يكن مُسْمَار في حال أفضل منه، فلقد طارت أذنه الأيمن بطلقة طائشة، واخترقت أخرى فكه من الجهة اليمنى فهشمته ومزّقت الوريد. الدم يغرق وجهه حاليًا، والعويل الخافت لا ينقطع عن الصدور منه. إنه يعلم أنه سينزف حتى الموت. بكى كطفلٍ تائه لأن ألم عظمة الفك المُحطّمة كان شديدًا.

ولم يكن العدوي ذاته في حال أفضل منهما، ولا أقل فزعًا. لقد أقفل عينيه تقريبًا لمّا رأى تَيْسِير ينقض عليه، ومن خلفه مُسْمَار مُتشجّعًا. ما زال يذكر رعبه الداهم، ورد فعله الغريزي الخاطف إذ يطلق الرصاصة تلو الرصاصة، حتى أيقن الهلاك. لكنّه لمّا فتح عينيه رأى الرجلين مجندلين يشخب منهما الدم. ولم يصدِّق نفسه! لم يصدِّق أنه أطلق النار، وأنه أصابهما، وأنه سيطر على الوضع بعد ذلك. لم يصدّق أنه قلب وجهه، وحاول إخفاء ذعره وانقباض نفسه. لم يصدّق أنه توعّدهما بالذبح إن تحرّك أيٌّ منهما. أحَسّ مع كل خطوة أنه يَتَقَزّم شبرًا شبرًا، حتى كاد أن يصير عدمًا. ومع دنوهم من مبنى الإدارة مرُّوا على السيارة النصف نقل المتوارية بين الشجر، فلاح لهم حسين في الكنبة الخلفية. ولما رآه تَيْسِير ومُسْمَار علما أن تلك هي النازلة المدلهمة! إنها القاضية! ثم سمعوا دوي إطلاق نار قادم من بعيد، من جهة عنبر الشكائر.

ثلاثين رجلًا اجتاحتهم حالة فزع شاملة في مكان واحد. ذعر كاسح استولى عليهم ودفعهم لرد فعل القطيع، فتكالبوا تجاه فرار جماعي مجنون، وسعى كل منهم لمنجاته داهسًا رفاقه. تحرّكت الأجزاء الميكانيكية لمدفع النونو الآلي بمنظومة سيمفونية، بها تَطَوّحت الفوارغ بعشوائية وعنف، وانطلقت الرصاصات بتواترٍ خاطف ووَمَضَاتٍ سريعة ودخانٍ كثيف، لتغطّي مساحة واسعة محدثة تأثيرًا مدمّرًا في كل ما يعترض طريقها، بقعقعات معدنية مفاجئة ورشيقة في جدران الصاج، وانفجارات غبارية وشظايا في حوائط الطوب، وشرارات وامضة في الصلب. أما الكائنات الحية، فتلقّت الرصاصات عالية العيار بأثرٍ دمويٍّ مدمِّر، فتمزّق اللحم وانكسر العظم، وتطايرت الأشلاء وانبثق الدم على هيئة بخّات رذاذية مفاجئة. استمر دوي إطلاق النار يصم الآذان لدقيقة، وأخذ النونو بسلاحه بكلتا يديه ووجّهه لكل ما يراه يتحرك، مكتسحًا في طريقه المقاعد ومهشمًا الزجاج والماكينات وممزقًا أجولة مواد الخام ومحطمًا قواطيع

الألمونيوم والشاشات. ولمّا كان العملاق يقف على مدخل العنبر فإن أحدًا لم ينجُ، ولم يحاول حتى الهرب في الاتجاه الصحيح.

وأخيرًا صمت المدفع، وتحوَّل العنبر إلى ساحة حرب، تمتلئ بالحطام والشظايا والموتى وبركٍ من الدم. تصاعد بعض الأنين المكتوم من بعض من استطاع الاختباء أو بقى على قيد الحياة. فعلَّق النونو مدفعه على ظهره، واستل سنجته العريضة من جرابها، وجال في أرجاء العنبر باتِّزان وملامح يابسة مُتمًّا ما بدأه. وسُمِع بعد ذلك عويل وأنين مباغت لكل من يُغمَد النصل في صدره، أو تُبْقَر بطنه أو يُنْخَعُ عنقه، حتى ساد نوع من الصمت المُريب امتد في خلفيته أزيز ماكينات لم تتوقف.

بذهول تعلَّقت عيون الرجلين، تِيْسِير ومُسْمَار، بمصدر دوي إطلاق النار البعيد حتى توقَّف. ثم عادا فالتفتا إلى حسين في السيارة النصف نقل. إنه لا يتكلم. ينظر فقط. كشررٍ خاطف انتقل شعور الفزع من أحدهما للآخر. حالة رعب كاسحة. شعور غامر بالخطر الوشيك. رعب آني مُهَيْمِن أزاح كل تفكير. إن الموت الرحيم بالرصاص خيارٌ مترفٌ لم يعد له وجود. لابد أنه سينكِّل بهما أشد التنكيل. ثم رأيا العملاق قادمًا من بعيد، يهزُّ منكبيه وساعديه دون اكتراث، ويقبض على سنجته المُلطَّخة بالدم. وقع قلب تَيْسِير بين قدميه وأدرك أن سبل النجاة أو الفرار قد أغلقت بقدوم هذا الغول. أما مُسْمَار فإنه في شغل بألمه عما عداه. وكان العدوي في حالٍ شديدة من التوتُّر والقلق، يتلفَّت حوله طوال الوقت. ثم خالجته بعض طمأنينة لما رأى النونو مقبلًا، وإن ظل ينظر إليه خائفًا، ومع كل خطوة يخطوها بحذائه الغليظ، يظن أن الأرض ستنشق عن جحافل من العُمَّال وموظفي الأمن. حتى أصبح الأربعة متحلِّقين حول السيارة.

مضت الدقائق ثقيلة على عاصم، اختلس فيها النظر بمنتهى الحرص من أعلى. وصل إلى سمعه دوي إطلاق النار، ثم رأى صُحبة قادمة على مبنى الإدارة: تيْسير ومُسْمَار والنونو والعدوي و.. شابٌ نحيفٌ، يستند في سَيْرِه على العدوي. يا للكارثة! نظر إليه متثبِّتًا وعرفه. يا للمصيبة! إنه هو! لقد أخرجوه.. الكلاب! أخرجوه! أخرجوه! يا للمصيبة! يا للكارثة! انهار أرضًا بوجه متقبِّض وعينين زائغتين ترقرقتا بالدمع، واسند ظهره إلى جلسة النافذة. إنها قَارِعَةُ الدَّهْر! انتهى كل شيء! لا أمل! لابد أن الطَّرَقَات المعدنية الشديدة التي يسمعها الآن هي كسرهم البوابة الملحومة. سيصعدون إليه الآن.

ما الحل؟ هل يقتل نفسه؟!

أمام مبنى الإدارة القبيح ذي الأربعة طوابق وقفوا. تغطَّت واجهته الخارجية بتكسية من دهان الكوارتز أزرق اللون، وأُطرَت نوافذه الزجاجية بالألمونيوم. عالج النونو بوابة المبنى بضرباتٍ عاتية من عتلة معدنية ثقيلة بعد أن استنفد اللحام غرضه في حبس عاصم. إنهم يريدون الآن الدخول إليه! شاهد العدوي على ابنه دلائل دنو النهاية. النظرات الزائغة، وسيلان الدم من أنفه وأذنيه. جال في خاطره احتمال أن ابنه يستنفد آخر طاقاته، ويعتصر قطرات حياته النهائيَّة. أما حسين فوقف مُستندًا إلى العدوي، بقدمين حافيتين مجروحتين. وجهه يابس من التعبير، يأتكله التوق والهياج، وتُجنُّه شهوة الدم.

الآن ساعة تِنِسير ومُسْمَار. لم تمنع الالتماسات الباكية ولا الصراخ إجراءات الإعدام من أن تتم بسرعة. تحرَّك النونو بنشاط، فأحكم وثاق تِنِسير ومُسْمَار إلى بعضهما ظهرًا لظهر بالسلاسل في ضلفة البوابة الحديدية لمبنى الإدارة. بكى الرجلان بكاء الثكالى، وتحرَّكا بهَرَع وفزع، فتحرَّكت معهما ضلفة الباب ذهابًا وإيابًا. ذهب النونو وعاد بوعاءٍ بلاستيكي ضخم علم الرجلان ماهيته على الفور، ومن ثم علما مصيرهما. صار صراخهما تأوُّهًا ونكرانًا إذ يحل النونو غطاء الوعاء، ويصب عليهما من البنزين. تدفَّق السائل الوردي الخفيف، وتطايرت رائحته العطرية النفَّاذة فورًا لتداعب خياشيم الحاضرين جميعًا، بانطباعات مختلفة.

تراجع العدوي ببطء أمام هذا المشهد المخيف، وصاح في نفسه: "ماذا تفعلون؟! بالله عليكم، ماذا تفعلون؟!"، لكنَّه لم ينبس. إنه يعلم أنه من الأفضل، في موقف كهذا، أن يجاري القطيع، أو تتطأه الحوافر بلا رحمة. تشبَّعَ الرجلان بالبنزين حتى قطر منهما، وزادت تحرُّكاتهما فزعًا وجعلا يتفُلان ما تسلَّل لجوفيهما من السائل برعبٍ وجنون. لكن ما الفائدة؟ لقد أخرج النونو علبة كبريت وأشعل العود الأول، وانتظر إشارة سيِّده.

نظر حسين إليهما.. إلى العيون الجاحظة، والوجهين المسودَّين، وأنصت إلى الهمهمة الباكية النافية المنكرة. ربما فكَّر في قول شيء ما. أي شيء يشفي به غليله. لكنَّه لم يستطع. ما هما فيه الآن لا يكفيه ولا يقر عينه، لكن لسانه مُكبَّل في جوفه. المسألة

تتلخَّص في اختيار الكلمات. ماذا يقول لهما؟! بعد ما حدث.. إنه ليس خلاف في وجهة نظر، ولا في نقودٍ أو إرث، ولا حتى ثأر مُبيَّت. إن القتل لا يفي بالغرض. ها هو تَيْسير الكلب، صاحب العين المتجهّمة، والقبضة القوية حول مقبض السوط.. ها هو ذا..! وها هو ذا.. الخنزير مُسْمَار.. ها هو، أمامه، يبكي ويعوي كأنثى كلب قذرة.. ها هو ذا...

أومأ حسين برأسه، فألقى الجلاد بالعود المشتعل وتقهقر سريعًا. في لحظة واحدة اشتعلت النار بما يشبه الانفجار، ولفعت الجسدين بتمامهما في التوّ تقريبًا. هجَّت النار وأجَّت، وسُمع صوت استعارها، وتصاعد عويلٌ جنوني وصراخ مُعذَّب بينما تتحرّك ضلفة البوابة ذهابًا وإيابًا. انعكس وهج النار المتراقص على وجهي حسين والنونو القاسيين، بينما انتحى العدوي بنفسه ركنًا، ورفض مشاهدة هذه المهزلة، وخلى ذهنه من كل شيء إذ يخرق الصياح سمعه. وماذا علّه يفعل؟ هل يدخل في الحائط؟!

مضت دقائق المعاناة الشاقة بطيئة وعسيرة. بقسوةٍ حاذقة مَحَشَت النار جلد الضحيتين، واستصفت حياتهما قطرة قطرة، حتى انتهى عذاب الدنيا في توقيت متزامن تقريبًا. خبت النار مخلّفةً أدخنة كثيفة، وريح شواء مروِّعة. وعلى ضوء الكشاف القوي في يد النونو، بدت الجثتان المتفحمتان من بين الأبخرة على وضع الانقباض الحراري، بهيئةٍ مشدودةٍ متشنِّجة، وكسوةٍ من السواد الغليظ.

* * *

داخل مبنى الإدارة تقدَّم النونو بكشافه الكبير، ومن خلفه العدوي يسند حسين في سيره. بدّل حسين قدميه بعسر كمن يطأ الشوك، ونزف منه الدم فترك آثارًا على رخام الأرضية. هجمت عليه الآلام من جديد، بَيْدَ أنه لم يتكلم أو يشكُ، إنما نمَّت قسماته المتقبّضة عن معاناته. كان في إمكانه طلب مسكّنات أخرى، لكنّه كمن يأس من الحياة تقدَّم، في طريقٍ محتوم. سيصل إلى مقصده، ومن بعدها فليكن ما يكون. إحدى الضربات الغاشمة من جلاديه في المُكعَّب سبَّبت له شرخًا في الجمجمة، شعر معه بسائلٍ لزج يسري في دماغه. شعور مجنون يتركه فريسة لرغبة في أن يهرش، حتى يفتح دماغه ويمزق مخه بأظافره، ليتخلص من هذه الحَكّة المهلكة.

أضيء الطابقُ الرابعِ بكشافات صغيرة للطوارئ، تشعُّ ضوءًا هادئًا بالكاد يبدّد حُجُبَ

الظلمة ويكشف لهم معالم المكان. عبروا بهو المدخل، ومنه إلى سكرتارية مكتب رئيس مجلس الإدارة وغرفة الانتظار بمقاعدها الجلدية الوثيرة. وفي صدر الغرفة كان بابٌ ضخم فرنسي الطراز. فتحه النونو، ومن خلفه دخل حسين والعدوي إلى غرفة المكتب الفسيحة المُؤثَّثة على طراز لويس فيليب؛ الحوائط المُجلَّدة بالخشب، ووحدات الأثاث المُطعَّمة بالأحجار الكريمة، والمكتبة الضخمة. ثم رأوه.. جلس عاصم على مقعده الجلدي الوثير خلف مكتبه المكسو بقشرة من خشب الكرز. تزاحم على سطح المكتب الأملس مختلف الكماليات الكِلاَسِيكِيَّة الفخمة، وأكثر ما لَفتَ النظر منها العديد من نماذج السفن النادرة، المحبوسة في قوارير زجاجية أنيقة، كـ«أميريجو فيسبوتشي» و«ماي فلوَر» و«سوليل رويال» و«كاتي سارك».

غرقت ملامح عاصم الحسنة في مساحات متباينة الظلمة، لكنه كان باسمًا، رابط الجأش في الظاهر. أما في باطنه، فثمَّة خلطة من الأحاسيس السلبية تدمغه دمغًا. جفافٌ في الحلق، وخفوقٌ شديدٌ للقلب، وألمٌ قاسٍ في المعدة، واختناقٌ بالصدر. كل لحظة تمضي في الصمت، ترجُّه من داخله رجًّا. إنه مُشَوَّش الفكر، ولا يستطيع تحريك لسانه. شيءٌ ما يتغلل في جذوره ويسلبه روحه.

الثلاثة يقفون أمامه كالأصنام. النونو عملاقًا قابضًا على مقبض سنجته المُخَضَّب نصلها بالدم. العدوي منتفخًا عظيم الكرش، ينظر بحيرةٍ وتَوَهان. مستندًا إليه وقف حسين، بوجهٍ ملوَّثٍ بالسواد والدم، وعين واحدةٍ ليس فيها حياة. استمر الصمت والكبت لدقائق، فكأنهم يقفون على شفير أخدودٍ سحيق تتلظَّى في قعره النار بشهيق وزفير تكاد تنخلع منه القلوب. إلى أن بسط عاصم كفيه وقال بصوت مبحوح:

- وبعدين؟!

لم ينبس أحدٌ، فازدرد عاصمٌ ريقه، وقال بانقباض:

طول عمري، وأنا عندي طموح لتحقيق شيء مختلف. ولأني شخص ذكي جدًا ومجتهد، تفوَّقت، لدرجة أن كل مجال أدخل فيه، أتقنه لدرجة التميُّز. وده في حد ذاته شيء مستفز.. ومرهق! لو تفهموا قصدي.

لم يستجب من الحاضرين أحدٌ، فوضع عاصم وجهه بين كفيه برهة، ثم رفع رأسه

وتابع بلهجةٍ مدروسة كمن يشعر بالإثم:

- أنا مقدّر موقفك يا حسين، وأعذرك على أي شيء عملته، أو تنوي تعمله.. اللي تعرَّضت له مش قليل، أنا عارف! لكن هل يريَّحك، أنك تعرف أنك مش أول بني آدم نعمل فيه كده؟! أنا عارف أنك شايفني شيطان.. واحد قبل كده قال لي أني فعلًا شيطان، لدرجة أن في إشاعة ماشية في المصنع أني كل يوم أسجد لخشبة، وأتبول على المصحف! لكن الحقيقة مش كده.. الحاج جوهر هو اللي كان له في موضوعات الجن والأعمال.. (وتبسَّم بمرارة) الشهاوي مرة حكى لي، أن الحاج كان مواظب يقرأ القرآن بالمقلوب، وكان له كل ليلة وتر! على كل حال، أنا مش شيطان، ولا أسجد لخشب.. (وتروَّى في حديثه) ببساطة أنا عندي ازدواج.. كل إنسان عنده قدر من الازدواج، ده اللي يسمح له أنه يظهر أمام الناس بشكل متحضر.. وفي بيته مثلًا يكون كلب سعران.

وقبض بكفيه على كتلة رخوية وهمية، وقال بعسر:

- لكن أنا الازدواج عندي واضح جدًا.. ذاتي تنقسم لاثنين.. قسمين وظيفيين كاملين.. كل قسم يعمل مستقل بذاته على أنه ذات واحدة وأساسية.. الحقيقة أن «المُكعَّب» يتناقض تمامًا مع ثوابتي الأخلاقية! أنا مهندس متفوّق، ورجل أعمال ناجح، وزوج وأب، وأكره منظر الدم جدًا.. غير أني نباتي! لكني، وفي ظروف مختلفة، ممكن أتقبَّل نفسيًا أمور شاذة وغريبة.. أشرف على عمليات تعذيب وقتل، وممكن أشارك فيها نادرًا.. دي ذات أخرى، بتشكِّل حولي طوق منيع، يعزلني عن أي دوافع تمنعني عن الاستمرار في اللي بأعمله.

وتبسَّم كمن بدرت على ذهنه ذكرى حزينة، وقال:

- ولا يمكنك أن تتخيَّل مدى الانسجام التام ما بين الذات الأولى والثانية.. انسجام يسمح لي أني أكلمك بمنتهى الأدب وأضحك معاك، وبعد دقيقة واحدة أراقب والمسامير تخزق ركبك.

وأزاح مقعده، ونهض ببطء، فتوتَّر النونو كالحيوان المفترس إن أتى غريمه بتحرُّك مفاجئ. وتابع عاصم بتريُّث:

- أنا أعترف أني مريض نفسي وأحتاج للعلاج.. لكن صدِّق أو لا تصدِّق.. أنا مش عايز..

العلاج حيحاول إقناعي بأن تصرفاتي شاذة ومؤقّتة، ممكن تشفى مع الوقت، ومع الأدوية المناسبة.. وده مش صحيح.. أنا كده.. (ونزل عليه تأثُّر شديد) وأنا عندي ولاء تجاه نفسي، تجاه ما أنا عليه.. عندي قناعة بأني لازم أقبل نفسي زي ما أنا.. بدون أي تضاد أو تردُّد.. لو أجبرتني على انتحال هوية غير هويتي، تبقي بتحكم عليَّ بالجنون.

وهَزَّ رأسه نافيًا، وقال بتصميم:

- أنا آسف.. مش حيحصل.. مش لتغيير وجهة نظر الناس عني، تجبرني أرفض نفسي! دي وجهة نظري.

وجعل يغلق أزرار بدلته القيّمة شاعرًا أنه إنما يُغلِّف نفس بكفنه، وقال:

- إن كان يريَّحك يا حسين، تقدر تعتبرني التجسيد الحي للشر.. لكن على الأقل الشر بتاعي حصري، مُوَجَّه لعدد محدود من البشر لا يتجاوز العشرات، مارسته بشكل منظَّم، ودون انحراف! لا يمس المجتمع، أو يدمر بلد.. غير أن نشاطي مقتصر على أفراد لن يفتقدهم المجتمع.. مشرَّدين.. أطفال شوارع.. بنات ليل.. شحاذين.. مرَّة واحدة بس عملناها مع أمين شرطة.. أنت نفسك يا حسين.. لا أعتقد أن المجتمع حيفتقدك، لأنك في الحقيقة جرثومة سامة.

أنهى جملته الأخيرة، ثم لم يجد ما يقوله. شدَّ قامته، وعقد كفيه خلف ظهره ناظرًا إلى ضيوفه. كان الصمت عابسًا متجهِّمًا، ناء فيه الفراغ بِحِمْلِهِ من المشاعر السلبية المتناطحة. رأى عاصم التهديد أمامه عاصفًا جنونيًّا. احمرت الوجوه، وتراكم الضغط تأهُّبًا للوصول لحالة الاهتياج القصوى. يكابد حسين هذا الضغط منذ ساعات، بل لأيام، ولا يملك لمشقته وعذابه صبرًا. إنه مستعد الآن للقتل. تنهشه شهوة القتل وتقوده للتوق والجنون. إنه مستعد الآن للقتل والتمزيق. يود لو ينقض على هذا الشيطان فينكش أحشاءه ويمزّق جلده. إنه يشعر بروحه تنسحب من شدة البغض. بغض غريزي خام صاف. يمكنه الآن ارتكاب أي فعل، مهما بدا بشعًا أو مستحيلًا. استنشق الهواء بقوَّةٍ وسرعة لملائمة حاجاته المتزايدة من الأوكسجين. عضلاته ترتجف من قوَّة شبقه للقتل.. القتل.. القتل!

ثم خرجت من حلق حسين صرخةٌ قبيحة، وانقض. لكن النونو صرخ وانقض في

اللحظة ذاتها، وسبقه إلى خصمه. صرخ عاصم واندفع متقهقرًا رافعًا ذراعيه ليحمي رأسه لا إراديًّا، لكن العملاق عاجله بضربة قاصفة في وجهه من قبضته، تحطمت منها معظم أسنانه الأمامية، وقذفته للحائط خلفه. لحظة صمت، ثم أصدر عاصم أنينًا طويلًا مكتومًا وهو يجمع بدنه حول بعضه. لكنَّه تحامل على نفسه ونهض. تفل بعضًا من أسنانه على الموكيت الناعم مع الدم والمخاط، ثم شدَّ قامته أمام العملاق، واغتصب ابتسامة!

جأر النونو بالزئير، وحَمَل على عاصم حملةً غاشمةً بسنجته. الضربة الأولى أحدثت جرحًا قطعيًا ضخمًا أسفل إبطه الأيمن، والضربة الثانية هتكت أوعية دموية رئيسية، وأسقطته أسفل مكتبه وهو يصرخ. قفز خلفه النونو، وجعل يطعنه بجنون في كل جسده. وبين الصراخ والعويل، والتخاور والزمجرة، واللهاث والنشيج، تطاير رذاذ الدم على الحوائط والأثاث القريب.

وأخيرًا خَرِسَ الصراخ. من خلف المكتب نهض النونو لاهثًا، والدم يخضِّب وجهه وملبسه ويداه، والعرق يكسو وجهه ويُغرق بشرته. قسماته متقبِّضة غريبة، وتنفُّسه مُقترنٌ بزمجرة يتحرَّك بها منخراه. خفض عينيه الضيِّقتين، فإذا بنصله عالقًا في عظام القفص الصدري لعاصم. بحذائه اعتمد على جسد ضحيته، فغمس نعله الغليظ في أنسجته الرطبة المهترئة، وضغط عليها دون رحمة، واقتلع النصل عن موضعه بعنف، فانفجرت فرقعة مخيفة وصرخة متخنِّثة مُوَلْوِلَة من عاصم. ثم كان صمتٌ رهيبٌ بينما يدور النونو حول المكتب، والدم يقطر من سنجته.

تسمَّر العدوي مكانه مصعوقًا، مُحدِّقًا في الحائط الخلفي المتناثرة عليه بقع الدم. أما حسين فكافح كي يتقدَّم وحده على قدمين مرتعشتين تجاه المكتب. ووراء المكتب، رآه. إنه ما يزال حيًّا. عرف حسين هذا من النزيف المُسرف من الأوردة والشرايين المفتوحة، ومن الأنين المستمر الخافت. إصاباته جميعًا مُهلكة، لمعت فيها الأنسجة اللزجة وبان الدهن واللحم في بعض المواضع العميقة، لكنَّها لم تقتله بعد.

أدام حسين النظر بعينه الوحيدة بأنفاس مضطربة. هل يشعر الآن بالرضا والراحة؟ لا.. قطعًا لا.. لذة؟ أي لذة بعد ما جرى له؟ انتقام؟ هل يُسمِّي هذا انتقامًا؟! إنه لا

يساوي لحظة مرَّت عليه في العذراء الحديدية.. لا يساوي لحظة مرَّت عليه في المُكعَّب الملعون.. هل شُفي غليله؟ لا وألف لا! وسَمَا! ماذا عمَّا فعلوه بسَمَا؟! ربما لن تدفع أنت ثمن هذا أيها الشيطان المُخنَّث.. لكن زوجتك وأبناءك ينتظرهم مصير أسوأ من الموت.

راقب مُقاساة عاصم الغليظة مع جراحه، وتأمَّل كيف لا يأتي الموت فجأة.. بل ببشاعة.. وبطء.. كان النَّزْعُ مؤلمًا شريرًا نزل بروحه وبدنه فاستغرق جميع أعضائه، ولم يبق جزءٌ من أجزاء الروح المنتشرة في أعماق جسده إلا وقاسى العذاب الغليظ.. عذابٌ أشد من ضرب السكاكين ونشر المناشير وقرض المقاريض، استشرى بين أنسجته وتصاعد إلى بطنه المبقورة وأمعائه المُمَزَّقة بنبضات حادة وصاعقة غشيت مخَّه، وهزَّت جسده هزًّا، وغلبت على كل طرفٍ من أطرافه، فكأنما ارتعشت بها جدران الغرفة ذاتها. لعل الأنين الخافت كان استغاثةً أو راحة، لكنَّه انقطع الآن، فلم يُسمع منه إلا خوارًا وغرغرة من حلقه وصدره. دقائق طويلة مرَّت، بُذِلَت فيها الروح بأناة وصبر، وانتهى فيها عذاب الدنيا كما بدأ.

* * *

يقع مجمع «تانا» للصناعات الغذائية في الجهة الجنوبية من المجموعة الصناعية، ولا يفصله عن مصنع البلاستيك إلا سور حديديٌّ مرتفع. عامٌ كامل مرَّ على المصنع وما يزال مهجورًا، منذ الحريق الهائل الذي نشب في أحد مخازن الزيوت وأتى على كافة منشآته إلا وحدة الهدرجة. ليس فيه الآن إلا أكوامٌ من الحطام والركام، وعنابر مُسودَّة مُهدَّمة، وبقايا ماكينات ومواتير مُلقاةً بإهمال. الظلمة حالكة إلا من الإضاءة الأمامية للشيفورليه الدبابة، وهي تتقدَّم ببطء بين الجدران النصف مُهدَّمة وأنقاض الجملونات الحديدية وأعمدة الصلب الملتوية المكسوة بسناج الحريق، حتى توقفت جانب المنشأة الوحيدة القائمة على أعمدتها؛ وحدة الهدرجة.

داخل السيارة تراخى حسين على الأريكة الخلفية، متدثِّرًا في معطفٍ ثقيل، للموت هو أقرب منه للحياة. معدلاته الحيويَّة تتدهوَّر بعجلة متسارعة، والشحوب يغلِّف بشرته، والبرودة تزحف إلى بدنه. سال الدم بحريَّة من جروحه، لكنَّه لم يشعر بألم. الألم انتهى ولم يعد من شيء إلا ثقلٌ غاشم وظلمة مُطبقة. لكن مخه يعمل كالمضخة. إنه يذكر

حديث مُسْمَار.. بالحرف..

"لولا ربنا ستر، كانت النار طالت وحدة الهدرجة، وخزان الهيدروجين.. والخزان لو انفجر...

"علشان تعرف الإهمال وصل لفين، كفاية أني أقول لك أن خزّان الهيدروجين منصوب على هيئته.. شوف المصنع كله بقى في الأرض.. والخزان مليان وواقف وحده.. يعني المصيبة اللي فاتت ما حدش اتعلّم منها."

"صوتنا اتنبح.. يا خلق ارفعوه، أو على الأقل، فرَّغوه.. ولا حياة لمن تنادي.

"يا بك أنت مش متخيِّل.. الخزان ده لو طالته النار، انفجاره، على أقل تقدير، حيدمَّر المنطقة الصناعية، كأنك ضربت المنطقة بقنبلة ذرية.. ده.. ده حتى احتمال يدمر مدينة العاشر كلها! المطافئ والدفاع المدني قالوا لنا كده!"

لم ينتهِ حسين بعد من ثأره على الوجه الذي يرضيه. إنها فقط بداية. عليه أن يمحو هذا المكان من الوجود، ثم يتفرَّغ للباقين. عائلة عاصم، ثم أعمامه، وأولهم الشهاوي. والحقيقة أن العدوي، على الرَّغمِ خوفه الشديد، شجَّعه على هذه الخطوة الجنونية. لأن الدمار الناتج يكفي لمحو آثارهم على الأقل حتى يدبِّروا أمر هروبهم من البلاد.

أما النونو، فما زالت التعليمات تتردَّد في مخه، مقترنة بهمس سيِّده المضطرم، ونظرته الناقمة الزائغة. في هذا الخواء المقبض، بين الهياكل الخربة وكتل الحديد الملتوية، سعى العملاق بتوازنٍ مضطرب، ساحبًا خلفه اسطوانتي اللحام. اتَّجه مباشرةً لصهريج الهيدروجين الضخم بجانب وحدة الهدرجة. هو وعاءٌ اسطواني ضخم من المعدن لا يقل طوله عن الأربعة أمتار، يرتكز على أربع قواعد من الخرسانة المتينة، وتمتد منه مجموعة من المواسير تتصل بوحدة الهدرجة ذاتها. ثبَّت النونو «بوري» اللحام في إحدى القواعد الخرسانية الأربع، وأشعل مقدمة البوري فتولَّدت شعلة حامية تطاير منها شررٌ عنيف، بدأت تُسَخِّن باطن صهريج الهيدروجين.

لم يكن في الوقت مُتَّسع، لذلك حثَّ النونو خطاه تجاه السيارة على ما به من جهدٍ وصداع. تَرَجْرَج جسم حسين مع رَجْرَجَة السيارة إذ تعود للخلف وتنطلق بعنف. قطعت السيارة طريقها مسرعة، وتصاعد هدير محركها إذ تمرق بين المنشآت المُدمَّرة، حتى

خرجت من المُجمَّع الصناعي بأكمله إلى طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي. ثبَّت حسين بصره للأمام، لأعمدة الإنارة والطريق الأسفلتي الذي يُطوى طيًّا. ليس عليه الآن إلا الانتظار. إنه فاقد الحس، لا يشعر بألم أو راحة. فقط برودة وصقيع يزحفان من أوصاله إلى داخله. بدنه متخشِّب على وضعه، لا يقدر على تحريكه قيد أنملة إن أراد.

ارتفعت درجة الحرارة أسفل صهريج الهيدروجين لحدٍ خطر خلال عشر دقائق، وبدأت المحتويات داخله في التوتُّر وبناء ضغط الانفجار. ولم تمضِ دقيقة حتى تزايد حيِّز الضغط لأضعافٍ مضاعفة، وانبعثت منه موجة ولَّدت ضغطًا مضادًا، فتمزَّق جدار الخزَّان الضخم كأنه من الزجاج. وفي جزءٍ من الألف من الثانية اندفعت كميات هائلة من الهيدروجين إلى الهواء الطلق مختلطة بالأوكسجين، والتقت بشعلة اللحام، وفي أجزاء أخرى من الثانية تولَّد تفاعل أكسدة مفاجئ وعنيف كان منه الانفجار. تولَّدت كرة رهيبة من النار تصاعدت في لمح البصر للسماء بدرجة سطوع عاتية، مع دوي قارع وهزَّة مزلزلة فكأنما ارتج الكوكب بما عليه، وتكوَّنت موجة صدمية ساحقة. تمدَّد الانفجار بلا هوادة مكتسحًا في طريقه كل شيء ومدمرًا المنشآت تدميرًا، حتى تجاوز مجموعة «عبد الهادي» إلى ما يجاورها في لحظات يسيرة، وتولَّدت تفجيرات أخرى وحرائق عاصفة مع اشتعال خزانات المازوت والديزل وأطنان الكيماويات الملتهبة المنتشرة في المنطقة بتأثير ناري باهر وبشع.

من مسافةٍ كبيرة، وبينما تقطع الشيفورليه طريقها للقاهرة، تولَّدت الرجَّة الأولى، وعلى إثرها التفت العدوي للخلف مصعوقًا، ورأى ما لم يره في حياته قبلًا. ومضة خاطفة شاهقة البياض توهَّجت من أصل الظلمة كأنما أشرقت الشمس بغتة من قلب الأرض، فأحالت الليل في لحظة إلى نهارٍ ساطع، مع دوي صادم وهزَّة عاتية. غشي النور المفاجئ بصره فأخفى عينيه غريزيًّا بذراعه، ثم أحَسَّ بروحه تنسحب وبزلزلة كأنما ألقيت السيارة من علوٍ، حتى لقد ارتفع عن مقعده وأُلقِيَ عليه بعنف في اللحظة التالية. أما النونو فلم يهتم أو تبدُ عليه الملاحظة بالقدر المتوقع، إلا مع بلوغ الموجة الصدمية السيارة، التي كادت تطيح بها، لولا أن أعادها العملاق إلى المسار قسرًا، مُكثِّفًا غرائزه وقدراته وقوته، ومُحكمًا قبضتيه على عجلة القيادة.

خفض العدوي ذراعه عن وجهه، وجعل يحدِّق بذهول في الأفق الملتهب. الانفجار كان

عجيبًا ماردًا أكثر منه مروعًا، في ضخامته وكثافة نيرانه وسطوعه وتوابعه. على امتداد بصره تلوّنت السماء بوهجٍ برتقالي باهت بينما يستفحل الضرام باتقاد وشدة، وتتابع انفجارات مختلفة الأحجام والقوّة.

ثم شعر في لحظة ببرودةٍ قارسة، وبتواجدٍ غامض يجثم على صدره. انطبق قلبه وأصابه جزعٌ عميق، فالتفت إلى حسين.. فإذا بالشاب مُنكّس رأسه، عينه الوحيدة لا حياة فيها، وبدنه يابس وصدره منقطع عنه النفس. نظر العدوي ذاهلًا إلى جثّته للحظات دون أن يُحرِك ساكنًا. علت وجه تقلُّصات الدوخة وسكرة الموت، ووهجات من غيظٍ وثورة. نظر إلى المسدس في يده، ثم إلى قفا النونو وفكرة تتكوّن في مخه بوضوح مخيف! إنه يريد الآن النزوح عن جسده، عن الشحم واللحم والتواجد المادي الخانق والمؤلم. هل هو في حلم أم واقع؟ كل شيء بطيء متمهّل زاحف. السكون تامٌ مهيمن، والصمت من حوله مبهمٌ مشكوك فيه.

وما زال يديم النظر في جثّة حسين، ثم أدار رأسه جامدًا إلى الخلف، فرأى الأفق الملتهب، وسمع الضوضاء العميقة من بعيد، فبدا المشهد في حد ذاته تجسيدًا مثاليًا لقيمة التدمير الشامل.

***

ماذا بعد الكارثة؟

إنَّ من الإنصاف القول أن مئات الأبرياء راحوا ضحيَّة شرذمة مجرمة لا تساوي في ميزان البشر شيئًا. أكثر من ثلاثمائة نفس بريئة ذهبت في الحريق الهائل الذي اندلع فجرًا في مصانع «عبد الهادي» بمدينة العاشر من رمضان، نتيجة انفجار صهريج الهيدروجين بوحدة هدرجة الزيوت. استمر الحريق عشر ساعات مُسبِّبًا انفجار مستودعات أخرى للوقود، وامتد للمصانع المجاورة مُسبِّبًا خسائر جسيمة في المعدات والأرواح. انتقل محافظ الشرقية والقيادات الأمنية لمكان الحريق، مع قوات الحماية المدنية. شاركت في محاولات الإطفاء والإنقاذ ستون سيارة إطفاء مُجهَّزة وتسعون سيارة إسعاف، وخمس وثلاثون سيارة إطفاء تابعة للقوات المسلحة، وتم فصل مواسير الغاز الطبيعي وقطع التيار الكهربائي عن المنطقة.

ثم تداعت الأحداث بشكلٍ يصعب استيعابه كحبَّات عقدٍ انقطعت عصمته. نظر سيِّد العدوي للوضع مُجملًا فور أن مات حسين جانبه في السيارة، وعلم أن موقفه الآن في غاية السوء؛ لأنه مُكبَّلٌ بهذا الابن الأحمق، وتلك الجثة جواره، وأَحَسَّ في لحظة أنه كبغيٍّ حملت ووَضَعَت سِفاحًا. إن هذه الأبوَّة الطارئة أوردته المهالك، وهو في الأصل عازمٌ عنها. لابد أن يتخلَّص من هذا الطفل الطائش الكبير. كأمثاله من الأوباش والمجرمين، ونتيجة لانحرافه السلوكي، اختلت لديه القوَّة المُميِّزة بين الأشياء الحسنة والقبيحة، وغلبه شيطانه على أمره وزيَّن له سوء عمله، فتعطلت فيه نوازع الخير وعاطفة الأبوة، وتبنى دَيْدَنًا جديدًا: "إن جه عليك النيل طوفان حط ابنك تحت رجليك!"

دون أن يخبر النونو بموت حسين، أمره أن يتوجَّه لمنطقة عرب المعادي، ولمَّا وصلوا، سدَّد العدوي مسدسه لرأس النونو غيلةً وغدرًا، وأطلق النار. اخترقت الطلقة الأولى مؤخرة عنق العملاق، فتعطَّل الجهاز العصبي دفعة واحدة. لم يكن العدوي مُحترفًا، ولعله لم يستخدم سلاحًا ناريًّا قبل هذا اليوم، لكن المُحَقَّق أنه أحسن استغلاله لأقصى حد، فلم يتوقَّف عن إطلاق النار على رأس ابنه حتى فَرَغ سلاحه من الطلقات. ولأن الشيفورليه نصف النقل ليست ملكًا له، ولا يمكن ربطه بها بأي حال من الأحوال، فقد هَجَر العدوي السيارة والجثتين داخلها وفر.

وبعد أربعة أيام من كارثة مصانع «عبد الهادي» كشفت وزارة الصحة هوية خمسين ضحية من ضحايا الحريق، بينما تعذَّر تحديد رقم دقيق للقتلى لأن بقايا الجثث المُتفحِّمة تجعل الحصر عملية عسيرة. وأعلن وزير الصحة رسميًّا مقتل رجل الأعمال الشهير عاصم عبد الهادي في الحريق.

ثم بدأت نيابة البساتين في التحقيق في واقعة العثور على جثتين داخل سيارة شيفورليه نصف نقل في منطقة عرب المعادي. كشفت التحقيقات أن الأهالي في منطقة عرب المعادي تشكَّكوا في إحدى السيارات المتروكة خلف المركز الأوليمبي، بعد أن انبعثت منها رائحة كريهة، وتُبُيِّن أن بداخلها جثَّتين متحللتين. الجثَّة الأولى لرجلٍ في الخامسة والعشرين تلقى ست رصاصات في مؤخرة العنق والرأس، ويُدعَى الشوبكي سيِّد العدوي، وشهرته «النونو»، عاطل ومُسجَّل خطر. الجثَّة الثانية لرجلٍ يُدعَى حسين حربي الجارحي، ضابط شرطة سابق. الجثَّة متفسِّخة ومشوَّهة وعليها آثار تعذيب شديد. أجرت النيابة العامة مناظرة للجثتين، وتُبُيِّن أن الوفاتين حدثتا في وقت واحد تقريبًا، ومرَّ عليهما ما يزيد عن خمسة عشر يومًا داخل السيارة، ما أدى إلى تحلُّلهما وانبعاث رائحة كريهة. قرَّرت النيابة نقل الجثَّتين إلى المشرحة وطلبت تحريَّات المباحث النهائية حول الواقعة، وتحفَّظت على السيارة وقرَّرت الاستعلام عن صاحبها من إدارة المرور. ومن المُقرَّر أن تستدعي النيابة والد الشوبكي لسماع أقواله وفحص علاقات المجني عليهما، وتكثِّف الشرطة تحريَّاتها للوصول إلى مرتكب الجريمة وضبطه.

ثم أصدرت النيابة قرارًا بضبط وإحضار سيِّد إسماعيل العدوي المحامي، بعد أن تضافرت ضده الأدلة. توجهت قوَّة من المباحث الجنائية إلى فيلا العدوي بالتجمُّع الخامس في الثانية من صباح الأربعاء، ولم يتم العثور عليه، وتكثِّف الشرطة جهودها لإلقاء القبض عليه، فيما وُضع اسمه في قوائم الممنوعين من السفر. يواجه العدوي تهمة القتل العمد لابنه الشبكي الشهير بالنونو، ولحسين الجارحي.

على جانب آخر، عقد كبار عائلة الجارحي اجتماعًا في فيلا عزيز الشهاوي لبحث تداعيات مقتل عاصم عبد الهادي وحسين الجارحي، وفشل محاولات استعادة شحنة المخدرات الضخمة التي يشتركون فيها جميعًا، ويتحمَّلون مسؤولية توزيعها. كان اجتماعًا عاصفًا، وصلت فيه الانقسامات إلى ذروتها، فتلاسنوا ومشوا على عادتهم في

الفحش والجهالة، ولهم في هذا عذر، لأن المصيبة صعبة تتناهى إلى نهاية الصعوبة. لم يكن أمامهم إلا جمع نقودهم وتصفية ما يملكون لرد قيمة الشحنة وما عليهم من ضمانات وتعويضات للشركاء الأجانب في الصفقة. على الرَّغْمِ مما سيترتب على هذه الخطوة من إفلاس شبه تام وضياع شقاء أعمارهم، لكنَّهم سلَّموا جدلًا بأنهم سيتمكنون من جمع النقود ورد الحقوق (بمعناها الاصطلاحي) لأصحابها. هل يكفي هذا لاتقاء شر شركائهم وضمان أمنهم وأمن أهلهم؟ قطعًا لا. نتيجة توصَّلوا إليها ولم توافق مرادهم، لكنَّهم علموا أنها الحقيقة. أما خيار الصدام والمقاومة بالرجال فهو فوق طاقاتهم جميعًا. انفض الاجتماع وانصرفوا واجمين وقد علموا أن العقوبة وقعت عليهم، وأن حسين الجارحي على عداوته لهم كان الدعامة الأخيرة التي تحفظ للعائلة كيانها، وأنه برحيله انتهت العائلة. واجتمعوا دون اتفاق معلن على حل واحد: الاختفاء.

وحملت الأيام التالية مزيدًا من الإحباط والفوضى إذ يحاول كبار العائلة توفيق أوضاعهم والاختفاء قبل أن تصيبهم القارعة، وبدأت تتكشَّف للكل حقيقة الوضع الذي تردَّت فيه العائلة، وبدأت النهاية تتكشَّف بجلاء. كان الجميع غضبى، ومُحبطون، وبات واضحًا أنَّهم وإن كان في مقدورهم الاختباء، فإنه ليس في مقدورهم الاختفاء. هل أملوا أن "يُتركوا وشأنهم"؟ طبعًا. إن من شأن الأفهام المريضة والقلوب الغُلف السبَّاحة في عوالم الأحلام والأوهام، والركون إلى الرخاوة والكسل، بل وحُسن الظن بالعدو.

تمنَّى كل واحد منهم وهو يلملم ما غلى ثمنه وخف حمله من أمواله وأولاده ورجاله أن يتركهم الشركاء وشأنهم، وكأنها شحنةٌ من الهواء يمكن تعويضها بلا خسائر، ولم يحاولوا حتى دفع الأذى بالمال.. على الأقل دفع التعويضات المالية! تداخل فيهم الهَبَل مع البُخل والتهافت على زهرة الدنيا، وجمعوا الحماقة من أطرافها، وفرّوا كمثل من يدفن رأسه في الرمال.

ما لم يعلمه أحدٌ منهم أن اجتماعهم جاء متأخرًا جدًا، لأنه في اليوم السابق للاجتماع، وصلت في الساعة الثانية عشرة ظهرًا لمطار القاهرة الدولي الرحلة «آي إيه ١٠١» التابعة للخطوط الجوية العراقية، القادمة من مطار بغداد الدولي، وعلى متنها خمسة عراقيون ينتمون لميليشيات عدنان الحارث، وشهرته «أبو ترس». معروف عن أبي ترس أنه يقود ميليشيا مُسلَّحة تقوم بأعمال إجرامية في العراق. يرتدي أفرادها

ملابس قوات الشرطة العراقية، ويتجوّلون في سيارات نقل خفيفة مُجهّزة بأسلحة رشاشة، ويقومون بأعمال القتل الطائفي والتفجيرات العشوائية والتخريب والسلب والنهب، وتجارة الخمور والمخدرات والجواري والغلمان. أبو ترس من أكبر الشركاء الأجانب في شحنة المخدرات الضخمة، وهو يُمثِّل واجهة لأطراف إيرانية تستغل حالة الانفلات الأمني المستمرة في العراق لتمرير المخدرات من إيران وأفغانستان وباكستان باتجاه الخليج العربي والجزيرة العربية ودول حوض البحر الأبيض المتوسط وإلى أوروبا. وهؤلاء الخمسة هم آخر مجموعة تصل للقاهرة للتحري عن الشحنة وتأديب رجال العائلة. وصل عددهم لعشرين رجلًا يقيمون في فيلا نائية بمدينة السادس من أكتوبر.

خلال تلك الفترة اجتاحت البلاد سلسلة من الاغتيالات العنيفة، اكتشفتها الشرطة تباعًا، ولم تثر تلك الجرائم على الرّغمِ من طابعها الدموي ضجّةً تُذكر؛ لأنها حدثت كل على حدة، وتاهت في خِضَم جرائم أخرى كثيرة تحدث بشكل اعتيادي، وتعوَّد عليها المجتمع المصري نتيجة ارتفاع معدلات الجريمة عمومًا.

وفي نفس الليلة التي أنهى فيها العدوي ترتيباته على أفضل ما يكون، وتجهّز للذهاب لمطار القاهرة الدولي بجواز سفر مُزَوَّر دفع فيه ثروةً طائلة، فاجأه بعض اللصوص في شقّته بإمبابة. ظنّهم في البداية لصوصًا، لكنّهم كشفوا له هوياتهم العراقية. مرَّت أيام قبل أن يعثر جيرانه على جثته في حالة سيئة، وعليها آثار تعذيب شديد.

وتتابعت بعد ذلك عمليات الاغتيال والقتل الجماعي لكل من عُرف من أفراد عائلة الجارحي. تتبّعهم القتلة في أرجاء مصر، وكانوا مُسلحين بذخيرة من البيانات غطَّت أماكن تواجدهم وتحرّكاتهم. وخلال أيام معدودات قُتل كل الكبار. اكتسبت الجرائم طابعًا تنكيليًّا غليظًا، واستخدمت أدوات كهربية حادة لتعذيب الضحايا، وكان من ضمن من قُتل:

محمد مكاوي الجارحي وبناته الخمس بقرية كوم إسفحت على الضفة الغربية من النيل بمحافظة أسيوط.

مرزوق الطويل الجارحي وعائلته في منزل بقريه كردوس التابعة لمركز صدفا بمحافظة أسيوط.

بدري الجارحي وخمسة من رجاله في ساحة منزل بمنطقة نائية قرب نجع الأمير هرماس قبلي بمركز ساقلتة التابع لمحافظة سوهاج.

أما أغرب الحوادث فكانت من نصيب عزيز الشهاوي:

كان قد اختبأ مع ابنه مكادي في شارع فيصل بحي الهرم، في منطقة الكوم الأخضر. اختار شقةً بالطابق العاشر في بناية عالية مُطلة على الشارع الرئيسي. عارض مكادي هذه الفكرة أشد المعارضة، لأن الاختباء في أعماق الصعيد وإن كان متوقعًا، إلا أنه آمن وأضمن من الاختباء في واحدٍ من أزحم شوارع الجيزة، فالصعيد مُتَّسع، وقُراه كثيرة. لكن الشهاوي ركب ما دعاه إليه عقله من التدبير، وأصر على فكرته، فقبل مكادي مُضطرًا.

مشت بهم الأيام على حالٍ من الرتابة والسلام، ولم يغادر الشهاوي الشقة قط، فيما اعتاد مكادي أن يغادر كل يومين في منتصف الليل للتسوُّق (وهو الميعاد الذي يبدأ فيه أبوه التحضير للعشاء؛ لأنه على الرَّغمِ من عمق البليَّة وشدة الخطر المُحدق بهم، ما تزال شهوة الطعام مستبدة به). يشتري مكادي اللحم الطازج، ويبعثه لأبيه مع غلام موثوق به، ويكمل هو شراء بقية حاجيات العشاء بينما يعد أبوه اللحم.

في هذا اليوم صعد الغلام بكيسٍ أسودٍ كبير كالعادة، ففتح له الشهاوي وأخذ الكيس متلهِّفًا، ولم ينتبه للتغيُّر البادي على وجه الصبي. فضَّ الشهاوي الكيس في المطبخ، ووجد أعلاه قطعةً كبيرةً من الكبد، أسفلها أكياس أخرى بها بقية اللحم والدجاج وخلافه. ابتهج الشهواي لأنه كان مشتاقًا للضأن، فقام بتقطيع كبد الخروف وقليه، وأكل قسمًا كبيرًا بالخبز والبهار. ارتاح قليلًا ثم عاد للكيس الكبير لإخراج اللحم وترتيبه في المُجمِّد (الفريزر)، فوجد رأس مكادي في قعر الكيس غارقًا في الدم، وعليه ورقة مُغَلَّفة بالبلاستيك مكتوب عليها الرسالة الآتية: «ألف عافية أكلت كبد مكادي». لم يتحمَّل الشهاوي الصدمة، واستطاع التسلُّق على كرسيه المتحرِّك، وألقى بنفسه من شرفة شقَّته بالطابق العاشر.

غادرت سَحَر سعيد عبد الباري القاهرة متَّجهة إلى إمارة دبيّ، في نفس اليوم الذي تركت فيه حسين الجارحي فريسة لعاصم ورجاله. لم يكن نصيبها من شحنة المخدرات

مَحسوبًا عليها كفردٍ من عائلة الجارحي، بل شاركت فيها بشكلٍ مستقل، لذلك لم توضع في قائمة الاغتيالات. علاوة على هذا، زَوَّدت سَحَر من تعرف من الشركاء الأجانب بمعلومات كاملة عن عائلة الجارحي، ما يَسَّر على جماعة أبي ترس الوصول لمخابئ كبار الجارحية، خاصة أنهم لجأوا لعقارات ملك لهم في الأساس. المُحقَّق أن سَحَر لم ولن تدخل البلاد مرةً أخرى.

فور أن بلغها خبري حريق مصانع «عبد الهادي»، والعثور على جثة حسين الجارحي، حتى أصابتها ما يشبه هجمة الرعب، فزلزلت من داخلها زلزالًا، وأحَسَّت بخطر ماحق يتهدَّدها، فعزمت على الرحيل فورًا. وفي جناحها الخاص بالدرجة الأولى، في الطائرة التابعة للخطوط الجوية الإماراتية المتَّجهة إلى مطار «جون إف كينيدي» الدولي، جلست سَحَر تفكر في الأمس، وفي الغد.. وما بعد الغد.

نظرت من النافذة إلى الأفق المُلبَّد بالغيوم والأفكار والمشاعر تفور في عقلها استجابةً لصدمةٍ كانت تتوقَّعها، ولم تحتملها. تسرَّبت تبعات عملها المُفجع وخيانتها العظمى في جسمها ودمها كالسم الزعاف، وأظلمت عليها الدنيا من أرجائها. صار اسمها في نفسها مرادفًا للغدر، ووجها صورة للتفريط والجحود. نعم، كانت لوعة الفراق وحُرقة الخيانة تستعر في قلبها، لكن هل شعرت بالندم؟ كلا! إنها تَعْلم أن من ميزاتها الشخصية التخطيط للمستقبل ورؤية المصالح بناءً على معطياتٍ سابقة، واعتمادًا على مستجدات حاضرة، وتوقُّعًا لمتغيرات قد تلوح في الأفق. وتَعْلم أيضًا أن الحافز الأصلي لأي حركة لها في الحياة هو تحقيق المنفعة لنفسها. ليس بالضرورة أن تكون هذه المنفعة شيئًا منظورًا، بل قد تكون شعورًا داخليًّا بالارتياح أو الرضى، كالذي يكتسبه المستهلك من جراء استهلاكه سلعة يرغب فيها.

هكذا الدنيا بالنسبة لها، بما فيها من جمادٍ وحيوانٍ وبشر.. مجرَّد سلع تتوقَّف قيمتها على مدى الإشباع النفسي الذي تحققه لها، بقطع النظر عن أي مفاهيم أخلاقية أو قيم عامة أو أحكام شخصية. بمقتضي هذه القيمة -قيمة المنفعة- عَرَضت نفسها على حسين الجارحي، وبمقتضى قيمة المنفعة أيضًا باعته بلا تردد!

لقد حاولت سَحَر الاستفادة من التناغم البيولوجي والكيميائي الحاصل بينها وبين

حسين للحصول على حياةٍ ظاهرها الاحترام والاستقرار، تقوم فيها بدور الزوجة، وربما أيضًا.. الأم! أمل بعيد! لكنَّه ما أن رفضها، حتى تغيَّرت طبيعة «السلعة»، ومعها تغيَّرت قيمة المنفعة، فأصبح حسين خطرًا وعائقًا ينبغي التخلُّص منه. أخذت سَحَر موقفًا مُتجنِّبًا للمخاطرة، فسلَّمت حسين لأعدائه، وافتدت نفسها به، وأخرجته من نور الدنيا لظلمات الحَبْس. ثم ليت الأمر وقف على حبسه، وقتله، بل إنه لمَّا مات لم ينل حتى تكريم الدفن، فتفسَّخ بدنه، واطَّلع الناس منه على ما تعافه النفس وتستقبحه، فنزل حاله من إنسان مُكرَّم إلى رُمَّة مستقذرة.

ثم ذهب ذهنها إلى أسباب وقوع ما حدث. ما أعجب كبار هذه العائلة! كانوا جميعًا بعد موت جوهر الجارحي في كفاحٍ مريرٍ للحفاظ على أنفسهم وتجارتهم. ثم في حربٍ ضرُوس مع حسين الجارحي، وهو خصم شديدٌ مُهلِكٌ شرس الطبائع، كمراهق أحمق أوتي من أسباب القوَّة والجبروت ما يفوق قدرته على التفكير والتدبير، فطغى وتجبَّر بحمقٍ وغَشامة، وجهِلَ وأخطأ وأفسد. ثم إنه مات، وكان موته كموت جوهر الجارحي: نكبة فادحة تفوق طاقاتهم مجتمعين.

لقد أسَّس جوهر الجارحي إمبراطوريَّته على أساسٍ متين من الإمكانات والمواهب الفردية، ورصيدٍ من النجاح المهني والخبرة الذاتية، ومن ثم نجح في تحقيق حلمه، وبَسَطَ سيطرته على أدوات ذلك الحلم وموارده. أما حسين، فافتقد كل مقوِّمات القيادة، واستخدم سلاحين للسيطرة على خصومه: سلاح البلطجة، وسلاح السرقة، فكان ما كان من البلطجة المضادة، والسرقة المضادة. ولو أنه أحسن استخدام سلاحي البلطجة والسرقة لنجح في بسط سيطرته، لأنه في نهاية المطاف يحارب خصومًا قال عنهم جَدُّه: إنهم ككلاب العرب، لا ينبحون إلا وذيولهم في الخيام، دلالة على الجبن المُتأصِّل فيهم، إذ لا يُقدِمُون على أمرٍ إلا وهم في مأمنٍ تام من عواقبه.

تمكَّنت منه الأوهام، وغرَّته الأماني، ثم إنه سقط سقوطًا ساحقًا بالزنا، الذي هو فتنته الكبرى وخصلته الفاحشة. بسببه انتكست فطرته، وطُمست بصيرته، وضَعُف عقله، ثم هوى إلى ما هو أسوأ من الموت، فخُسف به في دهاليز الآلام، وجُمعت عليه صنوفٌ من العذاب، ثم وَطِئَهُ الرجال فقُتل قتلًا معنويًّا لا حياة بعده.

رغمًا عن غِلظةِ الطَّبع ومَوَات القلب، طَأْطَأت سَحَر رَأسَها، وخفضت عينيها بكآبة. ربَّما أحسَّت بانْكِسَارٍ في نفسها، بسبب حزنٍ أو هَمٍّ. ربما أرادت أن تذرف عيناها دمعةً أو دمعتين، أو حتى أن تتباكى كالتماسيح رياءً. ربما تمنَّت أن تشعر بالندم حقًّا وصدقًا.. ياله من حبيبٍ مسكين.. كانت حياته مأساة، وموته مأساة.. كان حلمه كبيرًا في مقياسه، خسيسًا في مضمونه، لكنَّه ضاق ذرعًا به، وإن الأحلام تضيق ذرعًا بأصحابها إن هُم ضاقوا بها ذرعًا.

أنهيت هذة الرواية فى صيف عام ٢٠٠٧ , واكتفيت منها بمتعة شاقة استمرت أكثر من عامين , حيث اكتملت بين يدىّ , فحبستها فى الأدراج متثاقلاً عن أى إجراء آخر, وعازفاً عن نشرها , حتى دفعتنى زوجتى دفعاً بعد أربع سنوات كاملة كى أخرجها من تحت التراب , وكافح معى ناشرى كفاحاً – لعام كامل – كى تخرج إلى الوجود , فإليهما أوجه خالص شكرى وتقديرى كذلك أتوجه بالشكر للروائيَيْن أشرف العشماوى والمهندس هشام الخشن على صبرهما وكرمهما ونصحهما , ثم لشقيقى كريم , وأخوَاى فى الله ممدوح مصطفى وهيثم محمود

النمروذ

بمرور الأشهر والسنوات، أصيب الشاب بفتور تجاه المؤثرات المحيطة، واستعلاء تام على الإحساس بمعاناة الآخرين. لم يعد ثمّة شيء يستحثه أو يدهشه أو يخيفه. انعزل عن العالم المحيط في كبسولة محكمة، لم يعد يسمع فيها إلا صوت أنفاسه قادمة من بعيد، عبر مواسير طويلة، بتردد عميق وبطئ. مضى في حياته ينقرها نقر الغراب، ويتلفت فيها التفافة الثعلب إذ يعلم أنه مُطارد، وخاض حالة ممتدة من المناورات الخطيرة والتركيز الشديد وضبط العواطف، متحريًا الحذر في كل أحواله، مراقبًا الناس في سره وعلانيته، محاسبا نفسه علي السقطة واللقطة. أعوام مرّت عليه في حصر وضغط، فصار يُحدّث نفسه كل ليلة: "كل يوم قضيته طليقًا، هو يوم غلبتهم فيه. كل وجبة طيبة أكلتها، هي وجبة لم ينتزعها مني أحد. كل نفس استخلصته من الهواء، هو نصر سلبته من الدنيا."

تصميم الغلاف: أحمد مراد   الغلاف الأمامي ريشة: أحمد صلاح سادق

9 789776 376410